د. عبد العزيز فيلالي

تلمسان في العهد الزياني



الجزء الأول

ENAG / EDITIONS

01 11 01 / 02

ردمك 2 - 247 62 9961
الإيداع القانوني 02 / 341

الدكتور عبد العزيز فيلالي

تلمسان في العهد الزياني

(دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)

الجزء الأول

موفم للنشر

الإهـــداء :

إلى البراعم الباسمة رمز الأمل المشرق

إلى أولادي :

منى

هدى

سناء

عصام

محمد الحسام

فايدة خاتمة العنقود

أهدي هذا الجهد الفكري المتواضع

بسم الله الرحمٰن الرَّحيم

المقدمة

لا شك أن مدينة تلمسان، كان لها تأثير سياسي وحضاري، واسع النطاق خلال العهد الزياني، الذي تطورت فيه سياسيا ونمت عمرانيا، وانتعشت اقتصاديا وازدهرت فكريا، وخاصة حينها تغلبت على فترات الضعف والهيمنة الأجنبية، التي أصابتها من حملات الجارة الشرقية والجارة الغربية.

فقد اكتسب المجتمع التلمساني، ثقافة واسعة ورقيا حضاريا أخرجته من طور البداوة الى طور الحضارة، فأعطى بمختلف عناصره أهمية كبيرة للحياة الإجتماعية ومظاهرها، وللحركة الفكرية والثقافية، ونشر المعرفة وتعميقها بواسطة التعليم، وبفضل الرحلة والاحتكاك بالعلماء الوافدين، تغذت الحركة الفكرية بتلمسان، برافدين هامين، رافد الأندلس ورافد المشرق[1]. فضلا عن الجهاز العلمي والتربوي التلمساني المحلي، فتضاعف التحصيل وتعمق الاقتباس، وتوسعت التيارات الفكرية المتعددة، في عقول النخبة من أهل تلمسان. فكثرت المجادلات والمناظرات الشفوية والمكتوبة، بين علماء تلمسان وغيرهم، فتطورت العلوم النقلية والعقلية، وبرز فيها علماء تلمسانيين تميزوا بعمق التفكير، وغزارة التحصيل، فكانت لهم مساهمات جادة في النهضة العلمية، والحركة الفكرية في حواضر المغرب والأندلس والمشرق.

وعلى الرغم من حيوية الموضوع وأهميته، والأدوار البارزة التي لعبتها مدينة تلمسان، وأهلها في الميادين المختلفة، فترة زمنية زادت عن ثلاثة قرون، فإنه لم يحظ بعناية الباحثين ودراسته دراسة مستقلة، كما حظيت به عواصم الغرب الإسلامي، باستثناء بعض المقالات والكتب والرسائل الجامعية، وهي دراسات تركزت في عمومها على التاريخ السياسي والعسكري[2]، للدولة الزيانية

بمجالها الجغرافي الواسع ، بينما لم تنل مدينة تلمسان ، حقها من البحث الأكاديمي ، ولهذا يمكن اعتبار موضوع بحثي محاولة جديدة في هذا المضمار.

ومهما يكن من أمر، فلا أريد الحديث عن صعوبة المهمة ، وإنما يمكن التعرض الى مشكلة تواجه كل باحث ، يقتحم أغوار التاريخ الحضاري ، للمغرب الإسلامي ، في العصر الوسيط ، وهي الفراغ الملحوظ ، في المصادر المونوغرافيا التي تهتم بتاريخ بني زيان ومدنهم ، ولا سيما عندما يحاول الحفر، في البنى الإجتماعية وفي النسيج العمراني ، والحركة الفكرية والثقافية ومؤسساتها ، وتزداد الصعوبة تفاقما ، كلما تصدى لمعالجة الجوانب الحضارية للمدن المغربية عامة ، ومدينة تلمسان على وجه الخصوص ، لأنها لم ترد في الكتب التقليدية (الاسطوغرافيا) إلا بكيفية محتشمة ، باستثناء القليل منها ، حملت عناوين لبعض المدن ، وحتى المعلومات التي وردت فيها ، متناثرة وغير منسجمة ، ولهذا توجهنا الى مصادر أخرى غير تاريخية لا تقل عنها أهمية عرفت بالمصادر الدفينة ، المتمثلة في كتب الجغرافية والرحلات ، والموسوعات وكتب النوازل [3]، وأحكام السوق (الحسبة) [4]، وغيرها من كتب التراث الفقهي ، التي عالج فيها أصحابها مواضيع شرعية ، متنوعة تفاوتت حظوظها ، من حيث القيمة التاريخية والعلمية ، وما تضمنته من حيث القيمة التاريخية والعلمية ، وما تضمنته من معلومات اجتماعية وثقافية وعمرانية ، تلقي الضوء على أكثر من جانب ، من حياة المجتمع المديني ، فضلا عن المجاميع وكتب التصوف ، ومصنفات الأدب وكتب الطبقات ، والمناقب ، والأنساب ، والمراسلات ، والمعاهدات والظهائر [5]، إن مؤلفي هذا النوع من المصنفات لم يكونوا في الغالب «مؤرخي البلاط» ، ومن ثمة يمكن الإطمئنان الى رواياتهم ، التي تكون أكثر توثيقية ومصداقية ، مع أخذ الحيطة والحذر، من بعضها مثل كتب المناقب والتصوف ، لما تتسم به أحيانا من مبالغات وأساطير، أو ما تتدخل فيه بعض المواقف والاعتبارات .

والظاهر أنه الى عهد قريب ، كانت هذه المصنفات الفقهية مهملة أو منسية ، لأن الدارسين كانوا يعتبرونها مصادر جافة ، بعيدة كل البعد عن التاريخ ، ويظنون أنها تعكس بنية اجتماعية بطيئة التطور، إلى أن تفطن لها الباحثون لما تحمل في طياتها ، من بعد تاريخي وحضاري هام ، ولهذا يمكن اعتبار هذه المصنفات الفقهية من المصادر الهامة ، التي ترقى الى الوثيقة التاريخية ، شريطة أن يوفر لها الباحث أدوات منهجية ، يطوع بها النص الفقهي ليصبح نصا تاريخيا .

والحقيقة أنني ترددت كثيرا، في بداية الطريق وخشيت من مغبة ركوب صعاب هذا الموضوع وخوض غماره، لطوله وتشعبه وقلة مصادره، وظننت أن تصرفني قلة المادة عن استيفاء جوانب البحث، واماطة اللثام عن جميع مراحله وأبعاده، وعلى الرغم من هذه الشكوك فقد عزمت على البحث والتنقيب، وجمع المادة عن المجتمع التلمساني ومدينته، من بطون الكتب المختلفة، ومن ثنايا المصنفات العديدة، التي تمكنت من الاطلاع عليها في المكتبات العامة، في كل من الجزائر، ومصر، وتونس، والمغرب الأقصى، وفرنسا، واسعفني الحظ عندما عثرت على مخطوط قيم [6] بالرباط، لأبي عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني، الشهير بالخطيب (ت 781/1379م)، يحتوي على معلومات دقيقة ونادرة في المجال السياسي والحضاري والعمراني، للمجتمع التلمساني خاصة والمغرب الكبير على وجه العموم، خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، عند ذلك ظفرت ببغيتي ووجدت فيها طلبتي، لما تحتويه من مادة تاريخية غزيرة ومعلومات مكنتني، من إضافات جديدة في التاريخ الحضاري والسياسي والعمراني لمدينة تلمسان، خلال العهد الزياني، وتصحيح كثير في القضايا التاريخية التي وردت في بعض المصادر القديمة والمراجع الحديثة، فكان اعتمادي عليه مكثفا.

وحاولت في دراستي هذه، أن اتبع المنهج التاريخي من حيث الاعتماد على المصادر الأصلية، وعلى التوثيق والقراءة الفاحصة، بالتركيز على الأحداث الحضارية، واستقراء النصوص، مستخدما في ذلك ما يمكن استخدامه، من مقومات البحث العلمي في صياغة البحث، بالتحليل والإستنباط والنقد والمقارنة، حتى لا يكون مجرد صياغة لفظية لما تردد في المدونات والحوليات القديمة ــ تطبيقا للخطة التي رسمتها منذ البداية، للتعريف بالمظاهر السياسية والثقافية والاجتماعية والعمرانية للمجتمع التلمساني، خلال العهد الزياني، لعلي أسد بهذه الدراسة فجوة لا تزال قائمة في تاريخ هذه المدينة العريقة، وتقديم خدمة متواضعة لتراثنا المغربي الإسلامي المجيد.

الهوامش :

(1) حول هذا الموضوع أنظر : De la primandaie (F.E): le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête française in revue Algeriènne et coloniale T. 3 Juillet décembre 1960.

Marcais (G): la berberie musulmane et l'orient au moyen âge P. 297.

le dialecte arabe parlé à Tlemcen; Paris 1903 P. 207.

Arie (R). l'Espagne musulmane au temps Nassirides PP; 458-4 59.

(2) ظهرت عدة أبحاث ودراسات تتعلق بتاريخ الدولة الزيانية وحضارتها تستحق التنويه :

Barges: histoire des beni Zeyan rois de Tlemcen Paris 1984.

Bel (A) : hisoire des rois de Tlemcen trois, vol. Alger 1913 - 1904.

Marcais (G): Tlemcen Paris 1950.

Dhina (A): le royaume Abdelouadide à l'époque d'Abou Hamou Moussa 1èr et d'Abou Tachfin 1èr. O.P.U Alger 1985.

- Les Etats de l'occident musulman aux 13-15 siècle institutions gouvernementales et administratives O.P.U Alger 1984.

- عبد الحميد حاجيات : أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974 .

- بوزيان الدراجي : تطور نظم الحكم والرسوم في دولة بني زيان (د. د. م)، معهد التاريخ الجزائر 1981 .

- عبد المرضي محمد : دولة بني زيان في المغرب (ماجستير)، دار العلوم القاهرة 1982 .

- طاهر توات : ابن خميس شعره ونثره (ماجستير)، معهد الآداب واللغة العربية تيزي وزو1983 .

- بشارى بن عميرة : التجارة الخارجية للمغرب الأوسط في عهد الدولة الزيانية (ماجستير)، معهد التاريخ الجزائر 1987 .

- الأخضر عبدلي : مملكة تلمسان في عهد بني زيان (شهادة التعمق في البحث)، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية تونس 1987 .

- مختار الحسني : الحياة الإقتصادية والإجتماعية في الدولة الزيانية (ماجستير)، معهد التاريخ الجزائر / 1987 .

- اسعيدان عليوان : محمد بن يوسف السنوسي، وشرحه لمختصره في المنطق (دراسة وتحقيق)، ماجستير، معهد الفلسفة الجزائر1987 .

- أحمد عبد القادر قريشي : الحياة الأدبية في تلمسان في القرن 14/8 (ماجستير)، كلية الآداب، جامعة الأردن1988 .

- نور الدين بوحلاسة : الشعر الزياني (633ـ962 هـ) ماجستير معهد الآداب واللغة العربية جامعة قسنطينة 1989 .

(3) أنظر في هذا الصدد ما كتبه بنمير عمر: النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة البادية بالمغرب الوسيط (القرن8ـ9 هـ 14/ـ15 م) د. د. م كلية الآداب الرباط 1989 ص4.

(4) النوازل والأجوبة يطلق عليها في المشرق كتب الفتاوي وفي تونس كتب المسائل وكتب الوثائق تعني كتب الشروط وكتب الحوادث تعني كتب البدع .

(5) يبدو أن أول من استعمل كتب النوازل الفقهية كمصادر للتاريخ واهتم بها هم المستشرقون ربما لأنهم كانوا يعتمدون على المصادر الدينية المسيحية في كتابة تاريخهم وفهم الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية التي عرفها العالم المسيحي في العصر الوسيط الذي كان يطغى عليه الجانب الديني وقد أشار ليفي بروفنسال في كتابه : Histoire de l'Espagne musulmane 3 vols. Paris 1950 إلى أهمية دراسة كتب النوازل وصدرت بباريس دراستان لأميل عمار في عامي 1908 ـ 1909 في مجموعة الأرشيف المغربي: Emile Amar : Archives Marocaines A partit de l'ed. litho du Miyar vols. 12 et 13 1908 - 1909 تناول فيها مختارات من فتاوي الونشريسي في المعيار واعتمد Brushving في كتابه La berberie orientale sous les hafsides des origines à la fin du 15 siècle 2 vols Paris 1947:

على النوازل الفقهية في إنجاز هذا الكتاب القيم.

واهتم الهادي روجي ادريس بالنوازل في دراسته للزيريين

Idris (H.R) : la berberie orientale sous les Zirids (10- 12) siècle Paris 1962.

وكذلك استعمل هذه المصادر الفقهية في دراساته الباحث جاك بيرك في كتابه:

Les Nawwazils al Muzaraa d'aprés le Miyar Eljadid 1938.

وبدأت مجموعة من الباحثين في كل من تونس والرباط في العقود الثلاثة الأخيرة تولي عناية خاصة بكتب النوازل ودراستها في إطار إعداد رسائل جامعية نذكر منهم على سبيل المثال فقط:

محمد مزين، اعتمد في أطروحته على نوازل الونشريسي ونوازل الزياني في دراسته للبنية الإقتصادية والإجتماعية والفكرية في النصف الشمالي للمغرب وناقش عبد العزيز خلوق التمسماني دكتوراه الطور الثالث بفرنسا في موضوع «جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والأحكام للبرزلي». واعتمد سعيد غراب في مقاله: «كتب الفتاوي وقيمتها الإجتماعية» مثال نوازل البرزلي على كتب الفتاوي نشر بالحوليات التونسية واعتمد على النوازل كل من محمد حجي، وعبد الله العروي ومحمد المنوني وأحمد التوفيق ومحمد الهادي بن سعيد ومحمد الحسن، أنظر: محمد مزين: التاريخ المغربي ومشاكل المصادر، نموذج النوازل الفقهية مجلة كلية الآداب فاس عدد خاص دراسات في تاريخ المغرب (2) 1985 ص 103 وما بعدها. بنميرة عمر: المرجع السابق، ص4 وما بعدها.

(6) أود بهذه المناسبة أن أشكر الأستاذ مصطفى ناجي صاحب دار التراث بالرباط الذي تكرم بتنبيهي الى وجود مخطوطتين الأولى تتعلق بتاريخ أسرة ابن مرزوق التلمسانية والثانية بأسرة المقري التلمسانية وقد تمكنت من العثور على الأولى بمساعدة الأستاذ الكبير محمد المنوني أما الثانية فلم أتمكن من ذلك رغم سفري إلى خزانة ابن عبد الجبار بمدينة فكيك (فجيج) في الجنوب الشرقي للمغرب الأقصى على الحدود الجزائرية.

الباب الأول
الأوضاع الداخلية للدولة الزيانية

الفصل الأول
قيام الدولة ودور القبائل في تدعيمها

633ـ707هـ/1235ـ1307م

1 ـ قيام دولة بني زيان .

2 ـ دور القبائل في قيامها .

أ ـ دور القبائل البربرية .

ب ـ دور القبائل العربية .

3 ـ يغمراسن مؤسس الدولة .

4 ـ غزوات بني مرين والحصار الطويل .

الأوضاع الداخلية للدولة الزيانية

قيام دولة بني عبد الواد أو بني زيان :

لا شك أن الحديث عن ظهور دولة بني عبد الواد أو بني زيان وقيامها ، يدعونا الى الوقوف عند العوامل التي ساعدت على سقوط الدولة الموحدية واضمحلالها ، بتركيز شديد .

فقد استطاعت هذه الدولة أن تحافظ ، على استمرارية وحدة ترابها الممتد من برقة شرقا الى المحيط الأطلسي غربا ، ومن البحر المتوسط والأندلس شمالا الى الصحراء جنوبا ، تحت نظامي اداري مركزي موحدي [1].

ولعل لهذه الفترة الزمنية ، أهميتها على الصعيد المغربي والأندلسي لأن الدولة الموحدية ، أصبحت تمثل قوة سياسية فاعلة وقوة عسكرية ضاربة ، في غرب البحر الأبيض المتوسط ، في الوقت الذي كان فيه ، العالم الإسلامي يعاني من وطأة الحرب الصليبية المدمرة ، والهجوم المغولي الكاسح والإسترداد الإسباني المطرد[2].

فقد كان الموحدون ، في ذلك الوقت حماة دار الإسلام في بلاد المغرب والأندلس ساهموا في رد العدوان الصليبي ، على بيت المقدس ، إلى جانب إخوانهم في الدين من أهل المشرق ، بجيوشهم ، البرية ، وأساطيلهم البحرية[3]، إلا أنه في مطلع القرن السابع الهجري ، الثالث عشر ميلادي ، بدأت الأوضاع داخل الدولة الموحدية تتغير والأمور تتبدل على الساحة المغربية والأندلسية ، بسبب عوامل الضعف والتفكك الذي أصاب الموحدين ، ولا سيما بعد معركة «العقاب» المشؤومة في الأندلس سنة 609 هـ/1212م [4].

ثم تلتها أزمة أخرى ، وهي الثورة التي قام بها بنو غانية [5] فضلا عن الحروب المتكررة ، التي كانت تنشب ، بين بني مرين والموحدين ، وخاصة منها هزيمة سنة

612 هـ/ 1216م، أي بعد ثلاث سنوات فقط من هزيمة معركة العقاب المشهورة عند الإسبان باسم، "Las navas de TO LOSA".

فكانت هذه الهزائم المتتالية للموحدين، سببا في ضعفهم، وضياع هيبتهم، أمام تطلعات القبائل الكبيرة وطموحاتها، ولم تلبث أن ظهرت خلال هذه الظروف الصعبة مواقف جديدة للخليفة المأمون الموحدي (624 ـ 630 هـ/ 1215 ـ 1221) أذكت نار الأزمة في القصر الموحدي بتجرئه على الإساءة إلى مبادىء المذهب الموحدي، فتحدى بذلك شعور شيوخهم وأعيانهم، ولم تنته هذه المشكلة إلا بخلعه ووفاته سنة 630 هـ/ 1221[6].

ففي خضم هذه الأحداث الكبيرة برز الحفصيون وهم فرع من الموحدين من هنتانة ونجحوا في تأسيس دولتهم في الجزء الشرقي للدولة وجعلوا عاصمتهم مدينة تونس سنة 625/ 1227[7] وتمكن بنوزيان أو بنو عبد الواد من تأسيس دولتهم عام 633 هـ/ 1235م، وكانت عاصمتهم مدينة تلمسان [8] واستطاع بنو الأحمر أن يشيدوا دولتهم بالأندلس سنة 629 هـ/ 1231 واتخذوا من غرناطة قاعدة لهم[9] وأخيرا جاء المرينيون الذين تم على أيديهم القضاء على ما تبقى من نفوذ الموحدين نهائيا سنة 668هـ/1295م. وأسسوا دولة لهم كانت حاضرتها «فاس»[10].

تنتسب دولة بني عبد الواد أو بني زيان الى قبيلة بني عبد الواد [11] إحدى بطون زناتة [12] وكان بنو عبد الواد، يرتادون منطقة الأوراس وينتجعون إقليم زاب قسنطينة [13]. والظاهر أن بني عبد الواد كانوا قد شاركوا في جيش عقبة بن نافع الفهري سنة 62هـ/682م أثناء حملته الثانية المشهورة، بالمغربين الأوسط والأقصى، فقد شملت هذه الحملة أراضيهم في الأوراس، ومعاقلهم في الزاب، لذلك يكون هؤلاء قد انضموا الى جيش عقبة بن نافع وآزروه في حربه وجهاده ضد الحصون البيزنطية، والقبائل البربرية الأخرى، ويكونون قد أبلوا بلاءا حسنا في مهمتهم إلى جانب المسلمين، وهذا في حد ذاته، يدل على أن بني عبد الواد اعتنقوا الإسلام مبكرا[14].

وكان بنو عبد الواد، من القبائل الرحل التي كانت تجوب صحراء المغرب الأوسط، وكانوا ينتجعون المراعي الخصبة، ويترددون على المناطق التي تقع ما بين فجيج ومديونة وجبل راشد [15]، وفي عهد المرابطين انتقل بنو عبد الواد إلى غرب المغرب الأوسط، تحت ضغط الهلاليين، ولما وصل الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي (524 ــ 558/ 1130 ــ 1163) إلى هذه الديار بجيوشه اعترضتهم زناتة، وفي مقدمتهم بنو عبد الواد، فكانت بينهم حروب مشهورة [16] وعلى إثر ذلك

انحاش بنو عبد الواد الى الموحدين انحياشا وأصبحـوا من أخلص قبائل زناتة ولاء لهم، وإنصياعا لأوامرهم، فـاتخذوهم أنصارا وحماة [17]. فكانوا لهم درعـا واقيا ضد المرابطين فنالـوا شرف الحظوة وثقة الخلفاء وودهـم فاطلقوا أيديهم، وأيدي كل مـن بني توجين [18] وبني راشد [19] وغيرهم من بطون زناتة في الأراضي الـواقعة في إقليم وهران، وأحواز مدينة تلمســان، من البطحاء شرقا إلى نهر ملوية غربا [20] مكافأة لموقفهم، ومسـاعدتهم في حروبهم ضد القبائل المعارضـة ومد نفوذهم على بلاد المغـرب الأوسط. فضمن بذلـك بنو عبد الـواد لأنفسهم الإستقرار في هذه السهـول الغنية، ولماشيتهم المراعي الشاسعـة، وصاروا قوة معتبرة في المنطقة، فاتخذهم الموحـدون «أولياء وأنصارا» حسب تعبير صاحب البغية [21].

وعندما ضعفت السلطة المركـزية في مراكش، وتقلص نفوذ الموحدين، أصبـح تأثيرهم ضعيفا على الأقاليـم المغربية، خـاصة على بلاد المغـرب الأوسط، وقد أدى إلى تفـاقم الأمر أيضـا، عدم كفاءة الـولاة الموحديـن، وجهلهم وسـوء سلوكهـم تجاه الرعيـة ورؤساء القبـائل، المنظويـة تحت نفوذهـم، فاثقلوا كـواهلهم بالضرائب البـاهضـة، لا سيما من هـؤلاء الولاة، أبو سعيـد عثمان بن يعقوب، أحد اخوة المأمون ادريس بن يعقوب الموحدي (624 ـ 630 هـ/ 1221 1214). وعامله على مدينة تلمســان وأحوازها، الذي أساء السيرة والتصرف مـع بني عبد الواد وحاول طـردهم من أراضيهم وديارهـم وقام باهانـة وجهائهم وتعذيبهـم وسجنهم [22]، لأنه قليـل الكياسـة ضعيف التدبير [23].

ولم ينقذ الموقـف المتدهور هـذا الا بروز شخصيـة «جابر بـن يوسف» كبير قـوم بني عبـد الواد حينذاك، وظهورها في الـوقت المناسب، فاستطاع ان يضع حـدا لهذه الإستفزازات والتحرشات، التي كان الـوالي يسلكها، ضد قبيلته، فأبعد عنهـم ذلك الخطر المهدد، بفضل مـرونته، وحنكته وكفاءة قيادته وبمواقفه الحاسمة والجريئة ضد الوالي [24]. ولهذا تمسك به بنو عبد الواد، وانتخبوه أميرا عليهم، فـارسل على اثر ذلـك جابر بن يـوسف، الولاء والطـاعة للخليفة المأمـون الموحدي بمراكش، واشتكى له ضمن ذلك من سوء معاملة الوالي وما تعرض له قومه، فعمل الخليفة، على تثبيته حاكما شرعيا على اقليم تلمسان واقليم بني راشد ومدنا أخرى ما عدا مدينة ندرومة [25].

وكان ذلك سنة 627 / 1230 ومنذ ذلك التـاريخ أصبحت تلمسان وإقليمها في يـد بني عبد الواد، وتحت سيطرتهم، وهي المرحلة الأولى، من تأسيس الدولة العبد الوادية، المستقلة و «مطلع

شمسها وفاتحة فرقانها» حسب تعبير صاحب البغية (26). أخذ جابر بن يوسف يدير شؤون الإقليم ويوسع رقعته ويوطد أركانه باخضاع جميع بطون بنـي عبد الواد الذين تخلفوا عن مبايعته، فكانت له معهـا حروب ولا سيما مع أهل نـدرومة الذيـن حاصرهم بقـواته، داخل أسوار المدينـة، وأثناء الحصار، جاءه سهم من خلـف الأسوار فارداه قتيلا سنة 629 هـ/ 1232 م(27) فتولى بعده شؤون تلمسـان والقبيلة ابنـه «الحسن بن جابـر» لكن رئاسته لم تزد عـن ستة أشهر، تنازل بعـدها لعمه، «عثمان بن يوسف» (28)، غير أن عثمان كان فظا غليظـا في سلوكه، فاستبد بـالرأي وأساء السيرة، فعزلوه سنة 631 هـ/ 1234 م(29). وعينوا مكـانه «أبو عـزة زيدان بـن زيان » (30) فالتفت حوله القبائل والبطون، إلا بني مظهر (31) الذين اعترضوا عليه، فنهض اليهم، وحاصرهم وأثناء المعركة سقط زيدان سنة 633هـ/ 1236م، وبمقتله بدأ نفوذ الدولة الموحديـة يتلاشى تدريجيا على اقليم تلمسـان وتـأثيرها يتقلص شيئا فشيئـا، بفضل زعيم الإقليم والقبيلـة الجديد يغمراسن بـن زيان، الذي تولى حكـم الإقليم سنة 633 هـ/ 1236 م(32). وأبقى على الدعاء والخطبـة للموحدين على المنابر التلمسانية وذكر خلفـائهم على الدرهم والدينار(33) وهكذا ظهر بنو عبـد الواد على الساحة السياسية في المغرب الأوسط، وتدرجوا من الإقطاعات والحظوة الى مقاليد السلطة في تلمسـان.

دور القبائل البربرية في قيام الدولة العبد الوادية واستمرارها:

بدأ أبـو يحي يغمراسن مهامـه كحاكم لإقليم تلمســان، وجعل قاعـدته مدينة تلمســان ومقر ادارته سنة 633هـ/ 1236 م (34). في عهد الخليفة الموحدي عبد الواحـد الرشيد بن المأمون (630 ـ 640 هـ/ 1232 ـ 1242) أرسل الى هذا الأخير بعثـة دبلوماسية، تحمـل له الطاعة والـولاء ويذكره يغمراسن بأنه سيسالم من يسالمه، ويعادي من يعاديه(35)، فرد عليه الخليفة بالقبول والرضا فوضع بذلك حـدا لأطماع القبائل المنافسة لـه من زناتة وأبناء عمـومته في المنطقة، وأبعد مـن جهة أخرى أنظار بني حفص أقرباء الموحدين من الشرق وتفـادي تحرش بني مرين وخطرهم من الغرب. فقد كانـت كل واحـدة من الجارتين الحفصيـة والمرينية ترى في نفسهـا بأنها أحـق من غيرهـا، في وراثة ممتلكات الدولة الموحـدية المنهارة، فعالج يغمراسـن هذه القضية بدبلوماسيـة هادئة على الأقل في بداية بناء دولته الفتية «فكان له ذلك سلما الى الملـك، الذي أورثه الى بنيه سائر الأيام» حسب قول صاحب العبر (36).

وإذا كان كل من عبد الله بن ياسين المرابطي والمهدي بن تومرت الموحدي قد اعتمدا في قيام دولتهما على حركة دينية مذهبية فإن يغمراسن قد أعتمد في بناء دولته على قبيلة بني عبد الواد بالدرجة الأولى، ثم استعان ببعض القبائل المغربية والعربية، التي تحالفت معه، ولا سيما منها التي كانت تقيم بالمغرب الأوسط، والتي كانت تربطها بهم علاقة الود والتحالف، وكذلك القبائل التي أخضعها الى طاعته، فالمغرب الأوسط، كان سكانه يتشكلون، من عنصرين أساسين عرب وبربر، ينقسمون الى عدة قبائل وبطون وأفخاذ، لعبت جميعها أدوارا مختلفة ومتميزة في علاقاتها مع بني عبد الواد، وفي سير الأحداث السياسية والعسكرية، والإقتصادية في المغرب الأوسط وتوجيهها حسب المصالح المشتركة أو المصلحة الذاتية للقبيلة.

فكان منها من كانت تكن الود لبني عبد الواد، وتؤدي الولاء والطاعة لهم، وتشارك في تأسيس مجدهم، وتوسيع رقعة دولتهم وكان بعضها يناصبهم العداء، ويتآمر ضدهم، على الرغم من الروابط الدموية، وصلة القرابة، التي تربطهم ببعضهم.

ومن بين القبائل البربرية عامة والزناتية على وجه الخصوص التي ناصبت العداء، وخرجت ضد بني زيان (بني عبد الواد) وتحالفت مع أعدائهم، للإطاحة بعرشهم، في كثير من الأحيان، وخاصة في أوقات الحرج التي تصيب فيها عرش تلمسان بعض الضعف والوهن، وكانت القبائل الأشد كرها لهم من أبناء عمومتهم هي:

قبائل مغرواة[37]، وتوجين وصنهاجة [38]، ومن الذين تذبذبوا في مواقفهم بين مؤيد ومناصر، وبين مخاذل ومعادي، مثل: بني يفرن [39] ومغيلة [40].

أما القبائل، التي ناصرت بني عبد الواد، وآزرتهم، ووقفت الى جانبهم سواء كان ذلك التأييد، عن ولاء خالص، أم نتيجة ضعفها فهي كثيرة نذكر منها: بني واسين [41] أولاد منديل[42]، كومية[43]، بني يلومي [44]، بني مانو [45]. وبني تغرين [46]، وهوارة [47]، وازداجة [48]، وبني ورنيد [49]، ووجديجن [50] وغيرها من القبائل التي كان يتشكل منها مجتمع المغرب الأوسط في عهد الدولة العبد الوادية.

فقد كان أصحاب الحكم في المغرب الأوسط، هم بنو عبد الواد أو بنو زيان، الذين استقروا في المناطق الواقعة بين البطحاء شرقا ونهر ملوية غربا واصبحت أراضيهم تتاخم مواطن، بني توجين في الجنوب، وتحادي ممتلكات مغراوة في الشرق [51] ولعل هذا هو السبب الذي جعل علاقة بني

عبد الـواد بهتين القبيلتين فاترة في عمـومها تتسم بـالبرودة وبالعـداء الشديد في أغلـب الأحيان ، ويعود ذلـك الى الأيام الأولى التـي قدم فيهـا بنو عبد الـواد الى سهول تلمســان واحتلوهـا في عهد الموحديـن ، فاشتد التنافـس بينهم على الحظوة والأراضي ، ولا سيما عنـدما أصبح بنو عبـد الواد ، يملكون اقطاعات في سهول تلمسان ووهران ، وصاروا ينعمـون بحكم الولاية فتحصلوا بذلك على أحسن ما في الغنيمة وهـي السلطة وامتلاك الأراضي الخصبة ، وهي المناطق التي كـانت تتقاسمها قبائل مغيلة ومغراوة وبنـي يغرن وتوجين [52]. بالإضافـة الى ان هذه القبائل جميعا كـانت ترى في نفسها ، أحق من بنـي عبد الواد في رئاسة المغرب الأوسط لأن ملكها فيه كـان اعرق ، ورئاستها له كانت أقدم ، فكانوا ينظرون الى بني عبد الواد النازحين الجدد نظرة المنافس والخصم المزاحم . ومهما يكن مـن أمر فالجدير بـالملاحظة هو ان القبائل الكبيرة والعـريقة في المغرب الأوسط ، مثـل مغيلة وبني يفـرن ومغراة وصنهاجـة ، هي القبائل التـي كانت لها امـارات ببلاد المغرب الأوسـط خلال القرون الخمسة الأولى للهجرة ، كانت هي القبائل الأشد معارضة ، والخصـم العنيد لبني عبد الواد منذ ان حطوا رحـالهم في المغرب الأوسط ، وفي تلمسان على وجـه الخصوص [53] ، لكن بني عبد الواد صمـدوا وقاوموا خصومهـم بشدة ، بل تعـدوا الى مرحلة الهجـوم ، فوسعوا رقعة ولايتهـم ثم وطدوا اركان دولتهم الفتيـة ، ونشروا نفوذهم عبر أقاليم المغرب الأوسط ، وفـرضوا سيطرتهم عليها جميعا بفضل تماسك قبيلتهم ، ومن كان يناصرهـم من قبائل المغرب الأوسط .

والظـاهر ان المصلحــة الذاتيــة لكـل قبيلـة كانــت تطغـى على روابــط الـدم والعقيــدة ، فالخلاف كان مستمـرا ينشب من حين لآخر والهوة كبيرة بينهم ، باستثنـاء بعض المراحل والفترات التي كان فيها بنو عبد الواد أقويـاء حينذاك ، تخضـع القبائل المنافسة الى نفوذهـم مضطرة ، وتدخل في طاعتهـم وقد عبر عـن هذه المعارضــة ابن خلدون بقـوله : «استقـل يغمراسن ابـن زيان بـأمر تلمسان والمغرب الأوسط وظفر بالسلطان وعلا كعبه على سائر أحياء زناتة ، نفسوا عليه ما أتاه الله من العز وأكرمه به من الملك ، فنابذوه العهـد وشاقوه الطاعة وركبوا له ظهر الخلاف والعداوة» [54] ويضيف صاحب الدر والعقيان ، بـأن بني عبد الواد خاضوا حروبا عديدة مـع العرب وحدهـم ما يزيد عن اثنين وسبعين غزوة ، وكذلك مع قبيلتي توجين ومـغــراوة[55].

ولكن يمكـن الإشارة هنا الى أن هـذه العلاقة ، لم تكن كلهـا عداء وحروبـا وخصاما مـع هذه القبائل بل تخللتها ، فترات صفاء وتعاون ولا سيما أثناء ظهور العدو المشترك ، فقد تبين هذا التعاون

أثناء الحصار الطويل لمدينة تلمسان في نهاية القرن السابع الهجري الموافق للثالث عشر الميلادي من قبل بني مرين، وكذلك ناصرت هذه القبائل، أبا سعيد وأبا ثابت عندما قاما بإحياء الدولة الزيانية سنة 749هـ/1348 م، التي أطاح بها بنو مرين، ومدت المساعدة أيضا لأبي حمو موسى الزياني الثاني لنفس الغرض سنة 760/1359، عندما استعاد عرش أجداده، وبالإضافة الى ذلك فان أغلب قبائل المغرب الأوسط كانت تربطها روابط الود والتعاون مع بني عبد الواد ولا سيما منها قبائل: بني راشد وهوارة وبني مانو وبني يلومي وبني سلامة (56) ومطماطة (57) وازداجة ووهاصة(58) وغيرها من القبائل، التي كانت تدور في فلك بني عبد الواد، ولعل هذه الصلة كانت تخضع في كثير من الأحيان إلى العصبية والمصلحة الإقتصادية والنفوذ. فكانت لهذه القبائل أدوار مهمة في توجيه الأحداث، بالمغرب الأوسط، استفاد منها بنو عبد الواد في توطيد حكمهم وتوسيعه شرقا وغربا.

دور القبائل العربية:

استقرت القبائل العربية مع استقرار الفتح الإسلامي، في بلاد المغرب ولا سيما منها القبائل اليمنية والمضرية (عرب الجنوب وعرب الشمال)، التي كانت تتشكل منها الجيوش الفاتحة في عهد الدولة الأموية بدمشق، ثم مع الجيوش العباسية التي قدمت لاخماد الثورات واخضاع الخارجين والمناوئين والحفاظ على نفوذ الخلافة، كما استقرت قبائل أخرى ببلاد المغرب جاءت من العراق والشام والحجاز ومصر وبلاد فارس (59).

ولقد سكنت هذه القبائل، حواضر وبوادي وقرى مختلفة من بلاد المغرب وافريقية، بعد ان تحصلت على أراضي واقطاعات الى جانب اخوانهم في الدين من أهل المنطقة (60). وقدمت طلائع أخرى من قبائل بني هلال، التي اجتاحت ربوع المغرب في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، واستولت على كثير من الأراضي بالقوة، وكانت تتعاون مع الدول المتعاقبة حينا وتخرج ضدها أحيانا(61).

وسأحاول ان أتطرق الى الدور الذي لعبته بعض هذه القبائل، في ترسيخ أقدام الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط، وتوسيع رقعتها واستمرار هيبتها ودورها الإيجابي والسلبي، في استقرار أوضاعها السياسية والإقتصادية.

تنتمي معظم هذه القبائل العربية، التي كانت تقطن المغرب الأوسط خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي الى بني هلال بن عامر. وكان بنو عبد الواد قد حالفوا أغلب هذه القبائل، وقربوها اليهم، واستفادوا من خدماتها، في توطيد أركان دولتهم، من الهزات المتكررة، والتصدي لهجمات كل من الجارة الشرقية (الدولة الحفصية) والجارة الغربية (الدولة المرينية)، وخاصة من هذه القبائل بطون زغبة (62)، التي تربطها بزناتة صلة الحلف والتعاون (63). كما هو الشأن مع القبائل المغربية (البربرية) السالفة الذكر. فقد كانت أغلب القبائل العربية تساند بني عبد الواد، وتقف الى جانبهم، برجالها وعتادها، لعبت أدوارا معتبرة في قيام دولتهم، وأسهمت في توطيد أركانها، ونشر نفوذها في المغرب الأوسط وخارجه، وشاركت في إحيائها بعد الإنهيار نذكر أهمها: قبيلة بني عامر (64) وبني يزيد (65) وبني مالك (66) والمعقل (67) وذوي منصور (68)، وكانت هناك بعض القبائل العربية الأخرى، تناصب بني عبد الواد العداء الشديد، وتساند أعداءهم الزاحفين اليهم، سواء كان ذلك الزحف آتيا من الشرق أو من الغرب ولا سيما منها: قبيلة حصين (69)، و قبيلة ذوي عبيد الله (70)، وقبيلة سويد، (71)، والثعالبة (72).

اعتمد بنو عبد الواد، على مساعدة القبائل المتباينة بربرية كانت أم عربية التي تحالفت معهم، وكانت الى جانبهم في بناء دولتهم، وتوسيع مجدهم وتسهم في حفظ أمنهم واستقرارهم، وحماية حدودهم، مقابل الحظوة والنفوذ والمال والأراضي الخصبة، التي لم يبخل بها بنو عبد الواد على مناصريهم.

ولعل ظاهرة الإقطاع ومنح الأراضي قد انتشرت انتشارا كبيرا في عهد بني عبد الواد، خاصة في مرحلة ضعفهم، وقد عبر ابن خلدون عن هذه الظاهرة بقوله: «ما شرحناه مرارا من تغلب العرب على الضواحي والكثير من الأمصار، وتقلص ظل الدولة عن القاصية وارتدادها على عقبها الى مراكزها بسيف البحر وتفاؤل قدرتها عن قدرتهم، واعطاء اليد في مغالبتهم، ببذل رغائب الأموال وأطاع البلاد، والنزول عن الكثير من الامصار والقنوع، بالتضريب بينهم والإغراء بعضهم ببعض» (73).

وقد شهدت دولة بني عبد الواد محنا كثيرة وصعابا جمة خلال فترتها بحيث تكرر سقوطها مرات عديدة بسبب ضربات جارتيها الشرقية والغربية، وبمساعدة قبائل المغرب الأوسط، عربا وبربرا وكانت عودتها وانبعاثها من جديد بسبب مساندة هذه القبائل ومؤازرتها أيضا.

لعبت اذن قبائل المغرب الأوسط، أدوارا مختلفة ومتباينة في ثبات دولة بني عبد الواد واستقرارها وفي سقوطهـا كذلك، وفي عـلاقاتها السيـاسية والدبلـوماسية، مـع جيرانها سواء كـان ذلك، في الحرب أو في السلم وان معظـم السفارات والوفـود الرسمية، التـي أرسلها سلاطين بنـي زيان الى الدول المجاورة، كانت تتشكل أغلبها من الفقهاء، والكتاب ورؤساء القبائل (74).

يغمراسن مؤسس الدولة :

يعد أبو يحي يغمراسن من أشد سلاطين بني زيـان، حرصا على علاقته بقبائل المغرب الأوسط وأعرفهم بمصالح قومه وعشيرته (75)، فاحسن السيرة مع الـرعية، واستكثر من العشيرة، واستمال أغلب القبائل العربية ولا سيما منها عرب زغبـة وكذلك بطون زناتة (76)، حتى يتمكن من الدفاع عن دولته مـن الأخطار التي يمكن أن تـداهمه من الداخل أو الخارج، فـانتقى جيشا من زنـاتة، وأضاف اليه فرقـا من عناصر مختلفة كالغز والـروم في بداية الأمر، من الرامحة والنـاشبة والفرسان، وفرض العطـاء واستحدث مجلسا للـوزراء، واختار لديـوانه نخبـة من الكتاب الـوافدين اليـه من الجاليات الأندلسية المهاجرة، فآثرهـم يغمراسن وقربهم الى مجلسه (77) فاتخذ لنفسه بذلك مظهرا من مظاهر الملك والسلطنة.

فلبس إشـارة السلطان، وبعث في الأعمال، ولم يبـق للموحدين إلا الـدعاء على المنابـر وجعل مدينة تلمسان، قاعدة لحكمه الفتي، ومنذ ذلك الوقت أضحى نجم عاصمة بني عبد الواد يعلو شيئا فشيئا، ويتألق في الأفق مع مرور الأيام والسنوات، حتى صارت حاضرة من الحواضر العالمية في ذلك الوقت (78).

وقد تمكن أبو يحي يغمراسن، بشجاعته وجرأته وطموحه المتوقد، أن يمد رقعة دولته بمساعدة القبائل المنضـوية تحت نفـوذه، والمتحالفـة معه، وكـان الخليفة الـرشيد الموحـدي، قد ضـاعف الإتصال بـه والإحسان اليـه، واكرمـه بأنـواع الهدايا والجرايـات والالطاف (79)، فحصلـت المودة والمؤانسة بينهما، فكانت هذه العلاقة الطيبة والصـلات الحسنة بين يغمراسن والرشيد مقصد شك وريبة مـن الحفصيين بتونـس، الذيـن اعتبروا هذا التقـارب تهديدا لسـلامتهم واستقـرارهم (80). وكذلك كانت مصدر قلقل لبعض المنافسين لأبي يحي يغمـراسن من الزناتيين، الذين لم يتوانوا الى الوفود على مدينة تـونس يحرضون ابا زكريا يحي الأول بن عبد الـواحد بن أبي حفص (626ـ 764/ 1228ـ1244) على غزو عاصمة بني زيان واسقاط دولتهم (81).

ولما حان الـوقت، باستقرار الأمـن في افريقية، وعـاد الهدوء اليها، خرج أبو زكـريا الأول، في جيش كبير قاصدا مدينة تلمسان سنة 640هـ/1242[82]، فاستولى عليها واخضع في نفس الوقت بطون زناتة وبني عبد الواد في المغرب الأوسط.

وكان العـاهل التلمسـاني قد فـر بأهله مـن عاصمتـه، أثناء الحصـار، خرج متسترا مـن باب العقبة، متجها نحو جبل ورنيد ـ جنوب تلمسان ـ حيث تحصن به تاركا عاصمته في يد أبي زكريا، الذي عرض بدوره حكمها على أفراد بني زيان، وبني حفص، فرفضوا تقلدها خوفا من سطو أبي يحي يغمراسن، عنـد ذلك، قال أبا زكريا «ليـس لها الا صاحبها»[83] ويقصد بذلك يغمراسن، فتفاوض مع أم يغمـراسن المعروفة «بسوط النساء»، نيـابة عن ابنها في عقد صلـح ومعاهدة بينهما على الجلاء مقابل الولاء و إتاوة مـالية قدرها مائة ألف دينار، بينما تذكر بعـض المصادر أن ابا زكريا هو الـذي اقطع أرضا ليغمـراسن في افريقيـة، مقدار جبايتهـا مائة الف دينـار، إعانة لـه ولخزانة تلمسان، مقابل الولاء والتبعية السياسية ونظير مواقفـه العدائية لبني عبد المؤمن في مراكش[84] ثم عاد ابو زكريا الى بلاده بعد ان نصب أمراء وشيوخ قبائل موالين له، على توجين ومغراوة ومليكش، وجعلهم يراقبون يغمراسن، وسدا منيعا أمامه وبـالتالي كون شوكة في ظهر صاحب تلمسان حتى يعيقه عن التحـرك نحو الشرق[85] ولما سمع خليفة «مراكـش» السعيد ابو الحسن (640ـ646 / 1242 / 1248) بما تـم بين تونـس وتلمسـان من معـاهـدة، عضـب لذلـك وعـزم على تأديـب يغمراسن، وصده عن وجهته هذه فخرج في جيش كبير، شارك فيه بالأفراد والعتاد، وقبائل أخرى عربيـة وموحدية، واتجه بهذا الجيـش نحو مدينة تلمسـان، سنة 645 هـ/ 1247 م لكن ابـا يحي يغمراسن، لم ينتظر وصوله، بل خرج اليه وفاجأه في الطريق بالقرب من قلعة «تامزيزدكت»[86]ثم تحصن بها ينتظر وصـول الجيش الموحدي، وبعد حرب حـامية الوطيس، استعملـت فيها مختلف اسلحة الهجـوم والدفاع، كـان انتصارا خاطفـا ليغمراسن، وهـزيمة الجيش الموحـدي الكثيف، هزيمة ثقيلـة سنة 646/ 1248م[87] أثـرت على معنويـات الموحديـن، وحدت مـن شوكتهـم وسمعتهم أمام القبـائل المختلفة بالمغرب الأقصى، بـل زاد في اطماع بني مرين خاصـة، فاستولى يغمراسن على محلة ابي الحسن السعيد وذخائره، كالعقـد اليتيم وغضـار الزمرد ومصحف عثمان بن عفان رضي الله عنـه الذي خطـه بيده[88]. وكان الموحـدون يحملونه معهـم في حروبهم تبركـا به،

وكذلك يتضح من خلال الحلي والجواهر، ان الموحدين كانوا يصحبون معهم أزواجهم وحريمهم أثناء غزواتهم وحروبهم.

هلل بنو عبد الواد لهذا الانتصار، كما فرح له بنو حفص أيضا وقد شجع هذا الانتصار يغمراسن الى ان يفكر في غزو مناطق أخرى من الجهة الغربية لسلطنته، وأخذ الأمل يراوده، في أن يحل محل الموحدين في عرشهم وممتلكاتهم والاستيلاء على المغرب الأقصى، وبات الحلم يراوده ويحفزه لمزاحمة بني مرين في نفوذهم على المغرب الأقصى [89]. ولهذا تعلل وتدرع بالدفاع عن حصون الموحدين خاصة منها المتاخمة لبني عبد الواد حتى يجعل منها حزاما واقيا ونقطة هجوم يرتكز عليها ضد الموحدين وبني مرين معا. وكان الحد الطبيعي الفاصل بين ممتلكات هؤلاء الأخرين وبين ممتلكات بني عبد الواد، الوادي المعروف بواد «صا» المتفرع من وادي ملوية شمالا[90] الى اقليم فجيج جنوبا اي الى اقليم ولاية بشار حاليا «بني ونيف». وهكذا تمكن يغمراسن من ان يمد رقعة دولته لمساعدة القبائل المنضوية تحت نفوذه والمتحالفة معه حتى بلغت ما بعد مدينة وجدة الى بلاد تاوريرت [91]، والبلاد التي تلي نهر ملوية ووادي «صا» واقليم فجيج في الجنوب الغربي، وعلى مازونة وتنس والونشريس والمدية، وعلى مشيختي مغراوة وبني توجين وعلى سهل متيجة، الى ان وصلت سلطنته الى أطراف بجاية، كما اتسع مجالها نحو الجنوب الى ان بلغت الصحراء[92].

وعندما تمكن بنومرين من هزيمة الموحدين والإستيلاء على عاصمتهم، مدينة مراكش، والقضاء على عرشهم، وإزالة رسمه من المغرب الأقصى نهائيا سنة 668 هـ/1269 م بقيادة أميرهم يعقوب بن عبد الحق (656ـ 1258/685ـ1286م) وحلوا محلهم، لم يبق ليغمراسن طمع فيما كان يراوده حلمه ويتمناه، فركن لموادعة بني مرين وخاصة بعد المعارك العديدة التي كانت بينه وبينهم والتي أنهزم فيها فكانت الأولى سنة 647هـ/1249م، والثانية سنة 660هـ/1279 م، والثالثة وهي أعنفها كانت سنة 679 هـ/ 1288 م بخرزورة[93]، خرج يغمراسن منها جميعا منهزما أمام الجيش المريني، الذي ظل واقفا له بالمرصاد، بل تعدى ذلك وصار يهدد يغمراسن في عقر داره. ولذلك أوصى يغمراسن ابنه وولي عهده عثمان، قبل وفاته، وألح عليه، بعدم التعرض لبني مرين أو التحرش بهم، والعمل على مسالمتهم، وإبرام المعاهدات السلمية معهم، وإذا اضطر إلى المجابهة يستحسن، أن يعتصم خلف أسوار مدينة تلمسان الحصينة، والمقاومة من بعيد، لما يتميزون به

من كثرة العـدد ووفرة المدد، وقوة الشكيمـة كما ذكر إبـن الأعرج[94]، وفي هذا الصدد يقـول عبد الرحمان بن خلدون: «وأوصى دادا يغمراسن دادا [95] عثمان. . وقال له: «يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهـم واستيلائهم على الأعمال الغـربية، وعلى حضرة الخلافة بمـراكش، لا طاقـة لنا بلقائهم إذا جمعوا لوفود مددهم، ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرة النكوص، عن القرن التي أنت بعيـدا عنها فاياك واعتماد لقـائهم، وعليك بـالليـاذ بالجدران متى دلفـوا إليك» [96]. واوصاه أيضا بأن لا يتواني في توسيع نفوذه، شرقا نحـو بني حفص، وفي هذا المجال يقول صاحب العبر: «وحاول ما استطعـت في الاستيلاء على ما جاورك مـن عمالات الموحدين وممالكهـم، يستفحل به ملكـك، وتكـافيء حشـد العـدو بحشـدك، ولعلـك تصير بعـض الثغـور الشرقيـة معقـلا لذخيرتك»[97]، التزم عثمان بن يغمراسن بوصية والده ووضعها حيز التنفيذ، وجنح إلى مسالمة بني مرين ومهـادنتهم، وعندما اعتلى العرش بعد وفـاة والده. أوفد أخاه الأمير محمد بـن يغمراسن إلى العاهـل المريني يعقوب بن عبـد الحق وهو بالأندلـس في جوازه الرابـع إلى هذه الربوع، فـاستقبله بحفاوة وكرم. وعقد معه معاهدة سلم، دامت نحو ثماني سنوات [98].

وكان السلطان يغمراسن قد عمل على تصفية الجوّ السياسي وتنقيته مع بني حفص وربط صلة قوية معهم عن طريق المصاهرة، إذ أرسل وفـدا هاما إلى تونس ليخطب ابنة السلطان ابي اسحاق ابراهيم (678 ـــ 683/ 1279 ـ1284) لإبنـه الأمير، وولي عهده أبي سعيـد عثمان، ولكن شـاءت الأقدار أن يتوفى يغمـراسن برهيو مـن وادي شلف، بعد أن استقبل مـوكب العروس بمليانـة سنة 681 هـ/ 1284 م، بحفاوة بـالغة تليق بمقـامها تكريما لها وارضاءا لأبيهـا، وكان خروجـه أيضا لحمايتها من غارات قبيلتي توجين ومغراوة [99]، رغم كبر سنه الذي تجاوز السبعين سنة [100]، ولم يعلن ولي العهـد عن وفـاة أبيه، حتـى وصلت العـروس الى بيتها في تلمسـان، فكانـت مراسيـم الإحتفـال بالـزواج موازيـة لتجهيـز جثمان السلطان، فـدفـن بدار الـراحة أو الـدويـرة بالجامـع الأعظم[101] فتولى الأمر بعده، ولي عهده ابنه أبي سعيد عثمان بن يغمراسن [102] ولعل فترات الهدنة التي تطلع لها يغمراسن وولي عهـده من بعده، كـانت نتيجة دراسة معمقة، ومعطيات استخبارية هامـة، عن خصـومهم بنـي مرين، لأن المعلـومات، والإستخبـارات تلعب دورا حيـويا في مجال الإستقرار والأمن، وكـان نظام التجسس معروف عند الـدول الإسلامية المتعاقبة، خـاصة الخلافة

العباسية، التي كانت تستعمل الرجال والنساء والجواري لأغراض استخبارية، ضد المناوئين، والمعارضين للدولة في الداخل [103].

أما من خارجها فكانت المعلومات تأتي عن طريق العيون السرية والرحلات العلمية، والسفارات وأصحاب البريد والأسرى وغيرهم من الوسائل التي يمكن أن تنقل بها المعلومات، وكانت الكتابة السرية أو الطريقة التي تسمى عند المتخصصين بعلم التعمية أهم طرق الإستخبارات وأسرعها [104]. فقد كانت هذه الطرق جميعها، معروفة عند أمراء بني زيان وسلاطينهم فالنصوص التاريخية تؤكد على أن أبا سعيد عثمان بن يغمراسن، استعملها وهو لا يزال وليا للعهد وقد اتخذ أسلوبا في هذا المجال، ربما لم يسبقه أحد من الأمراء والسلاطين الذين تداولوا الحكم في بلاد المغرب، اذ قام باهداء جارية وسيمة رومية، إلى نظيره أبي يعقوب يوسف بن يعقوب المريني، بعد أن دربها على أسلوب الكتابة السرية أو علم التعمية، وعلى التجسس والتقاط الأخبار، وزودها بالورق الخاص بذلك [105]، وبالتالي يكون أبا سعيد عثمان، قد اخترق جدار أسرار البلاط المريني، فكانت الجارية الوسيمة تبعث له بالمعلومات الهامة التي تتعلق بالبلاط وخططه ونواياه، واستعداداته وقوته العسكرية وغيرها من المعلومات التي تساعد الخصم، وربما هذا هو الدافع الأساسي الذي جعل يغمراسن وولي عهده يجنحان للهدنة والمسالمة، فضلا عن الهزائم التي تلقاها يغمراسن أمام بني مرين.

ولهذا أصبح يغمراسن حريصا على ارسال السفراء والوفود الى فاس، وكان على رأس هذه البعثات الفقيه الشيخ الإمام أبو اسحاق ابراهيم بن يخلف التنسي (ت. 680 / 1281)، الذي يتمتع بسمعة علمية طيبة عند فقهاء فاس وامرائها، لتدعيم الروابط الأخوية والدبلوماسية بين البلدين [106].

وكان كاتب الدولة الزيانية وحاجبها حينذاك أبو سعيد عثمان بن عامر، رغب في ارسال ابنه الخطيب، رفقة الشيخ أبي اسحاق في المهمة الدبلوماسية الثانية، وكان الخطيب هذا تلميذا لأبي اسحاق، وعلى الرغم من ان الشيخ لم يكن راضيا على رفيقه كما تشير النصوص، الا أنه لم يعارض عليه وبعد اقامتهما في فاس عدة أيام، طلب الخطيب، ان يخلو بالأمير المريني واطلعه على بعض أسرار البلاط الزياني، وتمادى في ذلك الى الحديث عن السلطان يغمراسن، وعندما كان الرسول

الخطيب يتحدث مع الأمير المريني كانت الجارية الوسيمة الرومية، تقف خلف الستار وتسمع ما يدور من حديث بين الإثنين فكتبت بذلك لأبي سعيد عثمان [107]. وعندما عاد الوفد الى تلمسان نكب الأميرعثمان، أسرة الخطيب ووالده الوزير وقتلهم قتلا شنيعا، وصادر أموالهما وسبى كل ما كان لهما من حريم [108].

لم يكتف بنو زيان باستعمال النساء للجوسسة والإستخبارات بل وظفوا الكثير منهم في الجمارك، لتفتيش النساء عند أبواب المدينة ومراقبتهن، حتى لا يهربن البضائع والسلع دون دفع الضرائب وكانت أغلب الموظفات في هذا المجال من اليهوديات [109].

ومهما يكن من امرفان الجدير بالذكر هو ان بني زيان قد استخدموا نساء غير مسلمات في مجال الإستخبارات والضرائب، من أهل الذمة أي من النصارى واليهود.

استهل أبو سعيد عثمان بن يغمراسن حكمه، بانتهاج سياسة مسالمة لبني مرين كما وجهه أبوه يغمراسن، وتفرغ بذلك لبناء دولته، وتوسيع رقعتها في الجهة الشرقية، كما أكد عليه والده أيضا. فقد خاطب السلطان أبا اسحاق الحفصي 678 ـ 683 هـ/ 1278 ـ 1284) وبعث اليه بالبيعة والولاء فرد السلطان الحفصي بالقبول، والرضى ثم كاتب يعقوب بن عبد الحق (656 ـ 586/ 1258 ـ1286) وناشده السلم فاستجاب العاهل المريني لذلك [110]، وبالتالي يكون عثمان بن يغمراسن قد أبعد عن دولته خطر الجارتين وتهديداتهما فتفرغ بعد ذلك لإخضاع المناطق الشرقية التي خرجت عن طاعته وهي مناطق تتاخم حدود الدولة الحفصية. ولا سيما منها قبائل توجين ومغراوة ومليكش وصنهاجة بمتيجة حتى وصل إلى حدود بجاية الخاضعة لبني حفص [111]، ثم رجع الى مازونة فحاصرها واستولى عليها سنة / 686 هـ ـ 1287 م وفتح مدينة تنس واخضع أهلها ودخل الونشريس والمدية وبرشك دخول المنتصر ودانت له سائر أعمال المغرب الأوسط، وصارت تدور في فلكه بدون منازع [112].

غزوات بني مرين لتلمسان :

ظلت العلاقة طيبة وهادئة مدة ثلاث سنوات بين فاس وتلمسان نتيجة المعاهدة المبرمة بينهما وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لكل منهما وبعد وفاة يعقوب بن عبد الحق المريني بدأ الضباب

يخيم على هـذه العلاقة الزيـانية المرينية السلميـة والخلاف يدب من جـديد بينهما وخاصة عنـدما اعتلى يوسف بن يعقوب عرش فاس سنة 685ـ1286/706ـ1306)، الذي كان يطمح لتأسيس دولة قوية تحل محل الموحديـن في بلاد المغرب وافريقية. فاستغل الخلافات التـي بدأت تنشب بينه وبين بني زيان ووجـدها فرصة سـانحة بل ذريعة يتـذرع بها. لعدم تجديد المعاهـدة والهدنة التي ظلت قائمة بينهما نحو ثماني سنـوات يريد توحيد المغرب الكبير تحت نفود بني مـرين والدليل على ذلك الحمـلات العديـدة والمتكررة التي تـوالت على عـاصمة بني زيـان وعلى أراضيهم، فقـد قام بخمس حروب طاحنة مع بني زيان في عهـد أبي سعيد عثمان بن يغمراسن خلال العشرية الأخيرة مـن القـرن السابـع الهجـري الثـالـث عشر ميلادي. فكـانـت كلهـا معـارك شـديدة ومـواقـف مشهودة[113]، حاول يوسف خـلالها اقتحام أسوار مدينة تلمسان إلا ان جهود بنـي مرين لم تكلل بالنجاح. لأن مقـاومة بني زيان كـانت شديدة فقد كـانت الحركة الأولى لأبي يعقوب يـوسف بن يعقوب نحو مدينة تلمسان سنة 689 هـ ـ1290 م وكانت المحاولة الثانية سنة 695 هـ ـ1296 م، والثالثة وقعت سنة 696 هـ ـ1297 م. والرابعة كانت سنة 697 هـ ـ 1298م أما الخامسة وهي أطولها من الناحية الزمنية وأشدها عنفـا وأكثرها عددا، فقد كانت في سنة 698 هـ ـ 1299 م[114] وهذا يدل على اهتمام بني مـرين بعاصمة بني زيان وتصميمهم على الاستيلاء عليهـا بحيث قاموا بغزوها خمس مرات في فترة زمنية لم تتعد تسع سنوات أي بمعدل غزوة في كل سنتين تقريبا.

وحينما استعصت مدينـة تلمسان، على الجيش المريني، قام يـوسف بن يعقوب، ببنـاء مدينة جديدة غرب تلمسان، سماها «المنصورة »[115] ليخنق بها مدينة تلمسـان وأهلها، والتضييق على سكانها، وجعلها قاعدة، تنطلـق منها الجيوش، ويستقبل فيها الوفود، والبعثات الـدبلوماسية، ويدير منها شؤون الدولة، فصارت عاصمة سياسية وادارية واقتصادية، بديلة لتلمسان طوال فترة الحصار الـذي دام نحو تسـع سنوات[116] بأيـامها ولياليهـا، فصارت المنصـورة في هذه الفترة، عاصمـة المغرب الأوسط، والدولـة المرينية، يخرج منها الرسـل إلى مختلف الدول الإسلاميـة، فقد خرجت منها وفـود إلى كل من مصر والشام وافريقية والحجاز وكذلـك إلى الدول الأوروبية وتنطلق منها القوافل التجارية إلى اصقاع البقاع في المشرق والمغرب، وتحط فيها قوافل السودان[117]. وكان بنو زيان، قد لجأوا إلى حصونهم ولاذوا بأسوارهم، تخرج كل يوم فـرقة عسكرية خاطفة تقاتل بني مرين المحيطين بالمدينة والمقيمين حولها وبأرباضها ثم يعودون إلى مواقعهم، على الرغم من الحصار

المحكم الذي ضربه المرينيون، ومن المجانيق المنصوبة حول المدينة والتي كانت قذائفها تهز المنازل داخل المدينة وقد منعوا عن أهل تلمسان الصادر والوارد، وقطعوا عنها الماء، حتى خلت المدينة من سكانها، وفقد نحو مائة وعشرين ألف نسمة هلك بعضهم جوعا، وفر البعض خارج المدينة متسترا بظلام الليل أو بتواطىء من الجند المرينيين [118]. وبعد خمس سنوات من الحصار والحرب، أي في سنة 703 هـ/1303 توفي العاهل التلمساني السلطان عثمان بن يغمراسن [119]، تاركا وراءه حصارا محكما وحربا مدمرة، لولي العهد أبي زيان بن عثمان الذي كان له عزم والده، فلم يتوان في المقاومة والصمود، ولم تزده فاجعة والده إلا مقاومة وعنادا ودفاعا عن عاصمته، استمرت هذه المقاومة إلى غاية سنة 707 هـ/ 1307 م [120] عاني منها أهل تلمسان عناءا كبيرا وبذلوا من الجهد والتعب حدا لا يوصف قلما نجد مجتمعا عانى من الآلام والتشريد والجوع، بالقدر الذي عانى منه سكان مدينة تلمسان خلال هذا الحصار [121].

فقد وصف لنا ابن خلدون وغيره من المؤرخين لهذه الأحداث الأسعار الخيالية التي كانت عليها المواد الغذائية في تلمسان بسبب نقصها وندرتها حتى أكل التلمسانيون الميتة والجيف والحشرات والزواحف وغيرها، كما وصفوا لنا أيضا حصانة أسوار المدينة ومنعتها وصفا دقيقا وذكروا المقاومة الشديدة التي أبداها السكان أدهشت بني مرين ذاتهم. فعندما بلغ خبر وفاة السلطان عثمان بن يغمراسن الى يوسف بن يعقوب المريني، وهو بالمنصورة تعجب من شجاعته وصرامة قومه، في التصدي للحصار والإستمرار في المقاومة بنفس طويل هذه المدة الزمنية كلها [122]، وحتى أبو زيان ظل يقاوم صامدا نحو أربع سنوات كاملة، ولم يبق من سكان المدينة في عهده حسب بعض النصوص إلا مائتا نسمة ومن المقاتلين في صفوف بني زيان نحو الألف من الجند [123]. وبالرغم من هذا العدد القليل من المقاومين، ظلوا يقاتلون بشجاعة نادرة وفي هذا الصدد يقول صاحب «الغرر»: «ولقد رأيتهم يحملون وهم رجالة على الفرسان، فيفرون أمامهم ولا يقدرون أن يكروا عليهم، فما أكاد أقضي العجب من شجاعتهم» [124].

وعندما كان أبو زيان وأخوه أبو حمو، في القصر يفكران في مصير المدينة وأهلها بعد أن دخل الحصار عامه التاسع، إذا برسول يطرق الباب قدم من مدينة المنصورة، مبعوثا من أبي ثابت بن عامر يخبرهما بوفاة جده يوسف بن يعقوب المريني، ويطلب منهما اعانته بالجند وبالطبول والرايات لمواجهة خصميه أبي سالم وأبي يحي، اللذين أرادا الإستيلاء على العرش في فاس مقابل الجلاء وفك

الحصار[125] عن مدينة تلمسان. فكان له ما أراد عند ذلك، حمل ذخائره وتوجه نحو فاس يطوي المراحل في ذي الحجة من سنة 707 ـ 1307 م فتنفس بعد ذلك من تبقى في تلمسان وزال ضيقهم وحيت نفوسهم بانجلاء الحصار، فضرب صاحبها نقوذا بهذه المناسبة كتب عليها: «وما أقرب فرج الله» تبركا وتيمنا بما منه الله عليهم من الفرج بعد عسر طويل[126].

أعاد أبو زيان مع أخيه، أبي حمو بناء الجيش والدولة واصلاح ما أفسدته الحرب وترميم ما هدمته أدوات الحصار، من أسوار وابراج ودور وقصور وغير ذلك، ثم تفرغا بعد ذلك لإعادة نفوذ الدولة على المناطق والأقاليم، التي خرجت عليها وخاصة المناطق الشرقية، فاستطاعا أنْ يتغلبا على الشلف والونشريس والمدية ومتيجة وغيرها، بعد حملة دامت تسعة أشهر إلا أن الموت عجل بالسلطان أبي زيان بعد مرض لم يمهله طويلا، إذ توفي في شوال سنة 707 هـ/ 1307 م[127].

الـهـوامـش :

(1) نشأت الدولة الموحدية سنة 524 هـ/1129 م وكانت عاصمتها مدينة مراكش امتد نفوذها على المغرب الإسلامي، من برقة شرقا الى البحر المحيط غربا ومن أطراف الأندلس شمالا الى الصحراء جنوبا، قاومت الأسبان في الأندلس وتصدت لزحفهم المتكرر على دار الإسلام في الجزيرة الأندلسية، وقاومت النزاعات الداخلية، الى أن سقطت نهائيا على يد بني مرين سنة 866هـ/265.

أنظر : البيدق: أخبار المهدي وإبتداء دولة الموحدين، نشره ليفي بروفنسال طبعة باريس 1928. الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمانة الدار البيضاء. 1979 ـ ابن عذاري المراكش: البيان المغرب وأخبار الأندلس والمغرب الجزء الرابع الخاص بالموحدين نشرته كلية الآداب جامعة محمد الخامس الرباط 1963 ـ ابن الجهان الكتامي، نظم القطان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان تحقيق محمود علي مكي دار الغرب الإسلامي بيروت 1987.

(2) وحول الحرب الموحدية الإسبانية أنظر عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب نشره محمد سعيد عريان ومحمد العلمي الإستقامة القاهرة 1949 ـ السلاوي الناصري: الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب الدار البيضاء 1954 ـ 1956.

(3) حول مساهمة الموحدين في الحروب الصليبية ببلاد الشرق أنظر: مقال سعد زغلول عبد الحميد: العلاقة بين صالح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور، مجلة كلية الآداب الاسكندرية عدد (16 و77)1953 ص84 ـ 100 وانظر أيضا جوانيابن س. د: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الاسلامية، تعريب وتحقيق عطية القوصي الكويت 1980 حيث يشير الى وجود ما يزيد عن ألفين من المقاتلين المغاربة في جيش صلاح الدين أثناء تحرير القدس ص132.

(4) دارت هذه المعركة بين الموحدين، بقيادة محمد الناصر الموحدي (595 هـ ـ610/ 1199 ـ 1213) وبين الجيش الإسباني المسيحي بقيادة الفونسو الثامن بشمال الأندلس، التي انتصر فيها الإسبان. انظر: المقري نفح الطيب (تحقيق محي الدين) جـ6 ص117
Arie Rachel: L'espagne musulmmane au temps des Nassirides (1232 - 1492).-

ed. E. de Boccard Paris 1973.P. 49. sq-Huici Miranda (A): Las grandes batallas, de la reconquista. PP. 217 - 327.

(5) بنو غانية: ينتمون الى قبيلة مسوفة الصنهاجية التي ينحدر منها بنو تاشفين أمراء المرابطين ـ كانوا ولاة على دانية فامتلكوا جزر البليار شرق الأندلس واستقلوا بها واعلنوا ولاءهم للدولة العباسية ثم ثاروا على الموحدين، فغزوا بجاية، مليانة، قلعة بني حماد، قسنطينة والجزء الشرقي للدولة وهي المعروفة بالبلاد الإفريقية. أنظر ابن خلدون العبر ج 6 ص 508 محمد لعروسي المطوي، السلطنة الحفصية، دار الغرب الإسلامي بيروت1986 ص 17 وما بعدها.

عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ج 2 ص 803 ـ 805.

(6) أنظر: عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر الجزائر1982 ص 11.

(7) ابن عذارى: البيان ج3 ص 231 وما بعدها، رحلة التيجاني، ص 360 وما بعدها. ابن خلدون: العبر، ج 6 ص 404 وما بعدها.

(8) وعن الدولة الزيانية أنظر: يحي بن خلدون: بغية الرواد ج1 ص 84 وما بعدها ـ عبد الرحمان بن خلدون: العبر، ج7 ص 148 ـ 309 (طبعة بيروت 1968) التنسي: نظم الدر، ص105 وما بعدها.

(9) وحول دولة بني الأحمر أنظر: ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت 1978 ص 17 ومابعدها.

(10) وعن بني مرين أنظر: ابن خلدون العبر ج1 ص 342 وما بعدها.

(11) يطلق على هذه الدولة أسماء مختلفة هي: الدولة العبد الوادية نسبة إلى بني عبد الواد والدولة الزيانية نسبة إلى زيان والد يغمراسن، ويقال أول من اطلق عليها بهذا الإسم هو أبو حمو موسى الثاني، (760 ـ 791 ـ1359 ـ 1382) وسميت هذه الدولة بدولة بني يغمراسن باعتباره أول مؤسس لها. وقد أظهرت هذه الدولة نسبها الشريف العلوي وخاصة في عهد أبي حمو الثاني الذي أصبح ينادي به وخاطبه ابن الخطيب بذلك قائلا:

والمنتمي العلوي عطبك لم تكن ... ترى دخيلا في نبيه دسيسا

بيت البتول ومنبت الشرف الذي ... تحمي الملائك روحه المغروسا

أما يغمراسن فلا يعطي لهذا الإنتماء أهمية أنظر: بغية الرواد ج 1 ص 186 ـ ابن الأعرج: زبدة التاريخ ورقة 3 أحمد مختار العبادي: دراسات ص 198.

(12) زناتة: قبيلة مغربية تتكون من بطون عديدة متشعبة يذكرها ابن خلدون ب «شعوب زناتة» لكثرتها وللهجتها التي تختلف فيها يبدو عن اللهجات الأمازيغية الأخرى والدليل على ذلك قول ابن خلدون: «وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون بها، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر» ويذهب بعض الباحثين إلى أن لهجتها تنتمي إلى أصول سامية وتلتق مع اللغة العربية في بعض خصائصها وتتواجد أكثرية بطونها بالمغرب الأوسط حتى سمي باسمهم «وطن زناتة» كانت تقطن من وادي ملوية غربا إلى وادي شلف والزاب شرقا، ومن ساحل شرشال ووهران شمالا إلى إقليم تيهرت جنوبا، وقد قسمها ابن خلدون إلى فرعين أساسيين: الأول: يتكون من جراوة بني يفرن مغراوة بني يلومي ومانو. أما الثاني: فيتكون من: بني واسين، وهي التي عرفت فيها بعد ببني عبد الواد وبني مرين وبني توجين بين القرنين الأول والسابع الهجريين (7و13م) أنظر: الاصطخري: المسالك والمالك، ص 36، الإدريسي صفة المغرب، ص 36، ابن خلدون: العبر، ج 7 ص 3 ـ 4.

Gantier (E.F) le passé de l'Afrique du nord P 218

محمد بن عميرة: دور زناتة ص 24 وما بعدها.

(13) حسن الوزان: صفة افريقيا ج2 ص 7هـ (1).

(14) نفسه، ج2 ص7 هـ(1)

(15) ابن خلدون: العبر ج7 ص 148.

(16) ابن الأعرج: زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ ج3 ورقة 29 ـ 30.

(17) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 198.

(18) بنو توجين: من أعظم أحياء بني بادين وأكثرهم عددا، فكانت أراضيهم تقع في منطقة التيطري وأراضي صنهاجة والونشريس، واقليم السرسو، وقلعة تاغورت (تقع جنوب فرندة) وتدعى أيضا قلعة بني سلامة، وصارت الأقاليم الواقعة ما بين بني راشد وصنهاجة بنواحي المدية ملكا لبني توجين، فكانت هذه القبيلة من ألد أعداء بني عبد الواد، ومن أشد خصومهم وهو الأمر الذي جعل الدولة العبد الوادية تجتاح أراضيهم من حين لآخر، أنظر: ابن خلدون: العبر، ج7 ص318 وما بعدها.

(19) بنو راشد: كان هذا القبيل، يقطن الجبل الذي يسمى باسمهم، وهو جبل بني راشد (جبل عمرو حاليا)، كما كان فريق منهم يسكن المواطن الواقعة ما بين وادي مينا ووادي سيق قاموا ببناء القلعة التي تنتسب اليهم وهي قلعة بني راشد، وتعد هذه القبيلة من شيعة بني عبد الواد ومن أنصارهم فقد اعتمدوا عليهم في توطيد أركان حكمهم وتوسيع نفوذهم والتصدي لغزوات بني حفص وبني مرين.
أنظر ابن خلدون: العبر، ج7 ص 315. Marcais (G) les arabes en berberie pp 581

(20) ابن الأعرج: زبدة التاريخ ج3 ورقة 30.

(21) يحي ابن خلدون: بغية الرواد ج1 ص 198.

(22) التنسي: نظم الدر، ص 112 ـ ابن خلدون: العبر، ج7 ص 152.

(23) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 152.

(24) التنسي نظم الدر، ص 113 ابن خلدون: العبر ج7 ص 152.

(25) نفسه ص 113 ابن خلدون: العبر ج7 ص 153 يحي بن خلدون: بغية الرواد ج1 ص 200.

(26) بغية الرواد، ج1 ص 199 ـ عبد الحميد حاجيات «أبو حمو موسى الثاني»، ص 12.

(27) قتله أحد وجوه المدينة يدعى يوسف الغفاري التلمساني أنظر: العبر ج7 ص 153.

(28) العبر، ج7 ص 74 التنسي: نظم الدر، ص 113.

(29) نفسية ج7 ص 153 ـ بغية الرواد ج1 ص 200.

(30) نظم الدر ص113 ـ بينما يذكره ابن خلدون باسم «زكوان» ويسميه يحي بن خلدون «زجواي» أنظر العبر، ج7 ص 153 ـ بغية الرواد ج1 ص 200.

(31) بنو مظهر: من زناتة ومن أبناء عمومة بني عبد الواد، أنظر العبر، ج7 ص 149.

(32) بغية الرواد، ج1ص 200.

(33) نفسه ج1 ص 119.

(34) Barges (I.J.J.I) Complement de l'Histoire des Beni Zeyan 1887 P. 21 Paris
Bouali (S.A) les deux grandes sièges de tlemcen E.N.A.L Alger 1984 P. 26.

(35) ابن خلدون: العبر ج7، ص 164، ويذكر التنسي مؤرخ بني زيان بأن الرشيد هو الذي بعث ليغمراسن بهدية ثمينة يأمل من خلالها في الإبقاء على ذكر اسمه على المنابر والدعاء له يوم الجمعة، غير أن يغمراسن رفض، ونحن نستبعد ذلك، لأن عاهل تلمسان، في موقف ضعيف لا يمكنه أن يتخذ مثل هذه القرارات وخاصة وهو في بداية الطريق، والحاكم الشرعي حينذاك هو خليفة مراكش، أنظر التنسي: نظم الدر، ص 116.

(36) العبر، ج7، ص 154.

(37) يمتد موطن مغراوة من تلمسان غربا الى الشلف شرقا، ظهرت منها امارة بني خزر، ثم امارة زيري بن عطية وأولاده في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، ظلت مغراوة تتميز بالطابع البدوي الريفي، وقلة النفوذ والقوة، مما جعلها تتعرض لضربات بني عبد الواد من

حين لآخر، وعلى الرغم من ضعفها وقلة عددها إلا أنها ظلت تناصبهم العداء، كلما اتاحت لها الفرصة لذلك، أنظر: كتاب العبر، ج7، ص 50، التنسي: نظم الدر، ص128، أبوراس المعسكري، عجائب الأمصار ورقة 33.

(38) صنهاجة: كانت لهذه القبيلة أراضي بنواحي لمدية، وحول الونشريس وفي فرع آخر يعرف باسم مليكش يستقر بنواحي متيجة وكانت صنهاجة تناوىء بني عبد الواد وتناصبهم العداء، وكثيرا ما كانت تخرج ضدهم أنظر: ابن عذاري: البيان ج1، ص330 ـ 341 ـ مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص175.

(39) بنويفرن: بتشييد مدينة اكادير تلمسان القديمة وهذا يدل على أنها كانت تستقر بتلمسان منذ القديم، وكان موطنها في عهد بني عبد الواد بنواحي تلمسان وتيهرت، تخضع علاقتها بالزيانيين للقوة والضعف، أنظر: كتاب العبر، ج7 ص 22، أبوراس المعسكري المصدر السابق ورقة 48.

(40) مغيلة تنتمي الى بني فاتن برز فيها القائد أبو قرة المغيلي في القرن الثاني الهجري الثامن ميلادي، وكانت مغيلة تقطن مصب نهر شلف بالقرب من مازونة في عهد بني عبد الواد وكان موقفها غير مستقر بين تأييد أصحاب تلمسان ومناوآتهم، أنظر كتاب العبر ج6 ص 225 وج7 ص 24، المقري: نفح الطيب ج1 ص 312.

Belhamissi(M): histoire de Mazouna (des origines à nos jours) S.N.E.D Alger 1981 pp 25 - 29.

Loukil (Y): Monographi de Mazouna Alger 1912. p8 Sq.

(41) بنو واسين: وهم أبناء واسين بن يصلتين، اشتهروا بفرعيهم الأساسيين بادين ووتاجن، فمن بادين تفرع بنو عبد الواد، وبنو توجين، وبنوزرداد، وبنومصاب وبنو راشد، أما الفرع الثاني، وهو وتاجن، فقد انبثق منه بنومرين، كانت قبيلة واسين تقطن، ما بين نهر ملوية، وجبل بني راشد، وعندما تولى بنو عبد الواد، حكم بلاد المغرب الأوسط، دب الخلاف في هذه القبيلة فتفرقت عصبيتهم وتشتت الى عصبيات صغيرة، وصارت تخضع إلى بني عبد الواد، وبني مرين أنظر: العبر ج7 ص114. بوزيان الدراجي: العصبية القبيلة ج1، ص 262.

(42) أولاد منديل: كان يسكن هذا القبيل، غرب الشلف، ويغير على متيجة بالتعاون مع مغراوة، إلا أن بني غانية، أرغموهم على التخلي عن متيجة، وقد ظل أولاد منديل يقيمون بالشلف. تحت نفوذ بني عبد الواد وأهم مدنهم هي: شرشال، مليانة، برشك، وتنس، وقاموا بتشييد مدينة مازونة بالتعاون مع مغراوة، أنظر: ج7، ص131،

Belhamissi (M): Opcit pp - 25 - 29.

(43) كومية: تنحدر من بني فاتن، وتفرعت منها ثلاثة بطون هي: صفارة ندرومة وبني يلومي، وكومية وهي قبيلة الزعيم عبد المؤمن بن علي الموحدي، ظل منها البعض في موطنهم، في عهد بني عبد الواد يخضعون للعاهل التلمساني ويناصرونه، أنظر: العبر، ج6، ص 257، عبد الواحد المراكشي: العجب، ص 339.

(44) بنو يلومي: كان بنو يلومي، يستقرون على الضفة الغربية لوادي مينا والبطحاء وسيق، وسيرات، وجبل هوارة وجبل بني راشد، وكانوا في خدمة بني عبد الواد ويخضعون الى طاعتهم أنظر العبر، ج7، ص114.

(45) بنو مانو: تنتسب هذه القبيلة الى زناتة، وتتحالف مع اخوانهم وجيرانهم بني يلومي، وكان موطنهم في شرق وادي مينا بمنداس، واسفل الشلف، ويقطن بعضهم قصور توات بولاية أدرار حاليا، وكانوا يخضعون الى بني عبد الواد، وبني توجين في بعض الأحيان.

(46) تغرين: كانت هذه القبيلة، تقطن جبل الونشريس، منذ القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وكانت محطتها ما بين الونشريس، ومنطقة السرسو القريبة من قلعة بني سلامة، التي لا تزال تحمل هذا الإسم حتى الآن، وكانوا يخضعون لبني عبد الواد، في غالب الأحيان، ويدورون في فلكهم، انظر: ابن خلدون: العبر، ج7، ص 204.

(47) هوارة: تقيم هوارة، بالجبل المنسوب اليها القريب من البطحاء والونشريس ومن بطونها زكارة، التي ينسب اليها جبل زكارة، الواقع في دائرة مليانة ويوجد بالقرب من مدينة «أشير» الصنهاجية سوق تعرف بسوق «هوارة» وكان شيوخ هذه القبيلة، يتحالفون مع بني عبد

الواد وقد ازدادت الصلة بينهما في عهد السلطان أبي تاشفين الأول (718_737 هـ/1318_1377م)، أنظر، ابن خلدون: العبر، ج7، ص 204.

(48) ازداجة، من القبائل القاطنة في المغرب الأوسط، تنزل بأماكن عديدة بوهران وتانسالت، التي تقع غرب مدينة وهران، وجبل حيدرة وسوق عبدون، كانت هذه القبيلة تخضع لنفوذ بني عبد الواد، وتؤدي الولاء لهم، أنظر، البكري: المصدر السابق، ص 70، ابن عذارى: البيان، ج1، ص 184.

(49) بنو ورنيد: وهم فرع من بني توجين، كانوا يقطنون جنوب الونشريس في البداية ثم سيطروا على المرتفعات والمناطق الجبلية من الونشريس، ويوجد جبل جنوب تلمسان يسمى باسمهم، يخضعون لدولة بني عبد الواد أنظر: العبر، ج7 ص 320.

(50) وجديجن: تنسب هذه القبيلة الى زناتة، وكانت تجاور كل من بني يفرن من الغرب، ولواتة في اقليم السرسو من الجنوب ومطماطة بالونشريس من الشرق، وكان موطنهم بمنداس (بجبل الونشريس) كانت لهم حروب مع بني يلومي وبني ومانو، وبني توجين، ثم مع بني عبد الواد الذين اخرجوهم من اقليم السرسو، أنظر: كتاب العبر، ج7، ص103، وج6 ص 255، عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج2، ص 13.

(51) العبر، ج7 ص321.

(52) مؤلف مجهول: فاخر البربر، ص 16_17.

(53) كتاب العبر، ج7_ص273_ج6 ص 40_ابن عذاري: البيان ج1 ص230_231 عبد العزيز فيلالي: العلاقات، ص 233.

(54) كتاب العبر، ج7 ص 164.

(55) التنسي ص 128.

(56) بنو سلامة: تتمركز هذه القبيلة ما بين تاغروت والونشريس، نزل بها عبد الرحمان بن خلدون مدة أربع سنوات ما بين سنتي 776_780/1375_1379، حرر بها مقدمته المشهورة أنظر كتاب العبر، ج6 ص 375.

(57) مطماطة: كانت تقطن هذه القبيلة بالجبل المقابل لمدينة تيهرت المعروف بجبل كركرة، وعندما تغلبت عليهم مغراوة، انتقلوا الى الجبل المطل على متيجة، أنظر كتاب العبر ج6 ص 154.

(58) وهاصة: تقع مضارب هذه القبيلة، بمنطقة تلمسان وهي تتكون من فرعين أساسين، الأول يسكن عنابة أما الثاني فيقطن ساحل تلمسان، أنظر: البكري: المغرب ص70_ابن عذاري: البيان ج1 ص 184.

(59) حول عدد الجيوش الفاتحة أنظر: النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب تحقيق مصطفى أبو ضيف دار النشر المغربية الدار البيضاء ص 175_200.

(60) نفسه، أنظر أيضا عبد العزيز فيلالي: المظاهر الكبرى ص 181_182.

(61) حول اجتياح بنو هلال المغرب أنظر: كتاب العبر، ج6 ص 27 وما بعدها، عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ج2 ص 666 وما بعدها، المقريزي: إتعاظ الحنفاء ص224 وما بعدها.

(62) أهم بطون قبيلة زغبة هي بنو يزيد، بنو حسن، وبنو مالك وحصين.

أنظر كحالة: قبائل المغرب القديمة والحديثة ج1 ص137_ابن خلدون: العبر ج6 ص 85. القلقشندي: نهاية الأرب، ص272.

(63) أبو راس المعسكري: عجائب الإسفار ورقة 14.

(64) بنو عامر: اسكنهم يغمراسن بنواحي تلمسان ووهران، وقربهم إليه فكان لهم أثر حسن على دولته بحيث ساندوه، في تصديه لهجمات بني حفص وبني مرين، كما ساندوا خلفاءه من بعده وشاركوا في مقاومة أبي الحسن وابنه أبي عنان أثناء هجومهما على مدينة تلمسان والمغرب الأوسط، وقد نوه شعراء بني عبد الواد، ببطولات بني عامر، وبدورهم الكبير في احياء دولةبني زيان ونددوا بهزيمة اعدائهم فقال السلطان أبو حمو موسى الثاني فيهم ما يلي: (الطويل).

تسربلت كردوسين من آل عــامــر ومن آل ادريــس الشريف بن القاسـم

حملنا عليهـم حـملـة مـضـريــة فـولـوا شـراوا مثـل جفـل النـعائـم

ظل بنو عامر مخلصين لبني عبد الواد، في تلمسان، حتى سقوط وهران في يد الإسبان فتعاونوا معهم ضد اخوانهم، ربما بسبب الأنانية الذاتية والمصلحة الإقتصادية للقبيلة من جهة، وعجز الدولة الزيانية وضعفها، الذي لم يمكنها من توفير الحماية لها ولأحلافها من جهة ثانية، وكانت لبني عامر خصومات مع قبيلة سويد العربية المنافسة العنيدة لبني عبد الواد، فقد كانوا يساهمون بنحو ستة آلاف مقاتل، في جيش بني عبد الواد بصفة دائمة وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: «كان بنو عامر بن زغبة، شيعة خالصة لبني عبد الواد، منذ أول أمرهم» (أنظر العبر ج7 ص 278) أنظر، أبو حمو موسى العبد الوادي واسطة السلوك ص 16. يحي بن خلدون: بغية الرواد ج2 ص 28، عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر ص9 ما يليها.

(65) بنو يزيد: تنحدر هذه القبيلة من زغبة، ناصرت الدولة العبد الوادية وتحالفت معها، كانت تقطن بلاد حمزة (البويرة)، اقليم بجاية، وصارت تقوم بجمع جباية هذه المناطق ناصروا ابا زيان على ابي حمو موسى الثاني، فغزاهم هذا الأخير وارغمهم على الفرار الى حصن جرجرة. أنظر كتاب العبر، ج6 ص87 ـ 91. بغية الرواد، ج2 ص 133 ـ 135.

(66) بنو مالك: يقع موطنهم جنوب أراضي توجين ما بين سعيدة والمدية، وكانت لبني مالك حظوة عند بني عبد الواد، الا أنهم لم يحافظوا عليها بتأرجحهم بين ولاء بني مرين وبني عبد الواد، أنظر: كتاب العبر ج2 ص 95 ـ105. مبارك الميلي: تاريخ الجزائر، ج2 ص572 ـ بوزيان الدراجي: العصبية القبلية ج1 ص 287.

(67) المعقل: اختلف المؤرخون في نسب هذه القبائل، فارجعوها الى بني هلال ولى عرب اليمن، بينما هم كانوا يدعون النسب الهاشمي، وقد انتشروا عبر تراب المغربين الأوسط والأقصى من جنوب تلمسان الى المحيط الأطلسي، وكان أبو حمو الثاني قد نقلهم الى ضواحي تلمسان واقطعهم بعض الأراضي، وآخى بينهم وبين بني عامر، «فعلا كعبه بهم جميعا». أنظر: العبر ج7 ص 260 بغية الرواد ج2 ص222، السلاوي: الإستقصاء ج2 ص 131 ـ132 محمد ماء العينين: الجأش الربيط ص 28 ـ29 ابن منصور: قبائل المغرب ج1 ص 414.

(68) ذوي منصور: يمثلون أغلب قبائل المعقل، وينتمي اليهم أولاد حسين الذين كانوا يحالفون بني عبد الواد، ومنهم المنبات الذين كانوا يناصرون بني عبد الواد، ضد بني مرين وبني حفص، وكانت مواطنهم تقع ما بين ملوية شرقا ودرعة في المغرب الأقصى غربا: كتاب العبر ج6 ص 131. ابن منصور: المرجع السابق، ج1 ص 425 مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق ص238 ـ239.

(69) حصين: كان وطنهم يجاور إخوانهم بني يزيد، من جهة الغرب، في المنطقة الممتدة، ما بين جبل تيطري ولمدية جنوبا، وتنتهي شكالا بمواطنن الثعالبة تغلب عليهم، بنو عبد الواد، واثقلوا كواهلم بالضرائب وأذلوهم.. والظاهر أنه هذا هو السبب الذي جعلهم لا يتوانون في محالفة اعداء بني عبد الواد، ويحرضون الخارجين عليهم ويدعمونهم. لعب بنو حصين أدوارا خطيرة في اضطراب أمن الدولة العبد الوادية، وعدم استقرارها، أنظر: ابن خلدون: العبر ج6 ص 91 ـ 93 ـ محمد الميلي: تاريخ الجزائر ج2 ص 572.

(70) ذوي عبيد الله: كانت أراضي هذه القبيلة تتاخم حدود بني عامر، وتقع في أحواز تلمسان الى مصب نهر ملوية، ومن هذا الأخير الى منبع وادي «صا» وكانت لهم قصور في توات وتمنطيط، وكانوا في الغالب الأعم حلفاء بني مرين ضد بني عبد الواد، لا سيما عندما استقروا بالأقاليم الواقعة بين هنين وندرومة ووجدة، أنظر: ابن خلدون: كتاب العبر ج6 ص 123 ـ 126.

(71) السويد: كانت لهذه القبيلة علاقة حسنة مع بني عبد الواد في بداية الأمر، فاقطعوها أراضي البطحاء ومنحوها ضرائب هذه الأراضي الا ان العلاقة الطيبة تغيرت بسبب الموقف المتصلب ليغمراسن ضد زعمائها، فنزلوا بجوار بني توجين خصوم بني عبد الواد، فكانوا يحرضون بني مرين على غزو تلمسان، أنظر كتاب العبر، ج6 ص46 ـ48.

(72) الثعالبة: كانت لهذه القبيلة اقطاعات بنواحي التيطرى، وجهات مختلفة من أشير، ولما تغلب عليهم بنو توجين طردوهم الى متيجة، واخضعوهم الى نفوذهم وكان الثعالبة يناصروهم أبو زيان ضد أبي حمو الثاني، فقام هذا الأخير بقتل وسبي وتشريد الكثير منهم، أنظر: كتاب العبر، ج6 ص 126.

(73) العبر ج 7 ص 290.

(74) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 25.

(75) الأخضر عبدلي: مملكة تلمسان، ص53.

(76) احاط يغمراسن دولته بسياج من القبائل العربية والزيانية، فكانت له ذرعا واقيا، وخطا دفاعيا أماميا، ضد خصومه بني مرين وبني حفص، أنظر: أبو راس المعسكري: المصدر السابق، ورقة 14 ـ أ.

(77) وفد على بلاط يغمراسن الأديب ابن وضاح وأبو بكر خطاب وقد استعملها في كتابة الرسائل الموجهة الى الموحدين العبر ج 7 ص 162 ـ 163.

(78) ابن خلدون: العبر ج 7 ص 162 ـ 163 ـ ابن الأعرج: زبدة التاريخ ج 3 ورقة 35.

(79) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 1 ص 205 ـ التنسي: نظم الدر، ص 116.

(80) برنشفيك: تاريخ افريقية ج 1 ص 60.

(81) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 1 ص 205 ـ ابن الأعرج: زبدة التاريخ ج 3 ورقة 37.

(82) بغية الرواد ج 1 ص 205 ـ الزركشي: تاريخ الدولتين، ص 29 أما التنسي فيذكر هذه الحملة بأنها وقعت سنة 645 أنظر نظم الدر ص 118.

(83) التنسي: نظم الدر، ص 118.

(84) بغية الرواد، ج 1 ص 205 ـ التنسي: نظم الدر، ص 118.

(85) التنسي: نظم الدر، ص 118.

(86) كتاب العبر، ص 169 ـ يطلق حسن الوزان على هذا الحصن قصر «تمزيزدكت» بينما يسميه التنسي حصن «تامزيزديت» أما صاحب البغية فيذكرها بجبل «تمزجزجت» ويقع جنوب وجدة بنحو (20) كلم وكذلك سماه صاحب الدخيرة السنية ب «تامزجردت» ونعته ابن الأعرج ب «تامزدكت» وهي كلها متشابهة متقاربة تدل على معنى واحد أنظر: وصف افريقيا ج 2 ص 11 ـ نظم الدر ص 118 ـ بغية الرواد ج 1 ص 206 ـ الدخيرة السنية ص 78 ـ زبدة التاريخ ج 3 ورقة 37.

(87) التنسي: نظم الدر، ص 119

(88) كان مصحف عثمان، قد انتقل بعد وفاة الخليفة إلى خلفاء بني أمية، ومنهم الى عبد الرحمان الداخل بالأندلس عن طريق شقيقته أم الأصبع فاوقفه عبد الرحمان الداخل بجامع قرطبة وكان الإمام يقرأ بعد صلاة الصبح كل يوم وعندما استولى عبد المؤمن الموحدي على الأندلس نقله الى عاصمته مدينة مراكش فغشاه بلوحين عليهما صفائح الذهب وأحجار كريمة ثم انتقل كما هو في المتن الى بني زيان ولما استولى أبو الحسن المريني على تلمسان سنة 737 ـ 1337 م انتقل الى بني مرين، أنظر التنسي: نظم الدر ص 123.

(89) ابن الأعرج: زبدة التاريخ ج 3 ورقة 37.

(90) نفسه، ج 3 رقة 37.

(91) التنسي: نظم الدر، ص 118 ـ 119 ـ ابن الأحمر: روضة النسرين ص 54.

(92) ابن الأحمر: المصدر السابق، ص 47.

(93) أنظر: صاحب الدخيرة، السنية: ص 83 - 131 - 146 - 27 .Bouali (S.A) les, 83 deux grands sièges P
Brosselard - (ch): les inscriptions arabe de tlemcen in revue africaine n 17 Juin 1885 PP. 321.322.

(94) ابن الأعرج: زبدة التاريخ ج 3، ورقة 37، ابن خلدون: العبر، ج 7 ص 189.

(95) لفظة دادا كناية عن غاية التعظيم باللسان الزناتي، أنظر العبر ج 7، ص 189.

(96) العبر، ج 7، ص 189 ـ 190.

(97) نفسه، ص 190.

(98) ابن الأعرج: زبدة التاريخ، ورقة 37.

(99) ابن مرزوق: المسند، 18 أنظر أيضا المجموع ورقة9، بغية الرواد ج1، ص 115.

(100) برنشفيك: المرجع السابق، ج1 ص116.

(101) بغية الرواد: ج1، ص 115، المسند، ص 18، المجموع ورقة 9.

(102) بغية الرواد: ج1 ص 207.

(103) عارف عبدا لغني: نظم الإستخبارات عند العرب المسلمين، دار الهدى عين املیلة الجزائر، ص 108ـ132.

(104) عارف عبد الغني: المرجع السابق، ص 327.

(105) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 42.

(106) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 42.

(107) نفسه، ورقة 42.

(108) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 42.

(109) ابن مرزوق المسند ص 285 الى 286.

(110) الأخضر العبدلي المرجع السابق، ص 59.

(111) التنسي: نظم الدر ص 129.

(112) نفسه، ص 130.

(113) بغية الرواد، ج1 ص 209.

(114) حول تفاصيل هذه الحروب وحول حصار مدينة تلمسان بوجه خاص أنظر ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 370 ـ 374، كتاب العبر ج7 ص 195، بغية الرواد ج1 ص 209 ـ 210 التنسي النظم الدر، ص 130 ـ 131.

(115) بغية الرواد، ج1 ص 210.

(116) ابن مرزوق: المجموع ورقة 15 بينما حدد ابن خلدون مدة الحصار بثماني سنوات وثلاثة أشهر العبر ج7 ص 197، ويحددها صاحب نفح الطيب بألف شهر المقري: ج5 ص 265.

(117) ابن مرزوق: المصدر السابق ورقة 15، ابن خلدون: العبر ج7 ص199.

(118) المجموع، ورقة 15.

(119) بغية الرواد، ج1 ص 210 تقلص نفوذ بني زيان بالمغرب الأوسط أثناء هذا الحصار حتى أصبح لا يتعدى أسوار مدينة تلمسان.

(120) المجموع، ورقة 15.

(121) ابن خلدون: العبر ج7 ص197.

ـ عطاالله الدهينة: الحصار الطويل ضمن كتاب الجزائر في التاريخ ص 373.

(122) ابن خلدون: العبر ج7 ص197، ابن العرج: زبدة التاريخ ج3 ورقة42.

(123) التنسي: نظم الدر، ص 132 .34Barges (L.J.J.L): Tlemcen ancienne capitale du Royaume P.

(124) التنسي: نظم الدر، ص 132، يبدو أن الشرارة التي اشعلت فتيل الحرب بين بني مرين وبني زيان هي الثورة التي قام بها أبو عامر بن يوسف المريني ضد أبيه بمساعدة والي مراكش محمد بن عطوا الجناني، إلا أنهما فشلا فهربا بالمال إلى مدينة تلمسان وطلبا اللجوء

إليها ثم عاد إبن السلطان الى بلاده وبقي محمد بن عطوا عند الزيانيين وهو الأمر الذي أغضب بنو مرين، ولعل هذا هو السبب الذي اشعل نار الحرب مرة أخرى مع بني زيان أما مدة الحصار فقد حددت أغلب المصادر بثماني سنوات وثلاثة أشهر وخمسة أيام بينما حدده ابن مرزوق بتسع سنوات وذهب صاحب صبح الأعشى إلى أن الحصار دام عشر سنوات أنظر المجموع ورقة 15 القلقشندي ج5 ص150.

(125) اختلف المؤرخون في سنة رفع الحصار، وفي عهد من؟ فالأخوين يحي وعبد الرحمان ابني خلدون وابن أبي زرع يذكرون بأنه رفع سنة 706 هـ/1306 م أي في عهد أبي زيان الذي وافته المنية سنة707 هـ 1307/ م بينما يذكر التنسي أن الحصار رفع في عهد أبي حمو موسى الأول وأن أبا زيان توفي قبل رفع الحصار في سنة 706 هـ/1306 م ويعتمد في ذلك على رواية صاحب «درر الغرر» الذي عاصر الحدث، وهذا فقد اختلفوا أيضا في مدة الحصار، أنظر العبر ج7 ص98، بغية الرواد ج1 ص 211 روض القرطاس ص 286، التنسي: ص135، أنظر أيضا: Bouali (S.A) les deux sièges p. 21 note n5.

(126) ابن مرزوق: المجموع ورقة 14 ـ التنسي نظم الدر: ص135.

(127) ابن خلدون: العبر ج7 ص / 98ـ يحي بن خلدون: بغية الرواد ج1 ص211 ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 286.

الباب الأول

الفصل الثاني

عصر التوسع ثم الاضطراب وإحياء الدولة من جديد

707ـ 791هـ / 1307ـ 1389م

1 ـ عصر التوسع والازدهار.
2ـ أتساع حدود الدولة الزيانية .
3ـ مرحلة التدخل المريني .
4ـ عودة بني زيان الى تلمسان .
5ـ استيلاء بني مرين على تلمسان .
6ـ احياء دولة بني زيان للمرة الثانية .

عصر التوسع ثم الاضطراب واحياء الدولة من جديد
(707ـ791هـ/ 1307ـ1389)

عصر التوسع والإزهار:

يبدأ هذا العصر بانتهاء الحصار المريني، لمدينة تلمسان وإحياء الدولة الزيانية، وانبعاثها من جديد، على يد أبي حمو موسى الأول (707ـ718ـ1307ـ1318) الذي خلف أخاه أبا زيان، فقد كان أبو حمو كما تذكر النصوص، يتميز بالصرامة والحزام، مفرط الحدة [1].

أعاد للدولة الزيانية مجدها وعزها واستقلالها بعد عشرية تقريبا من الهيمنة المرينية، التي كادت أن تطيح بالعرش الزياني، استهل أبو حمو الأول ساسيته، باتباع نهج والده وهي الجنوح إلى مهادنة بنى مرين ومسالمتهم، فابرم اتفاقية، تتضمن معاهدة الإخاء وحسن الجوار، مع أبي ثابت عامر المريني (706 ـ 708 ـ1306 ـ 1308) ليؤمن ظهره، ويتفرغ للبناء والتشييد، وبسط نفوذه على المناطق التي استفادت من الحصار الطويل، واستقل حكامها عن السلطة المركزية[2] وتمكن أبو حمو الأول في ظرف وجيز، أن يصل إلى الأقاليم الشرقية الواقعة غرب البلاد الإفريقية وتخطى حدود الدولة الحفصية إلى أن حط بظاهر العناب، وجبل ثابت القريب من مدنية قسنطينة بقيادة موسى بن على الكردي [4]على الرغم من فشله في الاستيلاء على مدينة بجاية وهما اقليمان تابعان للدولة الحفصية وبالتالي تجرد من الولاء الذي كان والده يؤديه الى بني حفص وأصبح الزيانيون (بنو عبد الواد) في عهده لا يخضعون، لهيمنة الجارتين الشرقية والغربية، ويتمتعون بالاستقلال التام والسيادة الكاملة على أراضي المغرب الأوسط، بل تعدى الحدود الشرقية وتوغل في الأقاليم الحفصية [5] واستطاع من جهة أخرى أن يحافظ على الحدود الغربية لدولته التي ورثها عن والده وتصدى لقوات بني مرين ومنهم من تجاوز اقليم وجدة ونهر ملوية [6].

اهتم أبو حمو الأول بالبناء والتشييد، وتطوير الجيش وتقويته لأنه أداة القوة والسيادة وزاد في عدته وعدده، وأمن الطرق للسابلة، وحفر الخنادق حول العاصمة، وخزن المؤن والطعام ومختلف

المواد الغذائية في أهراء المدنية ومطاميرها الكثيرة، وادخر الحطب والفحم ووسائل التدفئة، للطوارىء المحتملة، التى تعود عليها المجتمع التلمساني، وصارت المقاومة والصبر جزء من حياته، تميز بارادة قوية وعزيمة فولاذية في مثل هذه الظروف، يد تحارب وأخرى تبني وتشيد، قاده أبو حمو الأول، بصرامته المعهودة، وأعاد للدولة هيبتها واحترامها أمام القبائل المختلفة والجيران من الجهة الشرقية والغربية، وحتى اعتبره صاحب كتاب العبر، "أول ملوك زناتة [7] وحتى يثق في طاعة القبائل ويتمكن من ولائهم، بالغ في أخذ الرهائن منهم ومن أهل العمالات، بل حتى من قومه بنى عبد الواد، وأنزلهم بقصبته بمدنية تلمسان [8]. وظل أبو حمو الأول ينتهج هذه السياسة، مع الرعية والجيران، ونجح في ذلك إلى أبعد الحدود، إلا أنه - فيما يبدو - لم يتمكن من السيطرة على طموحات ابنه وولي عهده وبطانته من الأعلاج ونواياهم واخفق في التصدي لهم، وكشف مؤامرتهم، فقد دبر له ابنه العاق وولي عهده أبو تاشفين الأول عبد الرحمان بن أبي حمو، مؤامرة وتمرد أودى بحياته في جمادي الأولى من سنة 718 هـ/ 1318م، وجهز السلطان إلى متواه الأخير بمقبرة السلف من القصر القديم، وعقدت البيعة لابنه على قومه خاصة وعلى الناس عامة من نفس الشهر الذي اغتيل فيه الوالد[9].

وكان أول مابدأ به السلطان الجديد هو ابعاد بعض الأفراد من ابناء يغمراسن الذين كان يخشى خروجهم وفتنتهم وأجازهم إلى بلاد الأندلس وقلد حجابته مولاه هلالا، وقرب أعوانه إليه ومن يثق فيهم، ووزع قيادة الأقاليم على أنصاره [10]، وعقد لموسى بن علي الكردي على قاصية الشرق وكلفة بحصار بجاية، و"اغرق دولته بتشييد القصور واتخاذ الرياض والبساتين" حسب تعبير ابن خلدون [11].

وقام باخضاع المناوئين والخارجين، في الأقاليم الشرقية، والظاهر حتى أن أبا تاشفين، اتبع سياسة اسلافه في اخضاع الأقاليم الشرقية، ومهادنة بني مرين، فقد أمر بمحاصرة بجاية، وكلف قائده موسى بن علي الكردي بهذه المهمة، والضغط عليها وتكررت الهجومات عليها مرة في كل سنة تقريبا [12] وحاول غزو البلاد الافريقية عدة مرات كانت الأولي سنة 721هـ/ 1321م، بحيث وضع مدينة بجاية تحت الحصار الشبه الدائم عشرية كاملة ثم انتقل الى مدنية قسنطينة، وأناخ عند ظاهرها فامتنعت عليه لحصانتها وشدة مقاومة أهلها، فاتجه إلى بلاد العناب وجال في ربوعها، ثم عاد إلى وادي بجاية [13]، وابتنى في أول مضيقه حصن "بكر" [14]، وانزل به الجند

والعتاد وترك عليه القـائد الجمي يحي بن موسى، فاصبحـت بذلك مدنية بجايـة الحفصية مهددة بخطر بني عبد الواد، بصورة مستمرة في عهد أبي تاشفين الأول [15]. حاول أبو تاشفين غزو بجاية ثم قسطنينة التي حاصرهـا ثلاث مرات مابين سنتي 721هـ/ 726 ـ 1321 ـ 1326م لكن بدون جدوى إذ عجز عن اقتحام اسوارها، فاضطر جيشه أن يعود إلى حصنه بوادي بجاية[16] ورأى أبو تاشفين أن حصن بكر لم يعد صـالحا لتأدية مهامه الدفاعية والهجوميـة، وتجهيز الكتائب، فأنشأ بلدة جديـدة بالقرب من بجـاية، وبالتحديد في سـوق الخميس، الواقعة على حـافة الوادي [17]. وجعلها قاعـدة لانطلاق جيوشه إلى الأقاليـم الشرقية، ومقرا للإمدادات المستعجلـة، وتمكن من بنائهـا في مدة قصيرة قياسيـة، واطلق عليها اســم تامزيـزدكت [18]. تشبيها لها بالحصـن القديم الموجود جنوب مـدينة وجدة في الحدود الغربية للـدولة، وولى عليها موسـى بن علي الكردي [19]، فاصبحت هذه البلدة الخط الـزياني الأمامي المتاخم لحدود الدولة الحفصيـة، يراقب منها تحركات بني حفص وقبائل الجهة الشرقيـة وهو نفس الدور الذي كان يلعبه حصن تـامزيزدكت في الحدود الغربيـة، وانزل بها جيشـا يناهز عـدده ثلاثـة آلاف مقاتـل، وأمر السلطان جميـع عماله بـالمغرب الأوسط، بنقـل المؤن والحبوب والأدم إليه ومختلـف المواد الغذائية حتـى الملح، وأخذ الرهـائن من سائر المناطـق رمزا للطاعة بعد أن استـوفوا جبايتهم، فثقلـت وطأتهم على بجاية فاشتـد حصارها وغلت اسعارها [20].

وفي الأثناء اخـذت هذه الحامية العسكريـة، تهاجم مدينتـي بجاية وقسنطينة واطـرافهما حتى وصلت إلى بـلاد العناب، وخاصة سنـة 728هـ/ 1328م، والظاهـر أن أبا تـاشفين، لم يكتف بالحصون التي بناها بـالقرب من بجاية وجعلها قلاعا لحصارها، وخنـق أهلها، فالوثائق تشير إلى حصن أخر في "الياقوته" [21] يكون أبا تاشفين قد أمر ببنائه في أعلى الوادي سنة 729هـ/ 1328، مقابل بجاية وبالقرب منها كنقطة مراقبة جديدة حتى يتحكم في المنطقة [22].

وقام في السنة التالية بتجهيز حملة بقيادة يحي بن مـوسى الجمى السنوسي، وبرفقته أحد الأمراء الحفصيين، المناوئين للسلطة المركـزية بتونس، وجهه إلى افـريقية وهي السياسة التـي انتهجها أبو تاشفين في اعتماده على مسـاندة خصـوم العرش الحفصي، واستقبـالهم في بلاطـه، وخاصـة منهم شيوخ الأعراب وابناء الأسرة الحاكمة الغاضبون على السلطان، والمطالبون بالعرش، فكان يدعمهم ويساندهـم ويشجعهم ماديا ومعنويـا بتقديم الجند والمال، وتحريضهـم على النهوض والثورة [23]

وكانت لهم انتصارات على سلطـان تونس أبي يحي الحفصي (718 ـ 747 / 1318 ـ 1346) بالواد الشارف من افريقية، ولاستيلاء على ذخـائره وحريمه وولديه ومحلاته [24] ونجا السلطان بأعجوبة حيث احتمى باسوار مدنية قسنطينة.

وبالتـالي تمكنت جيـوش بني زيـان من السير في الطـريق المفتـوح أمامهـا نحو عـاصمة بنـي حفص، فدخلت مدنية تونس دخول المنتصر وأقامت بها نحو أربعين يوما، ثم سلم القائد الزياني مقاليد الأمور لابن أبي عمران المرافق له، وحمزة بن عمـر السلمي، وقفل راجعا بقواته إلى قواعدهم بوداي بجايـة، سنة 730 هـ / 1330م. بعد أن أخـذ الولاء والطاعـة من أعيـان تونس، وتقـديم الجباية، وفي طـريقة ضيّق الحصار على قسنطينـة وبجاية، وحال بينهما وبين الامـدادات، فاشتد الغلاء لنقص المؤونة والدخيرة [25] حاول أبو يحي الحفصي المحاصر بمـدنية قسنطينة أن يبرم صلحا مع أبي تاشفين، وارسل إليه رسولين لهذا الغرض هما: قـاضي انكحة المدنية، وفقيهها أبو عبد الله محمـد القـريشي الزبيـدي، والظـاهـر أن مهام هـذه السفـارة، لم تكلل بـالنجـاح ولم تصـل إلى اهدافها [26] بسبب اصرار أبي تاشفين وعنـاده، لأنه يعد في مركز القـوة. وكان السلطان الحفصي، قد بعـث في نفس الوقـت سفارة أخرى إلى المغرب الأقصـى، عن طريـق البحر، تضم عضـوين هامين هما: ابنه يحي ووزيره تافراجين [27]، يطلب من أبي سعيد المريني (710 ـ 731هـ / 1310 ـ 1331م) التدخل ومساعدته، لصد هجومات بني زيان المتكررة على بلاده. .

ويعرض عليه مصاهرة ابنه ابي الحسن باحدى بناته [28]، فلم يتوان العاهل المريني، في ارسال وفد هام إلى مدنية تلمسـان، بغرض الكف عن غزو الديار الافريقية، والإقـلاع عن حصار مدينة بجاية، التـي عانى أهلها الأمرين طيلـة عشرية كاملة، إلا أن هذا المسعى تعثـر بسبب رفض أبي تاشفين لهذا الطلـب، ولم يكتف بذلك، بـل تحدى بني مرين في عقـر دارهم، فوجه جيشـا لغزو مدينة تاوريرت القريبة من الحدود الزيانية وهزم حاشيتها، ثم قفل عائدا إلى دياره بتلمسان [29].

إتساع حدود الدولة الزيانية:

لم تكن الدولة الزيـانية منذ نشأتها مستقرة وثابتة بل كانـت تتغير وتتبدل، بحيث تتقلص حينا وتتسع أحيـانا حسب استعداد بنـي زيان، وقوتهم العسكريـة والاقتصادية واستقرارهـم وأمنهم، ووحدة أمـرائهم وانسجـام قبائلهم وولائهـا الصـادق، وقـد حاولوا أن يجعلـوا من الحدود الغـربية

حدودا ثـابتة منـذ عميدهم يغمـراسن ، الـذي أوصى بـذلك ، وقد حـاول أغلب خلفـائه تطبيق الوصية ، بينما جعلوا من المنطقـة الشرقية وحدودها المتاخمة للدولة الحفصية مجالا للتـوسع ، عندما تتيح لهم الفرصة لذلك ، لاسيما في عهد كـل من يغمراسن وأبي حمو الأول وابنه أبي تاشفين الأول، فقد توغلـت الجيوش الزيانية في عهـد هذين العاهلين الأخيرين في الأراضي الحفصيـة ، وضايقت مدن بجاية وقسنطينة وعنـابة ، وخنقتها عدة سنوات ، حتى وصلـت إلى مدينة تـونس عاصمة بني حفص [30] في عهد أبي تاشفين (718ـ737/1318ـ1337) ، ولكنها تراجعت إلى اطراف بجاية، وهو أقصى اتساع لها في المنطقة الشرقية [31].

وكانت كل من الجارة الشرقية والجارة الغربية ، قد قامتا باجتياح الأراضي الزيانية ، عدة مرات، واستطاعتـا أن تحاصرا مدينة تلمسان واحتـلالها ، ولا سيما من قبل بنـي مرين وتطيحا بعـرش بني زيان ، في فترات زمنية محدودة ومتعاقبة .

وكانت الصحـراء هي النقطة النائيـة في الجنوب ، التي يلجأ إليهـا أمراء تلمسان ، عندمـا تغزا أراضيهم ، ولهذا فمـن الصعوبة بمكـان ، أن نوضح الحدود السيـاسية والإدارية للـدولة الزيـانية ولغيرها من بلدان المغرب الإسـلامي في العصر الوسيط ، توضيحا دقيقا أو نرسـم لها معالم جغرافية ثابتة ، وإنما يمكن أن نضع لها خارطة سياسية تقريبية للمجال الجغرافي الذي كانت تتربع عليه في أغلب الأوقات ، مستندين في ذلك إلى ماتركه لنا بعض المؤرخين من معطيات في هذا المجال ، وإلى ماوصفـه لنا بعض الجغـرافيين ، خلال القرن الثامـن الهجري ، الرابـع عشر الميلادي مستعينين بما توصل إليـه بعض الباحثين ، وخاصـة أيا م ملوكها العظام الـذين حافظوا على الـأستقرار الداخلي لدولتهم ومد نفوذهم الى أقصى حد له .

ولهذا يمكن القـول ، بأن الحدود السياسيـة والإدارية الثابتة للـدولة الزيـانية ، قد وصلـت من الناحيـة الشرقية إلى جبـل الزان (جبل اكفـادو) كما ذكر حسـن الوزان [32]، واستقرت عنـد وادي بجـايـة أو الوادي الكبير (وادى الصـومـام) كما حـددها ابـن خلـدون [33] وصاحـب نظم الـدر والعقيان[34]، وهي الحدود الشرقيـة المتاخمة للدولـة الحفصية ، التي ظلـت ثابتة في أغلـب سنوات وجود الدولة الزيانية ، أما الناحية الغربية ، فقد استطاع بنو زيان ، أن يحافظوا على حدودهم ، من هذه الجهة منذ عهد السلطان يغمراسن ، وأن يرسموا لها معالم طبيعية ، تمثلت في وادي ملوية [35]، ووادى " صا " وفجيـج في الغرب والجنـوب الغربي ، وإلى بلاد تـاوريرت أحيانـا والتي تقـع غربي

مدينة وجـدة، وتبعد عنها بنحو مائة وستـة وثلاثين كلم [36] وشملت قلعة تامزيـزدكت كما ذكرها التنسي [37].

وهو حصـن بُني علي هضبة، صخريـة، تقع على بعد عشريـن كلم جنوب مدينـة وجدة على الكدية المسماة حاليا بجبل المحصر [38] وصارت حدود بني زيان في جنوب الغربي من وادي " صا " المتفرع من وادي ملوية إلى مدينة فجيج [39].

بينما بلغت في الناحية الجنوبية، إلي نواحي ورجلان وغرداية وتوات [40]. وكما أطلق عليها ليون الإفريقـي (حسن الوزان) بصحـراء نوميديـة التي تفصـل مابين بلاد المغـرب في الشمال وبين بلاد السودان في الجنوب [41].

إذن فالحدود الزيانية، بلغت نواحي بجاية وبلاد الزاب من الشرق، ومن نهر ملوية وتاوريرت ووجدة وتامزيـزدكت وفجيج من الغرب والجنوب الغربي، ومن مصـب نهر ملوية وهنين، ودلس وحصن "بكر" وتامزيزدكت عند مصب وادي بجاية (وادي الصومام) على ساحل البحر الأبيض المتوسـط شمالا، إلى ورجلان وغراديـة واقليم توات جنـوبا [42] وهي الحدود التـي استمرت عليهـا الدولة الزيانيـة في أغلب الأحيان طوال وجودها بالرغم من الغـزوات والهجمات التي قامت بها كل من الـدولة المرينية والدولـة الحفصية، مرات عـديدة على الأراضي الزيـانية وعلى عاصمتها مـدينة تلمسان.

مرحلة التدخل المريني: 735ـ 749هـ / 1335ـ 1348)

عندمـا تولى أبو الحسـن بن أبي سعيد المريني، شـؤون الدولة المرينيـة سنة 731 هـ / 1331م، وتربع على العرش أتبع سياسة والده، مع بني حفص أصهاره، وبني زيان خصومه، إذ استكمل مساعـي والده، التي بـدأها مع أبي تـاشفين، من قبل، وهـي مساعي يـريد من ورائهـا، أيقاف هجمات بني زيـان على التراب الحفصي، فأرسـل وفدا دبلـوماسيـا إلى تلمسان، في محاولـة أخرى لاقناع العـاهل الـزياني على الاقـلاع عن مهـاجمة أراضي صهره، عـامة ومـدينة بجـاية على وجـه الخصوص، ولكن فيما يبدو، أن أبا تاشفين رأي في هذه المطالـب المرينية تدخلا في شؤونه وتهديدا لسيادتـه واستقلاله، وكيـان دولته فرد على أبي الحسـن بإجـراءات عملية وهي هجـومه على وادي

" صا " المتاخم لبلاده وأرسل لـه تحذيرا، بل تهديـدا إن أصر على مطلبه [43] " وأساء الرد وأسمع الرسول بمجلسه هجر القول " حسب تعبير ابن خلدون[44].

فنهض إليه أبو الحسن في جيش كبير سنة 732هـ/1332م، واتجه نحو تاسالة، وضرب عليها حصارا وأطـال المقام بها [45]، وبعث منهـا إلى صهره الحفصي في بجـابة بعـض المدد مع الحسـن البطـوي، انطلقت مـن سواحـل، وهـران، فتمكن السلطـان أبو يحي الحفصي بهذه الامـدادات البحرية أن يهدم حصن تامزيزدكت، فأجفل منها بنو زيان، وعادوا إلى خلف حدودهم [46].

إن احتلال أبي الحسن لوهـران وسواحله، واختياره لطريق البحـر والسواحل، ربما يهدف منها قطع الطريـق أمام امدادات بني الأحمر، حلفـاء بني زيان [47]وذهـب أحد البـاحثين الغربيين، إلى القول بـأن أبا الحسن يـريد أيضا، قطـع الطريق أمـام المساعدات، التـى يمكن أن تأتيهـم، من الجمهوريات الايطالية، التي كانت لها علاقة تجارية طيبة مع بني زيان [48].

إلا أن هذا الاحتمال، يفتقر إلى الدقة والحقيقة، لأن الجمهوريـات الأيطالية، كانـت لها صـلات دبلوماسية طيبة، وعلاقة تجارية مكثفة ومعاهدات عديدة موقعة مع بني حفص في إفريقية، التي تقترب شواطئهـا من شواطئهم، على الـرغم من عـلاقتهم التجاريـة مع تلمسان وقد استطـاعت الجيوش المرينيـة الحفصية المشتركة، أن تضرب الحاميـة الزيـانية في الحصن الشرقـي سنة 733هـ / 1333م [49]، واذا كانت هذه الجيوش، قد تمكنت مـن تقليص نفوذ بني زيان في المنطقة الشرقية، فإنها عجزت عن القضاء عليهم.

ولما تغلب السلطان أبو الحسن المريني على أخيه الثائر عليه وقتله سنة 734هـ/1334م، وأعاد الاستقرار لبلاده، قرر العودة لغزو مدينة تلمسان وحصارها، فنهض اليها سنة 735هـ/ 1335م، مرة ثانيـة بعد سنتين من الزمن، فهـاجم ندرومة وهنين وتاسـالة ووهران [50]، ثـم توجـه إلى مدينة تلمسان عاصمة بنـي زيان، وعندما لم يستطع اقتحام أسـوارها، عمل ما عمل سلفه يـوسف بن يعقوب في نهايـة القرن السابع الهجـري، فقام ببناء مـدينة "المنصورة" " مـرة ثانية بعد أن هـدّمها التلمسانيون عندما انتهى الحصار الطويل [51]لتصبح مقرا له ولحاشيته، ويشدد من خلالها الخناق على مدينة تلمسان ودام الحصار أكثر من ثلاثين شهرا، قاوم بنوزيان أثناءه، مقاومة شديدة، أمام أدوات الحصار وآلاتـه الضخمة، ولم يدخـل أبو الحسن، عاصمـة بني زيان، إلا بعـد أن تفطن لمصدر المياه التي تزود المدينة، فقطعه عنها، وتقدم نحو الملعب الواقع أمام باب القرمادين، وأناخ

به في 27 من شهر رمضان سنة 737هـ/1336م. وفي اليوم التالي تمكن جيشه من اختراق الأسوار ودخول المدينة [52]، وكان السلطان أبـو تاشفين وأولاده. ووزراءه في مقدمة المقـاومين، فقتل أمام باب قصره، برحبـة أيمن تجمعي [53]، مع أبنائه وحاشيتـه، وبذلك اختفى رسم الدولـة الزيانية وزال نفوذهم، وحـل محلهم بنو مريـن في إدارة المغرب الأوسط، مدة زمنيـة زادت عن أثنتي عشر سنة، وهو الاختفاء الطويل في تاريخ بني زيان.

ومهما يكن من أمر فالجدير بالملاحظة، أن أبا السحن المريني قد استفاد من خدمات من تبقى من أسرة بنـى عبد الواد، كما استعمل ضبـاطهم وجنودهم في تـوسيع نفوذه، إلي جانـب جشيه، حتى صار المغربين الأوسط والأقصى، تحت لوائه، فتحقق لـه بذلك حلما، ظل يراود اسلافه من قبل، فقد جهز له إمكـانيات ضخمة المادية منها والبشرية، من بني عبد الـواد، والقبائل الزيانية مثل توجين ومغـراوة والقبائل العربية التي استغنـى عنها، في هذه الحملة، وربما هـذا هو السبب الذي جعل القبائل العربيـة تقف ضده وتكون حجر عثراء أمام أهدافـه وطموحاته [54] وكانت له بالمرصاد بالقيروان، فعندما كان يستكمل ماتبقـى من مشروعه وهو الاستيلاء على افريقية في شهر صفر من سنة 748هـ/ 1347م [55] الذي ظل يحضر له أكثر مـن عشر سنوات، ويهيء له الظروف المناسبة فحينما سنحت الفرصة لذلك غادر أبو الحسن مدينة تلمسان، وترك ابنه أبا عنان نائبا له، وتوجه نحـو افريقية فكسح أمامـه بلاد الزاب وبجايـة وقسنطينة ثم عاصمة بنـي حفص، حيث وصلها في شهر جمادى الأخـرة من سنة 748هـ/ 1347 [56]. وكانت مدينة تـونس قد تعرضت إلى هجوم بـرّي وبحري معا مما اضطـر سكانها إلى فتح أبـواب المدنية واستسلموا بدون مقـاومـة [57] وكان بصحبة أبي الحســن، جيــش من بنـي عبـد الــواد، يقوده كـل من الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت إبني عبد الرحمان بن يغراسن، وكان أبـو الحســن شديـد الحـرص على زيارة أضرحة الأولياء ومقابرهـم، كعادته، في مختلف المدن السـاحلية وكذلـك الداخلية بإفريقية فراز القيروان والمهدية، والمنستير لجلـب عطـف النـاس واحترامهـم وكسـب ودَّهـم، وخـاصـة منهـم الفقهـاء ورجـال الديـن [58].

وقد استاء أبو الحسن، حينما وجد نفوذ القبائل العـربية مهيمنة على الدولة الحفصية ولم يطمئن لذلك الأمتياز الـذي يحظون به فاتخذ بعض الإجراءات التي تحد من شـوكتهم وتدخلهم في شؤون الدولة [59].

ولعل الانتصـار الذي حققـه الجيش المرينـي ، في توحيد المغـرب الاسـلامي كـان يخبىء وراءه ظروف غير عـادية ، ففي الـوقت الذى كان أبـو الحسن يستقبل كـل من سفيري قشتالـه ومالي ، والذين جـاءوا لتهنئة العاهل المرينـي على هذه الانتصارات وتـوحيد ، المغرب [60] كان الاعراب ، يحضرون له ، انقلابا إذ رفضوا اجراءاته الجديدة ، وبايعوا احمد بن عثمان بن أبي دبوس (750 ـ 751 هـ / 1349 ـ 1350) وجعلوه رمزا للمقـاومة ، وثاروا ضد بني مـرين وهيمنتهم . وكانـت المعركة الحاسمة بين أبي الحسن والأعراب بالقيروان [61] لصالح القبائل العربيـة ، التي أنظم إليها الأميران الزيانيان أبو ثابت وأبو سعيد ، وكانـت هزيمة الجيش المريني ثقيله وأشيع خبر مقتل السلطان في هذه المعركة ، بين جيشه فأثر هذا الخبر على معنويات الجيش وجعل أبو عنان يغادر مدينة تلمسان إلى مدنية فاس ، بصفتـه ولي العهد ووارث العرش وترك عثمان بن جرار العبـد الوادي ، حاكما على تلمسان والمغرب الأوسط سنة 749 هـ / 1348م .

عودة بني زيان إلى تلمسان:

في خضم هـذه الأحداث السريعة ، وتطـوراتها في البلاد الإفريقية والمغـربية أجتمع بنـوزيان ، المرافقين لأبي الحسن إلى أفريقية ، وبـايعوا أبا سعيد بن عبد الـرحمان ، أميراً عليهم ، في المنفي ، ثم عملوا على كسب تأييد كل من مغراوة ، وتوجين وتحالفهما ، وتناسوا بذلك جميع خلافاتهم القبلية ، ومصـالحهم الضيقـة ، وتـوجهوا جميعـا نحـو المغـرب الأوسط ، بعـد انكسـار الجيش المرينـي في القيروان ، واندحـاره أمام القبائل العـربية ، كما أشرنا وعنـدما وصلـوا إلى الشلف خذلتهـم مغراوة وتبعها بنو توجين ، وبقي الأميران الزيانيان أبو سعيد وأبو ثابت ، على رأس قوة تضـم نحو خمسمائة فارس ، يقاتلان في طريقهما إلى تلمسان ، إلى أن وصلوا إلى أسكاك [62]، بازاء جمعة العز أين التقيا أحـد إخوة ابـن الجرار، نائب السلطـان أبي عنان على المغـرب الأوسـط ، فقاتلـوها حتـى انتصروا عليهـا[64].

ولما سمع أهل تلمسان ، بقدوم سلطانهم ثـاروا على ابن الجرار وكسروا أبواب المدينة ، وفتحوها لاستقبال أبي سعيد فـدخل العاصمة الـزيانية ، والرعية تنـادي بحياته وحياة أسرتـه ، التي فقدت عرشها نحو اثنتي عشر سنة ، وأحيا بذلك أبو سعيد دولة الآباء والأجداد وتقاسـم مع أخيه السلطة حيث رجعت الخطبة والسكـة وكرسي العرش لأبي سعيد ، بينما تقلد أبو ثابـت ، ألوية الجيش [65]

فالتزم كل واحد منهما بصلاحياته (66)، وكان الأميران متفاهمين منسجمين، ولم يحدث أن اختلفا فيما بينهما، إلا في السفارة التى عزم أبو سعيد على توجيهها إلى أبي الحسن، وهو بتونس برئاسة الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب، الذي لم يتوان في مراسلة السلطان المريني بتونس، في محاولة للصلح بينه وبين أبي سعيد الزياني، فسعت بعض الأطراف إلى أبي ثابت على نقضه، وكانت النتيجة أن سجن ابن مرزوق في تلمسان نحو تسعة أشهر ولم يتم الصلح(67).

وكانت الأقاليم في المغرب الأوسط، قد خلعت طاعة بني زيان بعد ذهاب رسم دولتهم، ولا سيما منها الأقاليم الشمالية والشمالية الشرقية، فعزم أبو ثابت قائد الجيش، على اعادتها إلى حظيرة الدولة، واستطاع أن يخضع قبيلة كوميّة في الساحل، وندرومة وهنين ووهران، وقد استنفر لهذا الغرض بعض قبائل زناتة والعرب(68).

لقد كانت الاحداث سريعة، والحرب متواصلة، فلم تترك أبو ثابت يهنأ بالراحة بعد عودته من وهران، إذ سرعان ماوردت إليه أخبار من الشرق عن قدوم الناصر بن أبي الحسن المريني، إلى المغرب الأوسط وانضمام بعض القبائل العربية اليه مثل : سويد والديالم، والعطاف والحصين وهي قبائل تكن العداء لبني زيان، منذ تأسيس دولتهم، وتتحالف ضدهم. وبفضل الإعانة السريعة التي قدمها أبو عنان إلى أبي سعيد وأخيه أبي ثابت، والمتمثلة في اطلاق سراح بني عبد الواد من سجون فاس، ومعتقلاتها وعودة الرهائن إلى تلمسان، وبعض المال والرجال، الذين ارسلهم إلى أبي ثابت، لأن أبا عنان كان يريد أن يقضي على أخيه وأبيه المنافسين له، تمكن أبو ثابت من هزيمة جيش الناصر بن أبي الحسن في منطقة الشلف بوادي "درك"، من أرض العطاف سنة 751 / 1349م وأخضع معه القبائل العربية، ثم عرج على وهران للمرة الثانية ودخلها عنوة في نفس السنة، ولم يترك في طريقه أهل مغراوة ومازونة وما جاورهما فادعنت هذه المناطق إلى طاعة إبي سعيد، وبعثت له بالبيعة والولاء. وكان بنو زيان، لا يخرجون من حرب إلا ويدخلون في حرب أخرى، بسبب الخارجين من القبائل الزيانية، والعربية من الداخل، والهجومات القادمة من الخارج (69). ففي الوقت الذي كان فيه الجيش الزياني يعمل على توسيع دائرة نفوذه، وتوطيد أركان دولته، قدم أبو الحسن المريني إلى مدينة الجزائر في شوال سنة 750هـ/ 1349م، في اسطول ضخم يتكون من ستمائة سفينة، غرق بعضها بين سواحل بجاية ودلس، بسبب الزوابع البحرية ورداءة الطقس وغرق معها نحو أربعمائة عالم وفقيه، كانوا رفقة السلطان أبي الحسن المخلوع،

الـذي نجـا بأعجوبـة مـن هـذه الكـارثة مع طائفة من حـاشيته وخواصه [70]، فهبت كعادتها لنصرته قبيلـة سويـد بقيادة زعيمهـا ونزمار بـن عريف، وانضـم إليه بنو تـوجين بقيادة عدي بن يوسف ومغراوة بـرئاسة على بن راشد، خصوم بني عبد الواد ومنـافسيهم، ودب دبيبه بين القبائل العربية الأخرى، وعلى الرغـم من انتصارات أبي ثابت العديـدة والمتكررة على هذه القبائـل [71]، إلا أن الأوضـاع لم تستقـر بالمغـرب الأوسط، ولم تهدأ الأمور بـه، لأن أبا الحسن تحرك من جـديد نحو الغرب، رفقه ابنه الناصر ومـؤيديه فاجتاحوا في طريقهم، مدينة لمديـة ومليانة وتيموزغوت، والظاهـر أن أبا ثـابت قد استطاع أن يقنع، زعيم مغراوة بالانضمام إليـه، وتقاسم معه الأدوار في مواجهة بنـي مريـن، فاختص أبو ثـابت بلقاء أبي الحسن، وتكفل على بن راشـد المغراوي بلقاء ولده الناصر [72]، التقى جميعاً بتيعزيزن [73] في نـاحية الشلف، حيث وقعـت حرب شديدة قتل خلالها الناصر بن أبي الحسن، فاختل توازن جيش بنـي مرين، وانهزم، فاستبيح عساكره وانتهبت فساطيطه، وقتل قائد اسطوله، وفرّ أبو الحسن إلى أحياء سـويد ومنها توجه به زعيمهـا ونزمار إلى سجلماسة عن طريق الصحراء. واحترما لنساء أبي الحسن وبنـاته، قام أبو ثابت بارسالهن إلى أبي عنان معززات مكرمات مع وفد زياني رسمي.

وهكذا تمكن أبو ثابت، من إبعـاد خطر بني مرين في سنة 751 هـ/ 1350 [74]، ولم يبق له إلا توطيد أركان دولته وتـوسيع دائرة نفوذه، بخروجه إلى برشك وشرشال ومليـانة ولمدية وسهل متيجة واستولى على الجزائر، ثم عاد إلى أرض مغراوة وشدد عليها الخناق، فاستنجد رئيسها علي بن راشد بأبي عنان المريني، الذي هدد بدوره العاهل التلمساني، وطلب منه رفع يده عن مغراوة، وتكررت ظروف التوتر التي سادت بين أبي تاشفين وأبي الحسن المريني بحيث واصل ابو ثابت تأديب مغراوة وإخضـاعها لأنها الخصـم اللذوذ لهم، في كـل الأوقات، تثـور عليهم، وتعـادي من يسـاندهـم وتساند من يعاديهم، لهذا أصر أبو ثابت على إخضـاعها، وتأديبها فكانت هزيمتهم في هذه المعركة هزيمة ثقلية إذ قتل زعيمهـا على بن راشد في مدينة تنس، ثم عاد القائد الـزياني إلى عاصمته سنة 752هـ/ 1351م [75].

وتمكن بذلـك بنو زيان من إعـادة نفوذهم على ربوع المغـرب الأوسط وأعادوا للدولـة هيبتها، ومجدها وقوتها بفرض سيطـرتهم على مختلف القرى والبوادي والمدن وخاصة المنطقـة الشرقية منها، وقد دامت هـذه الفترة التي أحيا فيها بنو زيان عـرشه، نحو اربع سنوات فقـط، وهي الفترة التي

ظهر فيها الأخوان أبو سعيد وأبو ثابت (749ـ 753هـ/ 1348ـ 1352م) وعلى الرغم من الجهود التى بـدلاها الأخوان، والحروب التى خـاضاها ضـد الاعداء والخارجين، ظل الخطر يهددهـا من الجارة الغربية، لأن الهدنـة والوفاق المصلحي الذي كـان بين فاس وتلمسان، قـد انتهـت مرحلته على الأقـل مـن قبل أبي عنـان، الـذى تمكـن من الانفـراد بـالسلطـة، وإعادة الأمـن إلى المغـرب الأقصى، أخذ يرنو إلى المغرب الأوسط يحدوه، الطمع في مـد سلطانه، إلى هذه الديار، فاتخذ من سياسة والـده ونهجه مع الجيران، قدوة لـه وتذرع برد شفاعتـه لمغـراوة من قبـــل أبي سعيد [76]، واتخذها مبررا لغزو مدينـة تلمسان والمغرب الأوسط، والإطاحة بعـرش بنـي زيان، وتحت هــذه التحرشـات والتهديدات تـوجه، أبو ثابـت إلى المطقة الشرقية، يعـد العدة ويجمع المتطـوعين من مختلف القبائل [77].

استيلاء بني مرين على تلمسان: (753ـ760هـ/ 1352ـ1359م)

أخذ أبـو سعيد وأبو ثابـت يعدان العدة، ويـرتبان الجيش وتعبئتـه وتهيأته لوقـت النزال [78]، وعندما وصلتهما أخبار وحشود بني مرين اجتمعـا بأهل الحل والعقد بتلمسـان، وتشاورا معهم في الأمر، حتى وصلوا جميعا إلى قرار المقاومة، والتصدي للجيش المريني، خارج المدنية، عندئذ خرج أبو سعيد، على رأس جيش كبير، وعَسكـر في السهل المعروف "بانجاد"، الذي يقـع بالقرب من مدنية وجدة [79]، وفي هذا السهل دارت المعركة بين الجيشين، كـان النصر فيها لأبي عنان، بسبب تخلي بعض القبائل عن أبي سعيد، وانسحابها من ميدان المعركة، وعلى رأس هذه القبائل بني عامر [80] فقتل عـدد كبير من جيش بني زيـان وأسر سلطانهم، الذي لم يمهلـه أبو عنان فأمـر بقتله في العاشر من شهـر جمادى الأولى سنة753 هـ / 1352 [81]. أما الأمير أبو ثـابت فقد نجا مـن هذه المعـركة، وعـاد إلى تلمســان، ثــم غادرهـا والتحق بمـدينة الجزائر لـلإستعانـة بقبائل المنطقـة، والإحتماء بهم. وقد وجـد منهم التعضيد، والأستعداد للـدفاع عن عرشـه، عند ذلك توجـه بقوة مجهزة بالعتـاد نحو الغرب يريد بذلـك مفاجاًة القوات المرينية، وفي حـوض الشلـف إنكسر جيش أبي ثابت للمرة الثانية [82]، ولم يجد الأمير أبو ثـابت بدا مـن الإنسحاب بما تبقى مـن جنده، إلى مدينة الجزائر، ومنها إلى تدلس، حيث لم يبق حـوله إلا قليلا من الانصار وعدد قليل من الأسرة، من بينهم أبي زيـان محمد بن سعيد، وأبي حمو موسى الثـاني، ووزيره يحي بن داود [83]. فقد تنكر

هؤلاء جميعا بالملابس [84] بعد أن يئسوا من مساعدة القبائل، ومن التغلب على بني مرين، وتوجهوا الى افريقية، وفي طريقهم تعرضوا الى محن كثيرة من قبل زواوة، ولما وصلوا وادي بجاية، قبض عليهم صاحب بجاية أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي، وهو من إشباع بني مرين فقام باعتقالهم، ثم سلمهم ألى زعيم قبيلة سويد، ونزماربن عريف، وهو من أشد خصوم بني زيان، فسلم هو الآخر هؤلاء الأسرى إلى بني جرار للإنتقام منهم [85]، فقتلوا أبا ثابت ووزيره في شهر رمضان سنة 753هـ/1352م، أما أبو حمو موسى الثاني، فقد نجا إلى تونس، وبذلك زال سلطان بني زيان، مرة أخرى على يد السلطان أبي عنان المريني، الذي اتخذ من مدينة تلمسان مقرا له[86].

والظاهر أن أبا عنان، كانت طموحاته كبيرة، ربما تتعدى امكاناته المادية والعسكرية فحاول أن يعيد سياسة والده، التى كان يهدف من خلالها توحيد بلاد المغرب، والسيطرة عليه، ولهذا نراه قد اتجه إلى مدينة بجاية بوابة افريقية فاستولى عليها سنة 754 هـ / 1354م [87] ثم حاصر مدينة قسنطينة عدة أشهر حتى سقطت في يده، ومنها إلى عنابة ثم إلى تونس، قاعدة بني حفص، تدفعه في ذلك نشوة الانتصارات الخاطفة المتتالية، وقد انتهى به المطاف إلى هذه المدينة وبالتالي تحقق حلمه ببسط نفوذه على ربوع المغرب الاسلامي، من المحيط الأطلسي غربا إلى أطراف افريقية الشرقية، وكان ذلك سنة 758 هـ/1357م . إلا أن أبا عنان، لم يتمتع كثيرا، با تساع دائرة نفوذه، وانتصاراته لأنه اضطر في الأخير، إلى مغادرة افريقية والمغرب الأوسط، نحو المغرب الأقصى لإخماد ثورات، قامت ضده، وسحب معه أغلب جيشه واسطوله المرابط في ميناء تونس، ولعل عودته كانت نتيجة لتمرد قام به الجيش المريني في إفريقية، الذي سئم القتال والحروب، والبعد عن الأهل والولد، من جهة وتضاؤل الإمتيازات المادية التي كانوا يتمتعون بها، فأخذوا يتآمرون عليه، ولهذا رجع إلى فاس، ويقول ابن خلدون في هذا الصدد: " ضاق ذرع العساكر، بشأن النفقات، والأبعاد في المذاهب وارتكاب الخطر في دخول افريقية، فتمشت رجالاتهم في الإنفضاض عن السلطان ودخلوا الوزير فارس بن ميمون، فوافقهم عليه، وأذن المشيخة والنقباء، لمن تحت أيديهم من القبائل، في اللحاق بالمغرب، حتى تفردوا ونمى الخبر إلى السلطان أنهم توامروا في قتله . . . ويضيف . . ورأى السلطان قلة العساكر وعلم بانفضاضهم، فكر راجعا الى المغرب " [88].

إحياء دولة بني زيان للمرة الثانية:

لقد فشل مشروع السلطان أبي عنان في توحيد المغرب، ووراثة عرش الموحدين، كما فشل مشروع والده من قبل، لأن الدولة المرينية لم تتبن إصلاحا دينيا، كما فعل المرابطون والموحدون من جهة، وللضعف الذي بدأ يسري في جسمها بعد هزيمة أبي الحسن وتفريق جيشه، من قبل بعض القبائل العربية، فسقطت بذلك هيبة بني مرين، أمام بني حفص وبني زيان، وكذلك عجز المرينيون عن العبور الى العدوة الأندلسية، لرد هجمات الإسبان على أراضي الدولة النصرية [89]، لأن الجيش في هذه الفترة أصبح لا يتوفر على القوة والإنضباط، الذي كان يتمتع به قبل عهد أبي عنان [90].

فقد ساعدت هذه الظروف أمير من أمراء بني زيان، كان لاجئا عند بني حفص، يقيم بحاضرتهم، وهو أبو حمو موسى الثاني بن يوسف بن عبد الرحمان ابن يحي بن يغمراسن [91]، فقد استقبله السلطان أبو اسحاق بن أبي يحي الحفصي (751 ـ 770 هـ / 1350 ـ 1378) ووزيره إبن تافراجين، استقبال الأمراء، وأقام في حضنها مكرما، مجرى عليه، لمدة خمس سنوات [92]، وكان أبو عنان قد أرسل إلى السلطان الحفصى، يطلب منه طرد أبي حمو موسى الثاني وإخراجه من بلاده، إلا أن أبا اسحاق، لم يكترث بطلب أبي عنان واستهان به، ولعل هذا الرفض يكون من بين الأسباب، التى عجلت بخروج أبي عنان لاحتلال الديار الإفريقية سنة 758هـ/ 1357م [93].

وكان أبو حمو الثاني، هو الأخر قد فرّ مع السلطان الحفصي، إلى الجريد بجنوب افريقية، وأقام معه بهذه المنطقة حيث تعرف على بعض رؤساء القبائل، التى يمثلها عرب الذواودة، فاقترب منهم أبو حمو الثاني، وتأنس بهم فحصلت بينه وبينهم صداقة ومودة وعلاقة طيبة، جعلت من عرب الجريد يعجبون بثقافته وفصاحته وطموحه المتوقد، فتعلقوا به وبصاحب نعمته أبي اسحاق الحفصي فأعلنوا عن نقض طاعة بني مرين وانحازوا إلى أبي اسحاق وصاحبه الزياني، ثم اجتمعوا بالوزير تافراجين، ورغبوه في الحاق أبي حمو موسي الثاني، بالمغرب الأوسط، وهي الرغبة التى لمسوها في الأمير الزياني [94]، وحتى يشغلوا الجيش المريني، بذلك عن تونس، ويقطعون عنه الامدادات من المغرب الأوسط، وضمنوا له المساعدة والمناصرة وطلبوا منه تجهيز بعض آلة السلطان [95] لهذا الغرض، وافق الوزير على ذلك، ولم ينقض وقت طويل حتى استطاع بنو حفص من اعادة عرشهم ورجعوا إلى عاصمتهم مدينة تونس، فعاد أبو حمو معهم، ومنها بدأ هذا

الأخير يعد العدة، وبعدها وفد عليه شيوخ الذواودة وبني عامر، وجماعة من زناته [96] فتعزز صفة وقوي جيشه، فضلا عن مساعدة بني حفص [97].

وفي الأثناء ارتحل أبو حمو موسى الثاني، على رأس جيش من الذواودة وبني عامر، ومن ابناء عمومته زناته ومن كان معه من بني زيان.

بعد عيد الفطر سنة 759 هـ / 1358م، نحو "الجريد"، ومنها إلى مدينة «ميلة» يقتفي أثر جنود أبي عنان وأنصاره، حيث تمكن من احتلالها وطرد من كان فيها من جند بني مرين [98]، ثم نهض إلى "غنية" وهي منطقة تقع مابين جبل الأوراس، وجبل عياض فعسكر بها ثم جدّ سيره نحو بلاد الزاب بجموعه يريد تلمسان، وخاصة بعد معرفتهم أثناء طريقهم بمهلك السلطان أبي عنان، فقويت عزيمة بني زيان على استرجاع ملكهم، ويبدو أنه لأسباب أمنية غير اتجاهه نحو الجنوب فعرج على وادي ريغ وورجلان ومنها اتخذ مسلكا آخر نحو الشمال الغربي في ا تجاه وادي زرقون، حيث حط رحاله بها وعسكر فيها بجيشه للراحة والإحتفال بعيد الأضحى عدة أيام، ثم نهض على أثر أخبار تفيد بأن عرب سويد، اعداء بني زيان استولوا على وادي ملال، جنوب مدينة تلمسان بالقوة وطردوا أهلها، ففاجأهم أبو حمو وباغتهم وهم في ديارهم، فقتل قائدهم عثمان بن ونزمار بن عريف، وكثيرا من وجوه القبيلة واعيانها، وطردهم من الوادي، في ذي الحجةسنة 759 هـ / 1358م [99]، فاحتل بذلك أبو حمو الثاني وجموعه بساحة تلمسان، وأناخ ركائبه عليها ونازلها ثلاثة أيام، ثم اقتحمها في صبيحة اليوم الرابع، وأخرج منها ابن السلطان أبي عنان، الذي كان أميرا عليها خلفا لأبيه، مع طائفة من قومه [100]، ودخل أبو حمو مدينة تلمسان منتصرا مع أنصاره وعشيرته يوم الأربعاء ثمان من ربيع الأول سنة 760هـ / 1359م [101]. ودخل القصر السلطاني، وجلس على كرسي الحكم، وبويع به بعد أن أخرج بنو مرين من أمصار مملكته [102]. ومهما يكن من أمر فالجدير بالاشارة إليه هو أن هذه الرحلة العسكرية الطويلة التي خاض أهوالها أبو حمو الثاني وانصاره من افريقية إلى أقصى المغرب الأوسط، لم تكن سهلة ميسورة، بل كانت صعبة محفوفة بالمخاطر، استطاع أبو حمو وجنوده، أن ينتصروا في كل المعارك التي واجهوها في طريقهم في الصحراء وفي الهضاب وفي التلول، كما عبر عنها أبو حمو موسى الثاني ذاته في كتابه واسطة السلوك [103].

استغرق سيره هـذا نحو تلمسان أكثـر من ستة أشهر كـاملة، والظاهـر أن الشيء الذي زاد في عزيمتـه وسرعة سيره إلى مـدينة تلمســان هو خبر وفـاة السلطان أبي عنـان، وهكذا حـرر أبو حمو موسى الثاني عاصمة بلاده من السيطرة المرينية التـي دامت ست سنوات ثم أخذ يبسط نفوذ دولته علي تراب المغرب الأوسط بالترغيب حينا، وبالترهيب أحيـانا، فجاءته وفود القبائل المختلفة تقدم الولاء والبيعة والطاعة، من مناطق عديدة من المغرب الأوسط، ولاسيما منهم سكان ندرومة وهنين ووجدة وهـي المدن المجاورة لتلمســان والقريبـة منها، ثـم تقدم انصـاره وحلفاءه مـن بني عـامر والمعقل، مبايعين ومهنئين، وكـان عددهم يبلغ نحـو ثمانية آلاف رجل، بذل لهم أبـو حمو موسى الثاني، العطاء والهدايا من بيت المال، ووزع عليهم المحاصيل الزراعية، من قمح وشعير، وأهدى لرؤسائهم عدد كبير من الخيول وسروجهم، التى غنمهـا من عسكر بني مرين، وغيرها من الأمتعة الكثيرة التي جمعها المرينيون، ويريدون ارسالها هـدية إلى الملك الأسباني القطلاني، كما أقطعهم أبو حمو موسى الثاني، أيضا كثيرا من الأراضي الخصبة (104)، وكذلك وصلته وفودا أخرى، قدمت من مستغانم وتمزعران والبطحاء للمبـايعة والتهنئة باعادة العرش، وكان أبو حمو الثـاني قد بعث والده أبا يعقوب على رأس جيش كبير، إلى المنطقة الشرقية البلاد، لافتكـاك هذه الأقاليم من أيدي عمال بني مرين وحلفائهم، فاستطاع أبو يعقوب أن يفتح الشلف ومليانة ولمدية والجزائر، التي اختارها أن تكون مقرا لولايته (105).

اتسم عهد إبي حمو موسى الثاني، بالنشاط العسكري المكثف، الذي دام أكثر من ثلاثين سنة، قضاها العاهـل التلمساني في البناء والتشييد و إدارة شؤون البلاد، ومحاربـة المناوئين والخارجين من أهل بلاده، والتصـدي للهجمات المتكررة لبني مريـن، وبني حفص، للحفاظ على وحـدة تراب المغرب الأوسط، تحت راية السلطة الـزيانية والدفاع عن حدودها المرسـومة من عهد جده أبي يحي يغمراسن، وكان يسـوس الرعية بحنكة وحكمة وبعدل كما تشير النصـوص، ويتفقد شؤونهم بين الفينة والأخـرى ويزور مرضـاهم، ويعين فقرائهـم، ويأوي ابن السبيـل وكان يقسم أوقـاته " بين حكم يقضيه، وحق يمضيه، وعاق يرضيه، وسيف لحمايـة الدين ينضيه، وجفن عن عوراء الأمة يفضيه، وسبيل إلى رضى الله تعالى ورسوله يقضيه " (106).

اضطر السلطان أبو حمو موسى الزياني الثـاني خلال فترة حكمه، التى أمتدت أكثر من ثلاثين سنة، أن يخرج مـن عاصمته، والفرار بـأهله وحاشيتـه إلى الفيافي (107) اربع مرات، نتيجـة الغزو

المريني المكثف لها، فكانت الغزوة الأولى سنة 760هـ/ 1359م، غادر خلالها السلطان التلمساني عاصمته لمدة خمسة وعشرين يوما [108]، وكانت الثانية في سنة 761 هـ/ 1360م، أخرجه فيها السلطان المريني أبو سالم (760 ـ 762 هـ/ 1359 ـ 1361 م) لمدة اربعين يوما [109]، وكانت الثالثة وهي أطولها زمنيا، بين سنتي 772 هـ/ 1371م، 774ـ1373م في عهد عبد العزيز المريني (768/ 774هـ ـ 1366/1372)، الذي تمكن من احتلال مدينة تلمسان أكثر من سنتين والهيمنة على المغرب الأوسط، وقد أصاب أبو حمو موسى الشريد الطريد، في هذه الفترة من الاحتلال المريني ضيقا شديدا أثناء اقامته في الصحراء بين أحلافه، بعيداً عن رعيته وعاصمته [110].

أما الغزوة الرابعة فكانت سنة 784هـ/ 1383م، خرج فيها السلطان أبو حمو الثاني، وحاشيته وأهله، لاجئا إلى الصحراء والإحتماء بفيافيها إلى سنة 786هـ/ 1385م، حيث تمكن من العودة إلى بلاده وارتقاء عرشه مرة أخرى، وهكذا كان السطان أبو حمو موسى الثاني، مقاوما عنيدا، صبورا على الشدائد لا يتوانى في التصدي للخصم والعدو، بشتى الطرق، والسعى عند الحلفاء والأصدقاء والإستعانة بهم، خاصة منهم القبائل العربية المتحالفة معه، والمنضوية تحت نفوذه فكانت له عزيمة لا تكل، وإرادة لا تضعف، لاعادة عرشه الذي انهار أربع مرات وسقط نفوذه عن تلمسان والمغرب الأوسط، مدة تقترب من ست سنوات [111].

فقد كان لا يتأخر عندما يجد الفرصة مواتية، لا متشاق الحسام في سبيل تحرير بلاده وتوسيع دائرة نفوذه، واستطاع ذلك سبيلا في كل مرحلة من مراحل احتلال بني مرين لبلاده. وقد اقلقه بنو مرين باحتضانهم للاجئين السياسيين والعسكريين الفأرين من تلمسان والمطالبين للعرش، ولا يتورعون في تقديم الدعم والمناصرة، ويرسلونهم في الوقت المناسب، ولاسيما منهم المنافس الشرس للسلطان أبي حمو موسي الثاني، أحد أبناء عمومته وهو أبو زيان بن عثمان ابن أبي تاشفين الأول، الذي كان يجد مجال تحركه بين السلطة المرينية والحفصية ومناصرته ودعمه بالمال والرجال، فكان كثير التردد بين تونس وفاس يطلب المساعدة، ويستجدي القوة منهما حتى يطيح بعرش أبي حمو الثاني مدة زمنية زادت عن عشرين سنة، ناوء خلالها أبا حمو موسى وانتصر، عليه في عدة معارك، إلا أنه لم يربح الحرب، ولم يطح عرش أبي حمو موسى وخاصة في هذه المعارك التي وقعت بينهما سنة 769 هـ/ 1368م، كادت أن تؤدي بحياة السلطان وتذهب بريح ملكه، ولم ينقذه إلاصبره وحنكته المعهودة في مثل هذه الظروف، وشدة احتماله، وقوة عزيمته في التصدي

والمجابهة حالت دون ذلك، فقد وصف يحي بن خلدون ماتعرض له أبو حمو الثاني خلال هذه المعركة وصفا دقيقا قال فيه: " . . . إلى أن أفرده الناس سوى شرذمة قليلة، أنا منهم . . . وبلغ هو مأمنه، فسر خلصاؤه، بسلامته، ثم حملوا دخائرهم، ونبذوا الأهل والمال، عرضة للنهب وساروا مع مولاهم . . فجددنا السير يومنا وخمسة بلياليها، بعده لم نطعم فيها . . قوتا ولاذقنا النوم فيها إلا غرارا . . وبعد غروب الشمس، من اليوم السابع وبعد السبت من شوال دخل أمير المسلمين دار ملكه " (112).

هذه صورة وصفية، بل نموذجا للصراع الذي كابده أبوحموموسى الثاني ضد منافسيه على العرش من بني زيان، وأعدائه من بني مرين، وقد حضر المؤرخ يحي بن خلدون كثيرا من هذه المعارك، ووصفها وصفاً دقيقا في بغيته وهو صراع شديد، انتصر فيه أبو حمو حينا (113) وانهزم أحيانا(114).

ولعل سبب أنتصار العاهل التلمساني على خصومه، يعود بالدرجة الأولى إلى روابط المودة والصلات الحسنة، التى كانت تربطه بمعظم القبائل العربية والزناتية وقد دعم هذه الروابط، بذل المال والثياب الرفيعة والإقطاعات التي لم يبخل بها ابوحمو موسى الثاني على مناصرية وحلفائه (115) كما كان شديد الحرص على مراسلة روسائهم وقوادهم، للحفاظ على روابط المودة، ويذكرهم دائما بعهودهم، في كل مرة يراسلهم فيها (116). فاستطاع بهذا الأسلوب أن يصطنعهم ويجذبهم إليه رغم محاولات خصومه العديد للتفريق بينه وبينهم، ولاننسى هنا أن نشير الى عامل الجيش القوي، الذي كان يتميز به عهد ابي حمو موسى الثاني، إذ كان يتألف من فرسان زناته وبني عبد الواد، ومن مقاتلي العرب، وغيرهم ممن كانوا يخلصون للعاهل الزياني، كوّن منهم جيشا قويا لا يشق له غبار، وحتى خروجه من عاصمته، وربما كانت للحافظ على هذا الجيش وعدم إبادته في المعارك، لأن بناء الجيوش يتطلب وقتا طويلا وأموالا باهضة، فبهذا الجيش كان يحين الفرص للعودة إلى بلاده، أو لضرب المنافسين كما فعل مع إبن عمه أبي زيان، الذي خارت قواه وسكن ريحه(117)، وضرب مغراوة وبني توجين وأدبها، وأعاد طاعتها له. فقد كان أبو حمو الثاني يقضا صارما لا يتسامح معه أعدائه وخصومه، بل لم يفلت من قبضته حتى المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون سنة 774هـ ـ 1373 م عندما أحس بميوله إلى عدوه السلطان عبد العزيز المريني، على الرغم من وجود أخيه يحي بن خلدون في بلاطه ككاتب سره الخاص (118).

وقد ساعد أبي حمو موسي الخطة الذكية التي كان يستعملها في حربه ضد الأعداء، إذ كان لا يتورع في ارسال فرق من جنوده، إلى خلف العدو لضرب ممتلكاته وحريمه واتلاف مزارعه وحرقها ونسف الغلات وتخريب العمران، وهى حركة التفاف خلف العدو ووضعه بين شقي رحا، حتى تحدث في صفوفه البلبلة والإرتباك، فبهذه الطريقة اضطر خصومه في كثير من المرات، إلى الإنسحاب من المعركة والعودة لحماية الأهل والديار والممتلكات، عند ذلك يجد أبو حمو الثاني الفرصة لمتابعة العدو وملاحقته واغتنام ما بيده [119].

وكان العاهل الزياني يلجؤ هو الأخر إلى احتضان المعارضين والمشنقين عن بني مرين وبني حفص، لاستعمالهم في الوقت المناسب، وكان يهدد بهم السلطة المركزية في كل من تونس وفاس، فرحب بقدوم الأمير عبد الحليم بن على بن أبي سعيد المريني إلى عاصمته ووافق على اقامته بها، وكان عبد الحليم هذا قد خرج على سلطان ابي سالم سنة 762هـ / 1360م، وساعد أبا محمد بن عبد الحليم في خروجه على السلطة المركزية، حتى تمكن من الإستيلاء على إقليم سجلماسة سنة 789/ 1388م[120].

أما علاقته الطيبة التي تميزت مع بني حفص في بداية عهده، لم تستمر طويلا ولم تبق على عهدها السابق، بسبب اختلاف أعضاء البلاط الحفصي، بين مؤيد له ومعترض عليه وقد زاد الطين بلة، عندما أغار أبو حمو موسى الثاني على المنطقة الشرقية المتاخمة لحدود الدولة الحفصية[121]، وحصاره لمدينة بجاية [122] وضرب خناق محكم عليها، مما إضطر صاحبها أبا عبد الله محمد بن يحي إلى التنازل له، على المدينة وخرج منها، وهو السبب الذي جعل بني حفص في السلطة المركزية، تتوحد كلمتهم ضده، لأنه في رأيهم تطاول على سيادتهم وأمنهم وأصبح يهدد كيانهم بتشجيع طرف ضد طرف أخر في البيت الحاكم [123]، ويمكن القول أن أيام السلطان أبي حمو الثاني كانت أياما حافلة بمختلف الوان النشاط العسكري منها والدبلوماسي، والفكري والاقتصادي والعمراني، حتى صارت الدولة الزيانية في عهده تلبس أجمل الحلي، وترتدي أبهى لباس الحضارة والتمدن، واكتسب خبرة طويلة في مجال القيادة والتسيير والتعامل مع الرعية، فدفع بدولته إلى أن تصل مصاف الدول الكبرى أنذاك وتضاهيها، وتحتل مكانة مرموقة ومركزا مميزا بين جيرانها فازدهرت في عهده الحضارة الزيانية، والثقافة التلمسانية وصار لها صدى واسع النطاق في المنطقة، بفضل رجال العلم والفقه والأدب الذين ترعرعوا في ظل البيئة التلمسانية واخرجوها،

من طور البداوة الى طور الحضارة الرفيعة . إلا أن أبا حمو موسى الثاني، في الوقت الذي استطاع أن يصمد أمام الخصوم والاعداء، وأن يبني حضارة ومدنية رفيعة المستوى، لمدينة تلمسان فشل في تربية ابنه وولي عهده، فقد سقط في كمين أو مؤامرة دبرها له أعداءه من بني مرين وحاكوا خيوطها في تلمسان، بل في بلاطه أكثر تدقيقا، لأنهم وجوا تغرة نفذوا منها إلى بيته، فقد قاموا بتوسيع الخلاف القائم بينه وبين وولي عهده أبي تاشفين الثاني، وبعض مساعديه وإخوته، وغذوا هذا الخلاف بتشجيع ابي تاشفين والنهوض ضد والده، وعندما تطور الخلاف واشتد سارع الى اعداء والده يحتمي بهم، ويطلب المساعدة منهم[124]، فوجد عندهم التعضيد الكافي والمساعدة القوية، لأنها فرصة ثمينة طالما انتظروها للإطاحة بعرش ابي حمو الثاني، ودولته القوية وتحقيق الهيمنة المرينية على المغرب الأوسط بسواعد زيانية، بعد أن عجز المرينيون للاستيلاء عليها بقوتهم .

فبعث السلطان أحمد المريني (789ـ796 هـ/ 1387 ـ1394)، مع أبي تاشفين وانصاره قوة عسكرية بقيادة زيان بن عمر الوطاسي، فتوجهوا جميعا نحو مدينة تلمسان، ولما سمع والده بذلك حزن حزنا عميقا، وتأسف لسلوك ابنه وفلذة كبده، الذي ارتمى في أحضان أعدائه وخرج لملاقاته وقلبه يشتد ألما بجبل بني ورنيد، حيث عسكر فيه ينتظر طلائع ابنه أبي تاشفين، وقد حاول ثنيه عن عزيمته، ووضح له خطورة عمله، إلا أن نداءه لم تجد آذانا صاغيه، عند ذلك تقدم، نحو ابنه، فاقتتلوا قتالا شديدا، سقط أثناءه أبو حمو موسى الثاني بفرسه على الأرض، فعجل أحد انصار ابنه بقتله قبل أن يصل إليه وكان ذلك سنة 791هـ ـ1390م[125].

الهـــوامش :

(1) كتاب العبر، ج7ص 98.

(2) عندما كانت تلمســان، تخضع للحصار الطويل، اغتنم الفرصة كثير من رؤساء القبائل العربية والمغربية، وخلعوا طاعة بني زيان، فجهز لهم أبو حمو الجيوش وأرسلها إلى البوادي والقرى والمدن عبر أرجاء المغرب الأوسط، وحاصرها حصارا محكما، إلى أن أدعنت إلى الطاعة الواحدة تلو الأخرى ولا سيما منها: توجين ومغراوة وسويد، فأمتدت بذلك رقعة الدولة الزيانية من جديد إلى الأقاليم الشرقية حتى وصلت إلى الأراضي الافريقية، انظر التنسي: نظم الدر: ص 136ـ 137.

(3) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 213 ـ التنسي: نظم الدر: ص 137 ـ إبن قنفذ: الفارسية ص 161.

(4) ابن خلدون: العبر ج 7ص 213.

(5) ابن خلدون العبر، ج 7ص 213.

(6) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج1ص 205، التنسي: نظم الدر، ص 110.

(7) التنسي نظم الدر، ص 135، ابن خلدون العبر ج7 ص98.

(8) ابن خلدون العبر ج7 ص 215.

(9) نفسه ج 7ص 219.

(10) نفسه ج 7 ص 219.

(11) نفسه ج 7 ص 219.

(12) ابن خلدون: العبر ج7 ص 221.

(13) وادي بجاية هو وادي الصومام حاليا.

(14) يسـمي برنشفيك هذا الحصن باسم "تغار" انظر: تاريخ افريقية ج1 ص 178.

(15) برنشفيك: المرجع السابقج1ص 178.

(16) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 1 ص 117، ابن خلدون: العبر ج 220.

(17) ابن خلدون: العبر ج 7 ص 223.

(18) نفسه ج 7 ص223، لاتزال هذه المنطقة تسمى تامزيزدكت، ومعناها المحلي المصفاة على تكلت، وهي عبارة عن قلعة، بنيت على انقاض المدينة الرومانية القديمة التي كانت تعرف باسم "تبسكتو" قرب بجاية وقد افترض الباحثون، ان الموقع الاستراتيجي لتكلت، والذي يتحكم في ممر الصومام للسكك الحديدية المؤدية من بجاية إلى بني منصور، يشبه قمة تل المحصر المتحكم في ممر تافنة للسكك الحديدية الرابطة بين تلمسان وفاس، انظر حسن الوزان: ج1 ص11 هـ10.

(19) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 223، التنسي: نظم الدر، ص 143.

(20) نفسه ج7 ص 223.

(21) وهو مكان يقع في مصب نهر الصومام انظر العبر، ج7 ص 225.

(22) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 218، التنسي: نظم الدر، ص 144.

(23) برنشفيك: المرجع السابق ج 1 ص 179، أبو ضيف مصطفى: المرجع السابق ص 134.

(24) أسر الجيش الزياني، ولدا أبي يحي الحفصي وبعض نسائه، ولكن اطلق سراح الولدين مع مرضعة واحدة ورفض اطلاق سراح بقية النساء الحفصيات، انظر برنشفيك: المرجع السابق ج1 ص 179.

(25) بغية الرواد: ج1 ص 218، التنسي: نظم الدر: ص 143 ـ ابن الأعرج: زبدة التاريخ ج 3 ورقة 62.

(26) ابن بطوطة: الرحلة ج1 ص 30.

(27) التنسي نظم الدر، ص 144 .

(28) يحي بن خلدون : بغية الرواد، ج1 ص 218.

(29) نفسه، ج 1 ص 218.

(30) التنسي : نظم الدر، ص 137، يحي بن خلدون : بغية الرواد ج1 ص 218.

(31) التنسي : نظم الدر، ص 137 .

(32) LEON L'AFRICAIN: DESCRIPTION DE L'AFRIQUE T.2. P.323 NOTE N2.

(33) العبر، ج7 ص 223 ـ 228.

(34) التنسي : نظم الدر، ص 118 ـ 119 .

(35) القلقشندي : صبح الأعشى ج5 ص 149/ .LEON L'AFRICAIN : OPCIT T.2 P323

(36) ابن الأحمر: روضة النسرين، ص 48 ـ عبد الرحمان الجيلالي : المرجع السابق، ج2، ص132، بشارى لطيفة : المرجع السابق ص 37.

(37) نظم الدر: ص 37.

(38) التنسي : نظم الدر، ص 118 ـ 119 هامش رقم 35 ، ابن الأحمر، المصدر السابق ص 54.

(39) ابن الأعرج : زبدة التاريخ ج3 ورقة37 .

(40) ابن الأحمر: المصدر السابق ص 56.

(41) القلقشندي : صبح الأعشى ج 5 ص149 .

LEON L'AFRICAIN : OPCIT: P323.

(42) ابن الأعرج : زبدة التاريخ ج3 ، ورقة65 .

(43) يحي بن خلدون : بغية الرواد، ج1 ص 218 ـ ابن مرزوق : المسند ص 120 ـ 121 .

(44) ابن خلدون : العبر ج7ص 226.

(45) نفسه : ج7 ص 226.

(46) ابن خلدون : العبر ج7 ص 226.

(47) حول العلاقة الزيانية مع بني الأحمر انظر: القسم الخاص بمحمد الخامس وبنو عبد الواد من كتاب أحمد مختار العبادي :
EL REINO DE GRANADA EN LA EPOCA DE MOHAMED 5 Madrid 1973 pp. 109 ` 115

(48) BASSET (R): NEDROUMAH ET LES trarah Paris 1901, P.12.

(49) يحي بن خلدون : بغية الرواد ج، ص 218، ابن خلدون : العبرج 7، ص 109 .

(50) ابن خلدون : العبر ج7، ص227 ، برنشفيك : المرجع السابق ج1 ص 180 .

(51) يعيد الأثريون أثار المنصورة حاليا، إلى بقايا مدينة ابي الحسن وليس إلى مدينة أبي يعقوب يوسف بن يعقوب المندثرة سنة 707 هـ/ 1307م، انظر: G.ET W. MARCAIS: LES MONUMENTS ARABES DE TLEMCEN PP. 192 ` 201.

(52) ابن مرزوق : المجموع ورقم 34.

(53) يحي بن خلدون : بغية الرواد، ج1 ص 219، ودفن الأمير أبو تاشفين بباب وهب، قريبا من ضريح أبي يعقوب التيفريسي انظر: ابن مرزوق : المجموع ورقة 34.

(54) يحي بن خلدون : بغية الرواد ج1 ص 235.

(55) ابن خلدون : العبر: ج 7، ص 558 بغية الرواد: ج1 ص 235.

(56) ابن قنفذ : الفارسية ص 170 .

(57) ابن مرزوق : المسند ص 494.

(58) ابن مرزوق : المسند ص 494.

(59) ابن قنفذ : الفارسية: ص 170 .

(60) برنشفيك : المرجع السابق : ج1 ص 197 .

(61) ابن مرزوق : المسند ص 495، ابن قنفذ : الفارسية ، ص 171 .

(62) أسكاك : وادي صغير، يصب في نهر يسر، الذي يصب بدوره في نهر تافنة ، ويقع شرق تلمسان انظر: التنسي: نظم الدر، ص 151 .

(63) يحي بن خلدون بغية الرواد ج 1 ص 236ـ 237.

(64) التنسي : نظم الدر: ص 151 .

(65) التنسي : نظم الدر، ص 152 .

(66) ابن مرزوق : المجموع ورقة 47.

(67) نفسه 47.

(68) يحي بن خلدون : بغية الرواد ، ج1 ص 243.

(69) نفسه ج1 ص 243.

(70) ابن خلدون : العبر ج7 ص 591 ـ ابن أبي دينار: المؤنس ، ص 148ـ ابراهيم حركات : المغرب عبر التريخ ج 2 ص 42ـ محمد عيسى الحريري : تاريخ المغرب الإسلامي في العصر المريني ص1213 .

(71) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 1ص 243ـ التنسي : نظم الدر: ص 153 .

(72) التنسي : نظم الدر: ص 153 ، بغية الواد ، ج1 ص 253.

(73) يذكرها عبد الرحمن بن خلدون : بتعمرين في الشلف ، اظر: العبر ج 7 ص 249.

(74) يحي بن خلدون : بغية الرواد ج1 ص 244.

(75) نفسه ج1 ص 244ـ 245.

(76) التنسي : نظم الدر، ص 153 ـ 154 .

(77) يحي بن خلدون : بغية الرواد ج 1 ص 245.

(78) نفسه : ج 1 ص245.

(79) يحي بن خلدون : بغية الرواد ج1 ص 245.

(80) لا تزال قرية تدعى " العامرية " تقع مابين وهران وعين تموشنت انظر: العبر ج6 ص 105 ، 116 .

(81) بغية الرواد، ج1 ص 246 ، بينها يذكر التنسي وفاة أبي سعيد يوم 11 جمادي الأولى أما ابن خلدون فيحددها بيوم تسعة من نفس الشهر.

(82) التنسي : نظم الدر، ص 154 ، بغية الرواد ج1 ص 246 .

(83) التنسي : نظم الدر ص 155 .

(84) بغية الرواد ج1 ، ص246 .

(85) يحي بن خلدون : بغية الرواد ج1 ، ص 247 ـ ابن خادون : العبر ج7 ص 254 .

(86) بغية الرواد ، ج 1 ، ص 247.

(87) ابن قنفذ: الفارسية، ص 147 ـ ابن الحاج النميري، فيض العباب ص 114.

(88) العبر: ج7 ص 916.

(89) انهزم الجيش المريني في موقعة طريف المعروفة عند الإسبان باسم "ديوسلادو" التي يذكرها ابن الخطيب بقوله: "فهذه الواقعة من الدواهي المعضلة الداء والارزاء التي تضعضع لها، ركن الدين بالمغرب وقرت بذلك عيون الاعداء" الاحاطة ج 2 ص 180 اللمحة البدرية ص 105 ـ 106 انظر: ابن خلدون: العبر ج 7 ص 261 ـ 262 (بولاق) ـ شذرات الذهب، ج 6 ص 128.

(90) ابن خلدون: العبر / ج7 ص 261 ـ 303.

(91) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج1 ص 13.

(92) نفسه: ص 17.

(93) عن هذه الحملة: انظر ابن الحاج النميري: فيض العُباب ص 157 وما بعدها.

(94) ابن خلدون: العبر ج 7 ص 255.

(95) نفسه ج7 ص 255.

(96) التنسي: نظم الدرص 158.

(97) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 2 ص 20 ـ 22.

(98) واسطة السلوك، ص 13.

(99) بغية الرواد ج2 ص 22 ـ 24، التنسي: نظم الدر، ص 158 ـ ابن خلدون: العبر ج 7 ص 256.

(100) ابن خلدون: العبر: ج7 ص 256.

(101) أبو حمو موسى العبد الوادي: واسطة السلوك ص 14.

(102) نفسه ص 14.

(103) نفسه ص 13.

(104) واسطة السلوك: ص 14، بغية الرواد، ج 2 ص 28 ـ 29 ـ 30.

(105) التنسي: نظم الدر ص 185.

(106) التنسي: نظم الدر، ص 160.

(107) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 2 ص 50 ـ 51.

(108) نفسه ج2 ص 52.

109) نفسه ج2 ص 57 ـ 76، روضة النسرين، ص 56 ـ الكتاب العبر، ج7 ص 260 ـ 280.

(110) نفسه: ج 2 ص 236، روضة النسرين ص 56، كتاب العبر: ج7 ص 281.

(111) عن هجومات بني مرين على مدينة تلمسان في عهد أبي حمو الثاني، انظر كتاب العبر ج7 ص 260 ومابعدها يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج2 ص 270، وما بعدها، روضة النسرين ص 56 وما بعدها.

112) بغية الرواد، ج2 ص 203 ـ 206 يذكر إبن خلدون: أن انهزام أبي حمو في هذه المعركة كانت سنة 777 هـ 1375 وربما قد اختلطت كثره المعارك مع هذا الخصم والتي ظلت مشتعلة أكثر من عشرين سنة، أنظر كتاب العبر، ج7 ص 271 ـ 272.

(113) يحي بن خلدون: بغية رواد ج2 ص 112.

114) نفسه ج3 ص 140 ـ 149.

115) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج2 ـ ص 19.

(116) بغية الرواد، ج2 ص 142 ـ 143.

(117) إبن خلدون: العبر ص 290.

(118) يحي بن خلدون بغية الرواد ج2 ص82-133-135 أوعز أبو حمو موسى الثاني إلى بعض حلفائه من عرب المعقل، فاعترضوا طريق عبد الرحمان بن خلدون، فانزلوه عن فرسه، ثم تركوه في القفر بعد أن جردوه من كل متاعة، انظر العبر ج7ص1028.

(119) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج2 ص 135-136.

(120) نفسه، ج2 ص 294-295.

(121) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج2 ص151-160- ابن خلدون العبر ج 7 ص 269-268.

(122) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج2ص 151، ابن خلدون: العبر ج7ص 167-168.

(123) نفسه ج2، ص 182.

124) التنسي نظم الدر، ص181، انظر أيضا: ابن خلدون: العبر ج7 ص 291 وما بعدها.

(125) روضة النسرين: ص 58-حول تفاصيل الصراع بين أبي تاشفين وأبي حمو، انظر العبر، ج7 ص 300 ومابعدها.

الباب الأول

الفصل الثالث

الهيمنة الأجنبية ومرحلة الضعف

791ـ962هـ / 1388ـ1554م

1ـ الهيمنة المرينية .
2ـ الهيمنة الحفصية .
3ـ الهيمنة والضعف وسقوط الدولة .

الهيمنة الأجنبية ومرحلة الضعف
(791ـ 962هـ / 1388ـ 1554م)

أ ـ الهيمنة المرينية:

تغلب أبـو تاشفين على أبيه وانفـرد بالحكم، بعد مـراسيم دفن الـوالد في تلمسان، بمسـاعدة مرينيـة، فصار يخضـع لنفوذهم لأنهم أصحـاب انتصاره ونعمته في التربـع على العرش الـزياني، وأزاح معارضوه من الأسرة، وأصبح يخطب لسلاطين بني مـرين على المنابر التلمسانية، في المغرب الأوسط، ويـؤدي الإتاوة السنويـة، بكل رضى. لكـن البيت الزيـاني، لم تعجبه هذه الاستكـانة والهيمنة المرينيـة الجديدة، فلم يستسلمـوا للأمر الواقـع، فثار أخوه أبـوزيان بن أبي حمو، حـاكم مدنية الجزائر، يساعـده في ذلك عرب حُصين وبني عامر الحليفين التقليـديين لبني زيان، فتقدم نحو مـدينة تلمسان وحاصرهـا سنة 792 هــ / 1391م، يريـد من وراء ذلـك اسقاط اخيـه أبي تاشفين، ، وخلع الهيمنـة المرينية، ونفوذها من عاصمـة بني زيان لكنه تراجع عـن هذا الحصار، الذي دام عدة أيام، بسبـب تراجع حلفائه عن نصرته وتخاذلهم، فعاد إلى ولايتـه، ومنها أخذ يعد العدة مرة أخـرى ويجمع الانصار، حتى تمكـن من جمع قوة، خرج بها مـن الجزائر يحاول الكرة مرة أخرى، لانتزاع العرش من يد أخيه، وتقابل مع أبي تاشفين، بضواحي مدينة تلمسان، في معركة غير متكافئة، كـان النصر فيها لأبي تاشفين، وفر ابـوزيان مذحورا إلى الصحـراء، مستجيرا بعرب المعقل، الذين لم يتخلوا عليه بالمساعدة والدعم للمرة الثالثة، إلا أن مصيرها كان مصير سابقتها. لما عجز أبوزيان في كل المحاولات، سلك طريق أبي تـاشفين، باللجوء إلى بني مرين ينافس أخاه في ودهم، فرحبوا به، ووعدوه بتلبية طلبه حين يحين الوقت [1].

وفي سنة 795 هـ / 1934م، جهزوه بالعسـاكر، والمال إلى مدينة تلمسـان عندمـا أحسوا بتراجع ابي تاشفين في سياسته نحوهم، وتغيير سلوكه تجاههم.

لما وصل أبـوزيان إلى مدينة تـازا سمع بوفـاة أخيه أبي تاشفين بسبب مـرض لم يمهله كثيرا، في رمضان من سنة795هـ/ 1934م، ومبايعة ابو ثابت بن ابي تاشفين خلفا له، وعين الوزير أحمد بن المعز وصيـا عليه، لأنه صغير السـن. كما برز عنه ابـو الحجاج يوسـف بن أبي حمو المشهور بـابن الزابية مطالبـا بالعرش، فضلا عن أبي زيان بـن ابي حمو الثاني، القابع بجيوشه أمـام أسوار مدينة تلمسان ومن ورائه السلطة المرينية، وفي الأخير كان الحكم من نصيب ابي الحجاج يوسف، الذي تخلص من ابن أخيـه ووزيره الوصي عليه (2)، وتولى شؤون البـلاد في جمادي الأولى سنة 795 هـ/ 1934م، (3)، لكن كرسي السلطـة لم يكن مفروشا بالحرير والـورود، بل كان الطريق اليـه مفروشا بـالأشواك، لأن طـلابه في هـذه الفترة ازداد عددهـم، وكثـرت سعايـاتهم، يستعملون في سبيـل الوصول إليه كل الطـرق المتاحة، المباحة منها وغير المباحة، همهم الـوحيد ارتقاء العرش حتى على جماجم ألاف المواطنين، ومنذ هذه الفترة دخلت تلمسان في دوامـة من الصراع المسلح والدسائس السياسية المتنوعة، عادت على بني زيان، بالضعف والوهن وصارت تخضع للنفوذ المريني، الذي صار بيدهم السلطة في المنطقة، يضعون على العرش من يريدونه، ويخلعون من لا يلبي رغباتهم، والدليـل على ذلك عندمـا استولى ابوزيـان بن أبي حمو على الحكـم بتلمسان بعد عشرة أشهـر من حكم أبي الحجاج فقط (4)، لم يرض به بنـو مرين، لأنه بدأ يتخلى عن بعـض شروطهم، فعجلوا بالقبض عليه وسجنـوه بمدينة فاس، ثم تقدم ولي العهـد أبو فارس المريني (796 هـ/ 1395 / 1408)، ودخل تلمسان، واستولى من خلالها على جزء هام مـن المغرب الأوسط، وأقام الدعوة له في هذه المناطق، وأزال رسم السلطة الزيانية للمرة الثالثة من تلمسان.

ولم يخرج منها بنـو مريـن، إلا بعد ان توفي سلطـانهم بفاس، فـاضطر ولي العهـد أن يعود إلى عاصمـة البلاد لاستـلام العرش (5)، على الرغـم من المقـاومة التـي نشطها أبـو الحجاج يـوسف المخلوع، في بعض الجهات من المغرب الأوسط، ومحاصرته لبني مرين بمدينة تلمسان.

وعندما استلم أبو فارس العرش بفاس، سنة796 هـ/ 1395 م، أطلق سراح أبي زيان بن أبي حمو الثاني، وأرسلـه مع حامية مـرينية إلى تلمسان فبويـع فيها في شهر ربيع الثـاني سنة 796هـ / 1395م، فعاد الكيان الزياني للمغرب الأوسط، تحت النفوذ المريني، والظاهر أن أبا زيان، لم يهنأ بمنصبه لأن أبا الحجاج كان لـه بالمرصاد، حيث ألب عليه قبائل العرب، للاطـاحة بأخيه، لكن حنكة هذا الـآخير ودهاءه السياسي، وكياسته وكفاءتـه القيادية مكنته من التصـدي للمعارضة،

وتغلب عليها، بل استطاع ان يحرض عليه أنصاره فقتلوه وتخلصوا منه في ربيع الأول سنة 797هـ/ 1396م، فخلا الجو بذلك لأبي زيان، وسكنت أحوال تلمسان، واستتب له الأمر بها، وأعاد الهدوء ولاستقرار للمغرب الأوسط. وتفرغ لبناء دولته وترميم ما افسدته الحرب، واظهر لها رونقها وجمالها، وازدهارها وجعل من بلاطه مكانا مفضلا للعلماء ورجال الفن والأدب والحرب، وفي هذا الصدد يقول التنسي: "فأقام سوق المعارف على ساقها وابدع في نظم مجالسها واتساقها وأوضح لأهل الأبصار والبصائر رسمها، وأثبت في رسوم التخليد وسمها.. فلاحت للعلم في أيامه شموس وارتاحت للاستغراق فيه نفوس بعد نفوس" [6] لأنه كان يتمتع بخصال والده أبي حمو موسي الثاني، في الأدب والشعر، ومطالعة الكتب ونسخها واقتنائها، وحبسها على المدارس والمساجد، حتى صارت تلمسان الزيانية في عهده ذات بعد حضاري، كسالف عهدها.

ومن البديهي أن لا يرضى صاحب فاس ان تكون دولة تلمسان بهذه المكانة والرقي الحضاري، والقوة العسكرية، فأخذ يدس له الدسائس ويوعز لمن يطيح بعرش أبي زيان فاستعمل من أجل ذلك شتى الوسائل، حتى لا تكون هناك دولة في المغرب الأوسط تضاهي دولته وتنافسها في المجال العسكري، والنفوذ في المنطقة، وقد تمكن من الوصول الى أحد إخوة أبي زيان هو أبو محمد عبد الله بن أبي حمو الثاني، الذي مده بالمال والرجال ووجهه الى عاصمة بني زيان سنة 801هـ/ 1400م[7]، فقام أبو محمد بحصارها حصارا محكما أجبر أبا زيان على مغادرة المدينة، تاركا تلمسان لأخيه، ولجأ إلى المنطقة الشرقية من الدولة، حيث حطّ رحاله، بين انصاره من الأحياء العربية والزيانية "يطلب ناصرا أو مؤيدا والدهر يمنيه بالامل المكذوب" حسب تعبير التنسي [8]. وهكذا أثمرت مساعي بني مرين، الذين ظلوا يهيمنون على حكام تلمسان، بواسطة عيونهم وقواتهم، وقد امتدت ايديهم إلى المعارضة، فارسلوا محمد بن مسعود الوغزاني إلي المنطقة الشرقية حيث يوجد أبوزيان، فتظاهر محمد بن مسعود بخدمته حتى يتقرب منه، ولما سنحت الفرصة قام باغتياله سنة805 هـ/ 1404م [9]، وبالتالي أصبحت الدولة المرينية تتدخل تدخلا مباشرا، في شؤون البيت الزياني، تطيح بمن تشاء، وتولى عرش تلمسان لمن تشاء، في هذه المرحلة، التي صارت فيها دولة بني زيان ضعيفه، لأن حكامها، نُصبوا بسيوف مرينية، من جهة، وان الفوضى السياسية والفتن الداخلية، فقدت كثيرا من الاقاليم والمناطق، خرجت عن نفوذها وصارت تتحكم فيها بعض القبائل، وتدخل بني مرين في شؤون المغرب الأوسط، أصبح

مستمرا، إذ لم يتورعوا في عزل أبي محمد عبد الله، بـالقاء القبض عليه وجره إلى سجن فاس، وولوا مكانه اخاه ابا عبد الله محمـد المعروف بابن خوله سنة 804 هـ/ 1403 م، [10] الذي حكم المغرب الاوسط، ، تحت نفوذ سلطان فاس ورعايته وحمايته نحو تسع سنوات، ساد خلالها مدينة تلمسان نوع من الاستقـرار السياسي والهدوء الاجتماعي النسبي، شجـع أثناءها الحركة الفكـرية، والعلمية والفن، حتى شمل عهده الرخاء والطمأنينـة للنفوس كما تشير بعض المصادر، إلى أن أدركته الوفاة سنة 813هـ/ 1411م [11].

وتولى بعده ابنه عبد الرحمن الثالث، عـرش تلمسان لمدة سنة واحدة فيما يبدو لأن عمه السعيد ابـن ابي حمو الثـاني فاجـأه بـانقـلاب عسكري فـارغمـه على مغـادرة تلمسان في شهـر محرم سنـة 814هـ/ 1412م [12]. فعارض رجال البـلاط المريني السلطان الجديد، فـاطلقوا أحد اخوتـه من سجون تلمسان وجهزوه بالرجال والمال وارسلوه الى تلمسان وهو ابـو مالك عبد الواحد، للاطاحة بالسعيد، فتحقق له ذلـك بالاستيلاء على مدينة تلمسان، بعد ان فر منهـا السعيد في نفس السنة التي اعتلى فيها العـرش وهي سنة 814 هـ/ 1412م [13]، وبالتالي صار بنوزيـان لعبة في يد البيت المريني، يتحكمون فيهم، بالترهيب حينا وبالترغيب أحيـانا. فاضعفوا كيان الدولة وكسروا بنيتها بهذا التدخل المستمر، وأصبح اعضـاء البيت الزياني يتسابقون إلى كرسي العرش عـن طريق مدينة فاس، ويتنافسون على رضى سلاطينها، ونيل حظوتهم.

ب - الهيمنة الحفصية:

حكـم السلطان ابـو مالـك عبد الـواحد نحـو اربـع عشر سنة، اعـاد خلالها هيبـة الدولـة. باسترجاع املاكها في الجهة الشرقية من البلاد، التي كان قد استولى عليها الحفصيون، كذلك من الجهة الغـربية التي كـانت قد وقعـت تحت سيطرة بني مـرين، فتحسنت بـذلك احوال الـدولة، بتدبير شؤونها والحفـاظ على العلاقة الطيبة، التـي تربطه ببني مـرين وانتهى بذلـك عهد السيطرة المرينية، وهيمنتها على المغرب الاوسط، لكن في الوقت الـذي استطاع فيه ان يسد باب الخطر من الجهة الغربية بدأ يأتي من الجهة الشرقية على يد بني حفص، لأن العلاقة الحفصية الزيانية في عهد ابي مالك عبد الواحد اخذت تسير نحو التـأزم، استمرت نحو ستين سنة، نتج عنها هيمنة النفوذ الحفصي على بلاد المغرب الاوسط.

فقد ساعد ابو فارس عبد العزيز (796/ 837هـ/ 1394 ـ 1433) الاستقرار الذي عرفته الدولة الحفصية، وجعله يتربص بسلاطين بني زيان، ويتحين الفرص للتدخل في شؤونهم، بتوسيع دائرة نفوذهم على المغرب الاوسط وعاصمته، فنهض بجيشه نحو مدينة تلمسان سنة827 هـ/ 1424م، وحجته في ذلك ان سيرة السلطان الزياني، عدوانية غير محمودة، وحاصرها فهرب منها السلطان الزياني تاركا أياها للجيش الحفصي[14]، فأقام بها العاهل التونسي مدة قصيرة، ثم عين عليها محمد بن تاشفين الثاني، المعروف بابن الحمراء، وتوجه بعد ذلك إلى المغرب الأقصى لبسط نفوذه على فاس، ولما اقترب من العاصمة المرينية بعث اليه السلطان ابو العباس عبد الله المريني (827ـ875 / 1424ـ1470). وفدا يحمل معه هدية ثمينة ترمز إلى الطاعة والولاء، ووعده بذكر اسمه على المنابر، فعاد ابو فارس إلى بلاده، بعد أن مد نفوذه على المغربين الأوسط والأقصى، وقد لحقته ايضا مبايعة صاحب غرناطة، وبذلك اصبح النفوذ الحفصي يهيمن على الغرب الإسلا مي كله[15].

بدأ محمد بن ابي تاشفين (بن الحمراء) عهده تحت رعاية بني حفص، لا يشق لهم طاعة ولا يرد لهم طلبا واستطاع بهذه السيرة، أن يتجنب ويلات الحرب، كما تمكن بحسن سلوكه وسداد رأيه أن يجلب اليه محبة الرعية، ويجمع تأييدها حوله ويوحد صفوفها تحت سلطانه، وسرعان ما أحس بالاستقرار والقوة، اعلن عن خلع رداء الهيمنة الحفصية بقطع الخطبة للسطان الحفصي، واستعد لمجابهته، بتعبئة القبائل العربية والزيانية وتحصين عاصمته، لأنه يعلم بأن أبا فارس لن يسكت على ذلك، وخاصة بعد أن أصبح اسمه يذكر على منابر تلمسان وفاس وغرناطة، فانهض اليه أبوفارس جيشه مرة أخرى تحت قيادة العُلج "جاء الخير" قائد مدينة قسنطينة وحاكمها[16]، وأرسل صحبته أبا محمد عبد الواحد، السطان الزياني السابق، لتأديب محمد بن الحمراء، وكان عبد الواحد، قد طرق باب بني مرين، ثم لجأ الى بني حفص الذين احتضنوه وقد وجدوا فيه حلا لخروج ابن الحمراء عليهم.

وكانت نتائج المعركة بين الجيشين الحفصي والزياني لصالح ابن الحمراء بن أبي تاشفين فعاد الجيش الحفصي إلى بلاده، على اثر هذه الهزيمة[17]، بينما لجأ ابوعبد الله إلى الاحتماء ببعض الأحياء العربية في المناطق الشرقية، في محاولة لاستمالتهم واستطاع خلال مكوثه عندهم، ان يجمع الانصار، ويكون منهم جيشا، هاجم به ابن الحمراء في تلمسان، ففتحها واستولى عليها، فخرج

منها ابن الحمراء فارا وتعلق بالجبال المجاورة في شهر رجب سنة 831هـ/ 1430م[18]، وأخذ يجوب المناطق الشرقية والغربية بحثا عن الأنصار والمؤيدين، قصد استرجاع عرشه، وهذا ما تم له عندما قدم بها تمكن من جمعه، وحاصر مدينة تلمسان واحتلها سنة 833هـ/ 1432م، بعد سنتين من تولي أبي محمد عبد الواحد (831 ـ 833/ 1430 ـ 1432م) الحكم فقط، وأمر باعدامه في اليوم التالي من دخوله الى مدينة تلمسان منتصرا[19]، ولما بلغ خبر مقتل عبد الواحد، وتولي ابن الحمراء عرش تلمسان إلي أبي فارس الحفصي، حتى قرر النهوض إلي عاصمة المغرب الأوسط، للأخذ بثأر حليفه عبد الواحد، فطرق أبواب تلمسان للمرة الثالثة، وحاصرها حصارا محكما، وأجبر ابن الحمراء على الفرار ليلا تاركا عرشه وعاصمته لبني حفص، بعد أربعة وثمانين يوما فقط من تربعه على سلطان المغرب الارسط للمرة الثانية[20]، وصمم أبو فارس عبد العزيز ان يضع حدا، لنشاط ابن الحمراء، فأرسل قائده نبيل أن يتتبع آثاره، حتى أدركه لاجئا عند بني بزناسن الذين لم يتأخروا في تسليمه لنبيل، تحت التهديد والوعيد، فأخذه السلطان معه إلى تونس، وسجنه في قصبتها إلى أن توفي سنة 840هـ/ 1438م[21].

بعد أن عين القائد رضوان على تلمسان ، ثم وقع اختياره على أحد الامراء الزيانيين الموالين له هو الأمير ابو العباس أحمد المعتصم بن أبي حمو الثاني، الملقب بالعاقل، فنصبه سلطاناً على المغرب الأوسط سننة 834هـ/ 1432م[22].

وكان ابو العباس هذا يتميز ببعض الخصال الحميدة، مثل العدل ورجاحة العقل وحسن التدبير، والعطف على الفقراء والمساكين، وتشجيع العلم والعلماء وهي الخصال التي كان يتمتع بها ابو حمو موسى الزياني الثا ني. كما تشير بعض النصوص التاريخية، ولهذا اشتهر باسم "العاقل" بدأ عهده باصلاح الادارة وبناء الدولة، وإصلاح الاوقاف، وسخرها لفائدة المشاريع التربوية والدينية، والاجتماعية، وبعد ثلاث سنوات من حكمه، استطاع ان يعيد الهيبة للدولة، ويعيد لها قوتها ومجدها، فاحس بقوة مركزه فأخذ يفكر في خلع طاعة بني حفص، ووجد الفرصة عندما تعرضت جزيرة جربة للاحتلال المسيحي سنة 837 هـ / 1436م، فقطع الدعاء لهم. فاغتاض ابو فارس لهذا التصرف وقرر الخروج الى المغرب الاوسط للمرة الخامسة

لتأديب العاقل، ولما بلغ اطراف الونشريس، اصابه مرض أودى بحياته يوم عيد الأضحى من عام 837هـ/ 1436، قبل بلوغ جيشه الى تلمسان فعاد هذا الأخير الى بلاده دون قتال [23].

حكم أبو العباس العاقل نحو اثنين وثلاثين سنة، وهي فترة زمنية طويلة، إذا ما قورنت بحكم أسلافه، ساده نوع من الاستقرار والرخاء الاقتصادي، والتطور الفكري، فكثر الإقبال على طلب العلم والرحلة في سبيله وبنى مدرسة جديدة، بزواية الشيخ الصالح الحسن بن مخلوف ابركان[24]، غير أن عهده الطويل لم يكن كله هدوءا واستقرارا وأمنا، بل تعرض الى محاولات انقلابيه، وثورات قام بها منافسوه من البيت الزياني، الذي أصابته حمى السلطة، فأخذوا يتسابقون ويتصارعون مستعملين في ذلك جميع الوسائل الممكنة للوصول اليها [25].

فقد خرج ضده أخوه أبويحي بن أبي حمو الزياني الثاني سنة 838 هـ/ 1436 فاستولى على وهران، وانفرد بحكم المدينة الى أن طرده منها، السلطان سنة852 / 1450م[26]، وثار عليه في سنة 841 هـ/ 1439م، ابوزيان محمد المستعين بالله ابن ابي ثابت، بالناحية الشرقية للدو لة، فاحتل بلاد حمزة والجزائر وبلاد مليكش وأراضي الثعالبة [27]، واستولى ابنه ابوعبد الله المتوكل على الله على سهل متيجة والمدية ومليانة وتنس، فعظم سلطانه وارتفع شأنه أمام القبائل والإحياء، ففر اليه كثير من بني عبد الواد من العاصمة تلمسان، لتدعيمه وتشجيعه، الا أن سكان مدينة الجزائر، لم يمطئنوا اليه أو ربما يكون أحمد العاقل، هو الذي أوعز لهم وحرضهم ضده فخرجوا ضد أبي زيان وثاروا عليه وقتلوه سنة 843هـ/ 1441م[28].

وخرج عليه ايضا الامير احمد بن الناصر بن أبي حمو الثاني بتلمسان، فتصدى له السطان أحمد العاقل، وقضى على ثورته في المهد سنة 850 هـ/ 1446م[29] ونهض ضده ابو عبد الله محمد المتوكل على الله في مليانة، سنة 866هـ/ 1461م، ومنها اتجه نحو مدينة تلمسان، فاستولى في طريقه على قلعة بني راشد وهوارة ومستغانم ووهران ثم حاصر تلمسان لمدة يومين فقط، فسقطت في يده في أول جمادي الأولى سنة 866هـ/ 1461م، وقبض على سلطانها احمد العاقل، فسجنه ثم نفاه الى بلاد الاندلس [30].

وهكذا انتهى عهد احمد العاقل، الذي اسطاع ان يخلع نفوذ بني حفص وهمينتهم على العرش الزياني، واستقل بحكمه دون تدخل منهم. فصار يعد من الحكام العظماء الاقوياء الذين تعاقبوا على عرش بني زيان.

كان العاهل الحفصى ابوعمرو عثمان (839 ـ 893 هـ / 1435 ـ 1488م)، يراقب تطور الاحداث في المغرب الاوسط، من تونس عن كثب، وكانت التقارير تأتيه من عيونه وانصاره، وقد غضب غضبا شديدا عندما قطع السلطان أحمد العاقل الخطبة لهم، ولم يقر له قرار، وكان يتحين الفرص للتدخل العسكري، وقد وجدها عندما تولى السلطان الجديد عرش بني زيان، وهو ابو ثابت محمد المتوكل على الله، فنهض اليه على رأس جيش كبير، يطوي المراحل إلى تلمسان، فلما أناخ بظاهرها يستعد للهجوم، جاءه رسول المتوكل ينشد الطاعة ويقدم الولاء فقبل السلطان الحفصي منه ذلك وعاد إلى بلاده في صفر سنة 867هـ/ 1462م[31].

صادفت المتوكل أثناء عهده مشاكل، نذكر منها عودة أحمد العاقل من منفاه بالاندلس، وبصحبته جيش من القبائل العربية والزناتية، وحاصر مدينة تلمسان مدة أربعة عشر يوما، ومن حسن حظ السلطا ن المتوكل، فقد سقط أحمد العاقل قتيلا في المعارك، أثناء الحصار، في شهر ذي الحجة سنة 867هـ / 1462م، ودفن بالعباد وهو المكان الذي لجأ اليه أثناء هزيمته الأولي أمام المتوكل، فانفرجت الأحوال بتلمسان، وزال الخطر على سلطانها [32]وثار عليه الأمير محمد بن غالية، وتحصن بجبل بني ورنيد، فأرسل اليه المتوكل حامية من جيشه فقضت عليه سنة 868هـ ـ 1463م. حاولت عرب بني عامر، وسويد الاطاحة به، بمساعدة السلطان الحفصي وتحريضا منه، لما أبداه نحوهم من سوء معاملة والاستبداد بهم، من جهة ولتقريب، عرب الذواودة الذين خرجوا عن طاعة العاهل التونسي من جهة ثانية، فزودهم أبو عمرو عثمان بالمال والرجال والاخبية، وبعث معهم ابوزيان عبد الواحد بن أبي حمو الثاني كعادتهم، لينافس المتوكل ويحل محله وهي السياسة المتبعة عند أغلب سلاطين الغرب الاسلامي، ان لم نقل كلهم، ينصبون اميرا ويؤيدونه، ثم يضربونه بأخر ويبعدونه عن العرش، ثم نهض ابوعمرو الحفصي بنفسه الى تلمسان واحاطها بالعساكر وألات الحصار، وألزم المتوكل على الادعان لمطالبه، فجدد له الطاعة والولاء، وقدم الاعتذارات والهدايا الثمينة لأبي عمرو عثمان وزوج ابنته البكر للأمير أبي زكريا بن مسعود، حفيد السلطان الحفصي[34]، بدون اجراءات الخطبة ومراسيمها المعتادة، وكأنها ذهبت رهينة لدى بني حفص، فرجع ابوعمرو الى عاصمته سنة872هـ / 1467م، بعد أن تأكد من طاعة السلطان الزياني، ومن انتشار نفوذه على بلاد المغرب الأوسط [35]. ظلت أوضاع الدولة الزيانية على هذه الحالة، تخضع للنفوذ الحفصي وهيمنة سلاطينهم عليها، الى أن توفي المتوكل على الله سنة 873 هـ

/ 1468م، فخلفه ابنه وولي عهده أبوتاشفين الثالث، ولكنه اصطدم بمعارضة أخيه أبي عبد الله محمد الرابع [36]، الذي خلعه وتولى السلطة مكانه، بعد أربعين يوما فقط من تولى أبي تاشفين، وهي آفة استشرى داؤها بين الاسرة الزيانية الحاكمة والتي أصبحت لا يفيدها الا الملك والسلطان، ولا يهمها الا الجلوس على العرش، حتى ولو كان ذلك على حساب السيادة والاستقلال والرقاب، وفي أيام هذا الاخير، ظهر الخطر المسيحي بقوة على الشراطىء يهدد دار الاسلام في بلاد المغرب، وملوكه وسلاطينه غارقون في دوامة الحروب والصراعات الداخلية فيما بينهم، من أجل الاستمتاع بالسلطان والجري وراءها مهما كلفهم ذلك من جهد ووقت وأموال وعباد.

مرحلة الضعف وسقوط الدولة:

أظهر السلطان أبو عبد الله محمد الرابع، المعروف بالثابتي، نسبة الى جده أبي ثابت، قدرة كبيرة في تسيير شؤون الدولة وضبطها، وقد ساعده في ذلك بنوحفص، وهو الامر الذي جعل فترة حكمه تطول مدة من الزمن، وانصاره يتكاثرون، بحيث استطاع أن يبسط نفوذه، على مختلف أقاليم المغرب الاوسط، لأنه عرف كيف يتجنب غضب أصحاب تونس، ويكسب ودهم ومساعدتهم، ولا سيما في بداية عهده، الذي ظهر فيه الطامعون، فضلا عن بروز قوة مسيحية جديدة، بقيادة الاسبان، في الشاطىء المقابل واستيلائهم، على مملكة بني الأحمر في غرناطة في شهر شوال من سنة 897 هـ/ 1492م، وأسقطوا بذلك آخر معقل للمسلمين بالاندلس[37].

وكان الملك الغرناطي أبو عبد الله محمد الحادي عشر بن سعيد المعروف عند العرب بالتعس، وبالزغيبي وعند الافرنج بأبي عبدل (Boadil) أما الاسبان فقد اطلقوا عليه بالملك الصغير "El rey chico" [38] خرج من الأندلس سنة 898 هـ/ 1498م، بأهله وماله، إلى المغرب الاقصى، حيث نزل بمدينة مليلة، ثم انتقل منها الى فاس واستقر بها إلى أن مات بعد أربعين سنة.

وأما عمه ابوعبد الله محمد بن سعد الزغل الذي بذل جهدا كبيرا في سبيل انقاذ عرش بني الأحمر، والحفاظ عليه مدة من الزوال، بمحاربته للاسبان، فقد توجه الى مدينة وهران، واتسقر بها، ثم انتقل صحبة بعض أعيان غرناطة وكبراؤها إلى مدينة تلمسان، حيث استقبلهم

سلطانها محمد الرابع، استقبالا حارا، وأكرم مقامهم بعاصمته [39]، فظل بها الأمير الغرناطي يتحسر عما اصابهم، وأصاب المسلمين بالاندلس، الى أن ادركته الوفاة بتلمسان بعد مدة يسيرة ودفن بها [40].

ومنذ هذا التاريخ المشؤوم الذي سقطت فيه الاندلس الاسلامية [41]، أصبحت شواطىء المغرب عامة وسواحل المغرب الاوسط ومدنه على وجه الخصوص، عرضة لتهديدات الجيوش الاسبانية وهجوماتهم المتكررة، فنقلوا بذلك الحرب من أرض الإسبان إلى أرض المغرب الاسلامي، انتقاما من المغاربة الذين استقبلوا الاندلسيين الفارين اليهم، من سيوف الاسبان، ومن محاكم التفتيش[42].

فقد اغتنم هؤلاء المعتدون، فرصة تطاحن الدول المغاربية، فيما بينها من جهة وتسابق الأسر الحاكمة الى كرسي السلطة من جهة أخرى، فأخذوا يدعمون هذا الامير ضد الأخر، ويغذون الفتنة والتطاحن بالمساعدات المادية والمعنوية، ثم صاروا يتدخلون في شؤونهم الداخلية، فضعفت قوتهم وفترت مقاومتهم للأجنبي، حتى استطاع الاسبان أن يستولوا على المرسى الكبير911 هـ/ 1506م، بقيادة القائد الإسباني، "الماركي توماس" وبمباركة من الكنيسة المسيحية ودعمها[43].

وهكذا ترك السلطان محمد الرابع الزياني بلاد المغرب والأندلس، ورحل عن الدنيا رحلته الأخيرة سنة 910 هـ/ 1405م، بعد حكم دام نحو أربعين سنة[44]، وتولى زمام الأمر في تلمسان بعده محمد الخامس بن محمد الثابتي في ظروف لا يحسد عليها، فقد اغتنم الاسبان، فرصة ضعف بني زيان والاضطرابات الداخلية التي ما فتئت، تنشب من حين لآخر، بخروج الطامعين في السلطة من البيت الحاكم، مثل خروج أبي زيان الثالث ضد محمد الخامس الجديد، فأخذوا يتدخلون في شؤون الدولة، بتأثيرهم على حكامها [45]، فقد قاموا بتحريض الثائر يحي الثابتي أخي مسعود، وهو أحد الأمراء الزيانيين، فاستقل بمدينة تنس وأحوازها تحت رعايتهم وحمايتهم، كما شجعهم ضعف الدولة وتفككها على احتلال مدينة وهران سنة 915 هـ/ 1510م، ثم امتدت أيديهم الى مدنية بجاية المتاخمة للحدود الزيانية سنة 915ـ1510 فاستولوا عليها هي الأخرى [46]، فاقتطعوا كثيرا من المدن الزيانية باسم الثائرين. وبالتالي تقلص نفوذ السلطان التلمساني، وأصبح لا يقدم ولا يؤخر الا بمشورتهم ووفق مصالحهم، فانصاع لسلطانهم وهيمنتهم، فجروه الى سلم

ومعاهده مفروضة سنة 918 هـ / 1512م، يدفع بموجبها ضريبة سنوية قدرها اثنتي عشر ألف دوقية، أي 12 ألف مثقال من الذهب (47)، واثنتي عشرة فرسا من احسن الخيول العربية، وستة صقور من الأناث المدربة تدريبا جيدا على الصيد، فضلا عن تموين الحامية الاسبانية المقيمة بوهران، بما تحتاج إليه من المؤن والمواد الغذائية (48)، وظلت هذه المعاهدة مفروضة على الدولة الزيانية، طوال فترة حكم محمد الخامس، الذي لم يتأخر في تطبيق بنوذها حرفيا وبدون تردد (49).

فقد كان التهديد الاسباني حقيقة ملموسة وواقعا معاشا، بعد القضاء على دار الاسلام في الاندلس، وكسر المقاومة بها سنة 897 هـ / 1492م، فنقلوا الحرب الى دار الاسلام في المغرب الاسلامي، الذي تعرض كما أسلفنا الى الحملات العسكرية التي كان يقودها "بياردي نفار"، كانت نتائجها احتلال عدة موانىء بالاضافة الى الوحشية في أسلوب القتل، والتخريب الذي استعمله الجيش الاسباني ضد الأهالي وممتلكاتهم، وهو يدل على شدة انتقام الاسبان، وخاصة في عهد الكاردنال المشهور كسيمنيس (Ximenes) (50) اذ خرب الاسبان مدينة هنين الميناء الاهم للدولة الزيانية في بداية القرن السادس عشر الميلادي، وأتوا على عمران ارشقول عند مصب تافنة، وانتهكوا الحرمات في المدن التي استولوا عليها فخشيت بقية المدن من سطوتهم، فتقدم أهلها بطاعتهم خاصة منها تدلس والجزائر وتنس (51).

والظاهر أن أعيان مدينة تلمسان ووجاءها، كانوا يتحسرون على هذه الوضعية التي آلت اليها دولتهم ومنطقتهم خاصة، ودار الاسلام على وجه العموم، في بلاد المغرب فقرروا ان يقوموا بمقاومة هذا الخطر المسيحي الكاسح، وحماية دار الاسلام فأرسلوا وفدا إلى القائد العثماني "عروج"، الذي بدأ نجمه يعلو وشهرتة تزداد في بلاد المغرب، يستنجدون به من مدينة الجزائر، وكان عروج حيئذاك بمدينة تنس، التي تمكن من تحريرها من يد المنشق يحي الثابتي، ثم تقدم نحو مدينة تلمسان سنة923 هـ / 1518م (52)، وأخرج منها أبا حمو الثالث، الذي تولى حكم تلمسان بعد وفاة محمد الخامس سنة 922هـ / 1517م، وسار على نهج أخيه في مسالمة الاسبان، ومهادنتهم والالتزام بتطبيق المعاهدة المبرمة معهم.

قام عروج بفك اعتقال أبا زيان، وتنصيبه على العرش الزياني في تلمسا ن، ثم قفل راجعا الى مدينة الجزائر، ويبدو أن السلطان الزياني الجديد، أبا زيان المسعود، لم يكن راضيا على هيمنة

الاتراك، ولم يكن مستعدا أن يدور في فلكهم، فقطع الاتصـال بهم وخلع طاعتهم وولاءهم وهذا هو السبب المباشر في عودة عروج إلى تلمسان مرة ثانية، فقتل ابا زيان ومن معه.

فتوجه على اثر ذلك أبو حمو الثالث المخلـوع، الموجود بمدينة وهران الى الملك الاسباني حينذاك وهو شارل كارلوس، يستجـدي المساعدة ويطلب الاعانة لإعـادة عرشـه، فوجد التعضيد الكافي من الاسبان [53]، وهـو الأمر الـذي جعله يعـود الى تلمسـان فاستـولى عليها في سنـة 924هـ / 1518م، ودخلها رفقـة الحامية الاسبـانية، التـي عاثـت فسادا في المدينـة وكان مـن بين القتلى في المعركـة "عروج" وكثير من الجنـد التلمسانيين [54]، ولعـل أبـا حمـو ظل يسير في فلـك الاسبان ويقدم مـا يريـدون بدون تـردد، الى أن توفى سنـة 934 هــ / 1528م، فكان سلطـان بني زيـان عندها، قد تقلص ونفـوذهم تضاءل الى مدينة تلمسان وأحوازها، فخلفه ابنـه أبو محمد عبد الله بن محمد الثابتي [55]، الذي حاول أن يتبع سياسة الحياد، والسادة بحيث لا يميل إلى أي طرف من القوتين العثمانيـة أو الاسبانيـة، ثم قـام بنفي أخاه أبـا سرحان المسعـود، المعارض لهذه السيـاسة والمنافـس لـه.

ويبـدو أن أبا سرحـان تمكن مـن الهروب من منفـاه بفاس، والاتصـال بخير الديـن في مدينـة الجزائر، وعرض عليه خدمـاته، إن هـو سـاعده لإعـادة عرشه، فأستجـاب خير الدين، وأطاح بأخيه سنة 935 هـ / 1529م، اخرجه من تلمسـان [56]، إلا أن أبا سرحان لم يف بوعده، فكانت ثغرة كافية لينفذ منها أخوه المنافس له وهو أبو محمد عبد الله المخلوع، إلى خير الدين الذي ساعده على ذلك، فظل وفيا لخير الدين ملتزما بطاعته والوفاء له، إلى أن تولى العرش بعده إبنه، وفي عهد هذا الأخير، اتضح ضعف الدولة، واضمحلال قوتها بشكل جلي وملحوظ، أمام التدخل المزدوج التركي والاسباني، فضلا عن صراع الأسرة المستمر فيما بينها، فـدخلت تلمسان في مرحلة أخرى، من الاضطراب السياسي، والحرب الأهلية أضعفت السلطة المركـزية بتلمسان، حتى صارت لقمة سهلـة للتدخـل الأجنبي، فتقلـص ظلهم، وتضـاءل نفوذهـم حتى انحصر في مـدينة تلمسـان تقريبا [57].

ويظهر ذلك من خلال تصرفات أبي عبد الله محمد، الذي صخر اليهود [58] لخدمته، وتعامل مع كل مـن يضمن له الوفاء والبقـاء في السلطة، إذ جعل من اليهود وسطـاء بينه وبين الأسبان في التعـاون الاقتصادي والعسكـري، ولعل هـذا هو الشرارة التـي أشعلت الفتيـل، واغضب أهـل

تلمسان وجعلهم يثورون على السلطان، بمساعدة الاتراك المسلمين الذين لجأوا اليهم. فقاموا بعزله وتولية أخيه أبي زيان أحمد الثاني سنة 949 / 1542م، بدلا منه [59].

وعلى الرغم من إجماع التلمسانيين وتوحيد كلمتهم حول العاهل الزياني الجديد، فإن الاستقرار والأمن ظل مفقودا في تلمسان وغيرها من حواضر وبوادي المغرب الاوسط، فقد ظلت هذه الاضطرابات تهدد كيان الدولة الزيانية وتدق كل يوم مسمارا في نعشها، بيد أبنائها المختلفين من الأسرة الحاكمة، فقد فرّ السلطان المخلوع، أبو عبد الله محمد الى وهران، مرتميا في أحضان الاسبان، فقدموا له حامية عسكرية بقيادة "الدوق الفونسو دي مارتنيز"، فاتجه بها نحو مدينة تلمسان، لكن أبا زيان كان له بالمرصاد، في مكان يعرف بشعبة اللحم وهزمهم شر هزيمة سنة 949 هـ / 1542م [60]، لم ييأس ابو عبد الله محمد، وأعاد الكرة مرة أخرى تحت مظلة الاسبان، يقدر عددهم بنحو تسعة آلاف راجل، وخمسمائة فارس [61]، من خيرة قوات الملك «شارلكان» الذي أصبح يهتم هو شخصيا بعاصمة بني زيان، فسقطت في يد أبي عبد الله محمد ومعه الاتراك، فنهبوا المدينة وقتلوا الكثير من أهلها أمام انظار السلطان الجديد[62].

حاول أبوزيان ان يعيد عرشه عدة مرات، غير أنه اخفق فيها جميعا، لأن أبا عبد الله محمد كان يفاجئه خارج أسوار المدينة، ولم يتمكن من دخول تلمسان إلا بعد أن ثار أهلها في وجه أبي عبد الله محمد، واغلقوا أبواب مدينتهم في وجهه، ووجه الاسبان، واستدعوا أبا زيان أحمد الثاني لاستلام السلطة مرة أخرى [63].

أما أبو عبد الله محمد، فقد ضرب له عرب ناحية وهران كمينا وهو في طريقه اليها فقتلوه، وقتلوا من كان معه من الاسبان، فانفرد عند ذلك أبوزيان بالحكم، وتخلص أهل تلمسان من عدوان الاسبان، بعداوة سلطانهم له، والتقرب من الاتراك سنة 957 هـ / 1550 [64]، الذين سيطروا على المنطقة الشرقية للدولة الزيانية، أما السواحل الغربية من مدينة مستغانم الى مصب وادى تافنة، فكانت تحت سيطرت الاسبان وبالتالي حرمت الدولة الزيانية من التمتع بسيادتها على الاقاليم والمناطق التابعة لها، ومن الموارد المالية، التي تأتيها من الموانى والمدن الساحلية، فدخلت في مرحلة الانعاش بحيث أخذت تلفظ انفاسها شيئا فشيئا مع مرور الايام فضلا عن السنوات[65]، كما ساعد على على ضعفها وعجل بزوالها وانقراضها، ظهور قوة ثالثة في المنطقة، وهي الدولة السعدية، بقيادة الشريف المهدي (915-964 / 1544-1557)، الذي كان يرنو هو

الآخر إلى المغرب الأوسط، ورأى فيه المجال الخصب، للتوسع ولاسيما وأن الأوضاع فيها مواتية، بسبب التدخل الأجنبي فيه، فأراد أن يخلق من قوته بديلا للاتراك والاسبان في هذه المنطقة، ومن المغرب الاوسط نحو الشرق، فأرسل جيشا لهذا الغرض بقيادة ابنه الشريف محمد الخوراني، الى تلمسان فاحتلها سنة 957 هـ / 1550م، بعد حصار لها دام تسعة أشهر، قتل خلالها ابن السلطان السعدي وقائد جيشه، ثم تقدم الجيش السعدي نحو الشلف في اتجاه الجزائر لضرب الاتراك، بينما الاسبان لا يزالون يحتلون الشواطىء المغربية (66).

تفطن حسن باشا التركي، حاكم الجزائر، لنوايا السعديين فأسرع بالنهوض إليهم، وأرسل جيشا يقوده حسن قرصوباي الأرباي، فتصدى للسعديين، قرب وادي الشلف، فهزمهم ومزق شملهم وأرغمهم على الفرار في اتجاه المغرب الأقصى (67)، وبالتالي حرر تلمسان التي قدم اليها حسن باشا وخلع عنها السطان أبا زيان أحمد الثاني، وولى مكانه أخاه الحسن بن محمد بن عبد الله الثاني، وهو آخر أمراء بني زيان، أعلن عن مبايعته للأتراك بدون شروط (68)، سنة 957هـ / 1550م، وظل يعمل تحت نفوذهم نحو خمس سنوات، ولما كان غير قادر على تسيير الرعية في تلمسان وما جاورها من الأقاليم، اجتمع علماء تلمسان وفقهاؤها ووجهاء القوم، وأعلنوا خلعه سنة962هـ / 1552م، لذلك لم يجد "صالح رايس" بدا من الحاق تلمسا ن وأحوازها بالجزائر، وانهى دولة بني زيان، التي دامت أكثر من ثلاثمائة سنة (69).

وأصبحت حاضرتها مدينة اقليمية، تتبع عاصمة الداي، وهي مدينة الجزائر، فسكنت ريح بني زيان، وذهب رسم دولتهم من تلمسان والمغرب الاوسط، والتي كانت تشمل رقعة جغرافية واسعة، امتدت حدودها من بجاية شرقا إلى وجدة غربا ومن البحر المتوسط شمالا إلى الصحراء جنوبا.

ومهما يكن من أمر فالجدير بالملاحظة هو، أنه على الرغم من الصراعات الداخلية للبيت الحاكم في تلمسان وثورات القبائل العربية، والزيانية ضد السلطة المركزية في تلمسان، والهجومات المتكررة من قبل الجارتين الشرقية والغربية، وهيمنتها على الدولة الزيانية فترات عديدة من الزمن فإن دولة بني زيان، وعاصمتها تلمسان، كانت تحتل مكانة مرموقة ومركزا سياسيا وتجاريا وعلميا متميزا بين حواضر المنطقة ودول البحر المتوسط الشمالية، خلال الوجود الزياني،

ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية، المطبوعة ببيأتها التلمسانية والمتأثرة بالحضارة الأندلسية لأن تلمسان ترتبط بثقافة وعمران الغرب الاسلامي ارتباطا وثيقا.

وكانت الصلة طيبة وقوية، والعلاقة وطيدة بين بني الأحمر في غرناطة، وبين بني زيان في تلمسان، فكانوا يتبادلون البعثات الدبلوماسية والسفارات والهدايا والاعانات الاقتصادية والعسكرية في وقت الشدة ووقت السلم[70].

كما كانت للدولة الزيانية أيضا علاقات سياسية وتجارية مع الجارتين الشرقية والغربية ولا سيما وقت السلم، والانفراج في العلاقات بينهما، وعرفت سلطة تلمسان صلات مع بلاد المشرق، ودول غرب أوربا وبلاد السودان في الجنوب، لعبت فيها مدينة تلمسان خاصة والمدن الزيانية الساحلية على وجه العموم دورا مهما، في الدورة الاقتصادية والتجارية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وفيما وراء الصحراء الكبرى، إذ كانت لها معاهدات تجارية مع دول إسبانيا وإيطاليا وفرنسا لحماية حركة الملاحة التجارية، والمحافظة على حقوق التجار ومصالحهم وحرية تنقلهم[71] وعلى الرغم من عدم استقرار الاوضاع السياسية في المغرب، فإن حركة التجار والعلماء والطلاب والأشخاص، كانت نشيطة بين حواضره فكفلت لعواصمه الازدهار والرفاهية وسعة العيش.

الهوامش:

(1) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 303.
(2) نفسه، ج7 ص 307.
(3) نفسه: نظم الدر، ص207.
(4) ابن خلدون العبر، ج7 ص 307.
(5) نفسه ص7، ص308 ـ السلاوي: الاستقصاء، ج2، ص140.
(6) التنسي: نظم الدر، ص210، 211.
(7) نفسه، ص 227 ، ويحددها صاحب روضة النسرين، سنة 802/ 1401، انظر ص 59.
(8) التنسي: نظم الدر، ص 228.
(9) نفسه، ص 228.
(10) نفسه، ص 229 ـ ابن الأحمر: روضة، النسرين ص 60.

(11) نفسه، ص 234.

(12) التنسي: نظم الدر، ص234.

(13) نفسه، ص 235.

(14) التنسي: نظم الدر ص236، الزركشي تاريخ الدولتين، ص 109 ـ 110.

(15) الزركشي: المصدر السابق: ص 109 ـ110، برنشفيك: تاريخ افريقية، ج1، ص257.

(16) محمود العروسي: السلطنة الحفصية ص 586، عطا الله دهينة: امتداد نفوذ الحفصيين إلى المغرب الاوسط، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ، ص 432.

(17) التنسي: نظم الدر، ص 243 ـ 244 الزركشي: المصدر السابق، ص111.

(18) نفسه: ص 245.

(19) نفسه ص 245ـ246.

(20) نفسه 246 انفرد التنسي بهذه المعلومة دون غيره.

(21) الزركشي: المصدر السابق ص 112 ـ 113 التنسي: نظم الدر، ص246.

(22) التنسي: نظم الدر، ص247 ـ 248، أما الزركشي فيذكرها في حوادث سنة833هـ/ 1432م. انظر تاريخ الدولتين ص 113، أحمد بن أبي الضياف: إتحاف الزمان ج1، ص 184.

(23) التنسي: نظم الدر، ص 148. عطا الله دهينة: المرجع السابق، ص 433.

(24) عطا الله دهينة: المرجع السابق، ص 433.

(25) التنسي: نظم الدر، ص 249.

(26) نفسه: ص 249.

(27) نفسه، ص 250.

(28) نفسه ص 251.

(29) نفسه، ص 249.

(30) التنسي: نظم الدر، ص 254، 257، بغية الرواد، ملحق ص 83.

(31) الزركشي: المصدر السابق، ص 136، 137، برنشفيك: المرجع السابق، ج1، ص291 عبد الباسط: الروض الباسم تحقيق برنشفيك، ص 69 ـ70 ـ 89.

(32) التنسي: نظم الدر، ص 257.

(33) نفسه، ص 257.

(34) برنشفيك: المرجع السابق، ج1 ص 291، يبدو أنه منذ ذلك الوقت أصبحت البعثات الدبلوماسية تنتقل بين تلمسان وتونس وتوالى باستمرار فقد حمل قاضي الجماعة التلمساني محمد العقباني مرتين متاليتين الهدايا والالطاف إلى ابي عمرو عثمان كما بعث هذا الاخير عدة بعثات ومراسلات إلى العاهل التلمساني والهداياوفي بعض الاحيان الاحتجاجات عندما يقصر صاحب تلمسان في الأمر انظر: عبد الباسط المصدر السابق ص 156.

(35) الزركشي: المصدر السابق، ص 142 ـ 143.

(36) أحمد سعيد سليمان: تاريخ الدولة الاسلامية (معجم الأسر الحاكمة) دار المعارف المصرية 1972 ج1 ص 16.

(37) Robert (M) les grandes dates de l'islam, entreprise national de livre, larousse PARIS p74.

(38) عبد الحميد بن هشنو: أبو عبد الله أخر ملوك غرناطة دفين تلمسان أم فاس مجلة الأصالة عدد 26 جويلية أوت 1975م، ص 271.

(39)عبد الحميد حاجيات: خطر النصارى، وانهيار الدولة الزيانية، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ ص 455، نفخ الطيب، ج4 ص 524.

(40) عبد الحميد بن هشنو: المرجع السابق، ص 172.

(41) يحدد كل من المقري وعبد الله عنان، تاريخ سقوط الاندلس عامة وغرناطة خاصة سنة 895 هـ، انظر نفح الطيب، (تحقيق احسان عباس)ج4، ص 524، نهاية الاندلس والعرب، المتنصرين ط، القاهرة 1949، ص 172، 205.

(42) الاخضر عبدلي: المرجع السابق، ص 113.

(43) اندري برنيان وأخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطنبولي ومنصف، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984 ـ ص 124.

(44) عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق، ص 455، 456.

(45) أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة، ص96، وعن دخول الإسبان الى المرسى الكبير ووهران واحتلالهما انظر: عبد القادر المشرفي، نهضة النظار تحقيق محمد بن عبد الكريم، ص 12.

(46) اندري بريان وأخرون: المرجع السابق، ص 124.

(47) الدوقية DUCAT، هي وحدة نقدية ذهبية اسبانية، عملة كانت أشبه بالدولار في الوقت الحاضر لأنها معتمدة من جميع الدول الأوربية تقريبا، وانتقلت مع التجارة الى الشرق، وقد اعتمدتها الدولة البيزنطية أيضا، أنشأتها جمهورية البندقية، انظر: حسن الوزان، وصف افريقية ج2، ص10 هـ(7).

(49) نفسه، ج2 ص10، هامش (7).

(50) اندري برنيان: المرجع، السابق، ص 124.

(51) عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق، ص456، اندري برنيان: المرجع السابق، ص 125.

(52) اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي حرر فيها عروج مدينة جيجل من الحامية الايطالية فقد ذكرها البعض سنة 917 هـ/ 1511م، وحددها البعض الأخر سنة 920 هـ/ 1514م، ويرى اندري بريان ان دخولهم لجيجل كان سنة 1516م، ومهما يكن من أمر فان عروج استطاع أن يطرد الايطاليين من ميناء جيجل الهام، ثم حصنه واتخذه مركزا له ولاسطوله، وأسس به مصنعا ودارا لصناعة السفن، وترميمها، وتمكن في مدة سنتين أن ينشأ اسطولا قويا جاب به عباب البحر الأبيض المتوسط، وصارت له قوة بحرية ضاربة في شواطىء المغرب الاوسط، وكان يرسل أخاه خير الدين على رأس الاسطول الى السواحل الاسبانية لترحيل المسلمين الاندلسيين، ونقلهم الى الشواطىء المغربية والمصرية والشامية وإلى القسطنطينية وبالاضافة الى الاسطول كون عروج جيشا قويا منظما من العرب وصنهاجة وكتامة قصد به مدينة الجزائر بطلب من أهلها، فدخل مدينة شرشال وطرد منها الاسبان ثم توجه رفقة أخيه الى مدينة الجزائر فدخلاها سنة 919هـ/ 1513 م ثم مليانة، لمدية، تنس، وهكذا بدأ تحرير المدن الساحلية المغربية من يد الأسبان بفضل جهود عروج، وانصاره من أهل المغرب، انظر: ابن الاعرج: زبدة التاريخ، ص9، ورقة 104 ـ 105 ـ 106.

حسن: الوازن: المصدر السابق، ج1، ص9.

(53) هو الملك كارلوس الخامس المعروف في التاريخ الأروبي باسم "شارلكان" انظر محمد سحنون: الثغر الجماني، ص440.

(54) حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص9، الثغر الجماني، ص 440.

(55) نفسه، ج2، ص9.

(56) أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص248ـ 249 ـ الأخضر عبدلي: المرجع السابق، ص 116.

(57) عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق، ص 556.

(58) أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 248، 249.

(59) الأخضر عبدلي: المرجع السابق، ص 117.

(60) تقع شعبه اللحم على بعد (6) كلم شمال مدينة عين تموشنت، وقد قتل جميع الاسبان في معركة ومعهم القائد الدون الفونسو، ولعل كثرة القتلى هي التي أعطت لها هذا الاسم، انظر: الأخضر عبدلي: المرجع السابق، ص117.

(61) دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة) مجلة (1)، ص 343.

(62) عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق، ص 457.

(63) نفسه، ص 457.

(64) نفسه، ص 457.

(65) عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق، ص 457.

(66) نفسه، ص 457.

(67) السلاوي: الاستقصاء، ج 3، ص 12.

(68) دائرة المعارف الاسلامية (المترجمة)، ج 1، ص 343.

(69) أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 329 Robert (M): Opcit.

(70) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج2، ص 170 ـ المقري: أزهار الرياض ج1 ص 249.

(71) عن التجارة الخارجية لتلمسان: انظر بشارى لطيفة: المرجع السابق، ص 147 ـ 260.

الباب الثاني

المظاهر
العمرانية بتلمسان

الفصل الأول

خطط المدينة وتطورها

1 ـ الموقع .
2 ـ أسماء المدينة ومعانيها .
3 ـ تطور تلمسان قبل العهد الزياني .

خطط المدينة وتطورها

الموقع

تقع مدينة تلمسان على ارتفاع 830 م عن سطح البحر، وتحيط بها الجبال والهضاب الصخرية من الجهة الجنوبية [1] وتحدها من الشمال الغربي مرتفع ترارة، وجبل فلاوسن[2] اما من الشمال الشرقي، فتوجد مرتفعات السبعة شيوخ وتاسلة [3].

تشرف المدينة، من الناحية الشمالية، على سهول خصبة، تعرف بسهول "الحناية" الممتدة نحو الغرب، حيث تتصل بسهول لالة مغنية [4] ولا تبعد عن البحر الا بسبعة فراسخ [5].

وكانت هذه الجبال والهضاب التي تكسوها غابة، من شجر الصنوبر بمثابة حصون قوية، تحميها من الغزاة. والمدينة في حد ذاتها، تقع في شمال الغربي للمغرب الاوسط، تحت سفوح الجبال، في مكان مائل نحو الغرب، في الاقليم الرابع من الاقاليم الفلكية السبع، وهو اكثر الأقاليم اعتدالا في المناخ واكثرها وفرة في المياه والنبات والحيوان[6].

يتوفر موقع مدينة تلمسان، على المسطحات المائية، بحكم التكوينات الجيولوجية التي تخزن كميا ت هائلة، من مياه الامطار، بالاضافة الى وادي متشكانة الذي يمر بجنوب المدينة وبشرقها[7] وعلى الرغم من الجبال المتقطعة، المحيطة بتلمسان، فان لها ممرات سهلة، تربطها بالساحل، فقد كانت لها طرق حيوية نحو موانيء هنين[8] ووهران وارشقول [9] وهو الشيء الذي زاد من اهميتها فازدهرت اقتصاديا، وانتعشت فكريا وتطورت عمرانيا ونمت ديموغرافيا، لان موانئها تقترب من موانىء الاندلس وتقابلها ولا تبعد عنها إلا بمسافة يوم وليلة [10].

ولقد جعلها موقعها المميز هذا تفتح أبوابها لتجارة أوروبا وتجار المغرب والمشرق، كما تمتاز مدينة تلمسان بخاصية استراتيجية، بحيث تقع في مكان تقاطع الطريقين التجاريين الهامين في بلاد المغرب وهما: الطريق الرابط بين الشرق والغرب، المار بوادي شلف الي تلمسان ومنها الى فاس

فسجلماسة والطريق الذي يصل الشمال بالجنوب، مرورا بمدينة فجيج [11] وتوات الى بلاد السودان[12].

لم تقتصر أهمية تلمسان، على المنافذ التجارية البرية منها والبحرية فحسب، بل تعدت أهميتها الى الملامح الطبوغرافية، التي ضمنت لها حصانة طبيعية قوية [13]، فقد وفر لها موقعها سهولة الدفاع وقوة الصمود أمام الغزاة، فضلا على ما تحتويه من مسطحات صخرية، وعلى ما تشتمل عليه من سهول فسيحة خصبة، وبساتين خضراء تتوفر على فواكه وخضرو محاصيل زراعية متنوعة[14] تشد حاجيات أهل المدينة وأحوازها، لأن جبال تلمسان المحيطة بها [15]، تعد خزانا طبيعيا للمياه، تتوزع على ينابيع، كثيرة حول المدينة وبفضلها لبست مدينة تلمسان حلة خضراء من أشجار الصنوبر والجوز، كما كانت تنحدر من هذه الجبال، اودية عديدة منها: وادي الصفصيف [16] (السطفصيف) ويسر ومتشكانة، والوريط، وغيرها من الاودية التي تحيط بتلمسان وتمر بجانبها [17]. أما المدينة فقد كانت تتمتع بشخصية مميزة، تنفرد بها عن باقي مدن المغرب الاوسط في تلك الفترة وتعتبر المركز الحضاري الهام، في ممنطقة ريفية غلب عليها الطابع الريفي البدوي، تقطنها القبائل البدوية المختلفة، حتى صارت تعد حاضرة زناتة [19]، فهذه الخاصية، ـ فيما يبدو ـ هي التي جعلت من مدينة تلمسان، عرضه لاطماع الغزاة من الشرق ومن المغرب ومن وراء البحر.

أسماء المدينة ومعانيها:

اتخذت مدنية تلمسان، أسماء متعددة، منذ نشأتها، وعبر مراحل تاريخها القديم والوسيط، لأن تلمسان تعتبر من أقدم مدن المغرب الاوسط [19]، فقد عرفت الاستقرار البشري منذ آلاف السنين، ويتضح ذلك من خلال الحفريات والأبحاث، التي اجريت عليها من قبل بعض الباحثين الغربيين على وجه الخصوص [20]، الذين عثروا على بقايا اثرية، تعود الى العصور الحجرية، أو فجر الحضارة الأولى، لإنسان هذه المنطقة [21].

وقد ظهرت المدن في المغرب كمراكز لتجمعات السكان الحضريين منذ العصور القديمة، أي منذ أن عرفت بلاد المغرب أول اتصال لها بالحضارة الفينقية، ومع ان المصادر العربية، لا تحدثنا عن هذه المدن، التي شيدت في العصر القديم، فإن الابحاث الأثرية، وبقايا مؤثرات الانسان

التي ظلت قائمة، في كثير من المناطق المغربية، تدل على أن الفنيقيين، أنشأوا مجموعة من المحطات الساحلية، يتم بواسطتها التعامل التجاري وتبادل البضائع بينهم وبين سكان بلاد المغرب [22]، وصارت هذه المحطات التي أسست في الألفية الثانية قبل الميلاد، بؤر حضارية تشتمل على متاجر ومخازن للسلع والبضائع، تقطنها فئات بشرية، تتكون من التجار الحرفيين ومن يقوم بخدمتهم [23]، فهذه المحطات هي التي تحولت الى مدن، وتجمعات حضارية مثل: الجزائر وتنس وتلمسان وغيرها من مدن المغرب الاوسط.

كما وجدوا أيضا أثارا رومانية، مما يدل على أن الرومان، قد سكنوا هذه المنطقة، وبنوا فيها قواعد لحماية خطوط الليمس في غرب بلاد المغرب [24]، لأن الاستعمار الروماني كان مبنيا على الإستيطان والفلاحة، معتمدا في ذلك على القوة العسكرية، المتواجدة في المدن والحصون، وأطلق عليها اسم "بوماريا" ومعناها البساتين [25]، لكثرة الحدائق الغناء التي كانت تزين عمرانها وتحيط بها.

والحقيقة أننا لا نعرف اسم تلمسان الأكثر قدما من الأسماء الثلاثة التي اشتهرت بها [26]، وهي "اكادير" و "بوماريا" و "تلسمان" بل ونحن غير متأكدين، من ترتيبها الزمني، لأن الأثريين لم يتوصلوا إلى اكتشاف نقوش أسماء أخرى قبل إسم "بوماريا" ولهذا فقد ظل الإسم الروماني، يعد أقدم من غيره، عند كثير من الباحثين، الذين اهتموا بحضارة المدينة، وبمنشأتها العمرانية [27]، وحتى النصوص التاريخية التي تطرقت إليها، غامضة وغير واضحة.

لكن لا يعني ذلك أن الرومان هم أول من سكنوا المنطقة وشيدوا بها العمران، بل أستقر فيها - فيما يبدو - الأنسان القديم وعاش في كهوفها ومغاورها، كما تدل على ذلك بقايا أدرات الأنسان القديم ومخلفاته [28]، وكذلك عاش في المنطقة بعض القبائل الزناتية وأسست فيها شبه الإمارات قبل العهد الروماني، كما تبين بعض النصوص التاريخية [29]، ولا يعقل أن لا تكون لهذه الامارات أو التجمعات السكانية مدينة أو قرية تأويهم، وقاعدة تجمعهم، يديرون منها شؤونهم، ولاسيما وان المدينة ظاهرة عمرانية قديمة، عرفها المغرب الأوسط في الألف الثانية قبل المسيح، وأن سكانه يعرفون هذه الظاهرة العمرانية، ويتألفونها سواء كان ذلك على الساحل أو في الداخل [30].

لعل الرومان، قد بادروا بتخطيط مدينتهم "بوماريا" وتشييدها في منطقة فلاحية، عرفت الاستقرار البشري قبلهم، بدأت مدينة "بوماريا" معسكرا رومانيا، ثم تطورت إلى مدينة بنمو

عمرانها (31) وأزدياد عـدد سكانها ، فكانوا يجلبـون لهل المياه العذبـة من عيون تقع على ستـة أميال وتـسمى عيون الوريط(32) ، في قناة لا تزال تعرف بساقية النصراني عند السكان الى اليوم (33).

وعندما دخلهـا الوندال في القرن الخامـس الميلادي ، قاموا فيها يبـدو بتهديم أسوارهـا وتخريب عمرانها ، ولعـل ذلك هو الـذي أضعف مـن حيويتها وأنقـص من نشاطهـا ودورها في العهـدين الوندالى والبيـزنطي ، فلم يعد لها ذلك الدور الكبير الـذي كانت تلعبه في العهد الرومـاني كمدينة إقليمية .

فتقلصت أحـداثها وقلت أخبـارها عند المؤرخين والإخبـاريين والرحـالة ، وبالتـالي انخفضت أهميتها وتراجع الطابع المديني ، في المناطق التي كـانت تخضع للرومان ، وحل محله الطابع البدوي في أرجاء بـلاد المغرب ولاسيما غـرب بلاد المغـرب ، وربما يعود ذلـك إلى طبيعة الاحتـلال الونـدالي والبيزنطي ، الذي لم يستمر طويلا ، بالمقارنـة مع فترة الاحتلال الروماني ، كما يعود أيضا إلى الطابع العسكري ، الذي كان يتميز به الرومان على الوندال والبيزنطيين يحملون مشروعا عمرانيا استعماريا استيطانيـا ، كما هو الشأن عنـد الرومان ، أو بصورة أدق كـانت سياستهـم التمدينية تختلـف عن النمـط الرومـاني ، ولهذا فقـد اختفت بعـض المدن في الاقليم الغـربي للمغـرب الأوسط وأصـابها الدمار ، أثناء الغزو الوندالي والبيزنطي ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل العمران يتراجع في الجهة الغربيـة لبلاد المغـرب الأوسط خـاصة ، والمغـرب الأقصى على وجـه العموم في تلـك الفترة (34) ، وبالمقابل فقد بدأت التأثيرات المحلية المغربية (البربـرية) تعود من جديد إلى هذه المناط في كل من أنماط الحياة اليومية للسكان في المدن والبوادي على حد سواء ، مع العلم أن هذه التأثيرات لم تختف من المناطق الريفية على الـرغم من الوجود الأجنبي (35). وظهرت امارات محلية في بـلاد زناته منها إمارة " جدار" في المغرب الأوسط (36).

احتفظت مدينـة تلمسان ، ببعض أطلال "بـوماريا" الرومـانية وتتمثل هذه الأطـلال في بقايا السـور ، الـذي يحيط بـالمدينة وبعض الأحجـار الملقاة هنا وهنـاك ، استخدم بعضهـا في بناء الجزء الأسفل من الصومعة (37) ، التي أنشأها السلطان يغمراسن بن زيان (633 ـ 681 / 1235ـ1282) وهي لا تزال شامخة ، حتـى الوقت الحاضر ، في سماء مدينة تلمسان ، الى جـانب أثار مسجد المولى ادريس الاول بن عبـد الله (172 ـ 177هـ/ 788 ـ 799) ، كما توجـد ايضا بقايا الحمام الـذي كان بجوار هذا المسجد العتيق (38).

وكانت "بومــاريا" محصنة باسوار منيعة عــالية، مبنية بحجارة ضخمة وكذلـك عثر الباحثون على أسطوانة بمقبرة اليهود بتلمسان، تدل على أن "بوماريا" كانت مدينة حيوية تتمتع بمقوماتها الحضارية (39)، لأنها المدينـة الأكثر أهميـة في المغـرب الاوسط. قبـل مجيء الـوندال والبـزنطيين، دخلتها الديانة المسيحية، وشيدت بها كنيسة في حدود القرن الثالث الميلادي (40).

أما مدينـة "أكادير" أو "أقادير" أو "أجاديـر" اليفرنية فالظاهـر أنها المدينة المحلية الصغيرة، التي احتلها الرومـان وبنوا على انقاضها "بوماريا" أي أنها تكون أقـدم في النشأة والتأسيس، لأن سكان هـذه المنطقة عـرفوا الإستقرار البشري فيهـا قبل مجيء الرومـان ربما إختطها بنـو يفرن (41)، واقاموها مدينة صغيرة أو قلعة يقاوم منها سكانها، قبائل الصحراء الرحل من الأفارقة، ويتصدون لزحفهم وهجومـاتهم المتكررة على الأقليم (42). فالنصـوص التاريخية التي بين ايـدينا تشير الى أنها بنيت قبل الاسلام (43)، وعلى الرغـم من ان عبارة قبـل الاسلام، غير محددة زمنيا تحديـدا دقيقا، ولهذا فقد تكون نشأة "اكادير" قبل العهد الاسلامي، بعشرات السنين، كما قد تكون نشأتها ايضا بمئات السنين، ولهذا فسيظل السؤال مطـروحا على الدارسين والباحثين وهو: متى شيـدت مدينة اكادير؟ وفي اي عهد؟ وهل انشئت قبل مدينة "بوماريا" أم بعدها؟

ان السؤال في حـد ذاته يعـد لغزا محيرا، وقفنـا عنـده طويـلا، ولـم نــجـد له جـوابا شـافيا، لانعدام الـوثائق وقلـة الدراسـات والأبحاث، التــي يمكن ان تجيبنـا على الأسئلة التـي تدور في أذهاننا ولا تشير الى الموضـوع صراحة، وكذلك لا نستطيع أن نـرتب الأسماء الثلاثة التـى تعاقبت على المدينة تـرتيبا زمنيا، وهـل هي أسماء لمدينة واحدة؟ أم لمدن مختلفـة؟ بينهما مسافات جغـرافية وزمنية متباينـة؟

ولعل قلة المصادر وانعدام المادة الخبرية في هذا الموضـوع، وندرتها وعدم اكتشاف النقوش وقلة الأبحاث والتنقيبات في بقايا الحفريات والحضارات، التى تعاقبت على مدينة تلمسان تقف حجر عثراء أمام اسئلتنا، وهـو الأمر الذي جعلنا نركز على قـراءةما توفر لدينا مـن نصوص تاريخية، في الميدان واستقرائها من جديد، مستعملين في كثير من الاحيان التخمين والافتراض.

والظاهر أن وجود مدينة "اكادير" كان قبل المرحلة الرومانية، وبالتالي تعد اقدم من "بوماريا" لان بعض النصوص تشير إلى تقـدم نشأتها وأزليتها (44)، بحيث تعود الى عهد النبـي موسى عليه السلام أي الى الألف الثانية قبل الميلاد (45).

وتذكر بعض المصادر العربية أن إسمها فنيقي الأصل [46]، فضلا عن الوثائق التي تشير الى أن تأسيسها كان قبل ظهور الاسلام[47].

فمن خلال هـذه المعطيات التاريخية يمكن القول بـان مدينة "اكادير" ، ربما تكـون قد نشأت قبل تخطيـط مدينـة "بوماريـا" ، أسسها بنـو يفرن وغيرهـم من سكان المنطقـة الذيـن ساهموا في تعميرها ، حتى جعلوها أم القرى في المغرب الأوسط وقتذاك .

ولعل أحتلال الرومان للمنطقة جعل سكـان المدينة يفرون بجلدهم وذويهم ، متعلقين بالجبال ومتحصنين بالمناطـق النائية ، كغيرهم من أهـل المغرب ، وربما هذا هو السبب الـذي جعل نشاط سكانها يختفي ، عن الأحداث السياسية والعسكريـة والعمرانية ، وحل محلهم نشاط سكان المدينة الرومـانية الجديدة ، التي أخـذت أحداثها تطغى على المدن المحليـة ، وحيويتها تزداد شيئـا فشيئا ونشاطها يتسع مـع مرور الزمن فسلبت من اكـادير اليفرينة دورها في المنطقة ، حتـى صارت هذه الاخيرة في حكم العدم ، خلال فترة الاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي [48].

لا شك أنـه بذهـاب هذه العنـاصر الاجنبية عبر المنطقة وأفـول نجم "بـوماريـا" ، استعادت اكاديـر المدينة المحلية نشـاطها ودورها المتعـدد في المنطقة ، باتسـاع عمرانها ونمو سكـانها وازدياد أهميتها ، حتـى صارت عـاصمة الاقليـم ولا سيما ، بعد أن فقـدت مدينـة ارشقول دورهـا فـي السـاحل [49].

والظاهر ان اسم "اقادير" أو "أجادير" او "اكـاير" يتضمن معنى واحد مع اختلاف في نطق الحرف الثاني من الكلمة ، فقـد كتب هذا الإسم بالقاف ، وكتبه البعض بـالجيم لان بعض سكان مدينة تلمسان كانوا ينطقونه بين الجيم والقاف وهي لغة العرب [50].

اما النطق الصحيح للمدينة اليفرنية فهو بـالكاف (اكادير) ، وهو الحرف الذي كان جاريا على لسان أهل تلمسان وشيوخها ، وهو الحرف الذي كان يستعمله بوادي أهل تلمسان من زناته ، كما يذهـب الى ذلك العـالم ابن مـرزوق [51]، ويتفق هـذا الاسم مـع موقـع المدينة ، على هضبـه قليلة اللانحدار وتنهض من السهل وتشرف عليه من ناحيتي الشمال والشرق [52].

ولعل الاسم اليفرني ، يعـادل العبارة العربية ، "جدار قديـم" كما ذكر أحد المؤرخين [53]، وان صح ذلك ، فان المدينـة عريقة في القدم أزلية كما عبر عنها صـاحب الاستبصار [54]، غير انه فيما يبدو ان اكادير لفظة يفـرنية زناتية الاصل لان المدينة ، قام بتأسيسهـا سكان المنطقة ، وهي تقع في

اقليم يتسم بالطابع الريفي، تقطنه ثلاثة قبائل زناتية عريقة هي: بنو يفرن ومغراوة ومغلية، وتهيمن عليه، وتتداول على السلطة فيه، وتعد هذه المدينة المركز الحضري الهام لزناته في المغرب الاوسط [55]. اما فيما يتعلق بمعنى "اكادير" الزناتية فقد اختلف الدارسون في تفسيرها، فعند احدهم تعني الهضبة او "الجرف" [56]، وعند أخر تعني المخازن التي تخزن فيها الحبوب، تحسبا لوقت الشدة ولأيام الحرب، وانعدام الامن [57]، وظاهرة انتشار المخازن والمطامير والأهراء في مدينة تلمسان شائعة ومشهورة، لحفظ الأقوات والمؤن، ربما فرضتها الطبيعة وكثرة الحروب.

واما فيما يتعلق بمعنى كلمة تلمسان، وهي زناتية محلية ايضا، فانها مركبة من لفظتين هي "تلم" ومعناها تجمع و "سين" ومعناها اثنان، اي انها تجمع، بين التل والصحراء كما شرح ذلك يحي بن خلدون عندما قال: "دار ملكهم فيه وسط، بين الصحراء والتل، وتسمى بلغة البربر تلمسان" [58].

ويستند المؤرخ يحي بن خلدون، في تفسيره هذا الى شيخه العلامة، ابي عبد الله الأبلي (ت757/ 1356). الذي كان متضلعا، في لغة زناته وحافظا للسانهم [59]. وينطقها البعض "بتلشان" وهي لفظة مركبة من "تل" ومعناها لها "وشان" أي لها شأن [60]، ويذهب أخوه عبد الرحمن الى ان تلمسان مركبة من كلمتين وتعني انها تجمع بين البر والبحر [61]، ومنهم من ينطقها بتنمسان بالنون عوض اللام [62].

ويري بعض الباحثين، بان كلمة تلمسان صيغة جمع للفظة البربرية "تلماس" ومعناها، جيب ماء أو النبع (لغدير). بالتعبير المحلي [63]، فالمدينة عبارة عن قرية صغيرة، يطلق عليها اسم اكادير او اجادير والتي قام ادريس الاول بن عبد الله، بتوسيع عمرانها سنة 174هـ/ 790م [64].

ويذهب بعض الدارسين، الى ان كلمة "تلمست" وجمعها "تلمسين" ولفظة «تلمسين» وجمعها "تلمسان" تعنى الارض، التي تنعم بكثرة المياه والاشجار، ويستنتج من ذلك ان كلمة تلمسان لا تطلق على المدينة التي كانت تعرف بـ "اكادير" فحسب، بل تتعدى الى المدن التى تتمتع بنفس الخاصية الطبوغرافية والموقع، الذي تتمتع به مدينة تلمسان وهي كثرة البساتين والسهول والمياه، فاسم تلمسان، حسب رأيه يوافق اسم "بوماريا" في المعنى ويتقارب معها [65].

ولكن فيما يبـدو ان هذا الرأي بعيـد الاحتمال لسبب بسيط وهـو وجود كثير من المدن المغـربية تتشابه ربما مع تلمســان في الموقع وفي الخاصية الطبوغرافية، واذا أخذنا بهذا الـرأي فان مدنا كثيرة تصبح تحمل هذا الاسم، وهو الذي لانجده عنـد المؤرخين والجغرافيين والرحالة المسلمين المشارقة منهم والمغاربة على حد سواء.

ولفظة تلمســان في حد ذاتها، وردت لأول مـرة عند المؤرخين المسلمين لما تحدثـوا عن حملـة ابي المهاجر دينار (55 ـ 62 هـ/ 675 ـ681 م) لبلاد المغرب، والتـي استطاع فيها الوصـول الى مدينة تلمسان[66]، وذكرها الرقيق االقيرواني، حينما تحدث عن أعمال عبد الرحمن الفهري وحروبه (127 ـ137هـ ـ745ـ755م) في بلاد المغرب الأوسط وتوسعه نحو مدينة تلمسان[67]، وجاءت عند ابي راس المعسكري عندما وصف لنا حملة عقبة بن نافع الفهري الثانية (62ـ64 هـ/ 681 ـ 683م)، التي استشهد فيها رفيقه ابي المهاجر دينار سنة 64 هـ/ 683 م[68].

احتفظت لنا بعض النصوص التاريخية بهذا الاســم منذ القرن الاول الهجري، السابع ميلادي، وفي هذا الصدد يقول ابـن خلدون: "اختطها (اي تلمسان) بنو يفرن لما كانـت مواطنهم ولم نقف على خبرها، فيما قبل ذلك ولم نقف بها على خبر، اقدم من خبر ابن الرقيق، بأن ابا المهاجر، الذي ولى افـريقيـة، بين ولايتي عقبـة بـن نـافع الاولي والثـانيـة، فتـوغـل في ديار المغـرب ووصـل الى تلمسان"[69]. فقد ظهر اذن إسم اكـادير، قبل اسم تلمسان، التي بـرزت احداثها لأول مرة على السـاحة المغـربية. في القـرن الاول الهجري، الســابـع الميلادي، والظـاهر ان الاسمين، اصبحـا مـلازمين للمدينـة في آن واحـد، ولا سيما في القرون الخمسـة الاولى للهجـرة اي في عهد الادرسـة والأمراء المحليين الـزناتيين مغـراوة وبني يفرن ومغيلـة، بالاضـافة الى مـدينة تاكـرارت التي بنـاها المرابطون، فصـارت هي الاخرى مـن ضمن عمران مدينـة تلمسان، في القرن الخامـس الهجري، الحادي عشر ميلادي. ومهما يكـن من امر، فالجديـر بالملاحظة، هو ان الاسماء والمعـاني المختلفة التي حملتهـا مدينة تلمســان، لا تتباعد ولا تتبـاين كثيرا من حيـث المعنى والموقع بـل تتقارب فيما بينها، "فبوماريا" تعني البساتين و "كادير" تعني الينابيع، وتلمسان تعنى التل والبحر، والمكان الذي تكثر فيه المياه فهي أسماء متعددة لمعاني متقا ربة، ولهذا يمكن القول، بأنها اسماء ومعاني ربما لمدينة واحـدة او لمدن متجاورة وان كلمـة تلمسان، اخـذت تحل محل الاسماء الاخرى وهـو الاسم الذي اشتهرت به المدينة حتى الوقت الحاضر[70].

تطور تلمسان قبل العهد الزياني:

مرت مدينة تلمسان الاسلامية، بمراحل عديدة، منذ ان فتحها ابو المهاجر دينار، ثم عقبة بن نافع المهجري، في العقد الاول من النصف الثاني للقرن الأول الهجري، وكان طارق بن زياد في نهاية القرن الاول قد اتخذ من مدينة تلمسان، مقرا ثانيا له، فعندما ارسل له "يوليان" حاكم سبته، يحثه على غزو اسبانيا (71)، كان طارق حينها يقيم بمدينة تلمسان مع زوجته أم حكيم على حدود ولاية طنجة الشرقية التي كان يحكمها (72)، ويعني هذا ان مدينة تلمسان كانت بالنسبة للمغرب في تلك الفترة قرينة للقيروان بالنسبة لافريقية(73)، وفي هذا الصدد يقول ابن عبد الحكم: "وطارق يومئذ بتلمسين وموسى بن نصير في القيروان، فقال طارق، فاني لا أطمئن اليك (اي يوليان) حتى تبعث الي برهينة، فبعث اليه بابنتيه، ولم يكن له ولد غيرهما فأقرهما طارق بتلمسين واستوثق منها" (74).

ولما ظهرت فرقة الخوارج، في هذه المنطقة، اصبحت مدينة تلمسان، مقرا أساسيا للخوارج الصفرية في المغرب الأوسط، بقيادة أبي قرة المغيلي التلمساني اليفرني (75).

وحينها اختفت أخبار ابي قرة المغيلي التلمساني، تغلب على مدينة تلمسا ن آل خزو المغراويين، بقيادة محمد بن خزر سنة170/ 786م الذي بايع ادريس بن عبد الله، وقت استيلائه على مدينة تلمسان سنة 174هـ/ 790م(76).

وكان ادريس الاول هذا، قد مكث بمدينة تلمسان بضعة اشهر جدد خلالها بناء المسجد القديم، ووضع له منبرا وعاد الى عاصمته فاس(77).

وهذا يدل على ان مدينة تلمسان، صارت تحتل مقدمة مدن غرب المغرب الاوسط وتتصدرها لما تتمتع به من استراتيجية، ومكانة حيوية واقتصادية في المنطقة.

ظل أهل تلمسان، يخضعون للنفوذ الادريسي بفاس، لكن فيما يبدو ان هذا الولاء، بدأ يتراجع، بعد وفاة ادريس الاول سنة 177هـ/ 793م، لان سكان مدينة تلمسان وأعيانها، ثاروا ضد الحكام الادارسة ولاسيما في عهد سليمان بن عبد الله أحد اخوة ادريس الاكبر ابن عبد الله، ولما استتب الامر لابنه ادريس الثاني (177-213 هـ/ 793 - 828م)، خرج لتأديب سكان مدينة تلمسان واحوازها واخضاعهم الى نفوذهم من جديد سنة 199/ 814 م، فنهض اليها ودخلها منتصرا وأعادها الى حاضرة ملكه واقام بها نحو ثلاث سنوات كاملة، رتب اثناءها شؤون المدينة

وجدد بناء سورهـا، الذي شيده بنو يفـرن من قبل، قـام بترميم مسجدها العتيـق، واصلح منبره وصارت تلمسان عاصمة للادارة الادريسية لمدة ثلاث سنـوات، يدير منها ادريس الثاني، شؤون دولته، ويبعـث منها السرايا والحمـلات لاخضاع الاقاليم المجـاورة لها، ثـم عين عليها محمـد بن سليمان ابن عمه، وعاد الى مقر حكمه بمدينة فاس (78).

وهكـذا ظلت مـدينـة تلمسان، تخضـع للنفوذ الادريسي، حتـى اضمحـل حكمهم وتفـرق شملهم على يد الفواطم مـن جهة، في نهاية القرن الثالث الهجري وتغلغل النفـوذ الاموي من جهة ثانيـة، فاغتنـم هذه الفرصـة الامراء المحليون مـن مغراوة وبنـي يفرن ومكناسـة واستقلوا بـالمدينة واحوازها، واعلنوا ولاءهم لبني امية في الاندلس (79).

الا أن أوضاع المغرب لم تستقـر، وخاصة في المغرب الاوسـط بسبب صراع مراكز القـوى، التي تداولـت الحكم على المنطقـة ابتداء بمحمـد بن خـزر المغراوي (80) وموسـى بن العافيـة المكناسي (81)، ثم جاءت فترة الإجتياح الفاطمي للمدينة (82)، وحل محلهم بنو زيري (83)، من بعدهـم، الا ان المدينة لم تستقر في يد هـؤلاء الاخيرين بظهور الزعيم المغراوي زيري بن عطيـة، وابنائه من بعده في المغربين الاوسط والاقصى (84).

تشتمل مدينة تلمســان (اكادير) على سور يحيط بها من جميع الجهات ولها خمسـة ابواب، ثلاثة منها تقع في النـاحية الجنوبية من المدينة وهـي: باب الحمام وباب وهـب وباب الخوخـة، والرابعة تقع في الجهة الشرقية، وتدعـي باب العقبة، اما الباب الخامسة فتقع في الجهة الغـربية، وهو باب ابي قرة، وكانت الجهة الشمالية خالية من الابواب (85).

بقيت السلطة في تلمســان فى ايدي امراء مغراوة تارة وبنـي يفرن تارة اخرى ومكنـاسة في بعض الاحيان، حتى قـدمت اليها طلائع المرابطين، بقيادة يوسـف بن تاشفين (450ـ500 / 1058-1106)، الذي تمكن مـن مداهمة المدينة واقتحام اسـوارها سنة 473هـ ـ 1080م، بعد عناء كبير وقتل صاحبها، العباس ابن يحي المغراوي (86) وعددا كبيرا من سكانها، ثم قام ببناء مدينة جديدة في غربها، واتخذها مقرا لحاشيتـه، واطلق عليها اسـم «تاكرارت» أو «تـاجرارت، وتعني المحلة او المعسكر بلسان صنهاجة(87))، وسميت ايضا بتلمسان الحديثة (88)، وهي مدينة تلمسان الحالية التي عسكر فيها جيش يوسف بن تاشفين اثناء حصار «اكادير» (89).

ترك فيها يـوسف بن تاشفين، حاميـة من جنده، وولى عليها " محمد بـن تينغمر المسوفي [90]، واخـاه تاشفين مـن بعده، واصبحتـا مدينتين فيا بعـد تشكـلان مدينـة تلمسان، يجمعهما سـور خارجي واحد، على الرغم من بقاء السور الغربي لمدينة اكادير والذي يفصل بينهما [91].

فزادت اهمية تلمسان، باتساع عمرانها، ونمـو سكانها، وصارت عاصمة المغرب الاوسط، في تلك الفترة، وشيد فيها المرابطون، قصرا للأمير، وهو القصر الـذي اصبح يدعى في العهد الزياني بالقصر القديم[92]، تمييزا له عـن القصر الجديد، الذي بناه يغمراسن في جنـوب المدينة، كما شيد المرابطون مسجدا جامعا الى جانب القصر سنة 473هــ1080م، وسورا جديدا للمدينة يحيط بها ويحميها [93]، رمم هـذا المسجد وقام بتـزيينه الامير علي بن يـوسف (500ــ537/1107 ــ 143) سنة530هـ/ 1135م، ودخل عليـه مسحة معماريـة اندلسية، وجلـب له المهنـدسين والفنيين من الاندلس، حتى صار تحفة فنية رائعة[94].

ولما تغلـــب الموحـــدون على المغـــرب الاقصـــى بقيـــادة عبـــد المؤمـــن بـــن علي (524ـ558/ 1130ـ1163)، توجه نحـو مسقط رأسه بالمغـرب الاوسط، فحاصر مدينـة تلمسان وعلى الرغم من كثرة جيوش تاشفين بن علي المرابطي، الا انـه انهزم امام الموحدين وقتل بنواحي وهران، فدخل عبـد المؤمن مدينة تلمســان منتصرا سنة 540هـ/ 1145م، وقتل الكثير من أهلهــا وخرب بعـض عمـرانها، ثم تـراجـع عـن ذلك كما يشير ابـن خلـدون [95]، ونـدب الناس الى تعميرهـا وتشجيعهم على ترميم مافسدته الحرب، وعين وعليها سليمان بن واندين احد شيوخ هنتاتة وآخى بين الموحـدين وبين بنـي عبـد الـواد ثم ولى بعـد سليمان عليهـا ابـو حفص بـن سليمان [96] ظل الموحدون، يتولون السلطة في تلمسان، ويديـرون شؤون المغرب الأوسط منها، وزاد اهتمامهم بها لموقعهـا وحيويتهـا، وبالتـالي زاد شـأن المدينة في المنطقـة [97]، فحصنوهـا تحصينا قويـا ووسعوا عمرانها، بتحريـض الناس على البناء والتشييد، وكان اشدهـم بها هو: ابو عمران بن يـوسف بن عبد المؤمن الذي احاط المدينة بسور ضخم سنة 556هــ1160م.

وعندما قام بنو غانية بتخريب مدينتي تيهرت وارشقول [98]، واستولوا على بجاية والجزائر [99]، ومليانة سنة 581هــ1185م، واصبحوا يهددون مدينة تلمسـا ن، زاد الموحدون في تحصينها، ثم اعتنوا بتنمية عمرانها، بـاتخاذ الصروح والقصور والمنازل، وكان عاملها وقتـذاك أبي الحسن بن ابي حفص بن عبد المؤمن.

فقد بالغ في تنظيم شؤونها، وسد تغراتها، وحفر الخنادق حولها حتى صارت "أمنع معاقل المغرب وأحصن أمصاره" حسب تعبير صاحب العبر[100] فبفضل هذه التحصينات الجديدة نجا أهل المدينة من الهجمات العديدة التي قام بها ضدها بنو غانية وأحلافهم على مدينة تلمسان، وعلى هذا الاساس اصبحت المدينة قاعدة المغرب الاوسط وأم أحياء زناتة[101].

ومهما يكن من أمر، فقد استفادت مدينة تلمسان، من حكم المرابطين والموحدين، الذين هيأوا لها المناخ لكي تتبوأ مركزا هاما، ومكانة معتبرة في المغرب الاوسط، إلا ان شهرتها وتطورها وازدهارها في مختلف المجالات، ارتبط ارتباطا عفويا بالأسرة الزيانية التي خلفت الموحدين في قيادة المدينة والمغرب الاوسط.

الهوامش :

(1) العمري: كتاب مسالك الابصار في عجائب الامصار، مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم6778 القسم7 ورقة 205.

(2) ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ص 8.

(3) نفسه، ص 9.

(4) Dhina (A): le royaume Abdel ouadide a l'époque d'Abou Hamou 1èr et d'Abou Tachfin 1èr O.P.U Alger P. 31.

(5) مارمول كربخال: افريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، دار نشر المعرفة الرباط1989 ج 2 ص 289.

(6) Marcais (G): Tlemcen ville d'art et d'histoire 2ème congres de la fondation des société savants de l'Afrique du nord Tlemcen publié par soin de la société historique Algerien, Alger 1936, P - 31.

أنظر أيضا، يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 84 ـ الأخضر عبدلي: المرجع السابق ص 33.

(7) يمر وادي متشكانة، بجنوب تلمسان وشرقها أنظر: العمري: المصدر السابق، ق7 ورقة 205.

(8) مدينة هنين، كانت عبارة عن ميناء هام للدولة الزيانية تطل على البحر المتوسط غرب مدينة وهران كانت تستقبل سنويا سفن تجارية من ايطاليا واسبانيا وفرنسا التي كانت تحقق ارباحا كثيرة مع تجار تلمسان، لا يفصل بينها وبين تلمسان الا اربعة عشر ميلا كان سكانها ميسوري الحال، يعملون جميعا تقريبا في القطن والنسيج ومنازلهم في غاية الحسن والجمال ويحتوي كل دار على بئر للماء العذب ويغرسون في فناء المنزل أنواع الكروم وأرضها مبلطة بالزليج الملون أنظر حسن الوزان: وصف افريقيا ج2 ص15.

(9) ارشقول مدينة كبيرة بناها الأفارقة على صخر يحيط بها البحر من جميع الجهات ما عدا الجنوب تقع على نحو أربعة عشر ميلا عن تلمسان وكانت تعد من أهم مدن ساحل المغرب الأوسط. حسن الوزان: المصدر السابق، ج2 ص 16.

(10) العمري: المصدر السابق، ق 7 ورقة 205 أبو الفداء: تقويم البلدان ص 137.

(11) فجيج أوفكيك، واحة من واحات النخيل، لا تبعد كثيرا عن مدينة بني ونيف ولاية بشار تقع على الحدود المغربية الجزائرية، وهي

عبارة عن قصور في وسط الصحراء كانت مشهورة بنسيج الصوف الرقيق الذي تتميز به مدينة تلمسان ويباع بأثمان مرتفعة أنظر، حسن الوزان: ج2 ص 133.

(12) العمري: المصدر السابق، ق7 ورقة 205. Marcais (G): opcit P. 32.

(13) العمري: المصدر السابق، ق 7 ورقة 205. Marcais (G): opcit P. 32. 22 - 21

(14) أنظر ابن ادريس: المرومة في الرحلة ورقة 21ـ22. Marcais (G) opcit. p 32.

(15) أهم الجبال التي تحيط بمدينة تلمسان هي: سبعة شيوخ، تاسلة، بنو تقران، جبال تلمسان الضاية، سعيدة فرندة، أنظر: Mar-cais (G)Tlemcen Paris. 1950 P,9.

والجدير بالملاحظة هنا ان تلمسان تقع بين التل والصحراء وتشرف على البحر المتوسط ولا تفصلها عنه سوى المرتفعات الساحلية، لا تعيق تسرب المؤثرات المناخية الى المدينة، بينما تعد المرتفعات الجنوبية عائقا للمؤثرات الصحراوية الا انها في نفس الوقت لا تكون عازلا لها لما فيها من منافذ وممرات تعبرها القوافل التجارية والتحركات البشرية.

(16) نهر الصفصيف أو السطفصيف، نهر بضواحي تلمسان، ينبع من اسفل جبل ويصب في بركة عظيمة، لا يبعد كثيرا عن نهر الوريط شرق مدينة تلمسان أنظر الحميري: الروض المعطار ص 318.

(17) بلغراد: تلمسان، مجلة الاصالة، السنة (4) عدد 26 جويلية أوت 1975 ص 298

(18) Barges (L.J.J.L) Tlemcen ancienne capitale, P. 7

(19) Ibid p. 7

(20) Marcais (G): Tlemcen. E.I. Nelle. ed. T,4 p 844

(21) ابن مريم: البستان، ص 9

(22) ناصح محمد: جوانب من الحياة الإقتصادية والإجتماعية في المغرب في العصر الوسيط د. د. م كلية الرباط 1988 ج2ص232.

(23) نفسه، ج2 ص 234.

(24) بشارى لطيفة، المرجع السابق. ص 55ـ56.

(25) Pomaria مصدره Pomarium ومعناها بساتين وفواكه.

(26) حملت مدينة تلمسان ثلاثة أسماء رئيسية هي اكادير، بوماريا، تلمسان، وسميت المدينة التي أسسها المرابطون بتاكرارت، وبالتالي أصبحت تلمسان تتكون من أكادير وتاكرارت وأطلق عليها بعض المؤرخين، تلمسان القديمة وتلمسان الحديثة أو العليا، ابن مرزوق: المجموع، روقه 2ـ5.

(27) ابن مريم: البستان ص 10 ـ أحمد توفيق المدني كتاب الجزائر، ص 201ـ205

(28) بشارى لطيفة: المرجع السابق، ص 55.

(29) ابن خلدون: العبر ج7 ص 165.

(30) ناصح محمد: المرجع السابق ج2 ص 239.

(31) piesse (L) et Canal (J) Tlemcen, extrait de la revue de la l'Afrique francaise Paric 1889 P. 6 sq

(32) العمري: المصدر السابق ق 7 ص 205 ـ البكري: المغرب ص76 ـ كتاب الاستبصار ص176 والوريط ضاحية من ضواحي تلمسان بها وادي يدعى وادي لوريط يقع شرق المدينة ويبعد عنها بنحو سبع كلم عمرته الجالية الأندلسية التي استقرت به.

(33) بلغراد: المرجع السابق، ص 300 ويقول الشاعر ابن خميس: في هذا العدد

لساقية الرومي عندي مزية وإن رغمت تلك الرواسي الرواشح

أنظر، «البكري» ص 76.

(34) ناصح محمد : المرجع السابق، ج2 ص 241 ـ 242.

(35) نفسه، ج 2 ص 241 ـ 242.

(36) اندري برنيان : المرجع السابق، ص 84 ـ 86.

(37) تطلق عبارة الصومعة على المأذن في المغرب والأندلس بدلا من كلمة مئذنة ولذلك شاع استعمالها في الغرب الإسلامي أكثر من الشرق الإسلامي وسميت بالصومعة لأنها تشبه ابراج المتعبدين والزهاد والرهبان كما يطلق على الصومعة أيضا : المئذنة وتعني موضع الأذان للصلاة، وكذلك استعملت كلمة المنارة للدلالة على المكان الذي يؤذن فيه للصلاة وهي تتشابه مع أبراج المنارات وعلى العموم فالأسماء المختلفة جميعا تدل على الأذان. أنظر: صالح بن قربة المئذنة المغربية والأندلسية ص 9.

E.I - volume 3 p 344

(38) محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، ص11

(39) محمد بن عمرو الطمار: المرجع السابق، ص 11.

(40) نفسه، ص 11.

(41) يذكر كل من حسن الوزان ومارمول، بأن الذي بنى أكادير هي قبيلة مغراوة أنظر: وصف افريقيا ج1 ص17 افريقيا ج2 ص298

Dhina (A) : opcit. P31 ـ

(42) حسن الوزان : وصف افريقيا ج1 ص17 ـ مارمول : المصدر السابق ج2 ص 298.

(43) ابن خلدون : العبر ج7 ص 156 ـ أبو راس المعسكري : المصدر السابق ورقة 48.

(44) كتاب الاستبصار، ص176 ـ ابن خلدون : العبر ج7 ص 156.

(45) ابن خلدون : العبر ج 7 ص 156.

(46) الاستبصار ص 176 ـ ابن مريم : البستان، ص9.

(47) ابن خلدون : العبر، ج7 ص 156 ـ أبو راس المعسكري : عجائب الامصار ورقة 48.

(48) حسن الوزان: Marcais (G) Tlemcen P. 10 - Dhina opcit P. 31

ويرى الأستاذ عبد الرحمان طالب بأن الرومان قد اختطوا مدينتهم قبل تشييد أكادير في موضع تلمسان القديمة، غير أن النصوص التاريخية تشير إلى عكس ذلك كما بينا في المتن أنظر، مقدمة كتاب البستان. ص 10.

(49) ابن مريم : البستان، ص9.

(50) ابن مرزوق : المجموع، ورقة (1).

(51) نفسه، ورقة 1 يتحدث ابن مرزوق في كتابه عن اسم جده «مرزوق» بحيث كان يكتبه والده وجده بالقاف، وكتبه آخرون بالجيم لأنهم ينطقون بهذا الحرف بين الجيم والقاف، وهي لغة العرب في عهده، وكتب أيضا بالكاف لأن هذا الحرف هو الجاري على لسان الشيوخ من أهل بلدة (تلمسان) وكان ينطق به بوادي أهل تلمسان من زناتة وغيرهم، أنظر المجموع، ورقة 1.

(52) ابن مريم : البستان ص 9.

(53) كتاب الاستبصار، 176 زعم كثير من المؤرخين القدماء بان الجدار الذي ذكر في القرآن الكريم في قوله تعالى «واما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة» (سورة الكهف آية 76) والتي تناولت قصة الخضر وموسى عليهما السلام وهو جدار «اكادير» أو تلمسان».

(54) الاستبصار، ص 176 ـ ابن خلدون : العبر، ج7 ص 156.

(55) Barges (L.J.J.L) Tlemcen ancienne Capitale, P. 7

(56) ابن مريم : البستا، ص 9 ويعيد الأب بارجيس هذه الكلمة الى أصل فنيقي قرطاجي وحجته في ذلك ان كلمة اكادير مشتقة من لفظة العبرية السامية التي لها أصول مشتركة مع اللغة الفنيقية. أنظر، بلغراد محمد : المرجع السابق، ص - Tlemcen ancienne 299 capitale P. 7.

(57) Le Tourneau Agadir E.I nouvelle ed. T.1 P. 252

(58) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 85

(59) نفسه، ج1 ص 85

(60) نفسه، ج1 ص 85

(61) العبر ج7 ص 156 ـ 157

(62) ابن ادريس محمد الراضي: المقالة المرومة في الرحلة الى تلمسان وندرومة، ورقة 21.

(63) ربما تكون هذه الكلمة مشتقة من اغدير المحلية التي تعني النبع أو الجب.

(64) حسن الوزان: وصف افريقيا ج1 ص17 ـ محمد الطمار: المرجع السابق ص10 Primaudaie (M. F. Elie de la) le Commerce et la navigation de l'Algèrie, avant la conquête francaise Paric 1861 PP: 264 - 265.

ويذكر توفيق المدني أن أهل مدينة تلمسان فريقان اكادير التي أسسها المولى ادريس الأكبر على انقاض معسكر روماني وتاكرارت التي أسسها يوسف بن تاشفين المرابطي ثم انضمت القريتان فاصبحت تشكل مدينة واحدة هي مدينة تلمسان أنظر كتاب الجزائر ص 201ـ 205.

وترى لطيفة بشارى بان اكادير حلت محل تلمسان في العهد الاسلامي ويعني هذا ان تلمسان كانت اسبق من اكادير وهو رأي يختلف مع ما قاله توفيق المدني أنظر التجارة الخارجية ص 56.

(65) محمد بن عمرو الطمار: المرجع السابق، ص 10.

(66) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 156 ـ المالكي: رياض النفوس، ج1 ص 21 ـ ابن عذارى: البيان، ج1 ص 28.

(67) أبو راس المعسكري: المصدر السابق، ورقة 48.

(68) الرقيق القيرواني: تاريخ افريقية والمغرب ص 130.

(69) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 156.

(70) لعل الظروف التاريخية التي احاطت بتأسيس مدينة تلمسان وتطورها، لا تختلف كثيرا عن الظروف التي نشأت فيها مدينة قسنطينة أو تتفق معها في الاستقرار البشري المبكر وعدم تحديد تاريخ بنائها وتحمل ثلاثة اسماء مثلها.

(71) ابن عبد الحكم. فتوح افريقية والاندلس، ص 72

(72) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي المكتبة التاريخية منشأة المعارف الاسكندرية سنة 1979 م ص 249.

(73) ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 72.

(74) نفسه، ص 72.

(75) Fournel (H): les berbers, Etudes sur conquête de l'Afrique du nord par les arabes Paris 1927. P. 366

انتخب مغيلة وبني يفرن ابا قرة المغيلي زعيما لهما، وقد ذكر بعض المؤرخين ان نسبه يعود إلى يفرن ونسبه البعض الى مغيلة ويبدو انه من مغيلة أصلا كما ذكر ابن خلدون: «وقدموا على أنفسهم (خوارج تلمسان) من بني يفرن يقال انه من مغيلة، وهو الأصح في شأنه» لأن هاتين القبيلتين متجاورتان ومن الصعوبة بمكان التمييز بينهما، والظاهر ان ابا قرة قد توفي بعد سنة160 هـ ـ 774 م في عهد الوالي العباسي يزيد بن حاتم (155 ـ 171/772 ـ 788) الذي لم يكن لبني يفرن في عهده انتفاضة.

أنظر ابن خلدون: العبر، ج7 ص 24 ـ 25، المقري: نفح الطيب ج1 ص 312.

(76) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص 21 ـ. Laroui (A)à histoire de Maghreb paris 1982. P. 108.

ابن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، الجزائر 1984 ص 90 ـ 91.

(77) امر ادريس الأول النقاشين بالنقش على المنبر العبارات التالية: «بسم الله الرحمان الرحيم»، هذا ما أمر به الإمام ادريس بن عبد الله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وذلك في شهر صفر 174 هـ/790م.

أنظر: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط1973. ص21 ابن خلدون: العبر ج7 ص157 ولا يرى الأب Barges ان هذا المسجد العتيق هو أول مسجد بني في تلمسان لأنه من غير المعقول ان تبقى مدينة تلمسان بدون مسجد نحو قرن من الزمن، ونحن نتفق معه في ذلك لأن الإسلام والمسلمين دخلوا الى هذه المدينة في بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجري وعلى هذا الأساس يمكن القول بان ادريس الأول أمر بترميم المسجد أو تجديد بنائه أو توسيعه ثم أضاف له المنبر والمحراب ولا نؤيد من ذهب الى ان ادريس الأول هو أول من شيد مسجد تلمسان.

(أنظر: حسن الوزان ج1 ص 17) ولعل المسجد قد بني بالحجارة التي ازيلت من المعبد الروماني والدليل على ذلك وجود نقوش رومانية وكتابات لاتينية في اسفل الصومعة أنظر: أحمد الكتاني الدر النفيس في مناقب ادريس ط1 حجرية 1891 ص132/ Barges Tlem-cen ancienne P. 125 وقام «الفريد بيل» بحفريات في مكان المسجد وعثر على بناء مربع الشكل يتراوح طول جدرانه (39 ـ 45) ولا تزال وزارة الثقافة والتعليم العالي يهتمان بآثار هذه المدينة. أنظر .W et G (Marcais): les monuments arabes P. 127

(78) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص50 ، علق لوح على رأس منبر المسجد كتب عليه: «هذا ما أمر به الإمام ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم في شهر المحرم سنة تسع وتسعين ومائة «أنظر روض القرطاس ص 50.

(79) ابن حيان: المقتبس، ورقة105. ابن خلدون: العبر، ج7 ص52 ـ 53 مؤلف مجهول: مفاخر البربر، ص 4 عبد العزيز فيلالي: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية ودول المغرب ص 122.

Provençal (L): histoire de l'Espagne musulmane paris 1950 T.2 P. 94.

(80) اشتد الصراع في المنطقة بين مصالة بن حبوس الموالي لعبيد الله المهدي الفاطمي، ومحمد بن خزر المغراوي الموالي لعبد الرحمان الناصر الأموي سنة312 هـ/ 924. وكانت المعارك حادة بينهما الى أن قتل مصالة المكناسي بضواحي تلمسان، واصبح بالتالي نفوذ مغراوة يمتد من وادي شلف الى تلمسان غربا، انظر: ابن عذاري: البيان، ج1 ص 189 ـ عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص 121 ـ 122.

(81) قام موسى بن أبي العافية المكناسي، بغزو مدينة تلمسان، وتمكن من احتلالها سنة319 931/ وكان يتزعم قبيلة مكناسة، بمشاركة قريبه مصالة بن حبوس، قبل اتصال هذا الأخير بالفاطميين، وانضمامه اليهم في أواخر المائة الثالثة للهجرة، فتغلب على قبائل زناتة وصار لها ملكا عظيما في بلاد المغرب، أنظر: ابن عذاري: المصدر السابق، ج1 ص194 ـ ابن خلدون: العبر ج7 ص 265 ـ 266.

(82) وجه المعزلدين الله الفاطمي قائده جوهر الصقلي لغزو بلاد المغربين الأوسط والأقصى سنة347 هـ ـ959 فاستولى على مدينة تلمسان وغيرها من المدن والمناطق الغربية وعاود الكرة عدة مرات، أنظر ابن عذاري: البيان ج1 ص222. مؤلف مجهول: العيون والحدائق ج4 ق (2) ص 213.

(83) زحف بلكين بن زيري الصنهاجي، على بلاد المغرب، عدة مرات، أولها كانت سنة 360 هـ فأوقع بزناتة وقتل منها نحو سبعة عشر أميرا، واستولى على مدينة تلمسان وغيرها وارغم أهل هذه المدينة، على مغادرتها الى مدينة «أشير» عاصمة صنهاجة بالمغرب الأوسط فقام التلمسانيون ببناء مدينة لأنفسهم بالقرب منها أطلقوا عليها اسم «تلمسان» على اسم بلدهم الأصلي ولكن فيما يبدو أن تلمسان الأولى لم تبق مهجورة بل سرعان ما غمرتها زناتة وعادت اليها من جديد أنظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 7 ص 205 ـ ابن الخطيب: الاعلام ق ص 154 ـ 155 محمد بن عمرو الطمار: المرجع السابق ص 31 ـ 36.

Barges: Tlemcen ancienne capitale P. 172 dhina cit. P. 32 (A): op,

(84) مفاخر البربر ص 22 ـ أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس ص 256.

(حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1957 ص 82

(85) البكري، المغرب، ص 76 ـ 135

W. et G Marcais les mounuments arabes pp:

117 - 135

Bourouiba (R): l'architecture militaire de l'Afrique medievale Alger 1983. pp. 100. 103

يحي بن خلدون : بغية الرواد ج1 ص 91.

(86) يحي بن خلدون : بغية الرواد، ج1 ص 170 - Dhina (A): opcit P.32

بينما يذكر صاحب الحلل الموشية بأن يوسف بن تاشفين قام بغزو تلمسان سنة 460 هـ / 1068م وقتل أميرها آنذاك وهو العباس بن يحي، أنظر الحلل الموشية تحقيق سهيل زكار ص 28.

(87) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 170.

(88) ابن خلدون : العبر، ج7 ص158 - التنسي : نظم الدر، 125 - العمري : المصدر السابق ق7 ورقة205.

(89) يذكر أحد الباحثين المحدثين بأن تاكرارت بنيت على انقاض المدينة الرومانية بوماريا.

أنظر: Barges: Tlemcen ancienne capitale du Maghreb central P. 49 Note N

(90) ابن خلدون : العبر، ج7 ص 158.

(91) Bouali (s.a) les deux grands siéges

(92) اندثر هذا القصر وزال المسجد والمدينة فيما بعد، ولم يعثر الباحثون الا على شواهد لقبور كتبت عليها اسماء بعض الأمراء واعيان البلد وشيوخها أنظر: محمد بن عمرو الطمار: المرجع السابق ص 44.

(93) يحتمل أن يكون المرابطون قد بنوا سور مدينة تاكرارت بالطابية أنظر: محمد بن عمرو الطمار: المرجع السابق، ص 44.

(94) Marcais (G) Tlemcen. P, 34

(95) مؤلف مجهول: الحلل الموشية ص 131 - 132.

(96) ابن خلدون : العبر، ج7 ص 159 - يحي بن خلدون : بغية الرواد، ج1 ص 170

(97) ابن خلدون : العبر، ج7 ص 160.

(98) Fournel: Opcit T2. p.9

(99) سميت مدينة الجزائر، بجزائر بني مزغنة نسبة الى جزر صخرية كانت تقع أمام مركز المدينة، حيث كانت تقطن قبيلة أمازيغية (بربرية) تدعى بنو مزغنة ثم حذف إسم القبيلة مع مرور الزمن وبقي إسم الجزائر وكان الإسبان يسمونها ألجي (Alger) أما عند الرومان فكانت تدعى ايكوسيوم. أنظر: حسن الوزان: ج372 - توفيق المدني: الجزائر، ص 206.

(100) ابن خلدون: ج7 ص 160.

(101) نفسه. ج 7 ص 160: Marcais (G): Tlemcen, P. 36

الباب الثاني

الفصل الثاني

البنية العمرانية للمدينة

1 ـ أسوار المدينة .
2 ـ أبواب المدينة .
3 ـ الخنادق .
4 ـ قصر المشور.
5 ـ قصور ومنازل أخرى .
6 ـ القصبة .
7 ـ المسكن التلمساني .
8 ـ أحياء المدينة .
9 ـ الدروب .
10 ـ الصهريج .

البنية العمرانية للمدينة في العهد الزياني:

لاشك أن التحليل "المورفلوجي للمخطط العمراني لمدينة تلمسان يتطلب الاختصاص الدقيق، في ميدان العمران والآثار، ويعتمد على نتائج التنقيبات والحفريات، التي يقوم بها الأثريون والمهندسون، ولعدم توفر هذه الامور، ونذرة المعطيات في هذا الباب، فإنني سأحاول ـ قدر استطاعتي ـ أن أدرس المخطط العمراني والبنية الداخلية لهذه المدينة خلال العهد الزياني، معتمداً في ذلك على ما توفر لدي من مادة خبرية، إستقيتها من النصوص التاريخية بالدرجة الأولى والتي عثرت عليها، في المصنفات العامة والخاصة بتاريخ بني زيان، وحضارتهم ثم نعتمد بعد ذلك على نتائج بعض الدراسات والأبحاث الميدانية الحديثة، التي قام بها من سبقني في هذا الموضوع [1]، غير أن قلتها ونذرتها وغموض بعضها تجعلنا نلجأ إلى النصوص، التي تدفعنا إلى بعض النتائج الاحتمالية والتقريبية ولا سيما فيما يتعلق، بتحديد أماكن الاحياء، والدروب والأزقة والقصور، التى وردت أسماؤها في هذه النصوص لاندثارها وزوال معالمها العمرانية، بسبب يد الانسان، ومعول الزمان الذي عبث بها.

تتميز المدينة الاسلامية عموما، سواء في بلاد المشرق، أو في بلاد المغرب بسمات مشتركة، بغض النظر، عن المميزات التي تفرضها البيئة الطبيعية، والتقاليد المحلية، لأن تشييد المدينة الاسلامية مرتبط بضوابط وشروط معمارية أساسية، وضرورة توفر بعض المعالم العمرانية على رأسها:

أولا: المسجد الجامع: الذي يعتبر النواة الأولى للعمران، ويقع في وسط المدينة، وهو مكان لأداء فريضة الصلاة، ومقر لاجتماع سكان المدينة، لتدوال أمورهم الاجتماعية والاقتصادية وتعليم أبناءهم مختلف العلوم العقلية والنقلية.

ثانيا: السوق الكبير: ينتشر فيه عـدد كبير من المحلات والدكـاكين التجارية المختلفـة، تقع قرب المسجد الجامع، حتى يتمكن المصلون من اقتناء حاجتهم بعد الصلاة.

ثالثا: القصبة: وهي الحي الذي يسكنـه الأمير، أو السلطان وأسرته وحاشيته وجنـده، مكونة من مباني مخصصة لهذه الطبقـة الاجتماعية المرموقة التي تتصدر الهرم الاجتماعـي، في المدينة وتتربع عليه ولها ابواب خاصة بها.

رابعا: الأسوار: تحيط هذه الأسوار بالمدينة، وتدور حـولها من جميع الجهات وهي التي تفصلها عن البادية والحقول الزراعية وتحميها من الغزاة.

خامسا: الأبواب: تتضمن أسـوار المدينة، عـدة أبواب، تـربطها بـالباديـة من عـدة جهات وتراقب فيها حركة المتنقلين من التجار والقوفل التجارية، وجرت العادة عند المسلمين أن يؤسسوا أبوابا، في اتجاه المدن الكبيرة سواء داخل القطر أو خارجه، ويسمونها في بعض الأحيان بأسماء هذه المدن، مثل باب "فاس" في تلمسان، التي تقع في الجهة الجنوبية الغربية للمدينة.

سادسا: وظيفة سكان المدن: يشتغل أهل المدينة في غالب الأحيان بوظائف الدولة، ويرتكز معظم عملهم، في المجـال التجاري والصناعي، والثقـافي والعلمي، ومنهم من لـه أراضي خارج أسوار المدينة يقـوم بفلاحتها، واذا اجتمعت هذه الخصـائص في كل تجمع عمراني، فـإنه يصنف ضمن المدن الكبري والحواضر العظمى، لاسيما التـي بنيت لاغراض سياسية لتكـون مقرا للحكم وقاعدة للدولة، فانها تنعم بمميزات خاصة وتصير مدينة كبيرة، وسوق تجاري هام، ومركز اداري معتبر[2].

أما شبكة الطرق الداخلية، وترتيب مسالك المواصلات والدورب المخصصة للمشاة والعربات والحيوانات، فهي تربط مركز المدينة بأحيائها من جهة، والخارج من جهة ثانية عن طريق الأبواب المختلفة الاتجاهات. ويمتاز سكـان المدينة الإسلامية، بحرصهم علي صيانة ديـارهم وبنائها على نمط، يصون حريمهم من العيون الداخلية، تمشيـا مع القيم الأخلاقية والعادات والتقاليد، التي بنيت عليها الأسرة الحضرية الاسلامية، سلوكا وتصرفات يتقيد بها نظام مسكن الحي في المدينة[3]، حتى تستجيـب لنظام المجتمـع الاسلامـي، لأن المدينة كيان حضـاري، يوفـر أسباب الحصـانة والراحـة للمقيمين بها. ويهدف المخطط العمراني الإسـلامي أيضـا، إلى عزل المساكـن، ووضعها بعيدا عن مسالك النقل الكبرى، حتى تتوفـر لأصحابها مزيد من الأمن والراحة [4]، وهي ضوابط

تفند مـا ذهـب اليـه بعض المستشرقين مـن أن البناء في المدن الإسـلامية يتميـز بالعشـوائية وعـدم التماسك [5]. تشتمل المدينة الاسلاميـة، على طرق ثانوية، وأخرى رئيسية وأزقـة ملتوية ومتشعبة نافذة وأخـرى غير نافذة [6]، ويعد الـزقاق الممـر الخاص المؤدي الى المجموعـة السكنية في الحي، الذي لا يقطنه غالبـا الا أفراد قبيلة واحدة أو أسرة واحدة، ومن يتبعها مـن موالي وخدم، وينتهي الزقاق أو الدرب عـادة أمام منزل رئيس القبيلة أو رب الاسرة، الواقع في قلـب المجموعة أو الخلية السكنية[7].

ان مـدينة تلمسـان لا تخرج عن هـذه القـاعدة ولا تشـد عنهـا، ولا تبتعد عـن وظائف هـذا التخطيط ومعلمه، فقـد عرفت هي الأخـرى، مراحل تطور كثيرة في عمـرانها، منذ القرون الاولى للهجرة، حتى عهد بني زيان، الذين كان لهم الفضل، في تخليد مآثرها، وتوسيع عمرانها وجعلها قاعدة للحكم، ومركز دائرة نفوذهم في المغرب الاوسط، تنجلى هذه المآثر، في الآثار الباقية بالمدينة كالاسـوار، والمسـاجد والمآذن والقصور والمنـازل والزوايا والمدارس، والمدارج والابراج، فهـذه المعالم العمرانية صورة واضحة، تبين مدى اهتمام بني زيـان بتشييد العمران وتخليده، وعكس ايضا هذه الصورة ازدهار العلـوم والفنون والصناعات، وانتشار الاسـواق والقيصاريات بالمدينـة وغيرها من المرافق العامة، مما يدل على التطور الاجتماعي وازدهاره، والرقي الحضاري للمجتمع التلمساني في ذلك الوقت.

لم تزل هذه المدينة تتسع وعمرانها ينتشر ويتزايد وعدد سكانها ينمو مع مرور الزمن، وقد لاحظ ابن خلـدون هذه الظاهـرة في تلمسان فعبر عنها قائلا: "فـاختطوا بها القصور المرتفعـة، والمنازل الحافلة وغـرسوا الـرياض، والبسـاتين و اجروا خلالها الميـاه، فأصبحـت أعظم أمصـار المغرب، ورحل اليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء، واشتهر بها الأعلام، وضاهت أمصار الدول الاسلامية، والقواعد الخلافية" [8].

. تتألف مـدينة تلمسان في العهد الـزياني، من مركـزين عمرانيين يفصل بينهما سـور به أبواب للعبور، والتنقل داخل المركزين، ولعل الغرض من عدم إزالة هذا السور الحاجز، هو فصل الاهالي الذين يسكنون المركز الشرقي (مدينة أكادير) عن المركز الغربي (مدينة تاكرارت) في بداية الامر، لأن المدينـة الحديثة، تضـم المؤسسـات الحكوميـة وثكنـات الجيش وقصـور الأمـراء ومنازل الحاشيـة والحشم، فضلا عن القصبة [9].

ان الدليل على وجود السور الفاصل بين المركزين، هو ماذكره الرحالة العبدري بقوله: وتلمسان مدينة كبيرة سهلية، جبلية جميلة المنظر، مقسومة باثنين بينهما سور [10]، ويؤكد ذلك ابن مروزق الخطيب بقوله: " دخلت يوما من باب من أبواب تلمسان، وهي باب العقبة وقد زرنا هناك الداودي[11]، فلما خرجنا من الموضع المعروف بباب زيري صاعدين الي تلمسان العليا[12].

والظاهر ان الطريق الذي سلكه ابن مرزوق برفقة السلطان أبي الحسن المريني، يربط بين باب مدينة "أكادير" الشرقي ببابها الغربي، عبر المدينة العتيقة المؤدي إلى مدينة "تاكرارت"، وقد اخترق الموكب عدة أحياء شعبية على حافتي الطريق، وكذلك المحلات التجارية الكثيرة على طول الطريق، وكان الموكب السلطاني الذي برفقة ابن مرزوق التلمساني، قد زار ضريح العالم الداودي التلمساني وتبرك به، ووقف أيضا على بعض الأضريحة التي يرقد فيها أصحابها من الصالحين، عند باب زيري، وللاطلاع على أحوال الناس بالمدينة، والتحدث مع أعيانها وشيوخها القاطنين في هذه الاماكن [13]، وكانت الفئات الشعبية وبعض الفقهاء يفضلون الإقامة بمدينة «أكادير» ولا يريدون لها بديلا. لأنها تحتوي على مسجد المولى ادريس الأول العتيق، فقد كان الناس يكثرون من زيارته والتبرك به والصلاة فيه، بل كانت هذه الشعيرة الدينية، مفضلة بهذا المسجد عند كثير من أهل تلمسان، وخاصة منها صلاة الجمعة، حتى السلطان يغمراسن كان يهتم به كثيرا، ويوليه عناية خاصة، ويصلي فيه من حين الآخر [14]. وكان بعض فقهاء تلمسان الحديثة "تاكرارت" يتنقلون إلى "أكادير" يوم الجمعة للصلاة في مسجدها، ومن بين هؤلاء الشيوخ والعلماء، محمد عيسى، الذي زار البقاع المقدسة بالحجاز نحو خمسة وعشرين مرة، وأبو عبد الله محمد بن مرزوق الجد (ت 681 هـ) يؤدي أغلب صلواته يوم الجمعة بمسجد "أكادير". أما الشيخ الحسن بن مخلوف أبركان (ت899)، فكان من عادته دائما أن يصلي الجمعة بمسجد "أكادير"[15].

وقد قام السلطان يغمراسن بتشييد مئذنة هذا المسجد، التي ظلت شامخة، تزين سماء تلمسان وعمرانها، إلى جانب أختها بالمسجد الجامع بتلمسان العليا (تاكرارت). وكانت الأولى قد بنيت قاعدتها بالحجر المنقوش، المجلوب من بقايا مدينة «بوماريا» الرومانية، بينما استكمل بناء الجزء الأعلى منها بالآجر الأحمر، وكانت هندسة الصومعة وزخرفتها، متأثرة بالفن المعماري الأندلسي وزخرفته [16].

وقد بلغت مدينة تلمسان العليا (تاكرارت) أقصى اتساع لها في العهد الزياني، حتى فرضت نفسها كمدينة رسمية يقطن السلطان بقصرها المجاور للمسجد الجامعي والمتصل به [18]، وهو القصر الذي بناه المربطون وسكنه الموحدون، والمسمى بالقصر القديم، وكان يغمراسن أيضا شديد الاهتمام بمسجد هذه المدينة، ويحرص كل الحرص على أداء الصلوات فيها، ويستمع به إلى بعض الدروس، التي كان يلقيها بعض الفقهاء على الطلبة، في المجالس العلمية المختلفة، وبني له مئذنة تشبه مئذنة مسجد " أكادير" ، بلغت طولها خمس وثلاثون مترا، مبنية هي الأخرى بالآجر ذي اللون البني المائل إلى الإحمرار، بما فيها الزخرفة القاعدية، والجدران كما أدخل على المسجد، تعديلات وتغييرات هامة، فقام بتوسيعه، حتى أصبح مستطيل الشكل، يبلغ طول ضلعه ستين مترا، وعرضه خمسين مترا، وبالتالي صارت مساحته الاجمالية نحو (3000)، ثلاثة آلاف متر مربع فجاءت عمارته، تحفة فنية رائعة، ولا يزال أهل تلمسان خاصة والجزائر عامة يتباهون بهندسته وزخرفته المتأثرة هي الأخري بالعمارة الاندلسية [19]، فالحجارة والآجر والقرميد المربع المستطيل، ذو اللون البني المائل الى الحمرة والوردي، هي مواد البناء المفضلة لأهل تلمسان عصر ذاك[20].

وكان السلطان يغمراسن يهتم بالتشييد والبناء والعمارة دون ان يتظاهر ويتباهى بذلك، فقد أوضحت النصوص التاريخية، أنه كان يعزف عن ذكر اسمه، على البناءات، وتسجيله على المعالم العمرانية، التي يأمر بانشائها كغيره من السلاطين، والملوك، ويتبين ذلك من خلال الحوار، الذي دار بينه وبين أحد مساعديه حينما أشار عليه بكتابة اسمه، على المسجد الجامع، بتلمسان العليا (تاكرارت)، بعد أن أضاف إليه مساحات وفضاءات عمرانية أخرى، فأجابه يغمراسن بلهجة زناتية "يسنت ربي" ومعناها علمه عند الله" [21]، وأهدى لهذا المسجد "ثريا" فخمة على شكل اسطواني، كبيرة الحجم، بها أربع حلقات من خشب الأرز، مطلية بالنحاس الأصفر المنقوش، تضم عددا من المصابيح يبلغ طول محيط تاجها ثمانية امتار، تحملها سلسلة متينة مثبتة في القبة الوسطى للمسجد [22].

ويعتبر المهندسون والاثريون نمط بناء المسجد الجامع، من أبدع المخلفات الاثرية الزيانية[23]، كما تعد أيضا الصومعتان أو المئذنتان اللتان بناهما وشيدهما، السلطان يغمراسن في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، من أجل مباني تلمسان [24].

أسوار المدينة وتحصيناتها:

أحيطت مدينة تلمسان في العهـد الزياني بعدة اسوار متينة شاهقة، جميلـة، مبنية بناءا جيدا، محصنة تحصينا قويا بلـغ عددها في بعض جهاتها، نحو سبعة أسوار ولعلهـا كانت مضعفة [25]، ومتباعـدة عن بعضها، بمسـافات قصيرة في حدودهـا الخارجية [26]، ولعل أرتفاع هـذه الأسوار وعظمتها جعلت العبدري يصفها بقوله: "بأن أسوارها أوثق الأسوار وأصحها" [27]، وكانت هذه الأسوار مبنيـة في بعض الجهات، بالـآجر وفي جهات أخرى يـرتكز السور على قاعـدة من الحجر الصلب، وفي بعض الجهات يبني بالرمل والطين والكلس المدكوك [28].

فقد أمـر يغمراسـن ببناء عـدة اسوار لها سنـة 668هـ/ 1268م، وتحصينها مـن ناحيـة "باب كشوط"، وهي الجهـة الجنوبية الغربيـة، وبالتالي بنيت في هذه النـاحية وحدها نحـو ستة أسوار كاملة (11)، مرتفعة ومزدوجة تعلوها أبراج، وتدعمها حصون مربعة الشكل، بعض هذه الاسوار داخل بعض [29] من جهـة القصبة، التي تـدل على رغبة مؤسسيهـا في اتخاذها قلعة منيعـة صعبة المنال وحصنا قـويا يسهل الدفـاع عنها وتهيئتها تهيئة كاملـة، للقيام بوظيفتها الادرايـة والسياسية والعسكـريـة لأن النـاحية الجنـوبيـة، مكشـوفـة لا تحميهـا الطبيعـة، بل تتحكـم في مسـالكهـا المرتفعات [30]، حتى يكون الدفاع عن هذه الجهة سهلا، وكانت الاسوار متوجه كأسنان المنجل [31] ويذكـر البـاحث مارسيـه" بأن عدد أسوار مـدينة تلمسـان بلغ سبعـة، وعلى الرغـم من ذلـك فإن سكانها لا ينامـون، فقد حرص الزيـانيون على بناء الاسوار الـدفاعية، واهتموا بتحصينـاتهم فبنوا أيضا عدة ابراج قوية وعالية، للمراقبة نذكر منها الابراج التالية:

برج القشاقش: بني هذا البرج، على ضفة وادي متشكانة، وانشئت له طريق مغطاة بالأقواس تربط البرج بالمدينة [32].

برج الطاحونة: انشيء هذا البرج، في جنوب المدينة أيضا في الموضع الجبلي المؤدي الى هضبة لا لاستي [33]، لمراقبة الجهـة الجنوبية وحمايتها، وفي ذات الـوقت لحماية الطـاحونة، التي تـزود أهل تلمسان بالدقيق.

وبني برج أخر في سفح جبل شقراطين [34].

برج إمامة: وهو عبارة عن قصر كبير، بني على شكل قلعة مرتفعة، تقع في الشمال الغربي، من مدينة تلمسان [35]، عرف سكانها محنا جمة، لاسيما في فترة هجومات الغزاة، والمناوئين على المدينة،

لأنه يعتبر الخط الدفاعي الأمامي الأساسي لتلمسان. فقد حاصرها السلطان ابو يعقوب عبد الحق المريني (685ـ706/ 1286ـ1306) مدة اربعين يوما، وعندما لم يقو على اقتحامها، عاد بلاده يجر وراءه ذيل الخيبة، على عدم دخولها عنوة، وكان ذلك سنة 689/ 1291م[36].

قلعة ابن الجاهل: وهي حصن هام، أنشأة الزيانيون، في الجهة الجنوبية المكشوفة للدفاع عن المدينة، في هذه الناحية. ولعبت أدوار دفاعية محكمة، بحيث كانت حاميتها تتصدى للهجومات، التي تأتي من الشرق والجنوب [37]، وبالقرب من باب العقبة بني برجان كبيران مربعان بالآجر والحجارة المأخوذة من الآثار الرومانية [38].

فقد كانت اذن هذه الابراج والقلاع ولاسوار، التي تحيط بمدنية تلمسان من جميع الجهات المختلفة، عاملا مهما، في تسهيل مهمة المراقبة، والدفاع عن السكان، وربما هذا هو السر الذي جعل أهل تلمسان يصمدون في المقاومة، ويتصدون للحصار فترة طويلة زادت عن ثماني سنوات، ويفشلون أغلب الهجومات المتكررة على مدينتهم من الشرق والغرب.

أبواب المدينة:

تشتمل مدينة تلمسان على خمسة أبواب رئيسية واسعة، شيدت على جانبي كل واحدة منها مراكز حراسة بمثابة أبراج صغيرة، مربعة الشكل لمراقبة الضواحي والأماكن المجاورة [39]، والداخلين الى المدينة والخارجين منها باستمرار، وأقيمت في جوفها حجيرات يقيم فيها الموظفون والحراس، والمكاسون من الرجال والنساء، وأنشئت بالقرب منها دور لمزارعي المداخل[40].

وقد أسست هذه الأبواب، بعد دمج المدينتين، واحاطتها بالأسوار المتعددة، وكانت الابواب، مصفحة بالحديد، ومدعمة بحصون قوية صعبة الاختراق، ولها مصاريع حديدية تغلق بها وهذه الابواب هي:

باب العقبة: يقع في شرق المدينة، وهو الباب القديم الذي ظل قائما منذ تأسيس مدينة "أكادير"، بني بأحجار من بقايا الرومان [41].

باب سيدي الحلوي: يقع هذا الباب في شمال المدينة، اتخذ اسماء عديدة منها: باب الزاوية نسبة إلى زواية سيدي الحلوي، وباب علي [42].

باب القـرمادين : يقـع باب القرمـادين ، في الشمال الغربي مـن تلمسـان [43]، ويعتبر الحصن الدفاعي الاساسي ، الذي يحمي مدخل المدينة مـن هذه الناحية التي بها المنية والملعب ، ويبدو أنه كان يوجد بالقـرب من الباب أفران لصناعة الفخار، والآجر، والقـرميد ، ولهذا سمي الباب بباب القرمادين [44].

باب كشـوط : ومعناه باب الاكشاك (جــمـع كشك) ، يقـع في الجهـة الجنوبية الغربيـة ، من المدينة أصبح يعرف فيما بعد ، بـاب فاس . وكان يغمراسن ، قد أمر ببنائه وتحصينـه بأبراج وأسوار عـاليـة[45].

باب الجياد : يقع هذا الباب في الجهـة الجنوبية من المدينة [46]. ولعل الجدير بالملاحظة هو أن الاسماء القديمـة ، لأبواب مـدينة أكـادير العتيقـة ، قد تغيرت وحـذف بعضها ، عنـدما انـدمجت المدينتان (اكادير وتاكرارت) ، أو تلمسان القديمـة وتلمسان العليا ، ولاسيما من الناحية الجنوبية ، التي كانت تحتوي على ثلاثة أبواب كاملـة ، فصار بها باب واحد فقط ، واختفى البابان المتبقيان ، ثم أضيـف للمدينـة بابان جـديدان من جهـة الشمال والشمال الغربي ، وربما لاسبـاب استراتيجة وأمنية ، ولم يبق من الأبواب القديمة إلا باب العقبة في الشرق .

والظاهر أن المدينة ، قد احتفظـت بالابواب الداخلية ، كما كانت عليها في السـابق والتي تصل بين المدينتين ، مثـل باب أبي قـرة وباب زيـري [47] وباب الـرواح ، من جهـة شمال وغرب مـدينة أكادير[48].

ولعل مـدينة تلمسان كانـت تشتمل على عدد كبير من الأبـواب والفتحات يزيد رقمهـا ، عن العدد الذي ذكره يحي بن خلدون ، وهو خمسة أبواب [49]، فأبو الفداء يجعلها ثلاثة عشر بابا [50]، ولكنه مـع الاسف لا يحدد مكـانها بالضبـط ، والنصوص التـاريخية التـي بين أيدينـا ، والابحاث الأثرية والتنقيبـات ، التي توصل اليهـا الباحثون حتى الآن ، لا تـؤكد ذلك ولكن ربما تكـون هذه الابواب ثـانويـة مخفية ، على شكـل انفاق صغيرة ، يستعملهـا الجند ورجـال الدولـة ، في الوقـت المناسب ، مثل الباب الـذي يقع في الشمال وهو باب الرواح ، حيث يوجد ممـر مغطى بالاقواس ، يصل تاكرارات بأكادير، وباب زيري ، وباب أبي قرة الداخليتين .

ويبدو أن الابواب التي ليس لدينا وصف لها ، ومكـان محدد بوجودها ، هي عبارة عن ممرات أو

فتحات في الأسوار [51]، العديدة التي تحتوي عليها مدينة تلمسان، على شكل ابواب صغيرة تفتح عند الحاجة، وكانت الأبواب الكبيرة تغلق في الليل، واذا تعرضت المدينة للأخطار[52].

الخنــادق:

أحاط الزيانيون مـدينة تلمسان، بخندق عميق، من الجهة الجنوبيـة بموازاة وادي متشكانة، الذي يلتف حول المدينة، من الناحية الجنوبية والشرقية.

فقـد قامـوا بحفر، هـذا الخندق تـدعيما للســور المبني مـن الطين والرمـل والكلس المذكـوك، وتحصينا للمدينـة من هذه الناحيـة، ويوجد الى جانب السـور، طريق موازي لـه شيد خصيصا، لتسهيل مهمة الحراس، ومتابعة مراقبتهم للمنطقة من خلال حاجز به فتحات[53].

ويوجد بـالشمال الغربي للمدينة خندق آخـر، يعرف بخندق "عين كسور"، يقع بـالغرب من الملعب والمنيـة، خارج بـاب القرمـادين [54]، وبالاضـافة الى هـذه التحصينات الجيـدة، توجـد المنحدرات الشمالية الوعرة، التي تتمتع بحصانة طبيعيـة، تزيد المدينة منعة، ولهذا فمن الصعوبة أن يقوي جيش مـا، على اختراق أسوارها وحصونها وخنـادقها، الا بعد حصار طـويل واستعمال أساليب ووسائل وأدوات قتالية شتى [55].

القصور والمنازل:

المشور: كان السلطان يغمراسن في بـداية عهده، يقيم في القصر القديم [56] بتلمسـان العليا، (تاكرارت) الى غايـة بنائه لصومعة المسجد الجامع، فصــارت المئذنة تطل على القصر، وتشرف على صحنـه، عندئذ اضطـر السلطان ان يغير مقـر اقـامته، حتـى لا يترك مجالا للمؤذن وغيره، من الاطلاع على مايدور بداخل القصر السلطاني، ولا يعرض حريمه لنظرات المتطفلين، فقرر تشييد قصر جديد، يليـق بمقام الملوك، ويتطابق وتقـاليد السلاطين المسلمين في ذلك الوقـت، فاختار مكانا بجنـوب المدينة وبني فيه قصره، وهو عبـارة عن قلعة أو قصبة، وسماه المشور، تمييـزا له عن القصر القديـم، فاتخده مقرا رسميـا لاقامتـه واقامة خلفـائه من بعده، انـزل به الحاشيـة والحشم ورجال الدولة، وكان يستقبل فيه الامراء والسفراء الأجـانب، وفي قاعاته تنظم حفلات الاستقبال والسمر [57].

ويبدو أن صرحه شيد ، في المكان الذي نصب فيه يوسف بن تاشقفين المرابطي خيمته او صرادقه، حينما حاصر مدينة "اكادير" ، وقام بتخطيط القصر على شكل قلعة، كما أسلفنا مستطيل الشكل، طول ضلعه 490 م وعرضه 280 م [58]، وبالتالي تكون مساحته الاجمالية نحو 137200 متر مربع ، ومعنى المشور، المكان الذي يعقد فيه أمير المسلمين السلطان ، إجتماعاته مع وزرائه وكتابه وضباطه ، لمناقشة شؤون الدولة ، والتشاور في أمور الرعية وقت السلم ووقت الحرب .

وفي سنة 717 هـ ـ 1317 م اضاف له السلطان ابي حمو موسى الاول (707 ـ 718هـ/ 1307 ـ 1318)، معلمين معماريين آخرين هما قصر ومسجد خاص ، بالامراء ورجال الدولة والاعيان ، يؤدون فيه صلاة الجمعة والصلوات الخمسة [59]، يحيط بالمشور سور عالي ، يضم قصورا عديدة ، صغيرة الى جانب قصر السلطان ، مبنية باسلوب معماري فني بديع ومزينة بزخرفة رفيعة [60] ، ويحتوي القصر على سقايات ونافورات وبساتين ، له بابان احدهما يقع في الجنوب ويطل على البادية تجاه الجبل ، والثاني يقع في الشمال الغربي ، باتجاه وسط المدينة ، ويقيم بجواره رئيس الحرس[61]، وله ساحات وشوارع ودروب ، ومنازل أخرى بداخله للحاشية والكتاب والضباط والخدم ، وكان بالمشور مجموعة من المخازن والمطامير [62] ، لخزن الحبوب والمؤن المختلفة[63].

والظاهر أن القصر السلطاني ، يتميز عن غيره من القصور والدور بشكله وسعته ومحتواه ، حيث كان مزين بالرخام والفسيفساء الملونة ، التي تكسو قاعته وجدرانه ، مبلط بالجبس الانيق ، والسقوف الخشبية المدهونة ، والتريات النحاسية الفخمة ، التي تحمل قناديل الزيت والشموع ، وكانت أرض القصر السلطاني في معظمها مبلطة بالزليج الملون ، وتتخلل القصر احواض من الزهور والأشجار المثمرة ، ونافورات المياه كما هو الشأن في القصور السلطانية بفاس وغرناطة وتونس ، فهو معلم من معالم العمرانية الزيانية الرائعة ، المتأثرة مما شك فيه بالهندسة المعمارية الاندلسية[64].

وبديهيا كانت منازل رجال الدولة والبلاط ، أصغر حجما وأقل زخرفة من قصر السلطان ، وكانت هذه المساكن تحيط بالقصر الكبير والمسجد ، ولعل المشور كان يحتوي على سجون كغيره من القلاع ، يحبس فيها الاعيان والمناوئون من الاسرة الحاكمة والوزراء والكتاب والقادة الضباط وغيرهم ، من خاصة الناس وتسمى الدويرة ولعلها بيوت صغيرة تشبه السجن الانفرادي . وكان

هناك سجن آخر بالقصر القديم يسمى بدار "الناريج"، التى تنقسم الى دويرات، وقد حدث ان سجن أحد وزراء بني عبد الواد في سجن هذه الدويرة ثم اخرج منها ليضرب بالسياط، ولما رآهم السلطان من شرفة قصره أمرهم بتوقيف العذاب، الى ما بعد صلاة الجمعة (65)، ويبدو أن بعض السلاطين الزيانيين، جددوا أسوار المشور وقاموا بتوسيعه، ولا سيما عندما يتعرض الى التهديم خلال حصار تلمسان من قبل الاعداء، والنصوص التاريخية تشير الى أن السلطان أحمد بن أبي حمو الزياني الثاني (834 ـ 866هـ/ 144 ـ 1464م) فكر في تجديد بناء سور المشور وتوسيعه، فاضطر الى اغتصاب كثير من دور الرعية ومنازلهم، والتي كانت متصلة أو قريبة من القصر السلطاني وأمر بتهديمها، حتى يتمكن من تنفيذ مشروع الزيادة والتحصين وكان ذلك سنة 850 هـ ـ 1446م(66).

القصور والمنازل الأخرى:

حرص يغمراسن على البناء والتشييد، ونحا منحاه ابنه عثمان، ثم حفيده أبو موسى الاول في تأسيس المنشآت العمرانية الدينية منها والمدنية، وكان ابوتاشفين بن ابي حمو الاول (718 ـ 737/ 1318 ـ 1337) هو الآخر مولعا بالعمران، لان العمارة رمز القوة والازدهار، وهي من واجبات ومهام السلاطين الاقوياء، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "تكثر العلوم حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة" (67). ولهذا نجد السلاطين يتسابقون الى التعمير ويتباهون بالمنشآت العمرانية، ويتنافسون في انجازها. فقد تعدى ابو تاشفين الأول، أسلافه من حيث الاعتناء بتشييد البناءات والعمارات، حتى صار عصره عصر ازدهار العمران في تلمسان، بلغ عدد دورها ومنازلها في عهده نحو ستة عشر الف دار (68).

وكان يتميز عن غيره بالذوق الفني الرفيع، وبالثقافة الواسعة، بحيث كان رساما ومهندسا، وقد عبر يحي بن خلدون عن رفاهة حسه وتذوقه للجمال والأشكال بقوله: "مع صدقه بالاختراع وبصره بالتشكيل والابتداع" (69)، ويعلق التنسي عن ذلك بقوله: "كان مولعا بتحبير الدور وتشييد القصور" (70). وبناء المصانع، وغرس الرياض والبساتين وانشاء المنتزهات (71)، وقد صخر ابو تاشفين لهذه النهضة العمرانية، طاقة كبيرة من اليد العاملة الفنية، من أهل المدنية والأندلس، ومن الاسري النصارى والسجناء، الذين كانوا يعدون بالآلاف في عهده (72)، فكان

منهم: النجارون، والبناؤون والزليجون [73] والزواقون، حتى خلد بهم آثارا عمرانية متميزة، بحيث لم يحقق هذه الظاهـرة من سبقوه، ولم تكن من نصيب الذيـن جاءوا من بعده [74]. اذ شيد قصورا عديدة منها، دار الملك والدار البيضاء ودار السرور، كما بني في موضع بتلمسان يعرف "بتفرغنبو" قصرا سمي بقصر ابي فهـر، على انقاض مسجـد [75]، كان مشيـدا بهذا المكان، ولا يـزال القصر محمولا في عهد ابـن مرزوق (القرن 8 هـ) على جزء مـن هذا المسجد [76]. وكأنه ظـاهى به قصر أبي فهر المستنصر الحفصي بتونس [77].

وكان السلطان ابـو الحسن المريني (731 ـ 749/ 1331 ـ 1348)، قد امر الفقيه الـوزير ابن النجار، بـأن يضع رخـامة التـوقيت، بـالموضع المعـروف بابي فهـر داخل تلمســان [78]، غير ان النصوص لا تبين لنا كيف كانت هذه القصور، في اي مـوضع من احياء تلمسان شيدت. ولعلها كانت في الناحية الغربية من المدينة جيث يوجد الصهريج والقصبة [79].

وقد استخـدم ابو تـاشفين في نهضته العمرانيـة، الى جانب اليـد العاملـة والفنيين والمهندسين المحليين واسرى النصارى المهنـدسين والفنيين الاندلسـيين، الذيـن طلبهم من العـاهل الغرنـاطي الوليد (713 ـ 725/ 1313 ـ 1325) [80] فكانت قصـورا جميلة لم تعرفها قبلـة الملوك، حسب تعبير صاحب العبر [81].

القصبـة:

فاذا كـان يغمراسـن وابو تـاشفين، قد اشتهـرا ببناء الاسـوار والقصور والستـائر [82]، وحفر الخنادق، فان ابـا حمو موسى الاول، يعود اليه الفضـل في تعمير القصبة، فقد كان يبـالغ في أخذ الرهـائن، من القبـائل التي تنضـوي تحت نفوذه، حتى يضمـن طاعتهـم وولاءهـم وتتكـون هذه الرهـائن في الغالب من أبنـاء القبائل، ومن إخـوانهم، يرسلونهم لـلاقامة بمدينـة تلمسان وتحت رعاية السلطان، فبني لهم ابو حمو الاول قصبة يسكنـونها، وسمح لهم ببناء المنازل والدور والتوسع في العمران، وأذن لهم بالزواج وتشييد المساجد، وفي هذا المعني يقول ابن خلدون: "واستبلغ (اي ابو حمو الاول) في اخذ الـرهائن منه ومن اهل العمالات وقبائل زنـاتة والعرب، حتى من قـومه بني عبد الواد. . . وانزلهم بالقصبة وهي الغور الفسيحة الخطة، تماِل بعض الامصار العظيمة، اتخذها للرهن، وكان يبالغ في ذلك. . وتجاوز ذلك الى اهل الامصار والثغور من المشيخة والسوقة، فملأ

تلك القصبة، بابنـائهم وإخوانهم، وشحنها بالامم بعـد الامم، وأذن لهم في أبتناء المنازل، واتخاذ النساء واختـط لهم المساجد، يجمعـوا بها لصلاة الجمعـة، ونفقت بها الاسواق والصنـائع، وكان حال البنية من أغرب ما حكي في العصور عن سجن (83)؛ .

ويبدو أنه من الصعب تحديد مكان هذه القصبـة، التي جعلها ابو حمو بن عثمان، مقرا لإقامة الرهـائن، فهي عبـارة عن سجـن غريـب، كما عبَّر عنها ابـن خلدون ذاتـه، لم يسمع بمثلـه من قبل(84)، امـا عن تحديـد مكـانها، فقد وردت في بعـض النصوص، اشـارات تسمـح لنا تحديـد جهتها، والناحية التي تقع فيها من المدينة بالتقريب.

ولعلها تكون قـريبة من قصر المشور، حيـث يقيم السلطان والامراء ووزرائهـم، والجند ليسهل عليهم، مراقبة الرهائن وتفقدهم من حين الآخر.

وربما يكون مقرها غرب المشور، في اتجاه حي المطمر، كما ذهب احد البـاحثين (85)، ونحن نتفق معه لان الجغرافي ابن فضل الله العمري، اشار الى ذلك صراحة، عندما تحدث عن تحصين مدينة تلمسان وعـن اسوارهـا بقولـه: " وانها منحرفـة (اي تلمسان) الى جنـوب شرق فاس، ولها ثـلاثة اسوار، ومن جهة القصبة ستة اسوار بعضها داخل بعض " (86).

يتضح من النص، ان القصبة كانت تقع جهة الاسـوار الستة، وهي النـاحية الجنوبية والجنوبية الغربية، التـي كثف فيها بنو زيـان الاسوار ولابراج لحماية القصبـة والمشور معا من جهـة، وحماية المدينة على وجه العمـوم، لان مدينة تلمسان مكشوفـة من هذه النـاحية، غير محصنـة طبيعيا، مما يجعلها عرضة للمـداهمات والمخاطر، فلهذا حرص سلاطين بني زيـان على الاكثار من الاسوار في جنوب المدينـة وفي الجنوب الغـربي منها، حتى بلـغ عددهـا ستة عنـد العمري (87)، وسبعة عند أخرين (88)، وبالتالي فمن البديهي ان يكون موقع القصبـة غرب المشور وبالقرب منه، حتى تكون في منعة عن الغزاة، وقريبة من عيون اهل المشور.

المسكن التلمساني:

ان الحديث عن السكـن والمساكن بمدينة تلمسان في العهـد الزياني، يتطلب نصوصـا تاريخية ووثائق عـن الخطط، ويتطلـب حفريـات وتنقيبات ميـدانية، ولكنهـا مع الاسـف غير متوفـرة،

فالباحث يعاني من هذا الجانب، الا ان بعض النتف والاشارات الواردة في بعض المصادر، المتعلقة بتاريخ تلمسان وحضارتها، فضلا عن كتب الخطط الخاصة بمدن مغربية كفاس ومكناس غيرها، تسمح لنا بتكوين فكرة عامة عن المسكن وانواعه في مدينة تلمسان، لان العمارة الاسلامية، متشابهة تحكمها ضوابط مشتركة، تجعلها ذات سمات تكاد تكون واحدة، ويبدو أن الشيء الذي تتميز به مدينة تلمسان في العهد الزياني، كغيرها من الحواضر الكبيرة، في بلاد المغرب، هو عدم وجود أحياء سكنية خاصة بالفقراء، وأخرى خاصة بالأغنياء، وإنما كانت دور الأغنياء ومنازلهم إلى جانب مساكن الفقراء [89]. وإن هذه المنازل لا تختلف من حيث الشكل ونمط البناء عن منازل وقصور مدن المغرب الأقصى، وافريقية المغربية والأندلسية وتخضع لضوابط ومعالم المدينة الإسلامية وتتشابه فيما بينها من حيث التصميم والزخرفة، التي تطورت كثيرا في العهد الزياني، بسبب التلاقح المباشر للحضارة الاسلامية بصفة عامة، يمكننا في هذا المجال. ، أن نقف على بعض الملامح العمرانية العمرانية للمنزل التلمساني في العهد الزياني.

فقد كان نمط المنزل والقصر، يخضع إلى الستوى الاجتماعي والمالي للأسرة التلمسانية[91]، ويتحكم في درجة أناقته وحسن بنائه، فالطبقة الميسورة تبنى دورها من عدة طوابق، وبمواد بناء رفيعة، بينما الأسرة الفقيرة تكتفي بالطابق الأرضي فقط، وبمواد بناء وأدوات تجميل بسيطة[92].

والمنزل التلمساني مربع الشكل في غالب الأحيان، لا يكتسي أي مظهر جمالي من الخارج[93]، ليس له نوافذ مفتوحة على الشارع، وإن وجدت فهي نوافذ صغيرة لا تعرض الحريم للرؤية من الخارج [94]، لهذا كانت نوافذ الغرف تطل على صحن المنزل وفنائه في الداخل، ويكون باب المنزل مصنوعا من الخشب المتين تزينه مسامير حديدية، ومقرعة يقرع بها الزائر الباب قبل الدخول[95].

أما من الداخل فإنها تشتمل على كثير من مظاهر الزينة والزخرفة، والراحة، يشتمل على رواق أو ممر ضيق يربط الباب بالفناء، الذي يتوسط المنزل، وكذلك الأبواب كالنوافذ تفتح جميعها على الفناء، ليدخل اليها الهواء والضوء، ويعتبر الفناء الذي يطلق عليه أيضا الأسطوان [96]، مكان مفضل لجلوس العائلة في فصل الصيف، لهوائها المعتدل وتوجد ممرات تصل الغرف ببعضها مغطاة بالخشب الرفيع المنقوش خاصة بيوت الطبقة الميسورة[97]. وتشتمل المنازل على أعمدة كثيرة

جميلة، يرتكز عليها السقف وينتهي أعلاها بأقواس، فيها عدد من المقرنصات، مما يدل على أن صاحبها من ذوي المال، وفروا لها أدوات البناء الرفيعة، تليق بمقامهم الاجتماعي والمادي، وكانت جدران منازلهم السفلى يكسوها الزليج الملون، وأرضها مبلطة بالرخام، ويزين وسط المنزل نافورة أنيقة يخرج منها الماء، ثم يجري إلى الصهريج الذي يأتي اليه الماء من الخرج بقنوات مخصصة لذلك، وإذا كان المنزل يشتمل على حديقة، فإن النوافذ تطل عليها في بعضها، ويكون المطبخ والدرج والمحلات الخاصة في زاوية المنزل، في أماكن دائما ماتكون مغلقة، يأتيها الضوء والهواء عن طريق فتحات ضيقة وصغيرة[98].

وتحتوي المنازل والقصور على مراحيض وقنوات لصرف المياه إلى خارج المدينة [99]، وتطلى جدران المنازل عادة بالطين المخلوط بالجير من الخارج ومن الداخل، وكانت سقوفها واطئة في غالب الأحيان غير مرتفعة[100].

يتميز البيت التلمساني في العصر الوسيط، بالغرفة الواسعة يزين سقفه بالخشب المنقوش، لدى أصحاب الجاه والمال، وتحيط بسطحه جدران عالية ينشر فيه الغسيل ويجفف فيه الفواكه[101]، وجرت العادة أن تبنى غرفة في أعلى الدار تدعى العلية، لتكون منزها للنساء، ومكانا مفضلا لاستراحتهن، ويمكن استعمالها لمآرب أخرى [102]. أما الأسرة الفقيرة فلا تملك منزلا فخما، بل منزلها بسيطا لا تزيد عن الدور الأرضي يبني بأدوات بناء بسيطة، شكلها ومظهرها أقل بكثير من بيوت الطبقة الميسورة، من حيث مادة البناء والأثاث والحجم، ولعلها كانت تبنى بالحجر والطوب وتغطى بالقش والطين وبأعشاب النباتات لا تتحمل أمطار الشتاء الغزيرة وثلوجها وبردها القارص، وكانت تنتشر عادة بالقرب من الأسوار والأبواب.

وكانت المنازل تقترب من بعضها البعض، خاصة في القصبة والأحياء الشعبية الآهلة بالناس، ولاتكون ملحقة بالأسوار حتى تسمح بتحرك الجند، والتنقل براحة أثناء القتال[103]. ويتميز أهل تلمسان بحرصهم على غرس الأشجار المثمرة والزهور في وسط المنازل وحولها، ولاسيما منها شجر النارنج والكروم والتفاح والإنجاص، كما هو في بيت ابن مرزوق الكائن بدرب مرسى الطلبة [104].

وأمّا المنازل الخارجة عن أسوار المدينة، فكانت تبعد عن بعضها ولها مساحات واسعة، مزودة باسطبلات الخيل وغيره من المواشي، منفصلة عن المساكن وهو ما يجعلها عرضه للصوص، فقد

كان الصبيان يسرقون الرداءات والاسطبلات، وما تحتـويه من سروج ولجام وغيرها، ثم يبيعونها في درب اليهود أو في سوق منشار الجلد بتلمسان [105].

وكانت سقوف منازل الطبقة اليسورة والمتوسطـة تغطى بالقرميد، والبناء العالي في المدينة، يثير مشاكل اجتماعية بين الجيران، لأنها تشرف على المنازل الأخرى، التـي أقل علوا منها، وشكاية على مثل هذا النوع كافية لهدمها، في أيام بني زيـان، حفاظا على حرمة الجار وراحته وكرامته [106]، ولم يسلم من هذه القضايـا حتى السلاطين والأمراء، مثل ما حدث مع أبي تـاشفين الأول عندما بني قصرا، وجعل له "عليـه"، تطل على دار ابن مرزوق ومـن يجاوره في الدرب، فاحتج ابـن مرزوق وبعض جيرانه على السلطان، واشتكوا للقاضي وطالبوه بهدمها [107].

وذكرت بعض المصادر الزيانية، أن الرخاء الاقتصادي والتطور الحضاري، جعل أهل تلمسان يتأنقون في المسكـن والملبس [108]. و"استجادة الـآنية والماعـون، واتخاذ الخدم والمركب" حسـب تعبير ابن خلدون [109]، ولكن مع الأسف لم يبق من هذه المنازل التلمسانية إلا بعض آثارها، ومن بين هذه المنازل: الدار الكبيرة ودار الانجاصة ودار النارنج والدار الجديدة [110]. وهي جميعها ملك لأبي زيد عبد الرحمن بـن النجار، صاحب مصانع حيـاكة الصوف الرفيع، التي تشتهـر بها مدينة تلمسان في العهـد الزياني، كما كانـت له أيضا دور أخـرى، خاصة بـأبنائه وخدامه، وتـربيعات وحوانيت ومخازن بـدرب شاكر [111]، ودار ابن مـدور التي انتقلت ملكيتهـا لآل مـرزوق في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي [112]. وكانت لآل مرزوق أيضـا، منازل عديدة مشهورة بدرب مرسى الطلبة، وبالقرب من باب العقبة، ومنازل بالعباد [113].

ولم يبق من هذه الدور والقصور، إلا بعض من المشور وقصر الأمراء بأكادير، والقصر القديم، بجانب الجامع الأعظم، الـذي لم يتخلف من آثاره شيء، وكذلك القصور التي بنـاها أبو تاشفين وسخر لها امكانيات هائلة اندثرت هي الأخرى وغابت عن الوجود [114]. والجدير بالملاحظة هو أن بعض هذه القصور والـدور كانت عظيمة الهيكل كبيرة الأبواب، بنيت على مسـاحات واسعة من الأرض، بها ساحـات معدة لغراسـة الفواكه والأشجار والـزهور والخضر، تتضمن عـددا كبيرا من الغرف، لكثرة الولـد ولحشم والخدم عند اصحابها، [115] ويكفي ان نقول بأنـه لكل دار من هذه الدور حدائق وحمامات واسطبلات [116]، وغيرها من المرافق العامة.

وكان صاحب المنزل يحرص كل الحرص على أن تكون جدران منـزله مستوية ومبنية بناءا جيدا،

وإن قام البنـاء بغشه يشتكيه للمحتسب أو القـاضي، ويحدث في فناء المنزل أو حـديقته الأسراب والمطامير لاختزان الأقوات والمؤن [117].

ويتم بناء السـقف بمد الخشب المحكمة النجارة فـوق الجدران ثم يضع فوقه الألواح، وبعدها يصـب التراب والكلس ويبسـط بالمراكـز، حتى تتـدخل أجـزاؤه [118]، وقد انفـرد ابن خلـدون بـالحديث عـن زخرفـة الجدران، داخـل البيوت والغـرف، بحيـث كانـت تزيـن الجدران السفلى بـالزليـج، وبـالجبس أو تكسـى بقطـع الرخـام والخزف، وتنظـم في أجزاء متنـاسقـة وتوضـع في الكلس[119]، ولم يغفل ابـن خلدون أيضـا توضيـح جانب مهـم في البناء وطـرق معالجتـه، وهو المتعلق بمادة البنـاء بقوله: "ان بناء جـدران المنازل، كان يتم بـالحجارة في الغالب الأعـم ويلحم بينها بالكلس، ويعالي عليها بالأصبغة والجبس[120].

أحـيـاء المـديـنـة:

تشتمل مدينة تلمسان على عدة أحياء أو حومات [121]، تقطنها طبقات اجتماعية مختلفة غنية ومتـوسطـة الحال وفقيرة، غير أنـه في الغـالـب كـانت الطبقـة الشعبيـة تقطـن المدينـة القـديمـة (تاكـرارت). بينما اختصت الطبقـة الخاصة المتكـونة مـن رجال العلـم والفقه والإرادة والسيـاسة والحرب بمدينة تلمسان العليا (تاكرارت)، حيث مقر السلطان والأمراء وحاشيتهم، ومن بين هذه الأحياء مايلي:

حومة المطمـر: تقع هذه الحومة في غـرب المدينة [122]، وتضم مخازن ومطامير عـديدة، معدة لخزن المؤن والسلع من قمح وشعير وملح ولحم مدخرة معروفة بالمسلي، أو القديد والخليع والشحم المذوب، والزبدة والسمن، وغيرها من المواد الغذائية التي تصلح للتخزين[123].

وكانت هذه الظاهرة منتشرة بين سكان مدينـة تلمسان، لتعرض مدينتهم إلى الحصار من حين لـآخر، فيضطـر النـاس إلى التخـزين لاستعمالها عنـد الحاجـة، في وقـت المحل والقحـط [124]. فالظـروف الطبيعية القـاسية في فصـل الشتاء وكثرة الغـزاة، جعلت مـن التلمسانيين وحكـامهم يحرصون كل الحرص، على أخذ الاحتياطات الضرورية في هذا الجانب [125].

وقد عمل كل من السلطان عثمان بـن يغمراسن، وأبي حمو الأول وأبي تاشفين الأول، على تعبئة

المخازن وملئها بـالمؤن المختلفة، تحسبا لأي طارىء، وهـذا هو السبب الذي جعـل أهل تلمسان يصمدون أمام الحصار نحو تسع سنوات [126].

وكانت حومـة المطمر، تحتوي على مساكن كثيرة، فقد قام السلطان أبـو حمو الأول ببناء مدرسة لسكان هذا الحي. وبني دارين بـالقرب منها لابني الإمام المدرسين بها [127]. أما المناطق السكنية الأخرى، فتقـع في الأحياء الصنـاعية والتجـارية، مثل حـي الفخاريـن في الركـن الشمالي الغربي لتلمسان العليـا، وحي القيصـارية الـذي يقع في شمال غـرب المشور، وتتركـز في القصبة وحـول الأبواب المختلفة نذكر منها :

حومـة باب علي : وتقـع في ركن الشمال الشرقي لتلمســان، وفي غربها حـومة عبـد الجبار، وفي شرقها تقع حومـة باب زيري [128]. وتقع الـرحيبة مابين بـاب زيري في الشمال، وبـاب الجياد في الجنوب، وحي باب إيلان [129]، في غرب المشور ولا يبعد عنه كثيرا [130] في اتجاه باب كشوط.

أما حومـة اليهود وبيعتهم فتقع بوسط المدينـة، حيث توجد أسواق الصاغــة، وهـي الحومـة الأكثر كثافة بالسكان [131]، حيث كانـت تضم نحو خمسمائة دار لليهود كلهم تقـريبا ينتمون إلى الطبقة الغنية [132]. وتقع حـارة الرماة في أخر السكـة الرابعة، التـي تعرف بابن حجـاف، وكان يقطن هذه الحارة، العلا مة الشيخ أبو اسحـاق ابراهيم بن يخلف التنسي (تـ 680 هـ)، جد ابن مرزوق لأمه. كما كانت للتنسي دار أخرى بدريبة ابن الذيب بالسبطريين، في ظهر السجن الكائن بسوق السراجين، وكـان يجاوره في السكن الشيـخ المؤرخ أبو العباس بـن القطان التلمســاني. ثم انتقلت هذه الدار إلى آل مرزوق وبني النجار، في عهد ابن مرزوق الخطيب كما أسلفنا [133].

والحقيقة أنـه من الصعوبــة بمكان، أن نلـم بجميــع حومـات المديـنــة وأحيائهـا وحاراتها ودروبها وأسواقهـا، ومختلف معالمهـا العمرانيـة في العهد الزيـاني، لأن الزمان قـد أتى عليهـا ويد الانسان لم تبق منها شيئا، والنصوص قد أهملتها اللهم إلا تلك البقايا والنتف التي لا تشفي غليل البـاحـث.

الـــدروب:

تتصل المنـازل والدور في الأحيـاء بالشـوارع والسكك [134]. بمداخـل جانبيـة ودروب صغيرة وأحيانا كبيرة [135]. وتحتوي هذه الدروب على أبواب في أولها، وكان الغـربـاء لا يدخلونها، إلا من

أذن له سواء كانوا من الرجال أم من النساء، وهذا دليل على أن المجتمع التلمساني ظل محافظا على عاداته وتقاليده، بل حتى الحطابون والفحامون وتجار العسل والحليب، لا يمكنهم دخول الدرب ببضاعتهم، وانما يضعونها أمام الباب، فيأتي أصحابها ويأخذونها إلى بيوتهم (136). وتحدد التنقل داخل المدينة هذه الدروب والشوراع، التي لا تشبه شوراع المدن الرومانية، والتي تتميز باتساعها واستقامتها، كما كانت لاتماثل أيضا دروب وشوارع المدن الأوربية في العصور الوسطى(137)، لأن هذه الأخيرة تتصف باتساعها وانعراجها (138). حتى تكون صالحة لاستعمال العربات، بينما دروب مدينة تلمسان مثل غيرها من حواضر المدن الاسلامية ببلاد المغرب، ضيقة ومنعرجة، ولا سيما منها الطرق الثانوية والمتفرعة في الأحياء، فكان أهل تلمسان ينتقلون فيها مشاة أو على ظهور دوابهم(139). كان لكل درب باب يغلق ليلا وباستطاعة أهل الدرب أن يعزلوا أنفسهم عن بقية أجزاء المدينة وشوراعها، عند حدوث اضطرابات بغلق باب دربهم (140).

وكانت لمدينة تلمسان سكك كبيرة، تربط بين الأبواب الرئيسية، تتفرع عنها دروب أخرى تصل إلى الحومات والأحياء، نتجية المباني الكثيرة التي تدور حولها، والشوارع الرئيسية كانت تمتد أفقيا وعموديا، ونذكر من بين الدروب التي استطعنا حصرها مايلي :

درب شاكر: يعد هذا الدرب من الدروب الكبيرة المشهورة في مدينة تلمسان، يقطنه العالم التاجر أبو زيد صاحب مصانع الصوف، ويمتلك فيه حوانيت وتربيعات ومنازل عديدة، له ولا بنائه وعماله وخدامه، ويتفرع من هذا الدرب الكبير، درب صغير توجد به منازل خاصة لأبي زيد جعلها لبنيه وبناته (141).

اشتهر درب شاكر بثلاثة منازل كبيرة وهي : الدار الكبيرة، ودار الانجاصة، والدار الجديدة، وهي جميعا ملك للفقيه التاجر المذكور (142). وكان يوجد خارج الدرب الصغير درب آخر كبير، به منازل ودور لكنه أصبح خرابا، في عهد ابن مرزوق الخطيب (القرن الثامن الهجري) (143).

درب ملالة بتلمسان (144).

درب مرسى الطلبة : ويحتوي على عدة منازل وحوانيت وكتاب لتعليم الأطفال ومسجد، يقطنه آل مرزوق، ويملكون فيه عقارات كثيرة (145).

درب مسوفة : ويقع بتلمسان العليا(146).

دريبة ابن الذيب: وهو عبارة عن درب صغير مغلق، يوجد بالسبطريين في ظهر السجن الذي يقع بسوق السراجين [147].

درب اليهود [148].

زنقة المشور: وتقع بالقرب من قصر المشور بتلمسان العليا [149]. وكانت تقطن هذه الدروب والأزقة شرائح اجتماعية متباينة من ميسورين ومتوسطي الحال وفقراء [149]. وتتضمن مدينة تلمسان أحياء أخرى يسكنها الجند والحراس وعائلاتهم، والقائمون بخدمة الدولة وحمايتها، ولعلها كانت قريبة من قصر السلطان، وبالقصبة وبالقلاع المحيطة بالمدينة وبالأرباض.

أما الجند النصارى، المتكونون من القشتاليين والقطلانيين والروم، والظاهر أنهم كانوا ينزلون ثكنات، تقع خارج أسوار المدينة، في أماكن تعرف بربض النصارى الذين كان السلطان يغمراسن قد استخدمهم كفرقة عسكرية مرتزقة، ثم تخلى عنهم بعد تعرضه لمحاولة إغتيال من قبلهم [151].

الصهريج:

قام السلطان أبو تاشفين ببناء صهريج كبير، غرب مدينة تلمسان بالقرب من باب كشوط، يبلغ طوله 200 متر وعرضه 100 متر، وعمقة ثلاثة أمتار، وجلب اليه الماء من المرتفعات ومن منابع لا لاستي التي تطل على المدينة[152] من جهة الجنوب.

فكان الناس يستعملون ماءه في سقي حقولهم وبساتينهم، ويقوم الجند بالتدريبات العسكرية، والسباحة والقتال فيه، كما كانت تلعب فيه الزوارق، فصار بذلك منزةً وفرجة للناس[153].

ولا يزال الصهريج الأعظم، قائما غرب المدينة، يطلق عليه أهل تلمسان اليوم، اسم «صهريج مبدي» [154]. وتضمن المشور أيضا صهريج آخر، أقل من الأول حجما، لتزويد قصر السلطان وحاشيته بالماء [155].

الـهــــوامــــش :

(1) أنظر شاوش محمد بن رمضان : باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة زيان، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص 189 ما بعدها . .

(2) تنشأ المدن والمراكز العمرانية لعدة وظائف منها التجارية والدينية والسياسية والعسكرية، وتتطور بهذه الوظائف وتزول بزوالها .

(3) عبد العزيز الدولاتلي : المدن العربية التقليدية بين الأصالة والمعاصرة ضمن كتاب الآثار الإسلامية في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1985م -ص 15

(4) نفسه ص 15

Xavier de planthol : The world of Islam New york 1959 pp. 22- 23(5)

(6) انظر : ابن مرزوق الذي يصف دار أسرته بقوله : وكان الموضع الذي به دارنا رائعا غير نافذ، وهو متصل بالقصر وبه باب يعرف بباب العذر المجموع ورقة 28.

(7) عبد العزيز الدولاتلي : المرجع السابق، ص15

(8) كتاب العبر، ج 7، ص 161-162

(9) أطلق ابن مرزوق الخطيب في مسنده ومجموعه على مدينة أكادير اسم تلمسان القديمة، وعلى مدينة 'تاكرارت' اسم تلمسان العليا، انظر: المسند ص 175، المجموع ورقة 2 و 5 حسن الوازن: ج 1، ص17، هـ/ 24.

(10) الرحلة المغربية، ص 11، فهي إذن بمثابة مدينة الفسطاط بمدينة القاهرة، انظر أيضا: W. et. GMarcais: les monuments P. 195. Bouali (SA) les deux grands siéges P. 49.

- Marcais (G) tlemcen, villes célèbres P. 19.

(11) يوجد ضريح الشيخ ابو جعفر الداودي التلمسان المتوفي سنة 402/ 1011م، عند باب العقبة الشرقي، انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج3 ص116 ـ 124 .

ابن صعد الأنصاري: النجم الثاقب ورقة 223 ـ 225

IDRIS (H.R): contribution à l`histoire de la vie religieuse en ifriqiya-zirid (10 - 11siecle) dans Melanges, Massignon (L) T.2 pp 332.sq.

Abdalewahab (H.H) et Dachraoui (F): le regime foncier en sicile au moyen-age (9 et 10siècle ed. et trd. d'un chapitre du Kitab-al amwal-dawidi, dans études d'orientalisme dédices à la (12)mémoire de lévi provençal, Paris 1962. T.2. PP. 401.sq.

(12) المسند، ص 175 .

(13) نفسه، ص 175 .

(14) ابن مرزوق : المجموع، ورقة 5 .

(15) نفسه، ورقة5 .

(16) ابن مريم : البستان، ص 79 .

Marcais (G) tlemcen (ville d`art et d`histoire) P. 34.(17)

W et G. Marcais: les mounuments arabes P. 140 sq.(18)

(19) عطا الله ذهينة : الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ ص 362 انظر أيضا: Marcais (G): Tlemcen (ville d`art) P.34

DHINA (A): Le rayaume P.34 note N43

(20) ابن خلدون : العبر، ج 7، ص 161 .
-Marcais: Opcit P.36
(21) يحي بن خلدون : بغية الرواد، ج 1، ص 207.
(22) محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، ص 93.
(23) نفسه، ص 93.
(24) عطا الله ذهينة : المرجع، السابق، ص 362.
(25) Ricard (P): pour comprendre l'art musulman dans l'afrique du nord et en Espagne, Hachette Paris P. 225
(26) Ibid P. 225 - Bouali (S.A) : les deux Grands sièges P. 40.
انظر أيضا : مارمول : المصدر السابق، ج 2، ص 299.
(27) الرحلة، ص 11 .
Ricard (P). opcit p.225 Bouali (S.A), Opcit P. 40.
(28) وقد بني أيضا في الجهة الشرقية من تلمسان نحو ثلاثة أسوار، وكذلك شيد في شمالها . أما في الناحية الغربية نحو أربعة أسوار انظر:
Bouali (S.A) opcit PP41. 44 بينما يذكر الأستاذ شاوش بأن المدينة يحيط بها سوران إثنان، سور داخلي وسور خارجي، كانت المسافة بينهما، لا تقل عن ثلاثمائة متر، عمل أهل تلمسان على استغلال هذه المساحة التي لم يكن بها البنيان إلا لابراج المعدة لمقاومة العدو في الزراعة وتربية المواشي، وهو السبب الذي جعلهم يصمدون أمام الحصارات سنوات عديدة انظر: باقة السوسان، ص 184 ـ 198.
(29) العمري : المصدر السابق، ق 7، ورقة 206، Marcais (G) Tlemcen (ville d,art celebre) H. lamens Paris 1950, P.54.
(30) العمري : المصدر السابق، ق 7، ورقة 206.
(31) Marcais: Tlemcen (ville célébre) P. 36
(32) Bouali (S.A): OPcit P. 43
(33) Ibid p43 note N73 - Marcais(ville célébre) P. 54
(34) Ibid P.43
(35) Marcais (G) Opcit P.54
(36) Bouali (S.A): Opcit P.43
Marcais (G): Tlemcen (ville célébre) P. 54
(37) البكري : المغرب ص 77، الحميري : الروض المعطار، ص 135.
Bouali (SA): OPcit P43.
(38) Marcais (G): Tlemcen (ville célébre) P. 17
(39) مارمول : افريقية، ج 2، ص 299.
(40) نفسه، ج 2، ص 299.
(41) أنهارت بقايا باب العقبة، واندثرت في أواخر القرن التاسع عشرة الميلادي انظر:
W. et.G. Marcais: les monuments arabes P: 14 et 124PP. 123-

ـ العمري: المصدر السابق، ق7، ورقة 206.

Marcais (G) Tlemcen (ville célébre) P. 21

(42) يبدو أن باب علي هو نفسه، باب الزاوية، وباب سيدي الحلوي، لأنه يوجد في نفس المكان الذي يقع فيه الباب، حي يدعي حي علي، انظر: التنسي: نظم الدر، ص117، هـ/ 27.

(43) لا تزال آثار، باب القرمادين، تظهر خارج السور، في الزاوية الشمالية الغربية للمدينة، ولا تبعد كثيرا عن الطريق المؤدي إلى مقبرة اليهود.

(44) كشفت الحفريات، التي أجريت أمام باب العقبة عن وجود أفران للخزف والفخار، مما يدل على أن الجهة الشرقية أيضا كانت بها مصانع هذه المادة.

(45) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص 207 أصبح يطلق على باب كشوط في العهد العثماني باب الأرجوحة، لكثرة الإعدامات شنقا التي كانت تنفذ بالقرب منه.

(46) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص90، ويبدو أنه من الصعوبة بمكان تحديد هذا المكان في الوقت الحاضر، لأن المباني في هذه الجهة قد اندثرت وربما يكون بعيدا نوعا ما عن الباب المسمي حاليا بباب أبي مدين، وقد يكون في بيت الريح حيث يتلاقى العباد مع وادي مشكانة، انظر: حاجيات: ابو حمو موسى الثاني، ص 58، عطا ذهنية: المرجع السابق، ص 370.

(47) كان العالم الفقيه سيدي لحسن ابركان يسكن حي باب زيري، وتحتضن رفاة الشيخ العالم محمد بن عبد الحق بن ياسين، فقبره عند باب زيري، أيضا.

(48) ابن مرزوق: المسند، ص 175 ـ بغية الرواد، ج1 ص 91.

(49) بغية الرواد، ج1 ص90.

(50) ابو الفداء: تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1840 ص 137 ـ

Marcais (G) opcit (ville célébre) P. 54

(51) عطا الله ذهينة: المرجع السابق، ص 371 انظر في هذا الشأن الإستناجات القيمة التي توصل اليها صاحب كتاب باقة السوسان، ص 194 ـ 199.

(52) الحميري: روض المعطار، ص 136.

(53) عطا الله ذهينة: المرجع السابق ص 370 ـ 42. Bouali (sa): opcit p. 42

(54) ابن مريم: البستان، ص 69.

(55) بغية الرواد، ج1 ص 209 ـ 210 ـ 219.

(56) وهو القصر الموحدي القديم المجاور للمسجد الكبير، الذي كان يعرف بدار الإشراق حيث يقيم العامل على تلمسان، وكانت للقصر رحبة تعرف برحبة القصر: انظر ابن الزيات التادلي: التشوف ص 369 و 448.

(57) Dhina. (M): opcit p.32

(58) ibid p.32

(59) Brosslard. inscription arabe de Tlemcen in revue Africaine Mai 1860 pp. 246 ` 247.

انظر ايضا: Richard (I) Lawless: Tlemcen capital de Maghreb central p. 50

Barges (I.j.j.I) Tlemcen ancienne capitale p. 186. sq

(60) حسن الوزان: وصف افريقيا، ج2 ص 20.

(61) نفسه ج2 ص 20 يطلق على الباب الجنوبي للقصر "باب جياد" ويدعى الباب الشمالي" باب الغدير" انظر: مارمول: افريقيا، ج2 ص 299.

(62) Brosslard: opcit pp. 246-247

Marcais (G): Tlemcen (ville célébre) P. 53.

(63) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 199.

(64) تعرض قصر المشور الى التهديم، في بعض أجزائه وخاصة خلال الحصارات المرينية والحفصية لمدينة تلمسان، وهو الامر الذي جعل سلاطين بني زيان يجددون أسواره عدة مرات، انظر، يحي ابن خلدون: بغية الرواد ج2 ص 40 ـ التنسي: نظم الدر، ص 23 أزهار رياض، ج3 ص 216 ولم يبق من المشور حاليا لا السور والصومعة، وقد ادخلت الادارة الفرنسية تعديلات على السور في الناحية العليا منه.

انظر: التنسي: نظم الدر، ص 153 هامش رقم 712.

وعن الصومعة ا نظر: W.G: Marcais: les monuments arabes pp. 129-131 Bourouiba (R): l'art religieuse pp. 124-129

(65) ابن مريم: البستان، ص 76-77 يحي بن خلدون بغية الرواد ج1 ص 199.

(66) التنسي: نظم الدر، ص 253.

(67) المقدمة، ص 777.

(68) حسن الوزان: المصدر السابق، ج1 ص 17 ـ مارمول: المصدر السابق، ج2 ص 302 واذا أخذنا بهذه المعطيات وبالرقم المذكور، فان عدد سكان مدينة تلمسان في هذه الفترة يكون اكثر من مائة ألف نسمة.

(69) بغية الرواد، ج1 ص 216. - Barges (L.J.J.L): histoire de beni Zeyan p. 46.

Ibn khaldun (Y): histoires des Beni Abdel Wad ed trad.Bel (A); T. 1.p.180

Marcais (G): l'architecture musulmane d'occident-p 265

(70) نظم الدر، ص 140 ـ يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 1 ص 216.

(71) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 216 عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7 ص 297.

(72) Dhina (A): Royome Abdelouadide, P35

(73) التزليج: هو التبليط بالخزف، ولاتزال هذه الكلمة مستعملة عند اهل تلمسان كما عند غيرهم من أهل الجزائر حتى الوقت الحاضر، انظر: التنسي: نظم الدر والعقيان، ص 140هـ/ 166.

(74) التنسي: نظم الدر، ص 140 ـ يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 1 ص 216 ـ ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص 216.

(75) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 5 Barges (L.J.J.L) histoire des Beni Zeiyan, 46.

(76) ابن مرزوق: المجموع، 5 وقد خرب معظم هذه القصور السلطان ابو العباس احمد المريني، عندما حاصر مدينة تلمسان واحتلها سنة 786 هـ ـ 1385م انظر: ابن خلدون: العبر، ص 297. ويذهب الباحث جورج مارسي الى أن هذه القصور أقل القصور الأخرى في الحجم وهي عبارة عن سرادقات تشبه سرادقات "بالرمو"

انظر: Tlemcen (ville d'arts (ville d'arts célébre) P. 82

-عطا الله ذهينة: الحياة السياسية والإدارية ضمن كتاب الجزائر في التاريخ ص 465.

(77) محمد بن عمرو الطمار: المرجع السابق، ص 129.

(78) ابن مرزوق: المسند، ص 36 ـ ربما كانت هذه الرخامة تحمل اسم العاهل المريني، بمناسبة اضافة بعض الأجزاء العمرانية لهذا القصر لكن مع الأسف، لم يبق من هذه القصور أي أثر بمدينة تلمسان.

(79) عطا الله ذهينة : المرجع السابق ، ص 465.

(80) ابن خلدون ، العبر، ج7 ص 297.

Marcais (G): Tlemcen, (ville d'arts célébre) P. 50

(81) ابن خلدون : ج7 ص 297. عبد العزيز سالم : تاريخ وحضارة الاسلام في الاندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع الاسكندرية 1985 ص 249_250.

(82) الستارة : هي عبارة عن حائط قصير، اقل من سور المدينة ويدعي ايضا بالفصيل وقد ذكر ذلك الرحالة عبد الله التجاني، عند وصفه لمدينة طرابلس بقوله: "ويحيط بها السور الأن، فصيل أخرى أقصر منه على العادة في ذلك يسمونه الستار" انظر: رحلته ص 240.

(83) العبر ج1 ص 215.

(84) العبر ج1 ص 215.

(85) عبد الحميد حاجيات : ابو حمو موسي الثاني ، ص 60، ويبدو ان هذه القصبة قد اندثرت ولم يبق من معالمها شيئا.

(86) العمري : المصدر السابق ، ق (7) ورقة 206.

(87) مسالك الابصار، ق7 ورقة 206.

(88) انظر Marcais (G): Tlemcen (ville d'arts célébre) P. 52

(89) ابن الزيات الشاذلي : التشوق في رجال التصوف ص 405_406. قدور أحمد : المدن الموحدية وعلاقاتها بالاقليم (دراسة اجتماعية اقتصادية) د. د. ع في التاريخ كلية الأداب والعلوم الانسانية الرباط 1988 ج2 ص 435_436 ابن عذاري : البيان قسم الموحدين ص 312.

(90) قدور أحمد : المرجع السابق ج 2 ص 437، حسن الوزان : المصدر السابق ج1 ص 19 ويذكر الوزان بأن دور مدينة تلمسان مثل دور فاس ولكنها أقل قيمة منها ص 19.

(91) ابن خلدون : المقدمة ص 735.

(92) Dhina (A) Royaume p178

(93) حسن الوزان : وصف افريقيا ج1ص19.

(94) ابن مرزوق : المجموع ورقة 24.

(95) قدور أحمد : المرجع السابق ج2 ص437.

(96) لوتورنو: فاس ، ص 42.

(97) قدور أحمد : المرجع السابق ج2ص 437، الحميري : الروض المعطار، ص 306.

(98) لوتورنو: فاس ، ص 42.

(99) يذكر بعض الجغرافيين أنه كان للمراحيض منظفون يعرفون بالكنافين ، وكان هؤلاء الكنافون في مدينة سجلماسة من جنسية يهودية أنظر: الاستبصار ص 202.

(100) قدور أحمد : المرجع السابق ج2 ص 451.

(101) لوتورنو: فاس ، ص 42.

(102) ابن مرزوق : المجموع ورقة 24.

(103) ابن مرزوق : المجموع ورقة 14 ـ لوتورنو: المرجع السابق ص 40.

(104) ابن مرزوق : المجموع ورقة 5.

(105) ابن مريم : البستان ص 269_270.

(106) ابن مرزوق: المجموع ورقة 24.
(107) نفسه، ورقة 24.
(108) نفسه، ورقة 22.
(109) المقدمة ص 360.
(110) ابن مرزوق: المجموع ورقة 14.
(111) ابن مرزوق: المجموع ورقة 14.
(112) نفسه، ورقة 14.
(113) نفسه، ورقة 14.
(114) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج1 ص 214، ابن خلدون: العبر ج7 ص 157.
(115) ابن خلدون: المقدمة ص 407.
(116) ابن مريم: البستان ص 269ـ270.
(117) ابن خلدون: المقدمة ص 407.
(118) قدور أحمد: المرجع السابق ج2 ص 440ـ العبدري: الرحلة ص 16.
(119) ابن خلدون: المقدمة ص 408.
(120) نفسه، ص 408.
(121) الحومات جمع حومة وهو مصطلح يطلق على الحي أو الحارة
(122) Bouali (s a) les deux grands siéges P 42 note n° 66.
(123) ابن مرزوق: المجموع ورقة 15.
(124) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 209ـ210. العمري: المصدر السابق ق7 ورقة 206.
(125) يحي بن خلدون: بغية الرواد: ج1 ص 210. ابن مرزوق: المجموع ورقة 15.
(126) ابن مرزوق: المجموع ورقة 15.
(127) ابن خلدون: العبر ج7 ص 206ـ207.
(128) محمد بن عمرو الطهار: المرجع السابق ص 324.
(129) لا يزال أهل تلمسان يعرفون باب إيلان ويطلقون هذا الاسم على حي من أحياء المدينة وقد حرف الفرنسيون هذا الاسم عندما أطلقوا على شارع اسم «مايلين» بوسط المدينة، والباب يقع غرب المسجد الجامع في اتجاه باب كشوط، أنظر: W et G marcais: les monuments arabes P. 134.
(130) محمد بن عمرو الطهار: المرجع السابق ص 324.
(131) مارمول: افريقيا ج2 ص 298.
(132) حسن الوزان: صف افريقيا ج1 ص 20.
(133) ابن مرزوق: المجموع ورقة 39ـ ولا نعرف لها مكانا في المدينة.
(134) يطلق على الشوارع والممرات أسماء عديدة منها: السكة والزنقة والزقاق والدرب والدريبة وهي أصغرها.
(135) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 14.
(136) نفسه، ورقة 13 و 18.
(137) لوتونو (ر): فاس ص 46.
(138) نفسه، ص 46.

(139) نفسه ص 47.

(140) ابن مرزوق : المجموع ورقة 5.

(141) نفسه، ورقة 14.

(142) نفسه، ورقة 14.

(143) نفسه، ورقة 14.

(144) لم نتوصل إلى تحديد موقعه، أما الشيء الذي نعرفه عنه هو أن الشيخ الصالح علي بن محمد الحمال، كان يقطنه ويستقبل الفقراء والمعوزين والضعفاء من الناس والمسافرين في بيته التي أصبحت بمثابة زاوية لاطعام الناس وإيوائهم أنظر: مرزوق: المجموع ورقة 12.

(145) يقع درب مرسى الطلبة بتلمسان العليا، ابتنى فيه ابن مرزوق الجد الأول لآل مرزوق مسكنا سكنه بعائلته وولد فيه أغلب أبنائه وحفدته، منهم محمد بن محمد بن مرزوق الذي ترعرع في الدار المعروفة بدار ابن مدور بالبيت الجوفي سنة (629هـ) أنظر المجموع: ورقة 2_12.

(146) ابن مريم : البستان ص 79.

(147) ابن مرزوق : المجموع ورقة 39.

(148) البستان: ص 269_270.

(149) ابن مرزوق : المسند ص 302.

(150) ابن مريم : بستان ص 79.

(151) لوتورنو: فاس ص 34_35.

(152) Richard lawless: Tlemcen capital du maghreb central P. 49.

(153) التنسي : نظم الدر ص - Barges:histoire de beni zeiyan P. 46 - 140 Dhina (A) Royaume pp 34 - 35.

(154) التنسي: نظم الدر ص 140 هـ/رقم 169.

(155) ابن مرزوق: المسند ص 302.

الباب الثاني

الفصل الثالث

المرافق العامة

1 ـ الأسواق
2 ـ القيصارية أو القيصرية
3 ـ الفنادق
4 ـ الحمامات
5 ـ المدارس
6 ـ المساجد
7 ـ الزوايا
8 ـ شبكة المياه
9 ـ المقابر والأضرحة
10 ـ المتنزهات
11 ـ الأرباض
12 ـ القناطر والجسور

المرافق العامة

الأســـواق:

تعتبر مدينـة تلمسان في العهـد الزيـاني، مركز أعمال ومقـر صناعـة وتجارة هام، بـالمغرب الأوسط، فقد سهـل لها موقعها القريب مـن الموانيء الساحلية الشمالية ووجودهـا في مكان تلفتي فيه، الطرق التجارية الكبيرة، أن تكون سوقا عالمية لمختلف السلع والبضائع المتباينة، القادمة من وراء البحر الأبيض المتوسط، ومن بلاد المغرب والمشرق وجنوب الصحراء.

كما ساعـدها تنظيم أسـواقها، وسـاحاتها وأزقتها، على نسـق جميل [1] بحيث كان الـدكاكين والحوانيت، التـابعة لأرباب الصنـاعة والتجـارة مرتبة تـرتيبا جيدا، على غـرار ماهـو بفاس [2]. حسب البضـائع والسلع المصنعـة. وكانـت التربيعات والـرحبات، التـي يملكها التجـار وأهل الصناعـة، موزعـة على أحياء المدينـة ودروبها وفي الأسواق العـامة المتخصصـة[3]. وتعتبر العـدة الإقتصـادية بمـدينـة تلمسـان نشيطة ومتطـورة، بفضـل المخازن والمصـانـع والأسـواق الدائمة والأسبوعية والموسمية، القائمة بالمدينة وخارجهـا، وكان أهل تلمسان يفضلون الاشتغال بالتجارة والصناعة ويرغبون فيها، ويقدمونها على غيرها من المهن، حتى الشيوخ والعلماء والفقهاء، ضربوا فيها بسهم وافر، فاشتهر الكثير منهم في هذا الميدان.

فقد كانت لهم مصانع للحياكة، ودكاكين للخياطة، وغيرها من المهن، في الدروب والأزقة وفي السوق الكبير المعروف بالقيصارية [4]، وتتركز معظم الأسواق بوسط المدينـة موزعة على السـاحات والشوارع [5]، كسـوق الخياطين والنسـاجين، والعشابين والعطـارين والصـاغة، وسـوق الخضر والفواكه والحبوب ورحبة الزرع [6].

وكانـت المحـلات التجاريـة، تؤجـر من الخواص وأصحاب العمارات والمنازل ومـن الأوقاف

ومن العمال والولاة [7]. ويتراوح ثمن إيجارها مابين ستة دنانير وستين دينارا حسب كبرها وموقعها[8].

أما سوق الحدادين وأدوات النحاس والصباغين، فتقع شرق المدينة، وقد نجد مثل هذه الحرف منتشرة في أحياء متباينة من تلمسان، مثل سويقة اسماعيل، وسوق السراجين والقبابين وسوق منشار الجلد وسوق الكتب[9].

وتوجد الأفران المتعلقة بطهي الخزف والفخار والقرميد والأجر، خارج أسوار المدينة ولا سيما في الشمال الغربي، بالقرب من باب القرمادين، وفي الجنوب الشرقي أمام باب العقبة [10].

وكانت معاصر الزيتون تتجمع حول الأبواب وخاصة في الجنوب الشرقي من المدينة، حيث يوجد وادي مشكانة، وتكثر أشجار الزيتون، وتقع الصناعات التي تحتاج إلى الماء وتدار بقوته، على ضفاف الأودية كالمطاحن، التي أقميت على ضفة وادي الصفصيف لطحن الحبوب، وهي لا تبعد عن المدينة إلا بنحو فرسخ واحد [11]، وتوجد طاحونة أخرى بالقرب من البرج، الذي سمي باسمها وهو برج الطاحونة، على بعد عدة فراسخ من مدينة تلمسان [12]، كما كان الدباغون والصباغون يلجؤون إلى ضفاف الوديان لغسل الصوف والجلود وصبغها ودباغتها.

وقد تعود سكان بادية جبل ورنيد، بجنوب تلمسان على تزويد سكان المدينة، بالحطب والفحم والعسل والحليب باستمرار [13]، ولعل أسواق الحيوانات، كانت تقع خارج أسوار المدينة وفي ضواحيها وكان للسوق حراس لحراسة الدكاكين والبضائع معا [14].

القيصارية أو القيصرية:

يعبر سوق القيصارية على حي تجاري كبير، يتكون من مجموعة من البنايات بها دكاكين، ومحلات تجارية، وورشات صناعية، ومخازن وفي بعض الأحيان مساكن فوق الحوانيت وبها فنادق يؤمها التجار الأجانب.

قام بتأسيس سوق القيصارية [15]، السلطان أبو حمو موسي الأول، فوق مساحة كبيرة، بوسط مدينة تلمسان، بالقرب من المشور، وبجوار مسجد سيدي ابراهيم المصمودي (الذي بناه أبو حمو الثاني بالقرب من السوق) وحي اليهود [16]، ويحيط بالقيصارية سور به عدة أبواب [17]

ومدراج [18] وتختلف القيصارية عن السوق العادي، بسعتها وتنظيماتها المحكمة وما تشتمل عليه من أروقه مغطاة [19]، تشبه السوق العصري الكبير، حيث يتمكن الزبائن من شراء البضائع التي يحتاجونها، مثل الأقمشة والحلي والعطور والمصنوعات الجلدية، والشمع والكتب والنعال والقناديل وغيرها. أي بعبارة أخرى يشتمل على البضائع المختلفة كالمساحات الكبيرة في الوقت الحاضر.

وتتضمن القيصارية إلى جانب الدكاكين، مخازن كبيرة تدعى الفنادق، وهي مخازن مخصصة لتجار الجملة، يخزنون فيها بضاعتهم وسلعهم، التي يقومون باستيرادها من الخارج، قبل بيعها، إلى تجار التجزئة في نفس السوق. وكانت البضاعة المحلية في الغالب تباع بالمزاد العلني، بالقرب من القيصارية أو في دروبها، وفي ساحة الفنادق يقوم بعملية البيع رجال متخصصين في البيع يعرفون بالسماسرة، وبحضور مفتش الجمارك [20]، وكان أصحاب الدكاكين والمحلات يبتاعون هذه السلع وينقلونها إلى حوانيتهم [21].

الفنادق:

تحتوي مدينة تلمسان على عدة فنادق [22]، تقع بالحي التجاري [23]، يقطنه في الغالب الأعم، التجار المسيحيون والقناصل، وخاصة منهم ممثلي الشركات التجارية الأجنبية [24]، التي تقوم بعملية التصدير والإستيراد والإشراف على التجارة وتنظيمها، وحماية أصحابها، ولعلها كانت تتمتع بحصانة دبلوماسية إن صح التعبير، تشبه في هذا الأمر المثليات والسفارات في الوقت الحاضر [25]. لأن الفندق يعد ملكا عقاريا للجالية المسيحية التي تقوم باصلاح بنايات الفنادق وتوسيعها، وبناء الكنائس وترميمها حسب رغبتها [26]، بينما نجد في بعض المعاهدات بنودا، تشير إلى أن اصلاح وتوسيع الفنادق، يقوم على عاتق دواوين الجمارك [27]، مما يدل على أن ملكية بعضها يعود إلى الدولة.

والظاهر أن مدينة تلمسان، كانت تشتمل على مجموعة من الفنادق، لأهميتها التجارية والإقتصادية وموقعها الاستراتيجي المحلي والدولي في المغرب الأوسط، وقد تركت لنا بعض النصوص اسم فندقين بمدنية تلمسان هما: فندق الشماعين [28] وفندق المجاري [29] واثنين أخرين خصصا لمقام تجار جنوة والبندقية دون أن نجد لهما إسماً [30].

تبنى الفنـادق عادة بالقرب مـن الأحياء التجاريـة والأسواق، وفي بعض الأحيان تنشـأ خارج الأحياء السكنية، وبالقرب من أسوار المدينـة، وفي الضواحي والأرباض التلمسانية [31]، ويتألف الفنـدق من طـابقين أو ثـلاثـة طوابـق [32]، يخصـص فيـه الدور الأرضي للمخـازن والـدكـاكين والاسطبلات [33] والحمامات [34]، والأفران وقاعة للمداولة والأحكام [35]، تفتح على أفنية واسعة، وتحت أشجـارهـا الميـاه الجاريـة [36]، وتـوجـد في بعـض العمارات الحانــات الخاصـة بـالتجـار المسيحيين [37]، وتحيط بالفندق مسـاحات شاسعة داخلية، تستعمل لتفريغ البضائع أو حملها [38]، حتى يسهـل على صاحـب الضرائب والمكوس المراقبة بعين المكـان، حرصـا منه على عـدم اخفاء السلع والتهرب من الضرائب.

كان لكل طائفة تجاريـة مسيحية مترجم مقابل مبلغ من المال، وهناك حقـوق أخرى مثل حق الوزن والتخزيـن والتفريغ، الذي يقـوم به الحمالون، والظاهـر أن أغلبهم كانوا مسلمين مـن أهل المدينة، وربما يوجد مسيحيون من بينهم [39]. وكان الزيانيون يكثـرون من مكاتب الجمارك، حتى يتحكموا في الوارد والصادر بفعالية وصرامة، وبالتالي يتحكمون في ظاهرة التهريب والاحتيال [40]، باستعمال الرجال والنساء في هذا المجال.

فقد كـانت مـدينة تلمســان تمثل خـاصية مميـزة في هـذا الميــدان، حيـث كانــت لهـا جمارك مركزيـة، وأخرى فرعية بـوهران وهنين، وغيرها من الموانىء التـابعة لنفوذ بني زيـان، وفي الغالب كان التجـار المسيحيون، الذيـن يمرون على مكتب الجمارك بـالمدن السـاحليـة للدولة، ويـدفعون مستحقات الضرائب، يمكنهـم من الإعفاء عند دخـولهم إلى المدن الداخلية بمجرد استظهـار وصل الدفـع [41].

أما الطابقان الأول والثاني، فقد خصصا لنوم وراحة التجـار. يُحيط بالفندق سور خارجي عالي سميك الجدران، يفصله عن البناءات الأخرى، ولـه باب تغلق ليلا على التجار [42]. وعلى الرغم من عدم وجود معاهدات تنص على ذلك، فإن الروح العدائية ضد الأوروبيين لم تكن بالحدة، التي يمكـن أن تقلـق حـراس الأمـن، وربما يعود هـذا إلى احتكـاك التلمســانيين بـالأوروبيين بصفـة مستمرة، لقرب بلادهم من أوروبا [43].

وللفندق بـوابون يراقبـون رواده، يختارون عادة مـن البلاد المشهـود لهم بالأمانـة والصدق [44]، ويحق لهم أن يمنعوا جميع الأشخاص غير المرغوب فيهم، سواء كانوا من أهل المدينة أم أجانب.

من دخول الفندق، مالم يكن لهم ترخيص من القنصل [45]، أو غير مصحوبين بأحد المترجمين أو موظف من موظفي الجمارك، وحتى رجال الشرطة لا يسمح لهم بدخول الفنادق، فإذا كانوا يريدون أحد التجار المقيمين فيها، فعليهم الاتصال أولا ومباشرة بالقنصل، الذي يشرف على التاجر ويسوي الأمر معه [46]، وعلى الرغم من تجاور فنادق الطوائف المسيحية المختلفة، إلا أنه كان محرما على تجار كل طائفة، من الانتقال إلى فنادق الطوائف الأخرى [47].

يضع التجار الأوروبيون تجارتهم في دكاكين الفندق، ثم يعرضونها على الزبائن، ويتم البيع فيه عن طريق الجملة أو بالتجزئة، وتوجد مقبرة خاصة بالجالية المسيحية قرب الفندق، وكنيسة يؤدون فيها شعائرهم وطقوسهم الدينية بحرية، لدرجة أن أصواتهم كانت تسمع من الخارج [48]، وكانت هذه الكنائس بسيطة في بنائها عبارة عن غرفة كبيرة، لا يسمح بارتفاعها وعلوها كثيرا [49]، وقد عرفت كنائس الجنويين والبنادقة باسم القديسة مريم (sainte marie)، ولم تكن للجمهوريات الايطالية في تلمسان، كنائس أخرى خارج الفنادق، ولعل رجال الدين الذين يقومون بشؤون هذه الكنائس ويديرونها، كانوا يعينون من قبل أساقفة مدنهم الايطالية [50]، ويوجد بالفنادق أجنحة خاصة يسكنها القناصل، كما توجد بعض الغرف مخصصة ومهيئة لسجن التجار المخالفين، الذين يصدر ضدهم القنصل أحكاما، واستخدمت بعض غرف الفندق برصات أو أندية للتجار [51].

وكان للبنادقة عكس الجاليات الأخرى، الحق في الذهاب إلى الحمامات العمومية بالمدينة، كلما أرادوا ذلك تنفيذا للمعاهدة المبرمة مع الدولة الزيانية [52]، ويشرف على تسيير الفندق وتنظيم حركة التجارة به موظف يعرف بالفندقي، وهو مندوب القنصل [53]، وكان التجار الأوربيون لا يرغبون في الذهاب بتجارتهم إلى جوف الصحراء، ولا يتوغلون فيها وإنما كانوا ينتظرون بفنادقهم، قدوم التجار المسلمين واليهود بالذهب والعاج، وريش النعام وهي البضائع التي تشتهر بها بلاد السودان [54].

أما القناصل فهم تجار أيضا، تعينهم حكوماتهم، طبقا للإتفاقية المبرمة مع بني زيان، وكانت مدة خدمته قصيرة لا تتعدى ثلاث سنوات على الأكثر، ويسمح له أن يصطحب معه كاهنا وحصانين وأربعة خدم، يعرف أحدهم الكتابة، من حقه أن يأخذ معه مايرغب فيه من السلع

والبضائع، للا تجار بها، ويبلـغ راتبه ثلثي دخل الفنـدق، الذي يشمل على أجور غـرف الفندق والدكاكين، التي تؤجر بمعيته.

ويبدو أنه كان لكل دولـة أكثر من قنصل في الدولة الزيانيـة، ولاسيما في الثغور والمدن البحرية مثل وهران وهنين وغيرهما، واذا كان القنصل العام يوجد في مدينة ما، فإن له نوابا في مدن أخرى، حيث يوجد فنـادق لهم ينوبون عنه، في المسـائل التجارية. ويقـومون بـالعمل على توفير الـراحة لجاليـاتهم، والعدل بينهـم وكان يسمـح للقنصل بمقـابلة السلطـان أو الأمير [55] في كل شهـر، وبإمكانه أيضا مقابلة حاكم المدينة أو الإقليم الذي يعيش فيه [56].

ولا يوجد قنـاصل للـدولـة الزيـانية، في المدن والموانيء المسيحيـة، وإن وجـود بعض التجـار التلمسانيين في أوروبا، كانت عبارة عن مبادرات فردية قام بها بعض التجار المسلمين، لأن الدولة الزيانيـة كغيرها من الدول الإسـلامية، لا تشجع التجار المسلمين إلى الـذهاب إلى دار الكفر، ولا تسمح ببيع المواد الاستراتيجيـة، التي يمكن أن يستعملها المسيحيـون ضدهـم، وكان في الغـالب الوازع الروحي يقف أمام المسلمين، ويمنعهم من الذهاب إلى النصاري، على الرغم من أن بعض التلمسانيين، كـانت لهم أسهـم في الأسطول التجـاري، الذي يجوب شـواطىء البحـر المتوسـط الشمالية والجنـوبية، نذكـر منهم على سبيل المثـال لا الحصر الوزيـر هلال القطلاني، الـذي كان يملك نصف سفينة اسبانية [57]، وهذا يـدل على أن مدينة تلمسـان، لم تكن منغلقـة على نفسها حضاريا واقتصاديا، بل كانت متفتحة على المغـرب والمشرق والأندلس وأوروبا، وأهم زبائنها من الإسبان والإيطاليين والفرنسيين [58].

الحـمـامـات:

تتضمن أحياء مدينة تلمسان، العديد من الحمامات الأنيقة وتنتشر في دروبها المختلفة، والمعنى اللغوي للفظة الحمام هو الماء السخن [59]، والإغتسال في الحمامات ظاهرة قديمة، عرفته الشعوب القديمة كالمصريين والكنعانيين واليونانيين الـرمانيين، وقد وصلت هذه العادة إلى سلوك المسلمين مبكرا، لأن الإسـلام يحث على الاغتسال والطهـارة، وأصبحت هـذه المؤسسة الاجتماعيـة مرتبطـة ارتباطا عضويا بالنظافة وبفريضة الوضوء، ولذا اعتبرها الفقهاء من الأماكن الدينية، لأن الطهارة لا يستغنى عنها المسلمين ولا يمكنهم أداء فريضتهم إلا بها [60]. فكان المسلمون يترددون باستمرار

على الحمامات لتطهير أجسامهم وتنظيفها، وكانت الحمامات في أغلب الأحيان تلحق بالبناءات الدينية والإجتماعية بما في ذلك بيوت الله [61].

يختلف اليها المسلمون في المدن، ويأتون من القرى والأرياف ويغشونها في كل حين، ولا سيما أثناء زيارتهم للمدينة، لقضاء بعض حوائجهم، فيدخلون الحمامات للاغتسال بالماء الحار، والإستمتاع به وللنوم ليلا أيضا. لأن الحمامات، تشتمل على أماكن للنوم. يقصدها الغرباء عن المدينة. وقد تركت لنا بعض المصادر أسماء لبعض الحمامات المشهورة بمدينة تلمسان نذكر منها:

حمام العالية: يقع بالقرب من باب الجديد، ويصفه العبدري بقوله: «وبه حمامات نظيفة ومن أحسنها وأنظفها حمام العالية، وهو مشهور وقل أن يرى له نظير» [62].

حمام الصباغين: يقع هذا الحمام في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، ينفتح بابه على درب صغير، ويربط بين نهج خلدون ونهج معسكر، وكان العالم الشيخ الصالح، أحمد بن الحسن الغماري كثير التردد على هذا الحمام، ويفضله على غيره، حتى أصبح أهل تلمسان يسمون هذا الحمام باسمه [63].

حمام الطبول: ذكر اسم هذا الحمام، في وثيقة الأوقات التي أصدرها أبو حمو موسى الثاني، والخاصة بالمدرسة اليعقوبية، التي أنشأها سنة 765 هـ/ 1465م [64]. والوثيقة تنص على أن السلطان قد حبس الزاوية المقامة على ضريح والده أبي يعقوب، والطاحونة الملحقة بالزاوية وثلاثين دكانا، في درب الصاغة القديمة والكوشة (الفرن)، التي توجد بدرب منشر الجلد، وحمام الطبول على المدرسة المذكورة [65].

وكذلك يوجد حمام آخر بالقرب من باب العقبة بشرق المدينة [66]. حمام سيدي بومدين بالعباد: لا يزال هذا الحمام يقوم بوظيفته إلى اليوم، له سقيفة تتكون من زواية قائمة وقاعة مستطيلة الشكل، يبلغ طولها ثمانية أمتار، وعرضها ستة أمتار، وثلاثة غرف متوازية، مسقفة بسقف أسطواني الشكل [67].

وكان لكل حي حمامه الخاص به، وتوجد حمامات أخرى في منازل، الأغنياء وفي قصور السلاطين والأمراء والوزراء، وغيرهم من رجال الدولة، المقيمين بتلمسان والمنصورة أثناء الاحتلال

المريني ، وفي الفنادق والمدارس أيضا ، وقد وصفها العبدري كما أشرنا بكثرة نظافتها ورونقها [68]، بينما يرى حسن الوزان في القرن الخامس عشر الميلادي ، بأن المياه في حمامات مدينة تلمسان ناقصة وقليلة ، إذا ماقورنت بحمامات مدينة فاس [69].

المدارس:

عمل السلاطين الزيانيون على تشييد المؤسسات التربوية والتعليمية ، من كتاب وزوايا ومدارس عليا ، على نمط المدارس النظامية بالمشرق [70]. والمساجد يتعلم فيها طلبة العلم والمعرفة ، مختلف العلوم النقلية والعقلية ، ويخرج منها ، الاطارات التي تدعم الجهاز السياسي ولاداري والمالي والقضائي ، ومختلف مصالح الدولة ومؤسساتها ، والمنظومة التربوية والجيش.

وتبنى المدرسة عادة خارج المسجد ، والمعنى الاصطلاحي لهذه المؤسسة التعليمية ، يختلف عن مدلول الأماكن التعليمية والدينية السابقة للمدراس ، كالمساجد والكتاب والرباط ، وهو مفهوم رسخته تقاليد نظام المدرسة الشرقية ، التي ظهرت في منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي في خراسان [71]، فهي عبارة عن بناية مستقلة على أية بناية عمومية ، كالمسجد والقصر وغيرها .

وقد تأخر ظهورها في بلاد المغرب ، إلى النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ، بينما لم تظهر في تلمسان إلا في مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي ، ووظيفتها هي استقبال الطلبة لمزاولة تعليمهم [72].

يلحق بالمدرسة جناح خاص ، لإيواء الطلبة الغرباء والفقراء والعابري السبيل منهم [73]، ومكتبة (خزانة) تتضمن كتباً محبسة لفائدة الأساتذة والطلبة ، وتحبس من أجلها عقارات عمرانية وأرضية ، للإنفاق عليها وعلى الطلبة المنتمين اليها ، والأساتذة الذين يدرسون بها ، والطاقم الاداري وعمال النظافة ، والصيانة والترميم [74].

فقد كانت المدرسة تعتمد في تمويلها على الاحباس بالدرجة الأولي [75]، ثم على الاعانات التي تأتي من المحسنين التجار ، والعلماء وميسوري الحال ومن السلطان والأمراء ، وقد عرفت مدينة تلمسان كغيرها من الحواضر المغربية الكبري ست مدراس ، وزعت على أحياء مختلفة من المدينة .

مدرسة ابنا الإمام: أمر ببناء هذه المدرسة السلطـان أبو حمو موسى الأول. وعين على رأس هيئة التدريـس بها ابني الإمام أبـو زيد عبد الـرحمن (تـ 743 هـ/ 1342) وأخوه أبو عيسـى (تـ 749 ـ 1348) وكلفهما بادارة التعليـم والتدريـس بها، فحملت المدرسـة اسمهما [76]، ولم يبق مـن هذه المدرسة الا المسجد الصغير بمنارته، الذي أسس بجانبهـا ولا يزال قائما إلى اليوم، يعرف عند أهل تلمسان بـاسم «جـامع سيـدي أولاد ليمام»، ويقع في الناحيـة الغربيـة من المدينـة، في اتجاه باب كشوط المعروفة اليوم بباب سيدي بوجمعة [77].

المدرسة التاشفينية: شيـد هذه المدرسـة السلطان الطمـوح، أبـو تاشفين بـن أبي حمو موسى الأول، بجانب المسجد الجامع الأعظم، تكريما للفقيه أبي مـوسى عمران المشذالي، وسخر لبنائها فنانين ومهنـدسين من ذوي الكفاءة والمهارة العـالية، في الزخـرفة والتزيين والبناء، فجـاءت هذه المدرسة نموذجا فريدا للزخارف، التي احتوتها قصور ومدراس تلمسان في ذلك العهد، وتحفة فنية عمرانية رائعة، وتدل على ولع هذا السلطان بـالمعران والتفنن فيه، فجعلها قصرا من قصور الملوك تضم عدة بنايات ورواقات [78].

احتفل السلطـان أبو تـاشفين بتدشين هــذه المـدرســة احتفـالا كبيــرا، حضرتـه مشيخـة تلمســان وأدباؤها، وأهمهـم أبو موسى عمران المشذالي الزواوي أعرف أهل زمـانه بمذهب الإمام مالك [79]. وقد وصف أحد أدباء الأندلس، ما رآه مكتوبا على دائرة مجرى الماء بهذه المدرسة قائلا: (الكامل)

أنظــر بعينيـك بـهـجتـي وسنـائـي	وبـديـع اتـقـانـي وحـسـن بنـائـي
وبـديـع شكـلـي واعتبـر فيما تـرى	مـن نشـأتـي بـل مـن تدفـق مائـي
جـسـم لطـيـف ذائــب سـيلانــه	صـاف كذوب الفضة البيـضـاء [80]

ظلت هذه المدرسة قائمة شامخة، تزاول وظيفتها نحو خمسة قرون من الزمن، إلى عهد الاحتلال الفرنسي للجـزائر، حيث قـامت الادارة الفـرنسية بتهديـم هذا المعلـم المعماري الاسلامـي الرائع، بحجة تـوسيع شبكة الطـرق داخل المدينة، فكـانت هذه التهيئـة العمرانية الجديـدة على حساب

معلم أثري هام، يذكرنا بحضارة الأجداد فبنت في مكانها دار البلدية، وشيدت ساحة عمومية إلى جانبها سنة 1876م. ووزعت بعض القطع الأثرية والتحف الفنية، التي أرادت أن تحتفظ بها، لهذا المدرسة على المتحف البلدي لمدينة تلمسان، ومتحف كولوني باريس [81].

مدرسة أبي مدين بالعباد: قام بتشييدها السلطان أبو الحسن المريني عندما استولى على مدينة تلمسان، والمغرب الأوسط بقرية العباد سنة 747هـ/ 1447م. فوق ربوة مطلة على تلمسان إلى جانب روضة أبي مدين الغوث (تـ 594 هـ/ 1197م [82].

وقد اشتهرت هذه المدرسة بفنها المعماري، وزخرفتها المميزة والمتضمنة لأقواس منكسرة، مبنية بالآجر المطلي باللون الأخضر لها فناء فسيح بـه صهريج للماء، مزين بالزخارف العديدة ويوجد بالقرب منه صحن دائري من الرخام، مخصص للشرب وللوضوء. شيد أمام قاعة كبيرة للمحاضرات و إلقاء الدروس، تتسع لحلقة كبيرة، من الطلاب والمدرسين، تقدم فيها دروس عالية ومعمقة[83].

تحتوي هذه القاعة، على باب يشبه باب مدخل المدرسة الكبير، ويتوسط القاعة محراب يتكون من قوس دائري مكتوب عليه، بعض الأسماء بخط كوفي جميل، وتشتمل القاعة أيضا على مجموعة من الأقواس، المنقوش بالجص تشبه رواق المسجد المجاور لها، ويوجد فوق الأقواس إفريز منقوش، على شكل شرائح وفي أسفل القاعة تظهر نقوش بديعة وجميلة [84].

أما سقف المدرسة فيتكون من عدة سوالف متتالية تلتقي عند نجمة أفقية [85]، وتتألف المدرسة من طابقين:

الطابق السفلي يتألف من عشرة غرف، والطابق العلوي يحتوي على ثماني حجرات، تتسع كل غرفة لطالبين، وهذا يدل على أن الغرف هذه كانت مخصصة لنوم الطلبة الغرباء والفقراء، وهو ما يعرف اليوم بالنظام الداخلي [86].

وتوجد غرف أخرى عند مدخل المدرسة، على يمين قاعة المحاضرات وعلى شمالها. ولعلها كانت تستخدم كمستودعات لتخزين المواد الغذائية، وأدوات التنظيف والترميم والفرش وأدوات الطهي. وتحتوي أيضا المدرسة على مرافق المياه، مثل المراحيض والحمامات بالطابق السفلي، ونافذتين مستطيلتي الشكل، وبأعلى كل واحدة منهما قوس، تحته سقيفه مغطاة بالقرميد الأخضر [87].

وأما باب المدرسة فهو ضخم دقيق الصناعة، يتوسط باب أخر صغير الحجم، ويوجد فوق الباب الكبير أشكال هندسية وزخرفة زادتها جمالا ورونقا، ويزين الباب فصائل ذهبية ذات مسامير كبيرة، ولاتزال المدرسة قائمة بالعباد وتعد من أجمل مابني من المدراس بتلمسان خاصة، وببلاد المغرب على وجه العموم، أية من الثرات الحضاري الإسلامي في هذه المنطقة [88].

مدرسة سيدي الحلوي: يعزى بناء هذه المدرسة إلى السلطان أبي عنان المريني، وقت استيلائه على تلمسان، والمغرب الأوسط سنة 754هـ/ 1454م. بالقرب من ضريح الوالي الصالح أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي، الملقب بالحلوي (تـ في أوائل القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي) الذي يقع شمال المدينة، حيث يوجد المسجد، ولكن مدرسة الحلوي، لم تكن لها شهرة كبيرة مقارنة بالمدراس الأخرى، التي عاصرتها بتلمسان [89].

المدرسة اليعقوبية: قام بتأسيسها السلطان أبو حمو موسى الثاني تخليدا لوالده أبي يعقوب - حاكم اقليم الجزائر - الذي أدركته الوفاة سنة 763هـ/ 1362م. وكان أبو حمو الثاني، قد أمر بدفن أبيه برياض يقع بالقرب من باب إيلان، ونقل رفاة عميه، أبا سعيد وأبا ثابت من مدفنهما القديم بالعباد، إلى جوار ضريح والده [90]، ثم شرع في بناء مدرسة بإزاء أضرحتهم، وأوكل للعا لم الشيخ الشريف الحسني أبي عبد الله (ت 771 هـ/ 1370م) بالتدريس فيها، وهي المدرسة التي أشاد المؤرخون برونقها وجمالها وحسن عمارتها.

وقد استغرق وقت بنائها أكثر من سنة ونصف، بحيث انتهى من انجازها سنة 765 هـ/ 1364م[91]. وصفها صاحب زهر البستان وصفا دقيقا، يدل على أهميتها وعمرانها وسعة فنائها وزخرفتها بقوله: "وأنشأ مدرسة القرآن والعلوم، وانفق فيها من الحلال المعلوم، فأقيمت مدرسة مليحة البناء، واسعة الفناء بنيت بضروب من الصناعات ووضعت في أبدع الموضوعات، سمكها بالصبغة مرقوم، وبساط أرضها بالزليج مرسوم، غرس بازائها بستنين يكتنفها، وصنع فيها صهريجا مستطيلا وعلى ظرفيه من الرخام. خصتان يطردان مسيلا، فيالها من بنية ما أبهجها "[92].

وجعل أبو حمو الثاني هذه المدرسة ملحقة بزاوية ومقبرة خصصها لرفاة ملوك تلمسان وأمرائها من بني زيان [93]، وكان الضريح يمتاز بزخارف جميلة ورسومات ملونة بديعة [94]، والمدرسة اندثرت ولم يبق منها إلا ذلك الوصف الجميل في النصوص التاريخية [95].

أما المدرسة السادسة فهي التي بناها السلطان، أبو العباس أحمد المعتصم الملقب بالعاقل، بزاوية الشيخ الصالح الحسن بن مخلوف أبركان [96].

المساجد:

كانت المساجد قبل تأسيس المدارس والزوايا، هي المؤسسة التي تستقبل الطلبة والمصلين، في حلقات دراسية داخل المسجد، أو في بعض الغرف الملحقة، أما الكتاب فهو مستقل عن المسجد في كثير من الأحيان، خصص له بناية أخرى أو غرف على شكل دكاكين، يكثر بها المعلمون لتدريس الأطفال بها، أو في مصطبات ومدرجات ذات هندسة خاصة [97].

والمسجد عبارة عن جامعة أو معهد، بالإضافة إلى كونه مقر للعبادة تلقى فيه الدروس وتعقد فيه حلقات البحث، وتنظم فيه المناظرات العلمية، والحوارات الفقهية، والمطارحات الأدبية واللغوية ودروس الوعظ والارشاد والإفتاء، ويجتمع فيه أصحاب المصالح العامة والخاصة، وكانت تقرأ فيه البلاغات الرسمية للدولة، ويجتمع فيه الآباء لتدبير زواج بناتهم وأبنائهم، وتمضى فيه العقود التجارية، وتؤخد اليه الجنازة، قبل الدفن للصلاة عليها [98].

وإذا كانت النصوص والوثائق التاريخية، قد أحجمت عن إعطائنا جميع أسماء المساجد، والتي بنيت في مدينة تلمسان وشيدت بضواحيها، ولم تحدد لنا أماكنها، تحديدا دقيقا، فإن بعض الاحصائيات تكشف لنا عن عددها الذي بلغ ستين مسجد [99]، مابين كبير ومتوسط الحجم وصغير، والظاهر أن هذا الرقم لا يعبر عن الحقيقة، لأن مدينة تلمسان في العهد الزياني، بلغ عدد سكانها نحو مائة وخمسة وعشرون الف نسمة [100].

انتشرت المساجد عبر أحياء المدينة وأرباضها وضواحيها، منذ أن دخلها الفاتحون في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، السابع الميلادي، ويبدو أن أقدم مسجد فيها هو المسجد الذي أعتنى به الأدارسة.

المسجد الجامع بأكادير: يعود تاريخ تأسيسه، إلى ماقبل استيلاء الادارسة على مدينة تلمسان بقيادة ادريس الأكبر سنة 174هـ/790م. الذين أعادوا بناءه ورمموه أكثر من مرة، في عهد كل من

ادريس الاول وابنه ادريس الثاني، وزينوه ووسعوه، وأضافوا له المنبر والمحراب [101]، وكذلك قام السلطان يغمراسن بترميمه و بناء مئذنته [102] كما أسلفنا، ولا تزال بعض آثاره قائمة، في مدينة تلمسان، وأعمال الباحثين والأثريين جارية للكشف عن الباقي من آثاره، المدفونة في طبقات التراب المتراكمة في مكانه [103].

المسجد الأعظم بتاكرارت: شيد هذا المسجد يوسف بن تاشفين المرابطي، اثناء بنائه لمدينة تاكرارت سنة 473هـ 1080م، وأعاد بناءه - فيما يبدو - ابنه على بن يوسف سنة 530/ 1135، وأدخل عليه المهندسون والمعماريون مسحة فنية أندلسية، حتى صار تحفة معمارية رائعة، ولا شك أن الذين أشرفوا على بنائه، قد انتقاهم على بن يوسف من بلاد الأندلس [104]، وتدل على إعادة بنائه في عهد هذا الأخير الكتابة الموجودة على المحراب:

«بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم، هذا مما أمر بعمله الأمير الأجل. . . أيده الله وأعز نصره وأدام دولته، وكان إتمامه على يد الفقيه الأجل، القاضي الأوصل أبي الحسن على بن عبد الرحمان بن علي أدام الله عزهم، فتح في شهر جمادي الأخيرة عام ثلاثين وخمسمائة» [105].

أما القسم الثالث، الذي أضيف إلى المسجد الأعظم، فقد كان في عهد يغمراسن حيث أضاف له الجزء الشمالي من بيت الصلاة، والقبة والصحن والمئذنة [106]، المتأثرة بالعمارة الأندلسية وزخرفها، بحيث تعلو السواري تيجان تشبه تيجان مسجد قرطبة [107].

وتتركز الأقواس، على دعائم وسواري مختلفة الأشكال، وللمحراب مشكاة سداسية الأضلاع، وقبتان تنتصب إحداهما أمام المحراب، والثانية على البلاطة الرابعة، لـلأسكوب الرئيسي [108]، وقد صنعت الأولى في عهد المرابطين، بينما شيدت الثانية في عهد بني زيان [109].

وسقف المسجد مصنوع من الخشب، ومزين بحاملات تشبه متوازي السطوح، ومزخرفة بغصون ملتوية، وأوراق وفواكه الصنوبر [110].

جامع أبي الحسن: يقع مسجد أبي الحسن بالقرب من المسجد الأعظم، قام بتأسيسه السلطان الزياني أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 696هـ/ 1296م. كما تبين تلك الكتابة التي توجد على يمين المحراب وعلى يساره: "بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

ليما، بنى هذا المسجد، الأمير أبو عامر ابراهيم بن السلطان أبي يحي يغمراسن بن زيان، في سنة ست وتسعين وستمائة من بعد وفاته رحمه الله " [111].

ويحمل المجسد أحد مشاهير علماء تلمسان، وهو أبو الحسن بن يخلف التنسي، ويعد المسجد صغير الحجم، إذا قورن ببعض المساجد التلمسانية الأخرى، يتميز بالسواري المنحوتة من الرخام المستخرج من منجم عين تاقيات، القريبة من مدينة تلمسان، تعلوها تيجان جميلة الشكل والمنظر، ويعتبر المحراب من أجمل المحارب في العالم الإسلامي [112]، بحيث يتشكل من مشكاة سداسية الأضلاع مكللة بقبيبة مزينة بالمقرنصات، وهو مستلهم من الهندسة المعمارية والفن والزخرفة الغرناطية [113].

ويشتهر أيضا بزخرفة الجدران والسقف الخشبي، وقد أعجب به كل من الأخوين المستشرقين «جورج» و «وليام» مارسي فوصفوه بالابتكار والإبداع [114].

مسجد أولاد الإمام: أنشأه السلطان أبو حمو موسى الأول سنة 710 / 1310 . ليكون ملحقا بالمدرسة القديمة، التي بناها لأبني الامام وكانا هذان العالمان قد قدما من مدينة برشك [115].

لم يبق من هذا المسجد إلا القبيبة، المزينة بالقرنصات التي تكلل مشكاة المحراب ومئذنتها الجميلة، كما فقد معظم زخارفه وزينته، ويقع بالقرب من مسجدي أبي الحسن وابراهيم المصمودي وتوجد بعض القطع الأثرية منه في المتحف البلدي بتلمسان [116].

مسجد ابراهيم المصمودي: قام بتأسيسه أبو حمو موسى الثاني، إلى جانب القبة والزاوية والمدرسة، وهي المباني التي بناها السلطان تكريما لوالده أبي يعقوب، يحتوي المسجد على مئذنة مربعة الشكل، وقبة مزينة بأخاديد تشبه قبة حمام الصباغين بتلمسان، ولم يبق من مجموع هذه البنايات إلا المسجد والقبة [117].

مسجد أبي مدين بالعباد: أمر ببنائه السلطان أبو الحسن المريني سنة 739 هـ / 1339م، كما توضح ذلك الكتابة المرسومة على اللوحة الأولي بخط جميل جاء فيها: "الحمد لله وحده، أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان، عبد الله علي ابن مولانا السلطان أبي سعيد عثمان، ابن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، أيده الله ونصره عام تسعة وثلاثين وسبعمائة نفعهم الله به " [118].

ولكن المسجد ارتبط اسمه باسم العالم الصوفي أبي مدين الغوث، ويمتيز بزخرفة جدرانه المغطاة بالجص المنحوت على شكل بنايات، وأشكال هندسية تتداخل مع الكتابات المختلفة، ومدخله الأنيق وببابه البرنزي، وسقفه المزين بالقبة مزخرفة بالقرنصات، تعد من أجمل قبات العالم الاسلامي، وبمحراب يشبه محراب مسجد أبي الحسن، ويتميز أيضا بمشكاته المكللة بقبيبة مزينة بالقرنصات، والمسجد لا يزال قائما يتميز بهندسة معمارية رائعة ومفعمة بالفن الأندلسي (119).

جامع سيدي الحلوي: أمر بتشييده السلطان المريني أبو عنان بن أبي الحسن سنة 754 هـ/ 1353 م، بعد استيلائه على مدينة تلمسان والمغرب الأوسط، والإطاحة بعرش بني زيان، يشبه مسجد سيدي الحلوي، إلي حد كبير مسجد أبي مدين في هندسته وزخارفه، له بيت للصلاة والمحراب وصحن مربع ومئذنة مبنية، في الركن الشمالي الغربي للصحن، غير أن هذا المسجد يختلف عن مسجد أبي مدين، في كون أقواصه ترتكز على سواري، بينما الثاني يقوم على دعائم. وسقف الأول من الخشب، بينما سقف الثاني من الجص، والدليل على أن أبا عنان هو الذي أمر ببنائه، ما جاء مكتوبا في باب المسجد: " الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك، مولانا السلطان أبي عنان، بن مولانا يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، أيد الله نصره عام أربع وخمسين وسبعمائة» (120).

والظاهر أن السواري والتيجان، التي زين بها المسجد من الداخل، جلبت من المنصورة لأن سارية من السواري، تتضمن ساعة شمسية موضوعة في مكان لاتصل اليه الشمس من جهة، ولأن تجانه تشبه تلك التي وجدت بمدينة المنصورة (121).

هذه نظرة بسيطة على أهم مساجد مدينة تلمسان وجوامعها، على سبيل المثال لا الحصر، وهي كثيرة زادت عن ستين مسجدا كما ذكرنا. لعبت أدوارا مختلفة دينية واجتماعية وثقافية وسياسية في العهد الزياني (122).

الزوايا:

تطلق الزاوية على البناية ذات الطابع الديني والثقافي، تقام فيها الصلوات الخمس، فضلا عن الدروس التي كانت تلقى على الطلاب والمريدين. وقد عبر عنها ابن مرزوق بقوله: «إن الزوايا

عندنا في المغرب تأوي المتجولين، ودار مجانية تطعم المسافرين (123). هي مدرسة يقصدها المريدون إلى الشيخ.

وقد عثرنا في النصوص على بعض أسماء زوايا مدينة تلمسان، غير أنها لا تعبر عنها جميعا، لا سيما بعد انتشار التصوف في المدينة، وكثرة رجاله، وبعد أن صارت الزاوية تنافس المدرسة والمسجد في التعليم نذكر منها:

- زاوية أبي يعقوب، التي أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني على ضريح والده (124).
- زاوية سيدي الحلوي، التي أنشأها أبو عنان بشمال المدينة.
- زاوية أبي زيد.

زاوية سيدي أبي مدين بالعباد(125).

- زاوية السنوسي (126).

زاوية أبي عبد الله، أحد كبار الأعلام المشاهير، سكن موضعا واتخده خلوة، وألزم كل من دخل زاويته أن يكون سلوكه وفق السنة والسلف الصالح، وفرض عليهم سلوكا معينا في المأكل والملبس (127).

- زاوية ابن البناء بتلمسان (128).

شبكة المياه بتلمسان:

ساعد تزويد أهل تلمسان بالمياه، انحدار الأنهار من أعالي الجبال، وكثرة الينابيع والعيون، التي تقع خارج أسوار المدينة من جهة، وبناء شبكة محكمة للقنوات داخل المدينة وخارجها، وكانت هذه القنوات تبنى من الطوب، مغطاة تحت الأرض، ولاسيما الجزء الذي يكون خارج المدينة (129). وهو الأنبوب الرئيسي الذي يصب في الأحواض، التي تستعمل في سقي البساتين، وفي الصهاريج التي تزود سكان المدينة (130)، عن طريق قنوات تصل الدور والمنازل والقصور، والحمامات والفنادق والمساجد والمدارس والزوايا والساحات العامة والأسواق، وفي هذا الصدد يقول صاحب البغية: "وتنصب اليها من عل، أنهار من ماء غير أسن، تتجاذبه أيدي المذانب

الأسراب المكفورة خلالها، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات، فالقصور وعلية الدور والحمامات، فيفهم الصهريج ويفهق الحياض، ويسقى ربعه خارجها مفارس الشجر منابت الحب» [131].

ويدعم الونشريسي وصف شبكة المياه بتلمسان بقوله: "وهو بلد كبير (تلمسان) به حمامات ومدراس يجري بها الماء.

كلها يدخل بخارجها من الجهة الفوقية منها، ويمر بقنوات محكمة البناء، و يشق في داخل بعض الدور، ويمر بازاء بعضها إلى أن يخرج من الجهة السفلية" [132].

كما كانت توجد عيون وسقايات في أزقة المدينة وفي دروبها [133]. وخارج أسوارها نذكر منها:

عين وانزونة: التي تقع خارج باب الجياد من الجهة الجنوبية [134].

عين أم يحي [135].

عين السراق:

عين الكسور: بالمنية خارج باب القرمادين، في الجهة الشمالية الغربية لمدينة تلمسان [136].

وقد جرت العادة أن يحفر أهل تلمسان، في صحون منازلهم وفي حدائقهم، بحثا عن المياه، حتى صار لكل منزل بئر تقريبا بمدينة تلمسان [137]، وكانت هناك بعض المنازل لا تصلها المياه، عبر القنوات ولا تتوفر على الآبار، فكان السقاة يحملون لها الماء فوق ظهورهم أو على دوابهم، مقابل أجر معلوم، أما الفقراء فكانوا يتولون ذلك بأنفسهم.

وحرص سلاطين تلمسان وحكامها، على إخفاء الينابيع والقنوات التي تزود مدينتهم بالماء، ودفنها تحت الأرض أو تغطيتها، والحفاظ على سرية مكانها، حتى لا يتفطن لها الغزاة المحاصرون للمدينة.

وكان من الأسباب الرئيسية التي جعلت أهل تلمسان، يستسلمون لحصار السلطان أبي الحسن المريني سنة 737 هـ/ 1337م، بعد صمود ومقاومة شديدة دامت أكثر من ثلاثين شهرا، هو أكتشاف العدو لمصدر المياه، الذي يزود السكان، فقطعه أبو الحسن عليهم وحوله إلى جهة أخرى، فسقطت المدينة في يده [138].

وعندما استقر بها أبو الحسن أعاد لها الماء، وعمـل على جلب مصادر أخرى، فأوصل المياه إلى أحياء لم تكن فيهـا القنوات والصهاريج مـن قبل، كسويقة اسماعيـل، ودرب منشر الجلد (139)، كما كانت مـدينة تلمسان تزود مـن عين أخرى تعرف بـ " الفـوارة " عبر قنوات تحت الأرض، تبعد عن المدينة بنحو ثلاثين فرسخا (140).

المقابر والأضرحة:

تقع المقابـر الاسلامية، في معظم الأحوال خـارج أسوار المدينة، بالقرب مـن الطرق المؤدية إلى الأبواب الرئيسية للمدينة، ولذلك كان عـدد المقابر في المدينة الكبيرة كثيرة بكثرة عدد سكـانـهـا.

توجد مقابر خاصة، بالعائلة الحاكمـة وبالبيوتات العريقة، وببعض العلماء والفقهاء والأولياء الصالحين، تقع هذه المقابر داخل المدينة وتعرف بالروضات أو الخلوة، في حجرات بالمساجد أو في جنان القصور مثل روضة آل زيان بتلمسان (141)، الكائنة بدويرة بالجامع الأعظم (142).

وبحديقة مسجد سيدي ابراهيـم المصمودي، عند المدرسة اليعقوبية (143)، وروضة أبي مدين بالعباد، وروضة الشيخ السنوسي وغيرها.

وكانت المقـابر تقع خارج المدينة، وعندمـا يتسع عمرانها وينتشر، تصبح بعض المقـابر داخل أسوارها، وكـان أهل تلمسان شديدي الحرص على زيـارة مقابر وأضرحة الشيـوخ والمتصوفة، كما كانـوا يعتقدون بـأن بركـة الشيخ تحرس مـدينتهم وتحميهـا من الغـزاة، واذا عمدوا إلى دفـن هؤلاء الشيوخ الصـالحين بالقرب مـن أبواب المدينة ومداخلها، فدفن العالم الفقيـه، أبو يعقوب يوسف التفريسي بـالمكان المعروف ببـاب وهب، وقبره مشهور ظـاهر (144)، ودفن السلطان أبـو تاشفين الأول بالقرب منه تبركا به (145).

ودفن أبـو يوسف يعقـوب علي الصنهاجي، بـالمكان المعـروف بالمرج بين الأسوار خـارج باب الجياد، جنوب المدينـة بالقرب من الموضـع المعروف بالحفير، وكان النـاس يقصدون ضريحه للتبرك والدعاء عنده (146).

ودفن الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد بن منصور ابن صاحب الصلاة، خارج باب العقبة وقبره معـروف مزار في عهـد ابـن مرزوق الخطيـب (147)، إلى جـانب الشيخين العـالمين الدوادي وابـن غزلون (148).

ودفن يعقوب بن يوسف بن عبد الواحد المغراوي، بالمكان المعروف بعين وانزونه خارج باب الجياد[149]، وقبر العالم الصالح أبو سعيد الشريف الحسني، شرق باب القرمادين [150]، ودفن الشيخ الصالح أبو عبد الله الشوذي الاسبيلي المعروف بالحلوي خارج باب علي [151]، ودفن الشيخ أبو جمعة الكواشي المضغري بالقرب من باب كشوط، حيث كان يكثر من الجلوس في هذا الموضع، وقبره معروف محاذة ضريح الحاج بن عامر [152].

ودفن الشيخ أبو العلاء المديوني بمسجد الرحمة بالعباد العلوي، ودفن الشيخ أحمد بن أحسن الغماري، بخلوته شرقي الجامع الأعظم بتلمسان [153].

ودفن الشيخ أحمد بن محمد بن زكري، بروضة الشيخ السنوسي [154]، وصارت حديقة مسجد سيدي ابراهيم المصمودي مقبرة لأل زيان تدعى روضة آل زيان، ثم تحول الاسم إلى مقبرة سيدي ابراهيم، نسبة إلى الصالح المصمودي المدفون بنفس المقبرة [155]، وفي عهد المؤرخ ابن مريم الذي عاش مابين القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين، كان يطلق عليها روضة آل زيان[156].

فبالإضافة إلى هذه الأضرحة والمقابر، توجد مقابر جماعية أخرى بالقرب من مدينة تلمسان، وحول أسوارها وأبوابها مثل مقبرة القصارين والمقبرة القديمة حيث يوجد مسجد الطيار [157].

وكانت المقرة الخاصة بسكان مدينة " أكادير" ، تقع بين القلعة الرئيسية وقلعة الإمامة، كما تعتبر الأماكن المجاورة للأبواب تابعة للمقابر.

وعادة ما تجتمع القبور حول ضريح شيخ صالح أو فقيه عالم أو شخصية بارزة في المجتمع[158].

وكانت المقبرة المعروفة «بمسند صالح»، تقع تحت باب زيري عن يمين المار، إلى تلمسان القديمة (أكادير) والرابط بين هذه الأخيرة ومدينة تلمسان العليا (تاكرارت) [159].

وتوجد مقابر أخرى بضواحي المدينة مثل مقبرة العباد العلوي شرق تلمسان [160]، ومقبرة اليهود في الشمال الغربي للمدينة، تحيط بها الأسوار العالية [161]، ومقبرة عين السراق بضواحي تلمسان [162]. ولعله كانت أيضا لكل جالية مسيحية مقبرتها الخاصة [163].

المتنزهات:

تشمل مدينة تلمسان، على مرافق للتنزه والتسلية، ولا سيما تلك التي توجد خارج أسوارها، وهي عبارة عن أماكن يقصدها سكان المدينة، للتنزه والراحة والاستجمام، والتمتع بمناظر الطبيعة الخلابة، وبهوائها المنعش، بعيدا عن ضوضاء المدينة وازدحامها، وتتمثل هذه المتنزهات في الحدائق العامة وفي المنيات والملاعب، المحيطة بمدينة تلمسان وفي ضواحيها. مثل: منزه وادي الصفصيف، وساقية الرومي وتسمى اليوم بساقية النصراني، والشلالات وكدية العشاق وغدير الجوزاء [164]، ومنزه البركة العظيمة، التي كانت قرب تلمسان في بستان بديع، كان من أجمل متنزهات تلمسان، وجبل لالاسيتي، وجنات الوريط وشلالاتها الساحرة، التي يقول عنها الشاعر ابن خميس: (الطويل)

وان لا أنسى الوريط ووقفه أصافح فيها روضة وأنافح

ويقول:

لساقية الرومي عندي مزية وان رغمت تلك الروابي الرواشح

ويقول محمد القيسي: (الكامل)

وبربوة العشاق سلوة عاشق قتلته ألحاظ الغزال الأكحل

ومنها الملعب الكبير، الذي كانت تتسابق فيه الخيول، في محافل مشهوة، وفي ذلك يقول الشاعر محمد القيسي:

وبملعب الخيل الفسيح مجاله أجلى النواظر في عتاق المحفل
فبحلبة الأفراس كل عشية لعب بذاك الملعب المستسهل
فترى المجلى والمصلى خلفه وكلاهما في حرية لا يأتلي
هذا يكر وذا يفر فتنثني عطفا على الثاني عنان الأول
في كل طرف كل طرف يستبي قيد النواظر فتنة المتأمل [165]

فقد كانت تقام الاستعراضات العسكرية في الملاعب، قبل خروج الجيوش للقتال، ويتفقد فيها السلطان أو الأمير جنده وعتادهم، ويلعب فيها الفرسان بين يدي الأمير، ويقع فيها السباق

والمبارزة الميدانية، ويستقبل فيها السلطان الضيوف والسفراء والوفود القادمة إليه، من أقاليم الدولة ومن الدول الأخرى، باستعراض بهيج وتعرض فيه الهدايا، وماتقدم للسلطان من أموال، وتقام فيه صلاة العيدين، وصلاة الاستسقاء أيام الجذب والجفاف ويعرف الملعب أيضا بالمصلى [166].

يتميز موقع مدينة تلمسان بمناظر طبيعية جميلة، حيث تدور حولها الجبال والحقول والبساتين، تتخللها أشجار الفواكه والزيتون والصنوبر والجوز [167].

وقد جرت العادة أن يخرج أهل تلمسان، إلى هذه الموا ضع في المواسم والأعياد، وفي المناسبات للإستراحة والإستجمام، وقد ذكرت لنا بعض النصوص والوثائق، أسماء بعض المنيات والملاعب وحددت أماكنهم:

*المنية: وتقع في الشمال الغربي للمدينة بالقرب من باب القرمادين [168]، وتوجد منية أخرى في مكان فسيح، ما بين مدينة تلمسان ومدينة المنصورة [169].

*المنزه: ويعرف هذا المنزه بكهف الضحاك، ويعد من أعظم الأماكن وأحسن المنتزهات، التي يضرب بها المثل، في المناظر الخلابة، حتى قيل فيه شعراً، يقع خارج أسوار المدينة، وكان خاصا بالطبقة الحاكمة وأعيان المدينة وشيوخها [170].

ويوجد منزه آخر بشرق تلمسان، بالقرب من باب العقبة ويعرف بالظاهري تكثر فيه أشجار الزيتون، يقصده الناس للراحة والتمتع بالطبيعة الخضراء [171].

وتوجد بضواحي المدينة متنزهات للسلاطين، والأمراء والوزراء وكبار القوم وهي تشبه الاستراحة، مثل القبة التي أنشأها القائد هلال بالروض، على ضفة وادي الصفصيف شرق مدينة تلمسان[172]، واستراحة «برج الكيس»، الذي بناه السلطان أبو الحسن المريني، بالقرب من الملعب الكائن مابين تلمسان والمنصورة [173].

وكان الأغنياء يملكون بساتين وضيع، خارج المدينة تشتمل على بعض المنازل الجميلة، يقصدونها في فصل الصيف لهوائها الطيب، ولفواكهها المختلفة، من كروم وكرز وتين وخوخ ولوز وبطيخ وخيار وغيرها من الفواكة[174].

ومنها أيضا منزه يقع بالقرب من قرية العباد، يعرف بجنان بركانة [175]، فضلا عن الصهريج الكبير، الذي يقصده التلمسانيون بكثرة، للاستمتاع بالحدائق والبساتين والأشجار المحيطة به[176].

وتتوفر مدينة تلمسان على عدة ملاعب تقع خارج أسوارها، يتوجه اليها الناس أيام الأعياد، ووقت الاحتفالات السلطانية، وفي الأيام العادية ووقت الفراغ، للتفرج على سباق الخيل والأستعراضات العسكرية، وليلعب فيها الأطفال ويمرحون، ومن بين هذه الملاعب: الملعب الذي يقع أمام باب القرمادين [177]، وملعب "برج الكيفان" شمال المدينة [178]، ومنها الملعب الذي يقع شرق المدينة، أمام باب العقبة [179]، وملعب أخر يقع مابين باب الجياد ومدينة المنصورة، أي في جنوب المدينة [180].

الأرباض:

تعني كلمة الربض، الضاحية ويطلق أيضا على الحي، والجمع أرباض، وتوجد بضواحي مدينة تلمسان عدة أرباض، يقطنها بعض التلمسانيين، الذين يشتغلون بالحقول والبساتين وبفلاحة الأرض. وكانت للعديد من الأسر التلمسانية، منازل ودور في الضواحي والأرباض، يترددون عليها حينا وعلى المدينة أحيانا، وخاصة في فصل البذر والحصاد، وكانت هذه الأرباض هي التي تزود سكان المدينة بمختلف أنواع الخضر والفواكه والحبوب.

فقد كانت لآل مرزوق حقول زراعية بالعباد، وبعض الدور يترددن عليها، وكان جد هذه الأسرة يقوم بفلاحة الأرض، ويفضل الاقامة بالعباد العلوي عن المدينة [181]، فكان يجلس في البيت الذي يطل على قبر الولي الصالح أبي اسحاق الطيار [182]، كما كان أبو العباس أحمد بن مرزوق والد الخطيب، يقضي معظم يومه في بساتينه، ثم يخرج إلى المسجد الكائن بأعلى العباد، وهو مسجد الغزالة، يؤدى صلاته ثم يعود خلال الليل إلى تلمسان [183].

ومن الأرباض أيضا بتلمسان، موضع يعرف بربض بني مستار [184]، وربض أخر يقع بالقرب من مسجد إيلان غرب المدينة، ولعل عمران هذا الربض، قد اندثر وزال في القرن الثامن الهجري، لأن ابن مرزوق يشير، إلى أنه كان عبارة عن ساحة تنطلق منها الأحمال الكثيرة من الصوف الرفيع، إلى الأسواق المختلفة مغربا ومشرقا [185].

القناطر والجسور:

ترتبط مدينة تلمسان، بالضواحي والأرباض والمدن المجاورة، بشبكة من الطرق والسكك الرئيسية، تتجه من الأبواب المختلفة للمدينة، نحو الشرق والشمال والغرب والجنوب، ولها جسور وقناطر هامة هي:

قنطرة باب جياد: من الناحية الجنوبية، أنشئت فوق وادي متشكانة، يعبرون منها إلى قرية العباد.

* قنطرة وادي الصفصيف: ويعبرون عليها نحو الشرق.

وقنطرة ميناء(186).

الهـــوامـــش:

(1) حسن الوزان: وصف افريقية ج1 ص 19، مارمول افريقية، ج2 ص 299.

(2) نفسه، ج1 ص 19 مارمول: المصدر السابق ج2 ص 299.

(3) نفسه، ج1 ص 19 مارمول: المصدر السابق حـ2 ص 299.

(4) نذكر هنا بعض الفقهاء الذين كانوا يشتغلون إلى جانب العلم بالتجارة والحياكة والخياطة والفلاحة، على سبيل المثال لا الحصر. أبو يزيد عبد الرحمان النجار السالف الذكر، الخطيب أبو زيد بن أبي العيش الذي كان يملك دكانا بحذاء المسجد الأعظم يتاجر فيه وفي نفس الوقت كان ملتقى العلماء والفقهاء، أبو اسحاق الخياط، كان له دكان للخياطة يخيط فيه الملابس، في الموضع المعروف بالقباين بتلمسان، وكان لأبي عبد الله محمد بن مرزوق، عدة محلات تجارية في القيصارية، وفي درب مرسى الطلبة ويبيع فيها السلع وينسخ فيها الكتب، وكان جده يشتغل بفلاحة الأرض في بادية العباد، وكان المؤرخ أبو العباس بن القطان يتاجر لحسابه وحساب أبي اسحاق التنسي برأس أموال هذا الأخير، واشترى بذلك دكانا بالقيصارية.

انظر المجموع: ورقات 2، 12، 14، 15، 39.

(5) حسن الزيات التادلي: التشوف ص 447، البستان ص 275.

(6) نفسه، ص 448.

(8) نفسه ص 448 ويبدو أن مبلغ الإيجار هذا للسنة وليس للشهر.

(9) ابن مرزوق: المجموع: ورقة 12 و46، انظر كتابه المسند، ص 460 البستان ص 79.

(10) Bouali (s.a) les deux grande sieges p4

(11) مارمول: المصدر ج2 ص 299.

(12) نفسه ج2 ص 299.

(13) ابن مرزوق: المجموع ورقة 2.

(14) ابن الزيات التادلي: السابق ص 370.

(15) القيصارية، تعني سوق السلطان أو القيصر.

(16) كانت مساحة القيصارية كبيرة، بحيث فاقت مساحة السوق الحالي لمدينة تلمسان، التي يحدها من جهة الغرب شارع ادريس ومن جهة الشرق شارع جون ماري (jean Maris)، وتمتد مساحتها إلى أن تصل ساحة الشهداء حاليا انظر: Bouali (s.a) les deux grands sieges p. 107 note N 185.

انظر أيضا بشارة لطيفة: المرجع السابق ص 212 هامش رقم (3)

Brosslard (ch) coudé royale in revue africaine journal des travaux de la société historique algèrienne anné 1859 - T. 4 P. 67 1860 Alger 1860 N° 19

(17) Marcais (G) tlemcen et le commerce euro-africain P.8

(18) البستان: ص 93.

(19) Strech (M) kayssariyy; E.I. nelle ed. T.4 P.873

(20) عطا الله دهينة: الحياة الاقتصادية والإجتماعية لدولة بني زيان ضمن كتاب الجزائر في التاريخ فاس، ص 42.

(21) بشارى لطيفة: المرجع السابق ص 223، 167. Mas-latrie: relation P لوتورنو: فاس، ص42.

(22) تذكر المستشرقة Mas latrie بأن كلمة «الفندق» لفظة عربية، وتعني المخزن أو السوق بينما يرى لتورنو بأن اللفظة اغريقية الأصل، تستعمل خاصة في بلاد المغرب، وتعني النزل، الذي يأوي اليه الأشخاص والحيوانات، فهو مثل الخان في بلاد المشرق. انظر Mas-latrie: relations. P. 167 et "fundok" in E.I- T.2 PP 966-967.

(23) dhina (A): le royaume p. 175.

(24) Bouali: opcit p.107 note n 185

(25) Dufourcq (CH.E): l'espagne catalane p. 521

(26) سامي سلطان: الجاليات الأيطالية مجلة سرتا س (6) عدد (10) أفريل 1988 ص 91.

(27) نفسه: ص 91 انظر أيضا: المعاهدة التي أبرمت بين السلطان عثمان وبين الملك الأسباني انظر: Dufourcq (CH.E): le traité de Tlemcen dans bultin de la société de geographie et d'archeologie d'Oran 1967 pp 33 sq Dhina (A): les états de l'occident musulman P. 479 sq

(28) Brunschvig (R): la berberie orientale T.2 pp. 431-432- fey: histoire d`Oran p. 41

(29) البستان، ص 275.

(30) حسن الوزان: المصدر السابق ج 1 ص 20.

(31) سامي سلطان: المرجع السابقق ص 90.

(32) le tournean (R): 'Fundouk" E.I T.2 p967.

(33) طرخان ابراهيم علي: دولة المالك الجراكسة ص 283.

le tourneau (R): opcit T.2 p 967.

(34) يوجد في غالب الأحيان حمام بداخل الفندق، خاص بالرواد والتجار، وإذا لم يتوفر الفندق على هذا المرفق الحيوي يعين لهم حمام بالمدينة، يغتسلون فيه مرة واحدة في الأسبوع بدون مقابل، انظر Mas- latrie opcit p.169.

(35) Pernoud (R): histoire du commerce de marseille paris. T.2 p42

(36) سامي سلطان: المرجع السابق ص 90.

(37) نجاة باشا: التجارة في المغرب ص 105.

(38) طرخان ابراهيم علي: المرجع السابق ص 283. عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية ص 246.
(39) عطا الله دهينة: المرجع السابق ص 485.
(40) نفسه، ص 485.
(41) عطا الله دهينة: المرجع السابق ص 478.
(42) Marcais (G): Tlemcen et le commerce euro-fricain p.8
(43) سامي سلطان: المرجع السابق ص 90.
(44) تذكر نجاة باشا وماس لا تري: بأن حراس الفنادق كانوا يعينون من الشرطة المدنية. انظر: المرجع السابق، ص 105 ـ 106 و relations p. 171
(45) نجاة باشا: المرجع السابق ص 105 – 106.
Mas-latrie: relations p. 161
(46) سامي سلطان: المرجع السابق ص 90/ . Mas-latrie: opcit p89 /91
(47) سامي سلطان: المرجع السابق ص 90.
(48) عادل زيتون: المرجع السابق ص 247/ Mas-latrie: opcit p.169
سامي سلطان: المرجع السابق ص 91. Dhina (A) : les états de l'occident P. 380
(49) العقباني: تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق علي شنوفي ونشره في Bulletin d'études orientales institut de france à demas année 1965 - 1966 T. 1 P 19.
(50) سامي سلطان: المرجع السابق ص 91.
(51) نفسه، ص 91.
(52) نفسه، ص 91. Mas-latrie: opcit p96
(53) الفندقي هو موظف الفندق ورئيس المراقبين ويطلق عليه بالبندقية Fondicaus انظر: Mas-latrie opcit p /167
(54) Dhina (A): royaume p. 175 - Bouali: opcit pp 87 - 88
(55) Brunchvig (R): la berberie orientale T.2 p432-432
(56) سامي سلطان: المرجع السابق ص 94.
(57) عطا الدهينة: المرجع السابق ص 481.
(58) نفسه، ص 485.
(59) عطا الله دهينة: الحياة الإقتصادية والاجتماعية ضمن كتاب الجزائر في التاريخ ص 491.
(60) عطا الله دهينة: الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ضمن كتاب الجزائر والتاريخ، ص 364.
(61) نفسه، ص 464.
(62) الحسني مختار: المرجع السابق ص 114.
(63) عطا الله دهينة: المرجع السابق ص 364.
(64) w et G. Marcais : les monumentd arabes pp 401 - 402
(65) المازوني: الدرر المكنونة ج 1 ورقة 256.
(66) عطا الله دهينة: المرجع السابق ص 364.
(67) بورويبة رشيد: جولة عبر مساجد تلمسان، مجلة الأصالة عدد 20 س 1975 ص 181 والحسني مختار: المرجع السابق 114.
(68) الرحلة ص 11.

(69) وصف افريقيا، ج 1 ص 20.

(70) محمد القبلي: قضية المدارس المرينية ملاحظات وتأملات ضمن كتاب النهضة والتراكم دار توبقال، الدار البيضاء، 1986 ص 51.

(71) Sourdel (D) : reflexions sur la diffusion dc la madrsa en orient du 11eme ct 12eme siécle in l'enseignement en islam et en orient au moyen-age colloque internationaux de la napoule paris 1977 P. 165 - 184

(72) محمد القبلي: المرجع السابق ص 51-53.

(73) ابن مرزوق: المجموع ورقة 38.

(74) محمد القبلي: المرجع السابق ص 61 - 62.

(75) نفسه، ص 61.

(76) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 1 ص 130 نظم الدر، ص 139 هامش رقم 160. Dhina royaume p34.

(77) نظم الدر والعقبان، ص 139هـ/ 160.

(78) Marcais (G): l`architecture musulmane d`occident p 265

انظر التنسي: نظم الدر 141، محمود بوعياد: جوانب من الحياة في المغرب الأوسط ش. و. ن. ت الجزائر 1982 ص 82.

(79) نظم الدر والعقبان، ص 141، وعن موسى بن عمران المشذالي، انظر الهامش رقم 180 من نفس الكتاب والصفحة.

(80) المقري: نفح الطيب ج8 ص 154 - 157 الأخضر عبدلي: المرجع السابق ص 288 289.

(81) W. et G. Marcais: les monument arabes p21. Dhina (A): opcit 37.

(82) الروضة: يطلق هذا المصطلح على المقبرة الذي يدفن فيها الصالحون، الواقعة إلى جانب ضريح أحد الأولياء الصالحين المشهورين، انظر: التنسي: نظم الدر 134هـ/ 125.

(83) الأخضر عبدلي: المرجع السابق ص 290.

(84) نفسه، ص 290.

(85) نفسه، ص 290.

(86) نفسه، ص 291.

(87) الأخضر عبدلي: المرجع السابق ص 29.

(88) عبد الحميد حاجيات: أبو موسى حمو الزياني الثاني ص 65.

(89) بغية الرواد ج 1 ص 127 ـ 128. Dhina (A): royaume P. 38note n57.

(90) Barges: Tlemcen ancien capital p391, Bel (A): un epitaph Tlmcenien p240.

(91) بغية الرواد، ج2 ص 136.

(92) مؤلف مجهول: زهر البستان 84 وعبد الحميد حاجيات: المرجع السابق ص 182.

(93) بغية الرواد، ج2 ص 104 ـ 136. عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق ص 182 ـ 183.

(94) عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق ص 183.

(95) مؤلف مجهول: زهر البستان ورقة 84.

(96) عطا دهينة: المرجع السابق، ص 433.

(97) ابن مرزوق: المجموع ورقة 13.

(98) أبو القاسم سعد الله: التاريخ الجزائر الثقافي ج 1 ص 34.

Brosslard (ch): les inscriptions arabes de Tlemcen revue africaine 3 année N° 14 devembre(99)
1858 P. 83.

(100) بغية الزواد، ج1 ص 211. Brosslard (ch): opcitp.83

(101) ابن ابي زرع: روض القرطاس ص 21 و 50 أبو العباس أحمد الكتاني: الدر النفيس ص 132.

(102) عطا الله دهينة: الدولة الزيانية في عهد يغمراسن ص 362. : Marcais (G) Tlemcen (ville d`art et d`histoire) p34.
Richard - lawless: Tlemcen capitale du maghreb centrale p 50.

(103) رشيد بوروبية: جولة عبر مساجد تلمسان، مجلة الأصالة عدد 26. 1975 ص 172.

(104) Marcais (G): tlemcen (ville d`art et d`histoire) p.34.
Richard lawless: Tlemcen capital maghreb central p50.

(105) Bourouiba (R): inscriptions commemoratives des mosqué d'Algerie P. 102.
انظر أيضا: جولة عبر مساجد تلمسان ص 172.-

ويرى الأستاذ بوروبية بأن تأسيس هذا المسجد وانجازه كان من قبل علي بن يوسف انظر: l`art religieux musulman en al-gerie pp. 71-73.
- les inscriptions commemorative des mosqueés d'Algeris P. 105.
انظر أيضا Brosslard: inscriptions R.A 1858. pp. 86-92
W. et G Marcais: les monuments pp. 140 - 161.

(106) Marcais (G) : archétecture musulman P. 197

(107) رشيد بوروبية: المرجع السابق ص 172/ .Marcais (G), Tlemcen (ville d`art et d`histoire) p.34

(108) رشيد بوروبية: المرجع السابق ص 173 ـ 174.

(109) نفسه، ص 174.

(110) نفسه، ص 174.

(111) Bourouiba (R): les inscription commemoratives p. 124
وقد جاء في الكتابة المرسومة على المحراب، أن الذي بني المسجد هو أبو عامر ابراهيم بن يغمراسن بدلا من السلطان أبي سعيد عثمان، الذي بني المسجد في عهده، ولذا يمكن القول بأن السلطان أبي سعيد عثمان كلف أخاه بالأشراف على البناء والتدشين، والمدشن هو الذي يثبت إسمه في لوحة التدشين. انظر في الصدد:
Bourouibo (R): les inscriptions p127. Brosslad inscriptions pp 161-166.
W. et G Marcais les monument p 170 sq
Marcais (G): l`architecture musulman d`occident p 272.
Marcais (G) : Algerie médievale paris 1957 pp 175 - 176.

(112) رشيد بوربية: المرجع السابق ص 175. Bouali (S.A) opcit p161

(113) Dhina (A): royaume p34 W et G Marcais: les p 178. Monuments.
W et G Marcais : les monuments p 173 Richard lawless opcit p.50.

(115) يطلق على هذين العالمين أولاد الإمام نسبة إلى أبيهما الذي كان يشغل منصب إمام مدينة برشك مسقط رأسه انظر:
Dhina (A): opcit p. 34 note 17.

Marcais (G): note sur l`epitaphe d`un savant Tlemcen in R.A 1918p. 115.(116)

Bel (A) : une epitaphe Tlemcenienne du 15ème siécle P. 240 sq.(117)

Bourouiba (R): les inscriptions commemoratives p128. (118)

انظر أيضا: اللوحة الثانية لنفس المؤلف، ونفس المرجع ص 132 .

(119) رشيد بوروبية: المرجع السابق ص 179 ـ 180 .

Bourouiba (R): les inscriptions p 128.

وحول هذا المسجد انظر: Brosslard : inscriptions pp 401 - 419 W et G Marcais: les monument pp 240 - 265.

Bourouiba (R): l`arts religieux p 106 sq

Bourouiba (R): les inscriptions p. 154(120)

للتعمق انظر: Bouruuiba (R): arts religieux pp 169 - 170.

(121) رشيد بوروبية: جولة عبر مساجد تلمسان، ص 180 .

(122) قمت بحصر أسماء المساجد التي تمكنت من العثور عليها من خلال النصوص التاريخية وهي: جامع الخراطين ـ جامع الحلفاوين ـ مسجد منشر الجلد .

مسجد رحبة القصر ـ مسجد مرسي الطلبة ـ مسجد ابن النعمة .

مسجد رحبة القصر ـ مسجد مرسى الطلبة ـ مسجد ابن النعمة .

مسجد سويقة اسماعيل ـ مسجد القيصارية ـ مسجد سيدي الطيار.

مسجد أبي زكريا يحي ـ مسجد عين الكسور بالمنية ـ مسجد باب زيري .

مسجد حارة البرهان ـ ثم أصبح يعرف خلال القرن (8) بمسجد ابن حجاف وابن حرزورة ـ مسجد ايلان ـ جامع القصر الجديد وهو منقوش إلى حد الإزار ـ جامع تفريغنبو بتاكرارت بني بعض أجزائه على القصر المعروف بقصر أبي فهر ـ جامع القصبة .

مسجد الساقية بالقرب من باب الجياد ـ مسجد الغزالة بأعلى العباد .

مسجد الرحمة بالعباد السفلي ـ جامع الرؤيا بربض المطمر غرب المدينة .

مسجد صالح وهو الذي دفن فيه الشيخ الصالح أبو عبد الله المعروف بالحاج فرج بالعباد .

جامع الجدار ـ جامع ابن زكري نسبة إلى الصالح ابن زكري صاحب المنظومة في علم الكلام .

مسجد سيدي ابن البناء ويقع في رحبة الزرع (سوق الخرازين) عند فندق المجاري .

مسجد المنصورة ـ مسجد سيدي الحسن بن مخلوف .

انظر المجموع والمسند لابن مرزوق والبستان لابن مريم .

(123) المسند، ص 406 ـ 411؛ إبن بطوطة: الرحلة ص 17 ـ عبد القادر خلادي: أبو مدين الغوث دفين تلمسان مجلة الأصالة عدد (26) 1975 ص 284 285 .

(124) بغية الرواد، ج1 ص 127 ـ البعتان ص 68 .

(125) نفسه، ج1 ص 203 ـ نظم الدر والعقبان ص 256 .

(126) أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ج1 ص 40 .

(127) ابن مرزوق: المجموع ورقة 41 .

(128) أسعيد عليوان: محمد بن يوسف السنوسي، وشرحه المختصر في المنطق (دراسة وتحقيق) شهادة دكتوراه الحلقة الثالثة معهد الفلسفة الجزائر 1987 ص 23 ـ انظر بغية الرواد ج 1 ص 124 ـ 125 .

(129) حسن الوزان: وصف افريقيا ج1 ص 20.

(130) رشيد بورويبة: الحياة الفنية في عهد الزيانيين والمرينيين ضمن كتاب الجزائر في التاريخ تعريب محمد بلغراد ص 504.

(131) يحي بن خلدون: ج1 ص 86.

(132) المعيار: ج4 ص 276.

(133) ابن مريم: البستان، ص 60، حسن الوزان في وصف افريقيا ج1 ص 20.

(134) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 85.

(135) نفسه، ج1 ص 86.

(136) نفسه ج1 ص 127 ـ 128.

(137) ابن مرزوق: المجموع ورقة 14.

(138) يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1 ص 86، العمري: المصدر السابق ق (7) ورقة 206.

(139) ابن مرزوق: المسند، ص 417.

(140) مارمول: افريقيا ج2 ص 299، العمري: المصدر السابق ق 7 ورقة 206.

(141) ان مرزوق: المجموع ورقة 9.

(142) نفسه، ورقة 9.

(143) ابن مريم: البستان ص 66.

(144) ابن مرزوق: ورقة 14.

(145) ابن مرزوق: المجموع ورقة 27.

(146) نفسه، ورقة 17.

(147) نفسه، ورقة 19.

(148) ابن مريم: البستان ص 77، ابن مرزوق: المسند ص 163.

(149) نفسه، ص 297.

(150) نفسه ص 72.

(151) نفسه ص 70.

(152) نفسه، ص 73.

(153) ابن مريم: البستان ص 38.

(154) نفسه، ص 41.

(155) نفسه، ص 66.

(156) عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الثاني ص 181 ـ يبدو أن أبا يعقوب قد دفن بدار أبي عامر الزياني التي أصبحت مقبرة من المقابر فيما بعد، وأن الروضة التي دفن فيها كانت تابعة لقصر أبي عامر بن يغمراسن الذي توفي وترك وراءه ثروة مالية كبيرة وعقارات أرضية وعمرانية كثيرة، وكان السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن، قد بنى هو الأخر قرب هذا المكان مسجد أبو الحسن، الذي دشنه أبو عامر انظر:

عبد الحميد حاجيات نفسه، ص 181 هامش رقم (1).

انظر أيضا: Bel (A): une epitaphe Tlemcnienne du 15 ème siécle de J.C 1èr congrés de la fondation des sociétés savants de l'afrique du nord Alger juin 1935 PP. 240 - 241.

(157) ابن مريم: البستان ص 86 ـ 92.

(158) عطا الله دهينة : الحصار الطويل ضمن كتاب الجزائر في التاريخ ص 372 .

(159) ابن مرزوق : المجموع ورقة 2 .

(160) Brosslard: inscriptions de Tlemcen T3 p. 241

انظر أيضا : Catalogue du musee de Tlemcen p5 n40

(161) Bouali (S.A) les deux grands sieges p. 41.

(162) ابن مريم : البستان ص 93 ـ 94 .

(163) Mas-latrie: relations p 169.

لطيفة بشاري : المرجع السابق ص 223 .

(164) المقري : نفح الطيب حـ 332 ـ 334 .

(165) مفدي زكريا : النشاط العقلي والتقدم الحضاري بالجزائر، في عهد الزيانيين مجلة الأصالة عدد 26 جويلية ، وأت 1975 ص 164 .

(166) ابن مرزوق : المسند ص 138 ، ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والأندلس ترجمة عبد العزيز سالم ، ومحمد صلاح الدين حلمي القاهرة بدون تاريخ ص 74 ـ 90 .

(167) Bouali (S.A) opcit p.42 note no 66.

(168) Bouali (S.A) opcit p.42 note 66

(169) Ibid p42 note 66.

(170) ابن مرزوق : المجموع ورقة 2 .

(171) ابن مرزوق : المسند ص 475 .

(172) نفسه ، ص 475 .

(173) ابن مرزوق : المجموع ورقة 4 .

(174) حسن الوزان : وصف افريقيا ج 1 ص 20 .

(175) ابن مرزوق : المسند ، ص 482 .

(176) محمد الطمار : الروابط الثقافية في الجزائر والخارج ش . و . ن . ت الجزائر 1983 ص 240 .

(177) ابن مرزوق : المجموع ورقة 34 وهو موضع متصل بالمدينة استولى عليه أبو الحسن يوم 27 ، رمضان سنة 737هـ / 1337م . ومنه استطاع أن يدخل تلمسان منتصرا يوم 28 رمضان من نفس السنة .

(178) Bouali (S.) opcit p 34 N:71.

(179) يحي بن خلدون : بغية الرواد ج 1 ص 29 .

(180) Bouali (S.A) opcit p 43.

(181) تنقسم قرية العباد إلى قسمين : العباد السفلي والعباد العلوي ، انظر إبن مرزوق المجموع ورقة 4 .

(182) ابن مرزوق : المجموع ورقة 13 ، وهو منظر رائع وجميل ، ولا يزال أهل تلمسان يختصون بهذه المنطقة ويترددون عليها ، لزيارة من بها من الأولياء الصالحين وخاصة منهم ضريح أبي مدين الغوث ، انظر ابن مرزوق : المسند ص 118 .

(183) إبن مرزوق : المجموع ورقة 4 .

(184) ابن مرزوق : المجموع ورقة 13 .

(185) نفسه ، ورقة 15 ، وكانت ببعض المداشر القريبة من تلمسان هي : مدشر صيطور المشهور بانتاج القمح ، ومدشر بترشت ، وهو يحادي الحنايا على أميال قليلة من مدينة تلمسان ، ومدشر بني ادريس بالقرب من جبل بني ورنيد المطل على العباد ، انظر : ابن مرزوق : المجموع ورقات 2 ـ 22 ـ 40 . ابن مريم : البستان ص 28 .

(186) ابن مرزوق : المسند ص 418 .

الباب الثالث

الأوضاع الإجتماعية

الفصل الأول

عناصر المجتمع التلمساني
(سماتة العامة)

1 ـ الأصول العرقية للمجتمع التلمساني
2ـ البربر
3ـ العرب
4ـ الأندلسيون
5ـ الأغزاز
6ـ الأعلاج (الصقالبة)
7ـ السود
عناصر أخرى :
8ـ المسيحيون
أ ـ التجار
ب ـ الأسرى
جـ ـ رجال الدين
9ـ اليهود
10ـ اللغة المتداولة

المجتمع التلمساني
(سماته العامة)

تتميز مدينة تلمسان بموقع جميل، بين البساتين الكثيرة والحقول الواسعة، وتحيط بها السلاسل الجبلية التي تتوفر على المناجم المعدنية [1] والمياه الغزيرة، فهذه العناصر جعلت تلمسان، تتصدر مدن المغرب الأوسط، وتتفوق عليها في المجالات المختلفة، حتى صارت عاصمة للدولة الزيانية، فتدفق عليها السكان من المناطق المجاورة والبعيدة، وقد هيأت هذه الخصائص، المجتمع التلمساني إلى نقلة حضارية متميزة، وجعلت المدينة تحتل مكانة اقتصادية معتبرة ودورة تجارية هامة.

استقطبت اهتمام الناس عامة، وأصحاب رؤوس الأموال خاصة، من مختلف مدن المغرب الأوسط وأقاليمه، وجلبت إليها اليد العاملة، ولا سيما وأن مدينة تلمسان تقع على الطريق التجاري الرابط بين فاس وتونس، وتقترب من الموانىء الساحلية، فقد كانت مدينتا وهران وهنين من أهم الموانىء الزيانية [2].

ولم تجعل هذه الظاهرة البيئية، والخصائص الطبيعية، من مدينة تلمسان مجرد مؤسسة عمرانية، تعيش على حساب الريف والبادية، وتكتفي بدور السوق الإستهلاكية، بل تحولت إلى محطة كبيرة للإنتاج الزراعي، وورشة صناعية وسوق دولية، ومركز للخدمات الإجتماعية، اشتغل أهلها بمختلف الحرف والصناعات، وفي هذا الصدد يقول يحي بن خلدون: «غالب تكسبهم الفلاحة، وحوك الصوف يتغايون في عمل أثوابه الرقاق، فتلقى الكساء أو البرنس عندهم من ثماني أواق، والإحرام من خمس، بذلك عرفوا في القديم والحديث، ومن لدنهم يجلب إلى الأمصار شرقا وغربا» [3].

وقد ازدادت أهمية مدينة تلمسان الإقتصادية، وتضاعفت فيها حركة المبادلات التجارية، وذلك بسبب وقوعها على الطريق البري، الرابط بين موانئها وبين مدينتي فاس وسجلماسة،

وخاصة في فترات الاضطراب، التي كان يشهدها المغرب الأقصى بين حين وآخر، تتعثر معها حركة التجارة بين سبتة وطنجة وسلا، ومدن مغربية أخرى[4]، حتى إن الجغرافي البكري اعتبرها المدينة الأساسية في المغرب الأوسط، ومركز القبائل البربرية، ومكان تلاقي القوافل القادمة من الغرب والصحراء [5]، بينما جعلها الإدريسي مفتاح إفريقية الغربية، والممر الذي يعبر منه المسافرون، وسكانها من أغنى سكان المغرب[6]. وتتضمن إحدى رسائل الموحدين الاعتراف بهذه المكانة السامية لمدينة تلمسان، «وهي البلدة العتيقة بل الروضة الأنيقة، جمعت محاسن المدائن منها في مدينة، وأشتملت على أكمل عدة، ليومي حرب وزينة، حشوها السلاح والكراع، وفاخر متاعها لا يضاهيها المتاع»[7]. وكانت الأراضي الخصبة، والبساتين الغناء، التي توجد خارج أسوار المدينة، تملكها أسر تلمسانية، لها منازل جميلة في هذه الحقول والبساتين [8]، تتخذها متنزهات لها، خاصة في فصل الصيف، وكانت تقوم بفلاحة الأرض وزراعتها، بنفسها أو تؤجر لها اليد العاملة [9] ويؤكد ذلك، حسن الوزان بقوله: «وفي خارج تلمسان، ممتلكات هائلة فيها دور جميلة للغاية، ينعم المدنيون بسكناها في الصيف حيث الكروم المغروسة الممتازة تنتج اعنابا، من كل لون، طيبة المذاق جدا، وأنواع الكزر الكثيرة التي لم أر لها مثيلا، في جهة أخرى، والتين الشديد الحلاوة، وهو أسود غليظ طويل جدا، يجفف ليؤكل في الشتاء والخوخ والجوز واللوز، والبطيخ والخيار وغيرها من الفواكه المختلفة» [10]. وكان يوجد في شرق مدينة تلمسان، وعلى بعد ثلاثة أميال، في سهل لالا ستي وعلى ضفتي نهر الصفصيف عدة مطاحن، للحبوب ومجموعة أخرى منها في جنوب المدينة عند رأس القلعة، وهذا دليل آخر على وفرة الزراعة خارج أسوار المدينة واشتغال أهل تلمسان بها [11].

والظاهر أن مدينة تلمسان، لم تكن قبل العهد الزياني، إلا مجرد مدينة اقليمية تحيط بها الأسوار لتحميها من الهجمات والغزوات، ولم تتحول إلى ظاهرة مدينية كبيرة، ومعالم عمرانية واسعة لها وزنها ومجالها وتأثيرها في المنطقة، إلا في العهد الزياني حيث تكامل أمرها، واتسع نسيج عمرانها حتى بلغ عدد سكانها في عهد أبي تاشفين الأول، مشيد القصور ومروض الغروس [12]، نحو ستة عشر ألف منزل [13].

وقد يزداد نمو السكان بمدينة تلمسان وخاصة، بعد انتهاء الحصار والأزمات ويعود الأمن والإستقرار لها، فيتضاعف عدد السكان من جديد [14] فالنصوص التاريخية تشير، إلى أن المجتمع

التلمساني في العهد الموحدي بلغ عدده نحو مائة ألف نسمة، موزعة بين أكادير وتاكرارت[15] وتطور هذا العدد، في منتصف القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، إلى مائة وعشرين ألف نسمة[16]، ثم قفز إلى نحو خمسة وعشرين ألف عائلة أي ما يزيد على مائة وخمسة وعشرين ألف نسمة[17]، وهي أرقام تدل على تطور عدد سكان مدينة تلمسان، ونموه ما بين القرنين السابع والثامن الهجريين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.

ويتعذر على الباحث، أن يرسم صورة واضحة وكاملة عن عدد سكان مدينة تلمسان، في مختلف فترات تاريخها الزياني، لانعدام النصوص والوثائق، الضرورية لكل مرحلة من مراحل تطورها أو ضعفها، اللهم إلا تلك الإشارات العامة المقتضبة التي تدل على النمو العمراني في المدينة، بدون تحديد الفترة الزمنية وعدد الدور، واتساع العمران وانتشاره داخل المدينة، وبصورة غير دقيقة كما نجده في النص التالي: «فلم يزل عمرانها يتزايد وخطتها تتسع، ورحل إليها الناس، من القاصية، لحسن موقعها وعذوبة مائها، وطيب هوائها، واختطت بها القصور والمنازل العالية، وغرست بها الرياض والبساتين، وفاحت برحبها الأزهار والرياحين، فكانت واسطة سلك وقاعدة ملك»[18].

ويتضح مما سبق، صعوبة تحويل هذه المفردات إلى أرقام وتحديد نمو عمران المدينة، في مختلف مراحل تاريخها الزياني، الذي دام أكثر من ثلاثة قرون، وكذا بيان تطورها وازدهارها وازدياد عدد سكانها، أو ضعفها وتقلص عمرانها في غياب الوثائق التي تدل على ذلك بالأرقام والإحصائيات في الزمان والمكان، وبالرغم من عمليات التخريب الواسعة النطاق، التي تعرضت لها مدينة تلمسان بسبب الحصارات والإجتياحات الكثيرة، من قبل الجارة الشرقية، (بني حفص) والجارة الغربية (بني مرين)[19]، فقد صمد أهل المدينة لهذه الشدائد بحيث صارت لهم يقظة دائمة، وحركة مستمرة وعملا دؤوبا في مجابهة الغزاة، وإعداد العدة للمقاومة وتخزين المؤن، وتنشيط الدورة التجارية والإقتصادية داخل المدينة[20].

ويبدو أن التلمسانيين، قد تمرسوا على هذه الشدائد، حتى صارت لهم القدرة والخبرة في مجال البناء والتعمير وترميم ما أفسدته الحرب، لأن العمران أصبح في نظرهم رمز القوة والإزدهار، وان ظاهرة نمو السكان والعمران لها علاقة بقوة الدولة، وازدهارها وعظمة مدينتها ويسر أهلها[21].

فالمجتمع يحتاج إلى المجال العمراني والهياكل والخدمات الإجتماعية في المدينة، وهذا يتطلب منه

توفير الموارد المالية، واعداد اليـد العاملة الضرورية [22]، «وأن انتقاض العمران، يكـون بانتقاض السكان» [23].

الأصول العرقية للمجتمع التلمساني :

يبدو أن الأصول العرقية، لعناصر سكـان مدينـة تلمسـان كانـت متشعبـة، بحيث يصعب على البـاحث الإلمام بكـل مكونـاتها، ويعود السبـب في ذلـك إلى نقص الوثائــق من جهـة وإلى التمازج، الذي حدث بين السكـان الأصليين من البربر، وبين الأجناس الأخـرى، التي حلت بها منـذ الفتح العـربي الإسلامـي في نهاية القـرن الأول الهجري، السـابع الميـلادي كالعـرب اليمنين والمضريين والشامين والعـراقيين والاندلسيين والفـرس والأغـزاز، والقبـط، والاعلاج المماليـك، والعبيد السود، فضلا عن جنسيات مختلفة أخرى من أوربا، ويهود، وغيرهم ممن تسربوا إلى مدينة تلمســان وحطوا رحـالهم فيهـا، في شكل مجمـوعـات كبيرة أو صغيرة، أو فرادى على مـر السنين والقــرون [24].

ولم يحظ الجانب الإجتماعي بالعناية التي يستحقهـا، من طرف المؤرخين والإخباريين القدماء، سواء كانوا مسلمين أم غيرهم. وكان المجتمع التلمساني خلال العهد الزياني، يتشكل من عناصر مختلفة سنحاول التعرف على أهمها فيما يلي :

البـربـر :

وكان غـالبية سكـان مدينة تلمســان يتشكلون مـن زناتة، ولا سيما منهـا مغيلة ومغـراوة وبني يفرن، الذين اختطوا مـدينة أكادير [25]، قبل الفتـح العربي لها، وبقيت هذه القبـائل تهيمن على المدينة والغرب الجزائري، وتتداول السلطة عليها عدة قرون، حكمها بنو يفرن ومغيلة ومغراوة [26]، ولحق بها فلول مـن بني زيـري وأقامـوا بها [27]، وسكنها المرابطـون الصنهاجيون وشيـدوا محلتهم تاكرارت [28]، وبقيت فيها جماعة من مسوفة [29]، وانتقلت إليها بعض العائلات الموحدية وخاصة من هنتاتة ومصمودة وكومية، وتكونت من هـذه الأسر شبه أرستقراطية عسكرية بالمدينة، فكانت تلمسان لذلك العهد نزلا للحامية الموحدية ومقرا للحاكم وقرابته [30].

ولما صارت مدينة تلمسان عاصمة بني زيان، عاد إليها نفوذ زناتة فاحتكرت حمايتها من جديد[31]، ونقل إليها بنو عبد الواد عشيرتهم وقبيلتهم، وقبائل أخرى من بني عمومتهم بني توجين، وبني راشد، وبني زردال، وبني عصاب وجماعة من أولاد منديل، وغيرهم من الزناتيين، الذين تركوا خيامهم وسهولهم [32]، ووفدت إليها جالية من هوارة يتزعمها القائد يوسف بن حيون الهواري، الذي قدم خدمات جليلة للدولة الزيانية [34]. إلا أن اندماج مثل هؤلاء اللاجئين السياسيين في المجتمع التلمساني واستقرارهم في المدينة قليل وغير ثابت.

ونقل السلطان أبو حمو الأول (707ـ718هـ/1307ـ1318) إلى مدينة تلمسان، جالية كبيرة من «رهائن الوطن كله حضرا وبدوا» [35]، «وأشياخ بدو البلاد وحضرها» [36]، ورهائن من بطون توجين [37] وأسكنهم جميعا بقصبة المدينة في حي خاص بهم، حتى لا تخرج قبائلهم عن الطاعة، ولا تتجرأ على معارضة السلطة والإمتناع عن دفع الجباية [38]، وكان الرهائن يمثلون انتماءات قبلية وجغرافية مختلفة. ويؤكد ذلك ابن خلدون بقوله: «واستبلغ أبو حمو في أخذ الرهائن من أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب، حتى من قومه، بني عبد الواد... وكان يأخذ الرهن المتعددة، من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهط، وتجاوز ذلك، إلى أهل الأمصار، والثغور من المشيخة والسوقة.. وانزلهم في القصبة فملأ تلك القصبة، بابنائهم وإخوانهم وشحنها بالأمم بعد الأمم» [39].

وهذا يبين أن المجتمع التلمساني كان يتشكل من انتماءات مختلفة من قبائل المغرب الأوسط، وقد سمح لهم السلطان ببناء المنازل وانشاء الدور، واتخاذ النساء، وتشييد المساجد، وإقامة المصانع والأسواق بالقصبة [40].

ولا شك أن الناس كانوا يأتونها من كل قاصية للإستقرار بها [41]، فظل النزوح مستمرا إليها في عهد بني زيان، لأن التحرك بين أجزاء المغرب والعالم الإسلامي، بصفة عامة والرحلة في طلب العلم، والوظيف والتجارة كانت من الأمور المحمودة عند المسلمين، حتى صارت مدينة تلمسان تعج بالعلماء والطلاب والتجار وأرباب المهن [42].

لقد كان العنصر البربري هو الغالب على سكان مدينة تلمسان ولا سيما من زناتة، التي ظهرت فيها طبقة ميسورة تصدرت المجتمع التلمساني، في هذه الفترة وتبوأت القيادة والمخزن، وامتهنت الوظيف، واحترفت الصناعة والتجارة والدراسات الفقهية وغيرها.

العـــرب :

أما عـن العناصر المشرقية، فقـد حطت عصا الترحـال بمدينـة تلمسان، منذ دخـول الفاتحين المسلمين لها، في عهدي أبي المهاجر دينار (55 ـ 62/ 675 ـ 681) والقائد موسى بن نصير (86ـ 96 هـ/ 705 ـ 715) الـذي جعـل مـن منطقتـي طنجـة وتلمســان اقليما اداريا واحدا، وعين عليه طارق بـن زياد، وكان هذا الأخير يقسم وقـت اقامته بين مدينتـي طنجة وتلمسان [43]، ولا شك أن بعـض الأسر العربيـة والمستشاريـن العرب، لطـارق بن زيـاد، كانـوا يقيمون معـه، في تلمســان وإن كنا لا نعـرف شيئـا ، عن الإنتماءات الجغـرافيـة لهذه الأسر المشرقيـة وللقبائل التي استقرت بها .

غير أن خلفـاء بني أميـة في دمشق، حـرصوا على طبـع الدولـة الإسلاميـة المترامية الأطـراف، بالطابـع العربي الإسلامي، شكـلا ومضمونا بحيث قلدوا الـوظائف السامية، والمراتـب العالية، وقيـادة الجيوش لعشيرتهم والقبـائل العربيـة المتحالفـة معهـم، ولا سيما منها القحطـانية اليمنية والعدنانية المضرية [44].

فقد حلـت فروع وافخـاذ من هاتين القبيلتين، ومـن غيرهما ببلاد المغـرب مع الجيـوش الفاتحة واستقرت في حواضره وبواديه، باستقرار الفتح فيه، وكانـت بمدينة تلمسـان حامية عربية من هذه الجيوش تقيم بها وترابط فيها [45].

استمر العنصر العـربي في التدفق إلى بـلاد المغرب، في عهد الـولاة خلال القرن الثـاني الهجري الثامن الميلادي [46]، من الحجاز ومصر وخراسان، والشام والعـراق، مع القواد كلثوم بن عياض (123 هـ/740) وحنظلة ابن صفوان (124 ـ 742)، ومحمد بن الأشعث الخزاعي (155 ـ 772م) وروح بن حاتم (172/790)، ولا يعني أن هذه الطلائع هي الجيوش والقبائل العربية كلها، التي قدمـت إلى بلاد المغرب، قصـد الفتح والإستقرار وإخماد الثـورات والفتن، في هذه الـربوع، وإنما كانت هناك جيوش وقبائل وأسر عربية ومشرقية اغفلتها النصوص التاريخية .

والجدير بالملاحظة هو أن معظم القبائل والجيوش، التي قدمت إلى بلاد المغرب، كانت تتكون أغلبها مـن العرب اليمنية والمضريـة، وأن التسمية الشامية والمصريـة والحجازية والخراسـانية، لا تعني بالضرورة انتماءات عرقية بقدر ما هي انتماءات جغرافية [47].

وإلى جانب هذه القبائل، فقد عرفت مدينة تلمسان فئة من الأشراف الحسنية، من أبناء سليمان بن عبد الله بن الحسن [48]، أحد إخوة مؤسس دولة الأدارسة بفاس سنة 172 هـ/ 788م الذي اهتم بمدينة تلمسان، وجعلها قاعدة من قواعده الهامة في المغرب الأوسط سنة 173 هـ/ 789م [49]، ومنذ هذا التاريخ صارت تلمسان مقرا مفضلا للإشراف الحسنيين [50]، وفي القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي اكتسحت قبائل بني هلال وبني سليم العربية بلاد المغرب، واستقرت في مناطق كثيرة، وعندما أقام يغمراسن بن زيان الدولة العبد الوادية سنة 633 هـ/ 1235م. حالف أغلب قبائل بني هلال، واستقدم العديد منها، إلى ضواحي مدينة تلمسان، للإستفادة من خدماتها، في بناء دولتهم وتوسيع رقعتها وخاصة منها قبائل زغبة، والمعقل وحميان وبنو عامر [51]، الذين ازدادوا حظوة عند سلاطين بني زيان، وقد ظل بنو عامر مخلصين لبني عبد الواد إلى أن اضمحلت دولتهم في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي[52]، فمنحوهم أراضي الإقطاع التي كانت للجماعات العسكرية، في عهد الموحدين مقابل ولائها وخدماتها الدفاعية، فانتقلت بذلك الأرض من اقطاع استغلال إلى اقطاع تمليك [53] وأسكنوا بعضهم إلى جانب القبائل الزناتية في بعض أحياء المدينة، وفي أرباضها، حتى سميت هذه الأحياء «بسقائف القبائل» [54].

وكان لبني عامر حي بربض تلمسان يقطنون فيه [55]، وانزلوا البعض الآخر، بظهير المدينة وضواحيها، ليكونوا ذرعا واقيا للدولة الفتية، وحصنا حصينا لها، وتعد هذه الإجراءات، في حد ذاتها امتيازات خاصة لهذه العناصر، وبالرغم من غياب المعطيات الإحصائية، عن عدد هذه الجالية بدقة فإنها تمثل العنصر الثاني، في المجتمع التلمساني خلال العهد الزياني.

الأندلسيون:

عرف المغرب الأوسط، توافد العديد من الأسر الأندلسية، خصوصا في فترة الأزمات السياسية للأندلس، فقد شيدت جالية منهم مدينة تنس سنة 262هـ/ 876 [56]، ومدينة وهران سنة 290 هـ / 903 [57]، واستقر في الأولى أهالي البيرة وتدمير، واعادوا الحركة التجارية لمرسى الدجاج، المنفذ البحري الرئيسي للدولة الرستمية، التي كانت لبني أمية معها علاقة طيبة وتعاون سياسي ودبلوماسي، وتجاري وعسكري مشترك [58].

وكان لهم وجود في بنـي جد ليداس القريبة مـن مدينة تنس، وفي مدينـة لمسيلة في أوائل القرن الرابـع الهجري العـاشر الميلادي، وكذلـك استقرت طـائفة منهـم في مرسى أرزيـو، كانـت تقوم بتصدير ملح سباخها، إلى العدوة الأندلسية [59].

ولعل الوجـود الأندلسي المبكر في بلاد المغرب، يرجـع إلى أن الدولة الأموية، كـانت تبحث لها عـن قاعـدة أندلسيـة أمـامية في بـلاد المغـرب، تقف بها في وجـه المد الفاطمـي، ولهذا لجأت إلى الشواطىء المغربية، وأسست فيها عدة قواعد لها، لضرب مخططات الفاطميين والحد من توسعهم وانتشار مذهبهم [60].

والظاهر أن الأندلسيين ظلوا يهاجرون إلى المدن الساحلية، خصوصا في فترة الأزمات السياسية للأندلس، حيث وجدت في بلاد المغرب ظروفا ملائمة للإستقرار والأمن. ويبدو أن نسبة كثافتهم تختلف مـن مدينة إلى أخرى، حسـب أهميتها التجاريـة وموقعها الإستراتيجي والسيـاسي، ولعل بعض الأنـدلسيين قد استقروا بمدينـة تلمسان في العهديـن المرابطي والموحدي، في ظل الـوحدة السياسية، التي جمعـت العدوتين المغربية والأندلسية، ما بين القرنين الخامـس والسابع الهجرين الحادي عشر والثالـث عشر الميلاديين، فقـد جاءت وفـود عديـدة في هذه الفترة، تطلـب الأمان والسكينـة في مـدينـة تلمسـان عـاصمة المغـرب الأوسـط، والى مـدن وحـواضر أخـرى في بـلاد المغرب[61]. وقـد عمل الفقهـاء والأدباء والعلماء منهـم، إلى جـانب الأمـراء المرابطين والموحديـن وأصبحوا مستشاريـن لهم، لأن الأمراء شجعوهم على الرحلـة والهجرة، سواء كان ذلـك طوعا أو كرها [62]، وأن بصمات المهندسين والفنيين الأنـدلسيين في مدينة تلمسـان، كانـت واضحة، ولا سيما في الصناعة والعمران في العهدين المرابطي والموحدي [63].

وتضاعف عـدد المهاجرين الأنـدلسيين لبلاد المغرب، حينما تمكن الاسبـان من الإستيلاء على مدن الشرق الأندلسي وغربه مثل لوشة [64]، سنة 622 هـ/1225 ومـاردة [65]، سنة 626 هـ 1928 وقرطبة 636 هـ/ 1238م، وبلنسبة 636 هـ/ 1238 ومرسيه [66] سنة 636 هـ/ 1232، وشاطبة سنة 645 هـ 1247، واشبيلية 646 هـ/ 1248 م، في النصف الأول مـن القرن السـابـع الهجري القرن الثالث عشر الميلادي[67]، وفي هذا الصدد يقـول ابن خلـدون: «فلما تكالـب الطاغيـة على العـدوة والتهـم ثغورها، واكتسح بسائطها وأسّف إلى قـواعدها وأمصارها، أجـاز الإعـلام وأهل

البيوت إلى أرض المغربين (الأوسط والأقصى) وإفريقية، وكان قصدهم تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية به»[68].

وقد كان أول من غادر بلاد الأندلس، من المسلمين سراتها ونخبتها مستبدلين بالأهل أهلا وبالأوطان أوطانا [69]، ففي منتصف القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، نزلت جالية كبيرة[70] أرض المغرب الأوسط، حط معظمها عصا الترحال، في عاصمة بني زيان حيث وجدوا الترحيب والتعضيد، من قبل الأسرة الحاكمة، وفضل آخرون التوجه إلى مدينتي الجزائر وبجاية، بينما تفرق الباقي بين مدينتي ندرومة وهنين [71].

ومهما يكن من أمر فالجدير بالذكر هو: أن المهاجرين الأندلسيين، الذين نزلوا بمدينة تلمسان كانوا من الاعلام وأهل البيوتات، ومن وجوه القوم وأعيان الأندلس [72]، استعان بهم أمراء بني زيان في تسيير دواليب الدولة ومؤسساتها واجهزتها، وقيادة الجيوش وخاصة الذين كانت لهم خبرة، في مجال الادارة والكتابة والسياسة والتدريس [73].

وقد أعطى السلطان يغمراسن التلمساني، أهمية كبيرة لموضوع المهاجرين الأندلسيين، وان الظهير الذي أصدره في شأنهم، يؤكد على العناية الكاملة بهم، ويكرّم نبهاءهم وأعيانهم غاية الاكرام، ويبين حقهم في السكن والتملك للأراضي الزراعية المناسبة لنشاطهم، في أرضهم المفقودة بالأندلس، حتى يشعرون بالأمن والتسلية عما فقدوه في وطنهم، ويبدو أن العاطفة الدينية والاخوية والانسانية كانت لها أثر كبير في اصدار ذلك الظهير، الذي يتطرق إلى وضع هؤلاء الأندلسيين والتماس المكان المناسب لهم، للإقامة ومطالبة الجميع، وحثهم على تنفيذ الأوامر الصادرة في هذا الشأن [74]، ويتكىء هذا الظهير على ما لحق بالأندلسيين من مصائب، في عقيدتهم وفي أموالهم وأوطانهم، وينص الخطاب الرسمي في الظهير على أن يغمراسن: «بوأهم من اهتمامه الكريم وانعامه العميم جنات ألفافا» [75].

ويصرح ابن الخطاب بأن يغمراسن، فضل أن يسكن المهاجرين الأندلسيين مدينة تلمسان، عن جميع المدن الأخرى، وفي هذا الصدد يقول: «وأطلع (يغمراسن) على أغراضهم (الأندلسيون) السديدة في اختيار حضرته السعيدة للسكنى، على سائر البلاد، فلحظ منهم النية واعتبرها وأظهر عليهم مزايا ماهم من هذه... وأذن أيده الله لهم ولمن شاء من أهل تلمسان» [76].

وأن ظهير يغمراسن يجعل من منحه السكن، ووسائل أخرى لهؤلاء، هو تهدئة لنفوسهم المصابة من ظلم خصومهم واعدائهم، وطمأنتهم على حاضرهم ومستقبلهم وفي هذا يقول ابن خطاب: «ووطأ لهم جناب احترامه تأنيسا لقلوبهم المنجاشة إلى جانب العلي واستيلافا، وأشار بماله فيهم من المقاصد الكرام، وأطفى عليهم من جنن حمايته ما يدفع عنهم طوارق الاضطهاد»[77].

ولعل أكبر جالية أندلسية نزلت بتلمسان، هي التي كانت في عهدي الأميرين عبد الواحد بن أبي عبد الله (814-827هـ/ 1411-1424م)، وخلفه أبي العباس أحمد الزياني (834-862 هـ/ 1431-1462م)، وقد استقبلهم هذا الأخير بحفاوة ووجههم حسب طبقاتهم وحرفهم، فالعلماء والوجهاء وسراة القوم، أنزلهم عاصمته مدينة تلمسان، وأنزل معهم التجار والحرفيين، وأصحاب رؤوس الأموال في درب خاص بهم، عرف بدرب الأندلسيين[78].

كما قام باسكان العامة والفلاحين ضواحي المدينة وأحوازها، ولا سيما في وادي الوريط فانتشروا على ضفتيه، حيث شيدوا قرى وبساتين وأسسوا مصانع عديدة ومتاجر كثيرة، وغرسوا الحقول والمزارع المختلفة الثمار، فجلبت للبلاد، وأهله الخير والنعمة[79]، ويشير إلى ذلك ابن الأعرج بقوله: «واظهروا هناك من صنائعهم ومتاجرهم، ما عاد بالنفع على البلاد وأهلها وملؤوا تلك الشعاب من البساتين المتنوعة الثمار، وأنواع الرياحين والأزهار. . . واتصلت مساكنهم بذلك الوادي إلى نهر السطفسيف[80]، أقاموا بها عمارة بقيت آثارهم بتلك الشعاب العميقة ذات الأدراج المؤنقة والمياه المتدفقة، والثمار المتنوعة[81]، وقد وصلت قرى هذه الجالية الأندلسية إلى جبل بيدر حيث توجد زاوية الشيخ أحمد بن محمد المناوي الحسني المتوفي سنة 930 هـ/ 1524 م)[82]، وإلى مدشر «الشولي» وعين تالوت، التي برز فيها العالم علي بن محمد التالوتي الأنصاري، وهو أحد أخوة الإمام السنوسي التلمساني المتوفي سنة 895 هـ/ 1489 م[83]، ومدشر عين «فزة» وغيرها من المداشر والمعاهد التي ذهب رسمها، ولم يبق إلا إسمها، في ضواحي مدينة تلمسان وأحوازها[84].
فقد حددت درجة الثقافة ونوعيتها والمهنة، التي كان يحترفها المهاجرون الأندلسيون المكان والوظيف، الذي يتناسب مع طبائعهم واختصاصهم الحرفي والمهني، فأهل البادية والزراعة وجهوا إلى المناطق التي تكثر فيها الفلاحة، ووجه المثقفون والتجار والحرفيون وأصحاب رؤوس الأموال، الى مدينة تلمسان عاصمة بني زيان، أما أصحاب الملاحة والصيد البحري، فاستقروا بالمدن

الساحلية[85]، ويؤكد ذلك قول المقري: «ولما نفذ قضاء الله، على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة، فتفرقوا ببلاد المغرب من بر العدوة، حتى بلاد افريقية، فأهل البادية قد مالوا إلى البوادي، إلى ما اعتدوه ودخلوا على أهلها، وشاركوهم فيها، فاستقوا المياه، وغرسوا الأشجار واحدقوا الأرض، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرقت بلادهم وصلحت أحوالهم»[86].

وقد استمر تدفق الهجرة الأندلسية وتقاطرها، على مدينة تلمسان ودار الاسلام في بلاد المغرب وافريقية بدون انقطاع، إثر وبعد سقوط غرناطة وزوال دولة بني الأحمر سنة 897 هـ 1492 م[87]، ومما تجدر ملاحظته أن هؤلاء المهاجرين، قدموا إلى بلاد المغرب الأوسط ـ كما وضحنا سابقا ـ في مجموعات (جاليات) موزعة في الزمان والمكان[88]، وبالرغم من أنهم لا يختلفون كثيرا على السكان المحليين، من حيث اللغة والعرق والدين واللباس والطبائع[89]، إلا أنهم ظلوا محافظين على مميزاتهم وخصوصياتهم الأندلسية، والبعض من عاداتهم وتقاليدهم، ونمط حياتهم، كما كانوا كثيرا ما يظهرون، الاعتزاز بأصلهم، وبانتمائهم الجغرافي الأندلسي[90]، وكانوا يمتهنون مختلف المهن والصناعات[91].

وقد أقدم المحترفون بالفلاحة، على تطوير الزراعة، وتجديدها باستعمال أساليب وطرق زراعية متطورة، في ضواحي مدينة تلمسان، وخارج أسوارها ولا سيما على ضفتي وادي الوريط، واختص آخرون بفن البناء والعمارة وصناعة الجلود، وفن الخطوط والتعليم وتجارة الخشب، بينما اتجه آخرون.

إلى الإشتغال بالتجارة، ومختلف الصناعات المفيدة، من طرز ونسج الحرير، وحياكة القطن، والكتان، وغزل الصوف، وقاموا بتطوير صناعة الفخار والخزف، وأنواع عديدة من السلاح، وسائر الأواني والأدوات المنزلية المعروفة آنذاك، ويؤكد ذلك المؤرخ ابن الأعرج بقوله: «وكان لعهد نزول الأندلسيين بها (تلمسان) مزدانة بالمصانع المفيدة، فما شئت من أطرزة، ومنسوجات الحرير، والقطن والكتان والصوف، ومعامل الفخار والخزف وأنواع السلاح، وسائر الأواني المنزلية»[92]، وقوله في مكان آخر أنهم:

«نشروا بين الناس آدابهم وراجت مصانعهم، وقلدهم الناس في فلاحتهم، واعتنائهم بغرس الزيتون، وسائر الفواكه، حتى صارت البلاد وأهلها في حالة زاهية وعيشة راضية»[93]، وعمل

بعض الأندلسيين، في صفوف الجيش الزياني، كجنود وضباط في الفرق العسكرية، فقد استعمل منهم أبو يحي يغمراسن، ابراهيم الآبلي وأخاه أحمد، في سلك الجندية، حتى صار ابراهيم قائدا عاما لمدينة هنين [94].

فبالإضافة إلى الشرائح الإجتماعية الأندلسية التي ذكرناها، توجد من بينهم طبقة هامة من المهندسين والبنائين واليد العاملة الفنية، التي أرسلها السلطان الغرناطي أبو الوليد (713 هـ-725 هـ/ 1313 ـ1325)، إلى مدينة تلمسان في إطار التعاون الفني والإقتصادي والعسكري، الذي كان سائدا بين تلمسان وغرناطة، فاستعملهم أبو حمو موسى وابنه أبو تاشفين في بناء القصور والمنازل الفخمة والبساتين الناظرة، وفي هذا الصدد، يقول ابن خلدون: «فبعث إليها (تلمسان) السلطان الوليد صاحب الأندلس بالمهرة، والحذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس، فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين»[95].

وكذلك هاجر الأطباء والعلماء، والفقهاء، والأدباء، إلى مدينة تلمسان حاملين معهم مصنفاتهم ومكتباتهم، فاحتضنهم البلاط الزياني بحفاوة، وقلد بعضهم خطط الكتابة والحجابة، وقد اشتهر من بينهم «بنو وضاح» الوافدون من شرق الأندلس، في بداية عهد أبي يحي يغمراسن، فقربهم إلى مجلسه وانزلهم منزلة الخلة والشورى [96]، فدعم بهم أركان دولته، وجعلهم أداة توازن، وكان الأديب أبو بكر بن خطاب مرسلا بليغا وكاتبا مجدا وشاعرا مفوها، جعله يغمراسن كاتبا وصاحب القلم الأعلى في بلاطه [97]، صدرت عنه عدة مراسلات إلى ملوك الموحدين بمراكش، وبني حفص بتونس[98]، كما وفدت إلى مدينة تلمسان، أسرة أندلسية اشتهرت بالعلم والأدب والفقه، هي أسرة «بني ملاح» من بيوتات مدينة قرطبة ومن سراتها. كانوا يحترفون سك النقود، ويتمتعون بثقة كبيرة، ويتصفون بالأمانة، نزلوا بتلمسان مع جالية قرطبة، وتقلدوا وظيفة سك النقود وخطة الأشغال، وزادوا إليها مهنة فلاحة الأرض بضواحي تلمسان، بالإضافة إلى منصب الحجابة[99].

وتواصلت خدمتهم في البلاط الزياني مع عثمان بن يغمراسن (681ـ703هـ/1281ـ1303م) وابنه أبي حمو موسى الأول (707ـ 718 هـ/ 1307ـ 1318)، الذي كان لهم في دولته مزيد من العناية والحظوة، فولى الوزارة والحجابة محمد بن ميمون بن ملاح، ثم ابنه الأشقر من بعده، وعين

ابنه ابراهيـم بن محمد على نفس الخطة بعدهما، واشرك معـه في الوظيفة قريبه عليا بـن عبد الله بن ملاح[100].

وظلت هذه الأسرة تختص بالمناصب الاداريـة السامية، إلى أن نكبهم أبو تاشفين الأول بن حمو الأول، عندما ثار على أبيه وقتلـه مع خاصته وخلصائه من بني ملاح، بـالدار البيضاء في تلمسان سنة 718 هـ/ 1318 م[101]، ومهما يكن من أمر فالجدير بالملاحظـة هو أن الجالية الأندلسية تركت بصماتها، الإجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرانيـة في المجتمع التلمساني، وساهمت في تطويره ونموه في مختلف المجالات، وقـد نجحت في مهامها الادارية والسياسيـة، في البلاط الزياني، على مر السنين، حتى ظهـرت منهم ـ فيما يبدو ـ طبقـة سياسية أندلسيـة متميزة، ولا سيما في النصف الأول من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، تكتلت فيما بينها، وأصبحت تمثل مركز القوة، في البـلاط الزياني، تثير أحيـانا بعض الـدسائس، وتقاوم معـارضيها بمختلف الـوسائل للإحتفاظ بالنفـوذ، والإمتيازات السلطانية[102]، ولعلهم كـانوا يحاولون فرض نـوع من الوصـاية السياسية والحضارية على أهل تلمسان، كما فعلوا مع أهل تونس[103].

وقد بلغ نفوذهـم الاداري والسياسي مبلغا جعل بعض شيوخ بني زيان، وبعض علماء تلمسان يضيقون بهم درعا[104]، وخاصـة في عهد الأمير عبد الـواحد ابـن أبي عبد الله (814 ـ 827 هـ/ 1411 ـ 1424)، الذي طـالت مدته نسبيـا وساءت سمعته، حسـب تعبير أحد المؤرخين[105]، فاتخذ بطانة مـن جالية أندلسية، دفعت به إلى الانغماس في ملـذات الحياة وبهرجها، ونعيم الترف ومغرياته، فصرف الأموال الكثيرة على شهواته، وأغدق العطـايا على خلصائه وخلانه، وتوسع في لوازم الـرفاهيـة، واتخذ لنفسه أعيـانا مـن اليهود وأعوانـا منهم، فـأنكر عليـه ذلك فقهـاء المدينة ووجهاؤها. وفي هذا الصدد يقول الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن مرزوق الحفيد المتوفي سنة 842 هـ/1439م.

تلـمسـان دار لا تـليـق بـجـاهـنـا — ولـكـن لـطـف الله نـسـأل في القـضـا
فكيـف يرجـى الخيـر ممن يسـوسـه — يـهـود وفجـار ومن ليـس يرتضى[106]

والظاهر أن الفوارق الأصلية والثقافية، بين سكان تلسمان وبين المهاجرين الأندلسيين، بدأت تتقلص شيئا فشيئـا مع مرور الزمـن، وأخذوا ينصهرون جميعا في البيئـة الثقافية المحلية للمـدينة،

فأثروا وتأثروا واصطبغـوا جميعا في نهاية المطاف بالطابع التلمساني المميـز. وفقد الأندلسيون الكثير من خصوصياتهم، التي كانوا يتميزون بها وتخلوا عن ذلك التضامن والتكافل، الذي كانوا يحرصون على التمسـك به، على أسـاس أنهم يمثلـون الأقليـة في المجتمع التلمسـاني [107]، غير أن الفقر الوثـائقي وانعدام النصـوص في هذا المجال، حـالـت دون تحديد عـددهم في مدينـة تلمسان، أو تقدير نسبتهم بين السكـان، إلا أنه يمكن القول بأنهم كانوا يمثلـون العنصر الثالث، في المجتمع التلمساني، وأن تأثيرهم الثقافي والإقتصادي والسياسي كان قويا [108].

وإذا اعتبرنـا أن مدينـة تلمسان، عـاصمـة بني زيـان، كـانت المقصـد المفضل لهذه الجالية الأندلسية، وان المصادر التقليدية لا تتحدث إلا عن الأعلام المعروفين، الذين قاموا بأدوار بارزة، في الميادين المختلفة، كـأسر الأدباء والأطباء والعلماء والكتـاب والوزاراء والقـائمين على الأشغال الكبرى، كالمهندسين والعـاملين في الميدان المالي والإداري، فإن هناك بدون شك عـددا هائلا من العائلات التـي حطت عصا الترحال بمـدينة تلمسان وضـواحيها، المتكونة مـن الحرفيين والتجار والفلاحين والأطـر الادارية المتوسطة والمعلمين، استقـرت بصفة نهائية بمدينـة تلمسان وفي وادي الوريط، حيث كـانوا يعملون في الحقل الفلاحي والصناعي والتجـاري والتربوي، وفي غيرها من مدن المغرب الأوسـط السـاحلية منها والداخليـة، حتى أصبح الطابع الحضـاري لأهل تلمسـان، يكاد يكـون طابعا انـدلسيا نلاحظه في الفضـاءات العمرانية، ونميـزه في مختلف البناءات الـدينية والدنيـوية، وفي التراث الفنـي والشعري والموشحـات، فضلا عما كـانوا يتمتعـون به، مـن حرف متطورة وصناعـات وفنون مختلفة، طعمت النهضة المغـربية، وغذت معظم روافـدها، لأن معظم المدن السـاحلية للدولة الزيانية، كانت تقطنهـا جاليات اندلسية كثيرة في مدينة هنين، التي تقابل مدينة المرية [109]. ومستغانم التي تقابل مدينة دانيـة بشرق الأندلس، ولا تبعد عنها إلا بنحو يوم وليلة [110].

الأعــزاز:

اشتمل المجتمع التلمساني، على بعض العائلات الغزيـة، التي قدمت من بلاد المشرق، وهي من القبائل التركية التي كانت تسكن قبل انتشار الاسلام، أواسط آسيا من أطراف الصين شرقا إلى البحر الأسود غربا [111]، كانت هـذه القبائل تعيش في معظمها على الرعـي وتربية المواشي [112].

اشتهرت بالفـروسية والرمي بالقوس والنشـاب، وقد اعتنقت الإسلام في النصف الثـاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميـلادي، عرفت لـدى المؤرخين المسلمين باسـم «التركمان»، وعنـد الروم باسم "OUZOI" (113) ومن أشهـرها السـلاجقة، الذيـن تمكنوا من الإستيـلاء على شبه جـزيرة الأناضـول (آسيا الصغـرى)، وأخـذهـا مـن أيدي البـزنطيين سنة 464 / 1071، وتمكنوا مـن السيطـرة على معظم أراضي الشرق الأدنـى، في نهاية القـرن الخامس الهجـري (114) (الحادي عشر الميلادي)، ويعتبر الأتـراك العثمانيون، اقـرباءهم ومـن أبناء عمـومتهم (115)، ذكرهـم المؤرخون المغاربـة، باسـم «الغز» و «الأغزاز»، ويبـدو أن جاليـة الأغزاز قد حلـت ببلاد المغـرب على عدة مراحل، وفي فترات زمنيـة متعاقبـة، فالنصـوص التـاريخية تشير، إلى أن الطـالعة الأولى منهـم، وصلت إلى الديار المغربية في عهد يوسف بن تاشفين 450ـ 500هـ/1088ـ1106م)، الذي يعد أول من أدخـل الأغزاز الرماة، إلى جيشـه سنة 454 هـ/ 1062 (116)، وقدمت الطالعـة الثانية إلى افريقية سنة 488هـ/1095م، في عهد الأمير تميم بن المعز الزيري (453ـ 501/ 1061ـ 1107م) (117)، وهناك من يذكر أن وصولهم إلى هذه الربوع، كان في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وهنـاك صادفـوا التوسع الموحـدي بقيادة عبـد المؤمن(524 ـــ 558 هــ/ 1129 ـ 1162)، الذي لم يتوانى في احتضانهم وضمهم إلى الفرقة العسكرية، فساعدوه على الاستيلاء على افريقية سنة 553هـ/1158م (118).

وقد وصلت مجموعات أخـرى، مـن الأغـزاز إلى مدينـة طرابلس سنة 568 هـ/ 1172 م، وهي أكثر أهمية مـــن غيرها، لأنها تضـم عددا كبيرا من الـرماة، أقاموا في افريقيـة، وانضموا إلى جيش الثائر ابـن غانية الميورقــي، وتحالفـوا مــعـه ضـد الموحـدين، واستطاعـوا أن يستولـوا على مدن ومناطق كثيرة في افريقيـة، بعد معارك شديدة وخاصـة في مدينة قفصة، التي استولـوا عليها سنة 583هـ/ 1187م (119).

لكن الموحدين بقيادة الخليفة المنصور (580 ـ 595 هـ/ 1184 ـ 1193 م)، كانوا لهم بالمرصاد فأوقعـوا بهم بعد ستـة أشهر فقـط، من انتصـارهم بقفصـة (120)، فاستسلـم الأغزاز بعـد طلب الأمان، فأمنهم المنصور على أنفسهم، وما ملكت إيمانهم (121)، مقابل الخدمة في جشيه، وصاروا بعد ذلك فرقة مميـزة في الجيش الموحدي، وعن هذا الانتصار يقول الشاعـر المنصور بن أبي بكر بن مجبر: (الطويل).

وما أغنـت قسـي الغزّ عـنهـا فليسـت تـدفـع القـدر السـهـام

غـدوا فـوق الجياد وهـم شخـوص وأمسـوا بالصعيـد وهـم رمام[122]

ويقول أيضا :

أنحى الزمان على الاغزاز واجتهـدت في قـطـع دابـرهم احـداثــه السـود

انتم سليمـان في الملـك العظيـم وفي طـول التهجـد في المحـراب داوود[123]

وقد استعملهم الموحدين، في جهادهم ضـد المسيحيين في اسبانيا، وكان للأغزاز دور كبير في هذه الحرب المقـدسة، وبلوا بـلاءا حسنا فيها، لما كانـوا يتميزون به مـن خفة الحركة وسرعـة الكر والفر، والمهارة في الرشق بالنبال.

والخبرة في القتـال فقد كـانـوا يستطيعـون الرمـي بـالنشاب، بـدون تـوقـف خيولهم وهـم على ظهورها[124].

وحلت الطالعة الـرابعة، من الأغزاز أو الأكراد ببــلاد الـمغرب سنـة 660 هـ/ 1261 م، إثر غزو المغـول لمدينة بغـداد والاستيلاء عليهـا سنة 656هـ/ 1257، وقتلوا فيهـا آخـر خلفاء بني العباس[125]، ونزلت هذه الجالية الجديدة بمراكش في عهد الخليفة المرتضي الموحدي (640-665 هـ/1248-1266 م)[126]، فأحسن استقبالهم ومنحهم الجراية والاقطاعات الواسعة، وجعل لهم مزية ظاهرة في كل شهر تدعى البركة أو الجامكية[127]، بينما كان الموحدون يأخذونها ثلاث مرات في السنة، أي مرة واحدة كل أربعة أشهر[128]، واجازهم مع الجيوش الموحدية إلى بلاد الأندلس للجهاد[129].

ولما انتقض أمر الموحدين، خدم الأغزاز في جيـوش الدول التي قامت على أنقاض دولتهم، في الديار المغربيـة، وقد التحق بعضهم بجيش يغمراسـن، ابتداءا من سنة 633 هـ/ 1235 م[130]، وهي السنة التي تـولى فيها شؤون دولته الناشئة أو بعـدها بقليل، ولكن - فيما يبدو - اختلط الأمر على المؤرخين، فاختلفوا في انتماءاتهم العرقية فذكرهم يحي بن خلدون بالاغزاز[131]، بينما جعلهم أخوه عبد الرحمن أكرادا[132]، ولعل هذا الاختـلاف جاء نتيجة وجود فرقتين في جيـش يغمراسن الزيـاني، الأولى من الأغـزاز والثانيـة من الأكـراد، الذيـن لم يظهروا على مسرح الأحـداث في بلاد المغرب إلا بعـد سنة 656 هـ/ 1257 م[133]، فقد كـان للأكراد أشياع وحـامية ترابط في مـدينة

تلمسان، إلى جانب فرقة الأغزاز، وقد اشتهـر من بينهم، في عهدي أبي حمو موسى الأول وابنه أبي تاشفين الأول، علي بن حسن [134]، وابنه موسى بن علي، اللذين تقلدا وظائف سامية، في الدولة الزيانية، ووليا قيادة جيوشها [135].

وكان موسى بن علي القائد الحاجب، من كبـار قواد الجيش الزياني، عقد له أبو حمو الأول على ناصيـة شرق المغرب الأوسط، وأوكـل له قيادة الجيـوش الزيـانية عدة مـرات، لضرب المناوئين في الداخـل، وكلفه بمهام حـربية خطيرة، وهي الهجوم على أراضي بنـي مرين في الغـرب، وحصار المدن الغربيـة الحفصية، واستمـر في هذه الـوظيفة في عهـد أبي تاشفين الأول، واستطـاع أن يحرز انتصارات هامة في سجلماسة سنة 722هـ/ 1322م وفي بجاية وقسنطينة، وبلد العناب وتونس، ما بين سنتي 714 هـ/ 730 هـ/ 1314 ـ 1330م، دوخ فيها جيـوش بني حفص، وشـد الخناق عليهم فترة زمنية زادت عـن خمس عشرة سنة، وتمكن من مد نفـوذ بني زيان في هذه المنـاطق لعدة سنوات [135]، وكان هـذا القائد الغـزي الكردي، كثيرا مـا يثير الدسـائس بين السلطان والقـادة الآخرين، كما فعل مع ابن عم السلطان محمد بن يـوسف بن يغمراسن، فتسبب في عزله من ولاية مليانة [136]، أمـا ابنـه يحي بن مـوسـى، فكـان له في «سـوق الـدولـة نفاق» حسـب تعبير ابـن خلدون[137].

والظاهر أن فرقة الاكراد، على قلتها تكون قد انـدمجت مع الاغزاز في آخر الأمر، ولعل هذا هو السبب الذي جعل بعض المؤرخين، يخلطون بين انتماءات المماليـك في الجيش الزياني، ولا يفرقون بين الاغزاز والأكراد [138].

أما فيما يتعلق بأثرهم الاجتماعي والثقافي في تلمسان فغير واضح، لأن النصوص التي بين أيدينا لا تشير إلى ذلك، إلا أنهم ـ فيما يبـدو ـ يكونون قـد اندمجوا شيئا فشيئا، في المجتمـع التلمساني، وانصهـروا مـع مرور السنين، لأنهم يشكلـون أقليـة قليلـة، فتـأثـروا هم وأولادهـم بطبـائع أهـل تلمسان، وتخلقوا بأخلاقهم وعاداتهم ونمط عيشهم.

الأعـلاج أو الصـقالبـة :

استخدم بنو زيان الأعلاج أو الصقالبة [139] في بلاطهم، كغيرهـم من الدول الاسلامية المتعاقبة في بلاد المشرق والمغـرب والأندلس، وهـم عناصر من جنسيات أوروبيـة مختلفة يجلبون مـن المانيا

وايطاليا وفرنسا وقطلونية وجليقية، في شمال اسبانيا، بواسطة الشراء أو الغارات والغزوات للشواطىء الأوروبية وجزر البحر المتوسط أو عن طريق الهدايا[140].

نشأ الاعلاج في دار الاسلام تنشئة اسلامية، ودربوا على أعمال القصر لخدمة الحريم، وتكونت منهم فرق خاصة في الجيش وحرس السلطان[141]، وتقلدوا القيادة وخطط الوزارة والحجابة.

وقد اشتهر منهم في البلاط الزياني هلال القطلاني الذي سباه المسلمون، من نصارى قطلونية[142]، وجلبوه إلى غرناطة حيث أهداه السلطان الغرناطي محمد الثاني الأحمر (671ـ 701/ 1273ـ1302)، إلى السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن (681ـ 703/1283 ـ 1303)، ثم صار هلال القطلاني بعد ذلك إلى أبي حمو موسى (707 ـ 718/ 1307 ـ 1318)، الذي دفع به إلى ابنه أبي تاشفين، ومعه بعض الاعلاج يقومون بخدمته وتربيته [143]، وكان هلال من الصق الاعلاج واقربهم إلى أبي تاشفين، حتى أصبح من خلصائه، وثقاته فقلده الحجابة والوزارة، عندما تولى العرش الزياني واطلق يده في خطط الدولة، حتى صار بيده الحل والعقد فكان مهيبا صارما عنيدا اتخذ كتابا وضياعا [144]، وصار له مال كثير وسفينة لنقل التجارة [145]، وقام بزحزحة منافسيه، وتصدى لمعارضيه في البلاط الزياني [146]، وبرزت معه مجموعة من الاعلاج كان لها مركزها السياسي والاجتماعي في المجتمع التلمساني، بحيث شكلوا فريقا مهما، من القادة والضباط في الجيش الزياني مثل: القائد مسامح، وفرج بن عبد الله، وظافر مهدي وعلي بن تاكرارت [147]، وفرج الملقب بشقورة، وغيرهم من الاعلاج الذين صاروا عنصرا من عناصر المجتمع التلمساني، في العهد الزياني [148].

السود:

لا شك أن الرقيق الأسود كان موجودا بين العناصر الاجتماعية المختلفة، التي عرفتها مدينة تلمسان في العهد الزياني، وان أغلبهم كانوا من الخصيان، الذين يعملون في القصور، والحقول والجيش، ومن الجواري اللائي كن يسخرن للخدمة في المنازل [149].

وقد وجد وصفان السودان، ووصيفاته بين مختلف الطبقات الاجتماعية بمدينة تلمسان، كما استخدمت الإماء للفراش ولإرضاع البنين [150]، وتشير الوثائق إلى أن عددهم، قد تضاعف في

عهد بني زيان [151]، لأن الحياة الاقتصادية في المدن والحقول، تعتمد على اليـد العاملة المستأجرة وكانـت تجارة الرقيـق الأسود، في بـلاد المغرب نـافعة مـزدهرة، تـأتي في الدرجـة الثانيـة بعد تجارة الذهب[152].

فقد كانوا يجلبون من بلاد السـودان، المصدر الرئيسي لهذا النوع من الرقيق حيث كانوا يصطادون من حافـات الغابات الافريقيـة، فـقـد كان أهل غـانة والتكرور يقومـون بالغـارات المستمرة على سكـان هـذه المناطـق، فيسبـون الرجـال والنســاء والأطفال ويبيعـونهم لتجار المغـرب واليهود، الذين ينقلونهم إلى الشمال الإفريقي [153]، ومنها إلى العالم الاسلامي، وإلى أوروبا، وبعد اكتشاف القـارة الأمـريكيـة ازداد اقبـال الأوروبيين، على طلـب الـرقيـق الأسـود لاستغـلالهم في الـزراعـة والتعدين[154].

وكان عبيد هـذه المناطق مرغـوبا فيهم، لاتقانهم الأعمال المنـزلية في الحقول والجيش، وكـانت اثمانهم مرتفعة تتراوح ما بين 25 إلى 60 دينارا [155].

وقد لاحـظ الأصطخري، بأن الآمة السـودانية بيعت في بـلاد المغرب بألف دينـار وأكثر [156]، واشترى ابن بطـوطة جـارية في منتصـف القرن الثـامن الهجـري الرابـع عشر الميلادي، بخمسـة وعشرين دينارا وقال بأن ثمنها مرتفع جدا [157]، وكان سعر العبد في قصور تـوات، التابعة لنفوذ بني زيان في المتـوسط، يساوي أوقيتين من الـذهـب [158]، ويخضع سعـر العبد الى عمره وحـالته الصحية وقوته البدنية، وإلى جنسه وحدقه بالمهن والصناعة [159]، وكان التجار المغاربة يستبدلون العبيد بسلع أخرى، أو يشترونهم من أسواق السـودان، بأثمان بخسة فقد كانت الفتاة التي لا يزيد عمرها عن خمس عشرة سنة تساوي ستة مثاقيل [160]، وكذلك الفتى أما الأطفال والمسنون فيقدر ثمنهم بنصـف ذلك، وكان عبيد شمال نيجيريـا يستبدلون بالخيـول، بحيث كان الفرس الـواحد يساوي من 15 إلى 20 عبدا[161]، وتجدر الاشارة هنا، بأن الدين الاسلامي أكد صراحة على حرمة الانسان وكرامتـه، وحرم استعباد المسلم، وبين حقوقـه أمام سيده، بحيث يجب عليـه أن يعامله باحسـان، وإذا أساء إليه يمكـن للقاضي أن يعتقه من رقـه، وأوضح بأن للعبـد الحق في التملك والتصرف في أموالـه وممتلكاته، وكثيرا ما كـان العبيد يشترون حريـاتهم بأموالهم الخاصة، وعنـدما يعتنق العبد الاسلام دينا له، يصبح حرا ويعتق من الرق، إلا أنه يبقى تابعا لسيده أي يصبح مولى له، وكانت مهنة النخاسة من أهم المهن وأكثرها ربحا في المدن الاسلامية، وقد خصصت سوق في

مدينة تلمسان لمثل هذا النشاط التجاري، الذي أغدق ثروات هائلة على أرباب هذه المهنة، ويبدو أن السلطان الزياني، أبا حمو الثاني (760هـ_ 791/ 1359_1389)، قد استخدم عنصر السود في جيشه وكان يطلق عليهم «الوصفان» لسواد بشرتهم جنبا إلى جنب مع المماليك، الذين كانت تتشكل منهم بعض الفرق العسكرية في الجيش الزياني، مخصصة للتدخل السريع، وقد حددهم أبو حمو الثاني في مصنفة «واسطة السلوك» بالاعلاج والنصارى والأغزاز والوصفان، وكان دورهم احتياطيا لقمع العصيان، ولأجل ذلك فقد اختارهم من الشجعان وذوي الجرأة والبأس الشديد [162]، وكانت مهمتهم في الغالب حماية السلطان، بحيث لا يفارقونه طرفة عين، ولعل اهتمام أبي حمو الثاني بالجيش، والتأكيد على العناية به نابعة من تجربته السياسية والتنظيمية، خلال حكمه الذي زاد عن ثلاثين سنة [163]. إن كثرة الحركة التجارية، ونشاطها المستمر، وازدهار تجارة الرقيق الأسود، واتساع دائرتها، واستمرارها عبر أجيال وقرون عديدة بين بلاد المغرب وبلاد السودان، ساعد إلى حد كبير، على وجود عدد كبير من هذه العناصر، في مدينة تلمسان وغيرها من المدن الزيانية، حتى صار في كل بيت من البيوتات التلمسانية، خاصة والمغاربية على وجه العموم، أكثر من وصيف ووصيفة [164].

ولا شك أن الإماء والجواري السودانيات مثل الأوروبيات، قد انجبن من اسيادهن جيلا من المولدين، وصارت كل واحدة منهن تدعى أم ولد، فانصهر هذا الجيل في الوسط التلمساني، مع العناصر التي تمكنت مدينة تلمسان من استيعابهم وادماجهم في حياتها اليومية، وطبعتهم بطابعها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، بالرغم من تعدد انتماءاتهم العرقية والقبلية والجغرافية، واختلاف فئاتهم الاجتماعية.

عنـــاصـــر أخـــرى

المسيحيـون :

فر أغلب النصـارى من بلاد المغرب، الى بعض الأقطـار الأوروبية كجزيرة صقليـة واليونان، وإيطاليا واسبانيا، اثر الفتح العربي الاسلامـي له، ولم يبق منهم إلا قليل، وقد لاحظ البكري بقية منهم في مدينة تلمسان، كـانت لهم بها كنيسة معمورة، ظلت قائمة يؤمهـا نصارى المدينة، حتى النصف الثـاني من القرن الخامس الهجـري الحادي عشر الميلادي [165]، غير أن النصرانية عكـس اليهودية، مـا فتئت أن تراجعت أمام الاسـلام، الذي أخذ ينتشر بين أهل المغـرب، بدون انقطاع منذ القرن الأول الهجري، السـابع الميلادي، ولم تلبث المسيحية أن انقرضت تـدريجيا، واختفى ما تبقى من العناصر المسيحيـة في مدينة تلمسـان ـ فيما يبدو ـ خلال القـرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، لأن الموحـدين أزالوا مـا بقي من مظـاهرها، بينما ظلـت اليهودية تعيـش جنبا إلى جنب مع الاسلام في بلاد المغرب، ولهذا يمكن القول بـأن المسيحيين المتواجدين، بمدينة تلمسان في العهد الزيـاني، ليسوا من بقايا القدمـاء وإنما من النصارى، الذين قدمـوا إليها في هذه الفترة، وهم ينقسمون إلى أربعة أصناف :

الجـنـــد :

استخدم المرابطون الجنود المسيحيين، كفـرق مرتزقة متطوعة في أوائل القـرن السادس الهجري، الثاني عشر الميـلادي، استأجـرهم السلطـان لحراسته أو للدفـاع عن مملكتـه، إلى جانـب الجيش المحلي، مقابل أجر معلوم [166].

وكان الموحدون قد انتقدوا المرابطين، في استخدامهم للفرقة العسكرية المسيحية المستقرة بمدينة مراكـش، التي خـاضت معارك كثيرة ضـدهم، وكان انتصـارهم على المرابطين واستيـلاؤهم على مراكش نهاية لوجود الجند النصارى في الجيش الاسلامي في بلاد المغرب [167].

ولم تتحدث المصـادر عن وجـود، فرقـة عسكريـة مسيحية في الجيـش الموحدي، إلا أن عهد الخليفة المأمون (626 ـ 630/ 1228 ـ 1332) ظهرت فيه فرقة مسيحية الجنـد المرتزقة والتي رافقته وناصرته على أعدائه سنة 636 هـ/ 1228م، وكان المأمون قد أنزلها بحي خـاص بمدينة مراكش، وبنى لهم هذا الخليفة كنيسة في المدينة ليؤدوا شعائرهم الدينية، وكانت أول كنيسة مسيحية تبنى في المغرب الأقصى في العهد الإسلامي(168).

وعلى الرغـم من تشدد المذهـب الموحدي تجاه استئجـار النصارى، إلا أن الخلفاء الموحـدين، استخدمـوا مثل هذه الفـرق العـسكرية في جيشهم، وقـد انتقلت فرقـة مسيحية تتكون مـن ألفي فارس، من خدمة الموحدين إلى خدمة الزيانيين، بعد انتصارهم على الجيش الموحدي سنة 646هـ /1248 م(169)، وكان المرتزقة النصارى يعملون تحت قياده أحدهم يدعى «القائد».

ولكن عندما وقعت محاولة اغتيال يغمراسن، من قبل الفرقة العـسكرية المسيحية سنة 652 هـ/ 1254م، كف سلاطين بني زيان عن استخدامهم، كما ذكر يحي بن خلدون(170)، غير أن بعض النصوص العـربية واللاتينية، تبين عكـس ذلك، بحيث تشير إلى أنـه في سنة 665 هـ/ 1266م، استخدم العاهل التلمسـاني فرقة مسيحية هامة، تتكون من القطالونيين والاراغونيين، بقيادة الأب فيلارجو "Pére de vilaragut"، ثم تـولى القيادة بعده قيـوم غالسيران دي كـارتيلا Guillem Galceran de Cartelle(171)، وفي سنة 670هـ/1271م كان نحو (500) فارس من الروم يقاتلون إلى جانـب يغمراسن، ضد بنـي مرين، الذيـن تمكنوا من القضاء عليهـم جميعا(172)، وكان على رأس الفرقـة العسكرية المسيحيـة في سنة 679 هـ/ 1280م، القائد جـوم بيريز Jaumme Perez هجين الملك بيار الثالث الارغوني، Pierre III، والجدير بالذكر أن البـابا نكولا الرابع Nicolav IV حث الجنـود المسيحيين في سنة 689 هـ/ 1290 م، على التمسك بديانتهـم والتحلي بالسلوك القويم وعـدم اعتناق الاسلام(173)، وهذا في حـد ذاته يعد تنبيهـا للمـسيحيين، الذيـن يعملون مرتزقة في الفرق العـسكرية لصالـح المسلمين من جهة ويعتبر اعترافا من جهة أخرى، بهذه الخدمة من البابا نفسـه، لأن السلطة البابوية ـ فيما يبدو ـ كانت تأمل أن تجني مـن هذه الخدمة، بعض المزايا لفائدة المسيحية، في بلاد المغرب عامة، ومدينة تلمسان على وجه الخصوص(174).

وتـرأس أيضـا الفرقــة الأرغونيـة القطالونيـــة، التـي تخـــدم سـلاطين تلمســان، الفـارس رودريقو سـانشير دي فيرغايـس Rodrigo Sanchez de vergays(175)، وقـد استمر وجود

المليشيات المسيحية في الدولة الزيانية، بعد الحصار الطويل، الذي تعرضت له مدينة تلمسان من قبل المرينيين في عهد أبي حمو موسى الأول، وكان قائدها آنذاك الفارس فيليب دي مورا Felip de mora [176].

وكان يرأس الفرقة الميورقية، ما بين سنتي 725 هـ ـ 730 هـ/ 1325 ـ 1330م، الفارس قيوم استريس (Guillem Estrus)، الذي لعب دورا بالغ الأهمية، وقدم خدمات حربية كبيرة للسلطان الزياني أبي تاشفين الأول [177].

كما استقبل أبو تاشفين بعد سنة 725هـ/1325م، بعض أرباب السيف من النصارى، مثل ابن الملك جاك الثاني (Jaque II) هجين جاك الارغوني، وصار هذا الأخير يقوم مقام الوسيط الدبلوماسي بين سلطان تلمسان والملك الأرغوني [178].

واستخدم أبو حمو الزياني الثاني المرتزقة المسيحيين في جيشه وصنفهم ضمن المماليك الخاصة بحراسته وفي هذا الصدد يقول صاحب البغية: «فاستركب الحرم وحمل الأموال واكفل بذلك الخصيان والنصارى المستخدمين» [179]، وقد وجد عاهل أرغون فائدة كبيرة في وجود الفرق العسكرية المسيحية، في خدمة الدولة الزيانية وغيرها، لأنه كان يأخذ ضرائب غير مباشرة، عن رواتبهم يقسمها العاهل الزياني [180]. كما كان الجند بدورهم، يقدمون جزء من رواتبهم للخزينة الأرغونية [181]. وكانت رواتب هذه الفرق المسيحية، الملازمة للخدمة مرتفعة، بحيث تتراوح ما بين خمسة دنانير وخمسين دينارا ذهبا في كل شهر [182]، وكان ملوك أرغون، حريصين على تعيين قيادات الجند بأنفسهم، وعزلهم حسب مشيئتهم، وكانوا يطالبون في كثير من الأحيان، بمد نفوذهم إلى قيادات الجند النصارى المرتزقة العاملين بالمغرب الأوسط، وبعاصمته تلمسان على وجه الخصوص، أو المارين بها مهما كانت جنسياتهم الأوروبية [183].

وقد دعم هذا التعاون العسكري، بين أرغون وتلمسان بمعاهدة، تنص على أن الملك الأرغوني، حامي كل المسيحيين المتواجدين بالمغرب الأوسط، بينما يتولى ملك قطالونية رعاية مسيحي البحر المتوسط الآخرين، كالإيطاليين والفرنسيين في دول أخرى [184].

والظاهر أن الجند المرتزقة، كانوا يسكنون، في حي منفصل خاص بهم، يعرف بربض النصارى [185]، وكانوا يتمتعون بأداء شعائرهم الدينية، ويديرون شؤونهم بأنفسهم، كما كانوا معفيين من جميع الضرائب والرسوم الجمركية، ويخضعون لسلطة قوادهم القضائية [186].

ويشير برنشفيك، بأن قواد المليشيات المسيحية في الدولة الحفصية، كانوا يملكون عقارات وأملاكا عمرانية، وبعض الاقطاعات [187]، ويبدو أنهم بحكم إقامتهم الطويلة في بلاد المغرب، يكونون قد تأثروا ببعض العادات المحلية وخاصة منها اللباس، ولكنهم ظلوا على نصرانيتهم، كان سلاطين تونس يدعون زوجات الجند المرتزقة، المرتديات للملابس الاسلامية إلى القصبة لحضور الحفلات العائلية [188].

وكان المسلمون يستخدمونهم في حروبهم ضد الدول المجاورة، أو ضد القبائل الثائرة، أو ضد النصارى أنفسهم، ولعل رد فعل المسلمين، عن خدمة هذه الفرق العسكرية المسيحية، لسلاطين الدولة الزيانية لم يكن واضحا، بل ربما لم يكترثوا بهم في كثير من الأحيان [189].

التجار:

كان التجار المسيحيون يمثلون جالية أجنبية، مستقرة في مدينة تلمسان، ازدادت من حيث الأهمية والعدد، والتنظيم في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، وكان التاجر المستأمن على روحه وأمواله، يخضع للسيادة المحلية، وإذا انتهى الأجل المحدد لإقامته، وأراد البقاء في المدينة يتحول إلى معاهد أو ذمي أي إلى أهل الذمة، من سكان مدينة تلمسان، يدفع الجزية [189].

وقد احتفظ التجار أيضا بجنسياتهم ومعتقداتهم الدينية، ولهم كافة الحرية في بناء كنائسهم ومعابدهم، لأداء الشعيرة الدينية، وكانت اقامتهم وتنقلهم في المدن الزيانية، تخضع لمعاهدة بين دولهم وبين سلطان المغرب الأوسط، أمَّا الذين لا توجد اتفاقية بين دولهم وسلطان تلمسان، فكان بإمكانهم الدخول تحت لواء دولة صديقة، وحتى من استنفذ وقت المعاهدة، امكنه تعاطي التجارة بحرية في ظل حماية السلطان [190]، ويبدو أن عددهم غير كبير، بحيث لا يزيد عن بعض العشرات من كل دولة، وإقامتهم في تلمسان وغيرها من مدن المغرب الأوسط، لم تكن دائمة، ولا يسمح لهم باصطحاب زوجاتهم معهم، كما لا يمكنهم الزواج من بنات دار الاسلام، فهذه الاجراءات لم تشجعهم على الاقامة الطويلة في المدن الاسلامية [191]، وكانوا يسكنون الفنادق، ولهم دكاكين، يستأجرونها لبيع سلعهم [192]، وكانت الدولة تقوم بحمايتهم بصفتهم معاهدين، ولأن نشاطهم التجاري يعود على الدولة والخزينة بالفائدة، ولهذا كانت إقامتهم في

تلمسان، تتسم بالهدوء والاطمئنان والأمن، وكان يدير شؤونهم مع السلطة المحلية ويدخل قنصل يتم تعيينه من قبل حكومته، يكون رئيس الجالية وحاكمها، ويمثل بلاده ويتمتع بحصانة دبلوماسية (193).

الأسرى:

كان المسلمون يقومون بغزوات إلى جزر البحر المتوسط، وإلى الشواطىء الأوروبية ولا يترددون في اعتقال المسيحيين وأسرهم، وكان المسيحيون أيضا يغيرون على شواطىء المغرب، فيقعون في بعض الأحيان في أيدي حراس الشواطىء، فيقودونهم الى سجون تلمسان ويدخل في اطار الأسر كذلك، المسيحيون المقيمون في عاصمة بني زيان، من المرتزقة والتجار المذنبين، فكان عددهم كبيرا يعدون بالآلاف في الدولة الزيانية (194)، ويمثلون عناصر هامة في المجتمع التلمساني، استخدمهم بنو زيان في أغراض صناعية وحرفية، كفن البناء وصناعة الأسلحة (195)، ويتضح ذلك من خلال تدخل الملك جاك الثاني، لاطلاق سراحهم، لكن السلطان أبا تاشفين الزياني الأول رفض طلبه، مبررا ذلك بأن جميع الأعمال والأشغال في دولته تدار بواسطة هؤلاء الأسرى (196)، وكانت عملية تسريح الأسرى، تتم عن طريق التفاوض بين الدولتين، أو بتبادل الأسرى، أو بالفدية، وتشير بعض الوثائق بأن أسيرا قطلونيا افتدي في تلمسان سنة 726/1326م، بمبلغ يتراوح بين 400 و 500 دينارا (197).

وكان اليهود يلعبون أدوارا مختلفة لاطلاق سراح الأسرى المسيحيين والمسلمين، إما بالتفاوض والتبادل أو بالافتداء، وكان الكثير منهم يقيم في اسبانيا ويعرفون باسم «الفكاكين» (198).

والظاهر أن عدد الأسرى ارتفع في بداية القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، بسبب الحروب والغارات المتبادلة، بين الشاطىء الشمالي والجنوبي للبحر الأبيض المتوسط، فزاد عدد سكان المدن، في الدولة الزيانية باستقبال هؤلاء الأسرى (199)، ومن بينها عاصمة بني زيان التي كانت تتوفر على عدد كبير، ويبدو أن عددا منهم اعتنق الاسلام وصار من الاعلاج الأحرار، تقلدوا بعض الوظائف السامية في الدولة الزيانية.

أما فيما يتعلق بتأثيرهم في المجال الاجتماعي والسياسي، فإنه يمكن القول بأنهم لم يؤدوا خدمات كبيرة في هذا المجال، ما عدا تلك الأسيرات المسيحيات، اللائي أخذن للقصر ليكنن

حربيا للسلطان [200]، أو أولئك الأعلاج الذين يعتنقون الاسلام، ويصبحون موظفين في إدارة الدولة وجيشها.

رجال الدين:

إن وجود جالية من النصارى، تتشكل من الجند المرتزقة والتجار والأسرى، بمدينة تلمسان خلال العهد الزياني، وإقامة الشعائر الدينية المسيحية، تتطلب ضرورة حضور رجال الدين الممثلين للكنيسة الرومانية [201]، لأن التجار يتمتعون بمعاهدة، تضمن لهم حرية بناء الكنائس الصغيرة في الفنادق التي يقيمون فيها، ويؤكد ذلك ما جاء في المعيار: «جدد بعض النصارى كنيسة، في فندقهم وعلا عليها شيء يشبه الصومعة، فطلبوا بذلك، فأتوا بكتاب العهد، فوجدوا فيه أنه لا يحال بينهم وبين أن يبنوا بيتا، لمتعبداتهم» [202].

وكان مسموحا لهم بانشاء مقبرة لدفن أمواتهم حسب طقوسهم الدينية، وكانت لرجال الدين مهمة إنسانية أخرى، إلى جانب المهمة الدينية وهي افتداء الأسرى، ويتم الافتداء بمقتضى رخصة صريحة من طرف الوالي أو السلطان، وكانت مهمة هؤلاء القساوسة، تتم تحت رعاية السلطة المحلية الرسمية [203]، حتى لا يتجاوزوا حدود صلاحياتهم ويتحولوا بذلك، إلى مبشرين بالدين المسيحي في الأوساط الإسلامية [204]، لأن البابوية حملتهم مشروعا لاعادة النصرانية إلى ربوع المغرب، وأن دراستهم للغة العربية وتعليمها في المدارس المسيحية، تعد وسيلة من وسائل التبشير في أوساط سكان بلاد المغرب، منذ القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي [205].

وكانت بعض الكنائس المتواجدة بفنادق مدينة تلمسان، يؤمها التجار المسيحيون وبها بعض رجال الدين، كما كانت لهم مقبرة مسيحية خارج اسوار المدينة، بينما أوضحت المعاهدة الارغونية التلمسانية المبرمة سنة 685 / 1286م، وظيفة الكاهن أو القسيس، في هذه المعابد [206].

والجدير بالملاحظة هو أن هذه العناصر التي كانت تقيم بمدينة تلمسان لم تكن لها علاقة واسعة مع العناصر الأساسية الاسلامية في المجتمع التلمساني، وان الإندماج فيه قليل، إلا أولئك الذين يعتنقون الدين الاسلامي.

اليـــهـــود :

استقر اليهود، في بلاد المغـرب، منذ العهد القديم، جاءوا مع الفنيقيين في مـوجات متعاقبة، وعلى مراحـل عديدة، وقدمـت جاليات منهم عنـدما طردهـم الرومان، ولما فتح المسلمـون بلاد المغرب، وجدوا جاليات يهودية تقطن مناطق ومدنا مختلفة من بلاد المغرب.

وقد استطـاعت هذه الجاليـات، ان تهوّد بعض القبائل البربـرية، وخـاصة منها قبيلـة جراوة الأوراسية، وزعيمتها الكـاهنة وقبيلة مديـونة، ولا يزال بعض اليهـود من أصل بربـري، إلى عهد قريب يحملون اسم المديوني [207]، وقد ذهب أحد الباحثين إلى أن اليهـود اسمهم باللسان البربري «أو داي» [208]، ولعل استقرار اليهود بمدينة تلمسان، كان قبل الفتح العربي الاسلامي لها [209]، وتزايد عددهم في عهـد الدولة الموحدية [210]، بسبب اضطهـاد مسيحيي اسبانيا لهم. وهـاجرت طائفة منهـم، إلى عاصمة بني زيـان، حيث استقروا بها بعد الضغـط الذي تعرضوا لـه، من قبل القشتاليين والقطلونيين سنة 794 / 1391 م [211]، وتضاعف عددهم خلال سقـوط غرناطة سنة 897هـ/1492م، وكان من بينهم العلماء والأطبـاء مثل الطبيب العالم الرئيس مـوشي بن صمويل بن يهودا الاسرائيلي المالقي الأندلسي، المعروف بابن الأشقر الذي داع صيته كطبيب وأستاذ للطب بمدينة تلمسـان، وقد أخذ عنه الرحالة المصري عبد الباسط في هذا المجال سنة 869هـ/1464م، وقال عنه: «لم أسمع بذمي ولا رأيـت كمثله في مهارته في هذا العلم» [212]، وكذلك هاجر منهم إلى مدينة تلمسان بعض الحرفيين والتجار، وعملوا على تنميـة الصناعة المحلية وتدعيمها، وتنمية الحركة التجارية، بتلمسـان وتطويرهـا إلى جانب أهلها من التجار [213]، وربطوا علاقة اقتصادية قوية بين المغرب الأوسـط وأوروبا، وتدعم بذلك الـدخل الضريبي، للدولة الزيـانية وزاد بفضل رؤوس أموالهم الكثيرة، وقـروضهم للتجار التلمســانيين الصغار، إذ كان اليهـود يمدون المسلمين بسلعهم لبيعهـا في مناطـق مختلفة، ثـم يأتي البائعـون بثمن البضـائع وبالسلـع المقايضـة لليهود أصحـاب رؤوس الأمـوال [214]، وكانـت بعض العـائلات اليهودية مـن أصل ميـورقي، تتـاجر باستمرار مع تلمسان ومدن أخرى في المغرب الأوسط [215].

وقد عـاش اليهود، في كنـف المسلمين وتحت حمايتهم، مقابـل دفع الجزيـة التي قـررها الشرع الاسلامي، وكانوا ينعمـون بحرية أداء الشعائر الدينية والعناية والدعـم المعنوي من قبل سلاطين

بني زيان [216]. لعب اليهود دورا هاما في المجال الدبلوماسي، بين الدول الاسبانية والدولة الزيانية، فقد أرسل الملكان الفونسو الثالث، ويعقوب الثاني، عاهلا أرغونة على التوالي بعثة دبلوماسية إلى البلاط التلمساني، تتكون من ابراهام وصمويل ويونداني[217].

وكذلك استعمل بنو زيان اليهود في البعثات الدبلوماسية، بحيث أرسل السلطان عثمان بن يغمراسن ابراهام اليهودي رفقة الفقيه التلمساني محمد صبيح، إلى حاكم برشلونة سنة 690 هـ/ 1291 م [218].

ولم نعثر على وثائق تدل على احتجاج المسلمين ضد قدوم اليهود إلى دار الاسلام، بل نجدهم قد حظوا باستحسان سلاطين بني زيان، الذين سمحوا لهم بالإقامة في عاصمتهم [219]، وقد استمرت هجرة اليهود إلى بلاد المغرب على مدى قرون من الزمن [220].

والظاهر أن علاقة المهاجرين الجدد، بالجالية القديمة كانت غير منسجمة، بسبب الاختلاف في اللغة والمذهب والعادات والمفاهيم الإجتماعية والمنافسة الاقتصادية [221].

وخاصة منها الهجرة الكبيرة التي كانت سنة 1400/803 م، التي أحدثت شبه أزمة بين الجدد والقدماء، فتدخل الحبر «فرايم انكاوة» في مدينة تلمسان، بين المتنازعين وقرب بينهما، وكذلك تدخل كل من اسحاق بن شيشيت وشمعون بن صماح بين المتنازعين في مدينة الجزائر [222].

والجدير بالذكر أن الدولة الزيانية هي التي تلقت أهم عدد من المهاجرين اليهود، سواء كان ذلك من حيث النوعية أو الكمية [223]، وقد استفادت منهم الجالية اليهودية القديمة في المجالات المختلفة، خاصة منها المجال الاجتماعي والثقافي والتنظيمي [224].

وكان لليهود حق التملك وحرية التصرف في أملاكهم، يبيعون ويشترون الأراضي والفنادق والمنازل، ويشيدون المباني ويملكون الرقيق من غير المسلمين. وكان لهم بيع ومدارس لأداء الفرائض الدينية وتعليم أطفالهم [225].

ويبدو أن اليهود كانوا يسكنون مدينة تلمسان، داخل حي مغلق بعيدين عن المسلمين، خارج أسوار المدينة قبل نهاية القرن 8 هـ 14 م، وكان اليهود القدماء يقطنون حيا بأكادير، وبعد تدخل الحبر «فرايم أنكاوة» لدى سلطات تلمسان، سمح لهم بأن ينتقلوا إلى داخل مدينة «تاكرارت» حيث أسكنوهم بجوار المشور فاستقروا في شماله وشرقه [226]، حتى يكونوا تحت حماية

السلطان ومراقبته، لأن المسلمين بدأوا يتضايقون من معاملاتهم، ويتذمرون من سلوكهم، بسبب هيمنتهم على التجارة والاعمال المالية، والحظوة عند بعض السلاطين الذين قلدوهم بعض الوظائف المالية السامية في الدولة [227].

وكان للطائفة اليهودية بتلمسان مقبرتها الخاصة [228]، ولها بيعتها [229]، ورئيس يدير شؤونها يدعى شيخ اليهود، ويكون همزة وصل بينها وبين السلطات التلمسانية الرسمية والطائفية، كما كانت لهم حارة بالمدينة تدعى حارة اليهود، كثيرة الحركة بالقرب من المشور [230]، تضم نحو خمسمائة دار يسكنها ما يزيد عن ألفين وخمسمائة نسمة جلهم من الأثرياء [231]، وكانوا كالمسلمين يزورون أضرحة الأولياء الصالحين [232].

ولكنهم تعرضوا للنهب والمضايقة بعد وفاة السلطان أبي عبد الله محمد الخامس عام 923 هـ/ 1517م [233]، ولم يكن ليهود المغرب الأوسط الدور السياسي والاجتماعي الكبير، مثل الذي قام به اخوانهم في المغرب الأقصى في عهد بني مرين، إلا أنه كانت لهم مساهمة فعالة في الدورة الاقتصادية، والحركة التجارية والصناعية، وشملهم عطف ملوك بني زيان ورعياتهم [234].

هذه هي العناصر الأساسية، التي كان يتشكل منها المجتمع التلمساني، خلال العهد الزياني بما فيها عناصر الهجرة الداخلية والخارجية المستمرة الى مدينة تلمسان، للاقامة بها، قدمت جلها من أقاليم وأقطار مغربية وافريقية واندلسية، ومشرقية ومسيحية أوروبية على شكل قبائل وجماعات وأسر وأفراد، فكثيرا ما نلمح في تراجم علماء تلمسان وأدبائها ووجهاء القوم فيها، وكتب الطبقات انتساب العديد منهم إلى قبائل ومدن متباينة، كالآبلي والعجيسي والتنسي والسبتي والفاسي والوهراني والبجائي والمصمودي والصنهاجي والتونسي والمصري والكردي، والعقباني وغير ذلك.

اللغة :

لا شك أن سكان تلمسان بمختلف فئاتهم وانتماءاتهم العرقية، كانوا يستعملون لغاتهم ولهجاتهم الخاصة، ويتم ذلك على نطاق ضيق، أما اللغة المتداولة والمستعملة بصفة رسمية، في المجتمع التلمساني فهي اللغة العربية، وإلى جانبها اللسان الزناتي، لأن أغلب سكان المدينة كانوا من زناتة ومن العرب.

فقد جمعهم الدين الاسلامي، وجعل منهم مجتمعا موحدا في العادات والتقاليد والسلوكات، يتحدث أغلبهم اللغة العربية، لأنها لسان الملة وبها نزل القرآن الكريم [235]، وحتى يفهم معانيه لا بد من دراسة علم اللغة والنحو وعلم البيان والادب وغيره، وكانت الادارة والتعليم والبحث باللسان العربي، إلى جانب اللهجة الزناتية، في التخاطب والمعاملات اليومية، التي كان يتحدث بها كثير من الناس في مدينة تلمسان، عاصمة موطن زناتة في المغرب الاوسط في ذلك الوقت، حتى أن بعض سلاطين بني زيان الأوائل كانوا يستعملونها في بعض الأحيان، وينطقون بها في أحاديثهم الشفوية، وخاصة منهم يغمراسن بن زيان، حينما كان يغلب على دولته طابع البداوة في بداية عهده [236].

وقد احتضن أهل تلمسان كغيرهم من سكان الحواضر المغربية، اللغة العربية، لأنهم كانوا يعتبرونها جزءا لا يتجزأ من الاسلام وإحدى ركائزه [237] فتمسكوا بها، لعنايتهم بالقرآن الكريم والسنة النبوية، المصدرين الأساسيين للتشريع الاسلامي، فبهما حفظ الدين واستمرت الملة [238].

وكان كثير من العلماء والفقهاء التلمسانيين، يتقنون اللغة العربية واللسان الزناتي ويقرضون الشعر بهما، مثل الفقيه الشاعر أبي عبد الله محمد عبد الله عبد النور التلمساني، الذي كان محبوبا عند سائر زناتة والعرب، لفصاحته وبلاغته بالعربية والزناتية [239].

وكانت الأغاني الزناتية منتشرة في المدينة، تحفظها النساء والجواري تغنين وتنشدن الاشعار والأهازيج والموشحات الزناتية في مختلف الاحتفالات والاعراس، التي تقام في المدينة في عهد بني زيان [240].

وكان الموحدون، اسلاف بني زيان، يستعملون اللسان البربري في عهدهم على نطاق واسع، لنشر مذهبهم وعقائدهم ودعوتهم وفي مجالات أخرى كالتأليف، وخطبة الجمعة والنداء للصلاة عند كمال الآذان باللغة العربية، وقد استنكر الفقيه أحمد الونشريسي التلمساني هذا النداء واعتبره من البدع [241]، وكان الموحدون في كثير من الأحيان يفضلون توظيف الخطباء الذين يتقنون العربية والبربرية، حتى يستطيعوا توصيل أفكار المذهب والعقيدة إلى كافة الناس.

ولكن ـ فيما يبدو ـ فقد زالت هذه الظاهرة الازدواجية في العهد الزياني، وأخذت اللغة العربية

بمكانتها في المقدمة، وريادتها في مجال الطقوس، والعقائد والأدب والفقه والتأليف والادارة، ونسرب متقنوها من العرب الاندلسيين إلى جهاز الدولة، فصار لهم ضلع في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية بالمدينة وتغلب العنصر العربي على غيره، في هذه الفترة، فانتزعوا عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان بملكتهم وبأسهم، وتمخض عن هذه الظاهرة أن انتشرت اللغة العربية وتوطدت في أمصار متنائية من بلاد المغرب(242).

ومع مرور الزمن، أخذت قبائل زناتة في المغرب الأوسط عامة، وفي مدينة تلمسان على وجه الخصوص مثل: قبائل مغراوة، وبني عبد الواد وبني يفرن ومغيلة، وبني توجين وصنهاجة وغيرها من القبائل التي كانت تسكن مدينة تلمسان، تفتقد اللسان الزناتي والصنهاجي المحليين تدريجيا، وصارت جميعا تتحدث اللغة العربية، فتوحد بذلك لسان أهل تلمسان، وتعززت وحدة اللغة والعقيدة والمذهب لسكان تلمسان إلى الوقت الحاضر(243).

الهوامش :

(1) حسن الوزان: المصدر السابق ج2 ص 24.

(2) أبو الفداء: تقويم البلدان. ص 70.

Marcais (G): Tlemcen (ville d'art) P. 90

(3) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 1، ص 90.

(4) محمد عزاوي: مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية (دراسة وتحقيق) أطروحة لنيل د. د. ع. كلية الآداب الرباط 1985 ج2 ص 270. أنظر أيضا: Mohamed Kably: Societe pouvoir et religion au Maroc des merinides aux wattassides 14 - 15 siecle these de doctorat d'etat, universite de Paris 1 - 1984 P 65.

(5) البكري: المغرب 77

(6) الإدريسي: نزهة المشتاق ص 101، ولم يكن بعد أغمات وفاس أكثر من أهلها أموالا ولا أرفه منهم حالا، أنظر: Brosslard (ch) : les inscriptions arabes de Tlemcen P. 82.

(7) محمد عزاوي: المرجع السابق ج2 ص 270 (الرسالة 124).

(8) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 2 ـ 13 ـ 38 ـ 40.

(9) حسن الوزان: وصف افريقيا ج2 ص 20، ابن مرزوق: المصدر السابق ورقة 2.

(10) وصف افريقيا، ج2 ص 20.

(11) نفسه، ج2 ص 20. أنظر Marcais (G): opcit P. 54

بلغ عدد الأرحية والطاحونات في ضواحي تلمسان وعلى نهر الصفصيف بصفة خاصة نحو مائة طاحونة أنظر: Brosslard: opcit P. 83

(12) ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص 96.

(13) حسن الوزان: المصدر السابق ج2 ص 17 ويذكر في صفحة أخرى أن عدد دور تلمسان، تناقص بعض حصار أبي الحسن المريني لها بين سنتي 735 ـ 737 هـ/1335 ـ 1337) فوصل إلى ثلاثة عشر ألف منزل، وهذا دليل على أن الحرب أتت على ثلاثة آلاف منزل، وأن المدينة تعرضت إلى التخريب والتهديم أنظر وصف افريقيا ج2 ص 19.

(14) حسن الوزان: المصدر السابق ج2 ص 19.

Barges: histoire de beni zeiyan P. 125.(15)

16) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 211، تشير بعض الوثائق إلى أن عدد سكان مدينة تونس في هذه الفترة بلغ نحو مائة ألف نسمة، وهذا يدل على أن عاصمتي المغرب الأوسط والأدنى متقاربتين في كثافة السكان وفي مجال العمران، بينما يشير الرحالة الإنجليزي، الذي زار مدينة فاس في العهد المريني، إلى أن عدد سكانها زاد عن مليون نسمة وهو رقم مبالغ فيه أنظر: برنشفيك: المرجع السابق ج1 ص 388 ـ 389.

ـ الدولاتلي مدينة تونس في العهد الحفصي، تعريب المؤلف ومحمد الشابي، دار سراس تونس 1981 ـ 95.

ـ عبد العزيز بن عبد الله: مظاهر الحضارة المغربية دار السلمى للتأليف والنشر، الدار البيضاء 1957 ص 104.

Brosslard: opcit P. 83(17)

(18) ابن الأعرج: زبدة التاريخ ورقة 35.

(19) ابن خلدون: العبر ج7 ص 298.

Marcais (G): opcit P. 90(20)

(21) ابن خلدون: المقدمة ص 656 ـ 670.

(22) يؤكد المؤرخ لاكوست على العامل الاقتصادي في تطوير الدولة ونموها وازدهارها، ويرجع سبب ضعف الدول المغاربية في نهاية القرن الثامن الهجري إلى تحول طريق تجارة الذهب عن أراضيها أنظر: - Lacoste (Y) Ibn Khldoun Paris: 1966 P.P 114 115

Brandal (F): Les Espangnols et l'Afrique du nord de 1492 A 1577 (R.A) 1928 P. 367.

ـ برنيان، ونوشي، لاكوست، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطنبولي ومنصف ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984 ص117، الدولاتلي: المرجع السابق ص 66.

(23) ابن خلدون: المقدمة: ص 51.

A. Pellegrin : Le peuplemment historique de Tunis en men. O.M.Y 1959 P 189 ET 193 (24)
H.H Abdal-Wahab : Coup d'œil general sur les apports ethniques en Tunisie cahiers de Tunis 1970.

(25) ابن خلدون: العبر، ج 7 ص 24.

(26) أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة

ابن خلدون العبر ج7 ص 93 ـ 94.

Barges (L.J.J.L) : Histoire de beni PP 115 - 116

(27) ابن خلدون: العبر ج7، ص 94.

(28) ذكرها ابن خلدون باسم «تاكرارت» وهو اسم المحلة بلسان البربر، العبر ج7 ص 94.

(29) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 94 و 152.

(30) نفسه، ج7 ص 151 برنشفيك: المرجع السابق ج2 ص 48 و 158.

(31) Julien (CH) : histoire de l'Afrique du nord T. 2 P 155 Dhina. Royaume.

(32) ابن خلدون: العبر ج7 ص 94- 118- 139 : .PP

Marcais (G) : les arabes en berberie P. 265

(33) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 205.

(34) برنشفيك: المرجع السابق ج2 ص 78 ابن خلدون: العبر ج7 ص 229.

(35) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 214.

(36) نفسه، ج1 ص 214.

(37) العبر، ج7 ص 205.

(38) نفسه، ج7 ص 205، 215.

(39) ابن خلدون: العبر ج7 ص 215.

(40) نفسه، ج7 ص 215

(41) نفسه، ج7 ص 160 - ابن الأعرج زبدة التاريخ ج3 ورقة 35

(42) نفسه، ج7 ص 205- 215.

(43) ابن الأعرج: المصدر السابق ج3 ورقة 35

(44) ابن عبد الحكم: فتوح افريقية والأندلس ص 72 سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي ص 249.

(45) أنظر في هذا الصدد كتابنا المظاهر الكبرى لعصر الولاة في بلاد المغرب والأندلس ص 22 وما بعدها.

(46) الرقيق القيرواني: تاريخ افريقية ص 112 ابن عذاري: البيان، ج1 ص 54.

Barges (L.J.J.L) : histoire de beni zeyan, P. 115

(47) عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق ص 181.

(48) نفسه، ص 181- 182.

(49) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية - بيروت 1960 ص 190.

(50) ابن الخطيب: أعمال الأعلام - القسم الثالث ص 192 عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج2 ص 470- 480.

(51) أبو حمو موسى يوسف: واسطة السلوك، ص 16 محمد بن ماء العيني: الجأش الربيط، ص 28 - 29 وقد انضم إلى بني عبد الواد، من قبائل المعقل ذوي عبيد وذوي منصور أنظر أيضا: ابن خلدون ج7، ص 175، بغية الرواد، ج1 ص 222.

(52) ابن خلدون: العبر ج7 ص 105، 114.

(53) ابن مرزوق: المجموع ورقة 13 و 40- يحي بن خلدون: بغية الرواد ج2 ص 235- مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق ص 155. أحمد الطاهري: عامة قرطبة في عصر الخلافة منشورات عكاظ الرباط 1989، ص 20، وكانت جل الأراضي، وخاصة منها تلك التي تحيط بالمدن مستثمرة من قبل الحضريين (سكان المدن) سواء على شكل اقطاع، أو على شكل ملك وقد كان رؤساء القبائل وكبار التجار ورجال الدولة والفقهاء والعلماء كثيرا ما كانوا يملكون ضيعات ومزارع خارج أسوار المدينة وكانت أراضي المغرب في العهد الزياني تشتمل على مختلف الأصناف التالية:

1- الأراضي التي يملكها الخواص امتلاكا تاما.

2- الأملاك العامة، التي تم التفويت في جزء منها، تضاف لها الأراضي الموات.

3- أراضي الأوقاف. أنظر برنشفيك: المرجع السابق ج2 ص 184 - 185 عبد العزيز الدولاتلي المرجع السابق ص 71- 72.

(54) ابن عذاري: البيان (قسم الموحدين) ص 30.

قدور أحمد: المدن الموحدية وعلاقاتها بالإقليم (دراسة اجتماعية اقتصادية) رسالة لنيل د. د. ع كلية الآداب الرباط 1988 ج2 ص 436.

(55) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 39.

(56) البكري: المغرب ص 61 - ابن حوقل: صورة الأرض ص 78، الاستبصار ص 133

(57) البكري: المغرب ص 70 - ابن خلدون: العبر، ج6 ص 294

(58) حول هذا الموضوع: أنظر كتابنا: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ص 96 - 109.

(59) Primandie (F. Elie de la) le commerce et la navigation de l'Algerie avant la conquete Française in (ruvue. Algerie coloniale) P. 735.

(60) أنظر عبد العزيز فيلالي: العلاقات ص 96 - 109.

(61) ناصح محمد: جوانب من الحياة الإقتصادية والإجتماعية للمغرب في العصر الوسيط القرن 6 هـ 12 م اطروحة لنيل د. د.ع كلية الآداب الرباط 1988 ق (1) ص 148.

(62) ابن خلدون: المقدمة ص 660 - العبر ج 6 ص 675 - 676 برنشفيك: المرجع السابق، ج2 ص 158 - حسن الوراكلي: المشيخة العلمية في المغرب والأندلس، في القرن (8) هـ طنجة 1990 ص 66 وللمزيد من التفاصيل عن هذه الهجرات أنظر: مقال:

- الحبيب بن خوجة: الهجرة الأندلسية في القرن 7 هـ/13م الكراسات التونسية عدد 69/70 تونس 1970 ص 129 - 136.

- محمد الطالبي: الهجرة الأندلسية إلى افريقية أيام الحفصيين ضمن دراسات في تاريخ افريقية تونس 1912 ص 65 - 105.

(63) ابن خلدون: المقدمة ص 308 و 660 - العبر ج7 ص 297.

Dhina (A): opcit p 49

(64) نفح الطيب، ج4 ص 460 - 460.

(65) نفسه، ج4 ص 465 - 466.

(66) نفسه، ج4 ص 472.

(67) برنشفيك: المرجع السابق: ج2 ص 158، الحبيب بن خوجة: المرجع السابق ص 130

(68) ابن خلدون: العبر، ج6 ص 675 و 683 - 884

(69) محمد رزوق: الهجرة الأندلسية بالمغرب العربي (تونس الجزائر) ص 111

(70) استعمل ابن خلدون كلمة جالية للدلالة على الجماعة الكبيرة أنظر العبر ج6 ص 683 - 711 - 787.

(71) ابن الأعرج: زبدة التاريخ ورقة 95 - 96.

(72) ابن خلدون: العبر ج6 ص 683.

(73) Dhina: opcit. P. 49

يبدو أن سكان المغرب الأوسط رحبوا في عمومهم باخوانهم المهاجرين الأندلسيين، وخاصة سكان مدينة تلمسان وأمرائها بينما نرى عكس ذلك عند سكان المغرب الأقصى وافريقية، فالظاهر أنهم استاءوا لهذه الهجرة الواسعة وتضايقوا منها، ربما لمزاحمة أصحابها في الممتلكات والحظوة والوظيف لأهل البلد الأصليين، وهذا ما جعل الخليفة الموحدي الرشيد (630 - 640 هـ/1239 - 1242) يصدر في شأنهم ظهيرا يمنحهم فيه، حق الإستيطان والتملك في رباط الفتح، ويأمر العمال والولاة والطلبة بتنفيذ هذا المرسوم، وباستقبال المهاجرين، وتوفير لهم الأمن والإستقرار ومما جاء في هذا الظهير ما يلي: «هذا ظهير كريم أمر به أمير المؤمنين.. للمتنقلين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة ومن جرى من سائر بلاد شرق الأندلس مجراهم وعراهم.. ما أصابهم من الجلاء ودعاهم من أمر الاعداء ويسعى لهم سعي من يقضي لهم حق الجوار ويلتمس لهم مكانا للقرار، ومنزلا لإلقاء عصا التسيار، وعند ذلك أذن لهم.. في النقلة إلى رباط الفتح.. وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدلا من مساكنهم وأرضهم ويعمروا منه بلدا... ولهم أفضل ما عهده رعايا هذا الأمر. من التوسعة قويهم كي يزداد قوة، والرفق بضعيفهم حتى ينال يسارا وثروة وأن يتوسعوا في الحرث، ويغرسوا الكروم وأنواع الشجر على عاداتهم ببلادهم، ويتأثلوا الأملاك لأنفسهم، وأولادهم وأولاد أولادهم، وكل ما يعمرون من الضياع، ويقتنون من الأصول والرباع... حكم التسويغ على

الإطلاق، والدوام ولا يلزمون فيه شيئا، من وجوه الالزام، ولا يطلبون بغير حقوق الشرع، التي جعلها الله في أموال أهل الاسلام، والولاة والعمال، مأمورون بأن يحفظوهم من كل أذى، يلم بجانب من جوانبهم، وأعيانهم ويولوهم حسن الجوار، ما ينسيهم أوطانهم حتى تندفع عنهم كل شبه من شبه الحيف. ويجمع لهم بين الرعاية لحرمة البلدي، والعناية بحق الضيف احسانا منه. . . فمن وقف عليه من الطلبة والعمال أكرمهم الله تعالى «كتب في الحادي والعشرين لشعبان سنة سبع وثلاثين وستمائة هجرية، أنظر: ابن عمير: رسائل (فهرس الكتانية) مخطوط بالخزانة العامة الرباط رقم ك 232 ورقة 118 ـ 120.

أنظر: محمد غزاوي: مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية (دراسة وتحقيق) رسالة لنيل د. د. ع كلية الآداب الرباط 1985 ج2 ص 267 ـ268.

ـ محمد الطالبي: الهجرة الأندلسية إلى افريقية أيام الحفصيين ومجلة الأصالة عدد 26 سنة 1975 ص 46 ـ 90.

محمد رزوق: المرجع السابق، ص 108 ـ 110.

أنظر أيضا: عبد المجيد التركي: وثائق عن الهجرة الأندلسية إلى تونس فصلة من حوليات الجامعة التونسية عدد 4 المطبعة الرسمية التونسية 1967 ص 27.

Latham (John Derek): Towards a study of Andalusian Immigration and its place in Tunisian history dans cahier de Tunisie N° : 19 - 20 - 1957 PP. 203 - 252

(74) الطاهر محمد توات: المرجع السابق ص 272.

(75) أبو بكر بن خطاب: فصل الخطاب في نثر أبي بكر بن خطاب، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 4605 ورقة 39 ـ 40.

(76) نفسه، ورقة 39 ـ 40.

(77) ابن خطاب: المصدر السابق ورقة 39 ـ 40.

الطاهر محمد توات: المرجع السابق ص 275.

(78) البستان، ص127 Barges: Tlemcen ancienne capitale P. 176

(79) ابن الأعرج: المصدر السابق ورقة 96.

(80) هو نهر الصفصيف الذي يقع شرق مدينة تلمسان.

(81) زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ ورقة 96.

(82) لا يزال عقب هذا الشيخ معروفين في تلمسان، انظر: زبدة التاريخ ورقة 96.

(83) لا يزال يوجد بهذا المدشر عقب أولاد صائب الزراع من آل سيدي عبد القادر المختار الغريسي الحسني أنظر: زبدة التاريخ ورقة 96.

(84) ابن الأعرج: زبدة التاريخ ورقة 96.

(85) المشرفي عبد القادر الجزائري: بهجة الناظر في أخبار الداخلين في ولاية الاسبانيين بوهران ص 216.

(86) نفح الطيب، ج3 ص 156.

(87) ابن خلدون: المقدمة ص 308 و 660 ـ كتاب العبر، ج7 ص 297 عبد المجيد التركي: المرجع السابق ص 31.

(88) برنشفيك المرجع السابق، ج2 ص 159.

(89) نفسه، ج2 ص 159.

(90) نفسه، ج2 ص 159، ابن خلدون: العبر ج6 ص 683 ـ محمد رزوق: المرجع السابق ص 127.

(91) برنشفيك: المرجع السابق، ج2 ص 159.

(92) زبدة التاريخ ورقة 96 ـ 97.

(93) نفسه، ورقة 100.

(94) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون، ص 33 .
عبد الرحمان الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ج2 ص 156 ـ 157 .
(95) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 297 ـ عبد العزيز سالم: تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر الإسكندرية 1985 ص 249ـ 250.
(96) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 297 ـ عبد العزيز سالم: تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر الإسكندرية 1985 ص 249ـ 250.
(97) التنسي : نظم الدر والعقيان، ص 127 .
(98) ابن خلدون : العبر، ج7 ص 163 ـ يحي بن خلدون : المصدر السابق ج 1 ص 205 .
(99) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 217 ـ 218 ـ تسمى الحجابة في العهد الزياني كهرمانة الدار، العبر، ج7 ص 217، ويشير اليهم يحي بن خلدون بأنهم من «بيت سراوة» من أهل قرطبة احترافهم السكاكة، أولوا أمانة فيها ودين «أنظر: بغية الرواد، ج1 ص 213، وكان عبد الرحمٰن بن محمد بن ملاح، يشتغل منصب صاحب الأشغال، ديوان «الخراج والجيش» في عهد أبي يحي يغمراسن بن زيان أنظر بغية الرواد ج1 ص 205.
(100) ابن خلدون العبر: ج7 ص 217ـ 218
(101) يحى بن خلدون المصدر السابق ج1 ص 214ـ التنسي : نظم الدر ص 138 ابن خلدون : العبر ج7 ص 218 .
(102) محمد رزوق : المرجع السابق ص 115 .
(103) ابن خلدون : العبر، ج6 ص 654 ـ 655، محمد رزوق : المرجع السابق ص 115 .
(104) ابن خلدون : العبر ج7 ص 197 .
(105) ابن الأعرج : زبدة التاريخ ورقة 97، وقد تولى هذا الأمير الحكم مرة أخرى ما بين سنتين : 831 ـ 833 هـ/1428 ـ 1430م.
(106) ابن الأعرج: زبدة التاريخ ورقة 98 ـ التنسي: نظم الدر ص 244 ـ 245. ويعد الأديب الوادي آشي من الأدباء المهاجرين، حل بتلمسان بعد سقوط غرناطة فقال :

تلمسان أرض لا تليق بحالنا ولكن لطف الله نسأل في القضا
وكيف يحب المرء أرضا يسوسها يهود فجار ومن ليس يرتضى

وكان نساخا بخزائن تلمسان نسخ بخطه نحو مائة سفر وبفاس حوالي 800 سفر أنظر أزهار الرياض ج3 ص 307 .
(107) برنشفيك : المرجع السابق ج2 ص 160 .
(108) ابن خلدون : العبر، ج7 ص 297 .
(109) أحمد مختار العبادي : دراسات تاريخ المغرب والأندلس، ص 199
(110) القلقشندي : صبح الأعشى ج5 ص 150 .
(111) حول الأغزاز، أنظر كتاب : هو بكنز: النظم الاسلامية في المغرب في العصور الوسطى ترجمة أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1980 ـ ص 149 ـ 155 .
أمين الطيبي : الأغزاز وقدومهم إلى بلاد المغرب والأندلس فصلة من كتابه دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1984/ ص 287ـ 298.
(112) كتب عنهم المروزي: شرف الزمان الطاهر، في حدود سنة 514 هـ/ 1120 م واصفا لهم بقوله: «الترك أمة عظيمة، كثيرة الأجناس والأنواع كثيرة القبائل والأفخاذ، ومن قبائلهم العظيمة الغزية، أما الذين يسكنون البراري والصحاري، ويتنقلون شتاءا وصيفا، فهم أشد الناس بأسا، وأصبرهم على القتال والحروب، أنظر: أبواب في الصين والترك والهند، منتخبة من كتاب طبائع الحيوان، تحقيق ف. مينورسكي لندن 1942 ص 18 ـ 25ـ 26 ابن خلدون العبر ج7 ص 231 .

(113) أمين الطيبي: المرجع السابق، ص 288.

(114) نفسه، ص 288.

(115) نفسه، ص 288، كاهن كلود: دائرة المعارف الاسلامية، ط 3 بالانجليزية مجلد 2 ليدن لندن 965 ص 1107 ـ 1108.

(116) يذكر المؤرخ ابن أبي زرع أن يوسف بن تاشفين، هو أول من أدخل الاغزاز الرماة في جشيه لكن فيما يبدو ليس هذا القول ما يؤكده ربما اختلط على المؤرخ الفاسي، بين لفظ الغزي والرامي لأن الغز كانوا يحملون قسيا خاصة بهم تعرف بقسي الغز، وانهم كانوا مشهورين بالرماية أنظر في هذا الصدد، روض القرطاس ص 139، هو بكتز: المرجع السابق ص 150 أمين الطيبي: المرجع السابق ص 291.

(117) وتذهب بعض المصادر إلى وجود قائد غزي ومعه نحو مائة من أتباعه في افريقية اصطدموا مع تميم بن المعز في بداية الأمر ثم انضموا إلى جيشه فانتفع بهم بعد أن عرف كيف يستخدمهم ويستغلهم في المجال الحربي، إلا أن الخلاف نشب بينه وبينهم، فتفرقوا واختفوا، أنظر: ابن عذاري: البيان ج 1 ص 300 ابن الأثير: الكامل ج 10 ص 265 هوبنكز: المرجع السابق ص 152.

(118) Dhina opcit P 51.

وكان الغز: من المتحمسين للمذهب السني وإلى جهاد الصليبيين في الشام ومصر، غير أن الفاطميين كانوا لا يرتاحون إليهم ـ ربما ـ لاختلاف المذهب، وغير راضين بوجودهم في مصر، ويتضح ذلك، في الرسالة التي كتبها السلطان نور الدين محمود زنكي (541 ـ 569 / 1146 ـ 1174) إلى الخليفة العاضد الفاطمي (555 ـ 567/1160 ـ 1171) بالقاهرة يهنئه فيها، برحيل الفرنجة من ثغر دمياط، فرد العاهل الفاطمي يشتكي من وجود الغز في بلاده لكن السلطان زنكي، أجابه يمدح هذه العناصر ويثني عليها ويذكره بأنه أرسلهم إلى مصر لأنه يعرف تمام المعرفة بأن قنطاريات (رماح) الفرنجة، ليس لها من مقاوم الإسهام الغز وأن الفرنجة لا يخافون إلا منهم، ولولاهم لزاد طعمهم وتقدمهم في الديار المصرية.

أنظر: أبو شامة عبد الرحمن: كتاب الروضتين في اخبار الدولتين القاهرة 1962 ج 2 ص 460 أمين الطيب: المرجع السابق ص 290.

(119) ابن عذاري: البيان قسم الموحدين ص 189، ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية الرسالة الثلاثون، الرباط 1941 ص 189 ـ 190.

(120) ابن عذاري: المصدر السابق: ص 192.

(121) نفسه، ص 195.

(122) نفسه، ص 192 ـ الحميري: الروض المعطار، ص 200، 201.

(123) نفسه، ص 193 ـ الحميري: المصدر السابق ص 200 ـ 201.

(124) speros vyonis: Byzantium and Europa, London 1967 P. 132

(125) ابن خلدون: العبر ج 7 ص 231 Dhina (A) : opcit P. 51

(126) نفسه، ج 6 ص 770.

(127) البركات هي رواتب تفرق طول السنة تسمى بالجوامك، في مصر وتفرق ثلاث مرات في السنة في كل أربعة أشهر مرة، أما النظام الحفصي فقد جعلها توزع أربع مرات في السنة وتقدم لأصحابها في العيدين (الفطر والأضحى) وفي شهر ربيع الأول وشهر رجب وكانت تقدم جرايات أخرى في عهد الموحدين عدة مرات في السنة تعرف باسماء مختلفة مثل: المواساة، الاحسان، الكرامات، المرافق التضييفات وغيرها أنظر: ابن عذاري: البيان: قسم الموحدين: ص 103 ـ 105 و 205 ـ 236 ـ صبح الأعشى: ج 5 ص 137، أحمد عزاوي مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية ج 1 ص 183، هامش 13 برنشفيك: المرجع السابق، ج 2 ص: 50.

(128) المراكشي: المعجب 289 ـ قدور أحمد: المدن الموحدية وعلاقتها بالريف، ص 462.

(129) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 135.

(130) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب القاهرة 1949، ص 289 ـ 290.

(131) ابن خلدون: العبر: ج 7 ص 232.

(132) ابن خلدون: العبر: ج6 ص 770.

(133) برنشفيك: المرجع السابق ج2 ص 48، ويذكر هذا المؤرخ، بأنهم وصلوا إلى المناصب القيادية العسكرية والمدنية السامية.

(134) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 215 - ابن خلدون: العبر ج7 ص 231 - 232.

(135) عن حروب موسى بن علي الغزي ضد بني مرين وبني حفص، انظر: يحي بن خلدون: بغية الرواد ج1 ص 213 - 219 - التنسي: نظم الدر، ص 142 - 144

(136) - ابن خلدون: العبر ج6 ص 664 - 667 و 747 - 768 - 769.

(137) ابن خلدون: العبر، ج6 ص 213.

(138) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 215: ابن خلدون: العبر ج7 ص 231 - 232 - برنشفيك: المرجع السابق ج2 ص 80 - هوبكنز: المرجع السابق ص 154.

(139) يبدو أن كلمة صقلب مشتقة من اللفظة الفرنسية EXLAVE ومعناها العبد أو الرقيق، وهو المصطلح الذي أطلقه الجغرافيون المسلمون في العصر الوسيط، على الشعوب، السلافية عامة لأن الجرمان كانوا يقومون بسبي رجالهم ونسائهم وأطفالهم، وبيعهم إلى مسلمي الأندلس، ولهذا أطلق عليهم إسم الصقالبة (جمع صقلبي) كما أطلق عليهم أيضا أسماء مختلفة مثل الموالي، والفتيان والخلفاء والمجابيب والمماليك والخرس، ، والاعلاج أو العلوج، وتوسع المسلمون في استعمال هذه الاسماء حتى صارت تطلق على الأرقاء الذين يجلبون من أي شعب مسيحي. أنظر: ابن عذاري: البيان، ج3 ص 162، المقري: نفح الطيب، ج1 ص 140 و 320 احمد مختار العبادي: الصقالبة في اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية، مدريد 1953 ص 8 قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام: دار النهضة العربية بيروت 1969 ص 43 - 61. :(L) Dozy (R) : Histoire des Musilmans d'Espagne T2 P. 154 Provançal l'Espagne musulman au 10 ème siècle P. 54

(140) ابن خلدون : العبر، ج7 ص 236.

(141) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 110.

(142) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 236، وقطلاني نسبة إلى اقليم قطلونية ويقع في الشمال الشرقي من اسبانيا وهو مقسم إلى قسمين في الوقت الحاضر، الأول لاسبانيا وأكبر مدنه برشلونة، أما الثاني فهو تابع للجمهورية الفرنسية، أنظر التنسي: المصدر السابق ص 138 هامش 151.

(143) ابن خلدون: العبر ج7 ص 236.

(144) ابن مرزوق: المسند ص 175.

(145) يحي بن خلدون: بغية الرواد: ج1 ص 125 و 205.

(146) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 236 وص 219.

(147) نفسه، ج7 ص 216، ويذكره صاحب البغية باسم «تاجرارت» يحي بن خلدون ج1 ص 214.

(148) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج1 ص 214 - التنسي: نظم الدر، ص 138.

(149) Dhina (A): opcit p. 50

(150) نجاة باشا: التجارة في المغرب الاسلامي (من القرن 4 إلى 8 هـ) منشورات الجامعة التونسية تونس 1976 ص 68.

(151) Dhina (A): opcit p. 50

(152) الشيخ الأمين عوض الله: تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي، وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي المنظمة العربية للثقافة والعلوم، بغداد 1984 ص 88.

(153) ابن خلدون: المقدمة ص 93 يطلق اسم السودان على جميع الأقاليم الشبه الصحراوية من افريقيا وتمتد جنوبي الصحراء الكبرى ومصر، أي من المحيط الأطلسي في الغرب إلى البحر الأحمر من الشرق وتنقسم هذه الأقاليم الى ثلاثة أقسام:

1_السودان الغربي: ويتضمن نهر السنغال ونهر جاميا والمجرى الأعلى لنهر الفولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر.
2_السودان الأوسط: ويشمل حوض التشاد.
3_السودان الشرقي ويشمل على الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل، أنظر الشيخ الأمين: نفسه، ص 69 هـ(1).
(154) الشيخ الأمين عوض الله: تجارة القوافل ص 88.
(155) نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي.
(156) المسالك والممالك ص 37.
(157) الشيخ الأمين عوض الله: المرجع السابق ص 88، ابن بطوطة: الرحلة، ج2 ص 799.
(158) الشيخ الأمين عوض الله: المرجع السابق ص 88، وتعد توات من المراكز التجارية الهامة وذكرها ابن خلدون، وأشاد بعمرانها، وقال عنها: «وفيه قصور متعددة تناهز المائتين أخذة، من الغرب إلى الشرق وهو بلد متبحر في العمران، وهو ركاب التجار المترددين من الغرب إلى بلد مالي، من السودان لهذا العهد» العبر: ج7 ص 117_118.

(159) Dufourcq (ch) : prix et niveaux de vie dans les pays catalanes et Magribin à la fin du 13ème et au debut du 14ème S. extrait de la revue le moyen age 1965 N° 3 - 4 PP. 498 - 501.
Idriss (H.R): constribution à l'étude de la vie économique en occident musulmans et de la mediterannée N° 15 - 16 2ème s.

(160) يتراوح ثمن المثقال ما بين 22 و 25 درهما أنظر: Devisse (y) : route des commerces. 2ème serie P. 375
Note N° : 214.

(161) حسن الوزان: المصدر السابق، ج1 ص 169_177.
(162) أبو حمو الزياني: واسطة السلوك، ص 81.
(163) وداد القاضي: المرجع السابق، ص 67.
(164) نجاة باشا: المرجع السابق، ص 68.
(165) المغرب، ص Barges: Tlemcen ancienne capitale P. 120/76
-برنشفيك: المرجع السابق، ج1 ص 461 بينما يذكر الأب بارجيس بأنه كانت بمدينة تلمسان عدة كنائس في هذه الفترة أنظر
Histoire de beni ziyan P. 114.

(166) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج1 ص 206.
(167) ابن عذاري: البيان (قسم الموحدين) ص 284_298 _ قدور أحمد: المرجع السابق ج2 ص 469.
(168) قدور أحمد: المرجع السابق ج2 ص 469.
(169) يحي بن خلدون: المصدر السابق ج1 ص 206.
Alemany: Milicias cristana al servicio de las sultanes musulmanes des Al-Maghreb, homenagé a codera saragosse 1904 PP. 133.169

(170) بغية الرواد، ج1 ص 206.
Barges (L.J J.L): Tlemcen catalane capitale P. 125.

(171) Dufourcq (C.H.E): l'Espagne catalane PP. 151 - 155
(172) مؤلف مجهول: الذخيرة السنية، ص 149.
(173) Dufourcq : opcit PP. 314 - 315 - Dhina. opcit P. 61
(174) Mas-latrie: introduction PP 150 - 2 - Traites P. 17

(175) برنشفيك : المرجع السابق، ج1 ص476ـ Dhina (A): opcit P. 61

(176) Ibid P. 61.

(177) Dufourcq (CH.E): l'Espagne catalane P. 472 Dhina. opcit P. 61

(178) برنشفيك : المرجع السابق ح1 ص472ـ - Dhina: opcit P. 61

(179) يحي بن خلدون : بغية الرواد، ج2 ص142 ـ وداد القاضي : المرجع السابق ص 20

(180) برنشفيك : المرجع السابق، ج1 ص 475

(181) نفسه، ج1 ص475.

(182) ابن مرزوق : المسند، ص 282.

(183) برنشفيك : المرجع السابق، ج1 ص Dhina: opcit p. 61/473

(184) Dhina: opcit p. 62

(185) ابن عذاري: البيان (قسم الموحدين) ص 403 اذ يقول في هذا الصدد : «وقتل الحضر في البلد عيالهم واطفالهم الكبار ومن الصغار واستأصلوهم»، وهذا دليل على أنهم كانوا يقطنون مدينة تلمسان بأزواجهم وأولادهم.

(186) برنشفيك : المرجع السابق، ج1 ص 477.

(187) نفسه، ج1 ص478.

(188) نفسه، ج1 ص478.

(189) نفسه، ج1 ص477.

(190) نفسه، ج1 ص 462 Mas-latrie : introduction P. 94

(191) نفسه، ج1 ص463.

(192) برنشفيك : المرجع السابق. ج1 ص 464.

(193) نفسه ج1 ص466.

(194) Verlinden : l'Esclavage dans le monde Iberique medieval in anuario historia derecho Espagnol 11 - 1934 du meme le catalogne in annales du midi Yahia b. Khldoun Beni Abdel Wad T. 1p. 180

يحي بن خلدون : بغية الرواد ج1 ص216ـ التنسي : نظم الدر ص 140.

(195) نفسه، ج1 ص216ـ نظم الدر، ص 140، برنشفيك : المرجع السابق ج1 ص 480

(196) Dhina (A): opcit P 62

(197) Dufourcq (CH.F) : prix et niveaux de vie dans les pays catalane et magrebins à la fin du 13 siècle et au debut du 14 siècle. extrait de la revue; le moyen age n°: 3-4 Bruxelle T. 71 - 1965 P. 503.

(198) Dhina: opcit p. 63.

(199) Idid: P. 63

(200) برنشفيك : المرجع السابق، ج1 ص480.

(201) نفسه، ج1 ص481.

(202) الونشريسي : ج2 ص172 أنظر أيضا : نوازل البرزلي، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية ورقة 171.

(203) برنشفيك : المرجع السابق، ج1 ص485.

(204) نفسه، ج 1 ص 490.

(205) نفسه، ج 1 ص 490 وما بعدها.

(206) Dufourcq : traité Aragone Tlemcenien de 1286 trd. dufourcq in bulletin de la société de geographie et d'archeologique d'Oran 1967 P. 35

Dhina: opcit P. 64.

(207) Bel (A) : Tlemcen et ses environs P. 138

(208) قدور محمد: المرجع السابق ج2 ص 468.

(209) Basset (R) : Nedromah et les Traras P. 97

(210) Bel (A) : opcit P. 133

كان اليهود فئة نشيطة تجاريا وصناعيا في المغرب، حتى هيمنوا على التجارة في الأسواق في العهد الموحدي، وأصبحت لهم ثروات كثيرة وكان الخليفة يعقوب المنصور (580 ـ 595 / 1184 ـ 1198). قد تنبه إلى هذا الغنى ورأى من حقه أن ينزع منهم جزء من مالهم، بحجة أنهم كانوا يستعملون الحيل في اكتسابه، ويكون بذلك قد قلد أبو عبد الله الشيعي الذي قتل أغنياء اليهود في سجلماسة في نهاية القرن الثالث الهجري، ومنعهم من تجارة الذهب، وجعلهم بناؤون وكنافون فقط، وتقلق المنصور من ازدياد ثروتهم ونفوذهم في دار الاسلام، فميز بينهم وبين المسلمين في اللباس، وأمرهم بلبس ثياب كحلية (زرقاء) بأكمام مفرطة في الاتساع، تصل إلى أقدامهم، وقلدهم قلنسوة كالبرادع تبلغ إلى تحت آذانهم ولبس هذا النوع من الثياب يهود جميع بلاد المغرب طوال عهده وفترة من عهد ابنه الناصر (595 ـ 610/1198 ـ 1213) الذي غير لهم لباسا آخر أصفر اللون، لأنهم كانوا يتشبهون بلباس المسلمين حتى صاروا لا يميزون بينهم، كما كان المنصور يشك في اسلام بعضهم وكان يقول: «لو صح عندي اسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في انكحتهم وسائر أمورهم، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم، وجعلت أموالهم فيئا للمسلمين، وكان اليهود يظهرون الاسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم كجميع سكان المغرب المسلمين، لأن الموحدين كانوا يقتلون من لا يصلي ولم يكن في عهده بيعة ولا كنيسة، أنظر كتاب الاستبصار، ص 206 عبد الواحد المراكشي: المعجب ص 434.

Marcais (G) : Tlemcen (villes d'art sélèbres) P. 92

(211) Marcais (G) : Tlemcen (les villes d'art sélèbres) P. 92

(212) Brunshving (R) : deux recits de voyage inedits en Afrique du nord au 15 siècle. Abde bassit ben halil P. 44

(213) Marcais (G) : opcit P. 93.

(214) Dufourcq: l'Espagne catalane P. 143

(215) Ibid P. 139

(216) Marcais (G) : Tlemcen (les villes d'arts célèbres) P. 93

(217) Dufourcq (CH.E): l'Espagne catalane P. 139

(218) Ibid P. 139

(219) برنشفيك: المرجع السابق ج 1 ص 433

(220) نفسه، ج 1 ص 434.

(221) نفسه، ج 1 ص 434.

(222) برنشفيك: المرجع السابق ج 1 ص 434

(223) نفسه، ج 1 ص 434.

(224) نفسه، ج1 ص 434.

(225) نفسه، ج1 ص 435.

Bel (A): Tlemcen et ses environs P; 134 - 135.(226)

الفريديل: الفرق الاسلامية ص 327.

A. Mayer: Etudes des mœurs des Israelites de Tlemcen Alger 1902 P. 7 sq

Bel (A) : les fêtes de rabe a Tlemcen Paris 1935 P. 30 sq

(227) ابن الأعرج: زبدة التاريخ، ورقة 98.

(228) ابن الأعرج: زبدة التاريخ، ورقة 98.

Marcais (G) : Tlemcen (les villes d'arts célèbres) P. 36(229)

Marcais (G): opcit P. 92 (230)

(231) حسن الوزان: وصف افريقيا، ج2 ص 20.

Bel (A): opcit P. 138(232)

(233) حسن الوزان، المصدر السابق ج2 ص 20

(234) عطا الله دهينة: الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدولة بني زيان، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ ص Brosslard : opcit P.
82. 490

(235) ابن خلدون: المقدمة ص 780.

(236) الفريد بيل: الفرق الاسلامية في الشمال الإفريقي ص 311.

(237) ابن خلدون: المقدمة، ص 675.

(238) نفسه، ص 675.

(239) ابن مرزوق: المسند، ص 267.

(240) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج2 ص 181 ـ 182.

(241) المعيار، ج2 ص 485 (طـ دار الغرب الاسلامي).

(242) محمد المنوني: ورقات ص 258 ـ 259.

(243) ابن الأعرج (محمد بن محمد): اللسان المعرب عن تهافت المعمرين حول المغرب مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط رقم 297 ورقة 344.

الباب الثالث

الفصل الثاني

الفئات الإجتماعية وأحوالهم الصحية

- فئة الحكام
- فئة الموظفين وأهل العلم .
- فئة التجار الصغار
- فئة الصناع والحرفيين
- فئة الخدم والعبيد
- فئة الفقراء والمعوزين
- الأوقاف والتكافل الإجتماعي .
- الحسبة في تلمسان .
- الجنس والأخلاق
- خطة المظالم في تلمسان .
- خطة الشرطة في تلمسان
- الأحوال الصحية
- تأثير الأمراض والكوارث والأزمات السياسية على السكان :
  - أ ـ الأمراض المتوطنة .
  - ب ـ الأدوية والعلاج .
  - ج ـ أشهر الأطباء .
  - د ـ متوسط عمر سكان تلمسان .
- وباء الطاعون .
- الجفاف والمجاعات .
- الحروب والأزمات السياسية .

الفئات الإجتماعية للمجتمع التلمساني

إن دراسة فئات المجتمع التلمساني وشرائحه، خلال العهد الزياني وتوضيح دورها في الحياة العامة، وتحديد نمط انتاجها ومعيشها لمن الصعوبة بمكان سواء من الناحية المنهجية، أو الناحية التاريخية، لغياب الأسس التي يقوم عليها المجتمع الطبقي من جهة، و النقص الكبير في المصادر الأساسية، التي تعالج البنية الإجتماعية، للمجتمعات الإسلامية في العصر الوسيط بصفة عامة، و المجتمع المغاربي على وجه الخصوص من جهة أخرى، و أنه من الصعب أن نتناول هذا الموضوع بالمصادر التاريخية التقليدية [1]، وأن نتعرف على الوضعية الإجتماعية لمدينة تلمسان، كظاهرة جزئية، بدون الإعتماد على الظاهرة الكلية، لمجتمعات المدن الإسلامية و تصنيفها، حسب المضمون الطائفي و الطبقي الفئوي [2].

و بناء عليه، فإني أستهل هذا الموضوع، بالملاحظات التي أبداها إخوان الصفا عن المنظومة الإجتماعية، التي كانت سائدة في العالم الإسلامي كظاهرة عامة، تكون مدخلا يمكن أن تساعدنا منهجيا، لدراسة الظاهرة الجزئية للمجتمع التلمساني.

و قد وضح إخوان الصفا الطبقات الإجتماعية بقوله: «الناس أصناف و طبقات، منهم أرباب الصنائع و الحرف و الأعمال، و منهم أرباب التجارات و المعاملات و الأموال، و منهم أرباب البنايات و العمارات و الأملاك، و منهم الملوك و السلاطين، و منهم الزمني و العطل و أهل البطالة و الفراغ، ومنهم أهل العلم و الدين» [3].

وعلى هذا الأساس تقريبا يمكن أن نصف، الكيان الإجتماعي الحضري في المغرب الإسلامي الوسيط، لأنه هو الآخر يتضمن تقسيما فئويا شبه طبقي، كما وصفه إخوان الصفا وقد عرف الفكر الإسلامي الوسيط، هذا التصنيف في المشرق والمغرب على حد سواء، ويتضح ذلك من خلال الكتب والمصنفات العديدة التي دونها المؤرخون والإخباريون، ورجال الفقه والأدب والفكر

المسلمون عبر حقب زمنية متعاقبة، تحدثوا فيها عن فئات المجتمع الإسلامي وطبقاته، من أمراء ووزراء وقضاء وفقهاء، وأدباء وأطباء وغيرهم، حسب ثقافتهم ووظائفهم ومهنهم، ومستواهم المادي والإجتماعي، غير أن النصوص في أغلبها، لا تميز إلا بين طبقتين اجتماعيتين اساسيتين هما:

1) - طبقة الخاصة.

2) طبقة العامة، وهذا ما جعل بعض الدارسين في هذا المجال، يعتمدون على هذا التصنيف، في أبحاثهم ودراساتهم ولا يتعدون ذلك (4).

و حتي هذه المصادر أو النصوص، لم تحدد لنا ضوابط دقيقة لهذا التصنيف، بحيث تتداخل بعض الفئات الإجتماعية في التصنيف، لعدم تحديد الخصائص المميزة، التي ينطبق عليها كل مفهوم (5).

فقد كان المجتمع التلمساني، يخضع للتقسيم الفئوي في العهد الزياني، شأنه في ذلك شأن مجتمعات الحواضر الإسلامية الكبري، برغم كون عقيدتنا الإسلامية تنبذ التصنيف الفئوي والطبقي، و تدعو إلى ان يكون افراد المجتمع الإسلامي إخوة متساوين، كأسنان المشط في إطار أمة واحدة، إلا أن واقع الحياة، و ظروف المعيشة و البيئة، و سلوك الفرد، و طموحاته واجتهاده في طلب المعاش، افرزت فئات اجتماعية متباينة، في مدينة تلمسان و غيرها، فرضتها الاوضاع الإجتماعية والاقتصادية، والثقافية والسياسية لكل مجتمع، إذ ان ما يميز المجتمع الطبقي هو الملكية الفردية، لوسائل الانتاج، وعلاقات الانتاج المتميزة، باستغلال أقلية مالكة، لأغلبية غير مالكة، واختلاف نمط العيش والأستهلاك، بينما في المجتمع الحضري المغربي الإسلامي، يمكن الحديث عن فئات اجتماعية متميزة بعدة خصائص، لكنها لا تسمح لها بالارتقاء إلى مستوي مفهوم الطبقة(6).

فئة الحكام:

تضم هذه الفئة العليا في المجتمع، السلاطين و الامراء من بني عبد الواد و ابناء عمومتهم، والحجاب والوزراء وكتاب الدواوين والولاة، و قادة الجيش و المنصبان الأخيران لا يقلدان، في غالب الاحيان، إلا لأقرباء السلطان (7).

و كان هؤلاء اكثر شرائح المجتمع التلمساني، استفادة من الدولة، بحكم وظائفهم في تسيير دواليب الدولة، واحتكاكهم اليومي بالسلطات، يتلقون مرتبا منتضما، من بيت المال.

وكانت هذه الفئة، تعيش عيشة مترفة، تتصدر المجتمع وتتربع علي قمته بحكم موقعها، في جهاز الدولة، عرفت توسعا ملحوظا، في العهد الزياني بتوسيع دائرة الوظيف، وارتباط البعض منها، بعلاقة المصاهرة مع العائلة الحاكمة.

ويمكن اضافة بعض الموظفين، إلى هذه الشريحة المتميزة، من الذين كانو يشغلون، مناصب حساسة، كالقضاء والفتيا والخطابة والجباية والحسبة، ورؤساء القبائل المتحالفين مع بني عبد الواد(8)، ولكنهم لا يرتقون إلى المرتبة نفسها وانما يرتبطون بهم بحكم الوظيف.

لم تقتصر الامتيازات، التي كان يحظي بها رجال الدولة، ووجهاء القوم على الرواتب الثابتة والعطايا في المناسبات المختلفة، بل تعددت إلى الاقطاعات، وهي عبارة عن عقارات سكنية في المدينة أوأراضي زراعية.

يقدمها السلطان، لمساعديه واعوانه، ولعلية القوم والفقهاء ورجال العلم، وقادة الجيش والوزراء، وشيوخ القبائل، كالاقطاعات التي قدمها يغمراسن، للفقيه ابي اسحاق ابراهيم بن يخلف التنسي (680-1280)، في المدشر المعروف "بتيرشت"، الذي يقع بمقربة من الحنايا علي أميال من تلمسان (9)، ثم اقطع ابو حمو الأول، نفس الاقطاعات، إلى الفقيهين ابني الإمام أبي زيد (ت 743هـ-1349م) وأبي موسى (750 هـ 1349م)، و بنى لهما مدرسة ومنزلين (10) وأقطع أبو حمو الثاني، قبيلة المعقل العربية، اراضي زراعية بضواحي تلمسان (11)، وكذلك منح لشيوخ قبيلة بني عامر (12)، إقطاعات عقارية كثيرة (13). وكان يقوم بكسوتهم، بالرغم من كثرة عددهم، ويبدل لهم المنح المالية المعتبرة في المناسبات المختلفة (14) وكانت الاقطاعات و الهيئات شائعة، عند الزيانيين.

واذا كانت هذه الاسهامات تقوم بها الدولة، فهي نفسها التي تعمل على انهائها، بسبب الاقصاء السياسي والاعفاء من المنصب اثناء الخروج ضد السلطة، كما سلك بعض سلاطين بني زيان مع بعض شيوخ القبائل (15)، وبعض الوزراء والكتاب والقضاة، وغيرهم ممن تمت تصفية وظائفهم و إقطاعاتهم (16).

فئة الموظفين والمهندسين ورجال العلم والفكر والادب:

تتكون هـذه الفئة، من أسر الموظفين، وأصنـاف المهندسين وأهـل العلم والفكر مـن الكتاب والشعراء والفقهاء والأسـاتذة، الذين يـزاولون التدريس، وعائلـة الاطباء الذين نـالوا الحظوة، في دولة بني زيان.

ويضاف إلى هذه الفئة الجنود والرماة النظاميون، الذين كانوا يتقاضون، اجرة ملائمة للغاية[17] وكان أقلهم ينال شهريا ثلاثة مثاقيل [18]، فضلا عن المكافآت والعطايا التي تقدم للمساهمين في المعارك والحملات العسكرية [19]، ويدخل في هذا الصنف الطلبة الذين أستطاعوا ان يحتلوا مكانة مرموقة بين أهل العلم والادب [20].

ويمكن ان نصنف ضمن هذه الفئة، التجار الكبار، وأرباب الحرف وأصحاب رؤوس الاموال الكبيرة[21]، والقوافل التجارية التي تتنقل باستمـرار، بين مناطق الانتاج ومناطق الأستهلاك، في الحواضر المغربية، والموانىء السـاحلية والأسواق البعيدة، يجهزون القـافلة التي يصل عددها احيانا إلى نحو مائتي دابة [22]، ومن البديهي فان تـوظيف القوافل، وتجهيزها بمثـل هذا الحجم، يجعل منها شركة تجارية كبيرة، يملكها شخص واحد، يتخذ له أعوانا من الخدم و العبيد، أو وكلاء [23] ينوبون عنه [24]. أو تكون ملكـا لجماعة مـن التجار، من بينهـم بعض الوزراء كـالسفينة الميـورقية التجاريـة، التي يملك ثـلاثة أرباعها الـوزير التلمساني هـلال القطلاني [25]، و كذلك الـوزير الحاجب عبدون بن محمد الحباك، الذي ورث لابنائه رأس مال تجاري كبير [26].

وعائلة المقـري التي كونت ثـروة هائلة من العمـل التجاري، واحتكرت طريـق السـودان [27]. وكان بها خمسة إخـوة تقاسموا الادوار فيما بينهم، بحيـث استقر اثنان منهم، في مـدينة تلمسان، وهي المقر الـرئيسي للشركة، وانتقل اخوهـم الاكبر إلى مدينة سجلماسة، ففتـح بها مكتبا تجاريا، بينما استقر الاثنان الآخران بمدينة بايولاتـن، التي تبعد عن تنبكتو بنحو اربعمائة كلم، فشيدا بها دارا ومتجرا [28]، وفي هذا الصدد يوضح حفيدهـم صاحب كتاب نفح الطيب، دورهـم ونشاطهم التجاري في الخط الرابـط بين بلاد السودان، ومدينـة تلمسان بقوله: "ثـم اشتهرت دريتهـم (اي المقري) على ما ذكر، من طبقـاتهم بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الـآبار وتأمين التجار، واخذوا طبلا للرحل ورايـة، تقدم عند المسير، وكان أولاد يحي الذين أحدهـم أبـو بكر خمسة رجال فقصدوا الشركـة بينهم في جميـع ما ملكوا، أو يملكـونه على السواء. . . "فكـان ابو بكـر ومحمد

بتلمسان وعبد الرحمان، وهو شقيقهما الاكبر بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي وهما شقيقاهم الصغيران، بإيولاتن، فاتخذوا بهذه الاقطار، الخرايط والديار، وتزوجوا النساء، واستولدوا الإماء، وكان التلمساني، يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع، ويبعث اليه الصحراوي، بالجلد والعاج، والجوزة والتبر، والسجلماسي كلسان الميزان، يعرفهما بقدر الخسران والرجحان، ويكاتبهما، بأحوال التجار، وأخبار البلدان، حتى أتسعت، أموالهم وأرتفعت في الضخامة، أحوالهم " [29]، فصارت لهم علاقة طيبة مع أحكام وملوك، تلك المناطق والأقطار، وصار الأخوة المقري، يكاتبون ملوك المغرب وبلاد السودان، فتدللت لهم بذلك المسالك، فزادت أموالهم عن الحد، وكادت تفوت الحصر [30].

وكانت عائلة النجار التلمسانية، من الأسر التي تملك أموالا وثروة، أشتهر منهم الشيخ الصالح الأمين، أبو زيد عبد الرحمان بن النجار، الذي كان يملك، معامل لحياكة الصوف الرفيع، الذي أشتهرت به مدينة تلمسان، وأنفردت به معامل أبي زيد ومنازله، فقد كانت له تربيعات بدرب شاكر، وكان أغلب دور هذا الدرب ومنازله، ملكا له ولعماله وخدامه، وكان له داخل الدرب، درب خاص له ولابنائه وبناته [31].

فقد كان التجار يقصدون صوفه، من كل الأقطار ويتسابقون لاقتناء كميات كبيرة منها، لأن الناس يرغبون فيها، كما كان ملوك أفريقية والمغرب، يفضلونها علي غيرها [32]، بحيث كان السلطان أبوالحسن المريني، يؤتى له بثياب الصوف التلمسانية الخالصة، فيتخير أجودها، ويهديها لجلسائه[33]، فكانت الاحمال الكثيرة منها، تخرج كل يوم من مدينة تلمسان نحو الأسواق المغاربية والمشرقية وحتى الأوربية، وقد تصل الصفقة الواحدة إلى ألف دينار من الذهب في اليوم الواحد [34]، حتى صار آل النجار يملكون ثروة هائلة، بمدينة تلمسان وبمدن أخرى مثل مكناس، وفاس، حيث يوجد عقبهم [35].

وكان الشيوخ الفقهاء التجار أبو عبد الله المد حس، واخوته وبني اللحام القاضي والخطيب وأخوتها، وأبن حسون، وأبن الجلاب يملكون ثروة مالية كبيرة، يستثمرونها في التجارة وكانت عائلة المرازقة التلمسانية هي الأخرى تشتغل بالعلم، والتجارة والفلاحة [36]، وكانت عائلة العقباني، تعد من العائلات الميسورة الحال بمدينة تلمسان، تحترف العلم والوظيف والتجارة [37] وغيرهم من أرباب الأموال الطائلة بالمدينة.

وكان التجار التلمسانيون، يلبسون لباسا جميلا وفاخرا يفوق ما كان يلبسه زملاؤهم، في مدينة فاس، وجودة وبهاءا لأنهم أكثر أناقة، وأكثر سخاء [38]، فقد كانوا يتلقون أرباحا كبيرة من نشاطهم التجاري، ولكنهم - فيما يبدو - لم يحاولوا أستثمارها في القطاع الإنتاجي، وإنما كانت تذهب، في شراء العقارات كالدور والعمارات داخل المدينة، والأراضي الزراعية خارج أسوارها[39]، ويعيشون في مستوى مادي يضاهي الفئة الأولى، ويقلدونها في أقتناء المنازل والقصور، ويجارونها في شراء العبيد والخدم، والبساتين ومظاهر الحياة [40].

وكانت هذه الفئة - فيما يبدو - كثيرة الأعتزاز بنفسها وبانتمائها إلى مدينتها، تطمح إلى العيش المريح في حاضرتهم العريقة، التي تتميز، بالطابع الحضاري الراقي، وبالمستوى المادي الرفيع.

ويمكن ان نضيف إلى هذه الشريحة، الوسطاء والوكلاء والسماسرة العاملين، في الأنشطة التجارية والصناعية، ولكنهم ليسوا تجارا ولا حرفيين صناعا، يتولى هؤلاء الوساطة في العمليات التجارية، ويقومون بتسهيل عمل التجار الكبار، وترويج بضائعهم في الأسواق، نظير نسبة مئوية، يتقاضونها مقابل هذه الوساطة. ويمكن ان يصل أجرهم في بعض الأحيان، إلى نصف الأرباح، خاصة بالنسبة للسماسرة.

وقد كان الوكلاء والسماسرة يملكون محلات تجارية ومخازن معروفة في أسواق المدينة، يقصده التجار الكبار ببضائعهم، لبيعها أو خزنها سواء كانت الصادرة منها أو الواردة [41].

والظاهر أن هؤلاء بقدر ما كانوا يساعدون التجار، في بيع سلعهم، كانوا يتشددون في رفع الأسعار، لأنها ليست أموالهم، فيتسببون في تأخير البيع لأنهم ينتظرون رفع قيمة الأرباح، فتزداد حصتهم. وكانوا يتفقون مع التجار على إخفاء قيمة الأرباح تهربا من الضرائب[42].

ويرتبط انتعاش التجارة وازدهارها بالأوضاع الداخلية للبلاد وتتأثربفترات الركود، كما يتقلص دور النشاط التجاري بالأزمات السياسية، وبحدوث بؤر التوتر، وبالتالي يتأثر العاملين بها وخاصة منهم، الوكلاء والوسطاء والسماسرة، ولهذا نجد المثل الشعبي الاندلسي يسخر من التاجر بقوله: " جالس في الدكان يشرد الدبان " [43]. ولا يغفل الحريري أيضا هذه الظاهرة بقوله: " أما بضائع أهل التجارات فعرضة للمخاطرات وطعمة للغارات " [44].

ويبدو أن الوكلاء والوسطاء والسماسرة، كانوا يحصلون على أموال كثيرة، من خلال مهمتهم مما جعلتهم يرتقون اجتماعيا، ويقتربون من فئة التجار الكبار.

وكان التلمسانيون ميسوري الحال، بسبب تجارة الذهب وريش النعام والعاج، والرقيق الأسود، المجلوب من بلاد السودان، لأن مدينة تلمسان ظلت محطة تجارية، ذات شأن كبير، عدة قرون، تربط بين بلاد السودان والمغرب من جهة، وبين المغرب والاندلس، ودول البحر الأبيض المتوسط، من جهة ثانية، وخاصة مدن المرية وغرناطة، وبرشلونة وميورقة وجنوة، والبندقية وفلورنسا خلال القرنين [7] و [8] الهجريين الموافق [13] و [14] الملاديين(45).

وقد عادت تجارة الذهب مع السودان على الدولة الزيانية بثروة عظيمة، ويتضح ذلك من خلال الرسالة التي كتبها السلطان الزياني، أبو تاشفين الأول إلى جاك الثاني (691ـ728هـ/ 1291 ـ 1327) ملك أرغون، لعقد معاهدة بين البلدين، يعرض فيها على العاهل الأسباني كمية من الذهب، مقابل أبرام المعاهدة والألتزام بها (46).

وكان الذهب هو المادة الأولي المغرية، للتجار المسيحيين الأوربيين فكانوا يسافرون من أجلها إلى بلاد المغرب (47) ومن أجل هذا بقيت المدينة تتمتع بالغنى واليسر، حتى القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي، وكذلك بضخامة مال التجار، وما بحوزتهم من ثروة ونقد (48) عكس ما ذهب اليه المؤرخ لاكوست (49).

فئة صغار التجار:

تتكون هذه الفئة من صغار التجار، الذين كان عددهم كبيرا في مدينة تلمسان، ساهموا بقسط كبير في بيت مال المسلمين، وكانوا يقيمون في المدينة، يتعاطون التجارة، في الأسواق المنتشرة وفي دكاكينهم. وقد ينتقل بعضهم إلى المدن المجاورة، والأسواق الأسبوعية والموسمية في القرى والبوادي(50).

والظاهر ان العصر الزياني عرف رخاءا أقتصاديا، بفضل النشاط التجاري المكثف لهذه الفئة من التجار، في مدينة تلمسان التي تعتبر رواقا تجاريا، للبحر الأبيض المتوسط وبلاد السودان(51).

وكان التاجر الصغير، يلجأ إلى التاجر الكبير المستورد في مختلف الأسواق، لتموين زبائنه بالسلع والبضائع التي تختلف أسعارها، حسب تكلفة أنتاجها ومشقة أحضارها [52] . وكانت مدينة تلمسان، تقدم خدمات كثيرة في مجال التجارة المتنوعة بالجملة والتجزئة. والتجارة كانت في المقام الأول، توجد في المحلات والدكاكين المتواجدة في كل حي ودرب من المدينة، وحول المسجد وفي القيصارية، وكانت البضاعة المستوردة، تباع مباشرة لتجار التجزئة في المدينة، ويحول منها الباقي إلى القرى والأرياف والموانيء، لتوزيعها على تجار هذه المناطق عن طريق الوسطاء[53].

وكانت دائرة التأثير التجاري لمدينة تلمسان واسعة في المنطقة، حيث يمتد نفوذها نحو الشرق إلى وادي الصومام، وإلى وادي ملوية غربا، أما تأثيرها في الجنوب فيمتد إلى الصحراء الكبرى والمضاب العليا، وإلى الداخل نحو القبائل الرحل، الذين يأتون للتبادل التجاري بالمقايضة وهي المناطق التي تدخل في حوز الدولة الزيانية تقريبا [54].

وقد وجد الأروبيون، تجارة منظمة، بمدينة تلمسان عندما حلوا بها في بداية الدولة الزيانية، وكان تجار أرغون، يحتكرون النشاط التجاري بين عاصمة بني زيان والعواصم الأوروبية، وامتد نطاق التبادل معها إلى عناصر أروبية أخرى، خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي[55].

وكان التجار اليهود، يشكلون مجموعة تجارية، قائمة حول البحر وإيطاليا وفرنسا وميورقة وبرشلونة ومصر، وبلاد المغرب، واليهود لم يكونوا تجارا فقط، بل كانوا حرفيين أيضا [56]، ولهذا كانوا يقومون بتوزيع، بضائعهم على تجار تلمسان، لتسويقها في تلمسان، وفي المدن المغربية الأخرى، مقابل مبلغ من المال نقدا او عينا [57] ، وكانوا يهيمنون على تجارة الذهب في مدينة تلمسان خاصة والمغرب عامة[58].

وكان بعض التجار التلمسانيين، جوالين، يجوبون المدن المغاربية، ويصلون إلى بلاد السودان، مع القوافل [59] ، نذكر منهم الحاج زيان، الذي كان في القافلة رفقة، الرحالة ابن بطوطة[60] ، والشيخ الرحال الحاج العقبة وبن علي بن الشيخ اللبان التلمساني [61].

ويبدو ان النمو التجاري، الذي شهدته، مدينة تلمسان في العهد الزياني، شجع العديد من

الفقهاء، والعلماء، والطلبة في المدينة على الاشتغال بحرفة التجارة، فضلا عن نشاطهم العلمي والفكري، في محلاتهم ودكاكينهم باسواق المدينة ولا سيما في القيصارية [62]. والمحلات المحاذية للمسجد الجامع، التي صارت في نفس الوقت مجمعا للعلماء [63].

لم يكن التاجر التلمساني، يتاجر لنفسه فقط، وانما كان ينوب عن التجار الآخرين، في استثمار ما يملكون من أموال في هذه الحركة، مثل الشيخ العالم الفقيه، ابي اسحاق ابراهيم بن يخلف التنسي (ت 680 ـ 1280)، الذي كلف المؤرخ ابا العباس بن القطان باستثمار بعض أمواله في التجارة [64] قراضا، وكان ابو عبد الله محمد بن مرزوق، قد اعان ابن القطان، الذي كان يشتغل بالخياطة، ببعض المال وشجعه على التجارة، والسفر من اجلها، فاتخذ طريق فاس وسبتة، فباع واشترى بها، ثم عاد بأحمال البز والمتاع السبتي إلى مدينة تلمسان، ثم توجه إلى مدينة بجاية لذات الغرض، حتى وسع الله عليه وكثر ماله فاشترى به حانوتا بالقيصارية ودارا بتلمسان واستقر بها [65].

وكان بنو مرزوق، يحترفون العلم والتجارة، في دكاكين لهم بالقيصرية ودرب مرسى الطلبة [66] بتلمسان، وفلاحة الأرض بالعباد [67]. وكان لهم عدد من المنازل والدور والخدم الخاصين بهم [68]. وكان الشيخ ابو علي حسين بن الجلاب، قد ذهب ماله الكثير الذي تركه له والده، وكان هذا الأخير يتاجر بجلب الغنم، ولهذا سمي بالجلاب [69]، فاشتكى لابن مرزوق من ضيق حاله فاعطاه مالا وحثه على أتباع سبيل والده، في التسبب بالمواشي، فما مر عليه حول حتى أصبح من المشهورين، باتساع المال في مدينة تلمسان [70].

وكان بعض الفقهاء يحترفون الحراثة وتربية المواشي [71]، والخراطة وخياطة الملابس [72] ونسخ المصاحف، والكتب وبيعها، في سوقي الملابس والكتب [73] وكان أغلب حجاج مدينة تلمسان، يشتغلون بالتجارة خلال سفرهم إلى البقاع المقدسة وأثناء عودتهم [74]، وقد أدلى حسن الوزان بشهادة إيجابيةعن أخلاق ومهنة التجار التلمسانيون ومعاملاتهم النزيهة مع الناس، حيث يقول: " فالتجار أناس منصفون، مخلصون جداً، أمناء في تجارتهم يحرصون على أن تكون مدينتهم مزودة بالمؤن على أحسن وجه، أهم أسفارهم التجارية، وهو الذي يقومون به إلى بلاد السودان، وهم وافروا الغنى أملاكا ونقودا " [75].

وكانت ـ فيما يبدو ـ بعض الظواهر السلبية ، منتشرة بين بعض التجار، مثل ظاهرة التهرب من الجباية الجمركية ، باتخاذ موضع العباد ، مكان لأخفاء البضائع وتخزينها ، حتى يتمكنوا من ادخالها إلى مدينة تلمسان ، خفية بعيدا عن عيون الرصد ، هروبا من دفع الضرائب في الأبواب (76).

ولعل هذا السبب الـذي جعل السلطان أبا تاشفين الأول يغضب ، ويقوم بأرسـال أحد أعوانه هو يحي بـن أبراهيـم علي العطار، للتحقيق مـن ذلك ، فجـاء هذا الأخير، وهـدد بضرب الموضع وتخريب روضـة ابي مديـن الغوث ، لكن ابـا العباس أحمد بـن مرزوق ، تصدى لـه واثنى عـزمه ، فانصرف بعد طول نزاع (77). ولاحظ الرحالة عبد الباسط المصري ، تهرب التجار من الضرائب عند باب مدينـة تلمسان بقوله : " جرت هنـاك أن من خاف على نفسه مـن التعشير، وزع ما معه، لمن يدخل البلد ، مـن أهلها أو أعطاء له ليدخل له بـه فانه لا يفتش ، سواء عرفـه صاحب المتاع أم لم يعرفه " (78) ويبدو أن بنـي زيان وضعـوا بعض الإجـراءات الجمركيـة ، التي تقلـص ظاهـرة، من التهرب من الضرائب ، فجعلـوا على أبواب المدينة ، عمالا من أهل الذمـة (يهود ونصارى) يحيطون بالتاجر ويقومـون بتفتيشه من رأسه إلى قدميه ، بحثا عن السلـع ، الخاضعة للضريبة والتي يمكن إخفاؤها ، وحتى النســاء أوكل بهن يهوديات ، يفتشنهن ظاهرا وبـاطنا مبالغة وتشديدا في الـرقابة "كن يدخلن أيديهن إلى لحومهن " ، وهي عملية أنفـرد بها جباة مدينة تلمسان عن غيرها ، حسب ما ذهب إليه إبن مرزوق (79).

وكانت المغارم ، تؤخذ عن الخشب ، والبيـض ، والدجاج ، والتين ، وسائر المرافق ، التي يحتاج اليها الميسور، والفقير، بل حتى ماء السقي كان يخضع لهذه الضريبة (80).

وهناك صنف آخر، مـن سكان مدينة تلمسان ، ارتبطوا أشد الارتباط بـالانشطة التجارية، الا أنهم لم يرتقوا إلى صنف التجار وفئتهم ، بل كانوا أقل منهم مرتبة ، ومكانة اجتماعية ومادية ، بالرغم مـن أعمالهم الشـاقـة في الأسـواق والورشـات الصنـاعيـة ، كـالحمالين والـدلالين (81) والبراحين الجلاسين ، ومرافقي القوافل التجارية ، والمكلفين بحراستها ، ويعد هؤلاء جميعا من أفقر العاملين في القطاع التجاري . وقد عرفتهم المصادر بالسوقة " و" باعة الطرق " (82) و" الرعاع " (83) و" أوباش السوق " (84)، ووصفتهـم كتب الحسبة ، بشتـى النعوت ، وذكرت بان أصنافهم ، اتسعـت مع مرور الزمن ، بسبب النمو الديموغرافي والهجرة المستمرة للمدن (85).

فئة الصناع وأصحاب الحرف:

كانت الحرف والصناعات في مدينة تلمسان مختلفة ومتنوعة، تعددت معها أصناف الحرفيين والعاملين في قطاع الصناعي والحرفي، وما اليهم، تميزوا بالنشاط والمهارة في أتقان صناعتهم ومنتوجاتهم الحرفية التقليدية، التي عرفت تطورا ملحوظا في عاصمة بني زيان(86).

فقد كانت العصور الوسطى الإسلامية، تتميز بنظام الطوائف الحرفية المتخصصة، وهو تنظيم شعبي يعرف بنظام النقابات (87)، أو الأتحادات المهنية (88)، تتجمع كل طائفة في مكان واحد، وتتسمى بنوع الحرفة أو التجارة التي تمارسها لأن أصحاب الحرف هم تجار في نفس الوقت، ولهذا نجد الأسواق مقسمة بين هذه الطوائف، المختلفة مثل: العطارين، والقبابين، والاسكافيين، والسراجين، والنجارين، والدرازين، والحدادين، والدباغين، والصباغين، وسوق الكتب عبر أحياء المدينة وحارتها. فكانت جميع الصنائع والتجازات بمدينة تلمسان موزعة على مختلف الساحات والأزقة (90).

أما الصناعات التي يمكن أن تؤثر على حياة الناس أو تحدث تلوثا في المحيط، أو تسبب أزعاجا للسكان، فكانت تقام خارج أسوار المدينة، وكذلك الصناعات التي تحتاج إلى تدفق المياه، فإن مكانها في الغالب على ضفاف الأنهار والمنحدارت، كدباغة الجلود والصباغة، والحدادة والأرحية، وهي صناعة تعتمد على الموارد المائية وموراها الأولية من البادية(91).

وقد تكون ملكيات الورشات المهنية والوحدات الصناعية لعائلة واحدة، كعائلة ابي زيد النجار - السالف الذكر - الذي يملك ورشات صناعية لغزل الصوف الرقيق ونسجه وبيعه لمختلف الأقطار(92).

وكذلك كانت للجد الخامس، لأبي عبد الله محمد صاحب كتاب "فهرست الرصاع" ورشة صناعية، ومحلات تجارية، بمدينة تلمسان، وقد كان صاحبها يتفنن في ترصيع مصنوعاته، التي كانت تتميز بالجودة والأتقان (93)، وتميزت معامل الأصبغة بتلمسان، حتى صارت لها شهرة كبيرة بين الدهانين (94).

وكانت بعض الحرف ملكا لأشخاص، اذا تعلق الأمر بحرفة محدودة، كالحدادة والدرازة والنجارة وغيرها، من الحرف التي لا تتطلب عددا كبيرا من العمال (95).

اما الـدباغة والصباغـة ، والتعدين واعمال البنـاء ، فانها تحتاج إلى عـدد اكثر من اليد العـاملة يتكون في غالب الأحيان ، لمجموعة من الشركاء[96].

واما الصنـاعات الكبيرة كصناعة السفـن ، واستخراج المعادن كما هو الشـأن ، في منطقة تفشرة التي تبعد عـن مدينة تلمسان بنحـو خمسة عشر ميلا [97]، فهي منطقة مشهـورة بصناعة الحدادة وبكثرة مناجم الحديد[98].

وكذا أعمال البناء تحتاج الى عـدد كبير من العمال وقد استعان سلاطين بني زيـان وامرائهم ، في مجال البناء والتعمير، بالمهنـدسين والبنائين والفنيين الاندلسيين [99]، وبآلاف الاسرى النصارى ، في انجاز مشاريعهم العمرانية الكبيرة وصناعاتهم الحربية ، بمدينة تلمسان [100].

وكان أبـو حمو موسي الثـاني يعتني بالصنـاعة ، أيما اعتنـاء ويقدر أصحـابها ، ويشجعهم على احترافها ، بل وضعهم في فئة إجتماعية تلي مـرتبة الاشراف والفقهاء مباشرة ، حينما يجلس لإستقبال الفئات المختلفة ، للمجتمع التلمساني في قصره بالمشور يوم الجمعة [101].

وقام بتشييد دار الصناعة سنة 766هـ / 1365م ، ذات الفائدة الحربية وهـي دار استقطب لها الصناع ، على أختلاف أجناسهـم ولغاتهم وديانتهم ، وصناعاتهم فكان العمـل فيها نشيطا ، قائما على قدم وساق ، ونظـرا لإهمية هذا المصنع وإنتـاجه الحربي الإستراتيجي الهام ، فقد كـان أبو حمو الثاني يتفقد صناعته مرتين في كل يوم (102) ، وقد وصف يحي بن خلدون هـذه الدار وصفا دقيقا بقوله : " إن دار الصنعة السعيدة ، تموج بالفعلة على أختلاف أصنافهم ، وتباين لغاتهم وأديانهم ، فمن دراق ورماح ودراع ، ولجام ووشـاء ، وسراج وخباء ونجار وحداد وصـائغ ودباج وغير ذلك ، تصطـك لاصواتهم وآلاتهم الاسماع ، وتجار في أحكـام صنائعهـم الأذهان ، وتقـف دون بحرهـم الهائل الابصـار ، ثـم تعرض قـومتهـم أصيـلان كل يـوم مصنـوعـاتهم فيه بين يـدي الخلفيـة (اي السلطان) أيده الله . . . وينصف العاملين من أرزاقهم عدلا هكذا أبدا " [103].

وكانـت الورشـات الحرفية والـوحدات الصنـاعية ، لمدينـة تلمسان ، تضـع العديـد من المواد المنصوعـة ، كالأغطيـة الملونـة والألبسة والأقمشـة بمختلف الألـوان [104]، والحائك والبرنـوس التلمساني المشهـور بخفته وجودتـه ومتانته المطلـــوب في جميع الاقطار المغـربية [105]، وصناعـة الزرابي والفـرش والسـلال ونسـج الحلفـاء والجلـود المنقـوش ، والحقـائب والأحذيـة وغيرهـا مـن

الصناعـات التقليدية التلمسـانية، التي تصـدر الى أروبا [106] وكذلـك عرفت المصابـغ في المدينة حركة، بحيث كان العمال يقومون بصبغ الخيوط بالالوان المختلفة، وصباغة الصوف ومختلف أنواع الجلــود [107].

وكان سهل وادي الوريط بضواحي تلمسان يحتوي على مجمـوعة من الورشات الصناعية، التي أسسها المهـاجرون الانـدلسيون، ونقلوا إليهـا صناعـة الاطرزة والمنسوجـات الحريريـة والقطنية، والكتان والصوف وسائر الأواني المنزلية، ومعامل الفخار والخزف والأسلحة المختلفة [108].

وكما أختص اليهود بصناعة المعادن الثمينة، كالمجوهرات والذهب والمرجان وغيرها، وقد دعم المهاجـرون سواء مـن الاندلسيين اليهود أو المسلمين تنميـة الصناعـة بمدينة تلمسـان وتطويـرها بمهارتهم وخبرتهم في هذا المجال وبرؤوس أموالهـم [109].

وكان أصحاب الحرف، وأصحـاب المهن، والصناعات، في مدينة تلمسـان، يكسبون أموالا كثيرة، ويعيشون حياة راقيـة وقـد وصفهم الوزان في قـوله: "والصناع أنـاس أقويـاء يعيشون في هناء ومتعة، ويحبون التمتع بالحياة" [110] ويلبسون "لباسا جميلا كـالتجار، الا أنهم يرتدون لباس قصيرا والقليل منهم يتعمم، ويكتفون بوضع قلنسوة بدون ثنايا على رأسهم، وينتعلون نعالا تعلو حتى نصـف الساق" [111]. وهـذا دليل على انهم كـانـوا يعيشون حيـاة تتسـم بالسعـة واليسر، والرفاهـيـة.

واذا كان اربـاب الحرف والصناعـة، والقائمـون على الورشـات والأشغال العمـومية، وعـرفاء الصنائع، وأمناء الحرف، يعيشون وضعية ميسورة وحياة راقيـة، بسبب الرواتب المرتفعة، والارباح العالية، التي كانوا يتلقونها من أعمالهم، فـان وضعية الحرفيين والمستخدمين بالأجر اليومي، تتسم بالدخل الضعيف، يجعلهم يحيون حياة الكفاف، ان لم نقل حياة الفقر والبؤس [112].

وقد كـانت المرأة التلمسانيـة الحضرية، التي تنتمـي لعائلـة فقيرة تصنع في بيتها النسيـج، من القطن والحرير والصوف [113]. إذ كانت تشتري الصوف وتتصرف فيه بالغسل، والمشط، والغزل، والنسج، ثم يسوق بعد ذلك [114].

وكان نسيج البرانـس للرجال والبرينسات للاطفال، وكـذلك الزرابي والحنابل في الغـالب من غزل النسـاء ونسجهن، في منازلهن أو في بعض الورشات الخاصة [115].

اما الطرز بالخيط المذهب والمفضض، فكانت تحتكره المرأة الغنية الميسورة الحال [116]. وكانت بعض النساء في مدينة تلمسان يحترفن التجارة، فيأخذن البضائع والسلع الى المنازل والدور، عبر أحياء المدينة ويعرضنها على ربات البيوت، تعرف الواحدة منهن بالسواقة [117] اي البائعة المتجولة.

وكان العمال والحرفيون يقومون بالأشغال الشاقة المضنية، في المعامل والورشات مقابل أجور زهيدة، وكان بعض المؤرخين يقللون من شأنهم ويحتقرونهم فينعتونهم بـ "السوقة" و"الدهماء" [118] و "العامة الرثة" [119]، واذا كان ابن غالب أشاد بصناع الاندلس وحرفييها [120]، وكذلك خصهم إخوان الصفا [121] بالتعظيم والتبجيل، فان السقطي كال لهم الشتائم بدون حساب، فقد كانت إذن نظرة المؤرخين المسلمين في العصر الوسيط الإسلامي، الى الحرفيين والمهنيين تختلف بين التقدير والتبجيل والتنويه بالدور الاقتصادي الهام، الذي يلعبه هؤلاء الحرفيون، وبين الاحتقار والتصغير لمهنهم وصناعاتهم، والتقليل من شأنها وشأن محترفيها ولم يتورع الغساني، في اعتبار الصناعات مهنا يتداولها السقطة والرعاع وأراذل القوم [122]، ويفصح الحريري عند ذلك بقوله: "وأما حرف أولى الصناعات، فغير فاضل عن الاقوات ولانافقة في كل الاوقات" [123].

وبالرغم من قلة الوثائق وندرتها في مجال تنظيم التجار والحرفيين في المدن المغربية، الا أنه يمكن القول، بأن أغلب الصناعات والحرف في مدينة تلمسان، كانت تتم في إطار الروابط الحرفية والمهنية وتنظيماتها، وهو التنظيم الشعبي الذي لم يخضع للدولة [124].

أما تلمسان فقد شادت بعض نصوص القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، بالصناع والحرفيين والتجار التلمسانيين ونوهت بهم، ووصفت حالتهم بالسعة واليسر والرفاهية، ونعتت اخلاقهم بالصفاء والوفاء والصدق والنزاهة [125].

و يضاف الى هذا الصنف، الذين يعملون في الأشغال العامة، وصيانة قنوات المياه وتصليحها، الذين يعملون في مصلحة تصريف مجاري المياه، وعمال النظافة، وتطهير الشوارع والدروب [126]، والنقل والبناء والسقاية، وأهل الحراسة وحمال الزيوت وكان عددهم -فيما يبدو- كبيرا.

وقد انتقل العديد من سكان الارياف، الي مدينة تلمسان، يبحثون عن العمل في القطاعات المكملة ذات الطابع الاجتماعي، مثل العمل في الأسواق والمصانع والفنادق وفي البيوتات الميسورة والقصور[127].

العبيد والخدم: [128]

وكان العبيد والخدم يعملون في البيوت، والحقول والمتاجر ولا سيما عند الفئات الميسورة، فقد كان تقريبا في كل بيت تلمساني عريق خادم ووصيفة خماسية [129] وأكثر من خادم عند الطبقة ذات الاموال والجاه [130]، وكان الخدم والجواري يرافقون أسيادهم في سفرهم وفي ترحالهم، لخدمتهم ومساعدتهم [131]، والجواري تورث وتباع مع التركات والممتلكات، وتهدى مثل الحبشية التي أهداها السلطان أبو الحسن، لابي عبد الله محمد الخطيب ابن مرزوق، وكانت هذه الجارية قد نشأت وترعرعت في بيت عبد الرحمن بن خلدون [132]، والخادم ترافق زوجة سيدها إلى السوق، تحمل الاولاد على كاهلها [133] والظاهر أن مالكي الخدم كانوا يؤنبونهم ويضربونهم أحيانا ومنهم من كان لا يسمح لهم بتناول الطعام معهم على مائدة واحدة، فالخطيب أبو عبد الله بن مرزوق، يشير إلى أن والده كان يدعو خادمه ليأكل معه، بينما كان أفراد الأسرة ينكرون عليه ذلك [134] ويضيف بأنه لم يره قط قد أدب أو ضرب وصيفه أو خادمه [135]، مما يدل على أن ظاهرة ضرب الخدم كانت شائعة عند بعض الأسر التلمسانية [136]، وكانت بعض العائلات تشترط على العريس قبل البناء بالعروس، توفير وصيفة أو جارية لها [137]، وكذلك كان الاب الميسور الحال يهب لابنته العروس إحدى جواريه وخدامه [138]، وكان لنظام الرقيق أكبر الاثر في تطور المرأة التلمسانية لأن البيوت تحتوي على أنواع عديدة من الرقيق روميات واسبانيات وسودانيات، ولكل نوع منهن ميزة خاصة تختلف في الطبائع والعادات واللغات والديانة، تلبس الصليب والزنار وتتكلم لغتها وتلبس لباسها القومي داخل بيت سيدها وفي البلاط السلطاني، وبالرغم من أن بعض المصادر وضعت المجتمع التلمساني، بانه كان ينعم بالحياة الاقتصادية الميسورة، وبالاخلاق الحميدة وبالكرم والمعاملة الحسنة، الا اننا لا نستبعد أن تكون هناك بعض الآفات الإجتماعية قد تسللت، إلى بعض الفئات الإجتماعية خاصة، منها الأكثر حرمانا والعاطلة عن

العمل، والتي كانت تزعج السكان بتصرفاتها وسلوكاتها، وقد حددهم اخوان الصفا بـ "الزمني والعطل وأهل البطالة والفراغ" [139]، ووصفهم أحد الباحثين المحدثين "باللصوص والشحادين والمتسكعين في أورقة المدن وساحاتها والغرباء والعاطلين" [141].

لم يخل منهم المجتمع التلمساني في العهد الزياني، بسبب النزوح المستمر نحو العاصمة، مما تسبب في بعض الظواهر الإجتماعية السلبية، ومن حسن الحظ فإن هذه الشريحة ـ فيما يبدو ـ كانت قليلة في مدينة تلمسان، وقد أزعجت محمد بن مرزوق الخطيب، هذه الظاهرة فعبر عنها قائلا: "تلمسان كثر فيها المنكر وقل فيها الحلال، الذي كان غالب قوت خيار أهلها، وكان قد أشتهرت بذلك بين البلاد" [142]. ويضيف بأن قاضي وإمام مسجد درب مرسى الطلبة، بمدينة تلمسان كان يتصدي لأصحاب هذه السلوكات ويؤدبهم، وكان قد أمر بأن لا يخرج الصبي من دربه، إلا برفقة والده أو أحد أقاربه[143]، خوفا عليه من المنحرفين والسراق.

الفقراء والمعوزين:

ويوجد أيضا في المجتمع التلمساني كغيره من المجتمعات، في ذلك الوقت، فئة الفقراء والمعوزين والمتسولين والمساكين [144]، والبطالين وأهل السجون [145]، واراذل الناس [146] واللصوص، الذين يتربصون بالناس وبالتجار الغرباء القادمين من مصر وافريقية والاندلس وبلاد السودان وغيرها [147]، والسفلة الذين يكثر فيهم الشر و "السفسفة"، والتحيل على تحصيل المعاش من «وجهة وغير وجهة»، لهم الجرأة على الكذب والمقامرة والغش، والخلابة والسرقة والفجور في الايمان والربا في المبيعات [148].

وكانت طائفة تدعى الغرباء، يستعملون طرقا ملتوية وأشياء جرت عليها عوائدهم، وأختلفت فيها طرائقهم، قصد أكل أموال الناس بالباطل، وانتزاعها منهم بشتى الوسائل [149].

دور الأوقات في التكافل الإجتماعي:

تتكفل مصلحة الأوقات بالشرائح الإجتماعية الفقيرة والمحرومة، إلى جانب نفقاته على المؤسسات الإجتماعية والخيرية المختلفة، إلى جانب الخيرين والمحسنين، من مختلف طبقات

المجتمع التلمساني وأصنافه، الذين يعملون على زرع التكافل الإجتماعي والتضامن بين الناس، كما حثنا على ذلك الدين الإسلامي الحنيف (150).

تتلقى هذه المؤسسة الدعم المالي بالدرجة الأولى، من الدولة ومن الهيئات والأغنياء والمحسنين، ومن الأراضي الفلاحية الموقوفة والعقارات التابعة لها، تقدم خدماتها ايضا للمرضى والعجزة في البيمارستانات، وهي إحدى المؤسسات الخيرية، التي يقوم بتشييدها السلاطين والامراء وأهل الخير، صدقة وحسبة وخدمة للانسانية وتخليدا لذاكرتهم (151)، وكان أبو حمو موسى الثاني، يهتم بالارامل، والايتام والمحتاجين والضعفاء والمساكين، وأهل السجون، ويقدم لهم الجرايات في المناسبات المختلفة ويستمع الى مظالمهم وأنشغالاتهم مرة في كل أسبوع (152).

وكان يبدل عناية خاصة بالطلبة، ويحبس عليهم الأوقاف ويقوم بكسوتهم واطعام المحتاجين، في كثير من المناسبات (153)، وكان السلطان أبو الحسن المريني أيضا يعتني، بهذه الشريحة أثناء استيلائه على تلمسان ومكوثه بها، فقد وزع على فقراء تلمسان اثنى عشر ألف دينار وأثنى عشر ألف كساء ومن الطعام مطامير، لا تعد ولا تحصى فضلا عن مكافأته للأعيان والفقراء والصلحاء، والكتاب وذوي الوجاهة من أهل تلمسان (154).

كما كانت له صدقات جارية، مستمرة على اليتامي ويجمع الصبيان للختان، في يوم عاشوراء ويكسوهم، ويقدم لهم بعض المال وما يكفيهم من اللحوم (155).

وقد أعتاد سلاطين بنى زيان على الاهتام بأنشاء الطرق للمارة، خاصة تلك التي تربط تلمسان بضواحيها وبالمدن المجاورة لها، ويؤهلونها بالسكان بعد أن يقطعوهم الأقطاعات على طول حافتيها، حتى يبيعوا للمسافرين المواد الغذائية وما يلزمهم من أدوات السفر (156).

وكانت مؤسسة الأوقاف تتكفل بالغرباء والضعفاء، وبدور الشيوخ والمسنين والعجزة، وتقدم لهم ما يحتاجونهم، من إيواء وكسوة وغذاء، وتقدم الجرايات والهيئات، والاعانات للفقراء، والمساكين، والمعوقين، والجذامى والمكفوفين، وتأخذ على عاتقها الديون التي تتراكم على الطبقات العاجزة عن دفعها، وعن المسجونين، وتمون المساجد والمدارس والزوايا (157)، بصفتها مؤسسات أجتماعية وثقافية. كما كانت تنشيء المرافق العامة، لصالح السكان كالسقايات العمومية في المدينة وفي خارجها، كالتي أنشئت في حي منشر الجلد، وسويقة أسماعيل في عهد السلطان أبي

الحسن المريني، وفي غيرها من أحياء تلمسان وساحاتها وضواحيها [158]، بالاضافة الى ما يقدمه أهل الخير والاحسان من سكان تلمسان وأمرائها لهذه الشريحة المحرومة [159].

وإذا كان دور مؤسسة الأوقاف ينحصر في التكافل الإجتماعي والتضامن الإنساني، وعمل الخير بين الناس، وحماية الشرائح الإجتماعية الفقيرة والمحرومة، فإن دور خطة الحسبة هو الحفاظ على النظام العام والآداب، وتوفير الطمأنينة للمواطن وحمايته، من الغش والتدليس والمنكرات ومن الشواذ والمنحرفين.

الحسبة:

تعتبر خطة الحسبة، من أعظم الخطط الدينية، تشارك القضاء في بعض مظاهره [160]، وهي واسطة بين خطة القضاء وخطة الشرطة عند المجيلدي [161]. وبينها وبين المظالم عند الماوردي [162]، وهي خادمة لمنصب القضاء عند ابن خلدون [163]، جمعت بين النظر الشرعي الديني والزجر السياسي السلطاني [164].

ومهمة المحتسب حماية المجتمع، من الظواهر السلبية ومكافحة الآفات الإجتماعية، حسب المبادىء الأساسية للاسلام وهي "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" [165]، ويساعد المحتسب أعوان ومساعدون يقلون أو يكثرون حسب الحاجة، وما يتطلبه وضع السوق والحالة الإجتماعية بشكل عام، ويقدم على أهل الأسواق، أمناء مشهورين بالثقة، والنزاهة ويقوم المحتسب بطبع المكاييل والموازين بميسم معلوم عنده، ويأمر الخبازين بصنع طوابع لهم تحمل أسماءهم، يطبع بها كل واحد منهم رغفيه حتى يتميز عن غيره [166]، وكان المحتسب يتولى مراقبة الأسواق في غالب الأحيان بنفسه أو يتخذ أعوانا له [167]، وإذا كلف أحدهم بمهمة قصد المبيعات والمصنوعات، فإنه لا يكلفه بصفة دائمة وإنما يقوم باستبداله من حين لآخر، تفاديا لما يحدث بينه وبين التاجر أو الصانع من اتفاق[168].

وكان المحتسب يتجول على دابته، محاطا بأعوانه، يحمل معه ميزانه الذي يزن به البضائع التي يشك في وزنها [169]، واذا ارتاب في دكان أو مصنع يبعث إليه صبيا او جارية للشراء منه، ثم يختبر المشتري فاذا وجد به غشا، تعرض لصاحب الدكان أو المصنع بالعقوبة المنصوص عليها،

بالتوبيخ والزجر أولا، وبالسجن والانذار ثانيا، وبالضرب والتشهير ثالثا، وبالتنكيل والنفي من السوق والبلد رابعا، وهي اقصى درجات العقاب [170].

ويمكن حصر اختصاصات المحتسب وصلاحياته، في ميدان المراقبة والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف، في الأسواق والساحات العامة في المحاور التالية:

أولا: التجارة والصناعة [171].

ثانيا: الأسواق والطرقات [172].

ثالثا: النساء والمخنثون [173].

رابعا: الحمامات والآداب العامة [174].

خامسا: الصلاة والأخلاق [175].

سادسا: في التربية والتعليم [176].

ومهما يكن من أمر، فإن ما تجدر الإشارة إليه هو، أنه من الصعب أن يلم الباحث، بأهم أعمال المحتسب، ومراقبته اليومية لاسواق مدينة تلمسان في العهد الزياني، لانعدام الوثائق والنصوص التي سكتت عن تزويدنا، بتفاصيل واضحة، ودقيقة عن سير الأحتساب في هذه المدينة، وهذا ما جعلنا نعتمد على المادة الخبرية التي تضمنتها كتب الفقه والنوازل والحسبة والرحلات، التي تعالج هذا الموضوع وغيرها من قريب أو بعيد، في بلاد المغرب بصفة عامة، لا سيما وأن هذه الكتب في أغلبها لا تحدد هذه الظواهر، التي عرفها المجتمع المغاربي، بالزمان والمكان الا في القليل النادر، مما يجعلها صالحة وجائزة للتوظيف. ويؤكد أن مهمة المحتسب، وشروطه وصلاحياته واحدة، وأن الظواهر السلبية، التي كان يتصدى لها متشابهة، في كل الأقطار المغاربية.

ومن الغرابة بمكان أن تصمت المصادر الزيانية، عن إعطائنا أسماء لأهم المحتسبين الذين تولوا خطة الحسبة في مدينة تلمسان، وبقي علينا أن نترجي، معرفة ذلك من المصادر التي يمكن الكشف عنها في المستقبل.

بالرغم من ذلك، فان نظام الحسبة، في مدينة تلمسان، كان قائما في العهد الزياني، مثل غيرها من العواصم المغربية، تؤكد ذلك بعض الإشارات التي وردت في النصوص الزيانية.

وتتمثل هذه الإشـارات في الوصية التي تركها السلطـان أبو حمو موسى الزيـاني الثاني، لابنه ابي تاشفين الثـاني، والمدونة في كتـابه " واسطـة السلوك "، بحيـث أكد عليـه بأن يعتنـي بهذه الخطة وباصحابها [177]، ويؤكـد على وجود هذه الخطـة أهتمام سلاطين بنـي زيان وحرصهـم على وضع مكاييل وموازين نمـودجية، بأسواق المدينة حتى يلتزم بها التجار في معـاملاتهم مع الناس [178]، ويتجلى ذلك في مقياس الذراع، الذي أمر بـه السلطان أبو تاشفين الأول سنة 728 هـ ـ 1328م، وبتعليقـه في سوق القيصـارية بتلمسـان، حتى يقتـدي بـه تجار الأقمشة، ولا يـزال هذا الـذراع بمتحف مدينة تلمسان [179]، وكان الصاع القديم في تلمسان يعرف أيضـا بالتاشفيني، ثـم عرف بإسـم الوهراني، وهـو الذي كان يـأخذ بـه الناس في عصر قاسـم العقباني، أي في القرن التـاسع الهجري[180].

ومن آثار الحسبـة في مدينة تلمسان، مـادونة قاضي الجماعة، الفقيـه قاسم بن سعيـد العقباني (تـ 854 / 1450)، عن غـش الخبازين لرغيفهـم بتلمسان [181]. وكان المحتسب يتغـاضى عن أصحاب الأفران لأنهم يؤدون له الرشاوي[182].

كما كشف العقباني أيضـا، عن بعض العادات السيئـة، التي كان يمارسها بعـض الجزارين في مدينة تلمسـان، إذ كانوا يقومـون بغش اللحم، و خلطه بالكرش و المصران أو الشحم [183]، على قدر كثرة الثمن وقلته، وعلى حسب حال المشتري ووضعيته الإجتماعية [184].

ومـن العادات المذمـومـة أيضا والتـي انتشرت في أسـواق مدينـة تلمسـان، عادة النجـش أو التناجش، بـأن يعطي الرجل قيمة للشيء، دون قصـد شرائه، تغريرا بغيره وتعرف هـذه الطريقة عند تجار مدينة تلمسان " بالبزم " [185].

الجنس والاخلاق :

لقد بقيت لنا بعض الآفات الإجتماعية أوبعض العـادات السيئة الأخرى، التي عرفها المجتمع التلمساني، كغيره من المجتمعات الإسلامية الأخري تتعلق، هـي كذلك بالمنكرات يمكن الإشارة اليهـا، رغم كـونها تعد مـن الأمور الشـاذة، التي لا يقـاس عليها لأنها محدودة الـوسط، ونـادرة الحدوث، لكن لها صدى أخلاقي كبير، وتأثير أجتماعي عميق، وتسيء للأداب، وتمس بمبادىء

العقيدة والسلوك، وهو الأمر الـذي جعل الآمرين بالمعروف والساهريـن عليه، يشكلون رقابة صارمة، على الممارسات الأخلاقية التـي تظهـر من حين لـآخـر، في المجتمع التلمسـاني [186]، للحفاظ على الأخلاق والآداب العامة، وعلى كيان الأسرة وشرفها.

فقد كان بعض الناس يقومون بخرق إطـار الشرع، ويتجاوز النموذج السلوكي الذي رسمه لنا الدين الإسلامي، ونظمه بضوابطه ونواهيه، لاسيما منها العلاقة بين الجنسين الرجل والمرأة.

وقد تدل على هذه التجاوزات، العدد الهائل من الفتاوي التي تحتفل بها كتب النوازل، وهي في معظمها تعالج مشكلة الأنكحة الفاسدة وزنـا المحارم، والشذوذ والغضب والمساحقة والإجهاض وغيرها من الأمور التي حرمها الإسلام، إلي حد أن الفقيه العالم أحمد الونشريسي التلمساني صاحب المعيار، أفرد لها كتب خاصة ضمن مجلداته [187].

و يشير الفقيه ابن رشد الجد، إلى هـذه الظاهرة وإلي أشكال الوطء المحرم، التـي كانت تطرح بالحاح، على الجهاز القضائي في العصر الوسيط، وحصرها في خمسة مسائل أساسية [188].

و قد كانت الآمة أو الجارية تشترى من المعارض، ويبيت معها صاحبها ليلة ذلك اليوم، دون أن يوقفها للاستبراء [189]، وهو الشيء الـذي يدل على الزنـا سواء مـع الإماء أو الحرائر [190]. كما ظهرت أفة زنا المحارم عند البعض، من أصحاب التفنن في شهوات البطن والفرج [191]. وقد عبر عنه ابن خلدون بأنه مفسد للنوع، ومخلط للأنساب [192].

وأن المترفين من أهل المدن، كانوا أبصر بطرق الفسق ومذاهبـه، والمجاهرة بـه وبدواعيه، حتى بين الأقارب والأرحام والمحارم [193]، مما تسبب في مشـاكل إجتماعية خطيرة للاسرة، وقـد ساعد على تسرب هذه الظاهرة وجود سوق النخاسة، بمدينة تلمسان وكون المدينة تقع على أهم مسالك التجارة، ممـا جعلها ملتقى العـابرين من المسلمين وأهـل الذمة والأجـانب، من جهـات وأقطار عديدة، فضلا عن الدور الذي كان يلعبه اليهود، في ترويج البغاء وبيع الخمور [194].

ومن الأمور التي تبعث عن الدهشة، أن بعض الفئـات خاصة منها الفئة الميسورة من التجار، التي تملـك العديد مـن الخدم و الجواري، قد عرفـت عملية اسقـاط الأجنة، وهي محرمـة شرعا، نتيجة المعـاشرة غير المشروعة، مع الـلأماء، فقد كـان يفرض عليها سيـدها تناول بعـض الأدوية لاسقـاط الجنين، وهذا مـا أشار اليـه الونشريسي، بقـولـه: "كما يفضل سفلـة التجار في سقـي الخدم، عند امساك الطمث، الأدوية التي ترخيه فيسيل المني معه لتنقطع الولادة [195].

ولعله من دوافع شرب الأدوية المانعة للحمل، الخوف من الأختلاط في الأنساب والدماء[196] من جهة، أو خوفا من أن تصير الأمة أم ولد، فيقع عتقها وتحريرها بعد وفاة سيدها. وقد عبر ابن خلدون عن خطورة هذه الظاهرة الإجتماعية بإختلاط الأنساب وفساد النوع [197].

وكان الإغتصاب أو "الغصب" بلغة الفقه، معروفا عند أهل تلمسان تتعرض له الأمة والحرة على حد سواء [198]، وكانت هذه الظاهرة لاتزال في المجتمع المغربي بصفة عامة، تؤثر على سمعة البنت، وعلى زواجها، لأن الزوج كثيرا مايدعي أنه وجد زوجته، مفتضة البكارة أو ثيبا [199]، ومن ضمن الشروط الصارمة أن تكون العروس بكرا.

وأمام هذه الآفات الإجتماعية الخطيرة، التي ينبذها الإسلام ويحرمها، أضطرت بعض العائلات - للحفاظ على الشرف - إلى أن تسارع في تزويج بناتها. حتى قبل بلوغهن، وإذا كانت بعض الأسر الميسورة، قد أشهرت باللأغتصاب فإن عبيدها تجرأوا على نساء أسيادهم، مما كلفهم قطع أعضائهم التناسيلة [200].

وهناك ظاهرة أخرى سيئة، تفشت في وسط نساء وجواري القصر، ذكرها الفقيه أبو البركات، في كتابه «بشائر السعود» الذي أهداه إلى السلطان الزياني، أبي عبد الله محمد الثابتي، المتوكل على الله سنة 883هـ-1478م.

وتتمثل هذه الظاهرة فيما يسمى بعملية المساحقة، وهي مخالطة المرأة للمرأة، وقد أصدر الفقهاء فتوى بتأديبهن دون التمثيل بهن. وفي هذا الصدد يقول أبو البركات: "وعلى المرأتين معا في المساحقة، الأدب بقدر إجتهاد الإمام، ولاينتهي بهما إلى المثلة بقطع جارحة أو نحوها" [201].

وقد أعيت هذه الظاهرة السلطان المتوكل على الله، لكثرة ذلك الفعل في قصره، وفي هذا الشأن يضيف أبو البركات وأعياه الأدب والضرب والسجن بأنه يكبلهن، بقيد ضيق جداً، لاتكاد المرأة تفتح رجليها به، ففعله بكل مافعله، عنده من النساء فانقطع ذلك الفعل" [202].

خطة المظالم:

تعتبر خطة المظالم أو ولاية المظالم، كما تسمى أيضا من الخطط المكملة للقضاء [203]، والمظالم

قد يكـون من أفراد المجتمـع أو قد تكون من الـولاة، وعمال الدولة، وكبـار موظفيها، وهـي أشبه ماتكون بمحكمة الاستئناف، والقضاء الإداري والاستثنائي في الوقت الحاضر [204].

ويستعين والي المظالم، بهيئة من المساعدين والأعـوان والمستشارين والقضاة والعدول، ويعرفها ابن خلدون بقوله: «وهـي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة، ونصفه القضـاء، وتحتاج إلى غلو يد وعظيم رهبة، تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدي، وكأنه يمضي ماعجز القضاء» [205].

وتفوق صـلاحيات صاحـب المظالم ومهامة الـواسعة، سلطة القـاضي واختصاصه فهـو الذي يتولى إحقاق الحق وإظهاره في الحالات التي تتعدى أحكام القاضي، أو حينما يفتقد هذا الأخير إلى السلطة الأدبية [206].

وكان بعض الخلفاء الأولين يباشرون هذه المهمة بأنفسهـم، أما أمراء الدول المتأخرة وسلاطينها والذيـن تعاقبـوا على حكم بلاد المغـرب الإسلامي، فقـد تولـوا هذه الوظيفـة بأنفسهـم في أغلب الأوقات، خاصة منهم الموحدين [207] والحفصيين [208] والزيانيين [209].

ويبدو أن خطة المظـالم كان يتولاها سلاطين بنـي زيان في أغلب الأوقات، وكـانوا يقلدونها إلى بعض الفقهاء، وقد إنفرد إبن مرزوق الجد، بذكر أسـم واحد كان يتولى مجلس المظالم، في مجموعه وهو الفقيه العالم أبـو العباس أحمد المعروف بابن الفحام التلمسـاني، الذي جمع بين خطتي المظالم والشرطة بمدينة تلمسان، في عهـد بني زيان. وقد وصفه أبن مرزوق بأنـه "أعلم وقته والواحد في عصره وإذا لقيته كأنك لقيت إمام مسجد" [210].

وعندما استولى أبو الحسن المريني، على مدينة تلمسان والمغرب الأوسط، ومكث بها نحو اثنتي عشرة سنة، كلف أبا عبد الله محمد الخطيب بن مـرزوق الجد بالنظر في الشكايات نيابة عنه [211]، وكان أبو الحسـن حريصا على أن يجتمع في كل مـدينة بعد صلاة الجمعة، بقـائدها ووالي قصبتها وخطيبها والعدول للإستماع إلى جميع الشكايات التي ترد اليهم [212]. ولاشك أن هذا التقليد كان متبعا في مدينة تلمسان في عهده.

وكان السلطان أبو حمو مـوسى الثاني يخصص يوما في الأسبوع. وهو يـوم الجمعة بعد الصلاة، للنظر في المظالم وسماع شكـاوى الناس، مهما كانت فئـاتهم الإجتماعية، وقد وضح ذلـك في كتابه واسطة السلوك، الذي كتبه لابنه أبي تاشفين، وقدم لـه فيها نصائح ووصايا تعينه على إدارة شؤون

الدولة والبلاد، وفي ذلـك يقول: " وبعد فراغك، من الصلاة (صـلاة الجمعة) تجلس بمجلسك للشكيات، تـأخـذ في القـضاء الحاجـات والفصـل بين الخصماء، والانتقـام مـن الظلمـة الغشماء، فتقمع الظالم وتقهره وتحمى، المظلوم وتنصره وتحضر الفقهاء في مجلسك، حين الفصل بين الناس لإزالـة مايقـع في الأحكام مـن الالتباس، وهذا المجلـس في اليوم المذكـور مخصص للـرعية والجمهـور فيـه تتقعـد الضعفـاء والمسـاكين والأرامـل والأيتـام والمحتـاجين، وأن تنظـر في أهـل سجوناتك " [213].

والحقيقة أن ما جاء في هـذا النص، هو صورة حقيقة لما كان يقوم به أبـو حمو موسى الثاني، في ممارسته لسياسة الرعية طوال فترة حكمه، وهي خلاصة لتجاربه السياسية الميدانية، فقد كان ينظر في أحوالهم مسـاء كل يوم جمعة، ويستمـع لمظالمهم ويصدر في ذلـك أحكاما وهي صـورة لمجلس المظالم، الذي كان يعقده كل أسبوع من أيام حكمه [214].

والظاهـر أن أبا حمو كـان يلتزم بالحديـث النبوي الشريـف، الذي يحث الحاكـم على أستقبال الرعيـة، والاستماع إلى مظالمهم، وينـص الحديث على " مامـن إمام يغلـق بابه دون الحاجـة الخلة والمسكنة، إلا أغلق الله أبواب السماء، دون خلته وحاجته ومسكنته " [215].

خطة الشرطة:

كان الهدف من إنشاء خطة الشرطة-فيما يبدو - هو تكوين جهاز تنفيذي وقوة أمن رادعة ضد أهل الجرائم، ولحفـظ النظام العـام في المدينة، وتنفيذ الأحكـام الصادرة عـن القاضي وصـاحب المظالم [216]، ثم أضيفـت لها سلطات قضـائية تختلـف عن سلطـة صاحـب المظالم، ولهذا نجـد صلاحيات هذه الخطة تتداخل في بعض الأحيان مع صلاحيات صاحب المظالم [217].

ولعل هذا هو السبب الذي جعل الدولـة الزيانية، تسند هاتين الخطتين لشخص واحد [218]، كانت الشرطة في الأساس من الوظائف الشرعية الـدينية كالحسبة والمظالم، ثم توسعت قليلا إلى أن صار صاحبهـا ينظر في الجرائم [219]. وقد ارتفع شـأن صاحب الشرطة في العهـد الموحدي، حتى بلغ رتبة الوزارة والحجابة [220].

أما في العهد الزياني فقد تعذر علينا معرفـة الفترة الزمنية، التي نشأت فيها هذه الخطة والأعمال

التي قام بها أصحابها، في تطبيق الأحكام ومكافحة الإجرام، لسكوت المصادر عن هذا الموضوع غير أنه يمكن القول بأن بني زيان مثل جيرانهم، ورثوا هذه الخطة عن الموحدين، واتخذوها وسيلة لحفظ الأمن والنظام والآداب العامة، ومكافحة الجريمة واقامة الحدود وأعطوها عناية إلى جانبي الحسبة والمظالم، ولتداخل مهام الشرطة مع مهام المظالم، فقد قلد بنو زيان هاتين الوظيفتين لشخص واحد هو: الفقيه العالم أبو العباس أحمد المعروف بابن الفحام (221).

كما اهتم أبو حمو موسى الثاني بهذه الخطة، اهتماما كبيرا في دولته وهي التجربةالسياسية، ولإدارية التي عاشها، فدونها وصية لابنه من بعده بقوله: «ثم يدخل صاحب شرطتك وحكام بلد حضرتك، ليخبرك بما يريد في ليلتك، ولا يخفي عليك شيء من أحوال رعيتك، وبلدك مع ضبط مملكتك فتسأله عن القليل والكثير والجليل من الأمر والحقير، لئلا يتوصل أهل العناية للرعية، مضرة ولا أذية، ولايقع من الحاكم جور في بلد، ولاظلم لأحد، فإنه إذا علم الحاكم أو غيره من أهل العنايات وأهل الدعاوي والجنايات بأن الملك، لايغيب عنه شيء من أحوال بلده فيمتنع كل منهم من اسطالة يده، فيقف الناس عند حدودهم» (222).

وكان أبو حمو موسى الثاني، قد قلد هذه الخطة لموسى بن يخلف الذي كان عينا له وعليه في نفس الوقت، فقد تواطأ مع ولي العهد أبي تاشفين الثاني، على قتل المؤرخ يحي بن خلدون، الكاتب الخاص لأبي حمو الثاني (223). وكان الولاة يقومون بمساعدة صاحب الشرطة في مهامه بولاتهم (224).

ويبدو أن بني زيان شيدوا عدة سجون حسب، أنواع السجناء وطبقاتهم، وربما كان للمجرمين سجن خاص بهم، وللمعتقلين السياسيين والرهائن سجنهم، وللأسرى النصارى الذين كانوا يعدون بالآلاف سجنهم، لأن النصوص الزيانية تشير إلى وجود عدة سجون في مدينة تلمسان ،واحد بالقرب من سوق السراجين (225)، والثاني بالقصبة (226)، والثالث بدويرة بقصر المشور وغيرها (227).

الهـوامـش :

(1) أحمد الطاهر: عامة قرطبة، في عصر الخلافة، منشورات عكاظ 1988 ص 42.

(2) سرديل دومنيك : الحضارة العربية في عصرها الذهبي، ترجمة حسن زينة، دار الحقيقة، بيروت 1980 ج 1 ص 69.

(3) الرسالة نشر خير الدين الزركلي، مصر 1928 ج 1 ص 248.

(4) انظر دراسة الحسني مختار: الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية للدولة الزيانية رسالة ماجستير، معهد التاريخ جامعة الجزائر، 1986 .

ـ الأخضر عبدلي: مملكة تلمسان في عهد بني زيان، أطروحة لنيل شهادة التعمق في البحث المرحلة الثالثة كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية جامعة تونس 1987 .

(5) تزخر المصادر القديمة، بمفاهيم مرادفة للعامة، السواد، الغوغاء، الدهاء، الرعاع، الحرافيش، السوقة، أهل المسكنة .

أحمد الطاهري: عامة قرطبة ص 43 ـ 166 .

(6) ناصح محمد: المرجع السابق، ص 260.

(7) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 182 .

(8) نفسه، ج6 ص 96 يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 2 ص 234 ـ 235.

(9) التنسي: نظم الدر، ص 127 ـ أبن مرزوق: المجموع، ورقة 40 .

(10) نفسه، ص 127 ـ 139 ـ .48 .Marcais (G) : Tlemcen (les villes célébres) P

(11) ابن خلدون: العبر، ج 7 ص 124 ـ 132 ـ يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج2 ص 134 ـ 135 .

(12) نفسه، العبر، ج6 ص 90 ـ 96.

(13) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 2 ص 51 ـ 195 ـ 196 ـ ابن خلدون: العبر 7 ص 130 .

(14) ابن خلدون: العبر، ج6 ص 87.

(15) نفسه، ج6 ص 97 ـ يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج2 ص 133 ـ 135 .

(16) نفسه، ج 6 ص 97 ـ 98.

(17) حسن الوزان: المصدر السابق، ص 295.

(18) نفسه، ج 2 ص 21.

(19) ناصح محمد، المرجع السابق، ص 265.

(20) نفسه، ص 266.

(21) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 14 ـ 15 ـ 18 .

(22) Barges (L.J.J.L) Tlemcen ancienne capital P. 215.

(23) يقوم، الوكيل بالمبادلات التجارية، و عقد الصفقات الهامة، في البيع والشراء، باسم صاحب الاموال و البضاعة، و للعديد من التجار، و له مكتب بريد و مخزن في السوق.

(24) الونشريسي: المعيار، ج 6 ص 186 ـ المازوني: الدرر المكنونة، ورقة 42.

(25) عطا الله دهينة: الحياة الإقتصادية، ضمن كتاب الجزائر في تاريخ، ص 481.

(26) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 1 ص 125 ـ 205.

(27) Marcais (G): Tlemcen (les villes d'arts celebres) p. 91

Marcais (G) : tlemcen ville d'Art et d'Histoire p. 42

Barges (L. J. J. L): OPCIT P. 207 (28)

(29) المقري : نفح الطيب ، ج7ص 130 ـ 131 . تحقيق احسان عباس ، دار صار بيروت1968و انظر ايضا ج5 ص 205ـ206.

(30) نفسه ، ج 7 ص 130 Barges (L.J.J.L): Tlemcen ancienne capitale p. 207-208

بشاري لطيفة : التجارة الخارجية بتلمسان ، ص 204.

(31) ابن مرزوق : المجموع ، ورقة 14.

(32) ابن مرزوق : المجموع ، ورقة 14.

(33) ابن مرزوق : المسند ، ص 129.

(34) ابن مرزوق : المجموع ، ورقة 15.

(35) نفسه ، ورقة 14 ـ 15.

(36) نفسه ، ورقة 32.

(37) بشاري لطيفة : المرجع السابق ، ص 205 Courday : Relation.

commercials de Tlemcen avec le Sahara et le Soudan dans Bulletin de la sociètè de géographie d'Alger 2 ème annee 1887 p. 236.

(38) حسن الوزان : المصدر السابق ، ج 2ص 21.

(39) ابن مرزوق : ورقة 40.

(40) نفسه ، ورقة 40.

(41) ناصح محمد : المرجع السابق ص 272.

(42) نفسه ، ص 273.

(43) الزجالي : أمثال العوام بالأندلس القسم الأول والثاني تحقيق بن شريفة فاس ـ 1975 . ف (2) ص 245.

(44) المقامات الأدبية ، القاهرة مصر 1950 ص 419.

(45) محمد بوعياد : جونب من الحياة في المغرب الأوسط (القرن9 هـ) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر1982 ص 32.

(46) عطا الله دهينة : الحياة الإقتصادية والإجتماعية في دولة بني زيان ، ضمن كتاب الجزائر في التاريخ ص 483ـ 487.

(47) نفسه ، ص 489.

(48) حسن الوزان : وصف افريقيا ج2 ص 21.

(49) يذكر هذا المؤرخ بأن سبب تدهور وانحلال دول المغرب يعود إلى تحول طريق تجارة الذهب إلى البحر في القرن 14 هـ 8هـ.

Lacoste (Y): Ibn Khalboun p. 114-115.

(50) ناصح محمد : المرجع السابق ، ص 270.

(51) Dufourcq (CH.H): l'Espagne catalane p. 136

(52) بشارى لطيفة : المرجع السابق ، ص 209.

(53) Richard (I) - Lawless: Tlemcen Capitale du Maghreb Central p.57.

(54) Ibid. p.57

(55) Ibid. p.59

(56) عطا الله دهينة : المرجع السابق ، ص 479.

(57) Dufourcq. (ch) : Route de l'or in bulletin d'information historique de la faculte des lettres d'Alger 1966 N: 3 pp.9 - 10.

(58) Richard - Lawless: opcit p. 60

(59) يحي بن خلدون : بغية الرواد، ج 1 ص 108 .

(60) الرحلة ج 2 ص 775 .

(61) نفسه ج 2 ص 789 - ابن مرزوق : المجموع، ورقة 15 .

(62) ابن مرزوق : المجموع، ورقة 39 .

(63) نفسه، ورقة 39 .

(64) ابن مرزوق : المصدر السابق، ورقة 6 - 7 والقراض هو : أن يتفق التاجر مع صاحب المال، على التجارة مقابل نسبة يتقاسمونها .

(65) نفسه، ورقة 39 .

(66) نفسه، ورقة 2، 32 .

(67) نفسه، ورقة 32 - يحي بن خلدون : بغية الرواد، ج 1 ص 114 .

(68) نفسه، ورقة 28 .

(69) نفسه، ورقة 7 .

(70) نفسه، ورقة 7 .

(71) نفسه، ورقة 13 - 38 .

(72) نفسه، ورقة 2 - 12 - 13 - 38 - 4039 .

(73) نفسه، ورقة 2 - 12 .

(74) نفسه، ورقة 32 - 33 .

(75) وصف افريقيا، ج2 ص 21 .

(76) ابن مرزوق : المصدر السابق، ورقة 24 .

(77) نفسه، ورقة 24 .

(78) عبد الباسط ابو هلال : الروض الباسم ص 64 .

(79) المسند، ص 285 .

(80) نفسه، ص 285 .

(81) التنسي : نظم الدر، ص 124 هـ 67 .

(82) الطبري : تاريخ الامم والملوك، القاهرة 1323 ج 10 ص 175 .

(83) ابن سهل : النوازل الفقهية، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم د 1728 ورقة 49 - الطرطوشي : سراج الملوك القاهرة 1919 ص 39 .

(84) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق 2 ص 54 .

(85) السقطي : في أداب الحسبة الرباط 1931 ص 62 .

(86) محمود بوعياد : جوانب من الحياة في المغرب الاوسط (ق 9 هـ 15 م) ص 34 .

(87) عطا الله دهينة : المرجع السابق، ص 490 .

(88) Marcais: (G) Tlemcen (les villes d'arts celebres) p. 93.

(89) انظر ابن مرزوق : المجموع، ورقة 39 - ابن الأحمر : روضة النسرين ص 46 و52 يحي بن خلدون : بغية الرواد ج 1 ص 108 - عطا الله دهينة : المرجع السابق، ص 490 .

(90) حسن الوزان : وصف إفريقيا ج 2 ص 19 .

(91) حسن الوزان : المصدر السابق، ج2 ص 20 - البكري : المغرب، ص 79 .

(92) ابن مرزوق: المصدر السابق، ورقة 14 ـ 15.

(93) الأنصاري أبو عبد الله محمد الرصاع: فهرست الرصاع، تحقيق محمد العنابي مكتبة العتيقة تونس 1967 ص "م".

بوزياني الدراجي: تطور نظم الحكم والرسوم في دولة بني زيان، رسالة (د. د. م) معهد العلوم الإجتماعية الجزائر 1981 ص 225.

(94) ابن مرزوق: المسند، ص 492.

(95) ناصح محمد: المرجع السابق، ص 275.

(96) نفسه، ص 275.

(97) حسن الوزان: المصدر السابق، ج 2 ص 24.

(98) نفسه، ج2 ص 24.

(99) ابن خلدون: العبر، ج 7 ص 297.

(100) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 1 ص 216 ـ التنسي: نظم الدر، ص 140 ـ برنشفيك، المرجع السابق ج1 ص 480.

(101) أبو حمو العبد الوادي: واسطة السلوك، ص 86 ـ 87.

(102) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 2 ص 161.

(103) بغية الرواد، ج 2 ص 161 ـ وداد القاضي: المرجع السابق ص 31.

محمد بوعباد: المرجع السابق، ص 24.

(104) Marcais (G) Tlemcen (les villes d'art celebres) p.93.

(105) العمري: المصدر السابق، ق (7) ورقة 197 ـ القلقشندي: صبح الاعشى ج 2 ص 142. Marcais (G) : opcit, p. 93

(106) عطا الله دهينة: المرجع السابق، ص 489.

(107) Richard (I) lawless : Tlemcen capitale du Maghreb central p56.

(108) ابن الاعرج: زبدة التاريخ ورقة 97.

(109) Marcais (G): opcit, 93.

(110) وصف إفريقيا، ج 2 ص 21.

(111) نفسه، ج 2 ص 21.

(112) ناصح محمد: المرجع السابق، ص 276.

(113) Richard (I) lawless : Tlemcen capitale du maghreb central p. 55.

(114) المازوني المغيلي: الدرر المكنونة ورقة 214.

أبو العباس أحمد الونشريسي: أختصار في المنهج الفائق والمنهل الرائق، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د. 68 ورقة 280.

(115) المجموع، ورقة 39.

(116) Richard - lawless: opcit, p.55-56.

(117) ابن مرزوق: المسند، ص 194.

(118) واسطة السلوك، ص 84 ـ ناصح محمد: المرجع السابق، ص 276.

(119) عبد الله حنا: تحركات العامة الدمشقية، ص 88.

(120) فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، قطعة من كتاب منشورة في مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة (1) ص 281.

(121) الرسائل، ج 1 ص 221 ـ اختلف المؤرخون، في نظرتهم الى هذه الفئة فابن خلدون مثلا: يفرق بين صناعات شريفة وأخرى ذميمة (المقدمة) ويميز المقري أصحاب هذه المهن عن غيرهم (نفخ الطيب ج 1 ص 220) ويصف ابن الخطيب أصحابها بالاوباش والحمقى ليس لهم أخلاق أعمال الاعلام (ق (2) ص 54) وينعتهم ابن عبدون بالخسيسين العتات من ضروب الصناع والعمال.

أنظر : Le traite d'Ibn Abdun public I. Provençal. P. 210

(122) رحلة الوزير، في أفتكاك الأسير، الفريد البستان، منشورات مؤسسة الجنرال فرنكو طنجة 1940 ص 45.

(123) المقامات الأدبية مصر 1950 ص 419.

(124) انظر في هذا المجال: كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين قاسم دار الحقيقة بيروت 1997 ص 140.

(125) حسن الوزان: المصدر السابق، ج 2 ص 20 ـ 21 يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 1 ص 90 ـ الاديسي: نزهة المشتاق، ص 101.

(126) ناصح محمد: المرجع السابق، ص 276.

(127) نفسه، ص 276.

(128) احتلت مدينة تلمسان مكانة مرموقة، في المجال التجاري، وكان سوق العبيد رائجا بها، كما هو الشأن في أسواق المدن الكبرى الاخرى، وكان البلاط السلطاني يعج بالجواري والخدم والمماليك والوصفان، وهي الأسماء المختلفة التي كان هؤلاء يتسمون بها، وقد اتندى الخاصة من الناس بالملوك والإمراء في شراء « الخدم واقتناء الجواري سواء منهن البيض أو السود، للعمل في المنازل والقصور والحقول والمتاجر والمصانع، وقد أوضح السقطي في نص أورده عن أصناف المماليك وأخلاقهم وبين فيه ما يصلح له كل جنس من أجناس العبيد، في الحياة العامة بقوله: الخادم البربرية للذة، والرومية لحيطة المال والخزانة، والتركية لإنجاب الولد، والزنجية للرضاع والمكية للغناء، والمدنية للشكل، والعراقية للطرب والإنكسار، أما الذكور، فالهند والنوبة، لحفظ النفوس والإموال والزنج والأرمن، للكد والخدمة ومعها العطاء، والترك والصقالبة للحرب والشجاعة» انظر، أداب الحسبة، ص 65.

(129) ابن مرزوق: المصدر السابق، ورقة 11.

(130) نفسه، ورقة 11.

(131) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 30 ـ المسند، ص 489.

(132) ابن مرزوق: المسند، ص 489.

(133) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 1 ص 108.

(134) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 30.

(135) نفسه، ورقة 4 و30.

(136) المجموع، ورقة 30.

(137) نفسه، ورقة 2.

(138) نفسه، ورقة 2 انظر ايضا: أبو العباس أحمد الونشريسي: أختصار من المنهل الفائق ورقة 282.

(139) الرسائل نشر خير الدين الزركلي مصر 1928 ج 1 ص 248.

(140) عبد الله حنا: تحركات العامة الدمشقية، مقال بمجلة الطريق، العدد 3 ـ 4 ـ 1984 ص 88.

(141) المجموع: ورقة 19.

(142) نفسه، ورقة 13.

(143) نفسه، ورقة 4 انظر ابن خلدون: المقدمة، ص 644، 663، 664.

(144) ابو حمو موسى العبد الوادي واسطة السلوك، ص 84.

(145) ابن مرزوق: المصدر السابق ورقة 18 Brunshvig (R) : deux recits de: voyage indits en Afrique du nord du 15eme siecle Abdelbassit B.Hilal et Adore Paris 1936.p.43.

(146) ابن خلدون: المقدمة، ص 663 ـ 664.

(147) نفسه، ص 663.

(148) ابن مرزوق: المسند، ص 286.

(149) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 15 و46.

(150) عبد الحسين مهدي الرحيم: الخدمات العامة في بغداد (400 ـ 656 هـ) دار الشؤون الثقافية العامة بغداد 1987 ص 150.

(151) ابو حمو موسى العبد الوادي الزياني: واسطة السلوك، ص 84 ـ 85 ـ وداد القاضي: المرجع السابق، ص 61 ـ 62.

(152) التنسي: نظم الدر والعقيان، ص 180.

(153) ابن مرزوق: المسند، ص 192 ـ 193.

(154) نفسه، ص 427.

(155) نفسه، ص 429.

(156) التنسي: نظم الدر، ص 180.

(157) ابن مرزوق: المسند، ص 417.

(158) انظر: ابن مرزوق: المجموع، ورقة 15 ـ يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 2 ص 11.

Marcais (cG) : Tlemcen (les villes d'arts celebres), p.87.

(159) هوبكنز: النظم الإسلامية في المغرب، ص 227.

(160) كتاب التسير في أحكام التسعير، تقديم وتحقيق موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981 ص 42.

(161) الأحكام السلطانية، ص 240 ـ 259 ـ هو بكنز: المرجع السابق، ص 227.

(162) المقدمة، ص 399.

(163) المجيلدي: المصدر السابق، ص 42.

(164) المالكي: رياض النفوس، ج 1 ص 276، القاضي عياض المدارك، نشر وزارة الأوقاف المغربية ج 4 ص 59 ـ 60.

(165) محمد المنوني: خطة الحسبة في المغرب مجلة المناهل عدد 14 مارس 1979 ص 210.

(166) ابن خدون: المقدمة، ص 398.

(167) محمد المنوني: المرجع السابق ص 210.

(168) المقري: نفح الطيب ج 1 ص 218 ـ 219 الأخضر عبدلي: المرجع السابق، ص 166.

(169) نفسه، ج 1 ص 218 ـ 219 ـ محمد المنوني: المرجع السابق ص 211 ـ 214.

(170) أبو البركات: بشائر الفتوحات والسعود، في أحكام التقريرات والحدود، مخطوط بالخزانة الملكية، الرباط رقم 103 ورقة 166 - المجيلدي: المصدر السابق ص 66 ـ 105.

(171) المجيلدي: المصدر السابق، ص 112 العقباني: تحفة الناظر وغنية الذاكر، في حفظ وتعبير المناكر تحقيق على الشنوفي تونس ص 116 ـ 120 والمخطوط بالخزانة العامة الرباط رقم ت/ 692 ورقة 75 ـ 83.

(172) المجيلدي: المصدر السابق، ص 32.

(173) نفسه، ص 73 ـ محمد المنوني، المرجع السابق، ص 212 ـ 213 ـ مؤلف مجهول شذرات في الحسبة، قسم المخطوطات المكتبة الوطنية بالجزائر رقم 1376 ورقة 16 ـ 18.

(174) المجيلدي: المصدر السابق، ص 73 ـ 74 ـ ابن تيمية الحسبة في الإسلام دار الفكر بيروت ص 9 ـ 12.

(175) ابن تيمية: المصدر السابق، ص 12 ـ محمد المنوني، المرجع السابق 213 ـ 214.

(176) واسطة السلوك، ص 153.

(177) ابن خلدون: العبر، ج 7 ص 198.

(178) Brosslard (ch) : au sujet de la coudee royal pp. 66 - 68.

(179) موسى لقبال: الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي (نشأتها وتطورها) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ص 55.

(180) تحفة الناظر (النسخة المحققة) ص 116 ـ 118.

(181) موسى لقبال: الحسبة المذهبية ص 55.

(182) العقباني: تحفة الناظر ص 114.

(183) موسى لقبال: المرجع السابق ص 54.

(184) نفسه ص 56.

(185) انظر، الحسين بولقطيب الهلالي: حول مسألة الجنس في المغرب العصر الوسيط، مجلة دراسات عربية العدد 10 ـ 11 ـ 12 أغسطس أكتوبر 1993م ص 93.

(186) الونشريسي: المعيار المعرب، مجلدات 2 ـ 3 ـ 4: ط دار الغرب الإسلامي بيروت 1981.

(187) فتاوي ابن رشد: تحقيق المختار والتليلي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1987 ج 1 ص 472 ـ 473.

(188) السقطي: أداب في الحسبة، ص 63 ـ 64.

(189) الحسين بولقطيب الهلالي: المرجع السابق ص 99.

(190) الونشريسي: المعيار ج 2 ص 428 ـ ابن خلدون: المقدمة ص 665.

(191) ابن خلدون: المقدمة ص 663.

(192) نفسه، ص 663.

(193) ابن الزيات الشاذلي: التشوف إلى رجال التصوف: ص 134، الونشريسي: المعيار ج 3874 حسن الوزان: المصدر السابق ج 1 ص 68.

(194) المعيار ج 4 ص 236.

(195) ابن خلدون: المقدمة ص 663.

(196) انظر: المقدمة ص 665.

(197) الونشريسي: المعيار ج 3 ص 82 ـ 132.

(198) نفسه ج 3 صفحات 32 ـ 66 ـ 130 ـ 166 ـ 196.

(199) التجاني: رحلة التجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب تونس 1985 ص 100.

(200) أبو البركات: بشائر الفتوحات ورقة 135.

(201) نفسه، ورقة 135.

(202) هو بكنز: المرجع السابق ص 231.

(203) الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب دار الثقافة للنشر والتوزيع بالدار البيضاء ص 429.

(204) المقدمة، ص 392.

(205) هو بكنز: المرجع السابق ص 233.

(206) العمري: وصف إفريقية والأندلس ص 14.

(207) نفسه، ص 14، عبد الواحد المراكشي المعجب ص 285.

(208) أبوحمو موسى العبد الوادي: واسطة السلوك ص 84 ـ 85.

(209) المجموع، ص 15.

(210) نفسه، ص 174 ـ 486.

(211) واسطة السلوك، ص 84ـ85.

(212) نفسه ص 85. وداد القاضي: المرجع السابق ص 61ـ62.

(213) الترمذي: سنن الترمذي ط 1 القاهرة 1356 تـ ج 3 ص 619.

(214) ابن مرزوق: المسند ص 174.

(215) هوبكنز: المرجع السابق ص 242.

(216) نفسه، ص 242.

(217) ابن مرزوق: المجموع ورقة 15.

(218) ابن خلدون: المقدمة ص 393.

(219) هوبكنز: المرجع السابق ص 245.

(220) ابن مرزوق: المجموع ورقة 15.

(221) واسطة السلوك ص 83.

(222) ابن خلدون: العبر ج 7 ص 292.

(223) الأخضر عبدلي: المرجع السابق ص 170.

(224) ابن مرزوق: المجموع ورقة 39.

(225) ابن خلدون: العبر ج 7 ص 215.

(226) ابن مريم: البستان ص 28.

الأحوال الصحية للسكان

تأثير الأمراض والكوارث والأزمات السياسية على السكان:

إن المتتبع للمصادر الزيانية والمتمعن فيها، يجدها قليلة الاهتمام بالأمراض والظواهر الطبيعية، رغم أهميتها وتأثيرها على صحة الإنسان ونمو السكان والاقتصاد والعمران.

فقد تأثر المجتمع التلمساني بطبيعة الحال، كغيره من المجتمعات تأثيرا شديدا، بالكوارث الطبيعية والجوائح والأوبئة والأمراض الفتاكة، وبالمجاعات الناتجة عن الجفاف والإعصار والجراد، وبالأزمات السياسية التي تحدث من حين الآخر، متسببة في حروب مدمرة [1].

فقد تركت هذه الظواهر ثغرات مظلمة في حياة سكان مدينة تلمسان، وشلت حركتهم، وأعاقت تطورهم في بعض الفترات، وعلى الرغم من عدم توفر الاشارات والخصائص، الديموغرافية لأهل تلمسان في العهد الزياني، إلا أننا نفترض بأن عدد الوفيات، بسبب الكوارث والأزمات كان مرتفعا في مدينة تلمسان.

الأمراض المتوطنة:

لقد ساعد - بدون شك - على ارتفاع عدد الوفيات بتلمسان، سوء التغذية والأمراض الوبائية، التي تفاجىء السكان من حين لآخر، والأمراض المتوطنة وقلة الوعي الصحي، وخاصة عند العامة من الناس، وفي أوساط الطبقة الفقيرة، لانتشار الأوبئة الفتاكة وقلة النظافة نتجية الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يمرون بها، وتقلب أحوال المعيشة وحرية تنقل الإنسان والحيوان على نطاق واسع، بين المدن بدون شروط صحية وحواجز حدودية، كما هو الشأن في الوقت الحاضر، وعدم توفر الرقابة الصحية الدائمة، على الرغم من وجود أطباء وحكماء وممرضين وبيمارستنات، للمعالجة والتمريض. فقد كان النازحون والمسافرون يدخلون مدينة تلمسان ويقيمون فيها متى

شـاءوا، وهو الأمـر الـذي ساعـد إلى حد كبير، على انتشـار الأمـراض المعديـة الفتـاكة وانتقـالها وسريانها.

أما الأمراض المتـوطنة، التي عرفها المجتمع التلمسـاني، وكانت شائعة بمدينـة تلمسان، فقد حصرت بعضها وثائق زيانية يمكن الاكتفاء بها على سبيل المثـال فقط، فقد أشار محمد بن مرزوق الخطيب في مجموعه إلى عدة أمراض نذكر منها ما يلي:

مـرض البلعـوم (الحنجـرة) الذي ينجـم عنـه التهـاب الحلـق وتـورمه، فترتفـع درجـة حـرارة المريض(2)، وإذا كان هذا المرض مصحوبـا بالسعال يعالج بماء العناب، أمـا إذا كان بدون سعال فيعالج بماء الرمان (3).

وكذا مرض الذبحة أو النزلة، وهي أمراض صدرية تسبب للمريض ضيقا في التنفس، ومرض الزكـام والسعال الديكي وغيرهـا، وأشار ابن مـرزوق أيضا إلى مرض الدمـاميل والأورام (4)، التي كانت منتشرة بتلمسـان، وقد عانى منها مؤرخنـا هذا أوقاتا صعبة كثيرة، ومرض الاسهـال خاصة بين الأطفال، ومـرض الشكية والكنـد (5). ومرض القـرع، الذي كان منتشرا بصفـة خاصـة عند الأطفال والنساء (6) لدرجة أنه صـار من الصعب في بعض الأوقات معالجتـه والاستشفاء منه، إلا بعد مشقـة عظيمة وعلاج مستمر، ومكثـف لفترة طويلة من الـزمن، وعرف أهل تلمسـان مرض الصداع، يصيب الرأس لكن بدون حمى، وكان هو الآخر شائعا بين السكان (7)، كما تكثر أمراض الأسنان لأن سكان تلسمان، كثيرا ما يشربون الماء البارد بعد الحساء السـاخن.

وعرف المجتمـع التلمساني أمراض المعـدة والأمعاء وألم النساء، يصيـب الصلـب والركبـة، من كثرة الجلوس على الأرض (8). وانتشر في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي مرض يدعى «داء الافرنج»، وهو المعـروف بمرض الزهري، في عصرنا هذا، انتقل لأول مـرة إلى بلاد المغرب مع اليهود الذين هاجـروا من الأندلس، مضطرين إلى المدن المغربية بعد سقوط غـرناطة في نهاية القرن التـاسع الهجـري الخامس عشر الميـلادي، وقد انتشر هـذا المرض في مدينـة تلمسان عـن طريـق الاتصال الجنسي بين اليهوديات والتلمسانيين، وغيرهـم من سكان مدن المغرب (9).

وكذلك لا يخلـو المجتمع التلمسـاني من مـرض الفتق (10) وداء الشاخة (11)، ومرض الدماس الذي توفي به السلطان عثمان بن يغمراسن سنة 703 هـ / 1203 م (12).

وتتعرض الطبقة الحاكمة والأغنياء، في كثير من الأحيان لمرض النقرش ولاسيما منهم الذين يتناولون شرب الخمور، وأكل الدجاج وغيره من الأطعمة الناعمة الشهية [13].

وكان الشيخ أحمد بن مرزوق والد الخطيب، قد مرض بمرض أقعده في الفراش أصاب ساقيه وركبتيه ووركيه، حتى صار يحمل على الأكتاف، وربما يكون هذا المرض نتيجة شلل بسيط أصابه. وقد ظل به نحو ستة أشهر، حتى يئس ابنه وأصدقاؤه من شفائه [14]. على الرغم من سهر الأطباء على علاجه والإعتناء به.

وكان أحد التلمسانيين المجاورين يدعى عمر بن الحاج، هو الذي كان يقوم بحمله على كتفه إلى المسجد والطواف به خلال مدة مرضه بمكة المكرمة، وصنع له عكازين من الخشب، عند النجار يجعلها ابن مرزوق تحت إبطيه، ويتكىء عليها أثناء الوقوف أو المشي، وكان يكثر من دهن رجليه بالمراهم والدهون المرطبة، إلى أن شفى من مرضه ووقف ماشيا على رجليه [15]. وظهرت أمراض الخرانيق ومن أعراضها ضيق التنفس وبقاء الفم مفتوحا، وصعوبة الابتلاع وجحوظ العينين وخروج اللسان، وإذا اشتد الوجع ربما تنتفخ الرقبة والوجه، ويتدلى اللسان ويحدث هذا المرض من كثرة تقلبات الجو، وشدة البرد المشهورة بها مدينة تلمسان [16]، وأما أمراض "التشجنج" والرياح الغليظة فهى أمراض تصيب العضل في جسم الإنسان، فكانوا يعالجونها بالاستحمام في المياه المعدنية الساخنة [17]. وعرف أيضا أهل تلمسان مرض "القولنج" وهو مرض يصيب الأمعاء ويتسبب في التهاب المعدة[18].

وقد تقدم طب الأمراض النسائية والتوليد، تقدما ملحوظا في بلاد المغرب والأندلس، وظهرت كتبا عديدة في هذا المجال أهمها كتاب: "خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولدين" للعالم والمؤرخ عريب بن سعد القرطبي، الذي عاش في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وكان هذا الكتاب يتداوله طلاب الطب، ويعتمد عليه الأطباء في الحفاظ على الأمومة والطفولة وصيانتها، فعرفوا دواء الهيلون في توليد الاناث، وهو دواء يعدل البدن ويصلح فساده [19].

وكذلك أكتشفوا دواء ينقي أوردة الرحم، ويفتح سدد الأرحام عند النساء اللائي لا تلدن[20]، وهناك نصائح وارشادات تقدم للمرأة أثناء حملها للجنين في الشهر الأول، حتى تحافظ عليه [21]. وتوصلوا إلى اكتشاف حقن يحقن بها الرحم منعا للاسقاط.

واعتنوا أيضا بالطفل وبعلاجه، وخاصة في سنواته الأولى، التي تتميز بتعرضها لمختلف الأمراض، كالسعال العارض والحصبة والجدري وورم السرة، ومرض الربو العارض، وهو عبارة عن رجرجة تحدث في الصدر وفي الحلق، بسبب ضيق التنفس وصعوبته بعد اصابته لآلات الرئة وأنابيبها [22].

كما عرفوا علاج مرض الأرق والخوف العارضين للطفل [23]، ومرض الرمد الذي يعرض للصبيان، كما يعرض للكبار، وهو انتفاخ الأجفان مع دمع سائل ورطوبة كثيرة وبكاء دائم، لفرط ماتجدونه من الألم والثقل في آلات العينين [24].

الأدوية والعلاج:

يستند العلاج أساسا على الأدوية النباتية واللقاح والفصد، وبعملية الاسهال وتطهير الأمعاء، والحجامة وهي أكثر أساليب المعالجة شيوعا بتلمسان [25] وكانت بعض الأدوية التي توصلنا إلى معرفتها من خلال ما وجدناه في النصوص الزيانية، والتي كان المرضى يستعملونها، وتتمثل في الأنواع المختلفة من الأشربة ومن الغرغار، والأدهان وحب الفلفل والتبوع والبتوع اللبد، وهي عبارة عن عروق لنبات الأنبسون والسكر، يخلط بالماء ثم تقدم شراب للعلاج [26]، والعشاري [27] وحب الزنم [28]، وهو دواء يصلح للأمراض التناسلية والجنسية [29]، وحب العروس [30] وهو شراب يعالج الصداع ووجع الأسنان، وعصير العناب والرمان[31].

ومن عادة أهل تلمسان أن يقدموا للمريض مرق الشربة بالدجاج، عندما يشتد عليه الزكام والسعال [32] ، وحسو النشا [33]، وتتم عملية الفصد عندهم باخراج الدم بواسطة الحجامة، ثم يتناولون بعض الأشربة المقوية، والغرغار وأدهنة الجُروح وشراب الأرجوان [34].

نشير هنا إلى أن الخطيب ابن مرزوق قد تعرض لمرض يئس الأطباء من شفائه، فلم يبق لهم إلا أن طلبوا من والده أبو العباس أحمد وهو الولي الصالح، أن يتضرع إلى الله، حتى يكتب له الشفاء، ففعل فاستجاب الله لدعائه فقال أحد الأطباء: "هذا طب القلوب وليس طب العلوم" [35].

وكان الأطباء يعالجون مرض الرمد، بدواء يحضر بخلط الحضض باللبن، وتطلى به الأجفان،

وتغسل العينان، بماء يطبخ فيه السادروج، ويعصب عليها ورق الهذب مدقوقا ومعجونا ببياض البيض وورق الفجل ودهن الورد مدقوقا حتى يصير مرهما [36].

وكان العلاج يتم تحت إشراف الأطباء أو في بيمارستان المدينة، ويبدو أن بيمارستان تلمسان، قد شيد قبل عهد أبي حمو موسى الثاني [37]، لأن السلاطين الذين سبقوه كانوا أيضا سباقين إلى عمل الخير وخدمة الرعية، مولعين بالبناء والتشييد، ومتنافسين عليه، وقد سبق ليوسف بن يعقوب أن بنى بيمارستانا في مدينة المنصورة، أثناء حصاره الطويل لمدينة تلمسان، وعني بتجهيزه بالوسائل المادية والبشرية [38].

ويعمل بالمستشفى الأطباء والحكماء، لمداواة المرضى ومعالجتهم والتخفيف عن آلامهم، ومعاناتهم والتصرف في مطالبهم [39]. وكانت به عدة غرف متخصصة للحمى والمجانين والمجذوبين [40].

وبالرغم من أنعدام الوثائق التي تبين سير العمل في البيمارستان التلمساني، وتوضيح هيئة الموظفين الذين يعملون به، إلا أنه يمكن استخلاص ذلك، من خلال إشارات في هذا الباب أوردها حسن الوزان الفاسي، والذي أكد على وجود موظفين للمستشفى إلى جانب الأطباء والحكماء، منهم الكتاب والممرضون والحراس والطباخون وغيرهم، يتقاضى كل واحد منهم أجرا محددا كل شهر [40].

كانوا يتتبعون الحالة الصحية لكل نزلاء البيمارستان، وكان الطب النظري موضوع عناية عدد كبير من الأدباء والفقهاء، نظرا لعناية الدولة ورعايتها لهذا الجانب من العلوم الطبيعية [42]. فضلا عن المهمة الصحية والإنسانية، التي يقوم بها البيمارستان كان يستقبل الغرباء ويستضيفهم لمدة ثلاثة أيام [43]، ويداوي الطيور والحيوانات الجريحة، ويتكفل بغسل الأموات الغرباء وكفنهم ودفنهم [44].

والظاهر أن المستشفى كان يعالج المرضى بالموسيقى، فقد كان له وقف برسم الموسقيين الذين كانوا يزورونه، مرة أو مرتين في الأسبوع، ويقدمون للمرضى ونزلائه نغمات موسيقية مناسبة لهم [45]، لأن ذلك يفيد في انشراح الصدر وانعاش الروح، فتقوى ضربات القلب وتعود الأعضاء الجسمية إلى تأدية وظائفها. فقد كان العلاج بالموسيقى والغناء من الوسائل النافعة في علاج الحمق، كما هو الشأن في الوقت الحاضر [46].

وكانت طريقة العلاج أيضا تخضع للطريقة النفسية، وهي طريقة معالجة الأضداد بالملاطف والتدبير [47]، وكان يقدم للمرضى ثياب بالمجان للنوم في الليل والنهار وفي فصل الصيف والشتاء[48]. وقد ألحق بالمستشفى، صيادلة لصناعة الأشربة والأدهان والأكحال [49]، وتوجد بعض الصيدليات التي يملكها الأطباء، في سوق العطارين تباع فيها المواد المتعلقة، بالعطارة والطب، التي يهيئها الأطباء والحكماء في منازلهم، وتباع للمرضى مقابل وصفة طبية[50].

أشهر الأطباء بتلمسان:

كانت مهنة الطب متداولة بعناية في تلمسان خلال العهد الزياني، وكان الأطباء والعلماء يقومون بتدريس العلوم الطبية، النظرية والعملية للطلبة، في بعض مساجد تلمسان ومدارسها، وفي البيمارستان والتي تحتوي على كراسي لتدريس هذا العلم. وقد حرص سلاطين بني زيان وذوي النباهة من أبناء تلمسان وعلمائها على العناية بالطب، إلى جانب عنايتهم بالعلوم الأخرى، الدينية وبالاداب، والعمل على أقتناء نفائس كتبها، وتجميع مصادرها من المغرب والأندلس والمشرق، وبذلك تعددت مصادر العلوم بخزائن تلمسان ومكتباتها في الطب والصيدلة والعلوم الطبيعية والبيطرة وعلم النبات وغيرها [51].

فقد كانت هذه الكتب والرسائل العلمية، تؤدي للطلاب أنفع الخدمات، والحصول على ما يحتاجونه من مادة علمية ومن أدوات البحث، فالنصوص تشير إلى وجود أكثر من ثلاثمائة عنوان لمصنفات الطب والصيدلة، في خزائن حواضر المغرب خلال العهد الزياني[52]. وقد برز في العلوم الطبية من التلمسانيين في العهد الزياني كان لبعضهم باع في هذا المجال نذكر منهم مايلي:

1 ـ أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الحكيم التلمساني، نبغ في العلوم الطبية والفقه والخطابة. وكان يؤم الناس في الصلاة، قربه السلطان أبو تاشفين الأول، ورعاه حتى صار طبيبه الخاص [53].

2 ـ أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التلاليسي، من أهل تلمسان، كان جراحا ممتازا، قام بعملية جراحية لأمعاء السلطان أبي يعقوب المريني، وأخاط الجرح الذي أصابه في بطنه، بالمنصورة

كطبيب محترف، اختصه السلطان أبي حمو موسى الثاني، فكان طبيب البلاط، فضلا عن كونه شاعرا مميزا مدح السلطان في كثير من المناسبات، وله قصائد كثيرة في المولديات [55].

3 ـ محمد بن علي بن فشوش: طبيب تلمساني ماهر، زاول مهنته بكفاءة عالية، وكان يدرس العلوم الطبية بمدارس تلمسان، درس عنه العالم المصري الرحالة عبد الباسط بن خليل، الذي زار تلمسان، قصد الأخذ عن أطبائها وعلمائها وفي هذا المجال يقول: "ولقينا بها (تلمسان) جماعة أخرى من الفضلاء والأدباء والأطباء منهم محمد بن علي بن فشوش، أحد أطباء تلمسان في المزاولة والدراسة، وسمعت من فوائدهم، وحضرت دروس بعضهم ونقلت عنه أشياء وأجازوني.. " [56].

4 ـ موشى بن صمويل بن يهود الاسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي المتطبب المعروف بابن الأشقر يعد من أشهر الأطباء وأمهرهم قدوة وحدقا في ميدان الطب، ولد بمالقة قبل سنة 820 هـ / 1418م، أخذ هذا العلم عن أبيه اشتهر بهذه الصنعة في الأندلس، ثم انتقل إلى تلمسان وحط رحاله بها، حيث زاول بها مهنة الطب وتدريسه للطلاب المهتمين به، فلازمه كثير منهم وتوافدوا عليه من حواضر وأقطار مختلفة طلبا لهذا العلم، وقد درس عليه الرحالة المصري وأجازه، فقال عنه: "لم أسمع بذمي ولارأيت كمثله في مهارته في هذا العلم وفي علم الوفق والميقات" [57].

أخذ شهرة كبيرة في مدينة تلمسان وداع صيته خارجها، أنتهت إليه دراسة الطب، وصار الطبيب الخاص للبلاط الزياني والمقرب من أمرائه [58].

5 ـ ابو إسحاق ابراهيم بن محمد التلمساني الثغري الطبيب، ألف رسالة أو معجما صغيرا في الطب رتبه على حروف المعجم، هو عبارة عن قائمة، بأسماء الأعشاب ونحوها، مما يتداوى بها في ذلك العصر، أضاف له معلومات شخصية عن الأدوية الشائعة في التطبب في عصره [59].

استهل ابراهيم معجمه أو رسالته هذه، بالأدوية النافعة لبرد الدماغ، وهي تشمل على أضمدة وأدهان وغيرها، تحتوي الرسالة على وصف أدهان وأشربة وسفوفات ومعاجين، مع ذكر منافعها الطبية، كما تتعرض إلى بعض أمراض العين [60].

وساهم بعض الفقهاء والعلماء في ميدان الطب، وإن لم يكونوا متخصصين فيه مثل:

6 ـ الفقيه أبي الفضل المشذالي التلمساني (تـ 866 هـ/ 1461م)، الذي درس الطب على محمد ابن علي من فشوش التلمساني السالف الذكر (61).

7 ـ الفقيـه الصالح محمد بـن يوسف السنـوسي (تـ 895 هــ/ 1489م)، الذي درس العلـوم الطبية، ولكنه لم يخرج في تناوله لهذه العلوم عن دائرة اختصاصـه، بل جعل معارفه المتنوعة تكمل بعضهـا، فقد ربـط بين الديـن والطب واستعـان بالأحـاديث النبـوية، في المجـال الطبي والتـزم بتوجيهاتها في الإمتهان به (62).

وقد كتب في هـذا الميدان مصنفا سماه «شرح حديـث المعدة بيت الداء والحميـة رأس الدواء»، استهله بقـوله: "فقد جرى بينـي وبين إخوان نجباء لكـلام في فصل صناعة الطـب، وأنها شطر العلم"، وختمه بقـوله: "كذلك تقبل الأعضـاء قبولا حسنا لاستفراغها مـن العظلات، بسبب الرياضة فتستقيم بذلك الصحة باذن الله عزوجل" (63).

والظاهـر أن لهذا المصنف عدة عنوانين منهـا: "رسالة في الطب" و"تفسير مـاتضمنته كلمات خير البرية، من غـامض أسرار الصناعة الطبية أوضـح فيه السنوسي الحمية ثم انتقـل إلى الأغذية والفواكـه والأشربة وتأثيرها على الجسـم، كما تحدث عن الهضـم والإخلاط، وتـأثيرهما على الصحة وواجبات الإنسان في حفظ المعدة والعناية بها (64).

وله تأليف آخر في ميدان الطب عنوانه "مجريات في الطب» و «مقدمات فوائد» يتكون من 144 ورقة في الطب أيضا (65)، وله شرح لأرجوزة ابن سينا في الطب لم يكمله (66).

8 ــ ومنهم أبـو عبـد الله المالقي المتطبـب، الـذي عـاصر العالم الفقيـه الـأبلي والإمام المقـري الـجـد(67).

9 ـ ومنهـم داوود عبد الله البغـدادي ثم التلمساني، الطبيب الماهـر، كان ضريرا عـاش مابين القرنين الثامن والعاشر الهجريين، تميز بمعارف طبية عظمية (68).

10 ـ ومنهم الفقيه أبو الفضل محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمان بن الإمام (تـ 845هـ/ 1441م) صاحب القدم الراسخ في التصوف والأدبيات والشعر والطب (69).

متوسط عمر أهل تلمسان:

ذكرت بعض النصوص التاريخية، ان معدل عمر سكان مدن وحواضر المغرب الاسلامي، في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، يتراوح بين خمس وستين سنة وبين سبعين سنة، ويزيد بعضهم عن هذا المعدل إلى ثمانين سنة في المتوسط.

أما القرويون وأهل البادية، فيصل معدل أعمارهم، إلى مابين ثمانين ومائة سنة، وعلى الرغم كبر سنهم، فإنهم كانوا يتمتعون بشيخوخة قوية ومرنة، بحيث كانوا يقومون بالأعمال الشاقة في الحقوق كالحرث، والنقش وتقليب الأرض وبذر البذور، وحصد المحاصل الزراعية بكل خفة ونشاط، ويعيدون الزواج في كثير من الأحيان [70].

وباء الطاعون: [71].

يعد مرض الطاعون من أشد الجوائح الطبيعية وأكثرها فناءا للبشرية وفتكا بها، فقد عرفت بلاد المغرب عامة ومدينة تلمسان خاصة، هذا الوباء الجارف عدة مرات، خلال العهد الزياني [72]. فكان يظهر على رأس كل عشر سنوات. أو خمس عشرة سنة أو عشرين سنة تقريبا، يذهب بالآلاف من الناس [73].

وكان أشدها وطأة على الناس ذلك، الذي ظهر في أسيا الوسطي سنة 746 هـ / 1346م، واكتسح أوربا، ووصل إلى شمال افريقيا سنة 749 هـ/ 1348م. وهو الذي أطلق عليه الأوربيين بالطاعون الأسود La peste noire [74]. فانتشر في بلاد المغرب مخلفا الكثير من الضحايا، وقد عاصره ابن خلدون فوصفه وصفا دقيقا بقوله: "نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة، من الطاعون الجارف، الذي تحيف الامم، وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها جاء للدول على حين هرمها، وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها، وقل من حدها وأوهن من سلطانها وتوادعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتفض عمران الأرض انتفاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل، وصعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به، مثل مانزل بالمغرب، ولكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون، في العالم بالخمول والانقباض، فبادر

بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها. وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله، تحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفه وعالم محدث " [75].

والسؤال المطروح هنا هو إلى أي حد يتفق هذا الوصف مع ما وقع ببلاد المغرب حقيقة؟ فقد نعته ابن خلدون بالكارثة الكونية، بلغت درجة كبيرة من الانتشار والتوسع، بحيث لم يسلم منه أيٌّ قطر من الأقطار الاسلامية في بلاد المشرق، والأقطار المسيحية بالبلاد الأوربية، ووصل إلى الأقطار المغربية، كان الموتى من جرائه يعدون بالمئات في اليوم الواحد وفي القطر الواحد، حصد السكان بدون استثناء [76]. وقد كانت هذه الأوبئة تكتسح بلاد المغرب، في موجات دورية، ولاشك أن سكان مدينة تلمسان قد تأثروا به، مثل غيرهم، من سكان الحواضر الكبرى في المنطقة، واذا كانت النصوص التاريخية، لم تبين لنا الظروف التي عاشها المجتمع التلمساني، خلال هذه الكوارث، ولم تحدد لنا عدد الموتى الذين كانوا يسقطون يوميا، من جراء هذا الوباء، فإن المؤرخ الزركشي لم يغفل ذلك، وأشار إلى أن سكان مدينة تونس كانوا يموتون بالمئات يوميا، وصل عدد الموتى في بعض الحالات، إلى ألف شخص في اليوم الواحد [77].

وقد انفرد صاحب نفاضة الجراب، بالحديث عن وباء الطاعون الذي أصاب بلاد المغرب، فترك لنا وصفا دقيقا عن انتشاره وعما أصاب الناس به، من ضرر ومعاناتهم الكثيرة به بقوله: " ووجدنا الطاعون في بيوتهم قد نزل، واحتجز منهم الكثير، إلى القبور، واعتزل وبقر وبزل، واحتجز فلا تبصر إلا ميتا يخرج، وكميتا إلى جنازة يسرج، وصراخا يرفع وعويلا بحيث لا ينفع فعفنا الهجوم وألفنا الوجوم وتروّاغنا عن العمران، وسألنا الله السلامة من معرة ذلك القران " [78].

وكان هذا المرض قد تفشى، في طبقة العامة من الناس واشتد على الفقراء، حيث يكثر الاختلاط، ولا تتوفر شروط الصحة والنظافة [79]، غير أن هذا المرض لا يستثني أحدا عندما يعم وباؤه وتكثر أسبابه.

وقد اجتاح مدينة تلمسان مرض الطاعون كغيرها من مدن المغرب وقراه، سنة 750هـ/ 1349 فقضى على خلق كثير من الناس فيها، وفتك بعائلات بأكملها، مثل ماحدث لأسرة حفيد العالم التفريسي التلمساني، التي انقرضت كلها، من جراء هذا الوباء القاتل.

وقد عاصره أيضا أبو عبد الله الخطيب بن مرزوق فقال عنه: "كان للحاج، يوسف بن يحي

حفيد العالم التفريسي، أولاد انقرضوا، في هذا الوباء" [80]، كذلك توفي به الفقيه، أبو عبد الله محمد بن يحي النجار، من خيرة علماء عصره في العلوم العقلية [81].

وتوفي به عالم تلمسان المعروف بابن الإمام أبو موسى عيسى، بمسقط رأسه وغيره من العلماء والأهالي [82]. وظهر وباء الطاعون في المغرب الأوسط عام 845 هـ / 1442م. وانتشر في مدينة تلمسان وأتى على كثير من سكانها، ولم يمنع منه عالم تلمسان وأتى على كثير من سكانها، بدون منازع، ومفتى بلاد المغرب، وشيخ جماعتها، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان المغراوي التلمساني، الشهير بابن زاغو [83]. وهذا دليل على أن مرض الطاعون، أصاب العامة، والأسياد والشيوخ وأصحاب القصور والجاه بدون تمييز [84].

الجفاف والمجاعات:

لم يكن وباء الطاعون وحده يشكل خطرا، على حياة المجتمعات والأسرة بل يضاف اليه، ظواهر طبيعية أخرى لا تقل عنه خطورة وفتكا. كالقحط والزلازل والأعاصير والجراد والمجاعات[85]، التي تؤثر على معاش الناس وقوتهم، فقد تعرضت بلاد المغرب، إلى كوارث طبيعية وإلى ظروف مناخية قاسية دورية بحيث ساد المنطقة القحط، واستفحل فيها منذ القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، ففي سنة 617 هـ / 1220م. اجتاحت بلاد المغرب والأندلس مجاعة كبيرة، اشتدت وطأتها على السكان، وتسبب في موت الكثيرين منهم، في المدن والقرى[86]، وقد انتشر الغلاء والجراد، والقحط في سنة 617 هـ / 1220م أيضاً. حتى وصفها صاحب القرطاس "بالمجاعة العظمى" [87].

وداهم الجراد بلاد المغرب سنة 624 هـ / 1228م، فأتى على المحاصيل بجميع أنواعها فارتفع ثمن القمح ومختلف المواد الغذائية، وتكرر قدومه سنة 630هـ / 1232م. فعمت المجاعة بسببه، في بلاد المغرب من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب [88]. فانعدمت فيه الأقوات، ونقصت الغلات، وقلت مردودية الأرض، وذهب معظم الانتاج فتضرر الإنسان والحيوان معا، وقد وصف ابن الخطيب هذه الكارثة بقوله: "عظم الجفاف، وعصفت الريح الرجف، تنقل الهضب قبل ارتداد الطرف، وتبدل أعيان الأرض، وتعاجل حلاق لمم النبت، فصيرت وجه الأرض كمطارح

خبث الحديد، أمام مضارب البيد، يبسا وقحلا، وعقرا للأرجل، وعصيانا على السنابك، وأحرقت ماكان قد نجم من باكر البذر ونشط النبات ودامت فاستأصلت الأوراق من الشجر الدهين، الذي لا يسقط ونشفت البشرات وأثنيت الجلود " [89].

يتضح مما سبق مدى الضرر الذي أحاط بالسكان والحيوان والإقتصاد، وعمق تأثيره على الحياة بالمدن والقرى، إلا أن القحط، بالرغم من كثرة حدوثه، في بلاد المغرب، كان أقل إبادة من الوباء، ويصيب ضرره سكان الأرياف والبوادي، أكثر من سكان المدن، ولا سيما العواصم التي كان أهلها يدخرون المؤن، من قمح وشعير وزيت وسمن وتبن وعسل وشحم وقديد، وكان يعرف عند التلمسانيين بالمسلي [90]، وغيرها من المواد الغذائية التي يطول خزنها. وقد كان أهل تلمسان وسلاطينها يدخرون هذه المواد في أهراء المدينة ومطاميرها، في أحد أحياء تلمسان يدعى حي المطمر [91]، لمثل هذه الظروف ولمقاومة الحصار الذي يمكن أن تتعرض له مدينتهم، ثم أن سلاطين بني زيان كانوا كثيرا ما يفتحون هذه المدخرات لرعايا المدينة [92]، ويرجع ابن خلدون أسباب ظهور المجاعات الدورية إلى ظواهر اجتماعية وسياسية وطبيعية، وإلى الحروب والفتن الداخلية بقوله: "ثم أن المجاعات والموتان تكثر، في آخر الدول، والسبب فيه فلقبض الناس أيديهم عن الفلح، في الأكثر بسبب مايقع في آخر الدولة من العدوان، في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة " [93].

فقد داهمت مدينة تلمسان مجاعة شديدة خلال النصف الاول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، حتى لم يطق السكان تحمل هذه المجاعة، و تعرضت مدينة تلمسان في عهد السلطان ابي سعيد عثمان الاول، لغلاء كبير حتى تعطلت المرافق العامة الخيرية و المساجد فبعث السلطان لأهل البلد يطلب منهم بيعه بعض المنتوجات الزراعية، فلم يجدها عندهم [94].

كما حدثت في بلاد المغرب عامة و مدينة تلمسان على وجه الخصوص، مجاعة عظيمة سنة 776هـ/ 1373م. فعم الغلاء البلاد و هي الحالة، التي ضجر منها احد السراة الميسورين و هو أبو العباس أحمد الشهير بابن قنفد القسنطيني، فاشتكى من ارتفاع سعر المواد الغذائية في مدينة تلمسان، إذ لم يستطع تحمل النفقة الباهضة، التي كانت تكلفه يوميا نحو اربعة دنانير ذهبا دون المزية العظمى واليد الكبرى، التي تبيع له الطعام، وقد إضطر ابن قنفذ أن يقيم في تلمسان مدة شهر لانعدام الأمن في المسالك والطرق بسبب هذه المجاعة [95].

وعاصر يحي بن خلدون هذه المجاعة، بمدينة تلمسان فوصفها بقوله: "إنها نتجت عن إعصار عظيم، أهلك زرع صائفة تلمسان وحيوانها، فأكل الناس بعضهم بعضا، وافتقروا إلى مالدى السطان" (96)، الذي تصدق بنصف جبايته على ضعفاء تلمسان.

فقد كان يجمعهم كل يوم في الرحاب الفسيحة من المدينة، وتقدم لهم المؤونة بواسطة أعوانه ومساعديه (97)، وأصدر السلطان أبو حمو موسى الثاني، بهذه المناسبة قرارا بالتكفل بالضعفاء والمساكين والفقراء، وبضمهم إلى بيمارستانات المدينة، وتقديم الطعام لهم، في الصباح والمساء، طوال فصلي الشتاء والربيع، وفتح للرعية أهراء الزرع ومخازنه وأباح للناس بيعه، وخفض لهم سعره بحسب مااقتضته ظروف المجاعة وأحكامها، وكان أبو حمو موسى الثاني، كغيره من سلاطين بني زيان، حريصا على تخزين المال، والمؤن تحسبا لمثل هذه الظروف ولغيرها، وكان يحث الناس على الاقتصاد وتخزين المؤن كل سنة (98).

وكان السكان بمدينة تلمسان، يتميزون بالتضامن الاجتماعي واغاثة المسكين والفقير، ولاسيما عندما تحل سنوات المحل، والظواهر الطبيعية القاسية، وكان في مقدمة المحسنين الفقهاء والمتصوفة والعائلات الميسورة، وأهل الخير ومن بين هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: أبو العباس أحمد بن مرزوق، الذي كانت له مطامير من القمح والفحم والخليع والزيت، فقد كان يفتحها جميعا أمام الفقراء والمحتاجين، ويتصدق بها طوال يومه فلا يعود إلى منزله، إلا بعد أن يفرغ المطامير، وكان كل يوم يتصدق بالخبز على المساكين والثياب طوال السنة (99).

وكذلك كان الفقيه الولي الصالح، أبو زيد عبد الرحمان بن يعقوب المدرس بمكتبه بسويقة اسماعيل، يفضل أن يقدم طعامه وطعام عياله للمساكين والمحتاجين، الذين تأثروا بالمجاعة، وهذا يدل على أن المتصوفة أقرب إلى قلوب الناس، خاصة الفئة الضعيفة لأنهم يؤازرونهم وقت المحن (100).

ومنهم أيضا الشيخ الصالح الأمين أبي عبد الرحمان النجار، الذي كان يكثر من الصدقات وأعمال البر على الطلبة والمحتاجين (101)، وكان محمد بن مرزوق الجد، يتصدق بكميات كبيرة من القمح والنقود على الضعفاء كل يوم جمعة (102).

وتعود أهل تلمسان على العواصف القوية، التي كانت تحدث في أخر كل خريف خلال فصل

الشتاء، مصحوبة بالبرد والصواعق والثلوج، وهذا المناخ هو الذي كانت تتميز به مدينة تلمسان وضواحيها.

فقد كانت أشد بلاد المغرب الأوسط بردا وتجلدا [103]، وهو مناخ يؤثر على الزرع ويفسد غلاته، ويعيق نمو الخضر، والفواكه ويتلفها [104]، وهذا هو السبب الذي جعل أهل تلمسان حرصين، على تخزين المؤن والمواد الغذائية في الأهراء والمطامير الكثيرة، التي تحتوي عليها منازل تلمسان ودورها.

الحروب والأزمات السياسية:

أما عن الحروب والفتن فهي آفة تفتك بأعداد كبيرة من السكان، فإنها كانت تنشب من حين لأخر، بين دولة بني زيان وبين جارتيها الحفصية والمرينية، في غالب الأحيان، وهؤلاء كانوا يطمحون إلى بسط نفوذهم على بلاد المغرب كلها، فلم يرضيا بوجود الدولة الزيانية على أرض المغرب الأوسط، وهذا واضح من خلال الهجومات المتكررة، لأبي يعقوب يوسف المريني على مدينة تلمسان، في نهاية القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، وتصميمه على ذلك في الحصار الطويل، الذي دام نحو تسع سنوات، وهو حصار كان له وقع شديد على سكان مدينة تلمسان، بحيث أحاط العسكر بها من جميع جهاتها، وضرب عليها سياجا من الأسوار، واختط مدينة إلى جانبها، ليأخذ بمخنقها فنال سكان مدينة تلمسان من الجهد والجوع، مالم ينل أمة من الأمم "فاضطروا الى أكل الجيف والقطط، والفئران وأشلاء الموتى"، على حد تعبير ابن خلدون[105]. وارتفعت أسعار المواد الغذائية والحبوب والخضر والفواكه وسائر المرافق غلاءا تجاوز حد المألوف [106]، حتى استهلك الناس أموالهم ومدخراتهم وضاقت أحوالهم فكان الهالك بالجوع أكثر من الهالك بالقتل" [107]، وأطلق المرينيون أيديهم على المنازل "نهبا واكتساحا" [108]، وأصدروا أمراً بقتل كل من يدخل بضاعة أو مواد غذائية إلى مدينة تلمسان [109]، فتضرر السكان في داخلها، لانعدام الأقوات باستنفاد المخازن، فلم يطق السكان تحمل هذه المجاعة [110]، فمات منهم خلق كثير، وهرب من استطاع الهروب، من بين الأسوار متسترا بجناح الليل، ولم يبق منهم داخل المدينة إلا نحو ألف جندي مقاتل، وبضعة مئات من السكان من بينهم، أمراء بني زيان وحاشيتهم وحريمهم [111]. وفي هذا الصدد يقول أحد المؤرخين: "فكم خرجت فيها

من ذمـم، وكم هلكـت فيهـا من أمم، وكم إنجلى مـن أهلها أعلام، ، كـم كابدوا مـن محن فيها وانتقام "[112].

فقد بلغ عـدد الموتى من أهل تلمسـان ـ كما تشير النصوص ـ قتـلا وجوعا وتشريدا زهـاء مائة وعشرين ألف نسمة[113]، وتوضـح وثيقة أخرى بـأنه "كان على أهـل تلمسان بلاء عظيـم، من غلاء الأسعـار وموت الرجال، وتثقيـف من يخاف منه الفرار. وفـر أكثر أهلها، فلم يبـق فيها ـ تلمسان ـ إلا نحو المائتين وكان فيها من المقاتلة نحو الألف "[114].

وهذا دليل على أن المدينة قد أصبحت خالية من سكانها، الذي كان عددهم يفوق مائة وخمس وعشرين ألف نسمة، على أكثـر تقد ير[115]. ولم يبق فيها إلا بضعة آلاف، ظلوا صـامدين ضد الحصار يقاومونه بكل الوسائل.

ومنذ هذا الحصار تضاعفت أطماع بني مرين، إلى عاصمة بني زيان، وتواصلت الحصارات، حتى لم يعرف أهل تلمسان الراحـة، حيث واجهوا حروبا متتالية مع بني مريـن، الذين تمكنوا من الاستيلاء على مدينة تلمسان، نحو عشر مرات خلال عهد بني زيان[116]. وكذلك لم تهدأ الجبهة الشرقية مع بني حفـص، ولم يسدها الهدوء والوئام في أغلب مراحـل تاريخ الدولتين[117]. فقد أهلكت هذه الحروب الكثير من أبناء تلمسان وأهلها[118]، وشردت العديد منهم إلى أقاليم أخرى من بلاد المغرب والمشرق[119].

ولا شك أن العمـران هو الـآخر قـد تعرض إلى التهديـم والاتلاف بسبـب القصف بـالمجنيق والدبابات وبمختلف أدوات الحصار وآلاته، وقد أحزن السلطان أبا حمو موسى الأول رؤية خراب القصور والدور التي أنشأها وشيدها في عـاصمته، وزاد السلطان أبو العباس المريني المدينة تخريبا عندما استولى عليها سنة 786 هـ[120] 1384م.

ومن خلال ماتقدم يتضح بأن سكان مدينـة تلمسان تعرضوا للقتل والتشريد، وتعرضت أيضا ممتلكاتهم إلى التـدمير والتخريب، إلا أن الجديـر بالملاحظة هو أنـه كلما انتهى الحصار تضـاعف عدد السكان الذين صارت لهم خبرة ومهارة كبيرة في التعامل مع الشدائد والمحن، بحيث يعيدون التعمير والإنشاء من جديد، بعد رحيل العدو وعودة الأمن والهدوء والاستقرار

الهوامش :

(1) La coste (Y): Ibn khaldoun p.38.

(2) المجموع، ورقة 22 ـ 24.

(3) سواد عبد محمد : الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية دار الثقافة العامة بغداد 1989 ص 141.

(4) الورم: هو الغلظ الخارجي عن الطبع عادة تتخلل العضو، متفرق فيه اجتمعت في تجويف واحد فهو الخراج، انظر: محمد العربي الخطابي: الطب والأطباء في الأندلس دار الغرب الاسلامي بيروت 1988 ج 2 ص 352.

(5) ابن مرزوق: المصدر السابق ورقة 25 ـ 26.

(6) القرع: قروح في الرأس، متصلة، يذهب معها الشعر وتسمى السعفة، محمد العربي الخطابي نفسه ج 2 ص 334.

(7) حسن الوزان: وصف افريقيا ج 1 ص 67.

(8) محمد العربي الخطابي: المرجع السابق ج 2 ص 329.

(9) حسن الوزان: المصدر السابق ج 1 ص 68.

(10) الفتق: انخرام يقع في شيء ملتحم متصل، وهو من الأمراض انفتاق صفاق البطن وبروز المعى أو الثرب تحت عضل البطن، وجلده وأصله في اللغة الخرق، انظر محمد العربي الخطابي: المرجع السابق ج 2 ص 332.

(11) ابن مرزوق: المسند ص 265 لم أقف على المرض.

(12) ابن خلدون: العبر ج 7 ص 196. لم أقف عليه.

(13) حسن الوزان: المصدر السابق ج 1 ص 67.

(14) المجموع ورقة ص 23.

(15) ابن مرزوق: المجموع ورقة 23.

(16) نفسه، ورقة 26 انظر: ابن سينا: القانون في الطب القاهرة 1294هـ ج 2 ص 200.

(17) العمري: مسالك الأمصار، في ممالك الأمصار مطبعة الكتب المصرية القاهرة 1924 ج 1 ص 301.

(18) ابن مرزوق: المجموع ورقة 25 انظر أيضا: ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب المطبعة الكاثولكية بيروت 1968 ج 1 ص 43 سواد عبد محمد: المرجع السابق ص 133.

(19) عريب بن سعد القرطبي: كتاب خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين، اعتنى بتصحيحه وترجمته والتعليق عليه الأستاذ نورالدين عبد القادر والحكيم جاهية، منشورات كلية الطب والصيدلة ومكتبة فراريس الجزائر 1956 ج 3 ص 22 ـ 26.

(20) نفسه، ج 3 ص 22 ـ 23.

(21) نفسه، ج 3 ص 44.

(22) نفسه، ج 3 ص 63 و75 و75 يقدم شراب لذيذ للمريض بالسعال، يؤخذ من برز الخشخاش ثلاثة أوراق ومن عروق السوس المجرود أوقية فيلقي عليه ثلاثة أرطال من ماء حار قوي الحرارة ويسقع يوما وليلة ثم يطبخ بنار جمر، ثم يسقى الطفل، انظر نفسه ج 3 ص 63.

(23) عريب بن سعد: المصدر السابق ج 3 ص 63.

(24) نفسه ج 3 ص 81.

(25) سواد عبد محمد: المرجع السابق ص 140.

(26) ابن بطوطة: تحفة النظار ج 2 ص 781.

(27) ابن مرزوق: المجموع ورقة 26.

(28) يصنع من نبات جبلي انظر سواد عبد محمد: المرجع السابق ص 139.

(29) ياقوت الحموي: معجم البلدان منشرات مكتبة الأسد ج 3 ص 340 ـ 241.

(30) يستخرج من نبات يعيش في المستنقعات المائية ورواكدها كما ينبت في الماء العذب الواقف انظر: سواد عبد محمد: المرجع السابق ص 140.

(31) نفسه، ص 139.

(32) ابن مرزوق: المجموع ورقة 25.

(33) نفسه، ورقة 26.

(34) ابن مرزوق المجموع: ورقة 26.

(35) نفسه ورقة 25.

(36) عريب بن سعد: المصدر السابق ج 3 ص 81.

(37) واسطة السلوك: ص 84 ـ 85.

(38) ابن خلدون: العبر ج 7 ص 458، ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ج 2 ص 136.

(39) محمد المنوني: دور الأوقاف المغربية في التكافل الاجتماعي عبر عصر بني مرين مجلة دعوة الحق عدد 230 يوليو الرباط 1983 ص 28.

(40) حسن الوزان: المصدر السابق ج 1 ص 180.

(41) وصف افريقيا ج 1 ص 181.

(42) ابرهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ج 2 ص 157.

(43) حسن الوزان: المصدر السابق ج 1 ص 181.

(44) محمد المنوني: المرجع السابق ص 28.

(45) نفسه ص 28.

(46) ابن شقرون محمد: مظاهر الثقافة المغربية من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر، مطبعة الرسالة الرباط 1982 ص 225ـ 226.

(47) ابن الأثير ضياء الدين: رسائل ابن الأثير، تحقيق أنيس المقدسي، دار العلم الملايين بيروت 1959 ص 116.

(48) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الاسلام، دار الرائد العربي بيروت 1981 ص 281.

(49) نفسه ص 281.

(50) حسن الوزان: المصدر السابق ج 1 ص 190 ـ محمد المنوني: المرجع السابق ص 28.

(51) محمد العربي الخطابي: فهارس الخزانة الحسنية، الرباط 1982 ج 2 ص 6 ـ 7.

(52) نفسه، ج 2 ص 7، نذكر على سبيل المثال: الإكتفاء في طلب الشفاء لمحمد بن يحي العزفي المتوفي سنة 768 هـ / 1966م.

- الأمراض الوبائية لعلي بن عبد الله بن هيدور التادلي (816 هـ / 1413م.

- أرجوزة في الأغذية والأشربة، لأحمد الخطيب ابن قنفذ (تـ 810هـ / 407م).

- زاد المسير في علاج البواسير لمحمد القصوني (تـ 931 هـ / 1524م).

- عمل من طب لمن حب للسان الدين بن الخطيب، (تـ 776هـ / 1374م).

- تدبير الصبيان لابن الجزار القيرواني (تـ 390هـ / 1004م).

- الاستقصاء وابرام في علاج الجراحات والأورام لمحمد بن علي فرح (تـ 761 هـ / 1359م).

- كتاب القانون لابن سيناء (تـ 428 هـ / 1037م).

- مادة الحياة وحفظ النفس من الآفات لمحمد بن أبي بكر الفارسي (تـ 621 هـ / 1228م).

(53) ابن مرزوق : المجموع ورقة 4 و24 .

(54) المقري : نفح الطيب ، (طبعة دار صار 1968) ج5 ص 243 .

(55) نفسه : ج5 ص 336 ـ 337 . محمد طمار: تاريخ الأدب الجزائري الشركة الوطنية للتوزيع والنشر الجزائر 1969 ص 189 ـ 191 .

(56) عبد الباسط : الروض الباسم ، ص 44 ـ محمود بوعياد : رحالة مصري يزور الجزائر في القرن التاسع ، مجلة الأصالة عدد 25 مطبعة البعث قسنطينة 1975 ص 124 ـ 134 .

(57) عبد الباسط : المصدر السابق ص 44 .

(58) نفسه ص 45 .

(59) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الثقافي ج 2 ص 105 .

(60) ابو أسحاق ابراهيم التلمساني الثغري : رسالة في الأدوية مخطوط بالخزانة الحسينة بالرباط رقم 8545 ، ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 ص 107 .

(61) أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ج 1 ص 107 .

(62) نفسه ، ج 1 ص 107 .

(63) محمد العربي الخطابي : فهارس الخزانة الحسينة ج 2 ص 185 .

64) السنوسي : تفسير ماتضمنته كلمات خير البرية من غامض أسرار الصناعة الطبية ، مخطوط بمكتبة الأسد الوطنية دمشق رقم 7136 ورقة 20 ومابعدها .

(65) اسعيد عليوان : محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة جامعة الجزائر 1987 ص 76 .

(66) البستان ، ص 246 .

(67) أحمد بابا التنبكتي : نيل الإبتهاج ص 252 .

(68) محمد الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر الجزائر 1983 ص 230 .

(69) الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف ، مؤسسة الرسالة والمكتبة العتيقة تونس 1985 ج 2 ص 339 .

(70) حسن الوزان : المصدر السابق ج 1 ص 66 .

71) الوباء يعني الموتان انظر محمد العربي الخطابي: المرجع السابق ج 2 ص 351. والطاعون يصاب صاحبه بالورم الحاد الخبيث، ويقتل في ساعة أو ساعتين وربما طال يوما أو يومين ، يكون خلف الأذان وأكثر ما يكون في أوقات الوباء ، منقول متعارف عند الأطباء، انظر: محمد العربي الخطابي المرجع السابق ج 2 ص 327 .

(72) اجتاح وباء الطاعون بلاد المغرب في العهد الزياني عدة مرات في فترات متعاقبة ، فقد ظهر في السنوات التالية: 657هـ / 1251م ـ 749 هـ / 1348م ـ 765 هـ / 1365م ـ 769 هـ / 1394م ـ 845 هـ / 1442م ـ 847 هـ / 1443م ـ 857 هـ / 1453م- 872 هـ / 1467م ـ 899 هـ / 1493م ـ انظر: ابن خلدون: المقدمة ص 53 ـ ابن قنفذ: الفارسية ص 127 ، الزركشي: تاريخ الدولتين ص 150 ـ 158 ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب تقديم وتحقيق السعدية فاغية مطبعة النجاح الدار البيضاء 1989 ج 3 ص 61 و80 و90 ـ ابن الأعرج : المصدر السابق ج 3 ورقة 99 .

(73) حسن الوزان: المصدر السابق ج 1 ص 68 .

(74) كتب عن الطاعون ابن خاتمة ، رسالة سماها " تحصيل فرض المقاصد في مرض الوافد " وألف عنه ابن قنفذ القسنطيني " المسنون في أحكام الطاعون " انظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب ، ج 3 ص 61 ـ 80 ابن قنفذ: الوفيات ص 355 أوميل: الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون " الرباط 1984 ص 88 ـ 91 . Aric (R) : un opcule grenadin sur la peste noire de 1348 - la nasiha- de Mohamed saquiri, Boltin de la sociation espagnola de orientalistes 1967 pp. 189. 199.

(75) المقدمة 53.

(76) كتاب العبر، ج 2 ص 53.

(77) تاريخ الدولتين، ص 38. Brunshvig (R) : Un calife hasfide méconnu Rev. Tun. 1930 P. 38.

(78) نفاضة الجراب ص 90.

(79) عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق ص 94.

(80) المجموع، ورقة 14.

(81) نفسه، ورقة 15.

(82) Marcais (G) : Tlemcen (les villes d'arts Celebres) p 48.

(83) ابن الأعراج: زبدة التاريخ ورقة 99.

(84) ابن عذاري: البيان، قسم الموحدين ص 136، ابن أبي زرع: المصدر السابق ص 267.

(85) الزركشي: المصدر السابق ص 150 ابن أبي زرع المصدر السابق ط دار المنشور الرباط 1973 ص 273.

(86) ابن أبي زرع ص 273.

(87) السلاوي: الاستقصاء ج 2ص 264.

(88) نفسه، ج2 ص 264.

(89) نفاضة الجراب: ص 61.

(90) ابن مرزوق: المجموع ورقة 15.

(91) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 1 ص 209_210. ابن مروزق ورقة 14 ـ 15.

(92) Marcais (G) : Tlemcen (les Villes d'arts celebres) p. 87.

(93) المقدمة، ص 656. (بولاق)

(94) بغية الرواد ج 1 ص 122، ابن مريم: البستان، ص 307.

(95) أنس الفقير وأعز الحقير، ص 105.

(96) بغية الرواد، ج2 ص 11 ـ البستان ص 174.

(97) بغية الرواد، ج2 ص 11 ـ البستان: ص 174.

(98) نفسه، ج 2 ص 326/ Marcais (G) : Tlemcen (les Ville d'arts celebre p 87.

(99) المجموع، ورقة 15.

(100) نفسه، ورقة 46.

(101) نفسه، ورقة 14.

(102) نفسه، ورقة 17.

(103) ابن مروزق: المسند ص 222.

(104) حسن الوزان: المصدر السابق ج 1 ص 65.

(105) العبر ج 7 ص 197 ـ 198 ابن الأعرج: زبدة التاريخ ورقة 42.

(106) ابن خلدون: العبر ج 7 ـ ص229 وحول ارتفاع الأسعار يذكر نفس المؤلف بأن ثمن البقرة الواحدة ستون مثقالا والظأن سبعة ونصف، والرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ومن الخيل بعشرة دراهم، واهر الواحد بمثقال ونصف والكلب بمثله والفأر بعشرة دراهم والدجاجة بستة عشر درهما البيضة الواحدة ستة دراهم، والعصافير كذلك والأوقية من الزيت باثنى عشر درهما، ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين ومن الفول بمثلها ومن الملح بعشرة، ومن الحطب كذلك، والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال،

ومن الخس بعشرين درهما، ومن اللفت بخمسة عشر درهما، والفقوس بأربعين درهما والخيار بثلاثة أثمان الدينار، والبطيخ بثلاثين درهما، الحبة من التين ومن الأجاص بدرهمين. وعن هذا الحصار انظر: يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 1 ص 211 - التنسي نظم الدر ص132 ابن الأعرج: زبدة التاريخ ورقة 42 - ابن الأحمر: روض النسرين ص 50 - حسن الوزان: المصدر السابق ج2ص 17 - 18.
Gat (E) : petite histoire de l'Algerie Tunisie Maroc Avant 1830 Alger 1888 T. 1 p.209.

(107) ابن خلدون: العبر ج 7 ص 197 - 198.

(108) نفسه: ج 7ص 197 - 198.

(109) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 15.

(110) حسن الوزان: المصدر السابق ج 2 ص 18.

(111) التنسي: نظم الدر ص 132.

(112) ابن مرزوق: المسند ص 203.

(113) التنسي: المصدر السابق ص 132، ابن خلدون: العبر ج7 ص 199 - 200.

(114) نفسه، ص132 - . Brosslard (ch): opcit p

(115) Brosslard (ch): opcit p 83.

(116) حسن الوزان: وصف افريقيا ج 2 ص8.

(117) أبو حمو موسى الزياني واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق وتقديم جميلة شتيوي أطروحة لنيل شهادة الكفاءة والبحث كلية الأداب بمنوبة جامعة تونس 1989 ص 5.

(118) قتل في الحصار الطويل نحو 120 ألف نسمة وقتل في حصار أبي الحسن بين الفريقين نحو (80) ألف نسمة الزركشي: تاريخ الدولتين ص 72 - 73.

(119) محمد زروق: الجالية الأندلسية ص 130.

(120) عبد العزيز سالم: تاريخ حضارة الاسلام في الأندلس ص 250.

الباب الثالث

الفصل الثالث

الحياة العامة لتلمسان
(العادات والتقاليد)

1 ـ المأكولات .
2 ـ الملابس .
3 ـ عيد الفطر .
4 ـ الاحتفال بموكب الحج .
5 ـ عيد الأضحي .
6 ـ الاحتفال بالمولد النبوي .
7 ـ أسباب الأحتفال بالمولد .
8 ـ مظاهر الأحتفال بالمولد في تلمسان .
9 ـ الاحتفالات المدنية والإستعراضات العسكرية .
10 ـ الاحتفال بالزواج .
11 ـ دور المرأة في المجتمع التلمساني .
12 ـ أبرز المثقفات والزاهدات .
13 ـ عادة الأغتسال في الحمام .
14 ـ عادة دفن الجنازة .

العادات والتقاليد:

لا شك أن انتشار الاسلام بمبادئه وقيمه السمحة، بين سكان المغرب الاسلامي، واندماج عناصر السكان المختلفة فيه، وظهور الفئات الاجتماعية المتباينة، قد وفر الجو لتطور العادات والتقاليد الاجتماعية، على أساس الحضارة الاسلامية، ووفق المنظور الديني والمذهبي المتبع[1].

ويصعب علينا الإلمام بكل العادات والتقاليد، التي كانت سائدة في المجتمع التلمساني إبان العهد الزياني، لقلة المصادر وندرتها من جهة، وسعة اشكال الحياة الاجتماعية وتنوعها وتعقيدها في بعض الأحيان من جهة ثانية، وكذا لعدم سهولة الوصول إلى النوازع والضوابط التي كانت تهيمن على الحياة العامة لسكان المدينة، هذه الأسباب جميعا تحول دون الوصول الى توضيح جميع جوانبها توضيحا دقيقا.

وكانت القيم الدينية تتحكم في تصرفات أغلب الناس، وتضبط سلوكهم وتوجه حياتهم الدنيوية، وتجعل يوم الآخرة نصب أعينهم ويوم الحساب محل تفكيرهم، والسند الذي ترتكز عليها علاقتهم مع الآخرين[2].

كما أن متطلبات الحياة العامة وافرازاتها، أصبحت في بعض الأحيان لا تخضع لمراقبة الوازع الديني والضمير. فكان عمل الخير والبر والإحسان، إلى جانب النهب، وأكل مال اليتيم، وشرب الخمر وغيرها من المنكرات والمحرمات الموجودة، جنبا إلى جنب داخل المجتمعات الاسلامية وبين هذا وذاك، برز نوع من العادات والتقاليد، سيطرت على عقول بعض الناس وتصرفاتهم، حتى صارت مع مرور الزمن جزءا من حياتهم وكيانهم.

ولما كان معظم سكان مدينة تلمسان من المسلمين، كان من الطبيعي أن يتسم سلوك المجتمع التلمساني، بالتعاليم الاسلامية على المذهب المالكي، وكانت الأقليات اليهودية والنصرانية

المتواجدة بالمدينة هي الأخرى، لها عاداتها وتقاليدها خاصة بها، والتي طبعتها دياناتها فكان المسلمون يحترمونها كما كانوا يقدرون طقوسها الدينية[3].

المأكــولات:

تخضع نوعية معيشة أهل تلمسان، كغيرها من سكان الحواضر الاسلامية، إلى المستوى الإجتماعي والمادي لكل أسرة، فإذا كانت الطبقة العامة من الناس تتميز بالبساطة، فإن الطبقة الخاصة، كانت تتأنق في الأكل والمشرب، وتتفنن في ضروبة وأصنافه[4]، ولا تبخل على أسرها وتتوسع في النفقات عليها[5].

وكان التلمسانيون يأكلون على الموائد[6] وبالملاعق[7]، ويستعملون القصح[8] والبرم[9]، وأواني أخرى لحفظ الزيت والسمن[10]، ومزاود وغرائر لحفظ الحبوب الجافة والدقيق[11]، وتصنع المرأة الخبز من العجين وتطهيه في منزلها أو يؤخذ إلى فرن الحي[12]، والسفنج وهو مايعرف بالفطير المقلي بالزيت[13] ويجلس أهل تلمسان حول المائدة ثلاث مرات في اليوم وقت الافطار والغذاء والعشاء، وأكثر أكلهم الثريد من الخبز المختمر بالسمن أو الشحم واللحم أحيانا[14]. وكان المطبخ التلمساني عامرا بمختلف انواع الأكل، يفطرون في غالب الأحيان، بالخبز، والبيض، وقد كان أبو عبد الله محمد ابن مرزوق، يفطر على ثلاث بيضات، مدفأة على النار بقليل من الملح مع شيء من قشرة الخبز في الصباح[15]، ويصنعون أنواعا مختلفة من الكسكسو، يفتلونها بالأصابع من الدقيق[16]، ويطبخونها بالمرقة واللحم أو الزبدة والسمن[17] ويفضلون حسو النشاء، والشربة بمرق الدجاج[18]، ويعرفون أكل البسيسة[19] والدشيش[20] وطعام الفداوش[21] والمحمصة[22] والعصيدة التي تصنع من الدقيق والزبدة[23]، والهرائس والأرز بلحم الغنم والدجاج[24].

وطعام البركوكوم الذي يعرف عند المشارقة، بالمفتلة يؤكل بالزبدة أو السمن[25]، والمركوس وهو غذاء لذلذ يصنع من لحم الفخذ أو سن الظأن، ويخلط بالزيت والفلفل والقرفة والشحم[26]، وأكل أهل تلمسان الحيتان والسمك المقلي والمسلوق والمجفف. كما عرفت الطبقة الغنية، أنواعا مختلة من الشواء[27] والحمام المقلي[28] والطواجن[29]، والرفيس[30]، والكرش والدوارة[31]، وأكل

الترفاس[32] فضلا عن أنواع عديدة من الخضر كالجزر والخردل[33]، والباذنجال[34] والفول الأخضر واليابس، من الباقلاء أو البقول أو القطاني، كالعدس والحمص وغيرها[35]، وعرف أهل تلمسان شرب الحليب واللبن والرايب ومشتقاته من زبدة وجبن[36].

وكانت الطبقة الفقيرة، تقتصر على الكسكسو، والدشيش، الذي يصنع من القمح والشعير، والخبز والأدم[37]. ويتقشف المتصوفة في معاشهم زهدا بالرغم من أن كثيرا منهم كانوا ميسوري الحال، ويكثرون من أكل الشعير بالشحم والأدم[38]، وعرف التلمسانيون أكل مخ الضأن والبقر ولحم الماعز والجمل[39]، والخليع والقديد المعروف عندهم بالمسلي[40]، وعرفوا أنواعا مختلفة من الفواكه كالإجاص (الكمثرى) والسفرجل والرمان والتفاح والتين الطازج والمجفف والباكور، وهو النوع المعروف بالشريحة[41]، والتمر والعنب والزبيب والبطيخ والدلاع[42]، ومن الحلويات المقروض والزلابية والكعك والقطائف، وعرفت الأسرة التلمسانية أنواعا مختلفة من الأشربة، مثل شراب العود القماري[43] ويعد للبخور أيضا، ويضاف للأطعمة والأشربة لإعطاء النكهة وشراب العسل[44]، وشراب النعناع[45]، وشراب الورد الأخضر واليابس[46]، وشراب الرمان[47]، وشراب العناب[48]، وشراب الجزر[49]، والتفاح[50].

الملابس:

يهتم أهل تلمسان نساءا ورجالا بمظهر الملبس، والمأكل والتأنق فيهما بحيث كانوا يلبسون أحسن الثياب، في مختلف فصول السنة، ويفضلون لبس اللون الأبيض، والخفيف من الثياب في فصل الصيف، ويعتنون بالهيئة والهندام، حتى الفقهاء والصالحين والعلماء كانوا يرتدون الملاثم والأحارم التونسية المستوردة المشهورة[51]، وتخضع درجة الأناقة إلى الحالة الإجتماعية والمادية والثقافية لكل أسرة في تلمسان، فقد تميز سكان المدن بصفة عامة بالألبسة الأنيقة الرفيعة والجميلة، بينما يلبس أهل البوادي الألبسة الخشنة والبسيطة من الصوف والكتان، حسب طبيعتهم وذوقهم ودرجة تحضرهم، ويلبس الأعيان والأغنياء ألبسة من القطن والحرير والكتان والصوف الرفيع التي تشتهر به المدينة[52]. وكانوا يلبسون أثوابا مستوردة من الأندلس وافريقية، لان تجار هذه الأخيرة كانوا يصدرون الكتان التونسي إلى تلمسان، ويأخذون منها أحمالا من

الصوف الرفيع[53]كما كانت أحمال البز السبتي تجد طريقها إلى أسواق مدينة تلمسان في كل المناسبات[54]، أما سلاطين المغرب وتونس، فقد كانوا يستحسنون الملابس التلمسانية وما يصنع بها من أقمشة، ولا سيما منها أقمشة الصوف الرفيع[55]، والدليل على ذلك أن أحد سلاطين تونس أراد أن يتباهي بدقة صناعة الأحارم وخفتها، فارسل إلى أمين الحياكة بتلمسان، وصاحب صناعة الصوف الرفيعة أبي زيد النجار بعض الأحارم التونسية، تزن الواحدة منها خمسة أواقي، فرد عليه أبوزيد بأحارم تلمسانية، من صنع ورشاته تزيد عنها طولا وعرضا، وتنقص عنها وزنا بأوقية ونصف أوقية[56].

وكان السلطان أبو الحسن المريني، يكثر من إهداء الأثواب المصنوعة بمدينة تلمسان، إلى أعوانه وجلسائه[57]، وكانت ملابس الطبقة الخاصة فاخرة من الحرير والديباج والقطن والصوف الرفيع، وتخضع في لونها وخفتها وخشونتها إلى فصول السنة[58]، ويشتهر التجار التلمسانيون بلباسهم الجميل وبأناقتهم الفائقة[59] ويتميزون بسخائهم المفرط في هذا المجال[60]ويرتدي الصناع لباسا قصيرا ويتعمهم القليل منهم ويضع البعض الأخر قلانس على رؤوسهم بدون ثنايا، وينتعلون نعالا تعلو إلى نصف الساق وهم أناس بسطاء يتحلون بالأدب، ويتقنون عملهم بمهارة ويصنعون أقمصة وزرابي ناضرة، ومعاطف صغيرة وكبيرة تزن الواحدة منها نحو عشر أواقي[61]، واشتهروا بصناعة الأغطية المزركشة، والألبسة والفضلات الكبيرة من القماش[62].

ويلبس جند تلمسان، لباسا أقل جودة، يضعون على ظهورهم قمصانا من القماش واسعة وعريضة الأكمام يغطونه بكساء كبير، يرتدونه في فصل الشتاء والصيف يصنع من قماش القطن، ويضيفون إليه سترة من الجلد في الشتاء، لتقيهم من شدة البرد والأمطار التي يتميز بها فصل الشتاء في تلمسان، وهذه السترة تشبه القميص[63].

أما الضباط السامون فيضعون فوق القميص كساءا آخر من الجوخ (الملف)، ويجعلون فوقه معطفا، على نمط المعاطف التي كانت تستعمل قديما في إيطاليا، به شاشية يغطون بها رؤوسهم عند نزول المطر[64]، ويتميز الأساتذة والقضاة والأئمة وغيرهم من الموظفين بلباسهم الجميل والحسن، يتناسب ثياب الطلبة مع وضعيتهم المادية والإجتماعية، فالجبلي بلباسه الجبلي والأعرابي بلباسه الأعرابي حسب تعبير حسن الوزان[65].

وكان أبو عبد الله محمد بن مرزوق جد الخطيب، يتجمل في لباسه ويتقشف في أكله رغم غناه، مقتصرا فقط على قوت الذي يحفظ له بنيته وحيوته[66].

وكان يلبس أحسن الثياب، ويفضل اللون الأبيض في فصل الصيف، ويحرص كل الحرص على آرتداء الملاثم التونسية والاحارم[67] حتى قال عنه بعض الفقهاء بأنهم ما رأوا أحسن منه صورة ،ولا أجمل منه هيئة ولا أطيب رائحة، وكان لا يعمم[68] "وكان له وقار" [69] ، وقد اعتاد أن يتصدق على رجال التصوف وأهل الزهد والورع بفضلات من القطن والصوف، وأحارم خشنة في كل سنة[70]وقد تبقى جبة الصوف الواحدة على ظهر صاحبها من الزهاد عدة سنوات[71]، بينما نجد الفقيه العالم أبو اسحاق إبراهيم التنسي مقتصداً في لباسه مقتصراً على أقل ما يمكنه. فكان يلبس المرقعة بين ثيابه وهي عبارة عن جبة صوف سوداء اللون، مبطنةبخرقةسوداءمحشوةبالقطن مرقعة ويضع فوقها برنسا أخضر اللون أو أسود أو غفارة[72]، وكانت له واحدة أخرى زبيبية اللون[73]ويعمم بعمامة أهل افريقية، وكانت هذه العمائم تصنع في مدينة تلمسان، ثم انتقلت صناعتها إلى تونس[74].

أما أبو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق والد الخطيب، فكان لباسه لا يختلف عن لباس والده، بحيث يتأنق فيه ويفضل لبس الجربى والمثنى والرفيع من الصوف التلمساني، وكان أكثر الوان لباسه الأخضر والمسنى[75] والزرعي والهندي، ويتعمم مقلبة ويرتدي الحارز الاسكندراني والأحارم التونسية[76] وكان شديد الاعتزاز بلباسه المحلي التلمساني، الذي كان يظل به طوال اقامته، في الديار المصرية والبلاد الحجازية[77]لعدة سنوات، حتى توفي بمكة سنة 741هـ / 1341م[78].

ويلبس أهل تلمسان الحذاء الذي يعرف بالنعل[79] والقبقات[80] ، والشاشية الأندلسية[81]، ويلبس المتصوف من أهل تلمسان الخرقة وجبة الصوف، كما عرف التلمسانيون لباس القبطية وجمعها قباطي، وهي عبارة عن ثوب أبيض اللون مصنوع من كتان ناعم[82] ، والشقة وهي ثوب رفيع ومستطيل والسروال والبرنوس[83].

وقد تأثر الأعراب من بني هلال، الذين حطوا رحالهم بمدينة تلمسان وضواحيها باللباس التلمساني ومظاهره، فاتخذوا العمائم التلمسانية والبرنوس الزناتي[84]، وكذلك اتخذوا من

البرينسات الصغيرة المعروفة عند أهل تلمسان باسم "الغفارة" لباسا لأطفالهم حتى أحدثوا أزمة برينسات في أسواق تلمسان لشدة الطلب عليها، ولاسيما من قبل قبيلة بني عامر[85]. وكان سكان تلمسان يفرشون الأسرة والحصيرة والحنابل[86]، ويغطون بالتليس والملاحف ويتوسدون المخاد أو الوسائد[87] ويضعون ثيابهم في حقائب أو صناديق تعرف في مدينة تلمسان "بالسبنيات" ، وعند أهل مصر "بالبقشتان" ، كما يذكر ابن مرزوق[88] ، ويحملون الفواكه في سلة أو محفظة[89]، ويضعون الماء في السطل وأواني من الفخار، وقرب الماء[90].

ويلبس النساء في تلمسان، سروايل وقمصانا من قماش القطن، وإزار[91] من حرير للنساء الميسورات الحال، ومن الكتان والصوف لأقلهن غناء، له أكمام تختلف نوعا حسب مكانة المرأة الإجتماعية والمادية، ومن لباسها السفساري الزياني[92] وتشد المرأة وسطها بحزام غالبا ما يكون مصنوعا من الصوف، وتغطي رأسها بالملاثم والأحارم المصنوعة من الحرير أو من الكتان الخفيف والرفيع، وشاشية سلطانية مطرزة بخيط الذهب، وحذاء[93]، وترتدي ضروبا من الثياب مختلفة الألوان والأنواع، سواء من صنع وحياكة اليد التلمسانية، أو من الثياب المستوردة من العالم الاسلامي مغربا ومشرقا وأندلسا، ويلتحفن قميصا أسود واسع الكمين، ويجعلن فوقه خمارا أسود اللون أو أزرق، ويضعن هدبة على أكتافهن من أمام ومن خلف ويحتجبن على الغريب بوضع الخمار عليهن[94].

وكانت المرأة التلمسانية كغيرها من نساء ذلك الوقت، وحتى الوقت الحاضر، ترغب وتتمنى احراز الحجارة الكريمة والألىء، وأنواع الحلي الذهبية والفضية، وتتقلد القلائد والأسورة والخواتم والخلاخل والأقراط وتتزين بها[95].

وإذا كان الرجال يتجملون في الملبس، ولا يبخلون على أنفسهم مما تشتهيه الأنفس، فإن المرأة التلمسانية، أكثر حرصا على جمال مظهرها، وحسن هندامها وأناقتها، والتلمسانيات جميلات كما يذكر مارمول، وزيهن كزى نساء مراكش[96]، وتستعمل المرأة التلمسانية في العهد الزياني، مختلف أدوات الزينة، من الحناء المنقوشة تخضب بها يديها ورجليها. والسواك والكحل والوشم وتتعطر بأنواع المسك، والعنبر وماء الورد وغيره[97].

أما أهل الذمة من النصاري واليهود، فقد كان لهم لباسهم الخاص بهم، يميزهم عن بقية

المسلمين بالمدينة، وقد فرض الموحدون على اليهود - كما أسلفنا - لباسا يتكون من ثياب كحلي اللون أو أزرق بأكمام واسعة وطويلة، وأمرهم بتقلد قلانس تشبه البرادع تصل إلى تحت أذانهم، في نهاية القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، غيّر لهم الناصر الموحدي، لون اللباس من الكحلي إلى اللون الأصفر[98]، وهو الشكل واللون اللذان ظلوا به خلال العهد الزياني.

الأعــيــاد الديــنــيــة:

عيد الفطر :

ظل الإحتفال بعيد الفطر، في مدينة تلمسان في عهد بني زيان امتدادا لما سبق، فقد جرت العادة، على أن يبدأ الاحتفال به منذ أوائل شهر رمضان، الذي يكثر فيه القيام وتتوزع فيه الصدقات، وتتعدد الزيارات بين الاقارب والجيران والأصدقاء، وتزين فيه المساجد والزوايا بالشموع والقناديل، وبأنواع البخور والعود والعنبر، وحتى النصارى واليهود، كانوا يهدون للمساجد بهذه المناسبة، مختلف أنواع الطيب من بخور وعود وعنبر[99]، ويحرص الناس على حضور صلاة التروايح، حتى في وقت القر والقيظ وشدة البرد بالجامع الأعظم بمدينة تلمسان[100]، وخاصة عندما يؤم الصلاة الشيخ الامام أبو العباس الزواوي، الذي كان يتميز عن المقرئين بأداء التلاوة، وحسن الصوت[101].

كما كان سلاطين بني زيان الأوائل، يحرصون على إحضار مصحف عثمان إلى مجالسهم، أثناء ليالي رمضان والتلاوة منه، على عادة الموحدين، ويستصحبونه في كل حركاتهم للقتال تبركا به[102]، وحدد يوم عيد الفطر بانتهاء شهر رمضان ودخول أول يوم من شهر شوال، ويستمر الاحتفال به - فيما يبدو - في أغلب الأقطار الاسلامية ثلاثة أيام، عندما تثبت رؤية الهلال بشهادة الشهود أمام قاضي الجماعة بتلمسان، الذي يعلن بدوره عن حلول عيد الفطر للمسلمين[103].

يدفع الصائمون عن انفسهم، وعن أفراد عائلتهم صدقة "الفطرة"، ليلة العيد أو قبل ذلك بقليل، ويجوز دفعها قبيل صلاة العيد، في أواخر شهر رمضان، لشراء ما يحتاجون إليه، من ملابس ومؤن وصناعة أصناف عديدة من الحلوى والكعك، وشراب الفواكه لتقديمها للزائرين[105].

و كانت صلاة العيد، تقام في الملعب، الذي يقع خارج أسوار المدينة، أمام باب القرمادين، يحضرها المسلمون من مختلف الاعمار والفئات الاجتماعية، يتقدمهم السلطان الزياني، في موكب حافل[106]، ويشترك فيه الحرس والجيش بزيهم المميز، ويخرج الناس لرؤية الموكب، بلباس جديد وقلوب فرحة، ولاسيما الأطفال، مبتهجين بالعيد السعيد وباللباس الجديد، يلعبون ويمرحون باللعب المصنوعة من الخشب وبالصور والدمى، وهو الأمر الذي جعل بعض الفقهاء يتصدون لهذه الظاهرة بتحريم صنعها واللعب بها[107].

و يقوم الناس في صبيحة هذا اليوم بزيارة المقابر، وأضرحة الأولياء الصالحين، مثل ابي مدين الغوث بالعباد، وغيره من الشيوخ والأولياء المدفونين بالقرب من أبواب المدينة[108]، وفي المقابر الخاصة والعامة، وكان التلمسانيون يقومون بختن أطفالهم في السابع والعشرين من رمضان، وكذلك في اليوم السابع من ولادتهم[109].

الإحتفال بموكب الحج:

جرت العادة أن يسبق عيد الأضحى، الإحتفال بالركب المتوجهة إلى البقاع المقدسة بالحجاز، لأداء فريضة الحج، وكان السلاطين الزيانيون وكذلك المرينيون، الذين استولوا على مدينة تلمسان، يعينون في كل سنة ركبا يتوجه إلى الحجاز برئاسة أحد الشيوخ يختاره السلطان من بين رجاله المقربين إليه، والمعترف له بالحكمةو التدين، أو برئاسة أحد أفراد أسرته يحملون معهم مصاحف نسخت بتلمسان، وبعضها نسخ بخط بعض السلاطين أو الأمراء، الذين كانوا يتنافسون في إرسالها إلى البقاع المقدسة، وتحبيسها على القراء في مكة والمدينة وبيت المقدس[110].

كما كانوا لا يتوانون في ارسال المحمل، وهو عبارة عن حمل يحمل الهدايا الثمينة والكسوة، المخصصة لتغطية الكعبة الشريفة[111]ويتهيأ القاصدون للحج في أغلب الأحيان في شهر ربيع الأول، بنداء المنادي بين الناس، ومعلنا لهم بقدوم الموسم، حتى يستعد كل واحد منهم في عقد النية، وتبدأ الوفود تصل إلي عاصمة بني زيان، من الضواحي والأطراف ثم ينطلق منها الحجاج، في موكب رسمي على الجمال والخيل والدواب، يخترقون المدينة، في جوّ من الابتهاج والتهليل

والتكبير، ولا سيما إذا كان الموكب يضم، أحد أفراد العائلة الحاكمة، فيخرج الأهل والأقارب وسكان تلمسان، في بهجة وسرور لتوديعهم[112].

و كان الشيخ أبو زكريا عمر بن جرار، أحد أفراد العائلة الحاكمة بتلمسان، قد ترأس بنفسه الموكب، الذي انطلق من عاصمةبني زيان، في شهر ربيع الأول من سنة 724 / 1324م[113]، وكان أبو العباس أحمد بن مرزوق وابنه الخطيب، ضمن هذا الموكب، وهي الحجة الثانية لهما[114]، التي أقاما فيها مجاورين بمكة والمدينة نحو خمس سنوات.

و لم يغفل ابن مرزوق الخطيب، الاشارة إلى قافلة الحج التي خرج فيها مع والده في المرة الثالثة أيضا، فقد انطلقت هذه القافلة من مدينة تلمسان، في أول فصل الربيع، المصادف لأول محرم من سنة 734 هـ / 1334م[115]، وكانت القافلة تتكون من ثلاثمائة خيمة أو «قيطون» تضم كل خيمة جماعة من المسلمين فضلا عن الفرقة العسكرية، التي تتشكل من مائتين وثمانين فارسا، ومجموعة أخرى من الرماة لحماية القافلة، والذود عنها[116] أثناء الطريق ذهابا وأيابا وإقامة، ويرافقهم ضباطهم إلي مكة المكرمة، والمدينة المنورة وبيت المقدس، ويدفع لهم مقابل ذلك ما لا يكفيهم في هذه المهمة[117].

و يعني هذا أن قافلة الحج التي كانت تنطلق من مدينة تلمسان في العهد الزياني، يزيد عددها عن ألف حاج وحاجة، فضلا عن الجند والرماة، ومن ينظم اليها في الطريق من المدن والقرى التي يمرون بها[118]، وكان الحجاج يأخذون معهم ما يحتاجون إليه من مؤن وملابس، ويفضلون طعاما خفيفا، يعرف عند أهل تلمسان بالفداوش[119]، وعند إفريقية "بالدوداذ" لكونه خفيفا للحمل من جهة، ولمكوثه فترة طويلة من الزمن يحمل في أكياس تعرف بالغرائر.

وكانوا يحملون معهم أيضا، نوعا أخر من الطعام من فصيلة العجائن، يحمل خصائص الفداوش، يعرف "بالمحمصة" [120]،وتميزت السنة التي خرجت فيها هذا القافلة بكثرة الخصب، بحيث لم يستهلك فيها الحجاج، ما أخذوه معهم من مؤن أثناء الطريق، وإنما وجدوا متوفرا ما يحتاجونه من اللحم والدقيق خلال رحلتهم، من باب مدينة تلمسان إلى باب الاسكندرية، ثم القاهرة التي وصلوا إليها في جمادي الآخرة من نفس السنة 734/ 1334م)[121]، أي بعد رحلة دامت ستة أشهر كاملة ولم تتعرض هذه القافلة كما يشير ابن مرزوق، إلى ما كانت تتعرض له

أحيانـا، من مخاطر الطبيعـة، كالحر والجفاف ونقص الماء والمؤونـة، ونجت من أيـدي اللصوص وقطاع الطـرق، والأمراض والطـواعين والغلاء ومـوت الدواب، طـوال الرحلـة البرية التـي مرت ببجايـة وتونـس فطرابلس وبـرقة، وكـانت هـذه المنطقة الأخيرة من أخطـر المناطـق على الحجاج (طرابلس ـ برقية) ومنها إلى الإسكندرية والقاهرة، والخليل وبيت المقدس فالعقبة الكبرى، حيث يتقاطع طريق الشام بطريق مصر، ثم المدينة المنورة ومكة المكرمة [122].

وكانت قافلة الحج، تجمع بين الخشوع الدينـي والمظهر الاحتفالي، تحمل معها رايات تدل على مقاصدها، تظهرهـا عندما تصل إلى قرية أو مدينة، وكـان الحاج في المجتمع التلمساني، يكسب وجاهة اجتماعية وسلطة روحية وأبوية، ويلقـب بالحاج كما كان أبناء ابن مرزوق العجيسي يدعون بأبناء الحاج [123].

ويتعاطى أغلـب الحجاج التجارة، أثناء الرحلة والـواقع أن قافلة الحج، كانـت حسب بعض التقديـرات تعد في بلاد المغرب مـن أهم القوافل التجـارية على الاطلاق، وإن التجارة في مـوسم الحج تعوض تجارها عناء السفر والمشقة بارباح هامة [124]، بحيث كانوا يحملون معهم من الحجاز سلعا تبـاع في بلاد المغـرب، بأثمان عـالية مثـل: العقيق واللـك، الفلفل والعـود والمسك ونحـو ذلك [125].

عيد الأضحى:

يحتفل أهل تلمسـان، مثل غيرهم من المسلمين، بعيد الأضحى في العاشرة من ذي الحجة، من كل سنة ولا تختلف مظاهره عن عيد الفطر إلا فيما يتعلق بالأضحية، فكان الناس يتزينون باللباس الجديـد، في الصباح ثـم يتوجهـون إلى المصلى [126]، لأداء صـلاة العيد، في جـو يسوده الخشـوع والتكبير والتهليل والفرحة تكسو وجوه الكبار والصغار.

وكان السلطـان الزياني مع المتصـدرين للصلاة خلـف الإمـام، وعنـد عودتـه إلى قصره، يمر بأزقة المدينة وساحـاتها، في حفل بهيج، حيث كان يتقدم الموكب، بملابسـه السلطانية الفاخرة، محفوفا بوزرائه ومساعـديه، وحراسه الذين يحملون الأعلام والعـلامات والطبول، فيخرج السكان رجالا ونسـاء وأطفـالا، لمشاهـدة موكـب السلطان والتمتع بـرؤيته [127]، ورؤية الأضحيـة التي

ذبحـــهـا بيـــده إعلانــا ببدء النحــر، ثــم يجلس السلطــان في دار الملك ، لاستقبــال المهنئين بهذه المنـاسـبـة .

وقد وصـف لنا الرحالـة المصري عبد الباسط ، الـذي حضر الإحتفال بعيد الأضحى في مـدينة تلمسان ، يـوم الأحد عـاشر ذي الحجة سنـة 868/ 1463م ، مظاهـر هذا الاحتفال وصفـا دقيقا ومتعجبا في الـوقت نفسه من هـذه المظاهر، التـي ألفها أهل تلمســان وحكامها ، وهي مظـاهر لم يتعود عليها عبد الباسط في بلاده ولم يشهدها من قبل ، بقولة : " . . . كان عيد النحر بتلمسان ، فخرجنا للمصلى بظاهرها ، وحضر السلطان محمد بن أبي ثابت (866 هـ ـ 873/ 1462 ـ 1468) ، صاحـب تلمسان ، صلاة العيـد في هذا اليوم بعـد أن خرج في موكـب حافل ، حين تعـالى النهار جدا ، ثـم صلى ونحر أضحيته كبشا أملحاً ، في المصلى بعد فـراغه من الصلاة ، وشهّر هذا الكبش محمولا على بغل ، مع رجل يعدّ لذلك ، فشق به المدينة لأجل أن يتيقن بتضحية الإمام ، على قاعدة مذهـب مالك (رضي اللـه عنه) ، وكان هـذا الرجل لما ســار بهذه الذبيحة الأضحيــة ، مجدا ببغله فيها ، محثا في ذلك ، ولم أكـن أعرف ذلك ، قبل هذا التاريـخ ، فسألت فأجابوني ، بـأنه من عادة ملوك هذه البلاد ، ثم عاد السلطان إلى المدينة في موكبه الحافل "[128].

كما كان أهـل تلمسان وسلاطينهـا ، يحتفلون بيوم عـاشوراء صومـا ، وزكاة ، ويقومـون بختان الأطفال اليتامى وكسوتهم وإطعامهم[129].

ظاهرة الإحتفال بالمولد النبوي الشريف:

بدأت ظاهرة الإحتفال بالمولد النبوي الشريف ، في عهد الدولة الفاطمية منذ عهد الخلفية المعز لديـن الله الفـاطمي بمصر (341 ـ 365 هـ / 953 ـ 975م) ، الـذي سن للمجتمـع المصري الاحتفال بستة مواليد هي :

ـ مولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، في الثاني عشر من شهر ربيع الأول .

مواليد آل البيت عليهم السلام .

أ ـ علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ب ـ الحسن بن علي .

جـ ـ الحسين بن علي .

د ـ فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم .

هـ ـ مولد الخليفة الفاطمي الحاضر [130].

كما عرف أهل مكة الاحتفال بهذه المناسبة، خلال القرن السادس الهجري الموافق للثاني الميلادي، فقد كانت مراسيم الاحتفال بمسقط رأس الرسول صلى الله عليه سلم، تبدأ في شهر ربيع الأول ويوم الاثنين منه [131].

وفي أوائل القرن السابع الهجري الثالث عشر الملادي، صار يوم مولد النبي محمد صلى الله عليه سلم، يوم عطلة للناس جميعا بمكة، تفتح فيه الكعبة ليزورها الناس [132]. وكان أمير أربل من أعمال الموصل التابعة للدولة الأيوبية، الملك المعظم مظفر الدين (تـ 630 هـ / 1232)، صهر صلاح الدين الأيوبي (564ـ 569/ 1169ـ 1174)، يعتني بيوم مولد النبي ﷺ أيما اعتناء، ويقيم له أعظم الاحتفال حتى صار مضرب الأمثال، في العظمة والجلال. بحيث يعي الوصف [133]، وإذا كانت الدولة الفاطمية هي أول من سن هذه المناسبة في بلاد المشرق، فان أبا سعيد بن علي كوكيوري، الملك المعظم، صاحب أربل، هو الذي عظم الاحتفال بالمولد النبوي [134].

أما في بلاد المغرب، والأندلس فقد كان أول من تنبه إلى الاحتفال به، هم بنو العزفي أصحاب مدينة سبتة [135]. في أواخر القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، على نحو ما ظهر تقريبا في نفس الفترة، بمدينة " أربل " [136].

كان أبو العباس أحمد بن القاضي، محمد بن أحمد اللخمي العزفي السبتي (تـ 633 هـ / 1235م)[137]. هو الذي دعا إلى الاحتفال بالمولد البنوي، في مدينة سبتة، بالمغرب الأقصى، وألف كتابا لهذا الغرض، عنوانه " الدر المنظم في مولد النبي المعظم " [138].

وبمجيء الحكم المريني، شهدت هذه المناسبة تطورا ملحوظا، لما كانت تلقاه من عناية خاصة، وكبير أهتمام، وأول من احتفل بـه من بني مرين يعقوب بن عبد الحق (656ـ 685/ 1258 ـ 1286)، وظلت هذه الظاهرة حتى شملت جميع أقاليم المغرب الأقصى، في عهد

السلطان يوسف بن يعقوب (685-706 هـ/ 1286-1308)، الذي لم يتوان في تعميمها والدعوة إلى تعظيمها. وأصدر بذلك مرسوما سلطانيا في أخر صفر سنة 691 هـ/ 1292م، بجعل المولد من الأعياد الرسمية، عندما كان في قلعة صبرة من إقليم الريف المغربي [140]، بإشارة من الفقيه أبي طالب بن عبد الله بن القاسم الغزفي، وبالتالي أصبح اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، عيدا رسميا عاما بالمغرب الأقصى [141].

وفي عهد السلطان المريني إبي الحسن (731 ـ 749 ـ 1331 1348)، صارت الدولة تتحمل نفقات الاحتفال بهذه الليلة، ضمن المراسيم التي تقيمها الدولة، وقد أشار ابن مرزوق الخطيب بجهوده في هذا الجانب [142]، ولم تزل هذه السيرة مستمرة بحيث زاد في محاسنها أبو عنان (749-759/ 1348-1358)، وكساها أبو سالم حلة وجمالا، وأضفى عليهاأبو فارس أبهة وعظمة [144]، ثم اقتدى بنو حفص، في الديار التونسية، بهذا الاحتفال في عهد أبي يحي بن أبي بكر (718-747 هـ/ 1318-1347)، حسب صاحب المرقبة العليا [145]. غير أن هذا الاحتفال ـ فيما يبدو ـ لم ينتظم في تونس، بصفة رسمية، إلا في عهد أبي فارس عبد العزيز (796-837 هـ/ 1394-1433) في أول المائة الثامنة [146]. صارت بذلك من السنن التي أعتاد عليها عامة الناس، يستعدون لها في كل سنة أحسن استعداد.

وقد ظهر هذا الاحتفال في الأندلس، على أيام السلطان، أبي الحجاج يوسف الأول (733 هـ-755 هـ/ 1333 ـ 1354)، وقد تلقى بهذه المناسبة قصيدة شعرية، نظمها لسان الدين بن الخطيب [147]، وطور إبنه محمد الخامس، الغني بالله، (755ـ 760/ 1354 ـ 1359) الاحتفال بيوم المولد، اقتداء بملوك المغرب [148].

أما الدولة الزيانية، بالمغرب الأوسط، فقد عرفت الاحتفال بهذه المناسبة، في وقت متأخر عن جيرانها، وذلك وفق ما تشير اليه معظم المصادر، التي تجمع على أن تاريخ شيوع الأحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف في تلمسان، بدأ مع تولي أبي حمو موسى الثاني، مقاليد الحكم سنة 760 هـ/ 1359م [149].

إلا أن السؤال المحير هو لماذا تخلف المجتمع التلمساني عن غيره، من مجتمعات عواصم الأقطار المغربية وحواضرها، عن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف أكثر من نصف قرن من الزمن؟

بالرغـم من قرب عاصمة بني زيـان من مدينة فاس، ومحاداة المغرب الأوسـط للمغرب الأقصى، بحيث انتشرت هذه الظاهرة في بلاد الأندلس، والديار التونسية، قبل انتشارها في المغرب الأوسط الذي لا توجد بينه وبين المغرب الأقصـى، عوائق طبيعية تحول دون الانتقال البشري والحضاري، والانتشار الثقافي، بين البلدين.

والجواب عن هذا السؤال، ليس سهلا، لانعدام الوثائق والمصادر في هذا الشأن، وإنما يمكن استنباط ذلك، من خلال طبيعة الأحداث، التي في المنطقة، بحيث تشير بطريق غير مباشر، إلى أن أهل تلمسـان يكونون قد عـرفوا هذه العـادة المستحبة، بعد الغـزوات التي تعرضت لها مـدينة تلمسان، والمغرب الأوسط، مـن قبل بني حفص، وبني مريـن، ولاسيما في عهد السلطان المريني يوسف بن يعقوب، الذي أصدر مـرسوما حكوميا سنة 691 هـ / 1292م. يتضمن تعميم هذه الظاهرة، في المناطق التي تخضع إلى نفوذه[150].

وقد استطـاع هذا السلطـان أن يستولي، على معظم أقـاليم المغـرب الأوسط، ويحاصر مـدينة تلمسان نحو تسع سنوات، في نـهـايـة القـرن السـابع الهجري، وأن يشيد مدينة المنصورة بالقرب من مـدينة تلمسان، التـي لا تبعد عنهـا إلا بأربع كلـومترات فقط [151]. واستقر بها طـوال مدة الحـصـار.

ولا شك أن سكـان هذه المدينة، أصبحـوا يحيون ذكرى المولـد النبوي الشريـف، وكـان الفقيه الامام أبو الحسن التنسي، رسولا لبني زيان، وأهـل تلمسان ومبعوثا لهم في هذه الفترة، للتفاوض مـع العاهـل المرينـي يـوسف بـن يعقـوب، بشأن الحصـار الـذي تعرضـت لـه مـدينة تلمسـان وأهلها[152]، وقد حضر الاحتفال بهذه الـذكرى بمدينة المنصـورة إلى جانب العاهـل المريني، وفي هذا الصدد يقول إبـن مرزوق: "فلما استقر أبو الحسن التنسي، عند السلطـان أبي يعقوب بنا على المقام، بما ظهر له من حال القـوم، وكان ذلك في شهر صفر (698/ 1298) فبحث أهل تلمسان عنه، فأجابهم السلطـان بأنه حتى يحضر المولد عنده، وهـو أول ملك قام بالمغرب، بإقـامة المولد الشريـف، فلما انقضى سابع المولد، بعث الفقيه كتابا لتلمسان يعرفهم بأنه على المقام" [153].

وكان الفقيه أبو الحسن التنسي، قد ترك عائلته وجميع كتبه وأسبابه بمدينة تلمسان عند خروجه للقاء يوسف بـن يعقوب فتمسك أهل المدينة، بجميع ذلك، ولم يسمحوا لعـائلته بالخروج اليه،

إلى أن ظفر العاهل المريني، بالعباس بن يغمراسن الزياني، وبنيه وهو أخو السلطان أبي سعيد، ففادى به عائلة التنسي وجميع متاعه(154).

يتضح مما سبق، أن بني مرين كانوا يقيمون الاحتفال بالمولد النبوي، حتى في أيام غزواتهم وحروبهم، وأن يوسف بن يعقوب هو أول من أحتفل باليوم السابع للمولد، وليس السلطان أبا سعيد الأول (710 ـ 731 ـ 1310 ـ 1331)، وأبا الحسن (731 ـ 749/ 1331 ـ 1348)، كما ذهب اليه بعض الباحثين (155).

وكان السلطان أبو الحسن المريني، الذي لازمه بن مرزوق التلمساني مابين سنتي (738 ـ 749هـ/ 1338 ـ 1348)، يقيم الاحتفال سفرا، وحضرا ولا يشغله عن إقامته شاغل، لدرجة أنه كان يعاقب كل من يتخلف عن الاحتفال، في أي مكان كان به. وأنه احتل مدينة تلمسان مدة تزيد عن اثنتي عشر سنة، كان يقيم بها حينا، وبمنصورته التي أعاد بناءها من جديد أحيانا أخرى(156). ولاشك أن مدينة المنصورة، الجديدة التي صارت مقر حكمه وحاشيته، قد عرفت ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، كما كانت في عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني، وبالتالي يكون أهل تلمسان قد عرفوا هذه الذكرى، إلا أنها لم تكن منتظمة في المجتمع التلمساني لسببين أساسيين في رأينا:

أولهما: لم يتبن سلاطين بني زيان هذه الظاهرة، ولم يجعلوا من ذكرى الاحتفال بالمولد عادة رسمية، ولاسيما الأوائل منهم، بل لم يهتموا بها، مثل اهتمام بني مرين وبني حفص.

ثانيهما: لعل العامل الأهم والأقوى، الذي جعل الاحتفال بالمولد يتأخر بمدينة تلمسان، عن مدينتي "سبتة" "وفاس" هو ذلك الأختلاف الذي نشب بين فقهاء السنة حول هذه الظاهرة، وحول جوازها، وهل هي بدعة مستحبة أم مستهجنة، فالذين يعملون برأي مالك رضي الله عنه، يعدون هذه الاحتفالات بدعة مذمومة (157). ومن المعلوم أن المذهب الغالب عند سكان مدينة تلمسان هو المذهب المالكي، ولهذا لم يتجرأ الناس وَلاَ الحكام على تبني هذه قبل عهد أبي حمو موسى الثاني، الذي عاش في الأندلس وفي مدينتي: "فاس" و"تونس" وشاهد الاحتفالات الشعبية والرسمية بهما في هذه المناسبة (158).

أسباب الاحتفال بالمولد:

ارتبط هذا الاحتفال بأسباب ودوافع قوية، وظروف مهدته لظهوره، في المجتمع المغربي الاسلامي، بسبب الصراع العسكري والروحي القوي، بين المسلمين والإسبان في الأندلس، ولا سيما بعد هزيمة المسلمين في معركة "العقاب"، في نهاية العقد الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي.

ومنذ ذلك التاريخ، أخذت المدن الاسلامية في الأندلس، تتساقط في يد العدو الواحدة تلو الأخرى، وبالتالي أزدادت الرقعة المسيحية اتساعا، وازدادت معها مخاوف المسلمين على مصيرهم ودينهم، وأصيبت نفسيات الكثير منهم بالإحباط وبعدم الثقة بالنفس، واهتز كيانهم وعنفوانهم الروحي، بسبب النكبات والانكسارات المتتالية، والهزات الروحية التي أصيبو بها في العمق [159].

وتحت هذا الإحساس بالضعف، تولد لدى المسلمين في الأندلس الشعور بالتقليد تحت تأثير الغالب، حتى صاروا مهددين في قيمهم ودينهم بالمسخ، والدوبان في المجتمع المسيحي، بحيث أصبحوا يقلدون النصاري في لباسهم ومأكلهم، وطرق حياتهم ومعيشتهم، والإهتمام بأعيادهم حتى وجدوا أنفسهم يمارسون شعائر وطقوسا بعيدة عنهم، مثل الاحتفالات بيوم ميلاد المسيح عليه السلام [160].

وقد امتدت هذه الظاهرة إلى سكان مدينة سبتة القريبة من الشواطىء الأندلسية [161]، حتى أن الشهور الشمسية ومايتبعها من أعياد ومناسبات) أخذت تطغى على الشهور القمرية، وبذلك لاحظ العلماء وأهل الغيرة على الدين، ان اندماج المجموعة الاسلامية، في المجموعة المسيحية آخذ في الطريق [162]، وقد تفطن لذلك أبو القاسم بن أبي العباس العزفي فاستهل كتابه المذكور بمقدمة ساخرة استنكر فيها الأوضاع، التي آل اليها المسلمون، ورفض تلاعبهم بالقيم، واستخفافهم بالدين، واستهواءهم للبدع بقوله: "وإن تعجب أيها الناصح لنفسه، فعجب من أحصائهم لتواريخهم والإعتناء بمواقيتها فكثيرا ما يتساءلون عن ميلاد عيسى - على نبينا عليه السلام - وعن ينّير سابع ولادته وعن العنصرة ميلاد يحي - على نبينا عليه السلام - وما أعانهم التوفيق، ولا القرين المرشد ولا الرفيق، وأن يكون سؤالهم عن ميلاد نبيهم محمد صلى الله عليه سلم، خيرة الله من

خلقه، وذلك من شكر نعم الله به عليها، بعض واجبه، وحقه هاديهم من ضلالتهم، ومرشدهم من غيرهم العزيز، عليه عنتهم، الحريص على هداهم الشديد، عليه ضلالتهم وفتنتهم " (163).

ويضيف العزفي، مفصلا القول عما كان يقام من مراسيم واحتفالات، وأضافوا للتحفى عنها (عن تواريخ السنة المسيحية) بالسؤال والمحافظة عليها ولاقبال، من بدع وشنع ابتدعوها، وسنن واضحة أضاعوها بموائد نصبوها، لأبنائهم ونسائهم وصنعوها وتخيروا فيها أصناف الفواكه وأنواع الطرق وجمعوها، وتهادوا فيها بالتحف التي انتخبوها، والمدائن التي صوروا فيها الصور، واخترعوها، ونصب ذو اليسار نصبات (164)، في الديار كما نصب أهل الحوانيت فتضدوها، فقوم أباحوا أكلها ليعالهم وقوم منعوها، وجلوها كالعروس لا تغلق دونها الأبواب، وفي منصتها رفعوها وبعضهم أكل من أطرافها ثم باعوها " (165).

ثم يسترسل في وصفه عما كان يعمل من تماثيل الحلوى وأصناف الفواكه، وثمن تكاليفها، ووزنها فيقول: " ولقد ذكر لنا غير واحد من المسافرين، أن النصبه ببعض بلاد الأندلس - جبرها الله وأمنها - بلغ ثمنها سبعين دينارا، أو يزيد على السبعين، لما فيها من قناطير السكار وأرباع الفانيد وأنواع الفواكه، ومن غرا ئر التمر وأعدال الزبيب والتين، على اختلاف أنواعها، وأصنافها وألوانها، وضروب ذوات القشور من الجوز واللوز والجلوز (166)، والقسطل، والصنوبر والبلوط التي تصب السكار (167)، وروائح الأترج، والنارنج والليم، وفي بعض البلاد طاجن من مالح الحيتان، ينفقون فيه ثناتين درهما إلى نحوها (168). فهذه أفعالنا فهل منا من تايب الآثم لنفسه، معاتب وكان هذا في ينير، ثم صنعوا نحوا منه في العنصرة، وفي الميلاد، فكيف ينشأ عن هذه الفتنة، إلا مصر عليها، مائل اليها من الأولاد، وربما جعلوا جمارة (169)، تحت أسرتهم تفاؤلا وإمارة، ليكونوا في عامهم ذلك أكسى من الجمارة، فهل سمعتم يا أولى الألباب، فأعجب من هذا العجاب. طاعة ذوي النهي، والإحلال من الرجال، إلى الولدان وربات الحجال، وأرى أنه ماجر على أهل الأندلس، هذا الأجوار النصاري - دمرهم الله من جيرانهم - ومخالطتهم، لتجارتهم ومكاشفتهم، عند الكينونة في أسارهم. ولذلك حذرنا من تراءى النيران، قال النبي ﷺ، إني

بريء من كل مسلم مع مشرك، تراءى نارهما، وماسرى ذلك في هذه العـدوة، إلا بالأتبـاع لـهـم والقدوة، وماعر، عن ذلك البر إلى هذا البر بدعة أشنع منها ولاأمر. . " (170).

يتضح مما سبق أن العـزفي صرخ صرخة احتجـاج، ضد مـاكان يجري في المجتمـع الاسلامـي الأندلسي، ووضح فيها الأسبـاب التي جعلته يدعو إلى الاحتفال بالمولـد النبوي الشريـف، وانقاذ المسلمين من البدع التي صـاروا عليها لإختلاطهم بالنصاري، وربـط النـاس بمعتقداتهم وقيمهم الاسـلامية السليمـة، وقـد شجع على هـذه البـدع كما يشير العزفي تقصير العلماء وتخاذل الأمـراء والسلاطين، في تأدية الواجب وتطبيق الشرع، ومحاربة البدع بقوله: "وأدركت الحكام قد قسمهم الـزمان بقسمين وحـلاهم بـوسمين، إما أمـر بـالمعروف بغير عـزيمة، فقضـى على جيش البـدع بالهزيمة، وإما مغمور بجاهه وولايته معرض عن تفهم قوانين الإسلام ورعايته" (171).

وقد دفعه هذا إلى أن يفكر فيما ينشغل به المسلمين عن هذه البدع النصرانية، ويقضي على هذه المنـاكر، فـأمر مبـاح، فـوقع في نفســه على أن ينبه النـاس، إلى الإعتنـاء بالمولـد النبوي الشريـف والإحتفال به (172).

فكـر في النشيء وتعـويـدهـم على ذلك، فـأخـذ يطـوف بالكتـاتيـب بمـدينة سبتـة، يشرح لتلاميـذها، معنـى هذا الإحتفال ويعـرفهم بمغـزاه، فيضطر هؤلاء الصبيـان إلى ذكر ذلـك أمام أوليائهـم، ثم دعا إلى تعطيل القـراءة يوم المولد، فانتشر هـذا الاحتفال بين الناس، وقاوم بـذلك التقليد المسيحي، الذي كاد أن يطمس الشخصية الإسلامية الأندلسية (173).

مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي في تلمسان:

اكتسى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، بمدينـة تلمسان في عهد ابي حمو موسى الثاني، حلة جميلة وطابعا شعبيا ورسميا، منذ توليه العرش الزياني، سنة 760هـ/ 1359م.

تميز الاحتفـال في عهده، بـايقاد الشموع الملـونة وتـوزيع مـاء الزهر ومـاء الورد، كما تـوزع فيه الصلات الكثيرة والهدايا المتنوعـة، تؤدي الديون عن المسجونين وكـذا عن الاموات (174)، فعندما انتصر هذا السلطان على بنـي مرين، اعاد آحياء دولـة الاجداد بالمغرب الاوسـط، صادف حلول

ذكرى المولـد الشريف، فلم يتـوان في انتهاز الفرصـة، للاحتفال بـه، واقام بهذه المناسبـة، حفلا كبيرا، وجعل هذا اليـوم من الأعياد الرسميـة للدولة، وخصه بعنـابة فائقة دون غيرهـا، وفي ذلك يقول التنسي: "وكان يقوم بحق ليلة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويحتفل بها بما هو فوق سائر المراسيم" (175) وكان السلطـان الزياني، يـدعو كافـة الناس، خاصتهـم وعامتهم، بحضـور هذا الاحتفال، وينقـل يحي بن خلـدون جانبـا من احتفال السلطـان في مجلسه في ليلـة المولد بقـوله: " فاقام لها بمشور داره العليا عرسا حافلة، احتشدت لها الأمم، وحشر بها الاشراف والسوقة " (176) وحشد لها امكـانيات مـادية وأدبيـة هامـة، فما شئت مـن نمارق مصفوفـة وزرابي مبثوثـة، وبسط موشـاة، ووسائد مغشـاة بالـذهب (177)، ومشامـع كالاسطـوانات، قـائمة على مـراكز الصفـر المموهـة(178).

وكان السلطان يتصدر المجلس، جالسا على سريـره، الذي يسر الناظرين، في أبهة وإجلال، ثم تليـه أعيان المدينة من مختلـف الشرائح الاجتماعية، من أمراء ووزراء ووجهـاء وعلماء وشعراء، وموظفين ونقباء الحرف المتبـاينة (179)، ومن عـامة الناس، أجلسهـم على مقـاعد حسب مـراتبهم الإجتماعية، وخصـص لهم ولدانـا، تطوف عليهـم، يرتدون لبـاسا مـن الحرير الملـون، ويحملون بأيدهـم مباخر ومرشات، يخرج منها دخان العنبر، وماء الورد المجلوب من نصيبين (180).

وبعد تقديم أنواع الأطعمة للحاضرين، يـأتي دور الانشاد حيث يعم المجلس الهدوء والوقار، فيتقدم المنشد بامداح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويستهل ذلك بقصيدة من نظم السلطان ابي حمو موسى الثاني، في مدح مولد المصطفى (181).

ثم يـأتي دور انشاء القصـائد والتباري بها في مجلس السلطـان بهذه المناسبـة الكريمـة، نظمها شعراء تلمسـان وأدباؤهـا (182) وتستمـر قراءة القصـائد الى أخـر الليل، حيـث يـؤتـى باصنـاف الاطعمة، التـي "تشتهيهاالأنفس وستحسنها الأعين، وتلـذ بسماع اساميها الـأذان حسب تعبير التنسي» (183)، الى أن يلـج الصبـاح، فيؤدي السلطـان الصـلاة بـالمجلس ثـم يقـوم الحاضرون، فينصرفون الى منازلهم (184)، وفي هذا الصدد يقول يحي بن خلدون: وجيء في آخر الليل، بالخرس الشهي الملاذ الحافل الملامح والمشـام المتعـدد الخوانـات (185) مما أرحبت سـاحته، وخيرت برودة وناء بالقصبـة أولى القـوة محملـة، ثم الفواكـه فالحلواء، وطعم الناس بين يـدي الخلفية، وشكروا

الله سبحانه وتعالى ولم يبرح مكانه، حتى صلى صلاة الصبح في الجماعة، ثم غذا داره السعيدة "[186].

وقد صنع أبو الحسن على بن احمد المعروف بابن الفحام ألة المنجانة "[187] ذات الشكل الغريب، وهي عبارة عن ساعة وظيفتها الاعلان عن الساعات المنقضية، من ليلة المولد يحضرها السلطان إلى مجلسه، وقد خلد المؤرخ يحي بن خلدون، هذه الساعة بقصيدة بين يدي السلطان ابي حمو موسى الثاني، على لسان جارية المنجانة للاخبار عما انقضى، من تلك الليلة وهذه أبيات قالها بعد الساعة الخامسة: (مجزوء الرمل)

يا أمير المسلمينا	وجمال العالمينا
والذي حاز المعالي	كلها دنيا ودينا
قد مضت لليل خمس	حسنها راق لعيونا
وانقضى النصف فأه	هكذا تمضي السنونا
ومت في عز وسعد	خالد الملك مكينا [188]

اما المنجانة فقد وصفها يحي بن خلدون وصفا دقيقا بقوله: "اما المنجانة، ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه باعلاها أيكة [189]، تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه وبخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بجدر الأيكة صعدا، ويصدرها أبواب موجفة، عدد ساعات الليل الزمانية، يصاقب طرفيها، بابان موجفان أطول من الأولى وأعرض فوق جميعها، ودون رأس الخزانة، قمر أكمل، يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج، فينقض من البابين الكبيرين عقابان بغي كل واحد منهما صنجة [190] صفر، يلقيها الى طست [191] من الصفر مجوف بواسطة ثقب يفضي بها، الى داخل الخزانة، فيرن وينهش الأرقم، احد الفرخين فيصفر له أبوه، فهنالك بفتح باب الساعة الراهنة، وتبرز منه جارية محتزمة كأطراف ما أنت راء بيمناها اذ بارة فيها، اسم ساعتها منظوما ويسراها موضوعة، على فيها كالمبايعة بالخلافة لأمير المؤمنين أيده الله " [192].

إن هذا الوصف الدقيق، بجزئيات هذه الساعة العجيبة ووظيفتها وما تقوم به من حركات، عند مضى كل ساعة، يدل على تطور صناعة الميكانيك في تلمسان، وتعد من الاختراعات الهامة

التي أبدعها العالم التلمساني ليلة المولد النبوي الشريف، التي أصبح المجتمع التلمساني يحتفل بها سنويا.

فبهذه الطريقة كان السلطان أبو حمو الثاني، يحتفل بذكري المولد النبوي، وصارت عادة مستحبة لذي سلاطين بني زيان، الذين جاؤوا من بعده ولدى المجتمع التلمساني الذي صار يبالغ في الاحتفال به، وقد أوصى أبو حمو الثاني ابنه أبا تاشفين الثاني باتباع أثاره في هذه المناسبة بقوله: "يابني عليك باقامة شعائر الله عز وجل، وابتهل اليه في مواسم الخير وتوسل واتبع أثارها في القيام بليلة مولد النبي عليه السلام، واستعد لها بما تستطيع من الانفاق العام، واجعله سنة مؤكدة في كل عام تواسي في تلك الليلة الفقراء وتعطي الشعراء، وان ركبت فيك الغريزة الشعرية، وتحليت بالحلية الادبية زادت جمالا الى جمالك، كمالا الى كمالك، فانظم المولديات"[193].

فعمل أبو تاشفين بنصائح والده، و نسج هذه العادة على نسج أبيه[194]، و زاد عليه احتفال آخر بليلة السابع للمولد، في ذلك يقول التنسي: "و لما كانت ليلة سابع المولد المذكور احتفل لها أعلى الله مقامه بمثل احتفاله لليلة المولد أو اعظم"[195].

و ظل سلاطين بني زيان، يرعون هذا الاحتفال، وتذكر المصادر أن أبا زيان محمد ابن ابي حمو(796هـ/ 801م/ 1394 - 1399). كان يحتفل بهذا اليوم المبارك، احتفال اسلافه الى الصباح ترفع اليه القصائد و المدائح بهذه المناسبة[196].

و من مظاهر الاحتفال بالمولد عند اهل تلمسان، الذين كانوا يوقدون الشموع و البخور في منازلهم، وكذلك في المساجد و الزوايا و يتلقى طلاب المدارس المنح و الهبات، التي يقدمون جزءا منها الى اساتذتهم في هذا اليوم المبارك، و تصدي بعض فقهاء تلمسان الى ظاهرة اشعال الشموع ليلة المولد و يوم سابعه، و اعتبروها بدعة و على رأسهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن مرزوق الحفيد، الذي استطاع ان يبطلها في مدينة تلمسان طوال حياته و لكنها عادت من جديد، الى أوساط المجتمع التلمساني بعد وفاته و بصورة اكثر و بكثافة اشد[197].

و هكذا يتضح أن ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بمدينة تلمسان، وفي غيرها من مدن وحواضر بلاد المغرب، لقيت منذ نشأتها رواجا كبيرا لدى المسلمين في المغرب الاوسط، على

المستويين الرسمي و الشعبي لحاجة الناس - فيما يبدو - الى مثل هذه الذكري، في وقت زاد فيه المد الصليبي على الاندلس و بلاد المغرب، و ظهر فيه الغزو الثقافي الغربي - ان صح التعبير - على دار الاسلام، لا سيما منها الاعياد الدينية المسيحية، وهذا ما جعل اهل المغرب عامة واهل تلمسان على وجه الخصوص يعظمونها ويجلونها، ويحتلفون بها في كل مناسبة لاعادة الاعتبار، الى رموز ديننا الحنيف وخاصة في القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين [198].

ومن الطبيعي أن تنعكس هذه الاحتفالات، على الشعر والادب في مدينة تلمسان، لما تحمله من اهمية، فاستجاب لها الشعراء وحرصوا على تدوينها في اشعارهم ومدائحهم، والتباري بها في ليلة المولد وسابعه امام مجالس السلاطين، حتى للبلاط الزياني خصوصية مميزة في الاعتناء بهذه المناسبة والاحتفال بها، باضفاء عليه هالة من الاكبار والاجلال [199].

وقد صارت هذه الليلة فرصة لقرض الشعر ونظمه والتباري به، على نطاق واسع وقد عبر عن ذلك، الرحالة الجزائري، ابن عمار بقوله: "وقد جرت عادة اهل بلادنا الجزائر - حرسها الله - من الفتن وحاطها من الدوائر - انه اذا دخل شهر ربيع الاول، انبرى من ادبائها وشعرائها من اليه الاشارة وعليه المعول الى نظم القصائد والمديحيات والموشحات النبويات، تعظيما لهذا الموسم، الذي شرف به الاسلام، احتفالا بمولده عليه، الصلاة والسلام" [200].

الاحتفالات المدنية والاستعراضات العسكرية:

وهناك احتفالات أخرى عرفتها مدينة تلمسان، تتسم بالطابع المدني للترفيه عن النفس والتسلية، اذ لم ينس المجتمع التلمساني دنياه، ولم يغفل نصيبه من الدنيا برغم قيامه بواجباته الدينية وحسن احتفاله بمناسباتها، بحيث لم تكن حياته كلها زهدا وتصوفا وتقشفا، فالمنتزهات والبساتين العديدة، والملاعب المتنوعة التي تحيط بعاصمة بني زيان، ساعدت على ذلك، فكان سكان المدينة يخرجون كل عشية، الى ملعب الخيل، بظاهر المدينة، لمشاهدة سباق الخيل ومبارزة الفرسان، ويتجولون في البساتين ويتمتعون بمناظرها الخلابة [201].

وكان للسلطان ابي تاشفين الاول (718-737/ 1318 -1337)، شجرة مصنوعة من الفضة، يحضرها في الاحتفالات ليشاهدها الناس، وقد وصفها التنسي بقوله: "وكانت عنده شجرة من

فضة، على أغصانها، جميع أصناف الطيور الناطقة، وأعلاها صقر، فاذا استعمل المنفاخ في اصل الشجرة، وبلغ الريح مواضع الطيور صوتت بمنطقها المعلوم، لمشابهها فاذا وصل الريح موضع الصقر صوت فانقطع صوت تلك الطيور كلها" [202].

وكان سلاطين بني زيان وأمراؤهم، يحتفلون باستعراض الجيش في كثير من المناسبات، ويتفقدون عدته، وقدرته القتالية بملعب المدينة ويحضر الناس هذا الاستعراض، الى جانب السلطان وحاشيته، وقد نجا يغمراسن من محاولة اغتيال، قام بها الجند النصارى في إحدى هذه الاستعراضات سنة 652م [203].

وفي السنة 767 هـ / 1366م أحتفل أبو حمو موسى الثاني باستعراض ضخم لجيشه حضره سكان مدينة تلمسان، الى جانب سلطانهم، في حفل بهيج، وقد وصفه يحي بن خلدون وصفا دقيقا، بقوله: "صدرت الأوامر العلية للقبيل الأعز وكافة القواد بحشد العساكر، الى الحضرة الكريمة، لتعرض بين خليفة الله . . . وفي أوائل شهر شوال من نفس السنة، اجمعت المحلات كافة بالبسيط الافيح، من ظاهر الحضرة" [204].

وكان السلطان يجلس في سرادقه، يراقب الاستعراض من أعلى الهضبة على بسيط مستو، قد اصطفت به العديد من الكتائب، على مختلف أنواعها، على مد البصر، حاملين السلاح في زي جميل، تحسبهم الخمائل المزهرات، من فوق الكتبان الهائلة ووسط كل كتيبة يوجد فنين من الجلد الوشي، وخلخل اللجين يخطمه بسلسلة من الفضة وبهم غلمان يرتدون أقبية الحرير الملون، وعليه هودج محلى بأنواع الحلل، برزت منه فتاة، على جانب كبير من الجمال، تغني باشعار زناتية جميلة، تبعث النخوة والحماس، وأريحيات الهمم في صفوف المستعرضين [205].

ثم بدأت الكتائب، تتقدم زرافات نحو منصة السلطان للتحية والسلام عليه، وقد استمر الاستعراض من ضحى اليوم الى غروب الشمس، وكان الكتاب بين يدي السلطان يقومون باحصاء الكتائب والقبائل والمتطوعين، ويميزون بين الرامح والنابل وينوعون بينهم، فكانت "فذلكة حساب الجميع اثني عشر الف فارس مرتزقة" حسب تعبير صاحب البغية" [206].

ومن مآثر سلاطين تلمسان أيضا، أنهم كانوا يقيمون الاحتفالات والافراح، بمناسبة حفظ

أبنائهم للقرآن الكريم وختمه، وكان أبو حمو موسى الثاني أشدهم حرصا على ذلك، فقد أقام حفلا بهيجا سنة 770 ـ 1369م، بمناسبة ختم ابنه الناصر سورة البقرة، دعا اليه الناس، من جميع الفئات الاجتماعية [207]، وأقام حفلا آخر لابنه ابي زيان سنة 776 هـ ـ 1375 م، لذات الغرض دعا اليه " الامم عربها والعجم والاشراف والمشرفين " حسب تعبير يحي بن خلدون [208] ومن عامة الناس وخاصتهم، وحشد اليها أصنافا عديدة من المغنين وأرباب العزف، وأصحاب الألات الموسيقية المختلفة بتلمسان، وحضر الناس الى داره بالمشور، فابتهجوا بالغناء والطرب على أنواعه، وأكلوا من الوان الطعام، وأصناف الفواكه المختلفة، وكان يوم الاحتفال يوما مشهودا [209].

ولا شك أن كبار القوم ووجهاءهم والميسورين منهم، كانوا يقلدون الأمراء والوزراء في اقامة مثل هذه الاحتفالات في مناسبات عديدة، مثل حفظ أبنائهم للقرآن الكريم أو ختانهم، وكان الحفل يدعى اليه المغنون والموسقيون والاصدقاء، ويقام في منازلهم وقصورهم الفخمة.

وكان أهل تلمسان يخرجون في حفل وابتهاج، الى ظاهر المدينة لاستقبال السلطان أو أحد افراد أسرته، عند قدومه، من سفر أو حرب، ويشير صاحب كتاب زهر البستان الى استقبال أبي حمو موسى الثاني، لوالده ابي يعقوب أثناء عودته من بلاد المغرب الاقصى، فركب له بجيشه المنصور يحمل الرايات والطبول والخروج لملاقاة والده، فخرج الناس كخروجهم للاعياد[210].

وكان السلطان أبو الحسن المريني، يخرج كل يوم من أيام الاثنين والخميس للاماكن المعدة للجلوس والتنزه، بميدان تلمسان ليشاهد استعراض الجيش ويحضر تدريباته، ويلعب الفرسان بين يديه، ويستقبل في الوقت نفسه، أهل المظالم، ويسمع اليهم، وتعرض عليه الهدايا وتحمل اليه الاموال، ويستقبل فيه شعراء الملوك وأبناء السلاطين [211].

الأحتفال بالزواج:

لقد حث الاسلام على الزواج، وتكوين الاسرة وانجاب الاطفال، وتربيتهم تربية اسلامية صالحة، لان الاسرة هي الخلية الأولى للمجتمع، فان صلحت صلح المجتمع كله، وان فسدت اشتكى منها أعضاؤه وعناصره[212]، وللزواج أركان شرعية يجب الالتزام بها وهي :

1 ـ الولي .

2 ـ الصداق او المهر.

3 ـ الشهود .

4 ـ العقد والصيغة .

ويتضمن مراسيم وإجراءات عديدة يستهلها أهل العريس بالخطبة ، وتبدأ بتقدم والد الفتى أو ولي أمره ، الى الفتاة أو ولي أمرها ، ليتكلم معه ، في رغبة موكله في الزواج من ابنته ، وقبل الخطبة يمكن ان ترسل امرأة خبيرة بموضوع النساء أو احدى قريبات الفتى ، الى بيت الفتاة لتأتي بأوصافها ، اذا لم يكونوا يعرفونها ، ويجوز للفتى شرعا أن يري خطيبته خلسة او علنا قبل الخطبة(213)، وتتم الخطبة عند بعض الاسر بين الوالدين أحيانا دون سابق معرفة العروسين .

العقد :

عندما تتم الموافقة ، يحدد وقت الفاتحة ، وكتابة عقد الزواج ، وحضور الشهود (214)، وتكون في المسجد أو في بيت الفتى إذا كانت العائلة ، من الفئة الميسورة وذات حال ، وبحضور افراد من العائلتين (215)، بواسطة كاتب عدل ، يقوم بتسجيل العقد وتحديد المهر (216)، أمام الحاضرين والمدعوين ، ولا يتم تسجيل عقد القران الا بموافقة قاضي الأنكحة وبعد موافقة الطرفين .

الصداق :

وهو مهر المرأة ، يقدمه الرجل للعروس ، وأهلها أثناء عقد الزواج ، ليس له حد معين ، وإنما يخضع للحالة الاجتماعية والمادية للزوج والزوجة ، ويتضمن العقد شروطا محددة مثل مقدار الصداق المقدم ، والمؤخر أي الصداق العاجل والآجل وأنواع الألبسة ، والفرش والحلي الذهبية والفضية (217) وغيرها ، وكانت بعض الأسر تشترط خادمة أو وصيفة للعروس (218)، كما تشترط الهدية على جري العادة ، ويطعم الولي من صداق ابنته ويحبس منه لنفسه (219).

وكانت المصاهرة في العهد الزياني ، تخضع في كثير من الحيان إلى الفئوية والطبقية ان صح التعبير، فنرى الاسر العريقة تتقدم الى مثيلتها في الجاه ، والمال والعلم مثل اسرة المرازقة ، التي كانت

تربطها علاقة المصاهرة، مع بيوتات تلمسانية عريقة كأسرة المقري، واسرة ابن النجار، وأسرة ابن زاغو وأسرة التنسي [220]، فقد تزوج أبو عبد الله محمد بن مرزوق (ت 681 هـ / 1282) جد الخطيب، بابنة الفقيه أبي عبد الله الكتاني، وكان هذا الاخير يعد من كبار بيوتات مدينة تلمسان مالا وجاها، يتمتع بشهرة كبيرة ومقرب لامراء بني عبد المومن في تلمسان، قدم لها زوجها صداقا محترما من الحلي والفرش وغيرها [221]، ولدت له ولدان وبنتا وتوفيت تاركة ورائها أموالا طائلة [222]، وكان ابن مرزوق اهدى لكل بنت من بناته الكثيرات حليا بالف دينار من الذهب، فضلا عن الفراش والثياب قبل زواجهن، وهو ما يعرف بـ "الشورة" في الماضي، والوقت الحضار. وأعطى لكل واحد من أبنائه مثل ذلك [223]، وقام بتزويج المؤرخ الفقيه أبي العباس بن القطان، وانفق على زفافه ودفع له مهر العروس، وهي بنت ابي عامر أحد الأولياء الصالحين الخطباء، وبنو عامر من البيوت المعروفة بالدين والصلاح والفقه قديما بمدينة تلمسان، وكانت العروس تربطها علاقة القرابة مع العريس [224].

وتزوج محمد الثالث بن مرزوق خطيب مسجد العباد و إمامه (ت 733هـ / 1333)، بست الملوك، بنت يعقوب الهواري، وسبق لها الزواج بالسلطان ابي حمو موسى الأول، [225]، تركت بعد وفاتها اموالا كثيرة وحليا وخدما ودواب وبقرا وفرشا وعقارا [226]، ويجهز الأب الميسور ابنته بالملابس والعطور والحلي وأشياء أخرى للزينة يصل ثمنها أحيانا إلى ألفي دينار ذهبا [227].

أما عن سن الزواج، فيبدو أنه كان في ذلك الوقت مبكرا بالنسبة للرجل والمرأة، وكانت بعض الأسر التلمسانية في العهد الزياني، كما هو في الوقت الحاضر، تقدم على خطبة احدى البنات لأحد أبنائها أو الكلام عليها، وهي في سن الصبا نتيجة القرابة أو الصداقة الحميمة، او لما تتمتع به الاسرة من علم وجاه، ودين وصلاح. كما فعل الشيخ الفقيه ابو اسحاق ابراهيم التنسي (ت680هـ/ 1281)، عندما أوصى بأن تزف ابنته خديجة [228]، لأبي العباس احمد بن مرزوق والد الخطيب، وليست ابنة أخيه أبي الحسن كما ذكرت ماريا خيسوس [229]، وهي في سن الرابعة واحمد ابن مرزوق لا يتعدى السابعة من عمره في ذلك الوقت، وتم الزواج بعد وفاة والدها في عهد عمها أبي الحسن سنة 707 هـ / 1307م، وكان السلطان يوسف بن يعقوب المريني، قد أمر لها بمبلغ مالي قدره أربعائمة وثمانين دينارا ذهبا وأهدى لها فرسا، وهو محاصر لمدينة تلمسان [230].

وقد صادفت اليوم السابع لزواج ابن مرزوق بخديجة، فك الحصار الطويل على مدينة تلمسان فخرج مـن بقي فيها من المحـاصرين، وحضروا الوليمـة واكلوا منها "فكان ذلـك أول رزقهم"، حسب تعبير ابن مرزوق [231].

وكـان أمراء بنـي زيان، يتـدخلون لابطـال زواج، ترغـم عليه إحـدى بنات البيـوت العريقـة بتلمسان، دون رضاها كما فعل السلطان ابوسعيد عثمان بن يغمراسن مع الفقيه ابي زكريا بن محمد ابن عصفور قاضي مـديـنـة تلمسان، الـذي اتـفـق مـع أخ السيـدة فاطمة، أرملة الولي ابي عبد الله محمد بن مرزووق جد الخطيب. على الزواج بها بالـرغم من معارضة أمها "منية" إلا أنها قبلت تحت الحاح أخيهـا، وعلى مضض، واشترطـت أن تبقى في منـزلها، وكـان ابن مـرزوق قد أوصـى السلطان بها خيرا قبل وفـاته، وفي اليوم الثالـث من زواجها، سمع السلطـان بذلك، وكان يـوما شديد البرد كثير الثلج، فـأمر السلطان باخراج القاضي مكبـلا مجرورا على الثلج وأودعه السجن، ثم أخـرجه من المدينـة، ونفاه الى تونـس، وندمت فـاطمة ولم يهنأ لها بـال إلى أن ماتت بعـد ذلك بقليل[232]. ولعل السبـب في غضب السلطـان ونكبته للقـاضي، هو أنـه كان وصيـا على السيدة فاطمة وابنـائها بوصية مـن زوجها الصالح الصـوفي المعتقد فيه، ولا سيما وانه صرح امـامه بجملة توحـي بأنـه لا يرغـب في أن تتزوج أرملتـه بقولـه: "كيف تـرى يا فـلان الذبـاب تدخـل مراقـد الاســـود"[233].

وكانت بعـض الاسر من فئات اجتماعية ميسورة، تختـار لابنها أو إبنتها من العـائلات المتدينة الصالحة، ولو كـانت فقيرة [234]، وكانت ظـاهرة تعدد الزوجات شائعـة في المجتمع التلمساني، كغيره وأن زواج المسنين بصغار السن مـن الفتيات موجودة في المجتمع التلمساني أيضـا، وكذلك الزواج الملون الأسود بالبيضـاء، كزواج العلامة فخر الدين بن محمـد التكروري، من بنت أبي عبد اللـه المليكشي الصغيرة الـوسيمة الفـائقـة الجمال، وهـو كبير السن أسـود اللـون [235]، كما كـان سلاطين بني زيان وأمراؤهم يتزوجون زواجا سياسيا، مثل زواج ابي سعيد عثمان بن يغمراسن بابنة ابي اسحـاق الحفصي [236]، ويتهادون بـالجواري كتلك التـي اهداها ابـو سعيد الـزياني الي نظيره المريني [237].

وكانـت الزوجة ترافـق زوجها في هجرته أو تـرحاله، وكانـت بعض الاسر ترفض ذلـك، فتقع

الخصومة بيـن الـزوج وصهـره، كما حدث مع الخطيب ابن مرزوق، عندمـا كان يتنقل من مكان الى مكـان عبر أرجـاء المغـرب والأندلـس والمشرق، فـالـزوجـة كـانـت راضية بينما اهلهـا كـانـوا رافضيـن[238].

وعزف بعض الرجال عن الزواج لكثرة نفقاته [239]، وبسبب طلب العلم والتفرغ له أو زهدا أو خشية من عـدم معاشرة الزوجة بـالمعروف [240]، وكان التنـافس شـديدا على المرأة العـالمة النبيهة الذكية، وذات المنبت الطيب، في حين فضل العوام المرأة الجميلة البدينة الشقراء [241].

والظاهر أن عـدد النساء بمدينة تلمسان كـان أكثر من الرجال، بسبـب الحروب المستمرة التي خاضها سكانها، مخلفة عددا كبيرا مـن الأرامل كما أن تجارة الجواري أسفرت عن أكتظاظ الأسواق بهن، فعز الأزواج وكثرت الأرامل والعوانس اللائي، كـانت أعمارهن مابين خمسة وثلاثين وأربعين سنة دون أن يجدون بعولا لهن [242].

أما الاحتفال بيوم الـزفاف فيقام على شكل عرس، أو وليمة في كل من بيتـي العريس والعروس تذبح فيه الـذبائح، وتقدم أفخر الأطعمة للمدعوين، وفي النهـار يجري سباق الخيل، في ملعب المدينة [243]، على أنغام المزامير والدفوف وزغاريد النسـاء.

وأثناء الليـل، تحضر الفرق الموسيقيـة، لتقضى سهـرة بهيجة على الأنغـام، والأغاني الـزناتيـة للجواري المعروفة في ذلك الوقت، وهو الأمر الذي انكره العالم الفقيه أبو العباس أحمد الونشريسي بقوله: "ومنها متخذ لملاهي وانواع الغناء المحرمات والآلات والمزامير صناعة وحرفة، يكتسبون بها ويستأجرون عليها عند السرور مثل الزفافين والمغنيين" [244].

وكانت حفلات الزفاف واعداد المتاع، في عصر بني زيـان، يبالغ فيها سكان مدينة تلمسان، ويغلب عليهـا في بعض الاحيـان حب الظهـور، ويشتد غناؤهـم وتعلو فيـه اصواتهم، ويـدقون الدفوف ويرقصون وتزغرد النساء.

تتجمل العـروس بالكحل وهو عبـارة عن حجر أسـود، وتقوم بالتـزجيج وهو أحف مـا حول الحاجبين من الشعر، والتلمية وتعني خضاب الشفـاه واللثات وتحريز الاسنان، وتخضب العروس يديها ورجليهـا بالحناء المنقـوشة [245]، وتتقلد القـلادة الذهبيـة والفضية، ومـن اللؤلـؤ والزمـرد

والمرجان، اذا كانت من الطبقات الغنية، وتلبس في معصميها السوار وفي اصابعها الخواتم وفي رجليها الخلاخل، وتتطيب بشجر العود وبدهان أزهار الآس والمسك والعنبر (246)، وتتخذ بعض النساء زينة الوشم بأن توخز بعض اطراف من جسمها بابرة حتي يسيل الدم، ثم تحشى بالنيلج، أو الكحل، حتى يخضر الوشم أو يسود (247)، وتزين العروس غرفتها بالفرش من حصير وبساط ووسائد وأسرة وستور وأرائك.

وكان التلمسانيون كغيرهم من المسلمين، يغارون على الحرائر أكثر مما يغارون على الجوارى والأماء، ويحجبون الحرة ويشددون في سترها، بينما الجارية أو الأمة، كانت في غالب الأحيان سافرة، ربما لأنها عرضة في كل وقت للبيع أو الشراء أو الاهداء (248).

وكانت بعض الفتيات يحافظن على زينتهن وجمالهن، لدرجة أنهن لا يصمن في شهر رمضان، من غير عذر شرعي، حتى لا ينخفض وزنهن ولا يتغير جمالهن، ولا سيما اللائي كن في سن الزواج(249).

دور المرأة في المجتمع التلمساني:

لقد أعطى الاسلام للمرأة حقوقها، وأوضح لها واجباتها نحو زوجها وأطفالها ومجتمعها، وأزال الفوارق، التي كانت بين النساء كما أزالها بين الرجال، إلا بالعمل الصالح والتقوى، وحث الرجال على معاشرة النساء بالمعروف، وتركهن بالمعروف وأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بهن خيرا (250).

وبالرغم من قيود العادات الاجتماعية والسلطة المطلقة للزوج على زوجته وأسرته، التي خولها له العرف والتقاليد، فإن ذلك لم يقلل من الدور الهام، الذي كانت تضطلع به المرأة، الى جانب الرجل في الحياة العامة، فعلاوة على تدبير شؤون المنزل، والقيام بأعبائه وتربية الأطفال، كانت تنشط في مجالات مختلفة، كالغزل والخياطة والتجارة والتمريض (251)، والخروج الى السوق لاقتناء حاجاتها(252).

كما كانت تساهم في النشاط السياسي والحربي، وفي نظام الاستخبارات وفي الحركة الثقافية والعلمية والدينية، في العهد الزياني، فعندما استولى السلطان أبو زكريا الحفصي على مدينة

تلمسان سنة 646 هـ وأخرج منها السلطان يغمراسن الزياني، تقدمت أم هذا الأخير «سوط النساء» على رأس الوفد الزياني للتفاوض مع العاهل الحفصي، باسم ابنها، وتمكنت من توقيع معاهدة سياسية مع الحفصيين، يعود بمقتضاها ابنها يغمراسن الى عرشه، وكان أبو زكريا الحفصي قد أكرم وفادتها «وأحسن موصلها وأسنى جائزتها»؛ [253]، لما كانت تتمتع به من قوة الشخصية والشجاعة الأدبية.

وقبيل نهاية الحصار المريني الطويل، لمدينة تلمسان، اجتمعت نساء البلاط الزياني وجواريه، وعبرن عن موقفهن الشجاع، الداعي إلى مواصلة المقاومة حتى الموت أو النصر، بحيث ارسلن الخادم "دعد" قهرمانة القصر، لتقول للسلطان أبي زيان (703ـ707هـ/ 1303ـ1307)، بأن "حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم مالنا وللبقاء.. فاريحونا من معرّة السبي وأريحوا فينا أنفسكم، وقربونا إلى مهالكنا في الحياة.. في الذل والعذاب، والوجود بعدكم عدم" [254]، فقد لعبت المرأة التلمسانية إذن دورا كبيرا في مقاومة الحصار، وتشجيع المقاتلين على الصمود [255]، وقد أصبح دور المرأة التلمسانية، في هذا الميدان يكتسي صفة خاصة، نظراً للتأثير النفسي العميق، الذي تحدثه في الرجال، كما كانت المرأة التلمسانية، تشارك الجند في المعارك ضد العدو، بالقتال والتشجيع، ورفع معنويات المقاتلين بما تحدثه من صوت وعبارات وتلميحات وسلوكات [256] تفطن لها بنوزيان، كما تفطن لها بنومرين [257]، فكانت المرأة تجابه الشدائد، والاهوال في الحروب ولها تأثير على الناحية النفسية والوجدانية، بحيث كان لها دور فعال في التحميس والتشجيع، وتحريك الهمم، فكانت تخرج وراء الجند في هوادج فوق الجمال، تنشد أرقى الألحان، بكلمات معبرة ونبرات حادة، نافذة إلى القلوب، وهي تلبسن أفخر الملابس [258]، وكان ذلك في معركة "وادي تلاغ" التي خاضها السلطان يغمراسن وجيشه ضد بني مرين، بقيادة السلطان يعقوب المريني، فظهرت في هذه المعركة نساء الفريقين، خلف المقاتلين، في الهوادج تحرضن على القتال والنزال.

وعندما هاجم أبو الحسن المريني مدينة تلمسان، كانت نساء تلمسان، تخضن المعارك إلى جانب الرجال خلف الاسوار، وقد اقتربت احداهن ودنت من مقام أبي الحسن المريني، ورفعت صوتها تنادي بني زيان، وتحثهم على المقاومة، والصمود، وكانت في نفس الوقت تهجو

سلطان بني مرين وجنده، وتكيل لهم الشتائم، فرد عليها ابو الحسن بقوله: "الشتم حيلة المغلوب" [259].

وكان للعنصر النسوي حضور في مجال الاستخبارات، ومراقبة التجار وتفتيش النساء في أبواب المدينة، استعملتهن سلطات تلمسان من أهل الذمة [260]، وكانت النساء يخرجن لاستقبال السلطان ورؤية موكبه في الأعياد [261]، والتنزه في الحدائق العامة والملاعب والمنيات والأماكن السياحية، التي يزخر بها محيط تلمسان [262]، وتزرن المقابر وأضرحة الأولياء للتبرك والترحم على الموتى، وكان الكثير منهن، يجاورن ضريح أبي مدين في العباد [263]، حتى أنكر عليهن خروجهن أحد الفقهاء [264].

أبرز المثقفات والزاهدات:

أما في ميدان الثقافة والتدين والزهد، فقد برزت منهن بعض التلمسانيات الصالحات، تنتمي إلى بيوتات تلمسانية عريقة نذكر منهن:

1 ـ السيدة، فاطمة بنت أبي زيد النجار، وزوجة أبي عبد الله محمد الثاني بن مرزوق جد الخطيب، وأمها هي منية بنت حسين من الصالحات [265].

2- و منهن فاطمة بنت الشيخ العالم أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز و بنو عبد العزيز، بيت من بيوتات تلمسان العريقة، أهل علم و عدالة و قضاء و ثقة و أمانة، و أنها حفيدة أبي العباس ابن صاحب الصلاة [265]

3- و منهن الشيخة الصالحة عائشة بنت ابن الأكحل، و كانت هي الاخرى من خيار المثقفات الصالحات [266].

4 -و منهن المرأة الصالحة "ستم" بنت الشيخ أبي علي حسين بن الجلاب العالم الفقيه صاحب القلم و المال [267].

5- و منهن أم الفتح، وهي أم خال الخطيب بن مرزوق، و كانت من الصالحات حجت وزارت، ثم توجهت الى بيت المقدس و توفيت به سنة 724هـ/ 1324م، و كانت أم الفتح قد ربت الخطيب بن مرزوق الذي حج رفقتها و عمره لا يتعدى إثنتي عشرة سنة [268].

6- و منهن زوجة أبـي عبـد الله محمد الثاني بن مرزوق، بـنـت الفقـيه ابي عبد الله الكتاني، فقد كـانت صالحة ملازمـة للعبادةرفقة زوجها، مقتصرة على مـا يقتصر عليه من مأكـل و ملبس متـورعة قليلـة الأكل، على الـرغم مـن انتمائها إلى بيـت غني، و مـن أسرة ميسورة الحال، تنعـم بالـرفاهية، إلا أنها كـانت مبـاعدة لأهلها، تحب التقشـف والورع والزهـد، مثل زوجهـا، أرسل والدها في يـوم من الأيام مائدة مـن الطعام الفـاخر مـع الخادم، عندما سمع مـن وصيفتها بأنها لم تتعش، فغضبت غضبا شديدا وأنبت الخادم على افشائها لسر بيتها، وقالت لها: «ما جزاء الخادم التي تتحدث بأخبـار المرأة مع زوجها إلا الاحراج "، ثم اعادتها إلى والدها الـذي أهداها لها وقت زفـافـهـا [270].

ولما علم والدها بـذلك، ترك سبيلها، وكانت تخرج معه إلى منزه كهـف الضحاك، الذي كان يضرب به المثل، في المناظر الجميلة والراحة، وقيل فيه اشعار كثيرة [271].

7 ـ ومنهن المرأة المتصـوفة الصالحة الفقيرة، المعروفة بـالمؤمنة التلمسانية التي انتقلـت الى مدينة فاس لطلـب العلم، فعكفـت على قراءة القـرآن، ومجالسة كبـار الفقهاء ومنـاقشتهم في المسـائل الشرعية والفقهيـة والاخلاق، مثـل قاضي الجماعـة التلمساني بفـاس، أبي عبد اللـه المقري، وأبي العبـاس أحمد الخطيب الشهير بـابـن قنفذ القسنطينـي، (ت 810 هــ/ 1407)، وأبي القاسـم الشريف التلمسـاني، والشيخ الصـالح أبي الحسن علي بـن عبد الوهـاب، الذي كـان يكتب لها لوحـهـا [272].

وكانت هـذه المرأة التلمسانية، على درجة كبيرة مـن الزهد والتقشف، والعبـادة والورع، وكان قوتها من غزل ونسيج يديها، وكانت أحيانـا تنقطع عن مخالطة الناس ورؤيتهم، في رجب وشعبان ورمضان [273]، تتميز بدراية واسعـة للفقه، وتتحدث كثيرا مع جلسائها على المعـاملات والآداب والامور الفقهية الاخرى، وتنبههم إلى ما ينتفعون به في آخرتهم [274].

وكان لبـاسها عبـارة عن جبة مـن الصوف، وتضـع على رأسها طرفـا من تليـس معقودا تحت ذقنها، وشيب رأسها يبـدو على جبينها، وكانت منيتها أن تموت بالعبـاد، فتحققت هذه الأمنية، وتوفيت به بعد رجوعها من فاس [275].

8 ـ ومنهـن عائشة بنـت الفقيه الصالح القـاضي أحمد بن الحسن المديـوني، التي كانـت فقيهة

صـالحة، ألفت مجموعا في الأدعيـة اختـارتها، تتميز بقـوة في تعبير الـرؤيا، اكتسبتهـا من كثـرة مطالعتها لكتب الفن [276].

9ـ ومنهن الفقيهة أم البنين، التي كانت تحضن حفيدها أحمد بن أحمد بن محمد البرنسي الشهير بزروق [277].

10ـ ومنهن السيدة زينب بنت الشيخ الصالح أبي اسحاق ابراهيم بن محمد الدلايلي، الصالحة ذات المال والجاه من بيت مشهور، في مدينة تلمسان في القرن الثامن الهجري [278].

11ـ ومنهـن أم الفتح المدعـوة بفتحون، كانـت صالحة مستجـابة الدعـاء زاهدة في الـدنيا، عاكفة على العبادة والوعظ أم الفقيه أبي اسحاق [179].

عادة الأغتسال في الحمام:

عالج الفقهـاء بعض الأقضية والمسـائل، التي كـانت تحدث للناس في حياتهم اليـومية، وتدل هذه المسـائل على اشارات واضحة ودقيقة، للواقع الذي كـانوا يعيشونه، فقد كان الحمام العمومي الذي يعني لغويا الماء الحار [280]، مثار جدل، ونقاش حاد بين الفقهاء، ظهرت من خلاله فتاوي عديدة ما بين مانع ومبيح بشروط [281]، إلا أن الرأي الغالب كان مـع هذه العادة المستحبة، لأن وظيفـة الحمام وظفية اجتماعيـة هامـة، تقدم خـدمـات صحية جليلـة للمسلمين، وهي تنظيـف أبدانهم به وتطهيرها، وصار الاغتسـال في الحمام تقليـدا محببا في المجتمع التلمساني، وعادة مفضلة للرجال والنساء على حد سواء.

وكانـت النسـاء من مختلـف الأعمار، لا تتأخرن عن الـذهاب اليه في منـاسبات عديـدة، وقت الزواج والولادة، وقبيل الاعيـاد، وكانت بعض الحمامات خاصـة بهن، غير أن الكثير منها بمدينة تلمسان، تستعمـل للرجال والنسـاء، ولكـل جنس وقت معين، تـوضحه إشارة توضـع في الباب تدل على فترة الرجال أو النسـاء [282].

اذا أراد أحد الرجال التحدث لزوجته، نادى على مستخـدمة، وهي عادة تكون من الوصيفات في كثير من الأحيان [283].

يقوم الخدم أو الدلاكـون بدلك، جسم الزبـون وتنظيفه في الغرفة السـاخنـة، ولكل زبون الحق في دلوين اثنين من الماء الساخن، وإذا زاد عن ذلك دفع ثمنه نقدا [284].

وقـد جرت العـادة، أن يتسلى رواد الحمام بالماء السـاخن وبمختلـف ضروب التسلية، يغنـون بأعلى أصـواتهم، وقد شـدد المحتسب، على الذيـن يستحمون بدون مئـزر أو نحوه، وجعـل هذا السلوك من المنكرات، التي يعـاقـب عليها صاحبها [285]، وألزم التفريـق بين الصبي، والكبير وبين البنت والمرأة الكبيرة وحارب الشبان، الذين كانوا يتعرضـون للنسـاء على جانبي الطريق المؤدي إلى الحمام [286]، وكـانـت أغلـب الحمامـات بمـدينة تلمسـان مـوقـوفة على المسـاجـد والمدارس والـزوايـا[287].

عادة دفن الجنازة:

اعتاد الناس عندمـا يصيبهم جلل، في أحد الأقارب، على البكاء ولاسيما النسـاء، اللائي كن يكثرن من العويل والنواح حول الجنازة، يقوم أهل الميت، بأشعار الأقارب والاصدقاء بالحدث ثم يبدأون في اعداد الجنازة للدفـن، فيغسلون الميت ويكفنونه، وأثناء اخراجه مـن بيته تتبارى النساء بالبكاء والنواح، وتصدرن صيحات مزعجة، وهي صيحات الوداع الأخير، يختلط الرجال بالنساء في هذه اللحظة المؤثـرة، محاولة للتخفيف عن النسـاء من هذا المصاب. ويقـرأ القرآن على الجنازة يرتله جماعة مـن حفظته بنغمة واحدة، ثم يؤخذ الميت، ويصلى عليـه في المسجد، حيث يكون في انتظاره بعض النـاس، ثم يوارى التراب، ويعزى أهلـه، يسعي الناس لمواساتهم، ويقـدم بعض ذوي الموتى الطعام للمعزين والمعزيات [288].

ويعتني بعـض الناس عناية خـاصة ، باليـوم الثالث والسـابع والاربعين من أيام الـوفاة [289]، ويبدو أن عادة العويل ولطم الخدود، كانت معروفـة عند نساء مدينة تلمسان، لأن كتب الحسبة تشير إلى ذلك وتـذم هذه الظـاهرة الغـريبة عـن الاسلام، وتنهـاهن عنهـا [290]، إلا أن الأعيـان والوجهاء واسر الفقهاء والصلحاء لا يندبن ولا يلطمن خدودهن [291]، وجرت العادة عند بعض الاسر وخاصة الغنية منها، ان تقوم ببنـاء القبر وتجميله، وسنورد وصفا لما كان يحدث، في بيت ابي عبد الله محمد الثاني ابن مرزوق، لحظة وفاته .

فعندما أحس بدنو أجله طلب حضور بعض الأقارب والأصدقاء، فتجمعوا حوله يقرأون القرآن وهو يسمع اليهم، فعرفت النساء من خلال ذلك، دنو أجل الشيخ فبدأن بالبكاء، وهو الامر الذي يجعل كبير العائلة في هذه اللحظة، ينتقل بين الحاضرين من القراء والاصدقاء وبين النساء ليهون عليهن [292]، ويسكت المقرئون عن تلاوة القرآن بعد حدوث الوفاة، ويقومون بتغطيته ثم يتقدمون لتعزية الأقارب ومواساتهم في فقيدهم بتقبيل رؤوسهم [293]، كان ابن مرزوق هذا قد لام زوجته، عشية الوفاة عندما لاحظ يديها ورجليها مخضبتين بالحناء المنقوشة [294]، مما يدل على ظاهرة الحزن عند أهل تلمسان، ومن عادة التلمسانيين أن يتصدقوا بثياب الميت وفرشه، وما كان يتناول فيه من آنية وغير ذلك للفقراء والمساكين [295]، ولاتزال هذه الظاهرة عند بعض الاسر العريقة بمدينة قسنطينة الي اليوم، كما كانت الاسر التلمسانية تفضل شراء قطع من الأرض، لدفن افراد العائلة [296].

و كان السلاطين و الامراء، يرغبون كل الرغبة في أن يدفنون الى جوار الاولياء الصالحين والمتصوفين، و كبار الفقهاء المعروفين بالورع و الصلاح و البر [297].

و كان أهل تلمسان لا يطفئون المصباح في المنزل مدة سبع ليالي كاملة[298]، و هي عادة لازالت قائمة عند بعض الاسر القسنطينية، خاصة اعراق المدينة و أصلاءها.

و تقوم الخاصة من المجتمع بتوجيه خطاب التعزية لذوي الفقيد، و لا سيما إذا كان فقيها أو أديبا أو عالما أو أميرا.

فكانو يصفون في الخطاب حالة الشخص، و تأثرهم بنبأ الوفاة و خير دليل على ذلك خطاب التعزية الذي وجهه ابن خطاب إلى أخي الفقيد، و صف فيه حالته النفسية، عندما سمع خبر الوفاة قائلا: "وقد بلغني ما جرى به القدر، من وفاة أخيكم فلان، لقد صدع مصابه كبدي، ونقض عرا صبري وجلدي، وأطال مدى حزني وكمدي، وفقدت به عدتي وعددي فنومي نافر ودمعي ماهر. . . ولو قبل فيه الفداء فديته بما لدي من نفس ومال. . . ولو أنه يجل عن الفداء لفديته بالنفس وحللت بدلا منه في ذلك الرمس" [299].

ويتضح من هذه العبارات، صدق العاطفة، وحرارتها وقيمة الفقيد، ومكانته في نفس ابن خطاب.

وفي تعزية أخرى يقول ابن خطاب التلمساني: "ذلكم بما بلغ من وفاة خير الأمة وصدر الأئمة أبيكم جدد الله عليه رحمته فإنا لله وإنا إليه راجعون" (300).

الهــوامــش :

(1) أحمد الطاهري: عامة قرطبة ص 178.

(2) سواد عبد محمد: المرجع السابق ص 145.

(3) سواد عبد محمد: المرجع السابق ص 146.

(4) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 2.

(5) نفسه، ورقة 5.

(6) نفسه، ورقة 2.

(7) نفسه، ورقة 37.

(8) نفسه، ورقة 37 جمع قصعة تصنع من الحطب.

(9) نفسه، ورقة 30 جمع برمة وتصنع من الفخار أو النحاس.

(10) نفسه، ورقة 14.

(11) نفسه، ورقة 30.

(12) نفسه، ورقة 29.

(13) مؤلف مجهول: الطبيخ في المغرب والأندلس ص 74.

(14) نفسه، ورقة 21ـ22.

(15) ابن مرزوق: المجموع، ورقة8.

(16) مؤلف مجهول: الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد مجلد (9)، (10) مدريد 1961ـ1962 ص 184.

(17) نفسه، ص 167.

(18) المجموع، ورقة 11.

(19) Dhina (a): Le royaume abdelwadid p. 181.

(20) المجموع، ورقة 30.

(21) يصنع طعام "الفداوش" من العجين، وهو ثلاثة أنواع منه المستطيل الشكل، على هيئة القمح، ومنه المستدير على قدر حب الكريرة، ويسمى في بجاية لحميص ومنه ما يعمل رقاقا في رقة الكاغد، تصنعه النساء، ولعله مايعرف اليوم في قسنطينة "بالتليتلي" والمحمصة ولقتات أو ثريد الطاحين.

(22) المجموع: ورقة 16.

(23) مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 77، المجموع، ورقة 37.
(24) نفسه، ص 165.
(25) المجموع، ورقة 6 لم نقف عند تعريفه.
(26) مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 7.
(27) لحم السن والورك والخروف والدجاج والفراريج والحمام المشوي، والوز والعصافير وغيرها من المشويات، كانت تفضله الطبقة الغنية مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص14.
(28) نفسه، ص 14.
(29) نفسه، ص 14.
(30) يصنع الرفيس من السميد أومن خبز الدرمك والدرمك هو السميد أو الدقيق الجيد الرفيع انظر: مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 191.
(31) نفسه، ص 73.
(32) ابن زين التجيبي: فضالة الخوان، ص 115.
(33) مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 68.
(34) نفسه، ص 150.
(35) حسن الوزان: وصف افريقيا، ج 1 ص 210.
(36) مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 10.
(37) المجموع، ورقة 30.
(38) نفسه، ورقة 30 ـ ابن مريم: البستان، ص 90 ـ 91.
(39) مولف مجهول: المصدر السابق ص 21 ـ 23.

Marcais (G): Tlemcen (villes d`arts celebres) p. 19

(40) المجموع ورقة 14.
(41) نفسه ورقات 16 ـ 22 ـ 26.
(42) نفسه، ورقة 26.
(43) يؤخذ من العود الطيب ومن القرفة، والقرنفل والسنبل الهندي والزعفران والسكر وماء الورد، انظر: ومؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 222 ـ 223.
(44) يؤخذ رطل من العسل، ويضاف إليه أرطال من الماء وتوضع في طنجير (إناء من النحاس) انظر مؤلف مجهول: ص 224.
(45) يصنع من النعنع وحب الترنج والقرنفل انظر: نفسه، ص 226.
(46) مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 227.
(47) نفسه، 230.
(48) نفسه، ص 232.
(49) نفسه، ص 232.
(50) نفسه، ص 234.
(51) المجموع ورقة 6.
(52) مارمول: افريقيا ج2 ص 300.
(53) المجموع، ورقة 15.

(54) نفسه، ورقة 7.
(55) نفسه، ورقة 15 .
(56) المجموع، ورقة 15 .
(57) المسند، ص 129 .
(58) المجموع، ورقة6 المسند، ص 129 .
(59) حسن الوزان : المصدر السابق ج2 ص 21 مارمول : افريقيا، ج2 ص 300.
(60) نفسه، ج2 ص / 2.
(61) نفسه، ج2 ص/ 2.
(62) Marcais (G) Tlemcen (ville d'arts celebres) 93
(63) حسن الوزان : وصف افريقيا ج2 ص 21.
(64) نفسه، ج2 ص 21.
(65) نفسه ج2 ص 21.
(66) المجموع، ورقة 6.
(67) نفسه، ورقة 6.
(68) أي أن ابن مرزوق كان لا يضع عمامة على رأسه.
(69) المجموع، ورقة، (6) أما الفقهاء فهم: عمر المقري الجد، وابو عبد داود وأخرون.
(70) نفسه، ورقة 16 .
(71) نفسه، ورقة 14 .
(72) الغفارة عند أهل تلمسان تعنى البرنوس انظر ابن مرزوق ورقة 16 .
(73) نفسه، ورقة 40.
(74) نفسه، ورقة 40.
(75) اللون المسني هو لون النحاس. Dozy (r): supplement aux dictionaire arabes T.1 p601.
(76) المجموع، ورقة 14 .
(77) المجموع، ورقة 22 .
(78) نفسه، ورقة 38.
(79) نفسه، ورقة 21و36.
(80) نفسه، ورقة 18 ويبدو أن القبقاب كما وصفه الوزان، كان يتنعله الاعيان عندما تكون الأزقة موحلة وهي جيدة الصنع مزخرفة مصفحة بالحديد موشاة بغطاء من جلد مطرزة بالحرير، ولا يستطيع الفقراء اقتنائها لغلائها، وتصنع هذه القباقب من الخشب الأسود والأبيض ومن خشب الجوز وكان التجار الأندلسيون يلبسونه في مدينة تلمسان المجموع ورقة18 حسن الوزان: ج1 ص 191 .
(81) المجموع ورقة 18 .
(82) الحسني مختار: المرجع السابق ص 172 .
(83) ابن مرزوق : المسند، ص 452.
(84) المسند : ص 452 البستان ص 60.
(85) المجموع، ورقة 39.

(86) المجموع ورقة 36 المسند، ص 452.

(87) المجموع، ورقة 29.

(88) نفسه، ورقة 28.

(89) نفسه، ورقة 4.

(90) نفسه، ورقة 5.

(91) الازار: هو عبارة عن ملاءة تلتف بها المرأة متسعة وفضفاضة تغطي ملابسها كلية وكانت المرأة المسلمة تلبس الازار الأبيض بينما نساء أهل الذمة كن يلبسنه ملونا، فالمسيحيات يرتدين اللون الأزرق، و اليهوديات اللون الأصفر تمييزا لهن عن المسلمات.

انظر، ماير (ل. أ) الملابس المملوكية ترجمة صالح الشيتي ومراجعة عبد الرحمن فهمي محمد الهيئة المصرية، العامة للكتاب1972 ص 128 ـ 129.

Dozy (R): suppilement aux dictionnaires arabes T. 1 P.19

(92) السفساري هو رداء تلبسه النساء وهو مايعرف بالحايك في الوقت الحاضر، انظر

Dozy (R): opcit T.1. P.658.

(93) الحسني مختار: المرجع السابق ص 172 / 173.

(94) حسن الوزان: المصدر السابق ج 1 ص 52.

(95) نفسه، ج 1 ص 52.

(96) افريقيا، ج 2 ص 300.

(97) حسن الوزان: المصدر السابق، 1 ص 52، عمر رضا كحالة: دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية: المضيفة التعاونية بدمشق 1973 ص 243 ـ 224.

انظر أيضا: ابن مرزوق المجموع ورقة 6.

Marcais (G) Tlemcen (ville d`art celebre) P.92

(98) مؤلف مجهول: الاستبصار، ص 206 ـ عبد الواحد المراكشي: المعجب ص 434 Marcais (G): opcit. p.92.

(99) المجموع، ورقة42.

(100) نفسه، ورقة 19، المسند، ص 222.

(101) ابن مرزوق: المسند، ص 185.

(102) نفسه، ص 460 ـ 461 ـ التنسي: نظم الدر، ص 124.

(103) القلقشندي: صبح الأعشى، ج2 ص 406.

(104) المكي: قوت القلوب، المطبعة المصرية القاهرة، 1351 ج 1 ص 106.

(105) مؤلف مجهول: الطبيخ في المغرب، ص 222 وما بعدها.

(106) ابن مرزوق: المسند: ص 485.

(107) أحمد سعيد المجليدي: التيسير في أحكام التسعير ص 64.

(108) ابن مرزوق: المسند، ص 164 ـ 165.

(109) الونشريسي: اختصار ورقة 350.

(110) ابن مرزوق: المسند، ص 476 ـ 477.

(111) عمر رضا كحالة: دراسات اجتماعية، ص 221.

(112) انطلق موكب رسمي في عهد السلطان أبي الحسن المريني، من القبة الكائنة بروض القائد هلال القطاني، بوادي الصفصيف

بشرق مدينة تلمسان، وكان الموكب يضم أم ولد أبيه، انطلقوا يوم الجمعة قبل الصلاة ولما وصلوا إلى قرية العباد، صلى أعضاء الموكب بمسجده ثم توجهوا جميعا نحو الحجاز، انظر: ابن مرزوق المسند، ص 475.

(113) المجموع، ورقة 46.

(114) نفسه، ورقة 19 .

(115) نفسه، ورقة 16 ـ 17 .

(116) نفسه ورقة 17 .

(117) عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ص 222.

(118) المجموع، ورقة 17 .

(119) عن الفداوش، انظر: المؤلف مجهول: كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس، ص 184 .

(120) المحمصة أو المحمص، يصنع من السميد، ويعجن على نحو الفدواش، ثم يفتل بالأصابع مدورا على شكل حب الفلفل، يجفف في الشمس، ويطبخ مثل طبخ الفداوش، بلحم البقري والغنم والدجاج أما اليوم فيفضله أهل قسنطينة بالقديد أو الخليع انظر: بن رزين: المصدر السابق ص 91.

(121) ابن مرزوق: المجموع، ص 17 .

(122) المجموع، ورقة 17 و32.

(123) نفسه، ورقة 1 .

(124) عبد الرحمان الموذن: الرحلة الحجية، مصدر من مصادر التاريخ الاجتماعي المغرب ضمن كتاب في النهضة والتراكم دار توبقال الدار البيضاء، 1986 ص 302 ـ 303 انظر أيضا: Valensi-lucette: le Maghreb avant la prise d`alger 1790-1830 paris 1969 P.59

(125) المجموع، ورقة 32.

(126) ابن مرزوق: المسند، ص 137 .

(127) مؤلف مجهول: زهر البستان ورقة 84 .

(128) عبد الباسط: المصدر السابق، ص 41 .

(129) ابن مرزوق: المسند، ص 145 .

(130) المقريزي: الموعظ والأعتبار بذكر الخطط والأثار، مطبعة الساحل الجنوبي لبنان ج2 ص 389 ـ انظر أيضا: طبقة مكتبة المثني بغداد ج1 ص 422.

ويشير آدم ميتز إلى أن ازدياد التعظيم للنبي عليه السلام، بين أهل الصلاح والورع أدى إلى الاحتفال بمولده حوالي سنة300هـ/ التاسع الميلادي، وقد اعتبره فقهاء السنة خاصة بدعة، وكان أحد الزهاد المتعبدين ويدعى الكرخي (ت 343 / 459م) لا يفطر إلا في العيدين في يوم مولد النبي عليه السلام. ويضيف أدم ميتز بأن الأفضل ابن أمير الجيوش أمر بابطال الاحتفال بالموالد الأربعة: النبوي، العلوي، الفاطمي بمولد الخلفية الحاضر، انظر: الحضارة الإسلامية في القرن (4) المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986 جـ2ص718 .

(131) محمد المنوني: ورقات ص 265 .

(132) أبو العباس العزفي: الدر المنظم في مولد النبي المعظم مخطوط باالخزانة العامة بالرباط ك1469 ورقة 23 .

(133) محمد زلاقي: المرجع السابق، ص 55 ـ عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم دار البعث، قسنطينة1986 ص 215.

(134) نفسه ص 55. تقع مدينة أربل جنوبي شرقي الموصل، وقد زار هذه المدينة عالم مغربي سنة604 / 1207م. حين رأى صاحبها يحتفل بالمولد البنوي ألف له أول كتاب مذكور في هذا الصدد، وسماه كتاب: التنوير في مولد السراج المنير" الذي لا يزال غير معروف أما

المؤلف المغربي، فهو أبو الخطاب عمر بن الحسين بن علي بن محمد بن دحية الكلبي السبتي المتوفى بأرض الكنانة سنة 633 هـ / 1235، انظر المنوني: ورقات ص282 هامش (4).

135) إن كبير هذه الأسرة هو أبو العباس اللخمي السبتي، صاحب كتاب الدر المنظم في مولد النبي المعظم، (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم1469) توفي قبل انجاز الكتاب فاكمله ابنه أبو القاسم أحمد من بعده وهو أول من تولى مدينة سبتة، بعد استقلاله عن الموحدين، سنة647 هـ / 1251 م. واستمر حكمه للمدينة إلى أن توفي سنة 677 هـ / 1279 م. فخلفه ابنه أبو طالب عبد الله إلى أن استولى بنو مرين على مدينة سبتة سنة 705 / 1305م. انظر لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ج113. محمد المنوني: المرجع السابق ص 265ـ محمد زلاقي: المرجع السابق ص 59.

(136) عبد الهادي التازي: لماذا أعيد المولد في المغرب الاسلامي، مجلة دعوة الحق العدد 277جمادى الأول عام 1410 دجمبر1989 ص 48.

(137) محمد المنوني: المرجع السابق ص 282 هـ (4).

(138) يوجد المخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك، 1469.

(139) محمد الزلاقي، المرجع السابق ص 67.

(140) محمد المنوني: ورقات ص 268، عبد الهادي التازي: المرجع السابق ص 48.

(141) نفسه، ص 268.

(142) المسند، ص 152 ـ 153.

(143) المسند ص 154 ويقول ابن مرزوق في هذا الصدد: "هذه مكرمة خص الله بها هذه المملكة الشامخة والسلطة المرينية وإن حكاها غيرهم، فما أشبه ولاقرب ويضيف: "ثم في ليلة السابع مثل ذلك سواء" المسند ص 153 ـ 154.

(144) المسند ص 154.

(145) المرقبة العليا، نشر دار الكتاب المصري القاهرة 1948 ص 162.

(146) ابن أبي دينار: المؤنس ص 290.

(147) محمد المنوني: ورقات ص 279.

(148) ابن خلدون العبر ج7 ص 412.

149) المقري: نفح الطيب تحقيق محمد يحي الدين عبد الحميد، ط بيروت1949 ج9 ص 215. انظر أيضا: أزهار رياض، ج1 ص 242، محمد المنوني: المرجع السابق ص 279.

(150) عبد الهادي التازي: المرجع السابق ص 48.

(151) عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج2 ص 81/ 82.

(152) عن غزوات يوسف بن يعقوب المريني لمدينة تلمسان والمغرب الأوسط انظر: يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1 ص 208-209.

(153) ابن مرزوق: المجموع ورقة 46. انظر المسند ص 479.

(154) نفسه، ورقة 46.

(155) انظر في هذا الشأن محمد المنوني، ورقات ص 286، والذي يقول بأن أبا سعيد الأول "أضاف إلى ليلة الاحتفال بسابعه، وكان يشرف عليه ابنه وولي عهده أبي الحسن" أما محمد زلاقي فيقول: وفي عهد أبي الحسن" أضيف الاحتفال بسابع مولده" المرجع السابق ص 68.

(156) ابن مرزوق: المسند ص 164، وكان السلطان أبو الحسن قد بنى قبة العدل في المنصورة، وكان يحب الجلوس للناس فيها كثيرا، انظر المسند ص 173، وعن بناء مدينة المنصورة، انظر: المسند ص 447ـ 448.

(157) يرى أصحاب هذا الرأي، أنه كل ما أستحدث بعد رسول الله ﷺ من بدع يعد ضلالة، وفي هذا الشأن يقول الإمام مالك: "من ابتداع في الاسلام، بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمد ﷺ خان الرسالة، لأن الله ـ عزوجل ـ يقول: «اليوم أكملت لكم دينكم» لم يكن يؤمئذ دينا فلا يكون اليوم دينا، (علي محفوظ: الإبداع في مضار الإبتداع، الطبعة الخامسة دار الاعتصام 1956 ص 108 ـ محمد زلاقي: المرجع السابق 45).

وكذلك استند هؤلاء على أن السلف الصالح، من أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم لم يقوموا بها على امتداد القرون الأولى للهجرة، المشهد لها بالإجتهاد والخير، ويرون بأن ما يقام بهذه المناسبة من قراءة القرآن واطعام الفقراء والمحتاجين، وصلاة على النبي الكريم، وغيرها من أعمال البر والأحسان، بنية المولد، تعد بدعة مذمومة، وشأنهم في ذلك شأن الذي يقيم الصلاة في غير أوقاتها، وبالتالي فهم يعيبون الاحتفال بالمولد، عيبا ذاتيا، وبالإضافة إلى ذلك فإنهم كانوا ينكرون على المسلمين، إضافة المال والإسراف، وإستعمال الأغاني، وألات الطرب، وقراءة القرآن على غير الوجه المألوف، (محمد زلاقي: المرجع السابق ص 45 ـ 46).

أما القائلون: بجواز هذا الأحتفال، فان حجتهم في حديث الرسول ﷺ، والذي رواه مسلم: «لا يعقد قوم يذكرون الله ـ عز وجل ـ إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده» (أبو الحسن مسلم النيسابوري: صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء العربية 1995 ج4 ص 2074.

والحديث الشريف، في حد ذاته يؤكد على عمل الخير، ويحث على الجلوس له، وقراءة القرآن وتعظيم الرسول (ﷺ) واطعام الفقراء والمساكين، ولهذا جعلوا من هذا الاحتفال بدعة مستحبة.

ويعتمدون أيضا على سند أخر، هو يوم عاشوراء، الذي كان يحتفل به اليهود ويصومون فيه، وهو اليوم الذي نجى فيه الله موسى، عليه السلام، وأغرق فرعون فقال الرسول (ص): نحن أولى بموسى (صحيح مسلم ج4 ص 795)، فصام هذا اليوم، وأمر أصحابه بصيامه.

كما: ان ﷺ، يصوم يوم الاثنين، عندما سألوه عن ذلك، قال: «ذاك يوم ولدت فيه» (صحيح مسلم ج2 ص 819). والحقيقة أن إحياء هذه الذكرى ينتج عنها منافع كثيرة، منها شعور الناس، وإحساسهم بمحبة الرسول (ﷺ) وتعظيمه وتربية النشأ والأجيال الصاعدة، على محبة نبينا الكريم، في وقت أصبح فيه مثل هذه المناسبة أكثر من ضروري تدفع بالمسلم إلى التأمل ومراجعة النفس، وقد حثنا عزوجل على التذكر وأخذ العبرة بقوله: ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾ (سورة الذاريات أية 55).

(158) عن حياة السلطان أبي حمو موسى الثاني: انظر عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الزياني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982 ص 71 ـ 77.

(159) عبد الله حمادي: المرجع السابق ص 224، ومابعدها.

(160) يقع هذا الإحتفال يوم خمسة وعشرين ديسمبر حسب التقويم الغربي.

(161) عبد الهادي التازي: المرجع السابق ص 50.

(162) نفسه، ص 50.

(163) العزفي: الدر المنظم ورقة (5).

(164) النصبات جمع نصبة، ويقصد بها شجرة عيد الميلاد التي كانت أحيانا تطرز بأنواع الحلوى فضلا عن الشموع.

(165) العزفي: الدر المنظم ورقة 5.

(166) الجلوز: البندق، يشبه الفستق.

(167) هو قصب السكر، الذي كان يزرع بكثرة، في بلاد الأندلس.

(168) العزفي: الدر المنظم ورقة 6.

(169) الجمارة: نوع من الخضر يعرف بالكرنب، وهو ملفوف ورقة في ورقة ويضرب المثل في الستر والتغطي فيقال أكسى من الجمارة انظر عبد الهادي التازي المرجع السابق ص 51 هامش 12.

(170) العزفي: الدر المنظم ورقة (6).

(171) العزفي: الدر المنظم ورقة 6 انظر أيضا: عبد الله حمادي المرجع السابق ص 229 ـ 231. محمد الزلاقي المرجع السابق ص 63ـ 64. عبد الهادي التازي: المرجع السابق ص 48ـ 55.

(172) محمد المنوني: ورقات ص 266.

(173) نفسه، ص 266.

(174) ابن الحاج النميري: فيض العباب، ص 86.

(175) نظم الدر، ص 162.

(176) بغية الرواد، ج2 ص 40.

(177) نفسه، ص 40.

(178) المقرى: نفح الطيب، ج9 ص 215.

(179) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج2 ص 40.

(180) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج2 ص 40.

(181) المقري نفح الطيب، ج9 ص 218، ومما انشده ليلتئذ.

قفا بين أرجاء القباب وباالحي … وحي ديارا للحبيب بها حي

وعرج على نجد وسلع ورامة … وسائل فدتك النفس في الحي عن مي

وقل ذلك المغني المعذب بالهوى … يموت ويحي فارث للميت الحي

وبث لهم وجدي وفرط صبابتي … وارو حديثي فهو اغرب مروي

التنسي: نظم الدر، ص 164.

(182) نفسه، ص 163.

(183) نفسه، ص 316.

وسلع: موضع قرب المدينة وقيل جبل بالمدينة انظر: ابن منظور: لسان العرب، دار لسان العهد بيروت المجلد (2) ص 184.

(184) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج2 ص 49ـ التنسي: نظم الدر، ص 164.

(185) الخوان والخوان، هو مايوضع عليه الطعام ليؤكل، المنجد ج1 ص 201.

(186) بغية الرواد، ج 2 ص49.

(187) المنجانة او المنكانة او المنقانة ومعناها الساعة، واللفظة حسب المستشرق دوزي، مشتقة من مكان، وهي كلمة فارسية معناها آلة كان القدماء يقيسون بها الزمن ولا يزال اهل تلمسان يسمون ساعة الحائط الكبيرة "ملكانه" أما في المغرب الاقصى فلا تزال الكلمة تعني الساعة انظر: Dozy (R): suplement aux dictionnaire arabes p.27

ـ التنسي: نظم الدر، ص 162.

(188) بغية الرواد، ج2 ص 219.

(189) الايك: هو الشجر الكثير الملتف والواحدة ايكة المنجد، ط 7 ص 22.

(190) الصنج هو الذي يكون في الدفوف ونحوه، وهناك صنج ذو أوتار، انظر: ابن منظور مجلد ص 480.

(191) الطست: من أنية الصفر انثى انظر: ابن منظور لسان العرب، مج 2 ص 591.

(192) بغية الرواد، ج2 ص 40ـ 41. التنسي: نظم الدر ص 162 ـ 163.

المقري: نفح الطيب، ج9 ص216ـ 217، عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الزياني، ص 180.

(193) نظم الدر، ص 186.

(194) نفسه، ص 186.

(195) نظم الدر، ص 196. ولا يزال أهل تلمسان يحتفلون بيوم المولد، وبالسابع منه الى يومنا هذا، انظر: التنسي: نظم الدر، ص 196.

(196) نفسه، ص 212.

(197) الونشريسي: المعيار، ج2 ص 472.

(198) محمد زلاقي: المرجع السابق، ص 78. وقد ظهر عدة شعراء في البلاط الزياني، كان لهم باع طويل في شعر المولديات، نذكر منهم، السلطان أبو حمو موسى الثاني ومحمد بن يوسف الثغري التلمساني وأبو زكريا يحي بن خلدون، وأبو عبد الله بن جمعة التلاليسي، انظر: التنسي: ص 212 ـ المقري: نفح الطيب ج7 ص 212.

(199) عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، ص 130.

(200) ابو العباس احمد بن عمار الجزائري: فحلة اللبيب باخبار الرحلة الى الحبيب مطبعة فونتنانا الجزائر 1330هـ / 1949 ص 15 ـ 16.

(201) محمود بوعياد: المرجع السابق، ص 42 ـ 43.

(202) نظم الدر، ص 141.

(203) ابن خلدون: العبر، ج7 ص 174 ـ 175 ـ يحي بن خلدون: بغية الرواد ج2 ص 206.

(204) يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج2 ص 181.

(205) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج2 ص 181 ـ 182.

(206) يحي بن خلدون، ج2 ص 181 ـ 182.

(207) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج2 ص 223.

(208) نفسه، ج2 ص 223.

(209) نفسه، ج2 ص 310.

(210) مؤلف مجهول: ورقة 84.

(211) ابن مرزوق: المسند، ص 137.

(212) حول الزواج انظر البخاري ابو عبد الله محمد: صحيح البخاري، باب النكاح "شركة الشهاب الجزائر بدون تاريخ مجلد 3 ج6 ص 116 ـ 120.

(213) المازوني: الدرر المكنونة، ج1 ورقة 294.

(214) المجموع، ورقة 6.

(215) المازوني: المصدر السابق، ج1 ورقة 240.

(216) نفسه، ج1، ورقة 256 IDRIS (H.R): le mariage en occident musulman, analyse de fatwa medievales, extrates du "Miyar" d'alwancharichi, revue de l'occident musulmman et de la méditerranee n° 17 1èr semestre 1972 P. 100.

(217) المازوني: المصدر السابق، ج1، ورقة 287.

(218) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 11، الدرر المكنونة ج1، ورقة 303، لم نعثر على نموذج لعقود الزواج بمدينة تلمسان في العهد الزياني، وما تتضمنه من شروط، وهو الذي جعلني أذكر عقد متأخرا يعود تاريخه الى القرن الثاني عشر هجري (18)م، والظاهر أنه لا يختلف عن العقود التي كانت تصاغ في العهد الزياني.

يبدأ العقد بالحمد واظهار أهمية الزواج ومكاسبه الاجتماعية والدينية والنفسية في دباجة، ثم يعلن عن زواج العروسين بقوله: "..وبعد

فان المعظم الاجل الزكي . . . الحاج المعتمر السيد عثمان بن السيد علي تزوج بالبكر المصونة والدرة المكنونة السيدة عزيزة بنت السيد عبد الرحمان، كاتب دار الامارة العالية في التاريخ . . . على صداق مبارك ميمون، قدره ما بين نقد محضر وحال منظر، وكالي مؤخر الف دينار واحد جزائرية خمسينية العدد من سكة التاريخ وأربعة أفراد وخمسة قناطير صوف واربعة قفاطين، اثنان منها مذهب واثنان كمخة بغالة مع غليلتين ثنتين مع حزامين من الحرير مذهبين وأمتين اثنتين من وسط رقيق السوادن الصالحتين، للخدمة مع وقيتين ثنتين جوهر مع صارمة مصوغة من الذهب . . . إذ هي حينئذ بكر عذراء صالحة الروح والبدن، حرر بالجزائر من قبل قاضي المالكية ابوعبد الله محمد في صفر سنة 1194/1780، انظر: Saadeddine Benchaneb: un contrat de marriage Algerois, Annales de de l'institut d'étude orientales T. XII année 1955 Alger PP. 116. 117.

(219) الونشريسي: اختصار من المنهل ورقة 350.

(220) المجموع، ورقة 22.

(221) المجموع، ورقة 2 و 7.

(222) نفسه، ورقة 2.

(223) نفسه، ورقة 7.

(224) نفسه، ورقة 6ـ7.

(225) نفسه، ورقة 26.

(226) نفسه، ورقة 26.

(227) IDRISS (H.R): le marrige en occident, n 12 2eme semestre 1974 p. 54.

(228) المجموع، ورقة 16 ـ ابن مريم: البستان، ص 29.

(229) انظر: مقدمة كتاب المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق دراسة وتحقيق ماريا خيسوس ص 19.

(230) المجموع، ورقة 19.

(231) نفسه، ورقة 16.

(232) المجموع، ورقة 9.

(233) نفسه، ورقة 9.

(234) المازوني: المصدر السابق، ج 1، ورقة 296.

(235) المجموع: ورقة 35.

(236) بغية الرواد، ج 1، ص 207.

(237) المجموع، ورقة 42.

(238) ابن مرزوق: المسند، ص 495.

(239) إبن الزيات التادلي: المصدر السابق ص 109، 136، 161.

(240) إبن الزيات التادلي: المصدر السابق ص 161.

(241) الزجال: المصدر السابق ج2 ص 34ـ البكري: المغرب، ص 169 ـ الونشريسي: المعيار ج2 ص487، 488.

(242) السيوطي: نزهة الجلساء من أشعار النساء ص87، ترجمة 30 وكذلك ص 104 ترجمة ولادة بنت المستكفي.

(243) ابن مريم: البستان، ص 30.

(244) المعيار، ج5، ص276.

(245) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 8.

(246) عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ص 243.

(247) نفسه، ص 244.

(248) نفسه، ص 244، انظر ايضا:

- المازوني: الدرر المكنونة، ج 1، ورقة 262- العقباني: تحفة الناظر ص 200.

(249) الونشريسي: المعيار، ج2، ص 487- 488.

(250) انظر صحيح البخاري مجلد 3، ج6، ص 116- 120.

(251) المجموع، ورقة 39، المسند ص 194، حسن الوازن: المصدر السابق، ج 1، ص 181.

(252) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 1، ص108.

(253) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 166، يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 1، ص206.

(254) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 200.

(MARCAIS (G) : Tlemcen (ville d'art célébre) P. 58.

(255) ابن الحاج النميري: فيض العباب، ص 85.

(256) ابن الحاج النميري: فيض العباب، ص 85، مؤلف مجهول: الذخيرة السنية ص 131.

(257) نفسه، ص 85- حسن الوازن: المصدر السابق، ج 1، ص 52.

(258) فيض العباب، ص 86- مؤلف مجهول: الذخيرة السنية، ص 131.

(259) ابن مروزق: المسند، ص 184.

(260) المجموع: ورقة 42.

(261) مؤلف مجهول: زهرة البستان، ورقة 84.

(262) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 1، ص 181، 182- مفدي زكريا: المرجع السابق، ص 164.

(263) ابن مرزوق، ص 242.

(264) العقباني: تحفة الناظر، ص 236- المجيلدي: المصدر السابق، ص 72.

(265) ابن مرزوق: المجموع، ورقة8.

(266) نفسه، ورقة 19.

(267) نفسه، ورقة 26.

(268) نفسه، ورقة 7.

(269) المجموع، ورقة 44.

(270) نفسه، ورقة 2.

(271) نفسه، ورقة 2.

(272) ابن قنفذ: انس الفقير، ص 81.

(273) نفسه، ورقة 81.

(274) نفسه، ورقة 82.

(275) نفسه، ورقة 82.

(276) محمد الراضي بن ادريس: المقالة المرومة ورقة 25.

- أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 298- البستان، ص 212.

(277) البستان، ص 45.

(278) المجموع، ورقة 2.

(279) نفسه، ورقة 39

(280) حسن الوراكلي: اشارات اجتماعية واقتصادية عن مدينة المرية من خلال مصدر فقهي ضمن ابحاث اندلسية طنجة 1995م، ص 48.

(281) نفسه، ص 48.

(282) حسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص 181.

(283) نفسه، ج1، ص 181.

(284) حسن الوزان: المصدر السابق، ج1 ص 181.

(285) المازوني: الدرر المكنونة ج1 ورقة 256.

(286) العقباني: تحفة الناظر، ص 200.

(287) التنسي: نظم الدر، ص 180.

W. et G Marcais : le monuments arabes PP401-402

(288) حسن الوازن: المصدر السابق، ج1، ص 202.

(289) نفسه، ج1، ص 202.

(290) عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ص 231، 230.

(291) المجموع، ورقة 8.

(292) المجموع، ورقة 8.

(293) المجموع، ورقة 8.

(294) المجموع، ورقة 8.

(295) ابن مرزوق: المسند، ص 242.

(296) المجموع، ورقة 41.

(297) المجموع، ورقة 4، 10.

(298) عبد العزيز بن عبد الله: معلمة الفقه المالكي، ص 313، انظر: أيضا الونشريسي: المعيار، ج1 ص 317ـ319.

(299) ابن الخطاب: فصل الخطاب في نثر أبي بكر بن خطاب، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 773، د. ورقة 16، وعن رسائل التعازي انظر، الطاهر محمد توات: أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1993، ص 348.

(300) ابن خطاب: المصدر السابق، ورقة 9.

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية، الجزائر
2002
Printed in Algeria



عبد العزيز فيلالي

- من مواليد 16 مارس 1944 بقسنطينة - الجزائر
- تابع دراسته الإبتدائية والمتوسطة بمسقط رأسه ثم ليبيا، أين تحصل على شهادة «إجازة التدريس العامة سنة 1966 ونال شهادة البكالوريا» من القاهرة سنة 1967.
- حاز على شهادة لسانس في التاريخ من كلية الآداب جامعة قسنطينة سنة 1971.
- ناقش أطروحة الماجستير في التاريخ الوسيط بكلية الآداب جامعة الأسكندرية سنة 1977.
- انتدب في بعثة دراسية إلى فرنسا ما بين سنتي 1983-1986.
- حاز على شهادة دكتوراه الدولة في التاريخ الوسيط من معهد التاريخ جامعة الجزائر سنة 1996.
- عمل معيدا ثم أستاذا مساعدا مكلفا بالدروس وأستاذا محاضرا منذ تعيينه بجامعة قسنطينة سنة 1971.
- درس عدة مواد في تاريخ المشرق والمغرب والأندلس والمناهج العلمية.
- تقلد مناصب إدارية وبيداغوجية بالجامعة، منها: رئاسة قسم التاريخ (لمرتين).
- نائب عميد كلية الآداب، ثم رئيسا للمجلس العلمي بمعهد العلوم الاجتماعية (لفترتين) وعضو بالمجلس العلمي للجامعة.
- عين رئيسا لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية سنة 1996.
- حاز على شهادة تشجيع في الدراسات التاريخية من رئاسة الجمهورية.
- عضو مؤسس لرابطة المؤرخين الجزائريين، واتحاد المؤرخين الجزائريين وعضو باتحاد المؤرخين العرب.
- عضو هيئة تحرير ونائب لرئيس التحرير ثم رئيسا لتحرير مجلة سرتا، وعضو هيئة تحرير مجلة العلوم الإنسانية بجامعة قسنطينة.
- عضو لجنة التقييم والقراءة لمجلة التاريخ، وكذلك بديوان المطبوعات الجامعية.
- ترأس فرقة بحث حول تاريخ أهم مدن الشرق الجزائري، وعضو فرقة بحث بالمتحف الوطني للجيش.
- أشرف ويشرف على الرسائل الجامعية (ماجستير ودكتوراه) بجامعات: قسنطينة، والجزائر، والأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كما ناقش الكثير من الرسائل الجامعية.
- شارك في العديد من المؤتمرات والملتقيات الفكرية الوطنية والعربية.
- نشر مقالات عديدة في المجلات المحكمة والمتخصصة الوطنية منها والمغاربية.
- ساهم بمقالات كثيرة في الصحف والجرائد الوطنية والعربية.
- كما انتخب بالمجلس الشعبي الوطني
- له كتب منشورة.

* العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، «الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982.
* المظاهر الكبرى لعصر الولاة في بلاد المغرب والأندلس، «دار المعارف للنشر والتوزيع بسوسة تونس 1991.
* مدينة قسنطينة (التطور التاريخي والبيئة الطبيعة) دار البعث قسنطينة 1984.
* مدينة ميلة في العصر الوسيط بالإشتراك دار البلاد للاتصال والخدمات قسنطينة 1998.
* مدينة قسنطينة في العصر الوسيط دار البحث قسنطينة 2002
* تلمسان في العهد الزياني موفم للنشر الجزائر 2002

د. عبد العزيز فيلالي

تلمسان في العهد الزياني



الجزء الثاني

ENAG / EDITIONS

الدكتور عبد العزيز فيلالي

تلمسان في العهد الزياني

(دراسة سياسية، عمرانية، إجتماعية، ثقافية)

الجزء الثاني

01 11 02 / 02

ردمك 0 - 248 62 9961
الإيداع القانوني 02 / 341

البـاب الرابـــع
مظاهر الحركة الفكرية
والتعليمية بتلمسان

الفصل الأول
عوامل نمو الحركة الفكرية
والتعليمية بتلمسان

1- عناية بني زيان بالثقافة والعلم.
2- ظاهرة انتشار المدارس
3- الرحلة في طلب العلم
4- عينة في الرحالة
5- الوراقة
6- التعـلـيـم:
أ- التعليم الشعبي
ب- التعليم الإحترافي
جـ - المرحلة الأولى من التعليم
د- المواد الدراسية بالكتاب
ك- المرحلة الثانية من التعليم
هـ- المشيخة التلمسانية
و- طرق التدريس
ن- تعليم المرأة
د- الإجازة العلمية

عوامل نمو الحركة الفكرية والتعليمية بتلمسان :

إن الذين كتبوا عن تاريخ دولة بني زيان، سواء من الناحية التاريخية أو في نواحي أخرى، لم يغفلوا الإشارة إلى أن مدينة تلمسان في عهد بني زيان، قد عرفت إزدهارا ثقافيا ملحوظا ونهضة أدبية كبيرة، لم يسبق لها أن عرفتها من قبل والحجة في ذلك كثرة العلماء وانتاجهم الفكري الضخم في هذه الفترة (1).

وقد وصف هؤلاء الباحثون هذه النهضة بنعوت شتى منها، «الإزدهار الثقافي» و«النشاط العلمي» و«الحركة الفكرية» و «النبوغ الأدبي»، وغيرها من الأوصاف العامة التي تبين الكمية والفعالية، تطلق على كل انتاج أدبي أو تاريخي أو فقهي، وربما يعود السبب في ذلك إلى التطور الذي طرأ على معاني المصطلحات، أو العبارات المستعملة للدلالة على النمو الفكري وتطور أفقه وأبعاده، مثلها مثل كلمة «ثقافة» (2)، التي ظل مفهومها بين المد والجزر، اختلف الدارسون في استعمالها وشموليتها واحاطتها من بيئة إلى أخرى، لأن مفهوم الثقافة يخضع إلى المعتقدات الدينية والسياسية والمذهبية.

وقد صار مدلول النشاط الثقافي في كل عصر من العصور، يعني في نظر العلماء على اختلاف معتقداتهم الدينية والمذهبية وتباين مدارسهم تقريبا، هو كل رقي حضاري وإزدهار ثقافي ونبوغ فكري، تجمع بين الأمور المعنوية والمادية والروحية، وتتضمن جميع فروع العلم والمعرفة والانتاج المادي وجميع أنواع النشاط الفكري(3).

إن أبرز هذه الملاحظات من شأنها أن تساعد على تسليط الأضواء، على الحركة الفكرية بمدينة تلمسان وتوضيح بعض جوانبها، وإظهار معالمها من خلال النصوص الزيانية التي بين أيدينا.

وقبل أن نتعرض إلى العوامل التي ساعدت على نمو الحركة الفكرية وتطورها، يجدر بنا أن نعرج بإيجاز على الأحداث السياسية الكبرى التي عاشتها بعض الأقطار الإسلامية في المشرق والمغرب، خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي ، وهي الفترة التي ظهرت فيها مدينة تلمسان كقاعدة سياسية وعلمية في المغرب الأوسط.

كان العالم الإسلامي في هذه الفترة بجناحيه الشرقي والغربي، يعاني من وطأة الحركة الصليبية والغزو المغولي وحركة الاسترداد الاسباني المسيحي، فضلا عن الحرب بين الأسر الحاكمة في الأقاليم، والفتن الداخلية بين الاخوة الأعداء، فقد نتجت عن هذه الظواهر نكسة سياسية واقتصادية وثقافية ملحوظة أصابت دار الاسلام.

وقد عبر عن ذلك ابن الأثير (ت 630 هـ/ 1232) أصدق تعبير بقوله: « ولقد بُلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل أحد من الأمم منها هؤلاء التتر ـ قبحهم الله ـ أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال، التي يستعظمها كل من يسمع بها . . . ومنها خروج الفرنج ـ لعنهم الله ـ من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها ـ لولا لطف الله تعالى ـ ونصره عليهم، ومنها أن الذي سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق. . . »[4].

فقد قام «جنكيز خان» المغولي سنة 617هـ/ 1218 م بإحراق خزائن الكتب ومختلف النفائس العلمية في مدينتي «بخاري» و«نيسابور»، وعمل « هولاكو » على احتلال مدينة بغداد في سنة 656هـ/ 1258م ، وأتى على المصنفات والمؤلفات التي كانت بها، وألقاها في مياه دجلة حتى صار النهر معبرا للناس[5] ، ولم يكتف التتار بتخريب العمران والثقافة في بلاد المشرق بل قاموا بمجازر في كل مكان وصلوا إليه من أرض الإسلام، ولم ينج منهم الفقهاء والعلماء والأدباء والمدرسون، فقتلوا وشردوا العديد منهم، ففي مدينة «بخاري» وحدها أجهزوا على أكثر من أحد عشر ألف مدرس ومفت، وفي مدينة بغداد عاصمة بني العباس قضى جيش التتار على ثلاثة عشرة ألف فقيه[6].

أما بلاد الأندلس فقد كانت مسرحا لحرب صليبية مدمرة بين المسلمين والاسبان ، لم تتوقف عند إبادة المسلمين وتشريدهم، بل لم تنج منهم حتى المكتبات وخزائن الكتب من الحرق والاتلاف، في المدن الإسلامية الأندلسية التي استولى عليها الإسبان، فالنصوص تشير إلى أنهم

أحرقوا نحو مائة ألف مخطوط في ساحات مدينة غرناطة 904 / 1499م، [7] وكانوا يصادرون الكتب العلمية التي يحتاجون إليها، وقاموا بتحطيم المؤسسات التعليمية والدينية وقتل العلماء والفقهاء، وتشريدهم من ديارهم وتجريدهم من ممتلكاتهم، فلجؤوا إلى بلاد المغرب والمشرق بحثا عن أماكن آمنة لهم [8]. وهكذا يتضح أن كثيرا من العلماء والمصنفات الشرقية والأندلسية تعرضوا للقتل والاتلاف، بسبب الحروب والأزمات السياسية فقلت بذلك المؤلفات العلمية والفقهية في المشرق، وخاصة في بغداد والبصرة والكوفة، بسبب التتار في المشرق وعلى يد الاسبان في الأندلس [9]، فنقصت بذلك الذخائر العلمية في الوقت الذي ظهرت على سطح بلاد المغرب، خريطة سياسية جديدة ساهم في رسمها ثلاث قبائل مغربية عريقة على انقاض الدولة الموحدية، هي: دولة بني حفص، ودولة بني زيان، ودولة بني مرين، ورثت هذه الدول جميعا الرصيد الحضاري والفكري للموحدين، ثم أضافت إليه جرعة علمية بفضل السياسة الجديدة التي اتبعتها هذه الدول ونظرتها إلى العلوم النقلية والعقلية [10].

لاشك أن الحياة السياسية القلقة التي عاشتها مدينة تلمسان في بعض الفترات من تاريخها الزياني، التي سببتها الفتن الداخلية أو الحملات المرينية والحفصية المتكررة على العاصمة الزيانية، لم تؤثر بشكل مباشر على الحياة العقلية السائدة في المدينة أو تعرقل نموها المطرد، بل ظلت تلمسان تحافظ على مكانتها العلمية حتى في أحلك ظروفها السياسية، ويعود ذلك إلى جملة من العوامل المستمدة من البيئة التلمسانية ومن واقعها المادي والبشري، ومن معطياتها الإجتماعية والفكرية، حتى وإن تعددت واختلفت في مظاهرها نذكر أهمها.

عناية بني زيان بالثقافة والعلم:

لعل المكانة الرائدة التي كانت تتمتع بها مدينة تلمسان، ترجع بالدرجة الأولى الى النزعة العلمية والثقافية، التي كان يتميز بها بعض سلاطين وأمراء بني زيان، الذين كانت لهم ارادة قوية ورغبة شديدة وجهود مستمرة، امتازوا بها في ميدان الحركة الفكرية بصفة عامة ورعاية معتبرة، للفنون والآداب والعلوم الشرعية على وجه الخصوص، وعنايتهم، الدائمة هذه جعلتهم يشجعون العلماء والفقهاء والأدباء، ويستقبلونهم من مختلف الحواضر المغربية والأقطار الإسلامية ولاسيما منها العدوة الأندلسية [11].

استفاد أهل تلمسان مما كانوا يحملونه من علم وفكر وحضارة، فكانت لهم مشاركة جادة في تطوير الحياة الثقافية والاجتماعية والإقتصادية وترقيتها بالمدينة [12]، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: «وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت من عوائدها، لما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس» [13].

فقد كان لأمراء بني زيان وسلاطينهم رعاية مستمرة للعلم والأدب ومختلف علوم ذلك العصر، لأن من بينهم من كان ينتمي إليه فكان منهم الفقيه والشاعر والأديب والفنان، مثل: السلطان أبي تاشفين الأول المولوع بالفن والعمران [14]، والأمير الفقيه أبي محمد عبد الله بن عثمان بن يغمراسن المعروف بابن أبي حفص، والشيخ الفقيه أبي سليمان داوود علي كبير بني عبد الواد وشيخ دولتهم. والفقيه أبي عبد الله محمد بن السلطان أبي يحي يغمراسن المعروف بابن شانشة [15]، والشاعر السلطان الأديب أبي حمو موسى الثاني [16]، والسلطان أبي زيان محمد الثاني [17]، فكان هؤلاء الأمراء والسلاطين وغيرهم يشجعون العلماء على الاجتهاد في الدرس، وتحرير الأفكار من الركود وتنشيط الحركة الفكرية بالعاصمة الزيانية، وكانوا يشرفون في بعض الأحيان على المجالس والمنابر التي تلقى فيها الدروس العلمية، التي تتعلق بالعقيدة والتاريخ والعلوم العقلية الأخرى، كما كان في عهد أسلافهم الموحدين، الذي تميز بالإجتهاد وحرية الفكر في المسائل المتعلقة بالمعتقدات والفقهيات، فتأثرت مدينة تلمسان بهذه النهضة وبمختلف التيارات الفكرية السائدة آنذاك [18].

فقد أتاحوا الفرصة للحوار والمناظرة والتعمق في البحث، والاقبال على دراسة مختلف المؤلفات الفقهية وغيرها، حتى صارت مدينة تلمسان في عهد بني زيان من المراكز التي تستقطب الطلاب وأهل العلم، لأنها تفسح لهم مجال العمل ونشر العلم والأحكام الإسلامية، فاستقبلت في هذه الفترة العديد من الوافدين عليها من شرقها وغربها [19]، ويؤكد ذلك قول الإمام المقري الجد: «فتفرغت ـ بحول الله عز وجل ـ للقراءة فاستوعبت أهل البلد لقاء وأخذت عن بعضهم عرضا ولقاءا سواء المقيم القاطن أو الوارد الظاعن» [20].

فأقبل أهل العلم على الاكتراع من ينابيع الثقافة بتلمسان والاستفادة من علمائها المقيمين والزائرين مباشرة، حتى صار لهم «حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى

رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها» حسب تعبير ابن خلدون [21].

وكان السلطان يغمراسن أول من دشن تشجيع الحركة الفكرية والتعليمية بتلمسان، ورغّب رجال العلم في القدوم الى عاصمته، وأغدق عليهم الأموال والهدايا والجرايات وأعلى منزلتهم، وشجعهم على التدريس والتأليف فاستقر في عهده بمدينة تلمسان، الشيخ العالم أبو اسحاق ابراهيم بن يخلف التنسي (ت 680 هـ/ 1306م)، كبير علماء زمانه [22]، وأخوه أبو الحسن (ت 706 هـ/ 1306)، وقد كانت المنافسة بين سلاطين المغرب على أشدها في اختيار كبار الكتبة والأدباء والفقهاء، وإدراجهم في المجالس العلمية والدواوين مثلما فعل العاهل التلمساني يغمراسن بحيث تمكن من استقطاب أبي بكر محمد بن عبد الله بن خطاب المرسي الأندلسي (ت 686 هـ/ 1287)، الى بلاطة [23] والذي يقال عنه أن المستنصر أبا عبد الله بن أبي زكريا الحفصي (647 ـ 675 هـ/ 1249ـ 1277) طلبه للكتابة، وبعث له أموالا كثيرة لهذا الغرض، لكن ابن خطاب اعتذر ورد له أمواله، فظهر علو شأن هذا الكاتب وبعد همته عند الخليفة الحفصي وتحدث ابن الخطيب في هذ الصدد بقوله: «وزعموا أن المستنصر أبا عبد الله بن الأمير أبي زكريا، استقدمه على عادته في استدعاء الكتاب المشاهير والعلماء، وبعث إليه ألف دينار من الذهب العين فاعتذر ورد عليه المال، وكانت أشق مامر على المستنصر وظهر له علو شأنه وبعد همته» [24].

ومما يلاحظ أن يغمراسن اختار هذا الكاتب خصيصا، لكتابة الرسائل الموجهة للعاهل الحفصي في تونس والى الأقطار الإسلامية الأخرى [25]، وكذلك وفد على يغمراسن الكاتب ابن وضاح الأندلسي [26]، وكان العاهل الزياني، يعقد المجالس العلمية في قصره ويهتم بالمذهب المالكي ويرعاه [27]، ونحا منحاه ابنه السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن في تشجيع ذوي العلم والفقه، فاحتفظ بمن كان في بلاط أبيه من العلماء والفقهاء والأدباء، وأضاف لهم الشاعر الصوفي الكاتب المتميز أبا عبد الله محمد بن خميس (ت 708هـ/ 1308)، وقلده خطة الكتابة سنة 671 هـ/ 1272 م [28].

أما السلطان أبو حمو موسى الأول، فقد جعل مدينة تلمسان منارة للعلم يقصدها العلماء وأهل الفكر، نذكر منهم الفقيهين الكبيرين ابني الإمام أبي زيد وأبي موسى، الذين قربهما إليه

وأكرم وفادتهما، وبني لكل واحد منهما منزلا وأسس لهما مدرسة، وهي المدرسة الأولى التي تشيد بمدينة تلمسان في بداية عهده، وكان أبو حمو هذا يكثر من مجالستهما والاستماع إلى نصائحهما وعلمهما الغزير [29] واختصهما بالفتوى والشورى [30].

وقرب السلطان أبو تاشفين الأول إليه الفقيه أبا موسى عمران المشذالي البجائي (ت 745 هـ/ 1345 م)، أعرف أهل عصره بمذهب مالك وعينه مدرسا بالمدرسة الجديدة التي أسسها بتلمسان، وأراد بذلك لعاصمته أن تضاهي فاس وتونس وغرناطة في المجال الحضاري والعمران [31].

وقد اشتهرت في عهده أيضا أسرة بني الملاح [32]، وقاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن منصور المعروف بابن هدية (ت 735هـ-1335م)، الذي تولى قضاء الجماعة بتلمسان وكتابة السر والخطابة في المسجد الجامع، فكانت له مكانة متميزة عند أبي تاشفين الأول [33]، الذي كان يحرص كل الحرص على إقامة المجالس العلمية والأدبية في قصره ويحضرها باستمرار، وتدار فيها المناقشات بين الفقهاء والعلماء والأدباء، لعب فيها الشيخ الفقيه العالم موسى بن عمران بن موسى المشذالي دورا بالغ الأهمية، بين أقرانه الفقهاء في المسائل الفقهية التي كانت محور الحديث والنقاش، وحول التقليد والتقييد والإجتهاد وأصول المذهب المالكي [34].

وأنشأ السلطان أبو الحسن المريني مدرسة العباد سنة 748 هـ/ 1348 م، أي أثناء استيلائه على المغرب الأوسط [35]، وجلب لها الأساتذة وأجرى على طلابها المنح والأرزاق واقتدى ابنه أبو عنان به في تشييد المدارس والمؤسسات العمومية، فأضاف لمدينة تلمسان مدرسة أخرى بناها بجانب مسجد وضريح الولي الصالح ابي عبد الله الحلوي سنة 754 هـ/ 1343 م [36].

وكان هذان السلطانان من علماء عصرهما وقد أحرزا ثقافة متينة، وأسهما في مجالس العلم وأحاطاها برعاية فائقة، وقد وصف لنا ابن مرزوق اهتمام ابي الحسن بدراسة الحديث وكتب السيرة، وتقريبه للعلماء ومحاورتهم ومشاركتهم في المجالس العلمية بقوله: «وكان أبر الناس بأهل العلم وأعرفهم بقدرهم استخلصهم لنفسه، وجمع من سائر بلاده في حضرته إذا سمع بمن له رسوخ قدم في العلم أقدمه على حضرته، وجعله من خواص أهل مجلسه وأجرى عليهم الجرايات التي تكفيهم حضرا وسفرا، فاجتمع بحضرته أعلام ثم ضم لهم من كان بتلمسان وأحوازها، حين استيلائه عليها ثم استمر هذا العمل في دخوله بلاد افريقية» [37]. وأما السلطان أبو حمو

موسى الثاني مجدد الدولة الزيانية فقد عنى بالعلوم والأدب، عناية خاصة باعتباره يمتاز بالإلمام الواسع بمختلف العلوم والفنون ولاسيما الأدب وشعره [38]، فقد كان يتميز بشخصية ذات سمات أندلسية تجلت في ثقافته وسلوكه وطموحاته، تألق بصفة خاصة كشاعر مفوه، وناثر ممتاز وأديب يحب الأدباء ويجيز الشعراء [39]، وفيلسوف ألف كتابا أسماه «واسطة السلوك في سياسة الملوك»، وهو عبارة عن نصائح سياسية وأخلاقية وتنظيمية [40]، كانت له مجالس خاصة يحضرها كبار العلماء وفحول الشعراء، تناقش فيها قضايا العلم والفقه والأدب والسيرة النبوية وكان له فيها رأي محمود ونقد بناء، وصفه الامام أحمد المقري بأنه «يقرض الشعر ويحب أهله» [41]، ساهم في تأسيس مكتبة عمومية في تلمسان وجلب لها مختلف الكتب [42].

وقد زاد اهتمام سلاطين بني زيان بالشعر والأدب في القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي [43]، مثل أبي حمو موسى الثاني الذي كانت له ليالي المولد النبوي الشريف من الليالي المشهودة، يحتفل بها ويعود له الفضل في سنها للمجتمع التلمساني، ووصفه صاحب نحلة اللبيب بأنه كان «طالب للعلم في صغره معتنيا به في كبره مكرما للعلماء في أيام دولته مجلا لهم» [44]. وقال فيه ابن الأحمر: «تمسك بالعلم في سماء المعالي، وبرع في نظم القريض وجمع نور الأريض، وجاز في الشرف بذلك ما أنسى به شرف كل مالك» [45].

نال الكتاب والفقهاء والشعراء عطفه وكرمه، وانتشر العلم بالمغرب الأوسط في عهده انتشارا لم يعهد له مثيل، ونبغ فيه فحول النظار وأجلة العلماء والكتاب [46]. وبنى هو الآخر مدرسة إلى جانب أضرحة والده أبي يعقوب يوسف وعميه أبي سعيد وأبي ثابت سنة 765 هـ / 1363 م، وعهد بالتدريس فيها لأشهر الأساتذة بتلمسان وقتذاك أبي عبد الله الشريف التلمساني (ت 771هـ/ 1369م)، الذي يتميز بمذهبه الكلامي في إطار المذهب المالكي [47]. وشجع السلطان أبو زيان محمد الثاني (796 ـ 801 هـ / 1394 ـ 1399)، على التأليف ونسخ الكتب واقتنائها وحبسها بخزانته، التي شيدها بالجامع الأعظم بتلمسان، وكان له حظه في التأليف فصنف كتابا نحى فيه منحى التصوف سماه كتاب «الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة»، وكان يحتفل هو الآخر بالمولد المصطفى (ﷺ)، احتفال أسلافه الكرام بالمديح والأشعار [48].

وكان السلطان أبو العباس أحمد بن زيان (834 ـ 866 هـ / 1431ـ1462) يجالس العلماء، وأهل الفضل والصلاح، ويشجعهم على التصنيف ويحضر دروسهم ومحاضراتهم، ويزورهم بمنازلهم ويمشي وراء جنائزهم (49)، وبنى مدرسة بزاوية الحسن بن مخلوف أبركان. وقامت في عهد أبي عبد الله أحمد الباقي، الذي امتد إلى نهاية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، للعلم دولة ونبغ في عهده أئمة وفقهاء كثيرون، يقتدى بهم وبعلمهم، توفي أغلبهم في عهده أي في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، وحضر جنائز العديد منهم (50).

كما جاز الأمير الحاج يوسف بن عمر الزياني، من الفصاحة ما أسكت به الأواخر والأوائل، على حد تعبير ابن الأحمر، فكان إلى جانب بلاغته وفصاحته يقرض الشعر (51).

انتشار المدارس:

ظهر نظام المدارس، في مدينة تلمسان، ابتداءا من العقد الأول من القرن الثامن الهجري، الرابع عشر ميلادي، وانتشرت عبر أحياء المدينة، خلال هذا القرن، وقد تأخر وجودها عن بلاد المشرق بنحو قرنين من الزمن، وعن جارتيها افريقية والمغرب الأقصى بنحو نصف قرن (52).

لقد أسست المدارس في نيسابور، نتيجة لانبعاث حركة أهل السنة على حساب مختلف فصائل المذهب الشيعي، في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي (53)، لأن اهتمام سكان نيسابور كان منصبا على العناية بالمذهب الشافعي خاصة وبالسنة عموما (54)، ففي منتصف القرن الخامس الهجري شيد الوزير السلجوقي نظام الملك المدرسة النظامية، في الجانب الشرقي من بغداد، وأنشأت لتدريس الفقه الشافعي، لأن نظام الملك كان شافعيا أشعريا، وشرط الواقف أن يكون المدرس والواعظ بالمدرسة ومتولي الكتب من الشافعية أصلا وفرعا (55). ثم أنتقلت الحركة إلى مصر مع نهاية الدولة الفاطمية أي بعد قرن من الزمن (56). وكانت المدارس بالمشرق تتصنف إلى ثلاثة أصناف هي:

1 ـ المدارس الحرة وهي التي يرجع الفضل في انشائها وتمويلها إلى الخواص من العلماء والأعيان.

2 ـ المدارس الشبه الرسمية، وهي التي أقامها وحبس عليها بعض الأمراء أو الوزراء أو غيرهم من أعيان الدولة الحاكمة.

3 ـ المدارس الرسمية، وهي التي أمر ببنائها والإنفاق عليها الملوك والسلاطين أنفسهم، أنشئت جميعها لمقاومة التشيع في بلاد المشرق لفائدة السنة، بمختلف اتجاهاتها الحنفية والحنبلية والشافعية والمالكية (57).

أما في بلاد المغرب فقد تأسست أول مدرسة في سبتة سنة 635 هـ / 1237 (58)، ولحقتها مدينة طرابلس ما بين سنتي 655 ـ 658 هـ / 1257 ـ 1260 م)، في عهد بني حفص بالديار الافريقية المتاخمة للديار المصرية، والبعيدة عن مدينة مراكش عاصمة الموحدين (59)، أي بعد سقوط الخلافة العباسية السنية ببغداد سنة 656 هـ / 1258 م، على يد التتار، وكذا ظهرت أول مدرسة بمراكش سنة، 658 هـ / 1260 م، فقد تزامن ظهور هذه المدرسة مع مدرسة طرابلس الغرب، ويكون الهدف من وراء ذلك التسابق الخفي الصامت، بين أبناء العم تنافس على قيادة المسلمين في المشرق والمغرب، بعد زوال رسم الخلافة العباسية (60).

والدليل على ذلك، هو تلقب السلطان الحفصي المستنصر بالله بالخلافة سنة 650 هـ / 1252، بالرغم من وجود الخلافة الموحدية بمراكش، وتقربه من أهل السنة ولاسيما رجال المذهب المالكي بإفريقية (61).

وكانت حركة أهل السنة قد نشطت، وتجدد انبعاثها في ربوع المغرب الاسلامي، وكثر ضغطهم على الحكام عامة وعلى الموحدين خاصة، ولاسيما بعد أن تبرأ الخليفة المأمون الموحدي من العقيدة التومرتية سنة 626 هـ / 1228 م، عند ذلك بدأ المذهب المالكي، يسترجع مكانته الكبيرة ودوره الريادي في ربوع المغرب، ضمن المذاهب الأخرى، في النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي.

وقد ساعد على هذا الإتجاه نزوح عدد كبير من فقهاء السنة المالكية من الأندلس، بعد سقوط المدن الأندلسية خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، واستقرارهم في الحواضر المغربية الكبرى، فقرب الكثير منهم بنو زيان، وبنو حفص وبنو مرين، وعينوهم في وظائف الفقهاء والإفتاء والكتابة والخطابة والتدريس، إلى جانب اخوانهم في المذهب من أهل

المغرب، الذين لم يتوقفوا عن مقاومة عقيدة ابن تومرت والدفاع عن مذهبهم، بكل قوة وصلابة وهو مذهب صاحب دار الهجرة (62).

وإذا كانت المدارس في بلاد المشرق قد وجدت في البداية من أجل المذهب الشافعي، ثم تطورت إلى أن شمل التنافس المذاهب السنية الأربعة المختلفة، فإن مدارس تلمسان خاصة والمغرب عامة، وجدت من أجل المذهب المالكي، واطراح بدعة الموحدين ومذهبهم في الاعتقاد (63)، وأن المدارس التلمسانية، كانت مدارس حكومية رسمية تابعة كلها للدولة، والتي ظلت تشرف عليها بالتمويل، وتعيين الأساتذة والمدرسين، وكان كل مدرسيها من المالكية (64).

اتسمت هذه المدارس بالإشراف الرسمي للدولة، فسجلت انتصارا كبيرا للسنة والعودة الى المالكية مذهبا، وانتشار الأشعرية اعتقادا (65) ،ولعل هذه المدارس الحكومية الرسمية، التي انشئت من أجل تعليم القوانين الشرعية والعلوم اللغوية، قد استعملت منهجين متعارضين في مظهرهما، وهما الإجتهاد (66) والتقليد (67).

وقد خصصت السلطة الرواتب والأجور للمدرسين ولكل العاملين في المدارس، كما تكفلت بإعانة الطلبة ماديا وبتحمل جميع نفقاتهم ومصاريفهم، وحرص المشرفون على المدارس على انشاء المكتبات وغمرها بالكتب، لأن المكتبة تعد عصب المدرسة وشريانها، وكانت الكتب فيها تبوب وترتب حسب فنونها وتخصصها، حتى يسهل على الدارس الحصول عليها، وإذا أراد أحد الناسخين نسخ البعض منها، فإن موظفي المكتبة يقدمون له ما يحتاج إليه من أدوات الكتابة كالأوراق والأقلام (68).

والظاهر أن سلاطين بني زيان ـ كغيرهم من ملوك الدول الإسلامية، كانوا يهدفون من وراء إنشاء هذه المدارس في المقام الأول، إلى نشر التعليم والثقافة من جهة، وتوجيه الرعية وجهة تخدم مصلحة المذهب والدولة، وبعث الاستقرار والسكينة والهدوء والأمن بين الرعية، ولهذا كانوا يشرفون على المدارس اشرافا مباشرا، ويؤكدون على مواضيع الدراسة بها وإفهام الناس عامة، ومن هم مهيكلون في المدارس خاصة أصول الدين الصحيحة، ولما كان سلاطين بني زيان مالكيين فقد كانوا يؤكدون، على تدريس الفقه والأصول المستمدة من أفكار المذهب المالكي وآرائه، وإنشاء المدرسة في حد ذاته يعد تطورا في الحياة الثقافية والتعليمية، كما كان لها دورها في تنشيط

الدراسات الفقهية والأدبية والعلمية، وساهمت في توحيد الفكر الإسلامي والمذهب في حاضرة الدولة الزيانية وفي غيرها.

الرحلة في طلب العلم:

حرص سلاطين بني زيان، وفقهاء مدينة تلمسان على تمتين العلاقة مع أهل المغرب خاصة، والمشرق والأندلس على وجه العموم، حيث تضاعف الإتصال عن طريق النشاط الديبلوماسي [69]، وتبادل الرسائل الديوانية والاخوانية [70]، وعن طريق الرحلة العلمية والحج إلى البقاع المقدسة بالحجاز وبيت المقدس، فأتيحت الفرصة للتلاقح الفكري ودعم الروابط الثقافية بين علماء تلمسان، ونضرائهم من حواضر المشرق والمغرب والأندلس [71]، بالرغم من التجزئة السياسية التي عرفتها الأقطار الإسلامية حينذاك.

فقد تنقل الدارسون التلمسانيون لطلب العلم والإستزادة منه، ولقاء كبار الشيوخ المشهورين، لأن الرحلة في طلب العلم كانت من المسائل المحمودة، فكانوا لا يكلون عن السعي في سبيل الدرس والتحصيل وتبادل الأراء في مختلف العلوم العقلية والنقلية، ومدّ جسور العلم والثقافة عبر الأجيال ويتمثل هذا الاتصال في تداول المعارف والكتب، وتبادل الإجازات اعترافا متبادلا فيما بين الشيوخ أنفسهم، لما يجدونه من معارف ولما يحصلونه من علوم بعضها كان باللقاء المباشر والبعض الآخر كان بالمكاتبة [72].

فقد انتقلوا إلى تونس تدفعهم الرغبة في المزيد من الدرس والتحصيل على شيوخ الزيتونة [73]، وإلى مدينة فاس للإجازة على علماء القرويين [74]، أو الأخذ من فقهاء غرناطة [75] وبجاية [76]، ومدارس الإسكندرية [77]، والجامع الأزهر بالقاهرة [78]، والإنتساب إلى مراكز التعليم بمكة المكرمة والمدينة المنورة [79]، وكذلك زاروا معاهد الشام وبغداد للتعمق في دراسة الفقه وأصوله، والتعرف على المدارس النحوية واللغوية والحديث والتفسير وغيرها من علوم العصر [80]، فتنافس جميعهم في غشيان المجالس والحلقات على اختلاف حظوظهم من التحصيل على أعلام هذه المدن [81]، والمساهمة من جهة أخرى في نشر ما عندهم من علم ومعارف لطلاب هذه المدن ومشائخها، فكان لهم باع طويل في هذا المجال، تركوا آثارا علمية وبصمات فكرية وسمعة طيبة عند أهل المشرق والمغرب والأندلس [82].

فكانت المشيخة العلمية والأدبية التلمسانية قد بلغت من النضج والاستواء درجة كبيرة، جعلها تفرض نفسها في الأوساط العلمية شرقا وغربا [83]، وإذا كانت دوافع الرحلة وبواعثها تختلف من شخص لآخر ،فإن المقصد العلمي كان أقواها وأشملها [84] ، وسواء كانوا يتمتعون بحظ وافر من العلم أو بالقليل منه، فإنهم كانوا يتجهون نحو قاعة الدرس والاعتناء بالتحصيل العلمي ونشره والاستكثار من مجالسة الشيوخ، والرواية عن أبرزهم وقد أصبح هذا الاعتناء تقليدا علميا متعارفا عليه، عند أهل تلمسان كما هو عند غيرهم ، ولاسيما وأن مدينة تلمسان في عهد بني زيان، قد كثر فيها النشاط العلمي والأدبي، وتميز شيوخها بقراءاتهم المتنوعة ـ كما سنرى ـ لكتب الحديث وأمهات كتب السنة والمسانيد والموطآت [85] ، فكانت لهم براعة في رواية الحديث ودراية فائقة به [86] ،فضلا عن التزود بالتيارات الفكرية المختلفة التي ظلت تتسرب إلى بلاد المغرب عبر مختلف العصور والحقب.

ويتضح هذا التأثير الثقافي والفكري من خلال الفقهاء والأدباء التلمسانيين، الذين تزودوا بمعارف المشرق ثم عادوا إلى بلادهم، ومن المؤلفات والمختصرات المشرقية والأندلسية الكثيرة، التي كانت ترد إلى حواضر المغرب وعواصمه، لتدريسها على طلبة المدارس المغربية ومن بين هذه المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر: مختصر ابن الحاجب في الأصول والفروع، أتى به أبو على ناصر الدين المشذالي إلى بجاية وقرره على طلاب مدارسها [87] ، ثم نقله تلميذه أبو موسى عمران ابن موسى المشذالي إلى تلمسان ،التي اتخذها مقر لإقامته فدرس بمدارسها وكون بها تلاميذ [88]، وأدخل الفقيه محمد بن الفتوح التلمساني (ت 818 هـ/ 1415) ، مختصر خليل بن اسحاق المالكي الى بلاد المغرب، كما دخلت كتب عبارة عن شروح ومختصرات الى تلمسان وبلاد المغرب صارت مقررات أساسية للطلاب والدارسين [89] .

ودخلت حلقات الدرس بالحضرة التلمسانية مؤلفات أندلسية كثيرة، اعتمدها الطلاب والأساتذة في دراساتهم وأبحاثهم [90] ،وهو السبب الذي جعل الثقافة في تلمسان تتغذى من رافدين هامين، رافد المشرق ورافد الأندلس، فضلا عن الجهاز العلمي والثقافي المحلي والمغربي، فنتج عن ذلك تكوين كوكبة من الأساتذة والعلماء تميزوا بغزارة التحصيل وعمق التفكير، حتى أصبحوا حجة في الفقه والتفسير، وعلم الأصول والنحو والأدب والتاريخ وعلوم عقلية أخرى [91].

فقد عرفت إذن، مدن الشرق وبر العدوتين علماء من بيوتات تلمسانية عريقة، توارثت العلم والفقه والأدب والتأليف، انتصبوا للدرس والقراءة في هذه الأقطار ودرسوا بها، فانثال عليهم طلاب العلم يستفيدون من علمهم ومعارفهم.

عينة من الرحالة:

شد طلاب العلم من أهل تلمسان رحالهم الى مختلف الحواضر المغربية والأندلسية والمشرقية، تدفعهم الرغبة في الإستزادة من العلم على كبار شيوخ هذه الحواضر، وأن الأسماء التي سنوردها على سبيل المثال لا تمثل عدد الشيوخ والعلماء التلمسانيين، الذين تجشموا مشقة السفر في سبيل الدرس والتحصيل والتعمق في العلم والمعارف حتى صاروا شيوخا علماء، ساهموا بقسط كبير في إثراء النهضة الفكرية والتعليمية في أقطار المشرق والمغرب، التي حلوا بها خلال العهد الزياني، إلا أن العدد القليل الذي سنذكره ربما يكون كافيا لإعطاء صورة واضحة، على رغبة أهل تلمسان في طلب العلم والسفر من أجله وركوب صعابه كآل مرزوق، وآل التنسي وآل الامام وآل المقري وآل الشريف التلمساني، وآل النجار وبنو أبي الحسن وبنو أبي العيش، وآل زاغو والسراغنة وغيرهم من البيوتات والأسر، التي أنجبت العديد من العلماء والفقهاء والأدباء.

وكان بعض الفقهاء التلمسانيين، قد قرأوا في مختلف المدن التي زاروها قصد لقاء مشيختها، ودرسوا فيها بصفة تطوعية ومنهم من انتظم في سلك الأساتذة بصفة رسمية، ورفض آخرون المرتب والجرايات والصفة الرسمية لهذه الوظيفة نذكر منهم:

1 - الفقيه أبا اسحاق ابراهيم التنسي: (ت 680 / 1281):

الذي شرق وغرب فدرس بمسقط رأسه بتنس ومليانة وشلف [92]، وقرأ بمدينة تلمسان [93] وبجاية [94] وتونس [95] والقاهرة والشام [96]، حيث عرض عليه الأمير المصري الصالح «طبرس» وظيفة التدريس في المدرسة الجديدة، التي شيدها بمصر والمعروفة «بالطبرسية»، فاعتذر ابو اسحاق عن هذه الوظيفة، فحاول معه الأمير المصري بتكليف تقي الدين بن دقيق العيد قاضي القضاة، ومن كان معه من الأعلام بالاتصال بأبي إسحاق، وإقناعه بالتدريس وخصص له مرتبا شهريا سخيا ومغريا ولكن أبا اسحاق اصر على موقفه.

وكان أبو اسحاق كلما وصل الى مدينة فاس في زيارة خاصة أو في اطار المهمات الديبلوماسية، التي كان يقوم بها بين العاهلين الزياني والمريني، يجتمع به فقهاء المدينة ويطلبون منه دروسا في الحديث [97]، كما كان يدرس هذه العلوم بمكة والمدينة [98]، وكان يحضر مجلسه عالم فاس في ذلك الوقت أبو الحسن الصغير وصار يعد من أساتذته بهذه الديار [99].

ترك أبو إسحاق سمعة علمية طيبة في الأقطار التي زارها، وكانت له هيبة عند الفقهاء والأمراء فقد قال عنه السلطان المريني أبو يعقوب: «ما صافحني أحد قط إلا أحسست بارتعاش يده لهيبة السلطان، إلا الفقيه أبو اسحاق التنسي، فعندما يصافحني تدركني منه مهابة فكانت يدي ترتعش من هيبته» [100].

2ـ أبا عبد الله محمد النجار: (ت 750 / 1349م):

أخذ العلم عن مشيخة تلمسان ثم ارتحل الى المغرب الأقصى، حيث حط رحاله للدراسة بمدن مختلفة بسبتة وفاس ومراكش [101]، حتى صار إمام علوم النجامة وأحكامها، ورجع الى تلمسان بعلم غزير [102].

3ـ أبا عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي: (ت 757/ 1356م):

درس محمد الآبلي بمدينة تلمسان [103] وبفاس [104] ثم انتقل الى مصر [105] وبغداد واستقر بعض الوقت بكربلاء [106]، وبعد أن حج عاد إلى تلمسان بعلم غزير من المعقول والمنقول، ولازم علماء فاس ومراكش وانضم إلى مجلسهم وانتصب للتدريس في عواصم بلاد المغرب وحواضره، فانثال عليه طلبة العلم من كل ناحية، فانتشر علمه واشتهر ذكره أقام عند أسرة ابن خلدون بتونس نحو ثلاث سنوات، درس خلالها لعبد الرحمن بن خلدون وأجازه في علم الأصلين والمنطق، وسائر الفنون الحكمية والتعليمية، وهي العلوم التي اشتهر بها محمد الآبلي ويشهد له فيها بالتبريز [107].

4ـ أبا علي منصور بن علي بن عبد الله الزواوي: نزيل تلمسان (ت 770ـ1368 م):

يتميز أبو علي منصور بحسن المشاركة في كثير من العلوم العقلة والنقلية، درس بمدينة تلمسان [108] وبجاية [109] والأندلس [110] والمغرب الأقصى [111]، حتى صار مقرنا للفقه والتفسير وله اليد الطولى في الإفتاء [112].

5ـ أبا عبد الله محمد الحسيني: الشهير بالشريف التلمساني (ت 771 هـ / 1369 م):

تعلم بمدينة تلمسان على كبار شيوخها [113]، وحضر المجالس العلمية بتونس [114] وفاس [115] وسبتة وسجلماسة ومصر والحجاز، «فضربت إليه إباط الابل شرقا وغربا» [116]. وكانت تأتيه الأسئلة من غرناطة فيرد عليها [117]، وكان الفقيه الكبير موسى العبدوسي شيخ فقهاء فاس في عصره، يبحث عما يصدر من أبي عبد الله الشريف بتلمسان، من تقييد أو فتوى فيقيده وهو أكبر سنا [118]، فملأ بلاد المغرب معارفا وتلاميذ [119].

6ـ أبا عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب: (ت 781 هـ / 1379 م):

اختلف المؤرخون في تحديد سنة ميلاده فحددها صاحب البستان بسنة 710 هـ / 1310 م [120] وذكرها صاحب البغية سنة 711 هـ / 1311 م [121]، وقيدها البعض الآخر بسنة 712 هـ / 1312 م [122]، وسجلها ابن مرزوق ذاته في مجموعه بأن أمه حملت به في بيتهم الكائن بزنقة جحافه بمدينة فاس، عندما كان والده يقيم بها وولدته في أوائل ذي القعدة من سنة 711 هـ / 1311 م، في دارهم القديمة بمرسى الطلبة في مدينة تلمسان [123].

وكذلك اختلف المؤرخون في عدد سفراته مع والده الى بلاد المشرق، ولم يتفقوا على تحديد السنوات التي أقام فيها في بلاد الحجاز ومصر، وكذلك لم يستطيعوا تحديد السنة التي عاد فيها إلى الأهل والديار بمدينة تلمسان، فقد سجلها صاحب البستان بسنة 718 هـ / 1318 م [124]، وأغلبهم يحددون تاريخ عودته بين سنتي 733 هـ / 1333 م و735 هـ / 1335 م [125]. وقد اجتهدت المستشرقة ماريا خيسوس، التي حققت كتابه المسند في تحديد سفره، ما بين سنتي 717 هـ / 1317 و720 هـ / 1320 م [126].

وذكرت بأن عودته استمرت نحو سنتين أي ما بين سنتي 733 هـ / 1333 م و735 هـ / 1335 م، إلى أن وصل إلى مدينة تلمسان سنة 737 هـ / 1337، وقد اعتمد كثير من الباحثين المحدثين هذه التواريخ التي فيها اضطراب وتناقض [127]، ويمكن إزالة اللبس والغموض عنها بما ذكره ابن مرزوق في مجموعه عن نفسه، بأنه سافر ثلاث مرات إلى بلاد المشرق رفقة والده للحج وطلب العلم.

فكانت الأولى سنة 717 هـ / 1317 م ، وهو لا يتجاوز الخامسة من عمره [128] ، وكانت المرة الثانية ما بين 724 هـ / 1324 و 729 هـ / 1329 م ، جاور خلالها مع والده بمكة والمدينة مدة خمس سنوات زار خلالها القدس والخليل [129] ، أما المرة الثالثة فكانت سنة 734 هـ / 1334 أقام مع والده بالقاهرة سنتين تقريبا إلى غاية سنة 736 هـ / 1336 م ، قصد التزود بالعلم والمعرفة على كبار رجال العلم والفكر والتصوف في هذه الديار، ثم توجه بعد ذلك إلى الحجاز حيث مكث بها مع والده يتتلمذ على كبار الشيوخ والعلماء في مكة والمدينة، ثم عاد إلى تلمسان سنة 737 هـ / 1337 م بطلب من أبيه [130] ، وقد صادفت عودته نهاية حصار مدينة تلمسان من قبل أبي الحسن المريني [131].

قرأ أبو عبد الله محمد بن مرزوق ، مختلف العلوم على مشائخ تلمسان مسقط رأسه [132] ، ثم انتقل الى بجاية فدرس على علمائها [133] ، وحط رحاله بمدينة تونس فتعلم على مشيختها [134]، ثم ارتحل إلى المشرق فانتصب للدرس والتحصيل في الاسكندرية [135] والقاهرة [136] ، ومكة والمدينة وبيت المقدس ومسجد الخليل بفلسطين [137] ، والتقى بكبار شيوخ هذه المدن وعلمائها وحضر مجالسهم، ورأى من الأولياء الصالحين عددا كبيرا فالبسوه مع والده خرقة التصوف [138].

وقدمه الشيخ المتصوف أبو عبد الله المرشدي صاحب زاوية «فوة» [139] المرشدية بمصر، لإلقاء خطبتي الجمعة والصلاة وسنه لا يتجاوز التاسعة عشرة عاما [140] ، وهو عكس ماذهبت إليه «ماريا خيسوس» حيث ذكرت بأنه ارتجل خطبته هذه بجامعة الاسكندرية [141].

وكان من عادة المرشدي أن لا يتخذ للمسجد إماما واحدًا ، بل يقوم لإمامة الصلاة من يكون أهلا لذلك من الحاضرين، وكان بالمسجد يومئذ عدد كبير من أعلام الفقهاء جاءوا من أطراف البلاد، ووصف ابن مرزوق هذا المشهد بقوله: « لما قرب وقت الصلاة تشوق من حضر من الخطباء والفقهاء إلى الصلاة، وصاروا يتطاولون بالأعناق وينظرون الى الموضع الذي يخرج منه الشيخ حتى زاحم الوقت، ولم يبق إلا خروج الإمام فإذا بالشيخ قد خرج ونظر يمينا وشمالا، وأنا خلف والدي في الصف الثاني فوقع بصره علي فقال يا محمد تعالى، فقمت إليه ودخلت معه الى موضعه» [142]. ثم أخذ يسأله عما يحفظه من كتب الفقه ومن الفروض والشروط والسنن ، ثم طلب منه اعادة الوضوء وقاده بعد ذلك إلى المنبر وناوله السيف، الذي يتكىء عليه الخطيب

بمصر فارتجل ابو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق خطبتين واعظتين مؤثرتين أبكت الحاضرين، لدرجة أنه عندما انتهى من الصلاة تزاحم الناس عليه إعجابا به بين مقبل وشاكر ومهنىء (143).

وخطب كذلك في الجامع الغربي بالإسكندرية (144) ، وكان يقرىء البخاري بمكة المكرمة، ويحضر مجلسه كثير من الناس من أهل مكة ومن مصر والشام والاسكندرية (145) ، وتجويد القرآن بالمدينة المنورة (146).

وخطب ابن مرزوق على عدة منابر بمساجد تلمسان والمنصورة والعباد (147) ، وتناوب الخطابة بجامع القصر بالحمراء بغرناطة مع قاضي الجماعة ابي القاسم الشريف، كما تناوب الخطابة مع آخرين على منبر المسجد الجامع بغرناطة مدة ثلاث سنوات، ودرس بمدارسها وخطب على منبر مسجد مالقة وفاس ومراكش وتونس والقاهرة، وتشير المصادر إلى أنه خطب على أكثر من ثمانية وأربعين منبرا في المشرق والمغرب والأندلس (148).

وعرض عليه بالقاهرة أن يترتب في سلك المعيدين وهي وظيفة تعرف بالإعادة في القاهرة، وشأن المعيد ـ كما يشير ابن مرزوق ـ أن يعيد تدريس الدروس فهو إذن مدرس يلي المدرس الأكبر منه علما وتحصيلا وسنا، فكان لكل مدرسة في القاهرة مدرسون ومعيدون فعينوه في مجلس جامع «الحاكم»، بمرتب شهري يبلغ قدره ثمانية دنانير من الذهب، ونحو مائة وثمانين وسقا من القمح في السنة، وهو مرتب سخي ومغري بالقاهرة، ثم عرضوا عليه مجلسا آخر بجامع ابن «طولون»، إلا أن والده أبا العباس أحمد ابن مرزوق، الذي كان يرافقه في هذه الرحلة العلمية رفض هذا العرض المغري وقال لابنه: «إنما هاجرت بك لطلب العلم، لا للظهور في الدنيا ولاستكثار منها» (149).

ثم رحل إلى المشرق رحلته التي لم يؤب منها الى المغرب عام 763 هـ / 1360 م، ونزل بالإسكندرية ثم ارتحل الى القاهرة، فاوصلوه الى السلطان الأشرف المملوكي فولاه الوظائف العلمية، ولازم التدريس في الشيخونية والصبرغتمائية والنجمية إلى أن توفي بالقاهرة سنة 781 هـ / 1379، فدفن بين الشيخين الفقيهين المالكيين أبي القاسم وأشهب (150).

وقد كتب ابن مرزوق الخطيب في مجموعه يعدد حسناته ومآثره بقوله: « ألا يرعى لي ثمانية وأربعون منبرا في الإسلام شرقا وغربا وأندلسا، أفلا يرعى لي أنه ليس اليوم يوجد من يسند

أحاديث الصحاح قراءة وأسماعا من باب الإسكندرية إلى البرين والأندلس غيري، وقرأت على نحو مائتين وخمسين شيخا، ألا يرعى لي مجاورة نحو اثنتي عشر عاما وختم القرآن في داخل الكعبة والأحياء في محراب النبي ﷺ والإقراء بمكة، ولا أعلم من له هذه الوسيلة غيري؟ أفلا يرعى لي الصلاة بمكة وغربتي بينكم ومحنتي في بلدي. . . » (151).

7. عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني (792/ 1389):

أخذ العلم عن مشيخة تلمسان وعن رجال العلم بفاس (152)، فدرس الأحكام الصغرى لعبد الحق فكان يقرأ في فصل الصيف العلوم العقلية من الأصول والبيان والعربية وسائر العلوم، دخل غرناطة وتعلم من شيوخها وتوفي غريقا وهو عائد الى تلمسان (153).

8. محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني: (ت 818 هـ / 1415 م):

أخذ العلم بمدينة تلمسان ومختلف القراءات على شيوخها، ثم انتقل الى مدينة فاس لدراسة الفقه والتعمق فيه، فأجازه شيخ الجماعة بها وهو عيسى بن علال وسمح له بالتدريس في مدرسة العطارين، ثم انتقل الى مدينة مكناسة الزيتون، فظفر ببغيته فيها وهو أول من أشاع مختصر خليل بالمغرب سنة 805 هـ / 1402 م (154).

9. أبا يحي عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني (ت 826هـ / 1422م):

درس أبو يحي عبد الرحمن بتلمسان (155)، ثم توجه إلى فاس للاستزادة في التحصيل والاحتكاك بعلماء حاضرة بني مرين (156)، فقرأ الموطأ على والده، ودرس أصلا ابن الحاجب عن سعيد العقباني وكذلك التفسير والنحو و المنطق، وأخذ العربية عن الأستاذ ابن حياتي (157) وغيره من طلاب العلم الذين ظلوا يشدون الرحال، وينتقلون بين الحواضر الاسلامية في بلاد المغرب والأندلس والمشرق، من أجل الفوز بحضور المجالس العلمية التي يديرها كبار المشايخ والانتفاع من علمهم، بالرغم من مصاعب الطرق وأخطارها وبعد الشقة والمسافة بين الأقطار.

وقد نتج عن هذا الاختلاط والامتزاج تواصل فكري وتأثير ثقافي، وصارت المشيخة متبادلة فقد ذكر المقري أن تعداد أساتذة ابن الخطيب من بلدان المغرب، بلغ أكثر من ثمانية وأربعين أستاذا، كان قد تتلمذ عليهم (158) فضلا عن أساتذته من الأندلس، وكذلك ذكر ابن مرزوق

الخطيب بأن عدد أساتذته بلغ مائتين وخمسين أستاذا من مختلف حواضر الأندلس والمغرب والمشرق [159].

10 ـ أبا عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق الحفيد: (ت 842 هـ/ 1438) :

غرب ابن مرزوق وشرق مثل والده وأجداده، واختار طريق العلم والرحلة في سبيله ، فكان له فضل الإقراء من المغرب الى الديار المصرية، أخذ العلم عند شيوخ تلمسان [160] مسقط رأسه، ثم انتقل الى عاصمة بني حفص [161] ، حيث التقى بمجالس شيوخها وارتحل إلى فاس ودرس على علمائها [162] ، ثم اجتاز الأندلس وعكف على الدراسة بها [163] ، وشد رحاله الى المشرق للتزود بمعارفه فدرس بمصر [164] والحجاز [165] ، وقد اشتهر بفضله وبعلمه في الأمصار التي زارها حتى أحبته قلوب العامة والخاصة [166].

11 ـ محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن الإمام التلمساني (ت 845 هـ / 144) :

درس بتلمسان حتى صار له قدم في البيان والتصوف والأدب والشعر والطب، وهو أول من أدخل للمغرب كتاب شامل بهرام وشرحه على المختصر وحاشية التفتزاني على العضد وغيرها من غرائب الكتب المشرقية، وقرأ بتونس ثم قدم القاهرة وزار القدس وتزاحم عليه الناس بدمشق [167].

12 ـ قاسما بن سعيد العقباني: (854 / 1450):

درس بمدينة تلمسان [168] ثم سافر في طلب العلم إلى الديار المصرية، فحضر المجالس العلمية التي كان يديرها الشيخ العالم ابن حجر بمصر والقاهرة، فأجازه وحضر دروس البساطي وانتفع بها كثيرا ثم، عاد الى بلاده بدرجة علمية معتبرة [169].

الوراقة:

إذا كانت الحركة الفكرية بحاضرة تلمسان، قد استفادت من توجيه سلاطين بني زيان وتشجيعهم المستمر لها، فإنها قد وجدت أيضا في رعايتهم للفنون والآداب وتدعيم النشاط الثقافي عاملا آخر، لا يقل أهمية عن باقي العوامل التي كانت دافعا أساسيا للنمو الثقافي الذي شهدته عاصمة بني زيان (170).

فقد إزدهر في عهدهم أيضا فن نسخ المصاحف وأمهات الكتب الدينية المشرقية والمغربية، فضلا عن المصنفات التلمسانية المحلية، ومختلف الكتب العلمية والأدبية، وفن الرسائل الديوانية في البلاط الزياني، هذه المؤلفات التي ملئت بها القصور والخزائن العامة والخاصة، وتنافس الناس في اقتنائها أو نسخها، فبرز بذلك فن الخط والتجليد والتوريق والتزويق، وتذهيب العناوين وتلوين بعض حروفها، وتجميل أشكالها و إخراجها في ثوب جميل يليق بمضامينها (171).

وقد تنافس الفقهاء والخطاطون والطلبة، وحتى بعض السلاطين الزيانيين على نسخ المصاحف والكتب، وتحبيسها على المدارس والمساجد والزوايا وإرسال بعضها الى البقاع المقدسة بالحجاز وبالقدس، لوقفها على الحرمين بالمسجد الأقصى فكان لهذا التنافس دور بالغ الأهمية في الأوساط العلمية والأدبية، وعاملا مساعدا على النمو الثقافي وانتشاره، وعلى تطور فن النسخ والوراقة و إزدهاره بمدينة تلمسان (172).

إلا أنه ـ فيما يبدو ـ أن صناعة الورق في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ببلاد المغرب عامة، وبمدينة تلمسان على وجه الخصوص، أخذت تتراجع أمام مزاحمة الورق الإفرنجي، الذي كان يستورد من مدينة البندقية بإيطاليا ومن غيرها، وهو الأمر الذي جعل بعض المسلمين يتوقفون عن استعمال هذا الورق الأجنبي للنساخة(173). فألف ابن مرزوق الحفيد (842 هـ / 1438) في هذا الموضوع رسالة سماها، «تقرير الدليل الواضح المعلوم على جواز النسخ في كاغد الروم» (174)، وقد فرغ منها في شهر ربيع الأول من سنة 812 هـ 1409 م، وورد عليه سؤال من مكناسة الزيتون، يسأل فيه أصحابه هل الكاغد الرومي طاهر ويجوز النسخ فيه أم لا؟ فرد عليهم ابن مرزوق في مجموع سماه أيضا: المومي إلى القول بطهارة الورق الرومي» (175).

وكانت أمنية الفقهاء والمتدينين والخطاطين وطلاب العلم، أن يتقربوا الى الله بنسخ المصاحف ووقفها، فكان أبو عبد الله محمد الأكبر ابن مرزوق يشتغل بالقراءة وعلوم القرآن، فكان مصحفيا يكتب المصاحف وهي ظاهرة منتشرة بين الأوساط المتعلمة بمدينة تلمسان، بحيث كانوا يتنافسون في كتابتها في عهد ابن مرزوق الخطيب (ق: 8 هـ / 14 م)، على طريقة أهل الأندلس المشهورين بحسن الخط وضبط الكتابة [176]، ويتفننون في ضبطها فكان خطهم يشبه خط «الغطوسيات» حسب تعبير ابن مرزوق الخطيب [177]، نسبة الى أسرة ابن غطوس الاندلسية المشهورة بجودة الخط وحسنه وضبط الكتابة [178]، وهذا دليل واضح على أن الناسخين والفقهاء التلمسانيين قد تأثروا بالخط الأندلسي خلال العهد الزياني، لاحتكاكهم بالأندلس وبالمهاجرين الأندلسيين [179]، ونحن نتعجب من سكوت ابن خلدون عن الإشارة الى ذلك، بينما أكد على أن الخط الأندلسي قد غلب على أهل افريقية والمغرب الأقصى [180]، ونتعجب أكثر من قساوة حكمه على خط أهل إفريقية والمغربين (الأوسط والأقصى)، الذي وصفه بالتدهور والرداءة والابتعاد عن الجودة، فصارت الكتب إذا نسخت في عهده (ق: 8/ 14م) فلا فائدة منها، لأن القارىء لا يجني منها إلا العناء والمشقة لرداءة الخط وكثرة التصحيف [181]، وهو حكم يتناقض مع ما ذكره الخطيب ابن مرزوق وهو معاصر لابن خلدون، ولاسيما وأنه قد جال مثله مختلف حواضر المغرب والأندلس والمشرق، وكذلك دحض رأي ابن مرزوق هذا، وفند ما ذهب إليه الباحث هوداس، من أن الخطوط في غربي المغرب الأوسط كانت متأثرة بالخط المغربي فقط [182].

فقد كان لأبي عبد الله محمد بن مرزوق السالف الذكر، دكان بالقيصرية بتلمسان، يبيع فيه السلع، وينسخ فيه المصاحف، وكان جد الخطيب ابن مرزوق عندما يعود الى بيته يقوم بالقراءة ونسخ المصاحف والكتب الدينية، وكان للخطيب ابن مرزوق هو الآخر خط رائق ويحسن الخطين المغربي والمشرقي، فكان السلطان أبو الحسن يستدعيه لكتابة تحبيسات بالخط الشرقي، وهو دليل آخر على أن التلمسانيين تأثروا بالخط المشرقي أيضا [183].

ونسخ السلطان أبو زيان الثاني بيده نسخة من صحيح البخاري والمصحف الشريف وكتاب الشفا للقاضي عياض، وحبسها بالمكتبة التي أسسها بالجامع الكبير بتلمسان[184]، وغير هؤلاء من الخطاطين والنساخين التلمسانيين، الذين ظهروا في العهد الزياني، وكان من بينهم الأديب

الوادي آشي الأندلسي، الذي حل بمدينة تلمسان، بعد سقوط غرناطة وصار من كبار النساخين، نسخ بخطه نحو مائة كتاب بتلمسان، ونسخ بمدينة فاس نحو ثمانمائة سفر(185)، واشتهر الامام القاضي العلامة ابو اسحاق ابراهيم بن علي بن اللحام ببراعة الخط وجودته (186) وكان الفقيه أبو عبد الله بن الملك يتعيش بنسخ الكتب والمصاحف، وكان خطه يشبه خط ابن مرزوق الخطيب السالف الذكر (187)، واهتم الامام الشيخ ابن الحسيني بنسخ المصاحف وتزويقها (188)، وكذلك اشتهر العلامة محمد السنوسي بنسخ الكتب، فكتب نحو ثلاثين كتابا بخطه كلفه بها أحد شيوخه(189). وغيرهم من الخطاطين التلمسانيين الذين عملوا على توفير الكتاب في السوق والمكتبات العامة والخاصة، استفاد منها طلاب وأساتذة تلمسان في العهد الزياني.

التعليم:

يعد التعليم من العوامل الاساسية الهامة التي تدفع عجلة الحركة الفكرية نحو التقدم والتطور والإزدهار، وترقية العلوم والآداب ونشر الثقافة والعلم بين افراد المجتمع وترقيته سلوكيا وحضاريا، وقد مر التعليم بمدينة تلمسان بمراحل عديدة، منذ الفتح العربي الاسلامي لها وتميز بصنفين أساسيين هما:

أ ـ التعليم الشعبي العام

ب ـ التعليم الصناعي أو الإحترافي.

أ ـ التعليم الشعبي العام:

عندما أقبل الفاتحون المسلمون وفي مقدمتهم الصحابة والتابعون، الذين عاشوا ظروف الوحي مع الرسول ﷺ (190)، يحملون معهم مشعل الدعوة الاسلامية الجديدة ومبادئها لأهل الأمصار المفتوحة، فكانوا كلما فتحوا بلدا أو مدينة بنوا فيها المساجد والمؤسسات التربوية، وتركوا فيها بعض الصحابة والمعلمين والفقهاء لتعليم أهلها مبادىء الاسلام واللغة العربية.

ولاشك أن هؤلاء الصحابة والتابعين، كانوا فاتحين ومعلمين ودعاة في نفس الوقت، بذلوا جهدا في سبيل ترسيخ الإيمان بالإسلام وبشرائعه ومبادئه في نفوس أهل المغرب ووجدانهم، فأدوا الأمانة ونقلوها الى الجيل الذي أتى بعدهم، فسار هذا الاخير على نفس الدرب في تنشئة وتربية الأجيال القادمة، الأخلاق الحميدة، وتلقين أهل المدن المفتوحة رسالة الاسلام واللغة العربية، فسار التعريب بخطى ثابتة جنبا الى جنب مع انتشار الاسلام (191)، لأن القرآن الكريم حض على تعلم العلم، ودعا الى الصدق والاخلاص في العمل والاستقامة في السلوك، ونشر الفضائل بين الناس فقد تناول الأخلاق والمزايا الشريفة، وحدد علاقة الفرد بالعائلة والمجتمع، وصار القرآن أصل التعليم في العالم الإسلامي، واختلف المسلمون في طرق تعليم القرآن للولدان(192).

وكان التعليم الذي بدأه الرعيل الأول من المسلمين في حواضر بلاد المغرب وبواديه، يعد أقرب الى التربية بمفهومها العام وهي التنشئة الاجتماعية، لأهل المدن وإدماجهم في المجتمع الاسلامي بقيمه وأخلاقه وعاداته وتقاليده، ساهمت فيها مختلف المؤسسات الإجتماعية والتربوية والدينية، مثل الكتاب والرباط والمسجد والسوق والأسرة وغيرها من القنوات الإجتماعية في ذلك الوقت.

وكانت مظاهر التعليم في البداية تتجلى في شرح الآيات القرآنية وتفسيرها، ولاسيما منها الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر والمبشرة بالجنة، والمنذرة بالنار والمخبرة بخبر الأولين والمحكمة يعمل بها والمتشابهة يؤمن بها، والحلال الذي يؤخذ به والحرام الذي يتجنبه المسلم وأمثال واعظة (193).

وقد تطور هذا التعليم الذي يمكن أن نطلق عليه مصطلح التعليم الشعبي العام، لأنه ضروري لكل المسلمين، حتى يعرف كل واحد منهم ما يضره وما ينفعه من العبادات والسلوكات، فتفرعت عنه بعض الأشكال التعليمية، وأصبحت لهذا التعليم مناصب دينية وإدارية وإجتماعية فيما بعد، مثل الإمامة والقضاء والفتيا والحسبة (194). ويجب التذكير هنا أن المقصود بالتعليم الشعبي العام، يعني التعليم غير الإحترافي الصناعي الذي ذكره ابن خلدون (195)، فهو ضمان الحد الأدنى من المعارف الدينية، التي يجب على المسلم تعلمها ومعرفتها من الشعائر الدينية، ويتوجه هذا النوع من التعليم الى جميع المسلمين والمسلمات البالغين منهم والبالغات، وهو إجباري على كل الناس حتى يندمجوا في المجتمع الإسلامي (196). وكانت الدولة تتدخل في بعض

الأحيان في هذا النوع من التعليم، وتشرف عليه وتسهر على نشره بين طبقات المجتمع، وتحرض على تعميمه وتقوم بتعيين فقهاء ومعلمين لهذا الغرض، حتى تخلق الانسجام في سلوك المجتمع.

فقد أجمع الفقهاء على أن الدولة ملزمة بالسهر على تعليم المجتمع، ويقول ابن خلدون في ذلك: «بأن الخليفة مأمور بتبليغ التكاليف الشرعية وحمل الناس عليها» (197)، ويوضح أحد المؤرخين دور الدولة في التعليم بقوله: « ويجبر الإمام أزواج النساء وسادات الأرقاء، على تعليمهم مما ذكرنا إما بأنفسهم، وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهم، وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك، وأن يرتب أقواما لتعليمهم الجهال» (198)، وقد اهتم الحكام المسلمون بهذا النوع من التعليم منذ الفتح وعصر الولاة في بلاد المغرب، ثم في عهد الكيانات السياسية والمذهبية المستقلة مثل: الادارسة والأغالبة والرستميين وبني مدرار وغيرهم، إلا أن دور الدولة لم يظهر بصورة جلية وواضحة وبكثافة بارزة إلا خلال القرن الخامس الهجري، ثم في عهد الموحدين وبني زيان (199).

فقد ظهر دور المرابطين البارز في التعليم الشعبي العام، مع ظهورهم في الصحراء حيث غلب الجهل على قبائلها وسكانها من جدالة ولمتونة ولمطة وغيرها، بسبب نقص نشاط التعليم العام في هذه المنطقة الصحراوية، التي غلبت عليها التقاليد المحلية، وفي عهد الموحدين ازدهر هذا النوع من التعليم ازدهارا كبيرا في بلاد المغرب، لأن الحركة التي قام بها الموحدون هي حركة فكرية دينية تجديدية، حرص أصحابها على تعميقها في نفوس أهل المغرب.

كما حرص الموحدون، على نشر المعرفة الدينية وتعميقها، لدى أهل المغرب بواسطة التعليم، واهتموا بالجانب التربوي، وأدخلوا الطلبة، والحفاظ في جهاز الدولة، للسهر على التعليم والتربية، وألف عميدهم ابن تومرت مؤلفا يدرسه الاتباع والمؤيدون، توخى فيه التبسيط والتسهيل حتى يتمكن الناس من فهمه، ترجم بعضه الى اللسان البربري وهو كتاب التوحيد الذي قسمه الى سبعة أجزاء، بحسب أيام الأسبوع (200).

وكان يقوم بتدريسه للطلبة بنفسه، أو يستعين ببعض اتباعه وقسم الدارسين الى أفواج، يتكون الفوج من عشرة أفراد، يتكلف نقيب بالسهر على تعليمهم واستخدم عدة طرق لتحفيظ الفاتحة، لمن كان يصعب عليه حفظها، لشدة عجمة بعضهم (201)، وسن لهم قراءة الحزب القرآني كل صباح ومساء، وعمم هذه الطريقة، من بعده يوسف بن عبد المؤمن على جميع بلاد

المغرب، وبجانب ذلك، كـان يحـرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يتمكنوا من تطبيق ما أخـذه على السلـوك العملي، كما فعل عبد الله بن ياسين من قبله [202].

وقد انتظم التعليم الشعبي العام في عهد الموحدين، وصارت الدروس تلقى بانتظام كل يوم، في الفترة الصباحية شتاءا وفي الفترة المسائية صيفا، وأن الذي كان يدرس في هذه المجالس لا يشترط فيه أن يكون ذا ثقافة واسعة.

ويبدو أن دروس الوعظ التي كانت قبل القرن السابع الهجري، عبارة عن دورس تطوعية في عمومها، تلقى على العامة، بدون مقابل، قد أصبحت في هذا العهد لها كراسي يأخذ عليها الأستاذ الواعظ أجره من الأحباس [203].

وقد تقدم الوعظ في عهدهم تقدما ملحوظا، خاصة في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وبرز في هذا الميدان، من التلمسانيين محمد التلمساني المعروف بابن الحجام (ت 558 ـ 614/ 1162 ـ 1217)، فكان يعقد مجالس للوعظ يوم الخميس والاثنين من كل اسبوع، وألف في الوعظ مصنفا سماه «حجة الحافظين وحجة الواعظين» [204].

واختصر هذا الكتاب أبو زكريا محمد في مجلدين سماه «أنوار مجالس الأذكار وأبكار عرائس الأفكار» [205] وكان ابن الحجام، حسن الصوت، فصيح اللسان كثير البيان، وهو شرط أساسي يجب على الواعظ أن يتحلى به، حتى يستطيع أن يؤثر على الناس بدروسه ووعظه [206]. ومن الذين اشتهروا أيضا بالوعظ، في عهد بني زيان، الإمام محمد بن يوسف السنوسي، حيث كان يسمع الناس مواعظ تقشعر لها الأبدان وتلين لها القلوب، لأن أغلب مواضيعه كانت تتضمن الخوف والمراقبة، وكذر الموت وأهوال الآخرة من الحشر والبعث، والوقوف بين يدي المولى عز وجل وذكر النار وصفاتها.

فكان يتكلم من صميمه ووجدانه، وهذا لا نجده، عند أحد من أهل زمانه من الواعظين، وفي هذا الصدد يقول أحد تلاميذه: «فكان يجلس بعض الناس بين يديه، والشيخ يقبل عليهم بحسن كلامه ولذيذ خطابه، ورونق أوامره لاسيما إن لم يكن معهما أحد أحسن وألذ وأشهى عنده من الدنيا بأجمعها» [207].

فكان له أسلوب بسيط سهل في الوعظ والإرشاد، بحيث يراعى القدرة العقلية للناس، وطاقاتهم الإستيعابية، وأحوالهم وظروفهم النفسية والإجتماعية، ويقدم لهم ما يعالج به وجدانهم، فكان يوظف القصص في المواعظ.

ويرى أن الشيخ الواعظ يجب أن يتصف بصفات اللطافة في التعبير والرفق بالخلق، والتواضع مع العامة، وسماع اسئلتهم والتركيز على تربية النفس وتهذيبها، وهو ما يتفق مع المنهج الذي رسمه القرآن الكريم، ويقف السنوسي في وجه بعض الوعاظ الذين كانوا يتصفون بالغلظة والعنف في وعظهم ووصفهم «بعلماء السوء» (208)، وكان لهذا التعليم الشعبي العام نتائج عديدة هامة يمكن أن نلخصها فيما يلي:

فقد أثر هذا التعليم، تأثيرا مباشرا، على أساليب ومناهج التعليم الإحترافي، وأثر بشكل مباشر على الحياة الاجتماعية والفكرية لأهل المغرب، ولما كان هذا النوع، من التعليم يعتمد على الطريقة الشفوية، فقد انتقلت هذه الطريقة الى التعليم الإحترافي فصار الطلاب والمدرسون، يعتمدون الرواية الشفوية، على الرغم من ذيوع استعمال الكتابة وادواتها، وشيوع الكتب المدرسية المقررة، وصار الاعتماد على الذاكرة والحفظ، وخزن المعلومات ظاهرة شائعة عند المتعلمين، وهو الأمر الذي جعل المتعلمين يلتفون حول الشيخ مباشرة للأخذ عنه، فضلا عن ظاهرة الرحلة في طلب العلم، التي صارت من التقاليد المحمودة الشائعة (209).

كما أثر التعليم العام على تنظيم الدروس في شكل حلقات ومجالس، وكانت الدروس عامة لكافة الناس يحضرها من يرغب فيها مهما كانت مستوياتهم أو أعمارهم، ولهذا كانت الدروس تلقى في المساجد وهي أماكن عمومية، ولم تظهر الدروس الخاصة إلا مع ظهور المدارس، وكان العلماء في بلاد المغرب يحظون بالتقدير والإجلال، من قبل عامة الناس وخاصتهم، ولايعود هذا التقدير الى سيادة الجهل في المجتمع المغربي كما ادعى أحد المستشرقين (210)، وإنما الى دورهم الكبير في تنوير الناس وتعليمهم وتثقيفهم، في أدق أمورهم الدينية والدنيوية وفي المعاملات والعبادات ومحاربة البدع والاهواء، فكانوا يبجلونهم ويحترمونهم لما كانوا يقدمونه من فتاوي ومواعظ.

ومهما يكن من أمر، فإن قضية التعليم بجميع أنواعه، قد شغلت أعلام الفكر المغربي في العصر الوسيط، فاعطوا له أهمية بالغة، انعكس ذلك في مؤلفاتهم، كابن خلدون والآبلي، ومحمد

المقري الجد، لأن رجال التعليم ساهموا مساهمة كبيرة في التغييرات الفكرية السياسية ببلاد المغرب، فقد أقام الدولة المرابطية رجال كانوا يمارسون التدريس والتعليم بشكل عام مثل:

أبي عمران الفاسي ووجاج بن زلو اللمطي، وعبد الله بن ياسين، وكان صاحب الإنقلاب السياسي والفكري الذي انشأ دولة مترامية الأطراف على انقاض المرابطين، طالب أنهى دراسته في بلاد المشرق هو المهدي بن تومرت، فجاء معلما أدخل تنظيمات جديدة في التعليم، واعتمد على عنصر الطلاب والحفاظ في التربية والتعليم، وفي استمرارية الدولة ولهذا يمكن القول، بأن الدور الذي لعبه رجال التعليم في المغرب، لا نجد له نظيرا في تاريخ بلاد المشرق والأندلس في العصر الوسيط (211).

ب ـ التعليم الإحترافي:

أدخل عبد الرحمن بن خلدون مهنة التعليم الإحترافي، ضمن الصناعات المعاشية، ووضح اختلافه، عن التعليم الشعبي العام، الذي ظهر مع ظهور الدعوة الاسلامية، من حيث الأصول الإجتماعية، للإطارات الساهرة عليها، فقد تولى هذه المهمة، إبان الدعوة، وفي عهد الفتوحات جماعة من العرب تنتمي إلى القبائل ذات عصبية، بينما اتخذ من مهنة التعليم الاحترافي ـ فيما يبدو ـ فئات اجتماعية متباينة (212).

إن التعليم الإحترافي، هو ذلك التعليم الموجه الى النشأ، الذين تتراوح أعمارهم ما بين سبع سنوات، وعشرين سنة في الغالب، يعتمد في تلقينه على اللغة العربية الفصيحة، إلا أنه من الصعوبة تحديد السن، الذي يبدأ فيه الطفل التعلم بالكتاب وكذلك يتعذر علينا تحديد السن الذي ينتهي عنده من الدراسة، ولاسيما الطلاب، الذين كانوا يستمرون في مزاولة الدروس والتعمق في العلوم، بواسطة الرحلة والتنقل بين حواضر العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، للاستزداة من العلم والمعرفة على كبار الشيوخ والعلماء، ثم يعودون إلى بلادهم، وقد تحصلوا على علم غزير، يؤهلهم إلى مصاف الشيوخ ويبوئهم المشيخة العلمية للتدريس وادارة المجالس، وتولي المناصب والخطط الادارية للدولة، فيكون الدارس عند ذلك، قد بلغ من العمر أكثر من ثلاثين سنة، في بعض الأحيان، وأن هذه الفترة من العمر في الغالب نجد الطالب ملتزما بالدراسة والتحصيل.

المرحلة الأولى من التعليم :

لعل السن المفضل، الذي كان الفقهاء يفضلونه لدخول الطفل إلى الكتاب أو المكتب (المسيد) هو سن السابعة [213]، وهو العمر الذي يأمر به الحديث النبوي الأولياء بإجبار أبنائهم على أداء الصلوات، وهو نفس السن الذي يبدأ فيه التعليم للأطفال، عند الشعوب القديمة مثل الفرس والرومان، وكان يتعلم في الكتاب الذكور والاناث ولكن تعليم البنات ـ فيما يبدو ـ يقتصر على حفظ القرآن، وبعض المتون [214].

والظاهر أن نفقة التعليم في الكتاب قبل القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، كان يتحملها أولياء الأطفال، لأن الدولة لا تتدخل في شؤون التعليم بالكتاب باستثناء دور المحتسب، الذي كان يراقب معاملة المعلمين للأطفال وسلوكهم معهم، والقاضي الذي كان يسهر على تعليم اليتامى، وفي هذا المجال يقول القابسي: «أعلم أن أئمة المسلمين، في صدر هذه الأمة، فما منهم إلا نظر، في جميع أمور المسلمين لما يصلحهم في الخاصة والعامة، ويجعلون لهم على ذلك نصيبا من مال الله عز وجل» [215].

وقد تناول الفقهاء سلوك المعلم تجاه الصبي وأسلوب التعليم والعقاب، وغيرها من القضايا، فالمعلم مكلف بالسهر على جميع العمليات التعليمية، وأجاز الفقهاء عقاب الطفل، الذي يرتكب المخالفات، لكن يجب على المعلم مراعاة التدرج في العقاب، من التنبيه إلى التفريغ إلى الضرب، شريطة أن لا يبالغ المعلم في ذلك، حتى لا يترتب على هذه العملية انعكاسات أخلاقية وذهنية خطيرة على الطفل ولا تعيق تحصيله الدراسي [216]. وكان محمد السنوسي التلمساني ينتقد المعلمين الذين يضربون الصبيان ووصفهم بسوء الخلق وفساد القلب [217].

وكان بعض المعلمين يكترون دكاكين، ويتقاضون أجورهم من أولياء الصبيان، وبعضهم لا يأخذون أجورهم على تعليم القرآن، كالشيخ الزاهد ابراهيم يسول الاشبيلي (ت539 هـ / 1140م)، الذي درس القرآن بمدينة تلمسان محتسبا لله دون أجرة، ومنهم من كان يأخذ الأجرة من الأولياء الميسوري الحال فقط، وقد أفتى سعيد العقباني (811 هـ/ 1408م) بجواز الأجرة على تعليم العلم معللا ذلك بضعف مداخيل المعلمين [219].

ولعل الأحباس بدأت تتكفل بنفقات تعليم الأطفال، ابتداء من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وأن الكتاتيب كانت في تلمسان تتميز بهندسة خاصة، فهي مبنية على شكـل مصطبـات أو مدرجـات مهيـأة لجلوس الأطفال، كمصطبة كتاب مرسى الطلبة بتلمسان [220].

ويدوم العقد بين المعلم وأولياء التلاميذ سنة كاملة، على أساس أجرة محددة، سواء كانت عينية أو نقدية، ويخضع العقد للأوضاع المادية، لأولياء التلاميذ وإلى عدد الأولاد للولي الواحـد[221]. وكانت للمعلم صفات يجب أن تتوفر فيه، وهي المؤهلات العلمية الأساسية كحفظ القرآن، وتجويده والكتابة، كالإظهار والإدغام والإجمال والأعجـام والتدقيـق وأحكـام القرآن [222].

فضلا عن الصفات الخلقية والاجتماعية، نظرا لتأثيره على سلوك الأطفال في هذه المرحلة من أعمارهم [223].

وكان الفقهاء ينكرون عليهم انشغالهم، أثناء حصة الدرس بكتابة الحروز والتمائم، أو الذهاب لحضور الجنائز وصرف الأطفال عن الدروس، والظاهر أن المكانة الإجتماعية والمادية لمعلم الصبيان في المدينة والأرياف لم تكن رفيعة، فقد كانوا يلحون على الأطفال بتقديم المكافآت والإعانات المختلفـة، في مناسبـات عديـدة، وكانـت أهـمـهـا شـموع المولـد النبـوي الشـريف[224]، وأن تدني وضعيتهم المادية والإجتماعية، جعلت الكثير من الناس في بعض الأحيان لا يقدرونهم ولا يحترمونهم. وربما هذا هو الصنف الذي أشار إليه أبو القاسـم سعـد الله بقولـه: « فقد اشتهر الجزائريون منذ القديم بأنهم لا يقيمون وزنا لعلمائهم ولا يعترفون لهم بحرمة أو عهد » [225].

المواد الدراسية بالكتاب:

أهم المواد المدروسة، في هذه المرحلة، هو القرآن الكريم، لأنه أصل التعليم ومنبع الدين والعلوم، فقد جعلوه في مقدمة ما يتعلم الطفل حفظا وكتابة، لأن تعليم الصغار أشد رسوخا، وحفظا وهو أصل لما بعده، حسب تعبير ابن خلدون [226].

وحث السنوسي على أن يكون المنهج الدراسي مستمدا من نصوص الاسلام الأساسية المتمثلة في القرآن والسنة النبوية [227]، فقد اختلف المعلمون في طريقة تدريس القرآن الكريم للأطفال في الأقطار الاسلامية، وحسب صاحب المقدمة، فقد كان أهل المشرق والأندلس وافريقية متقدمين في هذا المجال عن أهل المغربين، إذ اقتصر هؤلاء الأخيرون في دروسهم للولدان على حفظ القرآن، ومدارسة رسمه، لا يخلطون ذلك بسواه وهو التعليم الشائع في جميع مدن المغربين الأوسط والأقصى [228].

ويبدو أن هذه الطريقة، كانت سائدة أيضا في حاضرة بني زيان، ولكنها تغيرت بوصول علماء الأندلس إليها واستقرارهم فيها وامتهانهم التعليم، وكذلك عودة بعض شيوخ تلمسان، من بلاد المشرق وافريقية وعلى رأسهم ابنا الامام، وعمران المشذالي، الذين تأثروا بمنهج المشارقة وأهل افريقية، ونقلوه الى مدينة تلمسان خلال القرن الثامن الهجري، وعملوا جميعا على نشره، وأدخلوا بعض المواد الجديدة للصبيان كرواية الشعر والترسل، وقوانين اللغة العربية وحفظها والحديث وتجويد الخط والكتابة [229]. ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها، ووقوفهم على روايات القرآن ومختلف قراءاته، حتى يحصل للدارس ملكة في اللسان العربي [230]، إلى أن يتجاوز الأطفال سن البلوغ الى الشبيبة فتدوم فترة هذه الدراسة نحو سبع سنوات، وهي المدة التي يستغرقها الطفل في حفظ القرآن إذا لم ينقطع عن الدراسة [231]. وصار المغاربة يعلمون الأطفال في الكتاب النحو والحساب وغيرهما من المواد، إلى جانب القرآن والحديث[232]، وأصبحت هذه العادة شائعة في مدينة تلمسان منذ القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي [233].

ويبدو أنه كان يوجد للأطفال نوعان من المعلمين في هذه المرحلة، الأول ويدعى: المعلم الملقن، وهو المدرس المكلف بتعليم القرآن وتحفيظه دون كتابته على الألواح «تنزيها لكتاب الله عز وجل» عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو، وهو السبب ذاته تقريبا الذي جعل الفقهاء يستنكرون تعليم الصبيان في المسجد، لأنهم لا يتحاشون النجاسة [234].

والثاني: وهو المعلم المكتب المكلف بتعليم الصبيان الخط ولا يعلم غيره، فكان يرسم خطا نموذجيا يقلده الصبي، ويحذو حذوه، وكثيرا ما كانت هذه النماذج الخطية من الاشعار وسواها[235] ولعل هذه الطريقة كانت سائدة في بلاد المشرق، ويبدو أنها وصلت إلى بلاد المغرب متأخرة [236].

أما زمن الدراسة في الكتاب، فيبدو أنها كانت ستة أيام في الأسبوع ويكون يوم الجمعة عطلة للصبيان وراحة لهم من عناء الدرس [237]، وتستمر الدراسة طوال شهور السنة ماعدا عطل الأعياد الدينية، مثل عيد الفطر ثلاثة أيام وعيد الأضحى نحو أربعة أيام، وأضيف لهما في القرن الثامن الهجري بمدينة تلمسان، عطلة المولد النبوي الشريف، والأيام التي يختم فيها الصبيان القرآن الكريم [238].

وكانت الحصص الدراسية مقسمة الى فترتين رئيسيتين في أغلب الأحيان، تبدأ من بعد صلاة الفجر إلى صلاة العصر، فتجري الدراسة في الفترة الصباحية وتكون فيها المواد الأكثر صعوبة وحفظ القرآن، ثم ينصرف الصبيان إلى منازلهم لتناول وجبة الغداء، ويعودون في فترة ما بعد الظهر، يدرسون مواد مختلفة ويستظهرون ما حفظوه على شيوخهم [239].

المرحلة الثانية من التعليم:

وهي المرحلة التي تلي مرحلة الدراسة بالكتاب، التي يكون فيها الطالب قد حفظ القرآن وألم بمبادىء الكتابة والقراءة والعربية، والقراءات في المتون وبعض العلوم الأخرى، وينتظم التعليم في هذه المرحلة بالمساجد والمدارس، التي شيدت عبر مختلف أحياء مدينة تلمسان.

والدراسة في هذه المرحلة تتسم بحرية الطالب في اختيار المواد الدراسية، وهو غير مقيد بمقرر دراسي سنوي، لأنه لا توجد وصاية أو سلطة تفرض عليه برنامجا محددا، وتراقب تنفيذه وتنظيم الامتحانات الفصلية والسنوية كما هو الشأن في الوقت الحاضر.

فكان للطالب الحرية في اختيار المواد، التي يميل إليها وحسب طاقاته وامكانياته الفكرية، ويتتلمذ على الأستاذ الذي يثق فيه وفي كفاءته، وكان الأساتذة يحترمون ميولات طلابهم كالشريف أبي عبد الله محمد التلمساني (ت 771 هـ / 1370 م)، الذي كان يترك الحرية لكل واحد من طلابه أن يختار المواد التي يميل إليها من العلوم ويقول لهم: « من رزق في باب فليلازمه» [240]، وقد تدفع هذه الحرية بعض الطلاب منذ البداية لاختيار مواد، لم يألفها الطلاب، يبدأون بها الدراسة كالعلوم العقلية التي اختارها الآبلي (ت 757 هـ / 1356)، وفضلها عن غيرها، فقد سبق لذهنه محبة التعاليم فبرع فيها [241].

إلا أن حرية الطالب لم تكن مطلقة، بل كانت تحدد في بعض الأحيان من قبل الأساتذة والأولياء، ويظهر هذا التأثير في الوصية التي أوصى بها أحد القضاة ابنه عندما ودعه للدراسة فقال له:

« ومارأيت الناس مجتمعين على حمده فاجتلبه، ومارأيتهم مجتمعين على ذمه فاجتنبه، والأعدل الأقسط أن تسلك السبيل الوسط» (242)، وكذلك يظهر هذا التأثير في القرن التاسع الهجري الرابع عشر الميلادي، مما حدث لوالد أحمد بن صالح الفيلالي (ت 862 هـ / 1457)، عندما كان يصلي في ركن بجامع القرويين بفاس، فكتب به بعض الناس للقاضي، فأحضره عن سبب مخالفته للناس فأجابه، بأن معرفته بعلم الفلك، جعلته يرى بأن اتجاه القبلة منحرف قليلا عن المحراب، وأن الإتجاه الصحيح هو المكان الذي يصلي فيه، فأجابه القاضي: « أما سمعت قول القائل أخطىء مع الناس ولا تصب وحدك» (243).

وكان العامل أيضا في تحديد المقرر الدراسي، يعود إلى أهمية المادة ومدى صعوبتها أو سهولتها، إذا كان الطلاب يضعون نصب أعينهم طموحاتهم وظروفهم، ويختارون المادة التي توفر لهم العمل، فكان أغلب الطلاب ـ فيما يبدو ـ يتجهون لدراسة الفقه، لأن الفقهاء يحرضون على دراسته، وأن هناك بعض الأقوال المأثورة والأبيات الشعرية في مدح الفقه، وتفضيله على بقية العلوم، وأنه أهم طريقة للوصول الى المال والجاه (244)، فقد فاقت عنايتهم بالفقه أي علم آخر (245)، وكان أحمد الونشريسي (914 / 1508) يقول: من لا يعرف الفقه لا يعرف غيره» (246)، أما دراسة الحديث فإنها تستغرق عدة سنوات إذا ما قورنت بالمدة التي تستغرقها دراسة الفقه، وتتطلب الرحلة لجمع الأسانيد، فضلا على أن دراسة الحديث يتطلب الدراية بالنحو واللغة وعلم الأصول في الفقه والكلام بشكل واسع أكثر مما يتطلبه الفقه (247).

ومن العوامل المساعدة، على تحديد مضمون المقرر الدراسي، الجو السياسي والمذهبي للدولة، إذ أن الدولة الزيانية كانت تشجع بطريق مباشر وغير مباشر العلوم التي تتلاءم مع مذهبها، وخاصة عندما أصبحت هي التي تحرك دواليب الاقتصاد، فكانت لها أيضا يد في تحريك عجلة الثقافة والعلم، عن طريق الأموال التي تقدمها للعلماء والأدباء والفقهاء والمتعلمين، وتنفقها على المدارس والمجالس العلمية التي تقام في البلاط الزياني، وكان السلاطين الزيانيون يشجعون الثقافة الأدبية، كالشعر والتاريخ ويتدخلون أحيانا لمنع تدريس بعض العلوم التي تخالف

المذهب المالكي [248]. وكان الرأي العام أيضا يؤثر على اختيار المواد الدراسية، فقد كان الأساتذة يوجهون طلابهم وينصحونهم بالابتعاد عن دراسة العلوم المشبوهة، كالفلسفة أو بعض العلوم القريبة منها كالمنطق وغيره [249]، فكان الطلاب مضطرين الى دراسة المواد الدينية كالتفسير والحديث والفقه خاصة منه الفقه المالكي، والنحو واللغة ثم بعد ذلك ينتقلون الى العلوم العقلية، كالفرائض والحساب والفلك والمنطق والبيان والتوحيد والطب وغيرها من العلوم الطبيعية والعقلية [250].

فقد كان بوسع الطالب أن يدرس العلوم المعروفة عند المسلمين، والتي كانت تصل إلى نحو أربعين علما [251]، إلا أن المواد المدروسة عمليا في المدارس والمساجد التلمسانية، أقل من النصف بكثير وهي العلوم الموزعة بين علوم دينية وعقلية وطبيعية [252]. وقد لعبت المدارس دورا هاما، في حركة التعليم، وحافظت على حيويته وعلى نشر التعليم السني المالكي، بإشراف الفقهاء والدولة في المدن منذ القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، في الوقت الذي بدأت فيه الحركة الصوفية ببلاد المغرب، تتزايد وتتسع رقعتها في البوادي، وتهيمن على عقول الناس وعلى التعليم الشعبي العام، والاحترافي في الزوايا التي لا تراقبها الدولة. وساعد نظام المدرسة ومجانية التعليم فيها على استقبال عدد كبير من الطلاب، قدموا إليها من مختلف الفئات الإجتماعية ومن المدن والبوادي المتباينة، لما توفره الدولة من إعانة ومؤن ومسكن وكتب [253].

تأثر المسجد ـ فيما يبدو ـ بنظام المدرسة في التعليم واتجاهاته منذ منتصف القرن الثامن الهجري، بحيث أصبحت الدولة تتدخل في تعيين الأساتذة، وأحداث كراسي للمواد العلمية. والوعظية للطلاب وعامة الناس، وكرسي التدريس هو منصب مخصص لتدريس مادة معينة، من خلال كتاب دراسي معين وهو الآخر، يتقاضى المكلف بتدريسها، راتبا شهريا من الأوقاف، وتنقسم الكراسي إلى نوعين : كرسي موجه للجمهور وعامة الناس، وهو كرسي الوعظ في المسجد، وكرسي موجه للطلاب المنتظمين أو النظاميين، يقوم بالتدريس فيه اساتذة أكفاء، والعلوم التي يدرسونها، ويتقاضون أجورا عالية عليها، مقارنة مع الأساتذة المعينين لكراسي الوعظ [254]، وقد اعتبر بعض الفقهاء التدريس على الكرسي بدعة [255]. غير أن محمد السنوسي في تلمسان تصدى لهذا الرأي وأباح للأستاذ الجلوس على الكرسي، حتى يكون جميع الطلبة، أمام أنظاره ويتمكن من إيصال العلم إليهم جميعا [256].

وكانت الأجور الشهرية تدفع من قبل الأحباس، وقد بلغت خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، مائة مثقال للمدرس ومائتي (200) مثقال للأستاذ، فضلا عن المواد العينية والكسوة والكتب التي تقدم له سنويا [257] ، وكذلك تقوم الدولة بتحبيس خزانات الكتب على المساجد لفائدة الطلبة [258].

كانت المدارس والمساجد، تحتوي على المكتبات (الخزانات) ساعدت الأساتذة والطلاب على المطالعة فيها، وهي كتب نادرة يصعب الحصول عليها أو اقتناؤها لارتفاع اثمانها.

والظاهر أن أمناء المكتبات والمشرفين عليها، صاروا لا يقتنون كتب الفلسفة التي تتعارض محتوياتها مع أفكار بعض الفقهاء المتشددين أو السلفيين، بينما امتلأت رفوفها بأمهات الكتب الدينية المكتوبة بخط جميل، والمجلدة تجليدا رفيعا، وبالمصاحف وكتب الوعظ والتصوف والفقه وعلم الكلام [259]. وكانت هذه الخزانات، تخضع إلى نظام وقوانين فرضها المحبسون منها عدم إخراج الكتب، خارج المدرسة أو المسجد، وكانت أبوابها مفتوحة طوال النهار، إلا أن الإزدحام فيها يكون ما بين صلاة العصر وصلاة المغرب، وهي الفترة التي ينتهي فيها الطلاب من الحصص الدراسية [260].

غير أن الشروط التي فرضها المحبسون، لم تحترم من قبل بعض الأساتذة إذ كانوا يخرجون، الكتب من الخزانة لانفسهم ولغيرهم [261]. أما الزاوية فقد بدأ ظهورها في بلاد المغرب في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، أي في عهد الموحدين لتحل محل الرباط، بمبادرة رسمية وشعبية، غير أن الزاوية الرسمية تختلف عن الزاوية الشعبية، التي يتزعمها متصوفة، فالزاوية التي تنشئها السلطة هي مكان لإطعام المحتاجين والواردين من الغرباء والتجار وإيوائهم[262]، بينما الزاوية الشعبية التي يؤسسها زعماء التصوف، تكون مكان لإيواء واطعام الصالحين والمريدين، ويتلقون التعليم الديني والوعظ على يد إمام الزاوية الرسمية، وعلى يد شيخ الزاوية الشعبية [263] ، التي كانت تقوم بتعليم الصبيان، إلا أن التعليم الصناعي أو الاحترافي، كان قليلا فيها، إلى غاية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، حيث بدأ التعليم الرسمي فيها يزدهر بسبب انتشار نفوذ الزوايا، وهيمنة شيوخها على عقول الناس، وكثر نشاطها في البوادي، وبالتالي أصبحت تساهم بقسط كبير ، في تضييق الفوارق التعليمية والثقافية بين سكان الريف وسكان المدن، وقد استطاعت أن تطبع هذا التعليم بطابع التصوف، وتجمع بين تدريس

علم الظاهر وعلم الباطن أي بين ثقافة الفقهاء وثقافة المتصوفة (264). وقد أسس أبو حمو موسى الثاني زاوية على ضريح والده أبي يعقوب بتلمسان، وأسس أبو عنان زاوية الحلوي بتلمسان، ويبدو أن حركة انتشار الزوايا الرسمية كانت موازية لانتشار المدارس (265).

المشيخة التلمسانية:

يقوم بتدريس الطلاب في المساجد والمدارس أساتذة وشيوخ متضلعون مبرزون في مواد مختلفة، يعينون بواسطة ظهير سلطاني، في المؤسسات التعليمية بالمدينة، وربما كان لهؤلاء الأساتذة معيدون ونواب، فالمعيد هو الشخص الذي يعيد الدرس بعد أن يلقيه الشيخ، فهو اذن معينه على نشر علمه، وإلقاء دروسه وتثبيت املائه على الطلبة شرحا وبسطا، كما هو معين للطلبة على إعادة المحفوظات. والمراجعة والمذاكرة، فهو دون الشيخ دراية وأعظم معرفة من عامة الطلبة، و جرت العادة أن يكون للأستاذ الواحد معيد واحد، وقد يكون له معيدان، والظاهر أن هذا المنصب كان شائعا في بلاد المشرق أكثر منه في بلاد المغرب (266).

أما النائب فهو المدرس الذ ي يحل محل الشيخ، فيتناوب معه التدريس فإذا كان المدرس مدير مؤسسة تربوية، وظف له نائبا يريحه من التدريس في أيام معينة، لكثرة انشغاله بالإدارة أو بوظائف أخرى كالقضاء (267) ، وقد اهتم الفقهاء التلمسانيون بأخلاق الأساتذة والمعلمين، وكيفية تعاملهم مع الطلبة والمتعلمين ومدى توفر الصفات التربوية والعلمية لديهم.

فمن بين الشروط الهامة التي يجب أن تتوفر في الأستاذ والمعلم والمؤدب، أن يكون وافر العلم غزيره في اختصاصه، مطلعا على أمهات الكتب والشروح والحواشي، وأن يكون صاحب خط جيد مليح، سهل العبارة قادرا على الاستيلاء على المجالس بحسن حديثه وخفة روحه وسرعة بديهته، ومن الصفات المرغوبة في المدرس، النزاهة العلمية واحترام القواعد العلمية، وما تتطلبه من صرامة المنهج، مثل الحفظ والتثبت واليقظة والضبط والنقد والصدق والانصاف، وهي صفات لا يخفي دورها في الرقي بالمعارف والعلوم، فضلا عن اتصافه بصحة الرواية وعلو الإسناد واتصال السماع خاصة في علوم الحديث والقراءات، وغالبا ما تعود شهرة بعض الشيوخ إلى هذه الصفات (268).

فينتقل إليهم الطلاب من مختلف البقاع للسماع عنهم مثل الشيخ أبي اسحاق ابراهيم التنسي، وابي عبد الله محمد الشريف التلمساني، وأبي عبد الله محمد مرزوق الخطيب وحفيده، وأحمد زاغو والسنوسي وأبركان وغيرهم، وأن يكون ذا أخلاق رفيعة متسامحا مقبلا على المتعلم أخذًا بيده مرشدا له، فيمده بالأصول الصحيحة ويعيره الكتب ويتتبع أخبار العلماء، ويسأل عن أحوالهم وصحتهم ومعاشهم، بل من المروءة أن يزور أصحابه وتلامذته، ويسعى في تقديم المساعدات المادية والمعنوية لطلابه (269).

ومن الشيوخ من كان يكره المراجعة والاستفسار، ومنهم من كان يتواضع في مجلسه حتى لا تميزه من بين طلابه، ومنهم من كان لا يتوانى في توبيخ الطلاب على تهاونهم، فربما طالبهم في أول درس اليوم بإعادة درس الأمس، ومن الشيوخ من كان يأمر طلبته بتقييد تقريراته وأبحاثه، ومنهم من كان لا يتسامح في أدنى غلط فيبالغ في التأنيب والعتاب (270)، ويشترط فيه أيضا أن يكون كبير السن ناضجا يفوق الأربعين سنة، ومن المدرسين الذين تولوا هذه المهنة في سن مبكرة في القرن الثامن الهجري، عبد الله بن محمد الشريف التلمساني (ت 792 هـ)، الذي درس في حياة أبيه وهو دون الأربعين سنة (271)، أما الاعتزال عن التدريس فلا يقرره إلا الطلاب عندما يرون بأن الأستاذ قد تراجع عنه الصفاء الذهني، والملكة العقلية، بسبب الشيخوخة، فيتركون الأخذ عنه، وكان الأساتذة، يعتنون بالجانب المظهري، فقد تميزوا بإرتداء الملابس البيضاء من برنس وعمامة، لا يشاركهم في هذا المظهر إلا كبار رجال المخزن (272)، ويشترط محمد السنوسي في المعلم أن ينقطع من حين لآخر، ويتفرغ لتجديد المعلومات بالقراءة والمطالعة، ثم يعود للتدريس بنفس وعلم جديدين (273).

طرق التدريس:

جرت العادة أن يجلس الشيخ والطلبة على البسط أو على كراسي خشبية عليها البسط، ويراعى بعض المبادىء التربوية وأدبياتها، والتي أشار إليها ابن خلدون (274)، ومحمد السنوسي (275)، كالتدرج في التعليم، بحيث يبدأ بالأسهل ثم الأصعب، وبتبسيط المعلومات، وتشويق الطلاب للدروس، وخلق روح المنافسة بينهم وتشجيع المتفوق فيه ماديا وأدبيا، ويتميز التدريس بالرواية الشفوية أو ما يسمى بالتلقين، الذي يتولد عنه احترام السند والمتن، ويتكلف

أنجب طلاب الحلقة أو المجلس بقراءة النص، من الكتاب المقرر، ويسمى بقارىء المجلس، وطريقة التعامل مع النص، تختلف من شيخ إلى آخر، فمنهم من يتخذ من المتن محور المناقشة والبحث.

وتصنيف المعلومات، واستعمال القياس ومعاني الألفاظ، والبعض الآخر يغلب عليه المنهج النقلي في تعامله للنص، واهتمامه باعراب ألفاظ النص، والوقوف عند دلالتها اللغوية، ونقد الروايات والتعرض لرجال سندها، والبعض يمزج بين الطريقتين (277)، وأحيانا يقرأ الشيخ كتابا بلفظه فيسمعه الطلاب، ويسمعهم علما موثوقا وبصحته (278)، ومنهم من اتخذ طريق المحاورة، وهي السؤال والجواب، ويبدو أنها الطريقة التي نقلها ابنا الامام وعمران المشذالي من افريقية إلى تلمسان (279). وقد امتازت طريقة شيوخ تلمسان، باعتمادهم على البحث والتفكير والحفظ (280). وهي طريقة لها اجابياتها في تحصيل العلوم فضلها ابن خلدون عن الطريقة السمتعملة بمدينة فاس (281)، لأن الطالب هو الذي يقوم بدور رئيسي في الوصول إلى المعرفة الصحيحة، ولاسيما في العلوم العقلية، أما دور الأستاذ فيقتصر على الإشراف والتوجيه، وإدارة المناظرة والمناقشة ويروى عن الآبلي، أنه كان يقول لطلابه حينما تستعصي عليهم مسألة من المسائل العملية: «إذا ما أشكلت مسألة أو ظهر بحث دقيق انتظروا أبا عبد الله الشريف» (282)، لأنه كان من أنجب طلابه، وهذا دليل على التعاون العلمي بين الطلاب من جهة وبين الطلاب والأساتذة من جهة أخرى في حل المسائل والقضايا العلمية. وكان أبو علي الحسن بن مخلوف الشهير بابركان، قديرا في قراءة الرسالة بحيث كان يستخرج منها طوقا ومفهوما واشارة ومطابقة وإلتزاما، استطاع أن يجمع بين الفقه المنتشر في ابن الحاجب والمدونة والأمهات ويقارن بينها، وكان محققا في نقله وفهمه، لا مجازفة عنده، ولا تخليط، وقد حضر محمد السنوسي له دروسا، وهو يقريء الرسالة ومختصر ابن الحاجب فقال عن طريقته: « يبدأ أولا بايضاح صورة المسألة، حتى يفهمها كل واحد، ثم بعد ذلك يتسع في نقل كلام الشارح، ويبحث معهم، ثم بعد ذلك ينقل من الأمهات والدواوين الكبار كاللخمي، وابن رشد والنوادر ونحوها، يحقق به فقه المسألة وقد حضر كثير من المشائخ فادعنوا لنقله وفهمه» (283). وكان الشيخ أبركان مقدرا للعلم ومعظما له، بحيث لا يستطيع أحد أن يجرؤ على الحديث معه أثناء الدرس، ولا يتمكن

أحد من الشيوخ أو الطلبة أن يكلم صاحبه في مجلسه، أو يلتفت إليه أو ينظر إلى الداخل أو يجيب سائلا، قبل أن يسمح له الشيخ [284].

وكان الاعتماد على الذاكرة والحفظ كبيرا في هذه الفترة، وتعد وسيلة أساسية للتحصيل، وهو الشيء الذي دفع بهم إلى الاستمرار في المطالعة، والإكثار من المذاكرة والمناظرة والتدريس والإشتغال بالتأليف، حتى لا تتعرض معلوماتهم إلى النسيان.

وتتمثل هذه الآداب التعليمية في المنظومات، من أوزان مختلفة تكتنفها في كثير من الأحيان، الغموض والتعقيد، بسبب الاختصار الشديد الذي تميزت به المراجع والمصادر، وهو ما يجعل فهم المادة العلمية صعبا، خاصة على المبتدئين، فتتطلب شروحا طويلة، والغرض من الاختصار هو تسهيل حفظ المادة ونقشها في الذاكرة، وقد امتد هذا اللون إلى مختلف علوم ذلك العصر، واشتهر منها نظم الألفيات، وقد انتقد ابن خلدون، اسراف أهل المغرب في الحفظ واهتمامهم به [285]. وكانت حصة الدرس غير محدودة الوقت، إذ هي تتواصل من الفجر حتى صلاة العصر، كما أسلفنا ـ يتعاقب عليهم مدرسون عديدون وينذر أن يجتمع الشيخ بالطالب عدة مرات، وكانوا يطلقون على الحصة الدراسية كلمة المجلس أو الدولة [286].

فكان بعض الشيوخ يحبون التصدر للتدريس يوم الخميس، أو يوم الجمعة أو يوم السبت، ومنهم من كان يدرس يومين في الأسبوع، وذكر القلصادي انه كان يلازم الشيخ ابن زاغو مع الجمهور في المدرسة اليعقوبية بتلمسان، لدراسة مادة التفسير والحديث والفقه، في ازمنة الشتاء والأصول والعربية والبيان والحساب والفرائض والهندسة في زمن الصيف، ويوم الخميس والجمعة كان يخصصه لقراءة كتب التصوف وتصحيح تآليفه [287].

وإن الطالب لا يمكنه أن ينتقل إلى مرحلة الفقيه والأستاذ، حتى يكتهل ويقوى نظره، ويكون بارعا في حفظ الرأي ورواية الحديث، ويعرف طبقة رجاله ويتحكم في عقد الوثائق، ويعرف عللها ويطالع الاختلاف، ويعرف مذاهب العلماء والتفسير ومعاني القرآن.

حينئذ يمكن أن يصبح من مصاف الفقهاء ورجال العلم، وعلى الرغم من ذلك، فإنهم يظلون يتعلمون على الفقهاء في المجالس العلمية، التي تعقد في المساجد أو في البلاط الزياني [288].

تعليم المرأة :

شجع فقهاء الاسلام تعليم المرأة بحكم طلب العلم فريضة على الرجل والمرأة (289) ، لكن في الواقع العملي، ظلت المرأة محرومة منه، إلا في حالات نادرة، خاصة بعد أن تصبح البنت في سن البلوغ، فقد كانت تدرس في الكتاب، مع الأطفال القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة وبعض المتون، وكان أهل تلمسان يسمحون لها بالتعلم في هذه المرحلة، فكانت تحفظ أهم الكتب، التي يحفظها المتعلمون، وإذا لم تكن لنا أمثلة عن عدد البنات، اللائي كن يدرسن في الكتاب والمدارس، والنسبة التي كن يشكلنها بين الذكور، فإن عددهن لاشك كان قليلا جدا، وربما بعد أن تتلقى نصيبا من التعليم في الكتاتيب مع الصبيان، حتى سن معينة بعدها تتحمل مسؤولية البيت والانجاب وتربية الأطفال، ولم يبرز منهن في الميدان العلمي، بمدينة تلمسان في العهد الزياني، إلا قلة قليلة كن ينتمين إلى الفئة الخاصة تقريبا، وهي فئة الحكام والفقهاء وبعض البيوتات المشهورة بالعلم والفقه والأدب (290)، التي كانت تحرص على تعليم بناتها كتعليم ابنائها ، إلا أنها كانت تخصص لهن مدرسين يدرسونهن في منازلهن (291).

وقد برزت في هذا الميدان السيدة فاطمة بنت العالم التاجر ابي زيد النجار وزوجة أبي عبد الله محمد بن مرزوق، الجد الأكبر للخطيب (292) ، ومنهن أيضا السيدة بنت الفقيه سيدي ابن الأكحل من خيار المثقفات (293).

ومنهن المرأة الصالحة المتصوفة الشهيرة بالمؤمنة التلمسانية (294) ، ومنهن عائشة بنت الفقيه بن الحسن المديوني، التي ألفت مجموعا في الأدعية والأشعار، وكانت لها قوة في تعبير الرؤيا، تعلمتها من مطالعاتها الكثيرة لكتب الفن (295).

الإجازة العملية :

بعد الدراسة المعمقة والبحث المستفيض والحفظ المركز، يتوج الدارس بشهادة يمنحها أياه شيوخه، وهي المعروفة في العصر الوسيط بالإجازة ولها مرادفات كالبرنامج والفهارس، وهي عبارة عن مصنفات يذكر فيها الشيوخ والاساتذة، الذين تتلمذوا عليهم في مختلف الحواضر الاسلامية والمقررات الدراسية التي درسوها وأجيزوا فيها. لأن طلاب تلمسان كغيرهم، لم يكتفوا

بالإجازة التي تحصلوا عليها من علماء بلدهم، بل كانوا ينتقلون إلى أماكن عديدة لينالوا شرف الإجازة منها [296]، والإجازة عند المحدثين هي الإذن في الرواية لفظا أو كتابة، وكانت في الأصل تمنح إلا لمن يدرس علم الحديث، ثم عمم استعمالها، فصارت تمنح في كل علم أو فن، ثم انطلقت فصارت تمنح في عدة علوم أو فنون، وحتى في جميع العلوم والفنون التي يتقنها المجيز.

والإجازة تدل على المستوى العلمي الهام، الذي وصل إليه الطالب بعد أن أخذ من المعرفة والعلوم، ما يهيئه إلى إجازة تدريس الكتاب أو الكتب المجاز بها، أو رواية الحديث المأذن له في روايتها، وأن يكون المجيز عالما لما يجيز به ثقة في دينه وروايته معروفا بالعلم، وأن يكون المستجيز من أهل العلم متسما بسمته [297]. ويقول ابن مرزوق في مجموعه: «فقرأت كتاب الله على شيخنا الفقيه الصالح الولي، أبي زيد عبد الرحمن بن يعقوب بمكتبه بسويقة اسماعيل وكان من خيار الصالحين الفضلاء ارباب القلوب وقد ذكرته في برنامجي».

وذكر ابن مرزوق في فهرسته الأساتذة الذين درس عليهم وأجازوه بقوله: «. . . وعاشرته كثيرا سفرا وحضرا وسمعت بقراءته وسمع بقراءتي وقرأت عليه الكثير، وقيدت من فوائده وانشدني الكثير، فأول ما قرأت عليه بالقاهرة بمجد. . وقرأت عليه بمدينة فاس وبظاهر قسنطينة وبمدينة بجاية وبظاهر المهدية وبمنزلي بتلمسان، وقرأت عليه عوالي من تخريج الدمياطي، وفيها الحديث المسلسل. . إلخ» [298]. ويذكر عبد الرحمن الثعالبي، أحد تلاميذ العالم الفقيه ابن مرزوق الحفيد، أنه قدم عليه شيخه وهو مقيم بتونس سنة 819/ 1416 في طريقه إلى البقاع المقدسة، فأقام بتونس تلك السنة أو جلها، فأخذ عليه كثير من العلوم وفي هذا الصدد يقول: «. . وسمعت عليه جميع الموطأ بقراءة الفقيه ابن شيخنا أبي حفص عمر بن عبد الله القلشاني، وختمت عليه الأربعين حديثا، التي جمعها أبو زكريا يحي النووي، قرأتها عليه في منزله قراءة تفهم. . . » [299].

وأجاز الشيخ الفقيه المحدث القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الحق اليعفري التلمساني، الفقيه أبا عبد الله محمد الخشني البجائي، الذي رغب إليه في ذلك فكان جوابه بما يلي: « أجبتك بأحسن تحية وامتثالا لما جاء به خير البرية، نعم وأجبتك إلى ما سألته وطلبته إجابة من يعلم أنك أهل له، وإذن من تحقق انك قائم به لشواهد طلبك، بوارع أدبك، إجابة عامة بشرطها فتلقها تلقى أمثالك، واعمل لحسابها عمل نظراتك، والعمل جمال العلم وخادم له مرتبط به لمن أراد

السعادة، وسعى لها قال تعالى: «إليه يصعد الكلام الطيب والعمل الصالح يرفعه» (300)، مع شروط الإجازة عند أهلها القائلين بإجازتها، جعلنا الله وأياكم ممن استمع القول واتبع أجمله، وممن ختم بالحسن عمله آمين، قاله وكتبه حامدا ومصليا على نبيه محمد بن عبد الحق بن سليمان (301)، من ذي الحجة عام ثلاثة وستمائة» (302).

فبعد هذا التتويج بالإجازة، يصبح الطالب شيخا وهو لقب الأستاذية، التي تجعله في مصاف العلماء والفقهاء والأدباء، له مكانته في المشيخة العلمية.

هذه أهم عوامل نمو الفكر والثقافة وازدهارهما، بمدينة تلمسان، بفضل العناية الفائقة والمتزايدة التي كان يوليها سلاطين بني زيان وأمرائهم لرجال العلم والأدب والثقافة، بما كانوا يجودون به عليهم من منح وجرايات، وبما كانوا يجدونه من حظوة واهتمام، اطلقت ألسنة الشعراء بالمديح والثناء، واسالت حبر المؤلفين، لتسجيل المآثر وتخليد المواقف، والتعمق في المسائل العقدية والفقهية المطروحة على الساحة الاسلامية.

كما كانوا يعتنون عناية خاصة بالمؤسسات الدينية والتربوية ويكثرون من إنشائها وتشييدها، والانفاق عليها كالمساجد والمدارس والزوايا، والكتاتيب والاهتمام بالمنظومة التربوية والتعليم وطلابه. فضلا عما كان يتميز به أبناء هذه الحاضرة من استعداد فطري، للتكيف والتلقي الذاتي والمساهمة في المد الحضاري وانتشاره وتدعيمه، بعناصر جديدة من القوة والحيوية والنشاط.

فهذه العوامل نفسها، كانت من الاسباب الرئيسية، في تطوير مختلف مجالات الثقافة والفكر، حتى انتقلت الى الهوى الشعبي العام، وأحست مختلف الفئات الإجتماعية، بضرورة النهوض بها، وبالتالي تلاحمت رغبة الحاكمين، مع رغبة المحكومين في العناية والإهتمام بالعلوم الشرعية، وحفظ رسالتها وعطائها وروافدها والمحافظة على سلامتها ونقاوتها، وتعهد الجميع، بالتعمق في اللغة العربية وآدابها، من نحو وبلاغة ومعاني وبيان وبديع من أصول ومنطق، وما تفرع عن ذلك من علوم عقلية وطبيعية، وما اتصل بها من فنون.

الهوامش :

(1) محمود بوعياد: جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، ص 56ـ 58 محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، ص 221ـ226ـ الطاهر توات: ابن خميس شعره ونثره ص 19 ـ20، نوار بوحلاسة: الشعر الزياني، ص 30 ـ34ـ محمد زلاقي: شعر المولديات في المغرب الإسلامي، ص 32ـ 40ـ الأخضر عبدلي: مملكة تلمسان، ص 190 ـ 191.

(2) اختلف الدارسون الغربيون في معنى الثقافة (Culture) ومفهومها، فقد نعتها الألمان بمعنى حضارة واستعملت الكلمة في عصر النهضة الأوروبية للفنون والأدب أي ثقافة الفنون الجميلة والآداب الإنسانية وان معناها في العهد الروماني مرتبط بالانسانيات من أدب ولغة ونحوومنطق وفلسفة ثم تطور المفهوم عند الغربيين حتى صار يعني ذلك الكمال المركب الذي يتضمن المبادىء والعقائد والفنون والاخلاق والقوانين والعادات، وعرفها العرب بالحذقة والفهم بسرعة أما معناها في الاسلام فهو ما عند الأمة من تراث ديني وروحي وعلمي وفلسفي وأدبي وفني وحضاري، انظر: Taylor (E.B): Primmitive culture london john Murray1871 P.L

ـ غستاف لوبون: حضارة العرب ترجمة زعيتر عادل وعيسى البابلي الحلبي القاهرة ص 736

ـ مروان سليم ابو حويج: أصالة التثقيف التربوي الاسلامي في الفكر الأندلسي دار الجامعة الكويت 1987 ص 31ـ40.

ابن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية الرسالة الرباط 1982 ـ 131.

(3) ابن شقرون المرجع السابق، ص 131.

(4) الكامل في التاريخ. عني بمراجعة أصوله والتعليق عليها نخبة من العلماء دار الكتاب العربي بيروت 1984 ج 7 ص 330.

(5) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج 3 ص 132.

(6) محمد المنوني: ورقات ص 193.

(7) ابن الخطيب: مقدمة الاحاطة ج 1 ص 8. عبد العزيز بن عبد الله: مظاهر الحضارة المغربية دار السلمى للتأليف والنشر والطباعة والتوزيع، الدار البيضاء 1959 ص 40.

(8) ابن خلدون: العبر، ج 7 ص 232.

(9) ابن خلدون: المقدمة، ص 774.

(10) ابن خلدون: العبر، ج 6 ص 226ـ محمد اسماعيل: فكرة التاريخ ص 78.

(11) ابن الاعرج: زبدة التاريخ، ج 3 ورقة 100.

(12) نفسه جـ 3 ورقة 99ـ 100. ابن خلدون: المقدمة، ص 668.

(13) المقدمة، ص 668.

(14) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 1 ص 216.

(15) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 4 و8.

(16) التنسي: نظم الدر والعقيان، ص 191، ص 179.

(17) نفسه، ص 210ـ 211.

(18) محمد زلاقي: المرجع السابق، ص 37.

(19) ابن مريم: البستان، ص 119. ابو الأجفان محمد بن الهادي: الامام ابو عبدالله محمد المقري التلمساني. الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1988 ص 63.

(20) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ج 2 ص 194.

(21) المقدمة، ص 106.

(22) يحي بن خلدون بغية الرواد ج 1 ص 114.

(23) ابن مريم: البستان، ص 227.

(24) ابن الخطيب: الاحاطة، ج2 ص 426_427.

(25) الطاهر توات: المرجع السابق، ص 113.

(26) ابن الاعرج: زبدة التاريخ، ج3 ورقة 35.

(27) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 35.

(28) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 1، ص 208.

(29) نفسه، ج 1 ص 130 ـ ابن مرزوق، المسند، ص 265 ـ 266.

(30) التنسي: نظم الدر، ص 139.

(31) ابو الأجفان: المرجع السابق، ص 63.

(32) ابن خلدون: العبر ج 7 ص 217 ـ 218 ـ يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 1 ص 205 ـ 206.

(33) النباهي ابو الحسن عبد الله المالقي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا تحقيق ليفي بروفنسال، دار الكتاب العربي القاهرة 1948 ص 134.

(34) المقري: نفح الطيب (ط بيروت 1968) ج 5 ص 218 ـ 219 وعن أبي موسى عمران المشذالي انظر نفسه، ج 5 ص 223.

(35) ابن مرزوق: المسند ص 260.

(36) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 1 ص 127 ـ 128 ـ ابن مريم البستان ص 68 ـ 70.

(37) ابن مرزوق: المسند، ص 260.

(38) التنسي: نظم الدر، ص 161.

(39) Al Abbadi (A.M): El Reino de granada en la epoca de Muhamad V Madrid 1973 P. 110-111.

(40) Ibid. P. 110

ترجم كتاب «واسطة السلوك» الى اللغة الاسبانية الاستاذ Mariano Gaspar في مجموعة الدراسات العربية جـ 4

Coleccion de Estudios Arabes 4 Zaragoza 1899.

(41) المقري: أزهار رياض، ج 1 ص 249.

(42) Brosslard (ch): les inscription arabe p. 167.

(43) محمد الشريف فاهر: لسان الدين بن الخطيب وتراثه الفكري بتلمسان مجلد الاصالة عدد 26 الجزائر 1975 ص 243.

(44) ابن عمار الجزائري، ص 166.

(45) نثير الجمان، ص 111ـ الطاهر توات: المرجع السابق، ص 20.

(46) ابن الاعرج: زبدة التاريخ، ج 3 ورقة 76.

(47) أحمد بابا التنبكتي: نيل الإبتهاج ص 257ـ 269ـ محمد مخلوف: شجرة النور الزكية.

ط بيروت 1349 ص 234. الفريد بيل: المرجع السابق ص 332.

(48) التنسي: نظم الدر، ص 210ـ 212 محمد بن سعيد الشريفي: خطوط المصحف عند المشارقة والمغاربة (من القرن 4 إلى القرن 10 هـ) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ص 312.

(49) ابن الأعرج: زبدة التاريخ ج 3 ورقة 96.

(50) نفسه جـ 3 ورقة 99، احتضن عهد هذا السلطان عددا كبيرا من الفقهاء عاشوا بمدينة تلمسان، وفي غيرها من حواضر بلاد المغرب، وقد مات عدد كبير منهم في أيامه، نذكر منهم:

ـ أبا اسحاق ابراهيم التانو، نزيل وهران توفي سنة 867 هـ/ 1462

ـ أبا عبد الله محمد بن أحمد بن يحي الحباك، توفي سنة 867 هـ/ 1462

ـ محمد بن العباس بن محمد بن عيسى، الشهير بابن العباس التلمساني توفي سنة 871 هـ/ 1466.

ـ محمد بن مخلوف الراشدي أبركان توفي سنة 885 هـ/ 1470.

ـ محمد بن يوسف السنوسي توفي سنة 895 هـ/ 1480.

ـ عليا بن محمد بن علي القرشي الشهير بالقلصادي توفي سنة 891 هـ 1486.

ـ أحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني، توفي سنة 899 هـ/ 1493.

ـ محمد بن أحمد بن أبي الفضل بن سبعين بن صعد، توفي سنة 901 هـ/ 1495.

أنظر: ابن مريم البستان، ص 291ـ 220

أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 84.

ابن الأعرج: زبدة التاريخ، جـ 3 ورقة 100.

(51) له قصيدة هائية جاء فيها:

رعى الله أياما تقضت حياها   بأنس حبيب كان أنسى محياها

وردّ لياليـنا التي سلفت لنا   وحيي فؤادا لا يمل لذكراها

انظر: ابن الأحمر نثير الجمان ص 112ـ114، الطاهر محمد توات: المرجع السابق ص 21ـ 22.

(52) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 1 ص 8، محمد القبلي: المرجع السابق ص 69.

(53) محمد القبلي : المرجع السابق ص 69.

(54) حسين أمين، المدارس الإسلامية في العصر العباسي وأثرها في تطوير التصليح مجلة المؤرخ العربي العدد (6) مطبعة الاعلام الرباط، ص 5.

(55) نفسه ص 6

Sourdel (D): Refexion sur la diffusion de la Madrassa en orient du XI e au XII S. in l'-(56) enseignement en Islam et en occident au moyen - age colloques internationaux de la Napouli Paris 1977 TI PP. 165 - 184.

(57) محمد القبلي: المرجع السابق، ص 74 حول ظهور المدارس في المشرق انظر- Sourdel (D) reflexions sur la diffusion de la Madrasa en orient T 1 PP 165 - 184.

(58) ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ق 2 ص 197.

(59) التجاني: الرحلة، تونس 1958 ص 251_252.

(60) محمد القبلي: المرجع السابق، ص 69.

(61) محمد القبلي: المرجع السابق، ص 69.

62) ابن الأحمر : روضة النسرين الرباط 1962 ص 19 _ 22.

(63) القبلي: المرجع السابق، ص 69.

(64) الفريد بيل: المرجع السابق، ص 354.

(65) عبد الرزاق قسوم: عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر والجزائر 1978 ص 22 خرج أبو الحسن الأشعري يوم الجمعة سنة 295 هـ / 908 م في البصرة عن المعتزلة، وقال : أنا فلان كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا تراه الابصار. وأنا تائب مقلع عن ذلك، فمنذ ذلك التاريخ، حمل الاشعري حملته ضد المعتزلة، وأصبح في العالم الإسلامي مذهب كلامي جديد، اسمه الأشعري، وهو في الحقيقة اسم جديد لمذهب أهل السنة والجماعة، والجديد في هذا المذهب، هو استخدامه لأدلة خصومه المعتزلة ومنهجهم الكلامي ليدحض به أراءهم وحججهم، وقد اتسعت الحركة الأشعرية حتى صارت تضم جميع أهل السنة والجماعة انظر: عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي، منشورات المكتب التجاري، بيروت 1962 ص 249_250.

(66) الإجتهاد: مدرسة تدعو إلى استعمال الرأي، في القرآن والأحاديث النبوية، على النحو الذي لا يتعارض مع المبادىء الاسلامية، وقد عارض بعض الفقهاء هذا الاتجاه واعتبروه زيغا ومروقا عن الاسلام، انظر: قسوم: المرجع السابق، ص 22.

(67) التقليد: هو اتباع السلف الصالح دون تحوير او استعمال الرأي في ذلك، انظر قسوم: المرجع السابق، ص 22.

(68) حسين أمين: المرجع السابق ص 9 ذكرت المصادر المشرقية والمغربية أسماء عديدة للمشرف على الخزانة أو المكتبة فقد اطلقوا عليه «صاحب المصاحف» و«صاحب الخزانة» و«الخازن» و«الوكيل» و«القيم» و«المشرف» و«الأمين» وعين الى جانب المشرف الأعلى على المكتبة مساعدون مثل الخازن والمناول ويختار القيم من فئة العلماء المبرزين المتضلعين في العلم واللغة والأدب، انظر: بنين أحمد شوقي: وظيفة القيم في تاريخ الخزانة المغربية مجلة دعوة الحق عدد 249 رمضان 1405 يوليو 1985.

(69) عن النشاط الدبلوماسي لبني زيان أنظر: عطا الله دهينة: مساعدة الزيانيين لمسلمي الأندلس مجلة تاريخ وحضارة المغرب عدد 13 جانفي 1976 ص 7 ـ 17 انظر أيضا ملاحق كتابه:

Dhina (A): Royaume Abdel ouadide pp 220- 237.

Al Abbadi (A.M) : El reino de Granada en epoca de Muhamad V Madrid 1973 PP. 109 - 115.

(70) عن الرسائل الديوانية والاخوانية انظر: المقري نفح الطيب ج 6 ص 204 ـ 205 ـ 377 ـ 388 ـ 389 ـ ابن خلدون: التعريف بابن خلدون رحلته غربا وشرقا تحقيق محمد تاويت لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1951 ص 102 ـ 103 ـ ابن الخطيب: الاحاطة تحقيق عبد الله عنان القاهرة 1980 ج 3 ص 118 ـ 130.

(71) ابو الاجفان: المرجع السابق، ص 62 DHINA (A) : opcit p 111

(72) حسن الوراكلي: المشيخة العلمية في المغرب والأندلس ط طنجة 1990 ص 78.

(73) المجموع، ورقة 18 ـ كفاية المحتاج، ج 2 ص 333 ـ البستان، ص 166.

(74) المجموع، ورقة 17 ـ كفاية المحتاج ج 2 ص 333 ـ 334

(75) نفسه، ورقة 20 ـ 48 ـ كفاية المحتاج، ج 2 ص 344 ـ البستان ص 120

(76) المجموع، ورقة 43 ـ ابن خلدون: التعريف ص 38.

(77) نفسه، ورقة 34 ـ 35 ـ البستان، ص 185

(78) المجموع، ورقة 24 ـ 25 ـ 40 ـ كفاية المحتاج ج 2 ص 344 ـ البستان، ص 155.

(79) المجموع، ورقة 18 ـ 20 ـ البستان ص 185

(80) البستان، ص 123 ـ 124 ـ ابن خلدون: التعريف، ص 47

(81) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص 37.

(82) حسن الوراكلي: المشيخة العلمية، ص 64

(83) نفسه ص 65

(84) لقد حرضت الأحاديث النبوية على الرحلة في طلب العلم انظر: صحيح البخاري: باب الرحلة في طلب العلم م (1) ـ (1) ص 27.

(85) ابن خلدون: التعريف ص 303 ـ 304.

(86) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص 32.

(87) المقري: نفح الطيب، ج 5 ص 221 ـ وابن الحاجب هو عثمان بن عمر بن يوسف جمال الدين المصري توفي سنة 646 هـ / 1248 م ألف كتابا فقهيا كبيرا يتكون من ستين مجلدا له مختصر في الفقه المالكي يعرف عادة باسمي «فرعي ابن الحاجب» أو المختصر الفقهي، ومختصر في أصول الفقه سمي «أصلي ابن حاجب» وكان ابو علي ناصر الدين المشذالي قد ارتحل من بجاية الى المشرق، وأدرك تلميذ أبي عمرو بن الحاجب وأخذ عنه تعليمه وقرأ مع شهاب الدين العراقي، في مجلس واحد، وتضلع في العقليات والنقليات وعاد الى بجاية بعلم غزير حيث أخذ يدرس كتب ابن الحاجب، فعكف عليه الكثير من طلاب بجاية ومنها الى تلمسان ثم إلى سائر بلاد المغرب انظر، ابن خلدون: المقدمة ص 809 ـ المقري: نفح الطيب. ج 5 ص 221 هـ (1).

(88) ابن خلدون: المقدمة، ص 773.

(89) الحفناوي: المصدر السابق ج 2 ص 339 - محمد المنوني: المرجع السابق، ص 200.

(90) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 1 ص 100 - 132، نقل المهاجرون الاندلسيون مؤلفات عديدة في مختلف العلوم والفنون أصبحت مصادر للدارسين بتلمسان مثل: الدر النثير والعذب النمير في شرح كتاب التيسير لابن أبي السداد المالقي (705 / 1305) حرز الاماني وهي قصيدة لامية في القراءات تعرف بالشاطبية لابي القاسم بن غيرة الشاطبي (590 / 1193) التجريد لابي الحسن علي بن سليمان القرطبي (ت 736هـ/ / 1336م) وغيرها.

(91) وحول العلوم المشهورة، التي كان المسلمون يتداولونها في تلك الفترة في الاقطار الاسلامية تحصيلا وتعليما فكانت تصنف الى صنف طبيعي وهي العلوم الحكمية الفلسفية والطبية وصنف نقلي وهي العلوم التي تعتمد على السند كالتفسير والحديث والفقه التي تحتاج الى علم الكلام وغير ذلك، أنظر: ابن خلدون: المقدمة ص، 780 - 798 - 799. الونشريسي: المعيار، ج 2 ص 456.

(92) المجموع، ورقة 43 درس أبو اسحاق بمسقط رأسه بمدينة تنس وبمليانة وشلف ثم انتقل الى تلمسان حيث قرأ على الشيخ سيدي واضح وبلال الحبشي خادم الشيخ أبي مدين القطب.

(93) ودرس ببجاية على مجموعة من معاصريه كالشيخ ابي فارس عبد العزيز بن كحيلا وأبي علي ناصر الدين المشذالي.

(94) ودرس بتونس على جماعة من مشائخها.

(95) وقرأ بالقاهرة والشام على أصحاب الشيخ الواصل العارف بالله الوارث القطب ابي الحسن الشاذلي وعلى شمس الدين الاصبهاني ولازمه ودرس عليه كتب كثيرة في الأصلين والمنطق والجدل وعلى الشيخ شهاب الدين القرافي وعلى سيف الدين الحنفي كتاب الارشاد وحضر مجالسه وختم عليه وأجازه نظر المجموع، ورقة 43.

(96) المجموع، ورقة 39_40.

(97) نفسه ورقة 40.

(98) نفسه ورقة 40.

(99) نفسه ورقة 40.

(100) المجموع، ورقة 44.

(101) درس بسبتة على إمام التعاليم أبا عبد الله محمد بن هلال شارح المجصطي في الهيئة وأخذ بمراكش عن الامام أبي العباس بن البناء وكان إماما في علوم النجامة وأحكامها انظر: التعريف بابن خلدون ص 47.

(102) نفسه، ص 47 - الونشريسي: الوفيات تحقيق محمد حجي الرباط 1976 ص 118 - 119.

(103) درس محمد الآبلي بتلمسان على أبي موسى بن الامام المنطق والأصلين (البستان ص 215).

(104) وقرأ بفاس على شيخ التعاليم خلوف المغيلي اليهودي، فأخذ فنونها ومهر فيها ثم ارتحل الى مراكش سنة 710 هـ / 1310 م ونزل على الامام ابن البناء شيخ المعقول والمنقول المبرز في التصوف فلازمه ودرس عليه علم المعقول والتعاليم والحكمية (البستان ص 215).

(105) وتعلم بمصر على الفقهاء: ابن دقيق وابن الرفعة والصف الهندي والتبريزي وغيرهم من شيوخ الديار المصرية (البستان، ص 214_215).

(106) البستان ص 215.

(107) ابن خلدون: التعريف ص (21ـ22) (34ـ37).

(108) أخذ بتلمسان على الامام عبد المهيمن الحضرمي والقاضي أبي اسحاق بن يحي.

(109)ودرس ببجاية على والده علي بن عبد الله والامام المجتهد المنصور المشذالي وابن السفر الذي درس عليه جملة من المحاصر والمعالم الدينية والفقهية والخونجي وغيرها.

(110)وقرأ بالأندلس على الامام ابن الفخار البيري ولازمه البيري كثيرا وأجازه وأذن له بالتدريس بمدارس غرناطة.

(111)وتعلم بالمغرب الأقصى علي القاضي الشريف السبتي «التسهيل» وروى عن أبي البركات بن الحاج الخطيب الطنجي انظر: كفاية المحتاج ج 2 ص 442.

(112) نفسه ج 2 ص 442.

(113) قرأ بمدينة تلمسان علي أبي زيد، بن يعقوب وعن ابني الامام والولي المجاصى وعمران المشذالي وابن النجار ولازم الامام الآبلي ومحمد بن محمد البيروني.

(114) ودرس بتونس علي ابن عبد السلام التونسي وكبار علمائها.

(115)وتتلمذ بفاس على العالم السطي فدرس عليه أحكام عبد الحق الصغرى والتهذيب والموطأ والصحيحين، أنظر: كفاية المحتاج، ج 2 ص 333ـ335.

(116) البستان، ص 167.

(117) نفسه، ص 173.

(118)نفسه، ص 171.

(119) التعريف بابن خلدون، ص 63.

(120) ابن مريم، ص 184ـابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص 49.

(121) يحي بن خلدون، ج 1 ص 115.

(122)ابن مرزوق: المجموع، ورقة 46.

(123) نفسه ورقة 46.

(124)ابن مريم، ص 184.

(125)نفسه، ص 184ـابن خلدون: المصدر السابق، ص 50.

(126) ابن مرزوق: المسند، ص 23

(127) كتاب المسند، ص 23ـ عبد الحميد حاجيات: الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، الأصالة عدد 26ـ 1975 ص 143.

(128) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 44.

(129) نفسه، ورقة 38.

(130) ابن مرزوق : المجموع، ورقة 38.

(131) نفسه، ورقة 38 بينما يذكر ابن خلدون بأنه رجع إلى المغرب سنة خمس وثلاثين انظر المصدر السابق، ص 50.

(132) درس بتلمسان القرآن على الشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن يعقوب والخطيب أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي وعلى الفقيه ابي عمر ميمون بن سعيد السرغني وعلى والده أحمد بن مرزوق ورأى في صغره من الأولياء بتلمسان خلق كثيرون مثل الفقيه الولي المحدث أبو عبد الله محمد بن علي قطرال وكان من كبار الأئمة المحدثين والإمام ابو عبد الله العبذري والمقري والحاج الصالح ابو عبد الله المصمودي (المجموع، ورقة 47).

(133) وتعلم ببجاية على أبي عبد الله ناصر الدين المشذالي وابو عبد الله بن غريون، وابو عبد الله محمد بن عبد الله بختي الزواوي والولي أبي اسحاق الأليسي والولي أبي زكريا الصغوني وأبي عبد الله المسفر وابي عبد الواحد الكاتب وأبي عبد الله بن سيدمان وأبي عزيز وأبي موسى بن فرقان وأبي علي بن حسين وأبي العباس بن عمران وأبي موسى بن عمران المشذالي وغيرهم من علماء بجاية التي كانت دار علم وحضرة فقه ودين حسب تعبير ابن مرزوق (ورقة 46).

(134) ودرس بتونس على أبي عبد الله الزبيدي وأبي الحسن المنتصر وأبي الحسن الخطاب وأبي اسحاق عبد الرفيع، وأبي عبد الله بن الغماز وأبي علي بن نواح (أنظر ورقة 46).

(135) وقرأ بالاسكندرية على سيدي داوود، وسيدي ياقوت، وسيدي أبي عبد الله الفاسي، وسيدي أبي الحسن العربي، وأبي عبد الله المرسي، وأبي زكريا الزواوي، والفقيه العماد الكندي الفكهاني (أنظر ورقة 47).

(136) وتعلم بالقاهرة على أساتذة كثيرين منهم: الشيخ علاء الدين الغرنوي وسعد الدين الحزاري وأبي الحسن اللواتي وجماعة من العلماء المحدثين والقاضي بدر الدين بن جماعة (ورقة 47).

(137) ولقي في هذه المدن أعلاما كثيرين درس عليهم ثم توجه الى الخليل وعاد الى القاهرة والاسكندرية للاستزادة من المعارف (ورقة 47) ثم رجع الى مسقط رأسه حيث أصبح خطيبا في أربعة مساجد، مسجد العباد ومسجد مرسى الطلبة و مسجد ابن النعمة ومسجد سويقة اسماعيل (ورقة 47).

(138) المجموع، ورقة 28.

(139) توجد زاوية المرشدي بمدينة «فوة» التي تقع بمكان يعرف بمنية المرشد ببلاد الريف ما بين القاهرة والإسكندرية وهي مدينة جميلة عجيبة المنظر بها البساتين الكثيرة والحدائق الغناء. انظر: ابن مرزوق: المجموع ورقة 35 - ابن بطوطة: الرحلة ج 1 ص 49

(140) ابن مرزوق: المصدر السابق ورقة 35-36

(141) ابن مرزوق: المسند، ص 23

(142) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 25

(143) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 28

(144) نفسه، ورقة 27.

(145) نفسه، ورقة 25

(146) نفسه ، ورقة 35

(147) المجموع، ورقة 47-انظر أيضا: نفح الطيب ج 5 ص 415-ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص 49-50

(148) نفح الطيب ج 5 ص 415

(149) المجموع، ورقة 28

(150) نفسه، ورقة 48 ـ نفح الطيب ج 5 ص 414

(151) نفح الطيب، ج 5 ص 415 ـ الحفناوي: تعريف الخلف ج 1 ص 144

ويذكر ابن مرزوق أنه صلى بمكة نحو ست وعشرين سنة وهو رقم يتعارض مع مجاورته التي دامت نحو ا ثنتي عشر سنة فقط فهو رقم مبالغ فيه اللهم إذا حج كل سنة من السنوات التي أقامها في مصر بعد أن هاجر المغرب نهائيا سنة 763 وهي إقامته التي دامت نحو 18 سنة بمصر.

(152) لازم بمدينة فاس كل من الأستاذ عبد الله بن زيد النجدي وابن حياتي وعمران العبدوسي وروى البخاري بتلمسان عن الخطيب محمد بن مرزوق وغيره من شيوخ المدينة وعلمائها، البستان ص 120 كفاية المحتاج ج 2 ص 206.

(153) انظر البستان ص 120 كفاية المحتاج ج2 ص 206.

(154) كفاية المحتاج، ج 2 ص 371.

(155) نفسه، ج 2 ص 222 ـ 223

(156) نفسه ج 2 ص 223

(157) نفسه، ج 2 ص 223.

(158) الطاهر محمد توات: أدب الرسائل، ص 108

(159) نفح الطيب، ج 5 ص 415.

(160) درس بمدينة تلمسان على أبيه الخطيب، وعلى سعيد العقباني والشريف التلمساني والولي المصمودي وأبي الحسن الأشهب.

(161) وقرأ بتونس على ابن عرفة وأبي العباس القصار.

(162) وأخذ بفاس على مجموعة من العلماء والفقهاء مثل الإمام النحوي ابن حياتي وأبي زيد المكودي والحافظ محمد بن مسعود الفيلالي.

(163) وأجازه بالأندلس ابن الخشاب القبجاطي، والحفار، و ابن علاق، وأبو محمد بن جزئي.

(164) وأخذ بمصر عن السراج البلقيني والزين العراقي والشمس الغماري وغيرهم.

(165) وسمع بمكة المكرمة من البهاء الدمامين والنور العقيلي وقرأ بها البخاري على ابن الصديق ولازم المحب ابن هشام في العربية ولقي في حجه سنة 819 هـ ابن حجر والزين رضوان.

(166) انظر البستان، ص 206 ـ 209 ـ كفاية المحتاج ج 2 ص 374

(167) كفاية المحتاج ج 2 ص 383 ـ 384

(168) البستان، ص 147 ـ 148

(169) كفاية المحتاج، ج 2 ص 295.

(170) محمد سعيد شريفي: خطوط المصاحف، ص 312، إبن خلدون: المقدمة ص 750.

(171) إبن شقرون: المرجع السابق، ص 139.

(172) محمد بن سعيد شريف: المرجع السابق، ص 312.

(173) محمد المنوني: تاريخ الوراقة المغربية مطبوعات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط 1991 ص 58.

(174) المعيار، ج 1 ص 66 ـ محمد المنوني: المرجع السابق، ص 58.

(175) نفسه، ج 11 ص 81 ـ محمد المنوني: المرجع السابق، ص 58.

(176) المجموع، ورقة 2.

(177) نفسه، ورقة 2 والغطوسيات نسبة الى عبد الله بن محمد بن علي بن مفرج بن سهل الانصاري من أهل بلنسية بالأندلس يكنى بأبي محمد ويعرف بابن «غطوس» إشتهر هو وأخوه وابنه باتقان وضبط المصاحف والإعتناء بها أتم العناية مع براعة الخط وحسنه، أنظر: ابن الابار: التكملة لكتاب الصلة، طبعة مكتب نشر الثقافة الاسلامية بالقاهرة 1965 ج 2 ص 836 ـ محمد بن سعيد شريفي: المرجع السابق ص 51.

(178) محمد سعيد شريفي: المرجع السابق ص 51.

(179) الطاهر محمد توات: أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين (7 و8) ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1993 ص 34 ـ 37.

(180) المقدمة. ص 750 ـ 751.

(181) نفسه، ص 751 ـ 752.

(182) هوداس: محاولة في الخط العربي، الحوليات التونسية، تعريب عبد المجيد التركي 1966 عدد (3) ص 211 محمد سعيد شريفي: المرجع السابق، ص 51.

(183) نفح الطيب، ج 5 ص 391 و416.

(184) التنسي: نظم الدر، ص 211 ـ محمد بوعياد: المرجع السابق، ص 70 هامش رقم (102 ـ 104) والقاضي عياض بن موسى (544 هـ / 1149) يعد من كبار رجال العلم في عهده فقيه ومحدث له تصانيف كثيرة أهمها: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» وظل كتابه هذا يتمتع بشهرة واسعة في أرجاء المغرب والمشرق فأقدم على شرحه كثير من علماء المغرب والمشرق فقد خصص له الأديب البارع أحمد المقري كتابا لشهرته ومكانته العلمية سماه «أزهار الرياض في أخبار عياض». انظر: التنسي: نظم الدر، ص 211.

(185) أزهار الرياض: ج 3 ص 307.

(186) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 13.

(187) نفسه، ورقة 14.

(188) نفسه، ورقة 15.

(189) ابن مريم: البستان، ص 243.

(190) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ط القاهرة 1955 ج 1 ص 424 ـ 435.

(191) ابن خلدون: العبر، ج 6 ص 283.

(192) ابن خلدون: المقدمة ص 103.

(193) إسكان الحسن: جوانب من تاريخ التعليم في المغرب الوسيط بين القرن (7 ـ 9 هـ) د. د. ع كلية الآداب جامعة محمد الخامس الرباط 1988 ص 8.

(194) ابن عذارى: البيان، ج 1 ص 48.

(195) المقدمة، ص 48ـ 49.

(196) الغزالي إحياء علوم الدين ج 1 ص 15 ـ محمد المنوني: منهجية التعليم في الإسلام دعوة الحق عدد (1) يناير 1979 ص 15ـ 16.

(197) المقدمة ص 387.

(198) محمد المنوني: منهجية التعليم، ص 15.

(199) للتعمق في هذا الباب انظر: اسكان الحسن: المرجع السابق، ص 9 ـ 17.

(200) ابن القطان: نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، ط جامعة محمد الخامس الرباط ص 74.

(201) السلاوي: الإستقصاء، دار الكتاب الدار البيضاء 1954 جـ 1 ص 138.

(202) الجزنائي أبو الحسن علي، زهرة الآس في مدينة فاس نشره الفريد بيل الجزائر 1922 ص 80 اسكان الحسن الوزان: المرجع السابق، ص 15.

(203) حسن الوزان: المصدر السابق، جـ 1 ص 177 ـ 178 ـ اسكان الحسن: المرجع السابق، ص 20.

(204) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة جـ 1 ص 266ـ 267.

(205) نفسه جـ 1 ص 267.

(206) ابن القاضي: جدوة الإقتباس، ص 84ـ اسكان الحسن: المرجع السابق، ص 18.

(207) الملالي: المواهب القدسية، مخطوط بدار الكتب الوطنية، تونس رقم 6253 ورقة 76/ 1.

(208) نفسه ورقة 80 / أ، وحول منهجه في الوعظ، انظر: اسعيد عليوان محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق، دكتوراه درجة ثالثة معهدة الفلسفة جامعة الجزائر 1987 ص 88 ـ 91.

(209) اسكان الحسن: المرجع السابق، ص 21ـ 22.

Bel (A) : les inscriptions de fes J. A 1918 PP. 143 - 144 (210)

(211) انظر في هذا الصدد، مقدمة إسكان الحسن: المرجع السابق، ص 1.

(212) المقدمة، ص 48ـ 49.

(213) المغراوي: جوامع الإختصار والتبيان، ص 47.

(214) فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي ط القاهرة 1955 ص 292.

(215) نفسه، ص 295ـ 296.

(216) ابن خلدون: المقدمة، ص 1042 ـ 1043.

(217) الملالي: المصدر السابق، ورقة 144 / ب.

(218) اسكان الحسن: المرجع السابق، ط 85.

(219) الونشريسي: المعيار جـ 8 ص 236ـ 237.

(220) ابن مرزوق : المجموع ، ورقة 15 .

(221) حسن الوزان : المصدر السابق ، جـ 1 ص 204 .

(222) المغراوي , المصدر السابق ، ص 24 .

(223) اسكان حسن : المرجع السابق ، ص 86 .

(224) الونشريسي : المعيار ، جـ 8 ص 160 ـ 162 ـ حسن الوزان : المصدر السابق ، حجـ 1 ص 103 .

(225) تاريخ الجزائر الثقافي الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1981 جـ 1 ص 49 .

(226) المقدمة ، ص 1038 .

(227) الملالي : المصدر السابق ورقة 77 / أ اسعيد عليوان : المرجع السابق ص 80 .

(228) ابن خلدون : المقدمة ، ص 1038 .

(229) نفسه ، ص 1039 .

(230) المقدمة ، ص 1040 .

(231) الوزان ، ج 1 ص 203 .

(232) ابن عرضون : مقنع المحتاج في أدب الأزواج ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 766 د . ورقة 43 .

(233) المقدمة ص 774 .

(234) أحمد الشتيوي : مظاهر الحضارة من خلال رحلات المغاربة والأندلسيين وثقافتهم بين القرنين 6 و12 للهجرة ، دكتوراه دولة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية تونس 1988 ج 1 ص 98 .

(235) نفسه ، ج 1 ص 96 .

(236) نفسه ، ج 1 ص 100

(237) يذكر الذرعي محمد بن ناصر : بأن صبيان الكتاب كانوا يدرسون خمسة أيام فقط في الأسبوع ، ويعطلون يومي الخميس والجمعة اللذين أمر بهما الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، انظر : أجوبة محمد بن ناصر الذرعي ط حجرية بفاس ص 85 .

(238) المغراوي : جامع جوامع الاختصار والتبيان ، ص 50 ـ 53 .

(239) نفسه ص 50ـ53

(240) أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص 258 .

(241) التعريف بابن خلدون ، ص 36 .

(242) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص 503 .

(243) نفسه ، ص 155 ـ 156

(244) ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ج 2 ص 101 ـ ابن فرحون : الدباج ص 78 .

(245) الحسن السائح : الحضارة الاسلامية ، ص 259 .

(246) أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج، ص 87.

(247) حول هذا الموضوع انظر: القاضي عياض : الغنية، ص 65 ـ 72

(248) اسكان الحسن : المرجع السابق، ص 101.

(249) المقدمة ص 894.

(250) الحسن السائح : المرجع السابق، ص 260.

(251) علي زيغور: من صياغات التربية ونفسانية المتعلم في الفكر العربي الإسلامي، مجلة الفكر العربي عدد (19) 1981 ص 273.

(252) محمد حجي : الحرية الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ط 1986 ص 85 ـ 86.

(253) الونشريسي : المعيار، جـ 7 صفحات 175 ـ 176 ـ 237 ـ 239 ـ 266 ـ 267.

(254) حسن الوزان : المصدر السابق، جـ 1 ص 177 ـ 178

(255) الونشريسي : المعيار، جـ 2 ص 486.

(256) اسعيد عليوان : المرجع السابق ص 80

(257) حسن الوزان : المصدر السابق، جـ 1 ص 178 ـ 179.

(258) المقدمة : ص 389.

(259) حول محاكمة ابن خميس انظر المقري : نفح الطيب جـ 5 ص 362 عبد الوهاب بن منصور: المتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس مطبعة ابن خلدون تلمسان 1965 ص 83 ـ 84

(260) المقري : ازهار رياض، جـ 3 ص 36

(261) الونشريسي : المعيار جـ 7 ص 340

(262) ابن مرزوق : المسند : ص 413

(263) اسكان الحسن : المرجع السابق : ص 84

(264) نفسه، ص 84

(265) اسكان الحسن. المرجع السابق، ص 84

(266) أحمد الشتيوي : المرجع السابق جـ 1 ص 94 ـ 95

(267) نفسه : جـ 1 ص 96

(268) اسكان الحسن : المرجع السابق، ص 120

(269) أحمد الشتيوي : المرجع السابق، جـ 1 ص 98.

(270) نفسه : جـ 1 ص 97

(271) نيل الابتهاج، ص 150

(272) العمري : مسالك الابصار القطعة المنشورة في ورقات عن الحضارة المغربية للمنوني ص 305.

(273) اسعيد عليوان: المرجع السابق، ص 79 ـ 81

(274) المقدمة، ص 1054

(275) اسعيد عليوان: المرجع السابق، ص 79 ـ 81

(276) ابن عبد الملك: المصدر السابق، جـ 2 ص 445 ـ 446 ـ ابن خلدون: المقدمة ـ ص 1054.

(277) المقري: أزهار رياض، جـ 3 ص 22

(278) المقدمة ص 775 ـ 774

(279) نفسه، ص 139

(280) عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق ص 139

(281) المقدمة، ص 773

(282) ابن مريم: البستان ص 170

(283) نفسه ص 87

(284) نفسه ص 87

(285) المقدمة، ص 774

(286) ابن مريم: البستان، ص 87 ـ أحمد الشتيوي: المرجع السابق، جـ 1 ص 102

(287) ابن بشكوال: الصلة، ط الدار المصرية ترجمة 71 ـ أحمد الشتيوي المرجع السابق، جـ 1 ص 101

انظر: الونشريسي: المعيار: جـ 1 ص 101.

(288) النباهي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا وبيروت 1983 ص 132 اسكان الحسن: المرجع السابق، ص 139.

(289) حول تعليم المرأة انظر: صحيح البخاري جـ 1 ص 33 ـ 34

(290) ابن قنفذ: أنس الفقير ص 44 ـ 45

(291) نفسه، ص 45ـ46

(292) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 8

(293) نفسه ورقة 26

(294) انس الفقير، ص 81

(295) نيل الابتهاج، ص 298 ـ البستان، ص 212

(296) أحمد شلبي: تاريخ التربية الاسلامية، مكتبة النهضة المصرية 1973 ص 267

(297) نفسه: ص 267 وما بعدها

(298) المسند، ص 39

(299) عبد الرحمن الثعالبي: كتاب الجامع، مخطوط الخزانة الملكية الرباط تحت رقم 3155 ورقة 30 وما بعدها. انظر أيضا: فهرسة

أحمد بن علي بن عبد الرحمن المنجور ـ مخطوط الخزانة العامة (مصور ميكروفيلم) رقم 20 ورقة 4 وما بعدها. انظر نصوص مختارة للثعالبي من كتاب: عبد الرحمن الثعالبي والتصوف لعبد الرزاق قسوم ص 129 ـ 136

(300) الآية 10 سورة فاطر

(301) محمد بن عبد الحق بن سليمان اليعفري راوية وفقيها حافظا متكلما متفننا في علوم جمة توفي بتلمسان سنة 625 هـ / 1227 م انظر: عنوان الدراية ص 220 / هـ (2)

(302) عنوان الدراية، ص 221 ـ 220

الباب الرابع

الفصل الثاني

التيارات الفكرية بتلمسان

عند الموحدين
عند بني زيان
تيار الاجتهاد بتلمسان
عينات من المجتهدين
تيار التصوف الاسلامي
تيار التصوف في تلمسان
عينات من متصوفي تلمسان في القرن (8)
أبو العباس أحمد ابن مرزوق
إقامته بمصر
إقامته بمكة
إقامته بالمدينة
لباس رجال التصوف ومأكلهم
ملامح التصوف عند بعض شعراء تلمسان
بعض مؤلفات علماء تلمسان في التصوف
الصراع بين فقهاء التصوف وفقهاء السلف
حركة الجدل
حركة ضد اليهود

التيارات الفكرية بتلمسان

عند الموحدين :

حملت الدعوة الموحدية في طياتها، بذور نهضة اصلاحية دينية ومذهبية في ربوع المغرب الاسلامي، أرسى قواعدها الموحدون، وثبتوا دعائمها بتشجيعهم على البحث والدرس والتحصيل في مجال العلوم النقلية والعقلية، ودراسة المسائل الفقهية والعقدية، وفرضوا مباداءهم التوحيدية على أهل المغرب بالترغيب حينا وبالترهيب أحيانا [1]. وتحويلهم عن المذهب المالكي وعلم الفروع، التي كانت سائدة في عهد المرابطين، وأمروا بالإجتهاد والعودة إلى الأصول، من كتاب وسنة ونبذ الفروع [2]، فأراد الموحدون بذلك، كسر الحصار الذي ضربه المرابطون وفقهاؤهم، على الفكر المغربي فترة من الزمن وتصدوا لعلماء المالكية السلفية، ووصفوهم بالتقليد والجمود والجهل والطغيان والتجسيم والكفر [3].

بذل الموحدون جهودا كبيرة في سبيل توحيد بلاد المغرب والأندلس سياسيا وعقديا، بنشر دعوتهم في المدن والقرى والبوادي، وبين مختلف طبقات المجتمع المغربي وفئاته، مستندين إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، ودعوتها الناس إلى التفكير المنطقي والاستدلال العقلي [4]، فأدى هذا الأسلوب الجديد إلى جدل كبير بين فقهاء المالكية الممثلين للتيار السلفي، وبين غيرهم من أتباع الموحدين وأنصارهم، الذين يفضلون مذهب الأشاعرة، في مسائل عديدة، خاصة فيما يتعلق باستخدام الحجج العقلية والتأويل والمنطق، الذي لا يتفق مع التفسير التقليدي السائد عند الفقهاء المرابطين المحافظين [5]، الذين يقولون برأي مالك والسلف، والاعتقاد بظاهر النصوص والصفات [6].

قام الموحدون بتدريس تآليف الأشاعرة، في حلقات الدرس والتحصيل بين الطلاب، وترويج كتب الامام الجويني (ت 478 هـ / 1085) ونشر افكاره، وكذلك سمحوا بتدريس، مصنفات حجة الاسلام الغزالي (505 هـ ـ 1111 م)، التي كانت محظورة في عهد أسلافهم المرابطين [7].

فقد تضمنت عقيدة الموحدين آراء اقتبسوها من بعض المذاهب التي سادت بلاد المغرب والمشرق والأندلس، ولاسيما منها مذهب المعتزلة والسنة والأشاعرة ومذهب ابن حزم الظاهري [8] ،وتبنوا نظريات الشيعة في الإمامة [9] والمهدوية [10] والعصمة [11]، فكان مذهبهم مذهبا عقديا مبتكرا، مستمدا أصوله من المذاهب والرؤى الآنفة الذكر.

وقد حاول الموحدون الضغط على فقهاء تلمسان كغيرهم من فقهاء المغرب، وإرغامهم على اعتناق أفكارهم الجديدة والتخلي عن المذهب المالكي، لكن هذه الوسائل لم تزد فقهاء تلمسان خاصة منهم سلفية الامام مالك، إلا عنادا وتصلبا في الموقف [12] ، بالرغم مما أصابهم من محن وأذى، وفي هذا الشأن يقول عبد الله كنون: « والذي نريد أن نسجله هنا هو أن المذهب المالكي لم ينهزم مطلقا أمام الدعوة إلى الإجتهاد، التي كان الموحدون يتزعمونها ولا أمام المذهب الظاهري الذي عرف نشاطا كبيرا في هذا العصر» [13].

فقد أظهر فقهاء المالكية مقاومة شديدة، ونوايا عدائية للموحدين، وخير دليل على ذلك حركة القاضي عياض ضد عبد المؤمن بن علي [14] ،ونتيجة لهذا الصراع الفكري، انتعشت الحركة الفكرية، ثم نضجت وانتشرت في الحواضر المغربية والأندلسية، وإزدهرت العلوم الدينية ازدهارا كبيرا ، وكثر المشتغلون بها ، لأنها توفر الوظائف الرفيعة في الدولة [15]، فضلا عن المكانة الإجتماعية التي يحظى بها الفقيه، عند السلاطين وعند مختلف فئات المجتمع، فتقدمت دراسة الفقه تقدمًا ملحوظًا، فنبغ في هذه العلوم عدد كبير من أهل تلمسان تركوا لنا مؤلفات، ومصنفات ومجاميع ومختصرات وبرامج عديدة [16].

عند بني زيان:

لما ظهر بنو زيان بتلمسان، دعموا الحركة الفكرية، التي تركها الموحدون، وساروا على دربهم في بداية الأمر، ثم أخذوا يتميزون عنهم بسياسة ثقافية، تتعلق بالمسائل المذهبية والعقيدة، وأظهروا مرونة كبيرة، تجاه فقهاء المالكية وعلم الفروع [17].

فأمروا بتدريس كتب المذهب المالكي، إلى جانب العلم النظري للأصول (القرآن والسنة)، وكتب التوحيد لابن تومرت (ت 524 هـ/ ـ 1230) في بداية عهدهم، وأصبحت بذلك

المدرسة الرسمية والمساجد والزوايا بمدينة تلمسان، تعطي المكانة الأولى، لتدريس الفقه طبقا للمذهب المالكي [18]، استجابة لمطلب الفقهاء ونضالهم الطويل في عهد الموحدين، وهي المرحلة المعروفة بمرحلة الانتقال ما بين المبادىء الموحدية في التوحيد والعقيدة وبين العودة الى المذهب المالكي، الذي يعتبر مذهب الأغلبية في المدينة.

فبعد أن كانت الدولة في نظر الفقهاء والرعية، تقاوم هذا المذهب أصبحت تحتضنه، وتؤيد فقهاءه، وتحثهم على تدريس كتاب «الموطأ» للإمام مالك (ت 179 هـ / 745)، والمدونة للإمام سحنون (ت 240 هـ / 854)، فكان لهذا الموقف الرسمي، أثره البالغ في نهضة الفقه المالكي بتلمسان [19]، وبالتالي أخذ الناس في هذه المدينة، كغيرهم من المغاربة يتخلون تدريجيا على الأفكار الموحدية في المذهب والمعتقدات، وقضى بذلك بنو زيان على خرافة العصمة والمهدوية والإمامة، ونقحت في عهدهم العقيدة الأشعرية مما شابها من أفكار مقتبسة من المعتزلة والشيعة [20].

وأصبح بذلك المذهب المالكي هو المذهب الرسمي في المغرب الأوسط، منذ النصف الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي [21]، فصادف هذا الاجراء والتحول ارتياحا كبيرا لدى الفقهاء خاصة، والأوساط المالكية المغربية، عامة وتغنى بذلك الشعراء فقال مالك بن المرحل [22] في هذه المناسبة: (الرمل)

مذهبي تقبيل خد مذهب   سيدي ماذا ترى من مذهبي؟
لا تخالف مالكا في رأيه   فيه يأخذ أهل المغرب [23]

وقال أيضا: (الطويل)

وما أنا إلا عالم كل عالم   ففي الشعر حسان وفي الفقه مالك [24]

وأعاد بالتالي بنو زيان، للمجتمع التلمساني خاصة، ولأهل المغرب الأوسط عامة، مذهبهم الرسمي، وعملوا على تدعيمه وتوطيده، فلم يجدوا صعوبة في ذلك، لأن التلمسانيين، كانوا قد اختاروا هذا المذهب منذ زمن بعيد، قبل ظهور المرابطين، وإقامة دولتهم، فانسجموا مع مقتضياته، وتكيفوا مع متطلباته، لأسباب إجتماعية وطبائع أهل المغرب في حب البساطة، وعدم التعقيد من جهة، ولطبيعة المذهب في حد ذاته من جهة ثانية، فأصبح مذهب الأغلبية بدون منازع.

والظاهر أن المذاهب الأخرى، لم تكن لها صدى في أوساط المجتمع التلمساني، ولا سيما منها المذهب الشيعي، ويؤكد ذلك العلامة ابن خلدون بأنه عندما أراد القائد ابراهيم الآبلي، والد العالم محمد الآبلي التوجه سرا الى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج والهروب من خدمة بني مرين، اختفى فترة من الزمن بالعباد رفقة الفقراء (المتصوفة)، فوجد بعض الشيعة قدموا من كربلاء يريدون نشر مذهبهم في هذه الربوع، وفي هذا الصدد يقول: «خرج قاصدا الحج وانتهى الى رباط العباد مختفيا في صحبة الفقراء، فوجد هناك رئيسا من أهل كربلاء من بني الحسني جاء إلى المغرب يروم إقامة دعوتهم فيه» [25].

وكذلك ظهرت تيارات فكرية أخرى بمدينة تلمسان كتيار الإجتهاد والتصوف والسلفي، وظل المذهب الأشعري، من حيث العقيدة سائدا يرعاه سلاطين بني زيان، ويدين به أغلب فقهاء تلمسان.

تيار الإجتهاد بتلمسان:

برز بعض الفقهاء بمدينة تلمسان، درسوا في مدارس عديدة وتتلمذوا على كبار شيوخ الحواضر المغربية والأندلسية والمشرقية، حتى صاروا أئمة زمانهم، استخدموا نهج الإجتهاد [26] في مسائل فقهية، وهي المواضيع التي تكون غير واضحة أو المسائل المختلفة فيها، والتي لم تكن مفصلة في كتب الفروع [27]، فيعودون إلى الأصول ويشرحونها شرحا يتناسب مع تشريع المذهب ويتطابق معه، ثم يقيسون ويرجحون. خلافا لما كان في عهد فقهاء الدولة المرابطية، التقليديين، الذين كانوا يعتمدون على اجتهاد السابقين، دون الرجوع الى الأصول والبحث فيه [28].

وعلى الرغم مما أنجبته مدينة تلمسان في العهد الزياني، من أئمة أعلام كثيرين في الفقه والتفسير والتوحيد والأدب، فكلهم لم يصلوا إلى درجة الإجتهاد المطلق، التي وصل إليها الأئمة الأربعة المشهورين، وإنما يمكن تصنيفهم ضمن المجتهدين، في إطار المذهب المالكي، لا يخرجون عن مبادئه ولا يعملون إلا بما يوافق مضامينه [29].

عينات من المجتهدين :

وقد مثل هذا الاتجاه العديد من الفقهاء بتلمسان، كالعالمين الفقيهين الأخوين ابني الإمام أبي زيد عبد الرحمن (ت 743/ 1343) وأبي موسى عيسى (ت 750 هـ / 1349)، اللذين عملا على تنقيح بعض مسائل الفقه، من خلال الأصول، ، وتوضيح ما جاء غامضا فيه، دون تعصب إلى المذهب، بالرجوع إلى أعلى الأسانيد والأصول، وقد ناظرا شيخ الإسلام رائد السلفية الذي عاصرهما وهو تقي الدين أحمد بن تيمية (728 هـ / 1328)، وتفوقا عليه في بعض المسائل، فاحدثا له مضايقات، فكان ذلك من أسباب محنته [30]، فأنشد لنفسه قائلا: (البسيط).

محصّل في أصول الدين حاصله	من بعد تحصيله علم بلا دين
أصل الضلالة والإفك المبين فما	فيه فأكثره وحي الشياطين [31]

وقال عنهما جلال الدين القزويني «بمثلهما يفخر المغرب» [32]. فكان لهما صيت ببلاد المشرق والمغرب [33].

ونحا منحاهما الامام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني (ت 759 هـ / 1357)، الذي يعد من أبرز العلماء الذين أنجبتهم المدرسة المالكية، في تلمسان والمغرب خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، له تصانيف عديدة في الفقه والتصوف [34].

قارن بين فروع المذهب الأربعة، وناقش من سبقه في مقاصد الشريعة الإسلامية وقواعدها الفقهية وفروق أحكامها [35]. وربط الفروع بقواعدها الشرعية وعلى بيان ما نشأ من الخلاف المذهبي، في أصل هذه القواعد، وقد اعترض عل بعض آراء شهاب الدين القرافي [36]، فابتكر بذلك طريقة جديدة في خدمة الفقه، وهي خلاصة عمله النقدي لأقوال الفقهاء ونظرتهم الى بعض المسائل، فكانت له مواقف اجتهادية عديدة، وآراء خاصة في حدود المذهب المالكي، صحح فيه الكثير من أقوال الفقهاء [37]. وكانت له مشاركة في الجدل والمنطق [38]، ووصفه الشريف التلمساني بقوله : « قد جاز بذهنه الثاقب الراجح في تحقيق الدلائل مهما صعبا، وجاز برأيه الصائب الناجح، في تحصيل المسائل موردا عذبا، حتى صار يفصل في مضيق المناظرات بين أربابها ويجلي دجى المشكلات ويلي كشف حجابها» [39].

فقد أصبحت المدرسة الأشعرية الكلامية منهجا، لاتباع المذهب المالكي الذين صارت لهم مرونة من غير تسامح، تجاه المذاهب الأخرى، فاكتسبوا بذلك أدوات الجدل، والمساجلات والمناظرات، للدفاع عن موقفهم ومذهبهم خاصة في مواجهة خصومهم، ولاسيما المتصوفة الباطنية، ومحاربة البدع بجميع أنواعها (40).

ولعل تفضيلهم لمذهب مالك يعود إلى ما يحتويه من آراء وأفكار ونصوص أصلية من الكتاب والسنة من جهة، ولا عادة الاعتبار للفقهاء المالكية، الذين تعرضوا الى المحن في العهد الموحدي من جهة ثانية، وللتوافق القائم بينه وبين عقليتهم ومزاجهم، لاعتماد المذهب على النص والتثبت في النقل، والإبتعاد عن المبالغة، في استعمال الفلسفة والمنطق والقياس (41).

وكذلك فضل أهل المغرب المذهب المالكي، لأن سلوك المالكيين من القضاة والفقهاء بين الجماهير، كان سلوكا، يكاد يكون مثاليا، سواء فيما يتعلق بعلاقاتهم بالله أو بالأمراء والسلاطين، أو بالناس جميعا. فعلاقتهم بالله تمثلت في التقوى والورع وحسن السيرة، واجتناب مغريات الدنيا وزخرف الحياة (42).

أما صلتهم بالسلاطين والأمراء، فلم تكن قائمة على التودد والتملق لهم واسترضائهم أو التمسح بأطرافهم وطلب رضاهم، بل كان أغلبهم لا يتسامح معهم في الرأي والفتيا ولا يطوعون الدين لرغباتهم ولا يخشون في الله لومة لائم، وأما علاقتهم بالناس فكانت قائمة على التواضع غير مترفعين على العامة، مهتمين بهم يبحثون معهم عن الحلول العلمية لقضاياهم الفقهية ويتوسطون بينهم وبين الحكام للتخفيف عنهم والدفاع عن حقوقهم (43).

وهكذا نرى بأن المذهب المالكي، قد تطور نحو المرونة والإنتشار، ولم يعد أصحابه متصلبين جامدين، لأنهم استفادوا من المحنة الطويلة، التي تعرضوا لها خلال القرون السالفة، فطرحوا قضايا مذهبهم وأفكارهم، من خلال مقاييس جديدة تحاول التوفيق بين النظرية الشرعية وبين الواقع وتطوره (44).

ويبدو أن نزعة الإجتهاد، خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع والخامس عشر الملاديين، بمدينة تلمسان، كغيرها من حواضر المغرب، لم تتعد نطاق المذهب المالكي لإعتبارات السالفة الذكر، وتخضع لأفكاره ومقاييسه، ولم يكن من السهل على الفقهاء بلوغ درجة الإجتهاد

المطلق، والتحرر من أصول المذهب وفروعه، ولعل هناك من تصدى لهذه النزعة وعارضها، ووقف ضد أصحاب استعمال الرأي، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: « مدعى الإجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده» (45).

وقد ظل بعض الفقهاء المحافظين على الفروع، يعتمدون على النقل الحرفي لآراء السابقين، وهم الذين انتقذهم المقري الجد بقوله: « لا يجوز التعصب الى المذهب بالانتصاب للإنتصار» (46) وندد بالتقليد والتعصب وتصدى لبعض المواقف التقليدية المتزمتة، التي سادت في عصره، وهي ظاهرة الجنوح الى الأقوال المنقولة والفتوى بما أفتى به السابقون الأولون، وفي ذلك يقول: «أعلم أن التقليد هو المعصية التي هي كالطبع لهذا النوع، لأنه غلب عليه حب الخيال والوهم، وقل فيه طاعة العقل والفهم» (47).

وقد انتقد كل من محمد بن ابراهيم الآبلي العبدري التلمساني والامام أبي عبد الله المقري، كثرة التآليف المختصرة، في عهدهما، وكذلك الاتجاه السائد في بناء المدارس، لأنهما يريان بأن هذه الظاهرة، يمكنها أن تفسد التعليم، وتؤثر على التحصيل، والجدير بالذكر، ان ظاهرة انتشار المختصرات والمواجز ظهرت في بلاد المشرق، بكثرة المؤلفات في الفقهيات وغيرها، والتزم الفقهاء بالأختصار وتوسعوا في تصانيف المتون والحواشي والمختصرات، التي يحفظها الطالب عن ظهر قلب، فيها من الإيجاز ما يخل بالمعاني ويزيدها غموضا (48).

واستنكر الامام المقري، كثرة النقل من الكتب المختصرة لمؤلفين غير معروفين، ونقل الفتاوي، من كتب الدين لا يميزون بين كتب المسخوطين وكتب المرضيين (49)، وفي هذا الصدد يقول: « كل أهل هذه المائة عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات، وشق الشروح والأصول الكبار، فاقتصروا على حفظ ما قل لفظه، ونزر حظه، وأفنوا أعمارهم، في حل لغوزه، وفهم رموزه، ولم يصلوا إلى رد ما فيه، إلى أصوله بالتصحيح، فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح، بل هو حل مقفل وفهم أمر مجمل، ومطالعة وتقييدات، زعموا أنها تستنهض النفوس فبينما نحن نستكبر العدول عن كتب الأئمة الى كتب الشيوخ، أتيحت لنا تقييدات للجهلة بل مسودات المسوخ» (50).

ويتضح من خلال حديث المقري، أنه يستحيل فهم هذه المختصرات إلا إذا توفرت لها شروح وحواشي وهوامش، فقد توفرت هذه الكتب بكثرة وهي متفاوتة القيمة، وصارت تعد خطرا

بالنسبة للفقـه لإبتعادهـا عن التعمق في البحـث والإجتهـاد من جهة، ولضعف الروح النقدية من جهة ثانية، إلى أن زالـت نهائيـا تقريبـا في القرن التاسـع الـهـجـري الخامـس عشر الميـلادي [51].

أما عن بناء المدارس، فإن المقري يرى بأنها تجدب الطلبة بكثرة،نتيجة اغراءات المنح والجرايات، التي كانت تقدم لهم من قبل الدولة والأوقاف، «فيقبل بهم على من يعينه أهل الرياسة للأجراء والاقراء منهم، أم من يرضى لنفســه الدخول في حكمهـم، ويصرفهـم عـن أهـل العلم حقيقة، الذين لا يدعون إلى ذلك، وإن دعوا لم يجيبوا، وإن أجابـوا لو يوفـروا لهـم بما يطلبون من غيرهم» [52] ، لأن نظام المدارس تصرفهـم عن الرحلـة فـي طـلـب العلـم، والسعي في طلبه للإستفادة من كبار العلـماء في المـشرق والـمـغرب، ويرى بأن إشـراف الدولة على هذه المدارس يجعل الدارسين، يتقيدون بالإتجاه العام والرسمي لها ولا يمكنهم الحياد عن ذلك.

ومن المجتهدين أيضا العالم الفقيه أبو عبد الله الشريف الحسني التلمساني (771 / 1369)، الذي يلقي دروسا أمام السلطان أبي عنان المريني وحاشيته وعلمائه، فكان يبهر الحاضرين بعلمه الغزير، في كل فن قام بتدريسه وكذلك في الإشارات الصوفية، يقول عنه صاحب البستان: «آخر الأئمة المجتهدين الراسخين. . . فحيت به السنة وماتت به البدعة» [53]، يعدّ من جمهور الفقهاء وعامة العلماء، الذين اكتملت لهم آلات الاجتهاد، وقال عنه الخطيب ابن مرزوق: «فقد بلغ درجة الاجتهاد» [54] ، درس التصوف وتلاخيص أرسطو لابن رشد والحساب والهندسة والهيئة والفرائض، بالإضافة الى الفقه واللغة العربية وسائر علوم الشريعة، والتنجيم والموسيقى والفلاحة، وغيرها من العلوم النقلية والعقلية [55]، حتى صار شيخا من شيوخها تولى إدارة المدرسة اليعقوبية في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني.

ومن المجتهدين في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، الشيخ الإمام قاسم بن سعيد ابن محمد العقباني (837 هـ/ 1433)، الذي تتلمذ على والده رئيس العقلاء أبي عثمان سعيد (ت 811 هـ/ 1408 م)، وصفه الفقهاء بالحافظ القدوة المجتهد، العارف بالعلوم العقلية، والنقلية وصل إلى درجة الاجتهاد، كانت له اختيارات خارجة عن المذهب، نازعه فيها بعض فقهاء تلمسان والمغرب.

فقد أفاد بعلمه الغزير جهابذة النقاد، وامتع مسامعهم بدروسه ومجالسه، قرأ عليه كثير من طلاب تلمسان ودرس مختصر المدونة لابن أبي زيد، ومختصر خليل وحكم ابن عطا الله والحوفي والمناسخات من شرح والده ومختصره في أصول الدين [56].

ومنهم محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الشهير بالحفيد (842 هـ / 1438م)، الذي يعد من أكبر فقهاء المرازقة، أخذ من مختلف العلوم، فطار له صيت في ربوع المغرب، حتى أصبح يلقب برئيس علماء المغرب بدون منازع في عهده [57]، بلغ درجة كبيرة من الإجتهاد في الفقه والعقيدة، وملك ناصية اللغة والبيان، وألم بالتصوف وسلك مسلكه [58]، حارب البدع وتصدى لمختلف أنواعها [59]، يعد آية في تحقيق العلوم، واسع الإطلاع على المنقول مفرطا فيه، مالكا للفقه وفروعه جمع بين الشريعة والحقيقة على أصح طريقة [60]، لبس خرقة التصوف من أبيه وعمه [61]. إجتهد في إطار المذهب المالكي [62]، وتميز بعقيدة أهل التوحيد البعيدة، عن ظلمة التقليد، وقد نحا منحاه الامام الفقيه محمد بن يوسف السنوسي في عقيدته الصغرى [63]، بحيث جمع بين العلوم الظاهرة والعلوم الباطنة، وزاد على فقهاء عصره معرفة وحل المسائل المعقدة في التوحيد، «فباطنه حقائق التوحيد وظاهره زهد وتجريد» حسب ابن مريم [64]

تيار التصوف الإسلامي :

يعرف العلامة ابن خلدون، التصوف بأنه «علم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة»، وأصله «العكوف عن العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والاعراض عن زخرف الدينا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه» [65].

ويرى بأن التصوف مشتق من الصوف عكس، ما ذهب إليه القشيري [66](465 / 1072)، والتصوف حركة بدأت بالزهد والورع، ثم تطورت الى علم ونظام شديد في العبادة، وصارت اتجاها نفسيا وعقليا، وسلوكا وعملا وعبادة [67]. ويعد بوجه عام فلسفة حياة وطريقة معينة، في السلوكات، يتخذها المتصوف، لتحقيق كماله الأخلاقي وعرفانه وسعادته الروحية.

وظاهرة التصوف مشتركة ـ فيما يبدو ـ بين الأديان والفلسفات والحضارات المختلفة، ويخضع المتصوف إلى إنتمائه الحضاري والعقائدي والبيئي، والى عصره المتميز بالإضمحلال أو الإزدهار، والتصوف نوعان:

التصوف العملي أو الزهد: وصاحبه لا ينقطع عن الحياة الواقعية، انه تصوف يستمد أصالته من الإسلام، والتصوف الفلسفي: وهو الذي يتحدث عن وحدة الوجود والانقطاع عن الحياة العملية، ، أي التصوف المتمثل في الشطحات، والرقصات وألوان البخور والمزامير [68].

وقد مرّ التصوف الاسلامي بمراحل عديدة [69]، وفي كل مرحلة من مراحله، كان يستمد أصوله من روح الإسلام ومضمونه، ففي البداية كان التمييز بينه وبين علم الكلام (علم العقائد) وعلم الفقه غير واضح، لأن أصل الشريعة واحد، الفقه يرتكز على الكلام، والتصوف يستند إلى الكلام والفقه معا، ويجب على المتصوف الإلمام الكامل بالكتاب والسنة [70]، وصار علم الشريعة ينقسم إلى قسمين:

قسم مختص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهي الإحكام العامة في العبادات والمعاملات، وقسم بالقوّم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجد المعارضة وكيفية الترقي فيها من ذوق إلى ذوق وشرح المصطلحات التي تدور بينهم [71].

ولعل انفصال هذه العلوم الثلاثة (التصوف ـ الفقه ـ الكلام) عن بعضها كان في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، نتيجة تطور العلوم الإسلامية في ذلك العهد من جهة، وبداية التخصص الدقيق، الذي ظهر عند المسلمين بتفرع العلوم، وتميز كل علم، بموضوعه ومنهجه وغايته [72].

وقد فتح الموحدون المجال أمام الفكر والنزعة العقلية في إدراك الله وصفاته، وفكوا القيود، التي فرضها الفقهاء المرابطون، فكان لذلك أثر في تنمية التصوف وانتشاره في بلاد المغرب [73]، وصارت كتب الغزالي وغيره من المتصوفة السنيين والمتفلسفة، تُدرَّس في المؤسسات التعليمية، وتعقد لها المجالس الفقهية والفكرية، فبرز في هذه المرحلة ببلاد المغرب المتصوف القطب [74]، ابو مدين الغوث الاشبيلي، دفين العباد بتلمسان سنة 595 هـ/ 1198)، الذي أخذ التصوف السني مباشرة عن عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني (ت 561 هـ/ 1166)، في بغداد والمتأثر بفكر الغزالي [75]. كما أخذ عن هذا الأخير بطريق غير مباشر، بحيث تتلمذ على الصوفي المغربي علي بن حرزهم (ت 560 هـ / 1165 م)، الذي كان يدعو إلى أفكار الغزالي ومنهجه ومبادئه في التصوف، وكان علي بن حرزهم هذا قد أخذ عن عمه صالح بن حرزهم، الذي تتلمذ مباشرة على الإمام الغزالي بالقدس [76].

وكان قد درس بالأندلس، والمغرب ثم انتقل إلى المشرق، حيث عكف على الدراسة ولقاء كبار رجال التصوف في هذه الديار، ومكث نحو ثلاث سنوات بزاوية المرشدي «بفوة» فكان نعم الجار، ونعم الولي حسب تعبير ابن مرزوق [77]، وكان أبو مدين مشغولا بالتربية والافادة والتعليم والعبادة والاقبال على الله تعالى في الظاهر والباطن، وكان يختلي بعيدا عن الناس [78]، يقول عنه ابن قنفذ: «نال من الزهد والتحقيق منالا سنيا، تبعه فيه المتقون واقتدى به المحققون ولازمه المصدقون» [79].

وقد اتسم أبو مدين بالورع والتقوى، تتلمذ عليه كثير عن المريدين، أخذوا طريقته ونشروها في مناطق عديدة من بلاد المغرب، خاصة في بجاية واقامته بالعباد بتلمسان، جعلت من هذه المدينة قبلة للزائرين، الذين لايدخرون جهدا في سبيل زيارة ضريحه والتبرك به والدعاء عنده [80].

والظاهر أن الفقه السني، ظل ينمو في عهد الموحدين، وخاصة في عهد أبي يوسف يعقوب الموحدي(580ـ 610/ 1184ـ1213)، وكذلك عهد المأمون (624ـ630/ 1184ـ1213)، الذي ثار ضد المبادىء التومرتية وانحرف عنها [81].

وكان الموحدون في بداية عهدهم، قد بذلوا جهدا كبيرا في سبيل نشر فكرة «المهدوية» القائمة على الحق الإلهي، وإقرار المذهب الظاهري في الفقه، وعلى الرغم من هذه الجهود المبذولة، فإن مقاومة السنة كانت أقوى، وكان الانتصار في النهاية للمذهب المالكي في الفقهيات والأشعري في المعتقدات، بفضل انتشار أفكار الغزالي الصوفية والأشعرية [82].

وبرز في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي متصوفون آخرون في بلاد المغرب والأندلس، ساروا على درب أسلافهم من التصوف السني، أهمهم على الإطلاق أبو الحسن الشاذلي (ت 656 هـ/ 1258 م)، وتلميذه أبو العباس المرسي (ت 686 هـ/ 1284)، وطريقتهما تعد امتدادا لتصوف الغزالي وأبي مدين الغوث.

وكان أبو الحسن الشاذلي ينكر الكرامات الحسية الخارقة للعادة التي اشتهر بها سابقوه، ونشروها بين عامة الناس، والكرامة عنده هي التي لا تخرج عن أمرين، هما كرامة الإيمان وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة للسنة، وأن كل من خرج عنهما فهو «عبد مغتر وكذاب» [83]، ويرى بأن التصوف ليس بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، وإنما يكون بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية، فالتصوف عنده اذن ليس بالرسوم والاشكال وإنما هو بالنوايا والأعمال [84].

والجدير بالملاحظة أن هذه الحركة الصوفية، التي بدأ انتشارها يسري شيئا فشيئا في أوساط المغاربة، كانت تسير إلى جانبها اتجاهات دينية أخرى، وأن الطريقة التي كانت أكثر انتشارا في عهد بني زيان، وتجاوبا مع الناس هي طريقتا أبي مدين والشاذلية، لأنهما أقرب الطرق إلى المذهب السني، وأكثرهما انسجاما مع عقلية أهل المغرب، وإثارة لأنفعالاتهم واستجابة لنزواتهم الفطرية، بعيدة عن التكلف لأنها لا تحتاج إلى جهود ذهنية ولا عناء فكري كبير، وأن رجال التصوف في حد ذاتهم، يعبدون الله ويكثرون من ذكره ومن الصلاة في الليل والنهار، ويقومون بحركات خاصة تجعلهم في موقف خاص (85).

وبالموازاة فقد ظهرت في هذه المرحلة كوكبة من شيوخ التصوف، الممزوج بالفلسفة وهو ما يعرف بالتصوف الفلسفي (86)،بعد الفتور الذي أصاب أصحاب هذا الاتجاه في المراحل السابقة، أمام مدّ الاتجاه السني، وقد انتعش كلا الإتجاهين، حتى بلغا ذروتها في العطاء ببلاد المغرب، وقد تصدر الاتجاه السني أبو الحسن الشاذلي، وتقدم التيار الثاني الشيخ الأكبر محي الدين بن عـربي (ت 638 هـ / 1240) ، وعبد الحق بن سبعين (ت669 هـ / 1270) ومن نحا منحاهما. ويبدو أن هؤلاء، قد استفادوا من المصادر والآراء الأجنبية كالفلسفة اليونانية، وخاصة مذهب الأفلاطونية الحديثة (87)، وإذا كان التصوف الفلسفي هو تصوف النخبة فإن التصوف السني يمكن أن يطلق عليه تصوف العامة، وأن المذهب الأشعري هو القاعدة المذهبية لأهل السنة (88).

عاصر أبو الحسن الشاذلي ابن سبعين وابن عربي، وانهم جميعا يعدون من بيئة متقاربة، ويشتركون بصفة مباشرة أو غير مباشرة، في التتلمذ على القطب أبي مدين الغوث (89).

إلا أن التصوف الفلسفي، خلال هذا القرن أصابته انتكاسة حقيقية في بلاد المغرب، خاصة منذ عهدي كل من أبي يوسف يعقوب، الذي تبنى العقيدة الأشعرية، والمأمون الذي انحرف عن مبادىء الموحدين، وترك الجدال الكلامي والفلسفي، حرصا منهما على وحدة الدولة المترامية الأطراف، ولعل هذا هو السبب الذي جعل ابن رشد يتعرض إلى النكبات، أدى إلى هجرة ابن عربي من الأندلس والمغرب إلى بلاد الشرق (90).

أما التصوف السني ذو البعد العملي والتربوي، فقد أخذ جرعة جديدة، على يد أبي الحسن الشاذلي، الذائع الصيت في بلاد المغرب (91)،انتهج أبو الحسن منهج أبي مدين والغزالي المستمد

من الكتاب والسنة [92]، وهو العامل الذي ساعد على انتشار طريقته وازدياد عدد مريديه، لأن مواقفه الفكرية والأخلاقية، تتناسب مع الروح الفكرية، التي أصبحت تسود ربوع المغرب في العهد الموحدي، فجاء تصوفه معتدلا، سواء من الناحية الأخلاقية أو العقائدية، ولهذا فقد استمدت أغلب الطرق الصوفية التي جاءت بعده، أصولها من طريقته، وصارت تنتسب إليها [93].

تيار التصوف في تلمسان:

عرفت مدينة تلمسان كغيرها من حواضر المغرب الإسلامي الكبرى تيار التصوف، الذي انتشر بها انتشارا كبيرا، في نهاية القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، ولاسيما بعد أن دفن الشيخ القطب أبو مدين الغوث بالعباد بتلمسان، حيث شهدت هذه المدينة حركة نشيطة لهذا التيار، لأن أبا مدين صار وليا لهذا المكان [94].

وقد رحب أهل تلمسان، بآثار الغزالي وأبي مدين وغيرهما من متصوفي السنة، على الرغم من معارضة بعض الفقهاء والمحدثين للتصوف المرابطي (الاعتقاد بالأولياء الصالحين) [95]، أخذ التصوف ينتشر في الأوساط الشعبية والخاصة، بل حتى عند بعض الأمراء والسلاطين، غازيا عقولهم وأرواحهم [96].

وبرز في مدينة تلمسان، مجموعة كبيرة من شيوخ التصوف خلال العهد الزياني، لكنهم لم يرتقوا، إلى مصاف أسلافهم، ولم يبلغوا مستوى الإنتشار، الذي بلغه سابقوهم، من أقطاب التصوف الذين كوَّنُوا لأنفسهم تلاميذ ومدارس وطرائق، ارتبطت بأسمائهم في ربوع المغرب والمشرق [97].

حرص رجال التصوف في تلمسان على العمل بالكتاب والسنة، والإعتناء بالجانب التربوي العملي من التصوف، والابتعاد عن تيار التصوف الفلسفي [98]، وبرز منهم في القرن السابع الهجري الثالث عشر (م) بتلمسان:

أبوعلي الحباك الصنهاجي (ت 613 هـ / 1216م) [99]، وأبو محمد المجاصي المعروف بالبكاء [100]، (ت 741 هـ/ 1341 م)، وأبو اسحاق الطيار (ت في نهاية القرن 7 هـ) [101]، والشيخ العالم أبو عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق (ت 681 هـ / 1282م)، الذي كان يشتغل

بالقراءة والفقه والحديث، ثم انكب على كتب التصوف وانقطع للعبادة، وتجرد للمطالعة، ونسخ الكتب والمصاحف، أخذ التصوف عن جماعة من أصحاب سيدي أبي مدين، ولبس الخرقة من جميعهم وخاصة منهم الفقيه المتصوف محسن اللجام الذي كان يلازمه كثيرا (102). والشيخ أبا العباس أحمد المغربي، صاحب أبي مدين، والشيخ أبا محمد صالح وغيرهم ممن كانوا يسلكون علوم الآخرة.

كان ابن مرزوق حسن الخلق لين الجانب بسيطا كريما مع أهله، يؤنسهم ويسأل عن أحوالهم ويوسع عليهم في النفقة، أولاه جماعة من سكان مرسى الطلبة، وهو الدرب الذي ولد ونشأ وترعرع فيه وظل يقطنه، أسكن في دويرة ملاحقة لداره بعض النساء الصالحات المتصوفات المتبتلات، من أهل التصوف وجعل معاشهن على نفقته، وكان يزورهن كل ليلة ويسألهن عن أحوالهن، ويتحدث إليهن في أمور الدين والتصوف ثم يعود إلى بيته، يحي ليلته إما قائما أو بتلاوة القرآن، وكان حسن التلاوة طيب النغمة، وينام أول الليل نوما خفيفا ثم يستيقظ للقيام (103). وكان لابن مرزوق إخوان وخواص من أهل الارادة وأرباب الحقائق، يجتمع بهم كل ليلة جمعة وفي بعض الليالي الأخرى، أو إذا ورد عليه وارد او اقتضى الأمر للإجتماع (104).

ويصف لنا حفيده ظاهرة من ظواهر التصوف، في إحدى الجلسات التي تقام في منزله بدرب مرسى الطلبة بتلمسان، فيشير إلى أنه كانت له جلسات عامة، وأخرى خاصة، مع خواصه واخوانه في الله، فالجلسات العامة كان يحضرها الجمهور، يجتمع فيها ابن مرزوق بصلاح المدينة المعروفين وبعلمائها الظاهرين (105).

فقد كانوا يستهلون اجتماعهم بإقامة الصلاة، ثم يتبعونها بالمذاكرات، تتخللها الأسئلة بين العلماء في الأحاديث النبوية، وفي المسائل الشرعية والعقدية، التي يختلف فيها، وبعدها يأتي وقت صلاة النوافل، فيصلون ما تعودوا عليه من ذلك، ثم يتناولون الطعام جميعا، وفي الأخير تأتي مرحلة المذاكرات، بين المتصوفة والعلماء في المقامات والأحوال. وينشد من يحسن الإنشاد منهم، ويعظ من يحب الوعظ، ويظلون على ذلك طوال ليلهم، وربما تظهر لهم عند التواجد بعض الأحوال (106).

أما الجلسات الخاصة، فكان يجتمع فيها ابن مرزوق باصحابه وخواصه، المتجردين والمنقطعين في داره أيضا، وهي جلسة خاصة يحضرها خواصه الذين، ينتمون إلى هذه الفرقة ولا يدخلها أحد إلا إذا كان منهم (107).

ففي هذه الجلسة تشهد العجب العجاب كما وصفها حفيده، يجتمع فيها بنحو أربعين من خواص أصحابه، وكان بعضهم من أهل الظاهر، يطلعون بعضهم بعضا على أحوالهم وكرامتهم، ويقرأون الأوراد وهم يلتفون حول شجرة النارنج بوسط دار ابن مرزوق، ويقطفون منها أنواع غريبة من الثمار والفواكه، وهي تترنح وتميل من هؤلاء إلى هؤلاء، وهذا دليل على بركاتهم وكراماتهم التي تظهر خلال هذه الليلة [108].

وقد وجدت ظاهرة التصوف مجالا لها في تقديس الأولياء والجماعات الصوفية [109]. وقد دعم هذه الظاهرة ملوك بني زيان ابتداء من عميدهم وجدهم يغمراسن، الذي كان معجبا بالصوفية والمتصوفين ساعيا للتقرب منهم متحمسا لنيل بركاتهم [110]، حريصا على زيارتهم.

وكان يكثر من الصلاة، في مسجد الطلبة، حيث يصلي الشيخ أبو عبد الله بن مرزوق، فتردد على هذا المسجد عدة مرات، وصلى عند السارية التي تقع بباب المسجد، ليالي كثيرة، عسى أن يلتقي بالشيخ ويتحدث إليه، إلا أنه لم يتمكن من ذلك، لأن الشيخ ابن مرزوق، كان يحرص على أن يتفاداه، فتارة يتلبس بالنافلة حتى ييأس السلطان من الانتظار، فينصرف، وتارة يخرج الشيخ من المسجد دون أن يشعر به السلطان.

وعندما لم يستطع أن يقابله قال: «حجبنا الله عنه وبكى، ولكن لعل الله يجمعني عنده في الآخرة» [111] وكان يكثر من زيارة شيخ الطائفة «بأكادير»، وهو الشيخ الصالح سيدي أبو عبد الله محمد بن عيسى [112]، ويستقبل الولي الشهير ابراهيم بن علي الخياط في قصره [113].

وأوصى يغمراسن أبناءه، بأن يدفن أبو عبد الله بن مرزوق إلى جانبه، وقال في هذا الصدد: «لعل الله يرحمني بجواره»، وتمت له الأمنية والوصية على يد ابنه السلطان أبي سعيد، الذي حضر جنازة ابن مرزوق، وقام بدفنه بالدويرة التي بالجامع الأعظم، إلى جوار والده [114]، وهي مدفن عائلة بني عبد الواد، وقبره ظل مزارا معروفا في هذه الدويرة، وهو عكس ما ذكره ابن خلدون في تعريفه [115]، وتبعه في ذلك بعض الباحثين [116] في أن ابن مرزوق، توفي قبل السلطان يغمراسن ودفن قبله، في هذه الدويرة للأسرة الحاكمة، لكن ابن مرزوق، أدركته الوفاة في أوائل رجب من سنة 681 هـ / بينما يكون الاحتمال الحقيقي، بأن السلطان يغمراسن، قد توفي في نهاية شهر ذي القعدة من سنة 680 وبالتالي يكون يغمراسن قد دفن قبل الشيخ ابن مرزوق بنحو ثمانية أشهر [117]. لأن صاحب المجموع، أقرب زمنيا للحادثة من ابن خلدون وأن حفيد الشيخ أكثر ثقة.

ثم أوصى أبناءه أيضا بأن يدفن إلى جانبه الآخر، أول صالح من أصحاب الشيخ من أهل تلمسان ومن بيوتاتها العريقة يموت بعده، لعل الله يكتنفه بهما وببركاتهما، فكان الصالح الولي أبو الحسن بن النجارية، من أصحاب الشيخ وخواصه أول من مات بعد ابن مرزوق، فدفن مع السلطان وبجوار الشيخ في نفس الدويرة (118).

ولما استولى السلطان أبو زكريا الحفصي على مدينة تلمسان لم يجرؤ على مداهمة دار أبي عبد الله محمد بن مرزوق اعتقادا فيه (119)، وكذلك كان السلطان أبو يعقوب المريني يخشى أن يعامل أبناء أبي عبد الله معاملة سيئة، فقد كان يلاطفهم، ويتقرب إليهم ويلتمس بركات والدهم، كما فعل مع ابنه ابي العباس، عندما عرف بأنه كان يبعث من العباد إلى خاله واخته بمدينة تلمسان، وقت الحصار الطويل ببعض السمن ومواد غذائية أخرى، وكان السلطان قد أعطى أوامر بمنع ذلك، وأهلك العديد من الضباط والجند المرينيين، الذين تغافلوا عن تطبيق الأوامر أو تواطأوا أو هربوا المواد الغذائية إلى داخل تلمسان وقت الحصار. وعندما أحضر الفتى قالت، احدى المحظيات التلمسانيات للسلطان : «احذر يامولاي من السم انه ابن سيدي ابن مرزوق» فلاطفه وقربه إليه، ثم اهداه مبلغا من المال، ثمن صداق زوجته خديجة بنت العالم أبي اسحاق التنسي (120).

اذن فقد كان سلاطين المغرب الاسلامي، يعتقدون بالأولياء ويقدرونهم ويحترمونهم، ويتقربون إليهم بمختلف الوسائل، لنيل بركاتهم وحتى ابناءهم كانوا ينالون الحظوة والاحترام.

وكان لابن مرزوق أصحاب وخواص نذكر منهم: أبا اسحاق ابراهيم بن علي الخياط (121)، والشيخ الصالح أبا الحسن علي بن محمد الحمال (122)، والإمام العارف أبا العيش الخزرجي (123)، والفقية الصالح أبا عبد الله بن البلد (124). والحاج الصالح أبا عبد الله المعروف بالحاج فرج (125)، من الصالحين الخيرين المقربين لابن مرزوق، والشيخ الولي أبا يعقوب يوسف التفريسي (126)، صاحب الكرامات المشهورة والمقامات المأثورة، وإمام مسجده الشيخ الصالح المقرىء أبو عبد الله المستاري، وابن أخيه محمد عبد الواحد الإمام بعده والمعلم في مكتبه (127).

هذه عينة قليلة من أصحاب ابن مرزوق وخواصه ومعاشرية، خلال القرن السابع جلهم من المتصوفة المنقطعين الواردين، امتلأت بهم زوايا تلمسان ومساجدها، وان التصوف قد غزا افكارهم وعقولهم لدرجة أن أبا عبد الله ابن مرزوق أوصى ابنه ابا العباس، بأن لا يغير شيئا في

داره، وإذا اضطر لذلك، فلا يمس عتبته، لأن كثيرا من الأولياء الصالحين جلسوا في هذه العتبة، وكذلك أوصاه بأن يبقى على «البئر» التي بداخل المنزل، فقد كان يفطر عليه مئات الأولياء، بل حتى أمراء وسلاطين بني زيان كانوا لا يتأخرون للتزود من مائه كل صباح [128].

وكان السلطان أبو يحي يغمراسن يقيم المجالس مع هؤلاء الأولياء الصالحين، إلى جانب الفقهاء والعلماء ويدير معهم المناظرات والمذاكرات في قصره [129]، فكان البعض منهم متضلعا في علوم الشريعة، حريصا كل الحرص على الإلتزام بالفروض الدينية [130]. إلا أن البعض الآخر كانت تنقصه الثقافة الدينية المعمقة والواسعة، كالولي عبد السلام التونسي دفين العباد، الذي كان لا يعرف إلا قليلا من المسائل الفقهية، و على الرغم من ذلك فإن المعتقدين فيه كثيرون [131].

وهذا دليل على أن وعاء التصوف، استوعب مختلف المستويات الثقافية وضم فئات اجتماعية متباينة.

فقد عم الفكر الصوفي مختلف أوساط المجتمع التلمساني، وصار الاعتقاد بالمرابط تعتنقه العامة والخاصة، يتصدرهم أمراء بني زيان وسلاطينهم [132]، والمصادر الزيانية تطلعنا على حشد هائل لأسماء الزهاد والمتصوفة، الذين انجبتهم مدينة تلمسان خلال العهد الزياني ولاسيما منها بغية الرواد «ليحي بن خلدون»، و«المجموع لابن مرزوق»، و«البستان لابن مريم»، فقد كان الدرب المعروف بمرسى الطلبة حيث يقيم ابن مرزوق يعج برجال التصوف يجتمعون في مسجده باستمرار، لدرجة أنه إذا غاب أحدهم عن الصلاة يتوجهون إلى بيته يسألون عن حاله، وكان يسكن مع هؤلاء الاخوان، مياسير من أهل البر والاحسان، وأغلبهم كانوا من الأولياء الصالحين [133].

وكانت الزاوية في مدينة تلمسان تخضع لنظام دقيق، حيث يلزم على الطلاب والمريدين، أن يتحلوا بالإنضباط والطاعة، وأن يتقيدوا بتقاليد الزاوية، في نظام الدراسة والملبس والأكل.

فكان للشيخ الفقيه أبو عبد الله، أحد كبار الإعلام من رجال التصوف بتلمسان، زاوية تدعى « زاوية أبي عبد الله»، تنظم فيها الدراسة والعبادة، ويفرض على مريديها، ان يلتزموا بتقاليد الزاوية، ويتحلوا بالسلوك الاسلامي السني القويم، ولا يتخذون في جميع أمورهم الدنيوية من مأكل وملبس، وسلوكات ومعاملات، إلا وفق طريقة السلف الصالح [134].

وكانت بعض الأسر التلمسانية، تتبرك ببقايا الأشياء التي يمتلكها الشيخ القطب، ويحافظون عليها ويتوارثونها كالمرقعة والفركينة وهي المظلة، التي كانت تجعل على رأسه والسجادة، التي يصلي عليها، والعكاز الذي يتكيء عليه، ، وقد اشتهر المرازقة بتوليهم الخطابة في مسجد العباد وخدمتهم لزاويته، وحفظهم لِمَا تركه الشيخ أبي عبيدة بن الشباط السبتي [135]، وأبي مدين الغوث [136].

وقد جرت العادة عند أهل تلمسان، كما عند غيرهم أن يتزاحم الناس على الولي الصالح، ويمسحون وجوههم بأطراف ثوبه، تبركا بشخصه، وكان الخدم من مريديه يلتفون حوله ويتسابقون لخدمته [137].

عينات من متصوفي تلمسان في القرن الثامن هـ:

استمر الفكر الصوفي في الانتشار بمدينة تلمسان، خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، ورجاله يتكاثرون فبرز منهم :

أبا العباس أحمد بن محمد بن مرزوق : الذي سأقف عند حياته وسلوكه ورحلاته وقفة مطولة، ولد سنة 681 هـ / 1282م، وهي السنة التي توفي فيها والده السالف الذكر، في بيت يتسم بالجاه والعلم والورع والصلاح والمال، تربى في حجر جدته، فلما توفيت كفلته اخته زينب، درس بتلمسان على كبار شيوخها وعلمائها [138].

وخرج منها اثناء الحصار الطويل، هرّبه أحد خواص والده إلى العباد مع بعض خدامه، وكان السلطان المريني المحاصر للمدينة يبعث لأسرة ابن مرزوق ما تحتاجه من مؤن، لأنه كان يعتقد فيها [139]، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة فاس للدراسة، فتعلم بها على عدد كبير من اساتذتها، [140] وبعدها توجه إلى مدينة سبتة وبجاية، وتونس والقاهرة ومكة والمدينة [141]، ودرس على علماء هذه المدن والحواضر، ولبس الخرقة من أقطاب التصوف فيها.

إتسم أبو العباس أحمد بن مرزوق، كأبيه بالزهد والورع وكثرة العبادة، وحج إلى البقاع المقدسة مع ابنه الخطيب، عدة مرات وجاور بها عدة سنوات [142]، ينتقل بين مكة والمدينة إلى أن توفي بالأولى سنة 741 / 1341. ودفن بالقرب من قبر خديجة زوجة الرسول ﷺ، ولا يزال اسمه

وتاريخ وفاته مكتوبا على قبره، في عهد ابنه الخطيب وضريحه مقصودا، ودفن بجواره، كثير من الأولياء الصالحين من المغاربة والمشارقة [143].

وكان أبو العباس يعتقد فيه مثل والده، في تلمسان، تطلب بركاته حتى من السلاطين الأمراء، الذين كانوا يرغبون في زيارته فأبو حمّو موسى الأول، حاول مرارارؤيته والجلوس إليه، ورغب منه أن يتولى وظيفة عقد الشروط والشهادة، مع ثلاثة من خواصه، وعلى رأسهم الفقيه الزاهد أبو محمد عبد الواحد المجاصي، فامتنع أبو العباس عن هذه الوظيفة.

وكان أبو حمو موسى الأول شديد البأس والبطش، ولكنه أيضا كان جميل الاعتقاد في أبي العباس [144]، بحيث كان يقول عن آل مرزوق دائما «بيت البركة» [145].

أما أبو تاشفين الأول، فقد كان يذهب إلى العباد باستمرار لزيارة ضريح سيدي أبي مرين الغوث، وفي نفس الوقت، لمقابلة أبي العباس أحمد بن مرزوق، وكان يخاطبه لائما عليه: «لماذا تحجب عنا وتمنعنا من رؤيتك ولا تجيبنا ولا تزورنا» [146]، ولا يرفض له طلبا أو وساطة، وكان يتمنى أن يدفن إلى جواره [147].

وكذلك السلطان أبو يعقوب المريني، يحب أن يجتمع به، في مناسبات عديدة عندما كان يقيم بمدينة فاس، لأنه من بيت جاه وعلم وصلاح [148]، وكان أبو الحسن أيضا يلاطفه ويتقرب منه [149].

وحسبي هنا أن أعتمد على ما ذكره ابنه محمد الخطيب، عن سيرته ورحلاته العديدة إلى الديار المصرية والحجازية، والأماكن التي كان يفضل زيارتها والإقامة فيها في كل من القاهرة ومكة والمدينة، وحرصه الشديد على لقاء الفقهاء ورجال التصوف في الربط والزوايا المخصصة لهم، للأخذ منهم والتبرك بهم، ولاسيما الربط التي كان ينزل فيها أهل تلمسان وأهل المغرب بصفة عامة، وأن سيرته هذه تعد صورة واضحة لسلوك الرجل التلمساني، الورع المتصوف المتبتل خلال القرن [8] هـ. وتبين المكانة المرموقة التي كان يحتلها أبو العباس أحمد بن مرزوق بين الفقهاء ورجال التصوف في كل من مصر والحجاز، فقد كان لهم اعتقاد فيه، لكراماته المشهورة بتلمسان والحجاز [150]، وهذه ظاهرة تؤكد انتشار الفكر الصوفي في بلاد المغرب والمشرق على حد سواء.

إقامته بمصر:

كان لأبي العباس أحمد بن مرزوق، أصدقاء واخوان كثيرون من خاصة أهل مصر، ولاسيما الفقهاء والقضاة ورجال التصوف، فقد كانوا يحترمونه ويجلونه وكذلك كان يسلك معه بعض أمراء مصر [151]، وكان أبو العباس شديد الاعتقاد بالشيخ محمد المرشدي السالف الذكر، ويزوره كل سنة في شهر رجب [152]، وحسب ما يذكر محمد بن مرزوق، فإن طريقته تماثل الطريقة السائدة عند أهل المغرب، وهي طريقة أبي العباس السبتي [153]، وكما كان لأبي العباس السبتي معارضون بالديار المغربية، كان للمرشدي معارضون ومخالفون له بالديار المصرية [154]، وكان المرشدي يقدر أبا العباس أحمد بن مرزوق، ويقول عنه بأنه من أحبابنا وإخواننا وهو خير خلف لخير سلف.

وكان أبو العباس عندما يصل إلى القاهرة، يلبس مع خواصه الخرقة، وكثيرا ما كان أمراء مصر يطلبون منه أن يقيم بالخانق مع كبار المشائخ، كما جرت به العادة عند أهل مصر، لكن أبا العباس كان يفضل الاستقرار مع شيوخ التصوف، بالخانق المعروف باسم «سعيد السعداء» وهو أعظم الخوانق وأكبرها بالقاهرة [155]، ثم بعد ذلك ينتقل الى مكان آخر يعرف «بالوزيرية» بدرب ابن الحاج بالقاهرة، ويوجد بهذا الدرب مسجد بني على أنقاض كنيسة اعتكف فيه قوم صالحون، والقائم على المسجد حينذاك هو الشيخ أحمد البعلبكي أحد رجال الله المقصودين، له سماط ممدود للواردين، فلما أراد أن يسافر الى بلاده طلب من أبي العباس بن مرزوق، أن يقوم مقامه في إدارة المسجد، فاعتذر له فلم يزل به حتى قبل شريطة ان يمسك المفتاح ابنه محمد، وأن يقوم الخادم بالتصرف فيه وقد اختاره الشيخ دون غيره من المعتكفين، فلزم ابو العباس وابنه والخادم بهذا المسجد المسمى بمسجد «القبة» مدة من الزمن [156].

لبس أبو العباس وابنه محمد الخرقة بالقاهرة، على يد الشيخ العالم الولي شهاب الدين بن أحمد ابن شيخ الشيوخ، عماد الدين عبد الرحيم السمرائي خادم الشيخ الصوفي السهروردي، ويعد من المقربين لابن مرزوق، الذين كانوا يحرصون على زيارته أثناء إقامته بالقاهرة [157].

وقد حرص على ان يوجه ابنه وجهة علمية صوفية ويطبع سلوكه بسلوك خواصه من الأولياء الصالحين، ويحثه دائما على الاقتداء بهم، والتزود من معارفهم وبركاتهم وبنمط حياتهم في الزهد

والتبتل والعبادة ومجاهدة النفس، وأكسبه العفة والامتناع عن أخذ الجرايات والمنح، والالتزام بحضور الدروس الفقهية والمجالس العلمية، بالمدرسة المعروفة بمدرسة الصاحب بحي الفنادق، وهي المدرسة الوحيدة الخاصة بالمذهب المالكي بالقاهرة [158].

وقد اعتاد أن يذهب إليها بعد صلاة الصبح، حيث يلتقي بكبار المدرسين المصريين، ومن بينهم قاضي القضاة برهان الدين ابن بنت أبي الحسن الشاذلي الصوفي المغربي المشهور، صاحب الطريقة الشاذلية التي عمت بلاد المغرب والمشرق، فكان يدرسهم كتاب تهذيب المدونة للبرادعي [159].

وكانت تقدم للحاضرين من العلماء والمدرسين والمعيدين في هذه المدرسة، بعض المكافآت والجرايات تشجيعا على الدرس والتحصيل، إلا أن محمد بن مرزوق كان يتعفف عن ذلك ويمتنع عن أخذها، كما أوصاه والده ورباه ويقول في هذا الشأن: «إن أبي قد هاجر من أقصى بلاد المغرب، لطلب العلم وهو المنفق علي فلا أريد أن أنقص من أجره» [160]، فنظر الحاضرون إلى بعضهم متعجبين من هذا السلوك، الذي لم يعهدوه من قبل في مصر، ووصل خبره إلى قاضي القضاة تقي الدين الاجنائي المالكي، فتعجب هو الآخر من ذلك وتحدث بها أهل القاهرة، وأصبح محمد بن مرزوق محل حديث العام والخاص، لدرجة أنه عندما كان يمر بدكان عدل من العدول، أو مجلس من مجالس القضاء، أو قاعة من قاعات الدرس، يبادر من كان فيها بالقيام إجلالا واحتراما له [161].

وهكذا كان أبو العباس يريد لإبنه أن يعكف على الدرس والتحصيل، ويتزود بمعارف شيوخ القاهرة، وأن رحلته هذه هدفها فقط التعلم ولقاء الفقهاء ورجال التصوف، والإعتراف من علمهم وبركاتهم وسلوكاتهم.

وكان يجاور أبا العباس بالقاهرة القاضي شهاب الدين بن فضل الله، صاحب قلم الانشاء ورئيس الكتابة وحامل راية الأدب بمصر والشام في ذلك الوقت، الذي ظل يحترمه ويجله، فإذا لقيه وهو في مركبه يترجل تقديرا له، وكذلك كان يفعل معه بعض أمراء مصر [162].

إقامته بمكة :

لما وصل أبو العباس أحمد بن مرزوق، رفقة ابنه محمد وخادمه الى مكة المكرمة، سكنوا منزلا مجاورا لمقام ابراهيم عليه السلام، وأقاموا في علو مطل على «بئر زمزم» مدة سنة كاملة، وكان له بيت آخر في رباط «الخوري»، له نافذة مفتوحة على الحرم الشريف كان يطل منها على الكعبة الشريفة (163).

وسكن أيضا رباط يدعى رباط «ربيع» بمكة، أثناء مجاورته الثالثة واستقر في رباط آخر يعرف برباط «موفق»، حيث يقطن إخوانه من رجال التصوف، وأغلبهم من المغاربة ومن التلمسانيين خاصة، فكان يخرج من حين لاخر للمصلى ليترحم على من به من الأموات، ويزور من كان بهذه الربط من الأولياء الصالحين اهل الكرامات والتحقيق، ويتفقد خواصه من أهل تلمسان برباط «الخوري» نذكر منهم : الشيخ العالم المتصوف أبا الحسن علي بن محمد بن فرغوس التلمساني (164)، الذي سمي الرباط باسمه فصار يدعى رباط «فرغوس»، لأنه سكن فيه نحو ثلاثين سنة وبعد وفاته أصبح هذا الرباط يعرف برباط الشيخ عبد الله الهواري التلمساني، الذي أقام فيه هو الآخر أكثر من ثلاثين سنة (165).

وكان يقطن برباط «ربيع»، كبار المنقطعين من تلمسان وغيرها من مدن بلاد المغرب، كأبي الحسن الغماري، ويوسف الغماري المشهورين بالعلم والزهد والورع، وأبي الحسن بن رزق الله الطنجي المالكي، الذي استفاد محمد الخطيب بن مرزوق من دروسه بمكة المكرمة (166).

وأقام برباط موفق الشيخ الولي ابوعبد الله الزواوي، أحد كبار العلماء المتصدرين المشهورين بالورع والتقوى والعلم (167) ،وجاوره بمكة والمدينة الإمام العالم أبو عبد الله محمد المقرى التلمساني (168).

ومن القاطنين أيضا في هذاالرباط، الى جانب أبي العباس أبو الحسن التكروري الذي كان يتردد كثيرا على مدينة تلمسان (169) ،فقد كان أغلب سكان هذه الرباط من الصلحاء الأعلام، من أهل تلمسان والمغرب، يفضلون أداء العمرة في شهر رمضان لأن الرسول ﷺ قال: عمرة في رمضان تعدل «حجة» وفي رواية أخرى «حجة معي»، ولهذا كان أبو العباس بن مرزوق، لا يتوانى في الخروج الى العمرة ثلاث مرات في اليوم، في الصباح وبعد العصر، وعمرة بعد صلاة المغرب،

ويصلي العتمة مع أخر المصلين (170)، ويطوف حول الكعبة في النهار وفي الليل، ولا سيما وقت الحر إثنين وثمانين مرة، أي بما يعادل اثنين وثمانين ميلا يمشيها على قدميه، وظل ملتزما بهذا المقدار طوال مدة جواره بمكة الى أن أقعده المرض (171). وجاوره في مكة القائد الحاج الخير هلال بن عبد الله القطلاني، حاجب السلطان ابي تاشفين ووزيره ومقيم دولته، كان أشد الناس اعتقادا فيه، حج معه وجاوره في موضع سكناه، وكان يواسيه ويقدم الدواء له في فترة مرضه (172).

كان أبو العباس شديد التواضع كثير الكرم، يدعو الخادم ليأكل معه ويصنع الطعام في أول النهار ويأخذه للمرضى والمنقطعين، ويعطي كل واحد منهم ما يشبعه، ويأتيهم في أخر النهار بالخبز والآدم، ويغسل ثيابهم وينظفها ويحلق رؤوسهم، ويطبخ الفداوش والمحمصة والدشيش التي أخذها من تلمسان الى مكة، ويقدمها طعاما للمجاورين المنقطعين (173)، ولم يضرب في حياته دابة أو خادما ولا وصيفة وينهر من يقوم بذلك (174).

إقامته بالمدينة :

يبدأ أبو العباس طقوسه الدينية مبكرا أثناء مجاورته بالمدينة فإذا صلى الصبح، يقرأ القرآن مع القراء في سبع، يعرف بسبع ابن السلعوس، والسبع عبارة عن اجتماع، جماعة من القراء لقراءة القرآن، يقرأون فيه خمسة أحزاب غدوة وخمسة أحزاب عشية (175)، وبعد صلاة المغرب يقرأ معهم تطوعا ويشهد دعاءهم، وكانت هذه الجماعة تقرأ في الروضة الشريفة، ما بين قبر الرسول ﷺ والمنبر ويجلس أبو العباس إلى المنبر، ويقوم بالذكر الى أن تطلع الشمس، عند ذلك يقوم بالتجهد الى وقت الضحى، فيخرج الى منزله ليتفقده ولقضاء بعض ما يحتاج اليه من ضرورات (176).

فكان ينام قليلا ثم يعود الى المسجد ليصلي صلاة الظهر، ثم يستمع الى قراءة الكتب، المعتاد قراءتها في الروضة الشريفة، مثل كتاب «الشفا» وكتاب «فضائل مولانا محمد» ﷺ، وقصائد في مدحه، ثم يعود الى تلاوة المصحف الشريف الى الغروب، فإذا صلى المغرب والنوافل وقرأ السبع، قصد منزله، لقضاء ضرورات الحياة، ثم يعود الى المسجد، الى صلاة العشاء الاخيرة ثم ينصرف الى منزله، وكان المسجد يغلق بعد العشاء، ويمنع الناس من البقاء فيه، ولكن أعوان المسجد

والمشرفين عليه الذين يعرفون بـ «الطواشية» (177)، عندما عرفوا قدر أبا العباس أحمد بن مرزوق، سمحوا له بدخول المسجد ليلا فيظل فيه يصلي الى الصبح، وكان يقصد البقيع يوما بعد يوم في أغلب الأحيان وقت الضحى، فيترحم على الأموات ويحرص على حضور مجالس التدريس بين الصلاتين وبين العشائين كذلك، ويذهب الى قباء يومي السبت والجمعة ويصلي في مسجدها، ويزور مقابر الشهداء حيث يرقد «حمزة» عم الرسول ﷺ ومن معه من الشهداء، وربما يبات في قباء بعض الليالي (178).

أما مسكنه فكان يقع بالقرب من باب السلام، أحد أبواب الحرم وهو ملك لمؤذن المسجد الشريف الشيخ محمد بن عمر، ثم انتقل معه ابنه محمد الخطيب الى مدرسة «الشابية»، فقطن بالدويرة التي بنيت في المكان الذي بركت فيه ناقة الرسول ﷺ، يوم قدومه في هجرته من مكة الى المدينة، وكانت تعرف بدار أبي أيوب الانصاري، اشتراها أحد المحسنين وابتنى بها هذه المدرسة، وجعل من الموضع الذي بركت فيه الناقة ، دويرة ومسجدا حتى يكون علما للمكان (179).

فسكن مع ابنه وخادمه هذه الدويرة مدة سنة كاملة، فاتخذ الابن بيتا من بيوت المدرسة للقراءة، وبيتا آخر لما يحتاج إليه، وكان يلازم هذا المكان كثيرا ثم صار المبيت في المدرسة (180).

ولما كانت السنة الثالثة لإقامة ابن مرزوق في المدينة المنورة، وحل الشيخ عز الدين الحسن بن علي الواسطي إمام مسجد الرسول ﷺ الى مكة المكرمة قصد الجوار بها، فترك داره لابي العباس أحمد بن مرزوق، وكان الواسطي يسكن رباط «دكالة» في دويرة، بنيت في مكان دار عثمان من عفان رضي الله عنه، يوجد بهذا المكان مسجدا بني في الموضع الذي استشهد فيه عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكانت الدويرة محترمة يسكنها أكابر العلماء والصلحاء، فسكن بها أبو العباس أحمد بن مرزوق نحو سنتين كاملتين (181)، ورباط دكالة بناه جماعة من أهل دكالة بالمغرب وردوا الى المدينة للمجاورة، كانوا من الأولياء اشتروا هذا المكان بأموالهم، والرباط يعد من أكبر الربط، يشتمل على بيوت وغرف يسكنها المجاورون، وأغلبهم من الأولياء الصالحين من أهل المغرب، فكان إذا جن الليل في هذا الرباط لا تسمع فيه إلا ذوي أو أزير النحل ذكرا وتلاوة (182).

كما سكن أيضا بدار الفقيه الصالح أبي محمد عبد الله بن فرحون عند باب الرحمة (183)، وسكن في جواره الثالث بالمدينة، في دار اشترى نصفها بالاشتراك مع الفقيه الصالح ابي عبد الله محمد ابن علي بن عيسى من أهل تازة وحبساها، وبها ظل يقيم إلى أن رحل الى مكة المكرمة رحلته التي مات فيها (184).

ومن معاصري أبي العباس وخواصه من أهل التصوف بتلمسان نذكر منهم على سبيل المثال: الشيخ الولي العارف ابو زكريا يحي بن الصيقل [185]، والشيخ أبي العباس أحمد بن منصور بن صاحب الصلاة الخزرجي خطيب جامع أكادير[186]، والشيخ أبي علي المديوني من الأولياء الصالحين (ت 735 / 1335) [187]، والشيخ أبي عثمان بن الخياط [188]، والشيخ ابي عبد الله محمد ابن يحي النجار (ت 750 / 1349م) [189]، والشيخ ابي عبد الله محمد بن عمر من بني النجار أصهار المرازقة [190].

لباس رجال التصوف ومأكلهم:

كان شيوخ التصوف بتلمسان في عهد بني زيان، يختلفون في نمط حياتهم وطريقة معيشتهم، فمنهم من إتخذ التقشف والزهد والابتعاد عن ملذات الحياة ونعيمها منهجا لهم، فأقتصروا على المرقعات واللباس الخشن من الشعر والصوف، واكتفوا بأكل الشعير والنخالة واختاروا المسكن البسيط مأوى لهم [191].

بينما نجد البعض منهم، وفي مقدمتهم المرازقة على الرغم من أن بعضهم ينتمي الى رجال التصوف، كانت نظرتهم في الحياة تختلف مع هؤلاء، ويبدو أنهم قد اتعبوا طريقة أبي الحسن الشاذلي في هذا المجال واتخذوا من سلوكه قدوة لهم، فقد كان يرى بأن التصوف لا يعني التخلي عن ملذات الدنيا وزينتها، أو التحرر منها ودعا جهارا الى التنعم بالملبس والمركب، وأنه كان يلبس الفاخر من الثياب، ويركب الفاره من الدواب، لا يعجبه الزي الذي اصطلح عليه الفقراء ولا يتخذ المرقعات التي يتخذها الصوفية [192]، ويذهب إلى أن طريق السير الى الله غير محدد في الملبس والمأكل، وإنما يتجلى في اتباع الكتاب والسنة وسلامة القلب من الأمراض الباطنية [193].

فالنصوص التاريخية تشير إلى أن المرازقة كانوا ميسوري الحال، يملكون الأراضي الزراعية الخصبة بالعباد، والمحالات التجارية العديدة بالقيصرية وبأحياء أخرى في تلمسان. وكانوا يتجملون ويلبسون أحسن الثياب» [194]، وكان جدهم أبو عبد الله محمد الأكبر، كما يذكر بعض الفقهاء من أصحابه بأنهم «مارأوا أحسن منه صورة ولا أجمل منه هيئة ولا أطيب رائحة» [195]، ولباس ابنه أبو العباس أحمد مثل لباس والده يتجمل به، فأغلب لباسه كان من الجربي والمثنى

الرفيع، من التلمساني، وأكثر ألوان ثيابه الأخضر والمسنى والزرعي والهندي، ويلبس أيضا حارز الإسكندراني والأحارم التونسية [196].

وبهذا يكون المرازقة قد ثاروا على المعنى السطحي للتقشف والزهد، وعلى المفهوم الجامد «للاوراد» وكثرة الوظائف الصوفية، ويكرهون المريد العاطل فكانوا للفرائض حافظين، وللمعاصي رافضين، لأنهم أهل وجاهة وعلم وصلاح ودين وتصوف، واجهوا التصوف الفلسفي النظري في آن واحد، تحدوهم في ذلك رغبتهم القوية في جعل التصوف تصوفا شعبيا سنيا، ونشره على نطاق واسع والنظر إليه بالمنظار الإسلامي المتكامل، كما كان ينظر إليه أبو الحسن الشاذلي وأبو مدين وأبو العباس السبتي والغزالي والقشيري [197].

ملامح التصوف عند بعض شعراء تلمسان :

كان للتصوف تأثير وانعكاس على الأدب والشعر، مثل تأثيره على الناحية الإجتماعية والدينية، فنظم كثير من الشعراء قصائد عديدة في هذا المجال، وصار الشعر الصوفي وسيلة من وسائل تعبير المتصوفة عن أحوالهم ومواجدهم، واعتبروا الحب الإلهي مقاما من مقامات السلوك، فغلبت عليهم عاطفة الحب الإلهي وأصبح شعرهم شعرا رمزيا، يتضمن الألفاظ الغزلية في الحب، وهي رموز وإشارات الى حقائق صوفية [198]. وقد نظم ابو عبد الله ابن الحجام التلمساني بعض الأبيات في التصوف قائلا : (الوافر)

غـريـت الوصف ذو علم غريب   عليـل القلـب من حـب الحبيب

إذا ما الليـل أظلـم قـام يـبكـي   ويشكـو مـا يـكـن في الوجـيـب

يـقـطـع لـيـلـه ذكـرا وفـكـرا   وينطق فيه بالعجب العجيب [199]

وخلف الشيخ الصوفي أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي [200]، نظما جميلا في التصوف ذكر فيه اعتزاله عن الناس وانقطاعه للعبادة، وحب الخالق بقوله : (الوافر)

وأثـرت الـمـقـام بـكسر بـيـتي   ولا أحـد أراه ولا يـرانـي

ولا ألفـي خـلـيـلا غـيـر حـبـر   مـعـيـن فـي الـمـعـارف أو معان [201]

إن المتمعن في المحصول الفكري الإسلامي بمدينة تلمسان، في القرنين السابع والثامن الهجريين الثالث عشر و الرابع عشر الملاديين، وكذلك في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، يجد أن الطبقة المثقفة على مختلف مستوياتها، لم تكن بعيدة عن مجال الذوق الصوفي والمساهمة فيه، بالبحث والتدريس في المدارس والمساجد التلمسانية، وكانت كتب التصوف مقررة في المؤسسات التعليمية، وتدرس في المجالس الفكرية إذ كانت مقالات الهروي ورسالة القشيري، وإحياء علوم الدين للغزالي، وكتاب الشفا للقاضي عياض، يعكف عليها من يريد دراسة التصوف والتخصص فيه [202].

ولعل خير من يمثل الاتجاه الصوفي بمدينة تلمسان، هو الشاعر الجاد محمد بن خميس التلمساني، الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري والعقد الأول من القرن الثامن الهجري، فقد طبعته البيئة التلمسانية، وصقلت قريحته وأثرت فيه الثقافة الدينية، وهي سمات ذلك العصر، فضلا عن الجو الصوفي الذي أضفاه ضريح أبي مدين الغوث بالعباد، على أهل تلمسان وأتباعه من رجال العلم والصلاح، فنشأ على حب الزهد والتبتل والميل إلى التصوف.

اشتهر ابن خميس باشعاره الزهدية لأن الزهد يعد طريق التصوف، فهما ملازمان في غالب الأحوال، ومن أشهر قصائده في هذا الباب بائيته، التي كانت تحظى باعجاب السلطان أبي عنان المريني، الذي كان يعتني باشعار ابن خميس ويحفظها، ويرويها في كثير من المناسبات وقد جاء فيها: (الوافر).

خدعت بهذا العيش قبل بلائه كما يخضع الضادي بلمع سراب

تقول هو الشهد المشهور جهالة وماهو إلا السم سيب يصاب [203]

وهي قصيدة طويلة، يضرب فيها الشاعر الأمثال ويذكر فيها الأحداث التاريخية الكبرى، وتدل على اتساع دائرة أطلاعه، ثم يحذر الناس فيها من الدنيا ونعيمها الزائل ويدعو الى الابتعاد عن زينتها وبهرجها، ومن ملامح التصوف في شعره: (الرجز)

الفقر عند لفظ دق معناه من رامه من ذوي الغابات عناه

كم من غبي بعيد عن تصوره أراد كشف مصماه فصماه [204]

كما تتضح هذه النزعة أكثر من خلال وصفه للخمر: (البسيط)

قم نطرد الهم بمشمولة | تقصر الليل إذا الليل طال
وعاطها صفراء ذميمة | تمنعها الذمة من أن تنال [205]

ولعل الرمزية التي استعملها الشاعر في شعره، هي التي جلبت له عداوة الفقهاء وكثرة انتقاداتهم له ولأفكاره، فاتهموه في دينه مستشهدين في ذلك ـ بشعره الغزلي الخمري، وقد وضح أبو مدين هذه الظاهرة بقوله:

لا تحسبوا الرمز الحرام مرادنا | مزمارنا التسبيح والاذكار

ويقول ابن خميس في هذا الاتجاه:

تجري من لماها نطفة | بل خمرة لكنها لم تعصر [206]

وتتجلى ملامح التصوف في قصيدته الطويلة الهائية، التي جعلها القاضي ابن دقيق العيد المصري بخزانته تعلو موضع جلوسه، وكان يكثر من قراءتها وترديد أبياتها، والتأمل في معانيها وقد جاء فيها: (الكامل)

عجب لها أيذوق طعم وصالها | من ليس يأمل أن يمر ببالها
وأنا الفقير الى تعلة ساعة | منها وتمنحني زكاة جمالها [207]

تتضمن القصيدة الطويلة إشارات صوفية، كالفقير وابن السبيل وهما عبارتان تدلان على المجاهدة والرياضة، أما عبارات البدر والنار وذكاء (الشمس)، فهي رموز الصوفي التي تدل على أنه دائم البحث عن الكشف والإشراق للوصول الى الحقيقة [208]، وهي دلالات تبين أن الشاعر يجمع بين الفلسفة والتصوف، ويحمل ثقافة واسعة وعميقة ويلم بمختلف الملل والنحل [209]، ولعل هذا ما جعله محل مضايقة من قبل الفقهاء.

وتميز الشاعر أبو الربيع عفيف الدين التلمساني (ت 690 هـ / 1291)، بتصوفه وإقامته بخنقاه «سعيد السعداء» بمصر ثم انتقل الى بلاد الروم، حيث أقام أربعين خلوة تدوم كل خلوة على عادة المتصوفة أربعين يوما، أي أنه أقام في جميع خلواته نحو ألف وسبعمائة يوم، صنف ديوانا شعريا ضمنه قصائد عديدة في الغزل الصوفي، حيث كان يتعرض للمكان والمرأة والمنازل والحب والخمريات ذات الأسلوب الصوفي، وكذلك تناول شعره العقائد من منظور صوفي شأنه في ذلك

شأن من سبقوه أو من جاءوا بعده (210) ، جنح فيها الى تحقيق الوحدة المطلقة التي هي من صميم افكاره وفلسفته، وهي ظاهرة شائعة في عصره (211) ، وقد جلبت له هذه الأفكار بعض العداوة من معاصريه وتحامل عليه بعض المتأخرين (212). ومن شعره: (السريع)

هـذا الـمـصـلى وهـذه الكـتـب لـمـثـل هـذا يـهـزنـا الطـرب

فالحـي قـد شرعـت مـضـاربـه وحـسـنـه عـنـه زالـت الـحـجب

ويقول أيضا: (السريع)

خـمـرتـهـا مـن دمـي وعاصرها ذاتـي ومـن أدمعي لها الحبب (213)

وصنف الشاعر ابن أبي حجلة التلمساني (776 هـ 1374)، ديوانا شعريا سماه «الصبابة» في المحبة، وقدمه إلى السلطان الناصر حسن من المماليك البحرية سنة 756 هـ / 1355م، وكان شاعرنا هذا يتولى إدارة خانقاه «سعيد السعداء» بالقاهرة، وهو الرباط الذي ينزل فيه الفقراء من رجال التصوف الغرباء. وقد جمع في ديوانه الكثير من أخبار العشاق وشعر الشعراء، من القدماء والمعاصرين له أو قبله من شعراء مصر والمغرب والأندلس، أظهر فيه ظرفه وخفة روحه ورشاقة تعبيره، وميله الى التحرر ومن قيود التزمت التي نلمسها عند بعض شعراء عصره (214).

وقد عالج الشاعر موضوع عشق الغلمان، لأن هذه الظاهرة كانت معروفة في أوساط شيوخ التصوف، وشعرائهم في هذا العصر كتقي الدين السروجي، وعفيف الدين التلمساني السالف الذكر، وكان لابن أبي حجلة تجاه صوفي لعله على سنن عصره، فهو فقـيه سنـي ومتصـوف طريقـة (215).

بعض مؤلفات علماء تلمسان في التصوف:

وفي ميدان التأليف النثري، فقد صنف الإمام أبو عبد الله محمد المقري رسالة في التصوف سماها الحقائق والرقائق، يقول في مقدمتها: «هذا كتاب سفعت فيه حقائق بالرقائق ومزجت فيه المعنى الفائق باللفظ الرائق، فهو زينة التذكر وخلاصة المعرفة وصفوة العلم ونقاوة العمل، فاحتفظ بما يوجبه إليه فهو الدليل وعلى الله قصد السبيل» (216)، ولقيت هذه الرسالة اهتماما وإقبالا كبيرين على دراستها وشرحها ،بعد وفاة مؤلفها خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع والخامس

عشر الميلاديين [217]. وألف المقري أيضا في هذا الباب كتبًا هامة هي : «إقامة المريد» [218]، و«رحلة المتبتل» [219] ، و«النجم الثاقب فيما للأولياء من المناقب» ، و«لمحة الفارض لتكملة ألفية ابن الفارض» ، وهي منظومة شعرية تشتمل على مائة وسبعة وسبعين بيتا [220] ، ويذكر صاحب نفح الطيب أخبارا عديدة عن شيوخ جده، توضح دورهم في نشر حركة التصوف وتغلغلها في أوساط المثقفين، وتبين الطابع الذي كان عليه ذلك العصر، حيث يغلب عليه الذوق الصوفي والرياضة الروحية، واحتقار الحياة المادية وإلتزام الإيمان والزهد والتبتل، ولذلك فلا نستغرب عندما نجد المقري الجد، يتكلم عن خرقة التصوف التي ألبسه إياها شيخه الصوفي أبو عبد الله محمد بن مرزوق، الذي درس التصوف عن أصحاب أبي مدين وقد أسندها الى الرسول ﷺ [221].

وصنف خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، الشيخ أحمد بن أحمد البرنسي الشهير بزروق [222]، شرحين لرسالة القشيري، وشرح الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي، وشرح الحقائق للمقري، وكتاب القواعد في التصوف، وتحفة المريد وكتاب كبير يشتمل على مائة فصل بين فيه البدع، التي كان يفعلها الصوفية وغيرهم [223].

ونظم الإمام ابراهيم بن محمد التازي نزيل وهران ، قصائد شعرية رائعة جميلة في هذا الباب [224] ، وصنف أحمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو التلمساني، تآليف كثيرة وتفاسير وشروحا عديدة ومتنوعة، ولا سيما في ميدان التصوف لأن له فيه قدم راسخ مع الذوق السليم، فقد كان فهمه لهذا العلم فهما دقيقا، وكان يضرب به المثل في الزهد والعبادة عارضا عن زخرف الدنيا وبهرجها، إلا أنه كان لا يحرم نفسه من لبس الثياب الرفيعة الحسنة، ويتجمل في هيئته على طريقة أقاربه المرازقة وأبي الحسن الشاذلي [225] ، وألف الفقيه العالم قاسم بن سعيد العقباني، أرجوزة في التصوف [226].

كان شيوخ التصوف وأقطابه يشرحون لمريديهم وتلاميذهم، كتب الغزالي والقشيري والشفا وغيرها من كتب مشاهير التصوف في المشرق والمغرب، وكثيرا ما كان هؤلاء يقومون بتدريس كتبهم لطلابهم وهم بدورهم ينقلونها الى تلاميذهم.

فقد كان ابن زاغو التلمساني يقوم بتدريس كتب التصوف ورجاله لطلابه، كل يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع، ويخصص الأيام الاخرى للعلوم النقلية والعقلية المختلفة [227] ، ولعل الذي ساعد على انتشار ظاهرة التصوف بين مختلف الفئات الاجتماعية هو: كثرة الحروب الأهلية

القبلية والصراعات الداخلية المستمرة بجميع أشكالها، تارة بين الأقاليم المجاورة وتارة أخرى داخل الإقليم الواحد، وحينا بين الأسرة الحاكمة للإقليم، وكذلك يعود انتشاره الى الهجمات المسيحية الاسبانية والبرتغالية المتكررة والمستمرة على دار الإسلام بالمغرب، والتي زاد معدلها خلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، على السواحل والمدن المغربية عانى منها المجتمع التلمساني كثيرا، وخاصة منها الحصارات المكثفة على مدينتهم، من قبل بني مرين وبني حفص، مما أدى بأهل تلمسان الى أن يتجهوا نحو حياة التصوف والاستعداد المادي والروحي للعدو الخارجي (228)، وتقديس الأولياء، وتصديق كراماتهم وخوارقهم واللجوء إليهم، عند الشدائد والمحن طالبين بركاتهم، التي كثرت بين السكان وشاعت، فصار الناس يستنجدون بهم لتفريج الكروب ورفع الظلم عنهم وشفا مرضاهم (229).

وقد اكتسبت الحياة الدينية في عهد بني زيان مظاهر جديدة بسبب النشاط الصوفي واتساع نطاقه في المدن والارياف على حد سواء، حيث كان لرجاله اتصالات هامة ودور كبير في التوجيه الروحي للناس، إلا أن الحركة الصوفية في العصر الزياني، لم تكتس صبغة التمرد على السلطة المركزية لأن أغلب السلاطين كانوا يعتقدون فيهم، ويتبركون بهم ويلجؤون إليهم في كثير من الأمور، للاحتماء ببركاتهم ودعواتهم، وهو الامر الذي جعل حركتهم تتسم بالهدوء وعدم الخروج ضد الحكام، على الرغم من ابتعاد زعمائه عن البلاط، عكس بعض الفقهاء الذين كانوا أشد ارتباطا بالسلاطين والأمراء (230).

وقد ظلت حركتهم مرتبطة بالحياة العامة للناس، وكان الكثير منهم قد تجردوا للحياة الروحية، واستمروا على هذا المنوال الى أن أصبح التدخل الأجنبي المسيحي، يهدد دار الإسلام في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، عند ذلك انتقل بعض زعماء الطرق الصوفية الى المقاومة المسلحة، وتجرد الكثير منهم عن الخوض في شؤون الدنيا (231).

ومنذ منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، لم يكن التصوف قاصرا على الاوساط المثقفة، كما كان الحال عليه في القرنين السابقين لأنه ـ فيما يبدو ـ قد أصاب التصوف نوع من التدهور والإنحطاط، فاتجه به أصحابه الى ضروب مختلفة من الطقوس والشكليات أبعدتهم عن الرياضة والمجاهرة الحقيقية، وبالتالي صار التصوف مجرد قشور ومظاهر للانحراف والاتجار، بمبادئه لتحقيق الأغراض الشخصية والمادية (232)، وتعالى أصوات الجهلة من المريدين

والتلاميذ، في تعظيم الشيخ وشدة اقتدائهم بجزئياته وتغليظه، وهذا ـ فيما يظهر ـ موجب ضلالتهم وجهلهم وانحرافهم عن السلف. وهو الأمر الذي جعل عددا كبيرا من الفقهاء المحدثين، وأهل الظاهر ينكرون هذه السلوكات والمظاهر، ويتصدون لمذاهب الصوفية وطرائق مشائخهم ويكرهون المتصوفة (233).

إن أبرز ما يميز هذه الفترة انتشار الزوايا بشكل واسع واقتحامها ميدان التعليم، الذي لم يكن في صالح الحركة الفكرية والعلمية، بحيث صار التعليم بسيطا سطحيا، وأغلق فيه باب التعمق والاجتهاد والتحصيل الجاد الأصيل، لأن انتقال التعليم إلى الزوايا أدى إلى الاكتفاء بالحد الأدنى من المعارف العلمية، وبطريقة بسيطة سطحية وجافة في كثير من الأحيان، ساهمت بطبيعة الحال في الركود الفكري وانغلاقه على بعض الدروس والمعارف، بدلا من تنويره وتطويره والاعتماد على أمهات الكتب العلمية والفقهية والعقائدية، وصارت الزاوية تنافس المدرسة والمسجد الجامع في نشر التعليم وكسب الطلاب والمريدين (234).

وبدلا أن يلتف الدارسون حول العلماء البارزين والأساتذة المجتهدين، في المدارس والمساجد، أصبحوا يلتفون حول شيوخ الزاوية أو مقدموها، الذين يغلب على فكر البعض منهم الطابع الخرافي، وعلى عقليتهم السطحية والثقافة الضحلة، ونزل زعماء هذه الطرق بمستوى التعليم المذهبي والعلمي، حتى جعلوه في مستوى العامة من الناس (235).

وكثرت المنافسة بين الزاوية والمدرسة على تبسيط الدروس في التعليم في أواخر العهد الزياني، حتى لا يفر الطالب الى الزاوية، جعلت من هذه المهمة النبيلة مجرد وسيلة للتنافس من أجل استقطاب الطلاب والمريدين، وليس من أجل التحصيل والتعليم وترقية الحياة العلمية والفكرية (236).

ولاشك أن التعليم بهذه الطريقة، يقف أمام الاجتهاد وحرية الفكر، والتعمق في المعارف وفلسفتها، وهذا في حد ذاته يعد مؤشرا واضحا لعهد الانحطاط الفكري والثقافي والسياسي، للمجتمع التلمساني في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، وهي الفترة التي سقطت فيها الدولة الزيانية على يد الاتراك، بعد معارك كثيرة وحروب دامية بينها وبين القوتين الناشئتين الاسبانية والتركية، ولم تنجب تلمسان خلال هذه الفترة مشاهير في ميدان التصوف، وصلوا الى مستوى أسلافهم (237)، فاقتصروا على الفروع دون الأصول وعلى الشروح والمختصرات والحواشي،

وطغى على التعليم السطحية والتقليد، إلا أنه يمكن القول هنا بأنه على الرغم من هذه الظاهرة السلبية للتصوف وطرق التعليم، فإن كمية الانتاج في مدينة تلمسان خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، يعد من أوفر الانتاج العلمي والفكري وأكثرها عددا، ومن أخصب عهودها من الناحية الكمية، وأن أسماء الفقهاء والعلماء والأدباء الذين ذكرتهم حوليات التاريخ وكتب النوازل والطبقات والرحلات والمجاميع، يفوق بكثير عدد الأسماء التي ظهرت في القرون التالية للعهد الزياني (238).

وأن هجرة الكثير منهم نحو المغرب الأقصى وبلاد المشرق، واستقرار البعض منهم في هذه الربوع، لاسباب مختلفة لم يؤثر على عاصمة بني زيان، بل ظلت تضم أعدادا هائلة منهم، تركوا تلاميذ كثيرون وتصانيف علمية وفقهية وأدبية عديدة، كانوا موضع عناية واهتمام الأجيال اللاحقة (239).

الصراع بين فقهاء التصوف وفقهاء السلف :

شهدت مدينة تلمسان الزيانية صراعا فكريا دام أكثر من قرنين من الزمن، بين فقهاء السنة وبين رجال التصوف، ولعل ظهور هذه الظاهرة كانت في عهد الأديب الشاعر الكاتب الصوفي المتفلسف محمد ابن خميس (ت 708 هـ / 1308 م)، الذي تصدى له ولأفكاره بعض فقهاء تلمسان، وعلى رأسهم القاضي ورئيس الوزراء ابن هدية القرشي (ت 737 هـ / 1337)، الذي كان يتمتع بنفوذ سياسي وأدبي واسع النطاق في الدولة الزيانية، اتهم محمد بن خميس بالكفر والزندقة (240) ، لأنه كتب الرسالة المسماة «بالعلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس»، وأرسلها الى المشرف على مدينة فاس والقائم عليها حينذاك، أبي الفضل ابن محي بن عتيق العبدري (241) ، يدافع فيها عن نفسه لأن الفقيه الشريف أبا البركات (242) ، وضعه في خانة الكفر والضلالة أثناء مثوله أمام المحكمة الخاصة، بمدينة فاس التي حضرها قاضي تلمسان ابن هدية وشارك فيها.

وكان هذا الاخير قد شرح رسالة ابن خميس، وتعرض فيها للفلسفة بقوله : «والفلسفة عند أهل السنة، وكافة الأشعرية عبارة عن الزندقة البحتة والضلالة المحضة، والكفر الواضح الناشيء عن مطلق الخلاف الواضح . .» (243) ،ويضيف: « . . فوجب تكفير شيعهم من المتفلسفة

الاسلاميين كابن سينا والفرابي وغيرهما من المهتدين بهديهم المقتدين برأيهم عليهم لعنة الله أجمعين» (244).

ولشدة كرهه للشاعر التلمساني، واحتقاره له استهل شرحه ببيتين من القصيدة المشهورة لابن خميس (245). (الكامل)

عـجبـا لـها أيذوق طعم وصالها   مـن لـيـس يـأمـل أن يمـر ببالهـا

وأنـا الفـقـيـر الى تعلـة ساعـة   منهـا وتـمـنـعـنـي زكـاة جمالهـا

وخاطبه قائلا : ولولا أن الأليق إيثار الأعراض من استتار مقاصدك السيئة، لأومأت من ذلك الى ما بوجعك مني الثقاف ويرميك بثالثة الأقافي، فإنك من تناولك هذا السجال، وتجوالك في ذلك المجال، بين جهل فاضح أو كفر واضح فاختر وما فيهما . . » (246) وعن محاكمته بمدينة فاس ومثوله أمام طائفة من الأشعرية وجماعة من فقهاء المالكية، يتقدمهم الشريف أبو البركات يقول : «ففتحوا باب المذاكرة، وسلكوا سبيل المناظرة، وتفننوا في الكلام، الى أن أخذوا في علم الكلام استدراجا لابن الخميس واستخراجا لخب مذهبه الفلسفي الخسيس. . » (247) وأصدرت المحكمة ضده حكما بالإعدام، وتمكن من النجاة ليلا بفراره من مدينة فاس إلى مسقط رأسه بتلمسان. وكان ابن خميس قد وقف من هذه المحاكمة موقف الشجعان، بحيث دافع عن أرائه وأفكاره ببلاغة وبحجة دامغة، أفحم خصومه، حتى لم يبق في المناظرة إلا خصماه اللدودان ابن هدية وأبو البركات (248).

ويبدو أن سكوت ابن خميس في بعض الأحيان أثناء المحاكمة، لم يكن نتيجة افحامه أو أنه مدحوض الحجة كما وصفه ابن هدية، بل لأنه تفطن للكمين الذي نصب له من قبل خصومه.

وعندما وصل تلمسان كتب رسالته التي وجهها الى مشرف مدينة فاس (249) ، كان ابن هدية من الفقهاء الذين يكرهون الفلسفة والمتفلسفين ، وبالتالي فمن البديهي أن يكره ابن خميس، الذي أظهر تحزبه للفلسفة والفلاسفة، من خلال شعره ونثره وأن يناصبه العداء. فضلا على أن الشاعر كان ينتمي الى الحي القحطاني اليمني، بينما ابن هدية ينتمي الى الحي العدناني المضري، والعداوة بين الحيين قديمة وتقليدية، ولاسيما وأن الشاعر ابن خميس كان يجاهر باعتزازه وفخره بقحطانيته في كثير من المناسبات باشعاره : (الطويل)

أنا بنو قحطان لم نخلق لغير غياث ملهوف ومنعة لاجى
بسيوفنا البيض اليمانية التي طبعت بحز غلاصم ووداج

ويضيف:

هم صفوة الخلق التي اختيرت له وسواهم همج من الاهماج
من التبابعة الذين ببابهم كانت تنيخ جباة كل خراج [250]

ولعل هذه العداوة أيضا تعزى، الى ان الشاعر كان يتفوق على أقرانه في المجال العملي والمعرفي والأدبي، بمدينة تلمسان في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، متعمقا في الدراسات العقلية عارفا بالمعارف القديمة وأيام العرب، قائما على العربية والأصلين [251]، والعلوم النظرية كالمنطق والاصول والجدل والتصوف الفلسفي، وله فوق ذلك اطلاع واسع بتفاريق النحل [252]، فنثره وشعره مرآة صادقة لمعارفه [253].

فقد استطاع ابن خميس، أن يفرض نفسه ووجوده على الساحة الفكرية والثقافية بمدينة تلمسان، حتى صار من شيوخ الأدباء وفحول الشعراء، [254] غير أنه ـ فيما يبدو ـ قد جُحد قدره من قبل أبناء مدينته، فناصبوه العداء والجفاء وخاصة منهم ابن هدية والفقيه الشيخ أبا اسحاق ابراهيم التنسي وغيرهما، مما يرون في ثقافته الواسعة منافسة لهم، وفي اعتقاده بالعلوم العقلية خطرا عليهم. ولهذا حاولوا الانتقاص من مكانته العلمية والادبية في المجالين الشعري والنثري، الذي وصل أثرهما الى المشرق، فتذوقوا شعره والدليل على ذلك جواب أبي اسحاق التنسي، على سؤال الفقيه ابن دقيق العيد المصري عن حال الشاعر ابن خميس، وذكر شعره المتميز وأشاد به، فقال له: من يكون هذا الذي حليتوه بهذا الحلي ولا أعرفه ببلاده [255].

إن هذا الجواب يحمل في طياته تجاهلا صريحا ومتعمدا، لابن خميس وتصغيرا لمكانته العلمية والأدبية، من قبل ابن بلدته والإقلال من شأنه، وقد وصفه بعض من ترجم له بالخمول والشعوذة والسحر، وما إلى ذلك وذكرته الأكثرية بالعبقرية وسعة المعارف وسمو الهمة [256]. وقال عنه الرحالة العبدري، الذي اشتهر بالنقد اللاذع وطول اللسان: «بأنه لم ير بتلمسان من ينتمي للعلم ولا من يمت إليه بسبب سواه» [257].

ولعل الصراع الفكري والعقائدي، الذي ساد الساحة التلمسانية بين فقهاء المذهب المالكي، واتباع الموحدين من جهة، وبين السلفيين الذين حاربوا البدع والفلسفة وتصدوا لها، وانكروا على رجال التصوف بعض السلوكات والمعتقدات [258]، اضطر الكثير من الأدباء والفقهاء الى مغادرة مدينة تلمسان، بحثا عن الأمان والعيش الهادىء في حواضر مغربية ومشرقية وأندلسية، مثل ما وقع لشاعرنا ابن خميس التلمساني سنة 703 هـ / 1303 م، قصد النجاة من أعدائه وخصومه، وحتى في غرناطة لم ينج من الخصوم فقتلوه سنة 708 هـ / 1308 م، أي بعد خمس سنوات فقط من استقراره بها [259].

وقد لام ابن خميس ملوك بني زيان، الذين تخلوا عنه ولم يقفوا الى جانبه، بل حرضوا على التخلص منه، وهو الذي تفانى في خدمتهم ودافع عنهم باشعاره، فبهذه المناسبة قال: (المتقارب)

ولــــولا ســخـائـم قـوم أبـــــو	إيــابـي ركـبـت إلـيـك الريـاحـــا
أبـاحـوا حـــمـــاي وكـــم مـــرة	حـمـيـت حمى عرضهم أن يباحـــا
ودافــعــت عنهم بشعري انتصارا	فكــان الجـزاء جـلاي المتاحـا [260]

والجدير بالملاحظة هو ان انزواء الشاعر ابن خميس، وعزوفه عن الدنيا ومغرياتها كما وصفته بعض المصادر، ربما يعود الى عاملين اثنين، الأول: يعزى إلى إنتمائه إلى طبقة المتصوفين الزهاد العاكفين و الثاني: الى المؤامرات والدسائس، التي كانت تحاك ضده من قبل الفقهاء والحكام، وأن ثقافته الواسعة جعلته يتفلسف ويقرض الشعر كما اتهمه ابن هدية وخصومه [261]، وأن آثاره الشعرية والنثرية تبين الاتجاه العقلاني لابن خميس، وقصائده لا تخلو من الإشارات الفلسفية والصوفية. ولعل مذهبه كان يجمع بين الفلسفة والتصوف، والفلسفة عند الفقهاء والأشعرية بالمغرب تعد زندقة وكفرا واضحا.

والظاهر أنه كان يميل الى المذهب الظاهري، الذي كان يعمل به الموحدون الذين كانوا على خلاف كبير مع المالكية، والدليل على ذلك هجومه الواضح على الفقهاء واتهامه إياهم بتضييع النص والشرائع، وفي ذلك يقول: «ضيعتم السنن والشرائع وأظهرتم في بدعكم العجائب والبدائع، واستصغرتم الكبائر وأبحتم الصغائر» [262].

ولعل حركة السلفية قد انتقلت في بداية الأمر من بلاد المشرق الى بجاية، عن طريق الشيخ الإمام ناصر الدين المشدالي (ت 731 هـ/ 1331م) [263]، ومنها تسربت الى مدينة تلمسان بواسطة الفقيه ابي موسى عمران المشذالي (ت 745 هـ / 1345م)، الذي كان يدير المدرسة التاشفينية، ويدرس بها علوم الحديث والفقه والأصلين، والفرائض والمنطق والجدل.

فقد كان هذا الشيخ مجتهدا في إطار المذهب [264]، ولم يكن هذا الأخير وحده متأثرا بسلفية المشرق، بل كانت لمجموعة أخرى من المغاربة صلة بأفكار ابن تيمية، التي ظهرت في الشام خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، إذ روى عنه الشيخ الفقيه محمد بن ابراهيم التلمساني (ت 764 هـ / 1362م) مكاتبة [265]، وكان ابنا الإمام قد عارضاه في بعض أرائه عندما التقيا به في القدس الشريف، وهذا يؤكد أن أفكاره قد تسربت الى مدينة تلمسان وعرفها الفقهاء والعلماء والطلاب، ولا يستبعد أن يكون البعض منهم قد تأثر بها.

ويبدو أن الصراع قد اقتصر على الطبقة المثقفة المستنيرة، وقد تزعم السلفية الشيخ الحافظ إمام تلمسان في عصره، أبو عبد الله محمد بن مرزوق الحفيد، كما أسلفنا دفين تلمسان، وهو ينحدر من بيت تلمساني عريق في العلم والثقافة. وقاد أنصار المتصوفة قاضي تلمسان قاسم بين سعيد العقباني (837 هـ / 1433)، الذي ينحدر من بيت تلمساني من أصل اندلسي، وكان قد أفتى في مسألة الفقراء الصوفية، وصدق صنيعهم، وساندهم فيما ذهبوا إليه، فخالفه ابن مرزوق الحفيد، في فتواه وعارضه في رأيه وألف كتابا في هذا الموضوع بعنوان: « النصح الخالص في الرد على مدعى رتبة الكامل الناقص»، في سبعة كراريس وجعل من هذا الكتاب حجة للرد عليه وعلى المتصوفة [266].

وقد استمر الجدال بين السلفية والمتصوفة قائما الى عهد الامام محمد بن يوسف السنوسي (895 هـ/ 1489)، المتكلم الأشعري الشهير بتآليفه في علم التوحيد، والذي أيد فتوى القاضي قاسم ابن سعيد العقباني، وناصر شيعته وألف كتابا في هذا الصدد أسماه: «نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير» [267]، ساند فيه العقباني وأيده كل من شيخيه عبد الرحمن الثعالبي دفين الجزائر (ت 875/ 1470)، والشيخ الفقيه الحسن أبركان الراشدي دفين تلمسان (857 هـ / 1453) [268]، والظاهر أن الذي رد عليه السنوسي ليس هو أبا الحسن الصغير السلفي المتوفي سنة 719 هـ / 1319م السالف الذكر، شيخ أبي العباس أحمد ابن مرزوق، وإنما يكون على فقيه آخر، كان معاصرا له حسب ما جاء في نصرة الفقير [269].

حركة الجدل:

لقد جرت بعض المناظرات والمحاورات العلمية المكتوبة، بين فقهاء تلمسان وغيرهم من رجال الفقه المغاربة والأندلسيين والمشارقة، تناولت الفقه المالكي بالدرجة الأولى فضلا عن التفسير والتصوف، والكلام واللغة وغير ذلك من المسائل الفقهية المطروحة للنقاش والجدال، كالتي وقعت بين عالم فاس وعالم تلمسان، أبي العباس أحمد بن قاسم القباب (ت 778 / 1376) وأبي عثمان سعيد بن محمد العقباني التلمساني (811 هـ / 1408 م)، حين كان هذا الأخير قاضيا بمدينة سلا، حول مسألة درهم الاعانة التي أثارها التجار بسبب الضرائب المخزنية الثقيلة، وقد جمع أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني (ت 810 هـ / 1408)، هذه المحاورة في كتاب سماه «لب اللباب في مناظرة العقباني والقباب» ،قال عنها الونشريسي بأنها كانت متداولة بين رجال الفقه في تلمسان [270].

وجرت مناظرة قصيرة حول عموم الرسالة النبوية، وقعت بمدينة مراكش بين الإمام الشيخ ابي عثمان سعيد العقباني، وأحد علماء اليهود ،كان هذا الأخير يشتغل بمسائل علمية عديدة [271].

وعقدت مناظرة أخرى بين أبي عثمان سعيد العقباني وأبي العباس القباب، تتضمن مسألة من الإيلاء تتعلق بقضايا الطلاق [272]. وجرت محاورة فقهية بين الشيخ الامام الراوية، أبي علي ناصر الدين المشذالي البجائي، والشيخ العلامة الناظر أبي موسى عيسى بن الامام، تتعلق بحلية البيع وصحته [273].

وكذلك برز نزاع فكري دار بين أبي زكري المانوي التلمساني (899 هـ / 1493)، ومحمد بن يوسف السنوسي، في مسائل فقهية عديدة ذكرها صاحب المعيار [274].

كما كانت المشيخة العلمية بمدينة تلمسان وفي غيرها من بر العدوتين، تحرص كل الحرص على تبادل النظر واستطلاع الرأي، فيما يتم انجازه من مؤلفات أو إثارته لقضايا ومسائل فقهية وفكرية نثرية وشعرية، ومن ذلك مثلا: ما تحدث به صاحب البستان أثناء ترجمته للشيخ ابي عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني العلوي التلمساني، من أن علماء الاندلس كانوا يقدرون علماء تلمسان ويحترمونهم، وفي مقدمتهم العالم الشهير الأديب البارع لسان الدين بن الخطيب (ت 776/ 1374)، صاحب التآليف البديعة. كان كلما صنف تأليفا جديدا أرسله الى العالم الشريف التلمساني يعرضه عليه للمعاينة وإبداء الرأي، ويطلب منه أن يلاحظ عليه بخط يده [275].

ومن هذا القبيل أيضا كتاب لسان الدين بن الخطيب المسمى بـ «روضة التعريف بالحب الشريف»، ألفه معارضة للكتاب الذي رفع الى السلطان في المحبة من تصنيف ابي العباس أحمد ابن يحي أبي بكر بن أبي حجلة التلمساني (ت 776 هـ / 1374م) [276]، وهو ديوان «الصبابة» يعارض ما جاء فيه وجعل موضوعه أشرف وهو «محبة الله» قال فيه: « والله يرزق الاعانة في انتساخه وتوجيهه» وصدر عني جزء سميته «الغيرة على أهل الحيرة، وجزء سميته، حمل الجمهور على السنن المشهور»، وطلب من عبد الرحمن بن خلدون المثابرة «على تعريف يصل من تلك السيادة والنبوة، إذ لا يتعذر وجود قافل من حج أو لاحق بتلمسان يبعثها السيد الشريف منها» [277]. فمثل هذا النوع من التأليف كان سببا في تغريره وقتله، حيث تصدى له الفقهاء وفي مقدمتهم القاضي النباهي. هذه جوانب من النشاط الفكري للمشيخة العلمية خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي في تلمسان، ونظرائهم من علماء بر العدوتين (المغرب والأندلس) تبين الدور الهام الذي قاموا به في نسج التاريخ الثقافي والفكري المشترك [278].

حركة ضد اليهود:

لم ينته هذا الجدل العلمي بعاصمة بني زيان، حتى ظهرت معركة كلامية أثارها أحد شيوخ مدينة تلمسان، وهو ابو عبد الله محمد بن عبد عبد الكريم المغيلي، (ت909 هـ / 1503م)، هزت الأوساط العلمية والفقهية في نهاية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، في بلاد المغرب والأندلس، وتتمثل هذه المناظرة في قضية جواز هدم بيع اليهود، اذا مازاد على حد المألوف، أوجبها المغيلي على المسلمين في فتوى فقهية بمدينة توات، وقد قام المغيلي بهدم بيع اليهود في هذه المدينة، فانقسم الفقهاء المعاصرون في تلمسان وفاس وتوات الى قسمين: قسم تصدى للفتوى وللإجراء وأنكر ذلك على المغيلي، وعلى رأسهم أبو عبد الله العنصوصي قاضي قصور توات [279].

وقسم شجع المغيلي، فيما قام به وأيده في فتواه، ويتزعم هذا الاتجاه كل من محمد بن يوسف السنوسي وأبي عبد الله الجليل التنسي (ت 899 / 1493) [280]، لأن الجالية اليهودية الغنية في هذه المدينة، استغلت قوتها الاقتصادية في توجيه القضايا السياسية بالمنطقة [281]، فاضطر المغيلي الى

مكاتبة فقهاء تلمسان وفاس، فرد عليه الكثير منهم بالمساندة عند ذلك قام بتهديم البيعة وأذل اليهود [282].

أما الذين عارضوه وخاصة فقهاء فاس، فقد اتهموه بأن طموحه الشخصي والسياسي أكثر من القضايا الشرعية، فعقد لهم جلسة فكرية دارت بين معارضيه وطلابه، الذين أتى بهم من السودان وناقشوهم في القضية [283]، وقد سبقته شهرته كعالم من علماء تلمسان اللامعين الى بلاد السودان، حيث استقر في بانو وكاتم وغيرها من مدن نيجيريا، معلما ومرشدا يكتب لملوك هذه المناطق رسائل فيها أجوبة على بعض المسائل تتعلق بشؤون الدين والدنيا [284]، وكان له رأي في أشباه العلماء الذين يدعون أكثر مما يعرفون بالتضليل ووسائل الزيف والخداع [285]، وتدلنا هذه المساجلات والرسائل على الاتجاه العقلي، السائد في مدينة تلمسان والمغرب الاسلامي في هذه الفترة [286].

وبرزت مجادلة بين الفقيه المفسر المغيلي التلمساني، والعالم الشيخ جلال الدين السيوطي بمصر، حول قيمة المنطق فكتب المغيلي رسالة في هذا الشأن ضمنها قصيدة ناقش فيها السيوطي، وأظهر له أهمية دراسة المنطق وفوائده وأعاب عليه تنفيره من هذا العلم، الذي يعتبر وسيلة ضرورية لإدراك الحق ومعرفة الحقيقة، وبرهنت هذه المجادلة على أن المغيلي حاول أن يكون أقوى حجة وبرهانا من السيوطي.

إلا أن هذا الاتجاه العقلي الذي كان يسانده كل من الحافظ التنسي، ومحمد بن يوسف السنوسي والعقباني والمغيلي، خلال القرن التاسع ومطلع القرن العاشر الهجريين [287]، أخذ يتجه نحو الضعف خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ويقل سالكوه، وهي المرحلة التي بدأت فيها الدولة الزيانية تضمحل تحت ضربات الفتن الداخلية، ومن جراء القوتين العثمانية والاسبانية، فأخذت تضعف شيئا فشيئا سياسيا وعسكريا واقتصاديا، الى أن انهارت نهائيا على يد القوة العثمانية الناشئة [288].

الهوامش :

(1) البيدق: اخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين نشره بروفنسال 1928 ص 79 ازهق محمد البشير قائد معركة البحيرة نحو 27 ألف نفس من الموحدين قبل خوض المعركة وأطاح عبد المومن بن علي، خليفة ابن تومرت، برؤوس ما يزيد عن 33 ألف نفس من المشكوك في إخلاصهم للدعوة الموحدية المهدوية، انظر: ابن خلكان وفيات الاعيان، جـ 4 ص 143 عبد الله علي علام: الدعوة الموحدية بالمغرب، ص 222 محمود اسماعيل: فكرة التاريخ ص 73.

(2) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 279، ابن مرزوق: المسند، ص 60 حمل الخليفة المنصور على علماء المالكية، حملة شديدة، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أخذ مافيها من حديث شريف، وقرآن كريم، كما قام باحراق، اعظم كتب المالكية منها المدونة وكتاب ابن يونس ونوادر بن أبي زيد، ومختصره، وكتاب التهذيب للبرادعي، وواضحة بن حبيب، وكان يؤتى بالاحمال منها، فتوضع وتضرم فيها النار: انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب ص 279 ابن تومرت: اعز ما يطلب ص 245.

(3) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 279 ـ عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب، دار المعارف بمصر، ص 62.

(4) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 122 ـ 124 يعلي صالح أحمد وآخرون: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص 176.

(5) ابن خلدون: العبر: جـ 6 ص 226، فرض ابن تومرت عقائد التوحيد المطلق على الخواص والعلوم، من المجتمع المغربي، ومناهج التأويل، الذي يتعارض مع التفسير الحرفي التقليدي، في أمور التوحيد، وضرورة استخدام المنطق والبرهان، دون أن يراعوا مدارس العامة، التي كانت عاجزة عن فهم هذا الاصلاح، لأن العقائد التقليدية ظلت راسخة في عقول المغاربة وقلوبهم، وأن التصورات الجديدة لا تتلاءم مع ميولهم وأذواقهم ومداركهم، انظر: الشهر ستاني: الملل والنحل القاهرة 1317 هـ جـ 1 ص 118 / 119 الفريد بيل: المرجع السابق، ص 284 ـ 287.

(6) تدور عقيدة الموحدين حول محورين متعارضين: الأول: دعا الموحدون فيه استخدام العقل وأعماله لكسر الجمود المرابطي واخراج الناس من الجهل الذي ضرب عليهم أيام دولة المرابطين. الثاني: تشبث الموحدون بمزيج من النظريات السنية والشيعية التي تتنافى واستخدام العقل كالمهدوية والعصمة وغيرها، انظر: حسن جلاب: الدولة الموحدية أثر العقيدة في الأدب منشورات الجامعة (ط 2) الدار البيضاء مارس 1985 ص 26.

(7) عبد الكريم الفكون: منشور الهداية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي بيروت 1989 ص 41.

(8) تمرّد الخليفة بن يعقوب المنصور الموحدي (624 ـ 630 هـ / 1227 ـ 1232) على المهدوية والعصمة والامامة التومرتية وسخر منها، واعتبرها من المبادىء الدخيلة على المسلمين من اليهود والنصارى وأخذ بالمذهب الظاهري، وبالتالي خرج عن خط اسلافه، وحارب المذهب المالكي، حتى يفسح المجال أمام المذهب الظاهري، يأخذ أصحاب هذا المذهب بظاهر القرآن والحديث، إلا عند ضرورة التأويل، الذي تقره قواعد اللغة العربية وضرورات البلاغة، ويرفضون الاجماع إلا إذا كان من جميع علماء الأمة ويرفضون التقليد والقياس، انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 291 ـ 292. عبد الله علي علام: المرجع السابق ص 307 ـ عمر فروخ: المرجع السابق، ص 172 ـ 176.

(9) تعرف الإمامة، بأنها ركن من أركان الدين وفي هذا الصدد يقول ابن تومرت: « وهي ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الشريعة ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بها». انظر ابن تومرت: أعز ما يطلب تقديم وتحقيق عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص 229.

(10) أما عن المهدوية فيقول: « إن الباطل لا يرفعه إلا المهدي، وأن الحق لا يقوم به إلا المهدي.. وأن الإيمان بالمهدي واجب، وأن من شك فيه فهو كافر». أنظر: ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 234.

(11) وعن العصمة يقول: «أن المهدي يجب أن يكون معصوما من الكبائر والصغائر، وأن يكون معصوما من الكذب والباطل والجور والجهل» أنظر أعز ما يطلب، ص 229 ـ 230. ـ ابن خلدون: المقدمة، ص 348 عبد الله علي علام: المرجع السابق، ص 292 ـ 294.

وظهرت طائفة تكفر كل من لم يتبع المهدي بن تومرت، ولم يؤمن به ويفضلونه على أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ويقول أصحابها بأنه من لم يقم بتعلم إثني عشر بابا من التوحيد فهو كافر ومن حلق تحت اللحية فهو مجوسي، أنظر الونشريسي: المعيار، جـ 2 ص 453.

(12) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 291.

(13) النبوغ المغربي جـ 1 ص 122 ـ 123 ـ ابن شقرون: المرجع السابق، ص 35.

(14) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 291 ـ 292.

(15) عبد الحميد حاجيات: الحياة الفكرية بالجزائر في عهد بني زيان ضمن كتاب الجزائر في التاريخ ص 439.

(16) ابن الأعرج: زبدة التاريخ جـ 3 ورقة 99 ـ 100. عبد الله كنون: المرجع السابق ج 1 ص 189ـ محمد الجزيري: المرجع السابق، ص 341.

(17) الفريد بيل: المرجع السابق، ص 300.

(18) نفسه، ص 306 ـ 307.

(19) محمد المنوني: ورقات، ص 195.

(20) محمد المنوني: التيارات الفكرية في المغرب المريني، مجلة الثقافة المغربية عدد (5) ص 126 ـ 131.

(21) محمد القابلي: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، ص 69.

الفريدبيل: المرجع السابق، ص 312.

(22) ولد الشاعر مالك بن المرحل سنة 604 هـ / 1207 م بمدينة مالقة، ونزل بمدينة سبتة وهو صغير السن، برز في ميدان الأدب على العموم، بشعره ونثره وكانت له أشعار كثيرة، في أغراض مختلفة، كما كانت له عداوة وخصومات مع ابن رشيق، ساكن سبتة حينذاك فهجاه بقوله:

لكلاب سبتة في النباح مدارك ... وأشدها عند النهار بين مالك

شيخ تفانى في البطالة عمره ... وأجل يحكيه الكلام الآفك

أحلى شمائله السباب المقرى ... وأعف سيرته الهجاء الماحك

انظر: المقري، نفح الطيب، ج 5 ص 245ـ ابن شقرون: المرجع السابق: ص 60/ 61

(23) ابن الخطيب: سحر الشعر، مخطوط بالخزانة العامة رقم 9/ 1295 ورقة 67/ أ.

(24) السيوطي: المحاضرات والمحاورات مخطوط بالخزانة الملكية الرباط رقم 3755 ورقة 30 انظر: أيضا محمد المنوني: ورقات 233.

(25) التعريف بابن خلدون، ص 33 ـ 35.

(26) حدد لنا أبو عبد الله محمد الشريف التلمساني، درجة الاجتهاد في عهده وصنف المجتهدون إلى صنفين إثنين بقوله: « تعلمون أن المجتهدين صنفان: الأول مجتهد بإطلاق وهو المطلع على قواعد الشريعة المحيط بمداركها، العارف بوجوه النظر فيها فإذا عنت له

نازلة أو سئل عن مسألة بحث عن مأخذ الحكم فيها، فنظر في سنده وفي وجه دلالته، على الحكم المطلوب، ثم نظر في معارض السند وفي وجه دلالته على الحكم المطلوب، وتقييده المطلق وتأويل الظاهر، ثم الترجيح، بعد الإحاطة بوجوه الترجيح في السند والمتن والدلالة وموافقه أصول الشريعة».

الثاني: يجتهد صاحبه في مذهب معين وهو الذي يكون مطلعا على قواعد إمام مذهبه ويحيط بأصوله التي يستند إليها ويعتمد عليها، «عارفا بوجوه النظر فيها وبها يكون.. كالمجتهد المطلق بقواعد الشريعة.. كابن القاسم وأشهب في مذهب مالك، والمزني وابن شريح في المذهب الشافعي، وأبي يوسف، في مذهب أبي حنيفة، ومما يوضح لك الفرق بين الصنفين أن الشافعي وابن القاسم وأشهب قرؤوا جيعا على مالك وانتفعوا به أتم الإنتفاع، أما الشافعي، فترقى لدرجة الإجتهاد المطلق، فإذا سئل عن مسألة نظر فيها نظرا مطلقا وذهب إلى ما أداه إليه اجتهاده». وأما ابن القاسم، فإذا سئل عن مسألة سمعت مالكا، يقول فيها كذا... فإن لم يكن قد سمع منه شيئا قال لم أسمع منه ولكن بلغني كذا.. وقال لي في المسألة الفلانية كذا.. ومسألتك هذه مثلها فهذه رتبة الاجتهاد المذهبي». انظر: احمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج جـ 2 ص 339 ـ ابن مريم: البستان ص 179.

(27) الفريد بيل: المرجع السابق، ص 354.

(28) نفسه، ص 354.

(29) أحمد بابا التنبكتي كفاية المحتاج جـ 2 ص 339.

(30) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 166 ـ المقري: نفح الطيب، جـ 5 ص 216.

(31) المقري: المصدر السابق، جـ 5 ص 216.

(32) نفسه، جـ 5 ص 216.

(33) نفسه، جـ 5 ص 207.

(34) المقري: نفح الطيب جـ 5 284 ـ 285، وقد لاحظ أحمد المقري، بأن هذا الكتاب في عصره كان مفقودا بمكتبات المشرق، وخزائنه، ولم ير منه إلا نسخة واحدة بمصر.

(35) أحمد بن حميد: القواعد للمقري ابي عبد الله محمد، أطروحة دكتوراه دولة مرقونة جامعة أم القرى، نوقشت سنة 1404 هـ / 1983 ص 80 ـ 84.

انظر أيضا: مقدمة كتاب القواعد الفقهية مخطوط لدار المكتبة الوطنية بتونس رقم 14682.

(36) أبو الأجفان: المرجع السابق، ص 103.

(37) ابن عاشور: اعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي مكتبة النجاح تونس ص 84.

(38) المقري: نفح الطيب، جـ 5 ص 208.

(39) انظر: الشريف التلمساني: مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الخانجي مصر 1962 ص 3 ومابعدها.

(40) مشاهدي الحسن: الرحلة في العصر المريني، د. د. ع كلية الآداب جامعة الرباط 1985 ص 15.

(41) نفسه ص 17 ـ 18.

(42) ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر القاهرة 1976، المقدمة ص أ ـ ب.

(43) نفسه، ص ب ـ ج.

(44) خرج المذهب المالكي، في بلاد المغرب منتصرا، بعد صراع دام أكثر من ثلاثة قرون من الزمن مع الحنفية ومع المعتزلة ضد الشيعة ثم في عهد الموحدين الذين ناصبوه العداء، فاكتسب أصحابه مرونة في هذه الفترة في بنيته وذهنيته وهو الأمر الذي جعل بعض الفقهاء المغاربة يتقبلون مضامين العقيدة الأشعرية، التي أتى بها جماعة من الأشاعرة من بلاد المشرق الى بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، أنظر، عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام جـ 2 ص 86 ـ مشاهدي الحسني: المرجع السابق ص 18.

(45) المقدمة ص 803.

(46) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج ص 247، انظر: الونشريسي: المعيار، جـ 2 ص 482 ـ 483، وقد قام الفقيه ابن مرزوق الحفيد: بتأليف كتاب استوفى فيه التعريف بالإمام المقري سماه «النور البدري في التعريف بالفقيه المقري» بناه على منهجه ومذهبه، انظر: المقري: نفح الطيب جـ 5 ص 204.

(47) الونشريسي: المعيار، جـ 2 ص 483 ـ ابو الأجفان: المرجع السابق، ص 147.

(48) الفريدبيل: المرجع السابق، ص 361، ظهرت المختصرات الفقهية في المذهب المالكي للوجود، في أوائل القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، وتضاعف انتشارها في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، ثم ازداد عددها، بشكل كبير في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي على حساب النوعية، ويبدو أن هذه الظاهرة، قد جنت على الفقه، من حيث نموه وتطوره وازدهاره، حتى أن بعض الباحثين، اعتبروا ذلك تقهقرا وضعفا وانحلالا، لأن المختصرين لم يصلوا إلى فهم التراث الفقهي، فهما جيدا، ولم يستوعبوا مضامينه ومحتواه، فجاء تصنيفهم ضربا من الألغاز، لا يمكن فهمه إلا إذا استعان الدارس بالشروح والأصول القديمة انظر:

المدارك، جـ 3 ص 365 ـ عمر الجيدي: محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، منشورات عكاظ، الدار البيضاء 1987 ص 131.

(49) أحمد بابا: نيل الابتهاج، ص 247، الونشريسي: المعيار دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981 ج 2 ص 480.

(50) الونشريسي: المعيار ج 2 ص 480 ـ أحمد بابا: نيل الابتهاج ص 247، البستان، ص 217 ـ 218.

(51) الفريدبيل: المرجع السابق، ص 361.

(52) الونشريسي: المعيار جـ 2 ص 419 ـ أحمد بابا نيل الإبتهاج، ص 246، المقري: نفح الطيب، المطبعة الأزهرية ج 3 ص 143.

وقد أصاب علماء ما وراء النهر الحزن عندما فوجئوا ببناء المدارس وتنظيمها ومقرراتها، فأقاموا «نعشا» للعلم وقالوا: كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه، والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم ويعلمهم، وإذا صار عليه، أجرة تدانى إليه الإفساد وأرباب الكسل» وهذا دليل على أن موقف فقهاء تلمسان من بناء المدارس يشبه موقف المشارقة بعد عشرات من السنين، انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون ج 1 ص 53 ـ حسين أمين: المرجع السابق ص 6.

(53) ابن مريم، ص 167.

(54) نيل الإبتهاج، ص 256.

55) نفسه، ص 260.

(56) أحمد بابا التبكتي: نيل الابتهاج، ص 223

(57) ابن مريم: البستان: ص 208

(58) أحمد بابا التنبكتي: المصدر السابق، ص 293.

(59) نفسه، ص 294.

(60) كفاية المحتاج: جـ2 ص 372.

(61) نفسه، جـ2 ص 372.

(62) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج ص 294

(63) نفسه، ص 298

(64) البستان، ص 239

(65) يوضح ابن خلدون ظاهرة التصوف، بأنه ينشأ للمريد عند القيام بمجاهدته وعبادته، وتحصل عند كل مجاهدة حالة وتكون لهذه الحالة عبادة تترسخ وتصير مقاما للمريد ويظل المريد يرتقي من مقام إلى مقام، إلى أن يصل إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة، ولهذا فالمريد يحتاج الى محاسبة نفسه وسائر أعماله، وينظر في حقائقها، أنظر: المقدمة، ص 864 ـ 865 وعن تعريف التصوف أنظر، الجاحظ: البيان والتبيين القاهرة 1313 جـ1 ص 128.

(66) القشيري: الرسالة القشيرية في علم التصوف، دار الكتاب العربي بيروت ص 7 و8 ـ أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني: مدخل إلى التصوف الاسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة 1988 ص 21.

ـ عبد الرزاق قسوم: عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1978 ص 50.

(67) عمر فروخ: تاريخ الحكم العربي: منشورات المكتب التجاري بيروت 1962 ص 383 ـ 384.

(68) عبد الرزاق قسوم: المرجع السابق، ص 55.

(69) مر التصوف الاسلامي بمراحل عديدة عبر أحقاب زمنية متعاقبة منها مرحلة الزهد التي سادت خلال القرنين الأول والثاني الهجريين والمرحلة التي اعتنى فيها المتصوفة بالنقاش في دقائق الأصول وتغلب عليهم الطابع الأخلاقي والتربوي وكان ذلك خلال القرن الثالث الهجري.

أما المرحلة الثالثة فكانت في القرن الخامس الهجري برز فيها عبد الكريم القشيري و عبد الله الهروي كانت لهما كتابات و مؤلفات في الورع و الزهد و محاسبة النفس و آداب الطريقة و أذواق أهلها و مواجدهم في الأحوال، وهما اللذان أرسيا قواعد التصوف السني ثم نحا منحاهما، و اتجه اتجاههما الإمام الغزالي (ت 505 هـ/ 1111)، الذي دعم التصوف السني الذي يساير مذهب أهل السنة و الجماعة.

انظر: ابن خلدون: المقدمة، ص 866.

(70) الشعراني: الطبقات الكبرى القاهرة 1343هـ/ 1924 م جـ1 ص4.

(71) ابن خلدون: المقدمة، ص865.

(72) نفسه، ص 866 - أبو الوفا: المرجع السابق، ص 16.

(73) الفريد بيل: المرجع السابق، ص379.

(74) أخذ المتصوفة بنزعة الشيعة في الاعتقاد بفكرة المهدوية المتمثلة في أن الألوهية يمكن أن تحل في الامام المعصوم، وانتقلت هذه الفكرة

إلي الصوفية ، فاعتقدوا بأن القطب الصوفي الواصل إلي أعلي الدرجات و المقامات ، يمكن أن تحل به هو الآخر الألوهية مثل المهدي لأن سيد العلوم الباطنية و مالك زمامها ، و يعد شيخ العارفين على الإطلاق ، انظر، الفريدبيل : المرجع السابق ، ص392.

(75)الفريدبيل : المرجع السابق ، ص 389.

((76)نفسه ، ص 389، و عن حياة أبي مدين ، وتصوفه ، راجع ابن الزيات التاذلي : كتاب التشوف ص 319 وما بعدها ، ابن قنفذ القسنطيني : أنس الفقير ص 11 و ما بعدها ، من أقوال أبي مدين المأثورة : « اجعل الصبر زادك و الرضا مطيتك و الحق مقصودك و وجهتك» و « بفساد العامة يظهر ولاة الجور، و بفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين الفتانون» و يحدد شروطا لطالب التصوف بقوله : « لا يصلح سماع هذا العلم (التصوف) إلا من حصلت له اربعة : الزهد ، و العلم و التوكل و اليقين » انظر : أنس الفقير ، ص 18 - 20.

(77) المجموع : ورقة 37.

(78) ابن قنفذ : أنس الفقير، ص 17 - 18.

(79) نفسه ، ص 20.

(80)نفسه ، ص 20 و ما بعدها.

(81) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص 204 - 205، محمد المنوني : حضارة الموحدين ص 72.

(82) علال الفاسي : التصوف الاسلامي في المغرب مجاة الثقافة المغربية يناير فبراير 1970 عدد(1) ص 39.

(83) عبد المجيد الصغير : المرجع السابق ، ص 36.

(84) علي عمار سالم : أبو الحسن الشاذلي مطبعة دار التأليف بمصر جـ 1 ص 122 ، نصح أحد المتصوفة ابو الحسن الشاذلي قائلا: « عبادة الصديقين عشرون : كلوا واشربوا و البسوا و انكحوا واسكنوا و ضعوا كل شيء حيث أمركم الله و لا تسرفوا واعبدوا الله و لا تشركوا به و اشكروه ، عليكم بكف الأذى و بذل الندى فإنها نصف العقل و نصفه الثاني أداء الفرائض و اجتناب المحارم ، ان عبادة الله هو التفكير في أمر الله و التفقه في دين الله».

انظر، عبد المجيد الصغير : المرجع السابق ، ص 34.

(85) ابن شقرون : المرجع السابق ، ص 53 - 54.

ذكر ابن مرزوق في مجموعة ، ست طوائف صوفية ، عاشت في بلاد المغرب الأقصى ، وانتشرت عبر ارجائه وهي :

1 - الشعيبون : و هم طائفة أبي شعيب آزمور.

2 - الماجريون : وهم طائفة أبي محمد صالح و منهم الدكاليون.

3 - الصنهاجيون : وهم طائفة بني أمغار من تيطنفر من أقران أبي شعيب

4 - طائفة الحجاج : و هي طائفة لا يدخل صفها إلا من الذين أدوا فريضة الحج ، و زاروا بيت الله الحرام.

5 - الحاحيون : وهم مجموعة من جبل درن ، و هي طائفة الشيخ أبي زكريا يحي بن أبي عمرو الحاحي.

6 - الغماتيون : وهم طائفة الشيخ الولي الشهير أبي زيد عبد الصمد الهزميري و لهم أخوة مع الحاحيين و الماجريين انظر ورقة 11 - 12.

انظر أيضا : ابن قنفذ القسنطيني : أنس الفقير، ص 63 - 65.

(86) التصوف الفلسفي تصوف غامض ذو لغة اصطلاحية مميزة يحتاج الدارس لفهم مسائله وابعاده إلى جهد ذهني غير عادي،

ولايمكن اعتباره فلسفة خالصة، لأنه قائم على الذوق، كما لا يمكن اعتباره تصوفا خالصا لأنه يختلف عن التصوف الخالص فهو إذن بين التصوف والفلسفة.

بينما يميز المستشرق لوتورنو بين التيارين في التصوف (التصوف السني والتصوف الفلسفي) فأرجع التصوف السني إلى أهل البادية الذين يفتقرون إلى أسباب الثقافة والفكر، لأنهم لم يتلقوا تعليما فلسفيا على كبار علماء الحواضر والتتلمذ عليهم، ولهذا كانوا بعيدين عن إدراك المذاهب العقائدية وفهمها والتعمق فيها وفي المسائل الفقهية والكلامية التي تسود مجالس العلم في المدن، أما أصحاب التصوف الفلسفي فقد كانوا عكس ذلك، بحيث نشأوا بالمدن وتعلموا فيها وعلى كبار شيوخها انظر: Le Tourneau : L'Islam Nor-Africain in annales des l'institut d'etudes orientales Facultés des Lettres Alger Année 1957 T.XV. P.187.

(87) ابن خلدون: المقدمة، ص 870.

(88) عبد المجيد الصغير: المرجع السابق، ص 33.

(89) عبد المجيد الصغير: المرجع السابق، ص 30.

(90) نفسه، ص 30.

(91) عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ص 81.

(92) علي سالم عمار: أبو الحسن الشاذلي جـ 1 ص 45.

(93) التهامي الوزاني: الزاوية، العرائش جـ 1 ص 144.

(94) الدولاتلي: المرجع السابق، ص 81.

(95) نفسه، ص 81.

(96) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 4.

(97) الفريد بيل: المرجع السابق، ص 383.

(98) محمد المنوني: ورقات ص 236.

(99) كان مجاهدا للنفس متجردا عازفا عن الدنيا إلى أن أصبح من عباد الله الصالحين انظر: يحي بن خلدون: بغية الرواد، جـ 1 ص 107 ـ 108 ـ التادلي: التشوف: ص 436 ـ 437، ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 104.

(100) سمي بالبكاء في مكة ـ لكثرة خشوعه وخشيته، حتى كف بصره من كثرة بكائه كان يؤم الصلاة، ويخطب بجامع القصر الجديد بتلمسان ما يقرب من عشرين سنة، وقبره يقصده الزوار في طريق العباد بعين وانزونة. انظر: ابن مرزوق المجموع، ورقة 14، 17 بابا أحمد التنبكتي: نيل الإبتهاج، ص 142.

(101) يُعد أبو اسحاق الطيار من كبار الأولياء الصالحين بتلمسان، تقول عنه المصادر بأنه لم يضطجع أربعا وعشرين سنة، ظل خلالها قائما صائما خاشعا يعلم القرآن توفي في نهاية القرن السابع الهجري، وقبره بالعباد مزارا انظر: يحي بن خلدون. بغية الرواد جـ 1 ص 106.

- ابن مريم: البستان، ص 56ـ57.

(102) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 8 ـ 10 يحي بن خلدون: بغية الرواد، جـ 1 ص 114 ـ 115 ابن مريم: البستان، ص 226.

(103) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 5 ذكر حفيده العديد من كراماته منها أنه عندما لا يستيقظ من نومه يقوم بإيقاظه رفيقه وصاحبه أحد مؤمني الجن، بحيث كان يقرع عليه الباب قرعا خفيفا ويناديه «يا أبا عبد الله هذا وقتنا» أنظر ورقة 5 ويقول عن كثرتها بأن «هذا الباب لا أحيط به ولا أحصره لكثرته وطول الزمان وبعد العهد» انظر ورقات 23ـ24ـ25.

(104) ابن مرزوق: ورقة 5.

(105) نفسه، ورقة 5.

(106) نفسه، ورقة 5.

(107) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 5.

(108) نفسه، ورقة 5 ويضيف ابن مرزوق، بأنه من أعجب ما شوهد في ليالي الاجتماع، وهي خاتمة الليالي، حضرها من الأربعين رجل من مصمودة، كان يأوي بجامع «بفرغنبو» بتلمسان فعندما تواجد القوم على عادتهم وقف هذا المصمودي وقال يا اخواني أما إشتقتم إلى لقاء المحبوب أما تحبون لقاء الله إن كنتم صادقين في المحبة فأسألوا الله أن لايمر عليكم ستة أشهر. . . وأكون أنا أولكم فلما حضروا في الليلة المقبلة إلا وقددفنوه، وماتوا جميعا قبل تمام المدة المذكورة هذه حال التصوف والمتصوفين خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، نفسه ورقة (5) عن صحة الخوارق والكرامات ونفيها انظر: ابن خلدون: المقدمة ص 867 وما بعدها ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير، ص 2 وما بعدها.

(109) ألفريد بيل: المرجع السابق، ص 312.

(110) نفسه، ص 312.

(111) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 4.

(112) حج أبو عبد الله محمد بن عيسى إلى البقاع الكقدسة خمس وعشرون حجة، كانت له كرامات ومكاشفات ويوجد قبره خارج باب العقبة، انظر يحي بن خلدون: بغية الرواد جـ 1 ص 112.

(113) ألفريد بيل: المرجع السابق، ص 313.

(114) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 9.

(115) يقول ابن خلدون في هذا الصدد: «ولما هلك دفنه يغمراسن بن زيان سلطان تلمسان من بني عبد الواد في التربة بقصره ليدفن بإزائه متى قدّر بوفاته» انظر التعريف بابن خلدون، ص 49.

(116) ويقول حاجيات: «وعندما توفي (اي ابن مرزوق) في أوائل رجب سنة 681 هـ دفن بدار الراحة من الجامع الأعظم، ثم لما توفي يغمراسن بن زيان دفن بإزائه تبركا بجاوره» انظر كتابه: أبو حمو موسى الزياني، ص 43.

وكذلك مقاله: الحياة الفكرية بتلمسان مجلة الأصالة السنة (4) عدد 26 ـ 1975 ص 140، انظر أيضا في هذا الصدد: رسالة الأخضر عبدلي، مملكة تلمسان ص 206 الذي وقع في نفس اللبس.

(117) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 9.

(118) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 10 أبو الحسن هذا مولعا بالمقامات وأرباب الأحوال، له كرامات معروفة، وقف إلى جانب صاحبه ابن مرزوق حتى فاضت روحه.

انظر: بغية الرواد، جـ 1 ص 122.

(119) ابن مرزوق : المصدر السابق، ورقة 18 .

(120) نفسه، ورقة 16 .

(121) كان أبو اسحاق ابراهيم يكثر من الجلوس مع الشيخ أبي عبد الله بن مرزوق، ويتعيش بالخياطة في حانوته بالقبابين من تلمسان، وكان من كبار الصالحين بها، له مكانة خاصة لدى السلطان أبي يحي يغمراسن، بحيث كان يستقبله بقصره في كل وقت للتوسط في قضاء بعض حوائج المحتاجين من الرعية وقبره معروف بتلمسان خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، انظر ابن مرزوق : المجموع ورقة 12 يحي بن خلدون : بغية الرواد جـ 1 ص 118 .

(122) يعد أبو الحسن الحمال من الصالحين المتبتلين من أهل الفتوة بتلمسان كان يجمع الضعفاء والمحتاجين والواردين في داره، ويقيم أحوالهم بدرب ملالة بتلمسان، وهب له هذه الدار الشيخ العالم الواعظ أبي عبد الله محمد بن رشيد البغدادي، ناظم قصائد الوتريات في مدح الرسول ﷺ، قدم من بغداد واستقر بتلمسان ولازم ابن مرزوق وحضر لياليه ومجالسه ثم عاد إلى المشرق، انظر: ابن مرزوق : ورقة 12 بغية الرواد، جـ 1 ص 118 .

(123) كان أبو العيش من كبار العلماء الصلحاء، تخلى عن الدنيا وتاب من خدمة أهلها (أي الملوك) كتب لبعض الأمراء، ثم ترك هذه الوظيفة، وتجرد من زخرف الدنيا وبهرجها، حتى صار من الخدام المقربين والأولياء المهديين ومؤلفاته تشهد على ذلك، وكذلك تدل على غزارة علمه وشدة ورعه منها كتاب في شرح أسماء الله الحسنى دفن خارج باب كشوط، انظر ابن مرزوق ورقة 13، يحي بن خلدون : المصدر السابق، جـ 1 ص 103 .

(124) كان الفقيه الصالح أبو عبد الله بن البلد، شديد الملازمة لصاحبه ابن مرزوق من كبار الأولياء المتبتلين الذين أنجبهم القرن السابع الهجري يتعيش بالنسخ، وقوته الشعير والشحم ويتصدق بما تبقى به، اعتاد صديقه ابن مرزوق على كسوته كل سنة فضلة من قطن واحراما خشنا فكان كل سنة يطلب ثوبا اخشن من الأول، وله جبة صوف بقيت عنده سنوات، وخطه يشبه خط ابن مرزوق إذ كان يشتركان في نسخ الكتب والمصاحف وقبره بمسجد صالح بالعباد، انظر ابن مرزوق ورقة 14 يحي بن خلدون : بغية الرواد جـ 1 ص 119 .

(125) كان الحاج فرج شديد المعاشرة، يباسط ابن مرزوق، مشهورا باغاثة الملهوف، خاشعا كثير الأوراد والأذكار والتصرف في الحوائج ويوجد قبره بمسجد صالح بتلمسان، ابن مرزوق: ورقة 14 بغية الرواد، جـ 1 ص 119 .

(126) اشتهر يوسف التفريسي بمخالطة مؤمني الجن التي تعد من كراماته، يدرس بمسجد تلمسان، وله طلاب كثيرون، ومعتقد فيه، عظيم القدر، والدعاء عند قبره مرجو الإجابة ، دفن بالمكان المعروف بباب وهب بتلمسان، ويذكر ابن مرزوق عدة كرامات لهذا الشيخ الصالح منها أنه عندما كان يدرس الطلبة بمسجد الجدار، كان يقرأ معه خارج المسجد مؤمنو الجن، وكانوا يأتونه من العراق للإستفسار عن بعض المسائل الفقهية فيرد عليها كتابيا، انظر ابن مرزوق : ورقة 14 .

(127) فقد كان هذان الشيخان الصالحان من العلماء الأتقياء، فضلا الآخرة عن الدنيا يعلمان القرآن ولا يأخذان على ذلك أجرا إلا من الذين يكونان راضيان على ماله وسلوكه، وإنما كان يتعيشان من فلاحة أرض لهما بالمكان المعروف بإيلان من بني مستار، انظر نفسه ورقة 13 .

(128) ابن مرزوق: المصدر السابق، ورقة 14 .

(129) ابن مرزوق ورقة 4

(130) الفريد بيل: المرجع السابق، ص 386 .

(131) أبو محمد عبد السلام التونسي، من أهل السياحة، كانت له أحوال عجيبة بلغ درجة كبيرة من الزهد والورع والتقشف، وعلى

الرغم من ثقافته المحدودة إلا أن سلاطين بني زيان وأهل تلمسان كانوا يعتقدون فيه ويتبركون بمجالسته، فكان إذا انتهى من صلاة الجمعة، أوقفه الناس أمام باب المسجد للتحدث معه عدة ساعات ورابطته معروفة بالعباد، انظر: ابن قنفذ: أنس الفقر ص 106 ـ 107 ـ 108.

وكان الشيخ الصوفي أبي يعزي المغربي وهو شيخ ابي مدين الغوث لا يحسن اللغة العربية، ويجد صعوبة في شرح تعاليم التصوف لمريديه ومع ذلك كان له اتباع كثير أنظر: الفريد بيل: المرجع السابق ص 385.

(132) ابن مرزوق : ورقات 7 ـ 8 ـ 9.

(133) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 13.

(134) نفسه: ورقة 41.

(135) يبدو أن أبا عبيدة بن الشباط السبتي، غير ابن الشباط الأنصاري السبتي (643 ـ 723 هـ) الذي تتلمذ عليه أبا العباس أحمد بن مرزوق بمدينة سبتة، وصاحب كتاب «أنوار البروق في تعقب القواعد والفروق» للفارق الزمني بينهما، انظر: ابن مرزوق: المجموع، ورقة 18، ابن شقرون: المرجع السابق، ص 195.

(136) احتفظ المرازقة بمرقعة أبي مدين وبعكازه، وعندما زار الشيخ المتصوف يوسف بن يعقوب الملاري جد ابن قنفذ القسنطيني لأمه، وصاحب زاوية الملارة بفرجيوة، أبا العباس أحمد بن مرزوق وعاشره في داره بتلمسان أهداه جزءا من عكاز أبي مدين للإحتفاظ به في زاويته، انظر: ابن قنفذ: انس الفقير، ص 93 ـ 94، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج: ص 267.

(137) ابن قنفذ: المصدر السابق، ص 66.

(138) درس بتلمسان على مجموعة كبيرة من العلماء والمدرسين، نذكر منهم على سبيل المثال: الفقيه الإمام الولي أبو يوسف على الصنهاجي، وأبو محمد عبد الواحد المستاوي، والفقيهان إبنا الإمام وحضر دروسهما سنين عديدة درس عليهما البلاغة وعلم البيان، ودرس على الشيخ الزاهد المتصوف أبو محمد عبد الله المجاصي، في تلمسان وفي مكة المكرمة القرآن تجويدا والموطأ والجمل رواية انظر: ابن مرزوق: المجموع، ورقة 17.

(139) نفسه، ورقة 17.

(140) نفسه، ورقة 17.

(141) عن دراسته في هذه الحواضر المغربية والمشرقية انظر: المجموع، ورقات 17، 18، 20، 23، 24، 25.

(142) للتعمق في تاريخ حياته ودراسته ورحلاته وكراماته ومجاورته بمكة والمدينة، أنظر المجموع ، ورقات 14 ـ 38.

(143) نفسه، ورقة 38 ـ 44.

(144) المجموع، ورقة 27 ـ 28.

(145) نفسه، ورقة 27.

(146) نفسه، ورقة 27 دفن أبو تاشفين بباب وهب بالقرب من المولى الصالح أبو يعقوب التفريسي.

(147) نفسه، ورقة 33.

(148) نفسه، ورقة 33

(149) نفسه ، ورقة 33

(150) نفسه، ورقة 35

(151) المجموع، ورقة 20 وحول اقامة بمصر انظر ورقات 20 - 34.

(152) نفسه، 34ـ 35.

(153) نفسه، 33 هو الشيخ الفقيه الصالح المحقق له بركات مأثورة ظهرت عند قبره بمراكش في قضاء الحاجات كان الناس يعتقدون فيه شديد الاعتقاد حتى اليهود اعتادوا أن يطلبوا بركاته وينادون باسمه وقف ابن قنفذ القسنطيني عند قبره عدة مرات وأصل مذهبه الحض على الصدقة كان يقول لاصحابه بأنه «القطب» توفي بمراكش سنة 601 هـ/ 1204 م. أنس الفقير ص 7 انظر أيضا: محمد ابن محمد المدعو بابن الوقت: «تقصير الأنفاس في التعريف بالشيخ ابي العباس ط. بفاس 1336.

(154) المجموع، ورقة 37.

(155) المجموع ورقة 28 والخانقاه بالقاف وبالكاف وترسم «خانكة» أيضا وهو عبارة عن مسكن للصوفية المنقطعين للعبادة والأعمال الصالحة وهذه الخانقاه كانت دارا للشيخ «قنبز» أو «عنبر» أحد خدام القصر أيام الفاطميين وكان يلقب بسعيد السعداء وقد خصصها صلاح الدين الأيوبي سنة 569 هـ/ 1173 م للفقراء الصوفية الواردين من البلاد البعيدة، وجعل لها أوقافا ولذلك صارت تعرف أيضا بالخانقاه «الصالحية» وهي أول خانقاه أسست بمصر ومن الطريف أن الشيخ ابن أبي حجلة التلمساني كان يتولى نظارة الخانق «سعيد السعداء» في عهده، انظر، ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص 121 هـ(2) المقري: نفح الطيب، ج 4 ص 285.

(156) المجموع، الورقة 25.

(157) نفسه، ورقة 25.

(158) المجموع، ورقة 29.

(159) نفسه، ورقة 29.

(160) نفسه، ورقة 29.

(161) المجموع، ورقة 29.

(162) المجموع، ورقة 20.

(163) نفسه، ورقة 19

(164) يعد الشيخ أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني الأصل من كبار الصوفية التلمسانيين الذين عاشوا ما بين القرنين السابع والثامن الهجريين لقد كان ملازما لأبي عبد الله محمد بن مرزوق والد أبي العباس رحل وجال في أقطار العالم الإسلامي بحيث زار الأندلس والمغرب ومصر والحجاز إلى أن وصل الى العراقين، (عراق العرب وعراق العجم) واليمن ثم استقر بمكة مجاورا نحو ثلاثين سنة إلى أن مات بها. كان متصوفا متجردا كريما لا يمسك شيئا عن أهل رباطه وكان لأهل مكة فيه جميل الاعتقاد يشفي مرضاهم ويدعو لصغارهم لم يتزوج قط، قام بخدمته في آخر أيامه عندما أقعدته الشيخوخة بعض الصلحاء الأولياء، المجموع، ورقة 19.

(165) هو أبو محمد عبد الله الهواري من الصلحاء الأولياء كان يلازم أبا العباس بمكة، المجموع ورقة 20.

(166) المجموع، ورقة 20.

(167) عكف أبو عبد الله علي على العبادة وآثر الأخرة عن الدنيا حتى صار من الكاشفين المنقبضين عن الناس، ينفر ممن يقصده، يؤدي صلواته بالمسجد الحرام بتؤاده وخشوع ثم يطوف ليلا عشرة أسابيع، ويقضي وقته في النهار إما مشاهدا أو في منزله بعيدا عن الناس، توفي بمكة ودفن بالمكان الذي دفن فيه ابو العباس أحمد ابن مرزوق وقبره مزارا له كرامات مأثورة وبركات مشهورة، المجموع، ورقة 20.

(168) المجموع: ورقة 20.

(169) أصله من تكرور بسودان العجم، متعبدا ورعا من كبار الأولياء الصالحين حج عدة مرات، انظر ورقة 20.

(170) المجموع: ورقة 26.

(171) المجموع ورقة 22.

(172) نفسه، ورقة 22.

(173) نفسه، ورقة 22.

(174) نفسه، ورقة 30.

(175) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 19.

(176) نفسه، ورقة 19.

(177) الطواشية هم عمال المسجد بالمدينة المنورة والمشرفين عليه، انظر: نفسه ورقة 28.

(178) المجموع ورقة 19.

(179) نفسه، ورقة 21.

(180) نفسه، ورقة 21.

(181) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 21.

(182) نفسه، ورقة 21.

(183) نفسه، ورقة 21 تذكر بعض المصادر بأن ابن فرحون صلى بالروضة النبوية نحو ستين سنة وحج نحو خمسين حجة توفي سنة 769 هـ/ 1366 انظر، ورقة 21.

(184) نفسه، ورقة 21.

(185) حول هذا الشيخ انظر: ابن مرزوق: المجموع 19 - بغية الرواد، ج 1 ص 116.

(186) انظر: المجموع، ورقة 19 - بغية الرواد، ج 1 ص 116.

(187) انظر: بغية الرواد، ج 1 ص 107.

(188) انظر: نفسه، ج 1 ص 117.

(189) انظر: المجموع، ورقة 15.

(190) انظر: نفسه، ورقة 15.

(191) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 1 ص 125.

(192) عبد المجيد الصغير: المرجع السابق، ص 35 - علي عمار سالم: أبو الحسن الشاذلي ج 1 ص 122.

(193) انظر عبد المجيد الصغير: المرجع السابق ص 34.

(194) المجموع، ورقة 6.

(195) انظر، ورقة 7.

(196) نفسه، ورقة 22.

(197) عبد المجيد الصغير: المرجع السابق، ص 37.

(198) ابو الوفا: المرجع السابق، ص 213.

(199) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 1 ص 103 ـ وابو عبد الله أحمد بن الحجام، ولد سنة 558 هـ / 1162 م بتلمسان التي درس بها ثم انتقل الى فاس، اشتهر بالفضل والزهد له انتاج شعري وافر توفي بمراكش سنة 614 هـ / 1217 م انظر نفسه، ج 1 ص 103.

(200) ابو العيش بن عبد الرحمان الخزرجي، أديب بارع وشاعر مفوه، وكاتب بليغ، يتميز بثقافة واسعة وله قصائد شعرية جميلة في التصوف، بغية الرواد ج 1 ص 103.

(201) يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج 1 ص 103.

(202) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 42ـ43.

(203) المقري: نفح الطيب، ج 5 ص 363.

(204) نفسه، ج 5 ص 360.

(205) المقري: أزهار رياض، ج 2 ص 306 ـ أحمد عبد القادر: الحياة الأدبية في تلمسان ص 121.

(206) المقري: نفح الطيب، ج 5 ص 365.

(207) المقري: نفح الطيب، ج 5 ص 368 ـ 369.

(208) أحمد عبد القادر: المرجع السابق، ص 126 ـ طاهر توات: ابن خميس شعره ونثره ص 111.

(209) ابن الخطيب: الإحاطة، ج 2 ص 556 ـ المقري: أزهار رياض، ج 2 ص 321.

(210) ديوان الربيع عفيف الدين التلمساني تحقيق وتقديم وتعليق العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1994 ص 25.

(211) نفسه، ص 25.

(212) نفسه، ص 26.

(213) نفسه، ص 35ـ36.

(214) ابن أبي حجلة التلمساني، الصبابة، ص 9.

(215) ابن الخطيب: الإحاطة، ج2 ص 556. المقري: أزهار رياض ج2 ص 321.

(216) عبد القادر زمامة: الحقائق والرقائق مجلة دعوة الحق عدد (8) ـ (9) صفر 1386 هـ ص 95، وقد أعطى الصوفية عدة معاني وتفاسير لعبارتي الحقيقة والرقيقة فيها: إن الحقيقة هي إقامة «العبد في محل الوصال الى الله ووقوف سره على محل التنزيه» أما الرقيقة فهي: اللطيفة الروحية والواسطة اللطيفة الرابطة بين الشيئين كالمدد الواصل من الحق الى العبد» انظر: المقري: نفح الطيب ج 5 ص 310ـ 327 ـ عبد المنعم حنفي: معجم مصطلحات الصوفية دار المسيرة بيروت 1980 ص 79 وما بعدها، وفي معنى هاتين العبارتين يقول

عبد القادر زمامة في مقدمة التحقيق أنه : « من العسير على الباحث ان يفرق بين مقصود المقري بكلمة حقيقة ، ومقصوده بكلمة رقيقة ، فكلتاهما من واد واحد . . . وهي النظرة الصوفية في الحياة وتفسير ما فيها تفسيرا صوفيا » .

انظر الحقائق والرقائق ص 93 .

(217) فهرس المنتوري : مخطوط بالخزانة الملكية الرباط رقم 1578 ورقة 76 .

(218) ابن الخطيب الاحاطة ، ج 2 ص 203 ـ أحمد بابا التنبكتي : الديباج ص 265 ، نويهض : أعلام الجزائر ص 180 .

(219) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج2 ص 203 ـ أحمد بابا التنبكتي ، ص 265 .

(220) ابو الاجفان : المرجع السابق ، ص 123 .

(221) المقري : نفح الطيب ، ج 5 ص 242 .

(222) يعتبر أحمد بن محمد زروق من كبار شيوخ الفقه والحديث والتصوف كان وليا صالحا قطبا من أقطاب التصوف ذاع صيته في بلاد المغرب والمشرق قال عنه التنبكتي : « يعد آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين بين الحقيقة والشريعة توفي بمسراته شرق طرابلس الغرب سنة 899/ 1493 انظر : ابن مرسم : البستان ص 45 ـ 47 .

(223) ابن مريم : البستان ، ص 45 ـ 47 .

(224) نفسه ، ص 58 كان الامام ابراهيم التازي عالما ناظما بليغا ورعا زاهدا قطبا من أقطاب التصوف له أحوال وكرامات بديعة انظر : نفسه ص 58 .

(225) نفسه ، ص 41ـ43 .

(226) نفسه ، ص 148 .

(227) ابن مريم : البستان ، ص 43 ـ أحمد بابا : كفاية المحتاج من ليس في الديباج ج1 ص 124 .

(228) علال الفاسي : المرجع السابق ص 47 .

(229) عبد المجيد الصغير : المرجع السابق ، ص 21 .

(230) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء 1984 ج 2 ص 146 .

(231) نفسه ، ج 2 ص 85 .

(232) أبو الوفا : المرجع السابق ، ص 20 .

(233) الفريد بيل : المرجع السابق ، ص 393 ـ محمد المنوني : ورقات 237 .

(234) رمضان يخلف : عبد الرحمان الثعالبي : ومنهجه في التفسير رسالة ماجستير جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة 1412 ـ 1992 ص 17 .

(235) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 ص 37 ـ الفريد بيل : المرجع السابق ص 394 .

(236) رمضان يخلف : المرجع السابق ص 17 .

(237) الفريد بيل : المرجع السابق ، ص 394

(238) أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ج 1 ص 38

(239) نفسه ، ج 1 ص 38 .

(240) المهدي البو عبدلي : أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر العصور ونبذ مجهولة من تاريخ حياة بعض أعلامها مجلة الأصالة سنة (4) العدد (26) جويلية أوت 1975 ص 131 .

(241) نفسه، ص 133 ـ الطاهر توات: المرجع السابق، ص 41.

(242) الشريف أبو البركات هو محمد بن علي الحسني، من فقهاء المالكية البارزين بفاس تولى الاشراف على مناظرة ابن خميس ومحاكمته بعاصمة بني مرين، انظر: طاهر توات: المرجع السابق ص 66.

(243) المهدي البو عبدلي: ابو عبد الله محمد بن خميس التلمساني مجلة الأصالة عدد 49 ـ 50 سبتمبر ـ أكتوبر 1977 ص 8 ومابعدها.

(244) نفسه، ص 8.

وعن ترجمة ابن خميس انظر: نفح الطيب ج 5 ص 359 ـ وأزهار رياض ج 2 ص 301.

(245) المقري: نفح الطيب، ج 5 ص 368.

(246) المهدي البو عبدلي: ابو عبد الله بن خميس، ص 4.

(247) المهدي البو عبدلي: أهم الأحداث الفكرية، ص 131.

(248) نفسه، ص 131.

(249) عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس ص 83 ـ 84 ـ البو عبدلي: أهم الأحداث ص 131 ـ 132.

(250) ابن الخطيب: الاحاطة، ج 2 ص 551 ـ 552 ـ عبد الوهاب بن منصور المرجع السابق ص 131 ـ 132.

(251) المقري: نفح الطيب، ج 5 ص 359 ـ 360.

(252) نفح الطيب، ج 5 ص 360.

(253) عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص 52.

(254) نفح الطيب، ج 5 ص 360.

(255) نفسه، ج 5 ص 370 ابن دقيق، هو محمد بن الامام أبو الحسن قاضي القضاة ولد بساحل ينبع من أرض الحجاز سنة 625هـ / وكان وقورا قليل الكلام كثير العلوم ويعد من الشعراء الفحول مفتي المذهبين المالكي والشافعي توفي بمصر سنة 702 ـ 1302 م انظر ابن القاضي: ذرة الحجال ط القاهرة 1970 ص 15.

(256) المهدي البو عبدلي: أهم الأحداث ص 133.

(257) العبدري: الرحلة المغربية ص 13.

(258) طاهر توات: المرجع السابق، ص 66.

(259) نفح الطيب، ج 5 ص 66.

(260) عبد الوهاب بن منصور : المرجع السابق ص 90 ـ 91.

(261) الطاهر توات: المرجع السابق ص 110.

(262) عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص 133.

(263) عبد الرحمان الثعالبي: الجواهر الحسان ج 1 ص 1 .

(264) أحمد بابا التنبكتي: المصدر السابق ص 216.

(265) المقري: نفح الطيب، ج 3 ص 116 ـ 117 .

(266) البستان ص 211 ـ نيل الابتهاج ص 223.

(267) محمد المنوني: ورقات 223 ـ المهدي البو عبدلي: المرجع السابق، ص 126 .

(268) المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص 127 .

(269) الونشريسي: المعيار، ج 5 ص 285 ـ محمد المنوني: ورقات ص 223 .

(270) الونشريسي: المعيار، ج 5 ص 326 ـ موسى لقبال: الحسبة المذهبية في بلاد المغرب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1871 ملحق رقم 14 ص 122 .

(271) نيل الإبتهاج، ص 306 ـ محمد المنوني، ورقات ص 224 .

(272) المعيار، ج 5 ص 326 ـ 331.

(273) المعيار، ج 5 ص 331 ـ 334.

(274) كفاية المحتاج، ج 1 ص 131 ـ 132 .

(275) ابن مريم: ص 175 ـ التعريف بابن خلدون، ص 129 .

(276) ابن أبي حجلة التلمساني (725 هـ / 776 هـ ـ 1328 / 1374 م) أديب صوفي، كان يكثر الحط على أهل الوحدة وخصوصا ابن القارض، وعارض جميع قصائده بقصائد نبوية وامتحن بسبب ذلك. انظر، التعريف بابن خلدون ص 120 وديوان ابن ابي حجلة الصبابة. تحقيق محمد زغلول سلام ونشر منشأة المعارف الاسكندرية بدون تاريخ ص 5 ـ 12 . أما كتاب ابن الخطيب المذكور أعلاه فهو كتاب قيم قلما يوجد مثله بين كتب التصوف في المكتبة الاسلامية، تحدث فيه عن مذاهب الصوفية وعن طريقة أهل الوحدة المطلقة، فنسبه أعداؤه الى القول بالحلول، فكان هذا الكتاب من أسباب محنته، التي انتهت بقتله، توجد نسخ من هذا الكتاب مصورة بقسم المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة، وكان ابن الخطيب قد وجهه صحبة كتابه «تاريخ غرناطة» وغيرهما من التآليف وقفهم بخنقاه سعيد السعداء بالقاهرة انظر: ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص 121 هـ (1) و(2).

(277) نفسه ص 121 ـ 122 .

(278) حسن الوراكلي: المرجع السابق، ص 79 .

(279) المغيلي: مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تقديم وتحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1968 ص 8 ـ 9.

(280) البو عبدلي: المرجع السابق، ص 128 .

(281) عبد القادر زبادية: التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي: ، بعض آثاره وأبحاثه في الجنوب الجزائري وبلاد السودان، مجلة الأصالة عدد 26 جويلية أوت 1975 ص 211.

(282) نفس المرجع، ص 212 ـ ابن عبد الكريم المغيلي: المصدر السابق، ص 14 .

(283) نفسه، ص 212.

(284) نفسه، ص 215.

(285) نفسه، ص 215.

(286) ابن عبد الكريم المغيلي: المصدر السابق، ص 12

(287) نيل الابتهاج، ص 355.

(288) المغيلي: المصدر السابق، ص 12.

الباب الرابع

الفصل الثالث

العلوم النقلية والعقلية

أولا: العلوم النقلية

1ـ العلوم الدينية

التفسير

الحديث

الفقه

2 ـ العلوم اللسانية

اللغة

الأدب

1ـ النثر

2 ـ الشعر

التاريخ

السياسة

ثانيا: العلوم العقلية

العلوم العددية

علم الفلك

علم المنطق

العلوم الدينية :

قسم مؤرخو الاسلام، والآداب العربية، العلوم الى قسمين رئيسيين: علوم نقلية وعلوم عقلية، وتتضمن الأولى علوم التفسير والحديث والفقه واللغة والأدب وغيرها، وتشمل الثانية على علوم الطب والفلسفة والرياضيات والكمياء والفلك، وقد امتدت هذه العلوم الى بلاد المغرب باعتباره جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي، الذي تربطه به روابط دينية قوية وصلات ثقافية وحضارية متينة.

حرص المسلمون على تفهم روح الإسلام وتعاليمه وعكفوا على دراسة القرآن الكريم، دراسة واعية، بوصفه دستور الاسلام والمسلمين، ويأتي بعد القرآن السنة النبوية الشريفة، وبها تستكمل أحكام الدين، وعلى أساس هذين العلمين (القرآن والسنة) قامت العلوم الدينية، وأهمها علم التفسير والقراءات في القرن (03 هـ / 9 م)، وهي الكتب التي ظلت إلى اليوم المرجع الأساسي للعلوم الدينية، ثم تأسست المذاهب الفقهية الأربعة، التي انفردت بالانتشار الواسع في دار الاسلام.

وقد بقيت العلوم الدينية في الساحة المغربية، منسجمة في مجملها ونقية في معظمها من البدع المذهبية والفكرية، التي مزقت وحدة المشرق، وذهبت بانسجامه السياسي والعقدي والمذهبي، عكس بلاد المغرب، الذي ظل يحتفظ بوحدة المذهب المالكي وريادته في البيئة المغربية والأندلسية، حتى صارت الفئة المتعلمة والحكام وطبقات المجتمع المختلفة، لا تعمل في مجال الفقه إلا به ووفق آرائه.

تميز العصر الزياني كغيره من العصور السابقة بتأثير الدين على الحياة الفكرية، إذ كان هو السائد على عقول الناس، ولهذا وجه الفقهاء والعلماء اهتمامهم لهذه العلوم ، التي تطورت وازدهرت ازدهارا كبيرا، ولا سيما في التفسير والحديث والفقه منها، وكثر المشتغلون بها لأنها تعد

من العلوم المحمودة المفروضة فرض عين على كل مسلم ومسلمة، أن يلم على الأقل بالحد الأدنى منها، حتى تصح عبادته وتستقيم معاملاته[1]، ولذلك نجد أحد الفقهاء يقول: « الناس يحتاجون الى العلم في الدين، كما يحتاجون الى الطعام والشراب» [2]. فقد تدخلت الدولة الزيانية، في تنظيم دروس الوعظ وحلقات الذكر لعامة الناس، وجعلت لهذه الدروس كراسي دائمة بمساجد تلمسان ومدارسها.

حتى ترفع الدولة عنهم ما يسمى بالأمية في المجال الديني، فكان الناس يؤمون مجالس التفسير والفقه والوعظ والذكر، ومن الواضح أن القرآن الكريم له مكانة هامة في كل علم من علوم الدين، لذا فإن الموحدين، عنوا بدراسة الأصول عناية خاصة، وحوّلوا اهتمامهم، نحو كتاب الله وسنة رسوله، واهتموا بالتفسير اهتماما كبيرا، فاستدعوا المفسرين من الأندلس، ليتعاونوا مع المفسرين المغاربة، ولم يكن انشغالهم في العهد الموحدي بالتفسير العادي، فحسب بل تجاوزوه، إلى التفسير بالإشارة، وممن اشتهر به ابو الحسن علي بن أحمد الحراني التجيبي (ت 637 أو 638 هـ / 1239 / 1240)، الذي أقرأ الناس سورة الفاتحة في نحو ستة أشهر بالحرم الشريف، فكان يلقي في التفسير قوانين تتنزل في علم التفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام، وهبه الله في هذا الجانب مواهب عديدة، وقد وضع على أحكام تلك القوانين كتابا سماه، «مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل» وهو ممن جمع العلم والعمل [3]، فكان يورد الآية ويناسقها نسقا بديعا، ويتكلم فيها بما لم يسبق إليه، وله تفسير على كتاب الله، سلك فيه سبيل التحرير وتكلم عليه لفظة لفظة، وحرفا حرفا، وكانت له مناظرة في هذه الباب مع الشيخ العالم عز الدين بن عبد السلام (ت 660 هـ/ 1261)، إمام الديار المصرية وتفوق عليه في مسائل كثيرة [4]، وتفسيره فيه أشياء عجيبة [5]. وبرز من المفسرين في عهد الموحدين الشيخ عبد الجليل بن موسى الأنصاري (608 / 1218)، حيث قام بتفسير الكتاب والسنة ووقع تفسيره للقرآن الكريم في نحو ستين مجلدا، فسر في كل مجلد حزبا واحدا، مما دفع بهذا العلم نحو الإنتشار والإزدهار [6]، ودعا الموحدون الى تأويل القرآن حسب روح الأشعرية، في معانيها العامة، وخالفوا بذلك ما عند المرابطين من تصورات.

علم القرآن والتفسير :

اهتم أهل تلمسان بالقرآن الكريم ودراسته، وحفظه وتفسيره، فكانوا يدرسونه في الكتاتيب والمساجد والمدارس، وجعلوا من أجل المحافظة عليه قراءة عدة أحزاب يوميا، بعد صلاة الصبح والمغرب [7]، فكانوا يتزاحمون على مجلس الشيخ الفقيه أبي اسحاق ابراهيم التنسي، الذي كان يعقده، في مسجد القيصرية بتلمسان، لإقراء التفسير والحديث، حتى صاروا يجلسون في السكك، فضاقت بهم الشوارع المتصلة بالجامع المذكور [8]، وقد اهتموا به لأنه كلام الله المنزل على نبيه ﷺ، وهو متواتر بين الأمة الإسلامية، رواه الصحابة عن الرسول ﷺ، بطرق مختلفة، في بعض ألفاظه، وكيفية كتابة الحروف وأدائها ونطقها، ولهذا تعددت القراءات إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة، ونسبت كل طريقة إلى من اشتهر بروايتها، فصارت هذه القراءات السبع أصولا للقراءة [9].

ولم يزل القراء يتداولونها، فصارت «صناعة مخصصة وعلما منفردا» [10] ثم ظهر علم التفسير، لنقل الآثار الواردة في القرآن، عن الصحابة والتابعين، وانتهى ذلك للطبري (ت 310 / 922) والواقدي والثعالبي (ت 429 / 1037) وأمثالهم من المفسرين [11]. وقد اتخذ المفسرون منذ وقت مبكر، للقرآن الكريم اتجاهين أساسين :

الاتجاه الأول هو التفسير المأثور أو المنقول، ويستند إلى الآثار المنقولة عن النبي (ﷺ) والسلف، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول ومقاصد الآيات وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين [12].

والإتجاه الثاني من المفسرين، يرتكز على الرأي والإجتهاد، ولايتحقق ذلك، إلا بمعرفة اللغة العربية، وإتقانها، والدراية بالبلاغة والإعراب والبيان، حتى يتمكن المفسر من تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب، لأن القرآن نزل بها [13].

ثم بعد ذلك معرفة تاريخ العرب والأمم السابقة، والإحاطة بأسباب نزول الآية وظروف نزولها، لأن تفسير القرآن، من أصعب الأمور فالإقدام عليه مجازفة كما يقول صاحب البستان [14]، وقد صح أن الرسول ﷺ، لم يكن يفسر من القرآن إلا آيات معدودة، وكذلك أصحابه، والتابعون بعدهم [15].

وقد برز في هذا المجال أبو محمد بن عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت 546 هـ / 1154)، من المتأخرين في الغرب الإسلامي، فلخص التفاسير كلها، وتحرى ماهو أقرب الى الصحة منها وجمعه في كتاب سماه «المحرز الوجيز في شرح كتاب الله العزيز».

صار متداولا بين أهل المغرب والأندلس والمشرق، وتبعه القرطبي في ذلك.

وكذلك اشتهر في التفسير كتاب «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»، لأبي القاسم عمر الزمخشري (538 / 1144) من أهل خوارزم، وكان المؤلف ينتمي إلى فرقة المعتزلة، ولهذا اعتبر أهل السنة، ما جاء فيه منحرفا عن الصواب، لأنه استعمل فيه منهج الاعتزال وطريقتهم، في الاعتقاد والتأويل لكنهم من جهة أخرى، أقروا له جميعا برسوخ قدمه في العربية والبلاغة والاعتزال [16].

وقد اهتم أهل تلمسان، كغيرهم من المسلمين بقراءة القرآن وتجويده وتفسيره، لأنه المصدر الأول لتشريعهم.

فمارس الفقهاء والعلماء تفسير القرآن الكريم، لعامة الناس وخاصة القوم والطلبة في المدارس والمساجد، بعاصمة بني زيان، فالنصوص التاريخية لهذه الفترة تشير إلى العدد الهائل من المفسرين التلمسانيين الذين اشتغلوا بعلم القرآن، ويبدو أن أغلبهم كان يعتمد على الأثر في تفسيره، وأنهم قليلوا التدوين، ولذا سأقتصر على ذكر بعض المفسرين الذين سجلت لهم النصوص بعض الأعمال في هذا الميدان، والجدير بالملاحظة هو أن مفسري ذلك الوقت، لم يقتصر اجتهادهم وعملهم على علوم القرآن، بل كانت لهم دراية بالمعلوم الأخرى والإحاطة بها.

أهم آثار المفسرين التلمسانيين:

فقد كان المحدث أبو عبد الله محمد بن مرزوق جد الخطيب، يشتغل بعلوم القرآن، ويحي لياليه، قائما بتلاوته، فكان حسن التلاوة طيب النغمة [17].

وبرز أبو عبد الله الشريف التلمساني في التفسير، حيث مارس هذا العلم أكثر من خمس وعشرين سنة، إذ كان أبو عبد الله يفسر كل يوم ربع حزب من القرآن الكريم، فابدع في ذلك [18].

وألقى كثير من شيوخ تلمسان دروسا في التفسير، إلا أن مصنفاتهم في هذا الميدان، مفقودة ونادرة.

ومن بين المفسرين المشهورين، الشيخ الفقيه، اعلم الناس في وقته بالتفسير احمد بن زاغو (845 هـ/ 1441)، الذي قام بتأليف مقدمة في التفسير وفسر سورة الفاتحة والتذييل عليه في ختم التفسير[19].

وكذلك إجتهد سعيد العقباني (811 هـ / 1408)، في تفسير سورتي الفاتحة والانعام [20]، وفسر محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909 هـ/ 1503) سورة الفاتحة، وألف كتابا آخر في علوم التفسير عنوانه «البدر المنير» [21]، وصنف في نفس العلم الشيخ الإمام محمد بن يوسف السنوسي (ت 895 هـ / 1490 م). وقد اشتهر هذا الامام بالعلوم الظاهرة وانفرد بالعلوم الباطنة، ولاسيما في التوحيد والقراءات والتفسير والحديث، فقام بتفسير القرآن الكريم كله، في مسجده، وكان السلطان الزياني قد طلب منه أن يفسره في مسجده، فاعتذر السنوسي على ذلك، لأنه لا يحب الإحتكاك بالأمراء والسلاطين، وعندما أراد ختمه ووصل إلى سورة الاخلاص، عزم على أن يفسرها في اليوم قبل الأخير، من الختمة، وفي اليوم التالي يقوم بتفسير المعوذتين، وبالتالي يكون قد ختم القرآن كله، ولما علم بحضور الوزير الزياني درس التفسير الأخير، وعجل بختم القرآن قبل الموعد المحدد له، حتى لا يحضر الوزير. ولكن ـ فيما يبدو ـ كان هذا التفسير شفاهيا، بحيث لم يسجل إلا بعضه، وكان السنوسي متأثرا في تفسيره بعلم الكلام، مما جعله مطبوعا بطابع عقائدي[22].

وقد تأثر السنوسي في تفسيره بالزمخشري والتفتازاني [23]، على الرغم من أن الزمخشري كان معتزليا، وهذا يدل على عدم تعصب السنوسي لمذهبه، وأما ما سجله من تفسير ودونه، فالأمر يتعلق بسورة الفاتحة وهو تفسير مطول نسبيا، وقام بتفسير صدر سورة البقرة، وكان ينوي التفرغ للتفسير إلا أن اشتغاله بالعلوم حالت دون تحقيق رغبته [24].

كما قام بتفسير سورة «ص» وباختصار حواشي التفتازاني على كشاف الزمخشري [25]، وشرح كلام ابن البناء (ت 729 هـ/ 1329) في تفسير قوله تعالى: «لا يسخر قوم من قوم... ولا نساء من نساء» [26]، وشرح كتاب ضبط الخراز في الرسم، واختصر كتاب القراءات السبع، وشرح الشاطبية [27]، لكنه لم يكملها، وشرح الأسماء الحسني [28].

وقام المفسر ابن مرزوق الحفيد (ت 842 هـ/ 1438م)، بتفسير عدة سور من القرآن الكريم هي: «الاخلاص» و«المائدة» و«مريم» حتى قيل فيه بأنه فارس التفسير. اقتفى فيه طريقة الاسلاف مثل الزمخشري وابن عطية وأبي حيان [29]، ووضح في القراءات «أرجوزة ألفية في محاذاة حرز الأماني» للشاطبي، فكان نظمه نظما جيدا [30]، وتميز بتدريس إعراب القرآن والشاطبيتين[31].

ووضع العلامة الشريف أبو يحي عبد الرحمن (ت 826 هـ/ 1422)، املاءا بديعا على أول سورة الفتح، فتبثها على قواعد التحقيق، وأدى فيها المعاني الصحيحة [32]، وممن اعتنى برسم القرآن الكريم المؤرخ الحافظ محمد بن عبد الله التنسي (ت 899 / 1493)، حيث ألف فيه كتابا عنوانه «الطراز في شرح الخراز» [33]، وهو شرح لكتاب محمد بن محمد الأموي الشريشي الشهير بالخرّاز، والمسمى «مورد الضمان في رسم أحرف القرآن» [34]، وهي عبارة عن أربعمائة وأربعة وخمسين بيتا، للرسم منها مائة وأربعة وخمسين بيتا في ضبط القرآن، نظمها سنة 703 هـ / 1303 اشتهرت في بلاد المغرب واقتصر الناس على حفظها [35].

وكان الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي، قد اشتهر بتدريس القرآن تجويدا، ونبغ من طلابه في هذا المجال، أبو العباس أحمد بن مرزوق، والد شمس الدين الخطيب [36]، وتميز الشيخ الولي الصالح ابن محمد التازي نزيل وهران (866 هـ / 1461)، بصوت حسن وقراءة جيدة وفصاحة في اللسان والتجويد، حتى فضلوه لإمامة صلاة التراويح بالناس في شهر رمضان لحسن تلاوته وطلاوته وحلاوته.

علم الحديث:

يراد بعلم الحديث، حفظ ما نقل عن الرسول ﷺ، من قول أو فعل أو تقرير، وما نقل عن أصحابه، وقد اهتّم المسلمون بعلم الحديث، اهتماما كبيرا، لما له من أهمية في حياتهم الخاصة والعامة لأنه يعد المصدر الثاني للتشريع، وبه يتضح أحكام القرآن وتفسيره. وفي مرحلة بناء المجتمع الإسلامي وتنظيمه، عرضت للرسول ﷺ مسائل وظواهر، حلها وأجاب عنها، فصارت أحكاما للمسلمين يقسون عليها.

ظل الحديث يروى شفاها، لم يسجل في حياة الرسول، ولذا كان من الصعب على المسلمين جمعه وحصره، لأن عدد الذين سمعوا من الرسول عند وفاته زاد عن مائة ألف، بعضهم لديه أكثر من حديث[37].

إختلف المسلمون حول الحديث بعد وفاة الرسول ﷺ، تحت تأثير الخصومة والمنافسة بين القبائل والفرق والتيارات المختلفة، ووضعت أحاديث نسبت إلى الرسول (ﷺ)، لتدعيم المواقف والآراء، وساعد في ذلك ما أصاب الخلافة الاسلامية، من انحراف وكثرة طلابها، بعد الخلفاء الراشدين، نتيجة التخلي عن مبدأ الشورى في اختيار الحكام والأئمة، وقد وجدت هذه الظاهرة هوى في نفوس بعض الاعلام، فزيفوا الأحاديث، واختلقوها، للتقرب من الحكام، وتبرير سلوكاتهم، بل حتى المشتغلين بالعلم جرفهم هذا التيار، وهو الأمر الذي أفزع بعض العلماء المخلصين، وهالتهم هذه الظاهرة فتصدوا لها [38]. بالعمل على تنقية الحديث، من الشوائب التي علقت به، واستبعاد المدسوس فيه، ووضعوا منهجية لاستخلاص الصحيح منه واكتشاف الموضوع، والتمييز بين الضعيف والحسن والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب، وغير ذلك من الألقاب المتداولة بين المحدثين [39]. فبرز في هذا الميدان : محمد بن اسماعيل البخاري (ت 256 هـ / 869)، الذي رتب الأحاديث على أبوابها في مسنده الصحيح، اعتمد في جمعه طريقة الحجازيين والعراقيين والشاميين [40]، ثم جاء الإمام مسلم بن الحجاج القشيري (ت 261 هـ / 874)، فألف مسنده الصحيح. حذا فيه حذو البخاري وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه، وقد انكب علماء المغرب على دراسة صحيح مسلم وقدموه على كتاب البخاري [41].

وصنف أبو داود السجستاني (ت 275 هـ / 888) وأبو عيسى الترمذي (ت 279 / 892)، وأبو عبد الرحمن النسائي (ت 303 / 915) في السنن بأوسع من الصحيح [42]، وقد ألف الفقهاء في الحديث وهذبوه وأظهروا فوائده ومحاسنه، وأشهر كتاب في هذا المجال هو كتاب أبي عمرو بن الصلاح ت (643 هـ / 1245) [43]، المسمى بعلوم الحديث وتلاه محي الدين النووي (ت 677 هـ 1278) [44].

ويبدو أنه في عهد عبد الرحمن بن خلدون، (ت 808 هـ / 1405)، قد انقطع الاجتهاد في تخريج شيء جديد من الأحاديث، واستدراكها لأن كثرة من اشتغل بهذا العلم من القدماء، وما بذلوه من اجتهاد في جمعه وتنقيحه. لم يتركوا شيئا للمتأخرين النظر فيه، وإنما

اكتفى هؤلاء بتصحيح أمهات الكتب المصنفة وضبطها بالرواية عن مؤلفها بالنظر في أسانيدها [45].

وقد أصبح علم الحديث، من أهم العلوم الدينية بعد علوم القرآن، أطلق على المشتغلين به اسم المحدثين أو الحفاظ، الذين اتصفت حياتهم بالرحلة في طلب الحديث وجمعه، واتسمت ذاكرتهم بقوة الإستيعاب والقدرة على الحفظ والمهارة في نقد الرجال، والتمييز بين الصادق وغير الصادق، وتمكنوا من غربلته وتنقيحه، بعد عملية بحث ودراسة واسعة ودقيقة.

أهم آثار المحدثين التلمسانيين:

وإذا تمعنا النظر في علم الحديث، بمدينة تلمسان، في العهد الزياني، فإننا نجد أن أهل هذه المدينة، كانوا يهتمون اهتماما كبيرا بالسنة كغيرهم من المسلمين، ويتوسعون في دراستها، إلى جانب القرآن الكريم، فكانت تعقد لعلم الحديث، مجالس عديدة بعد صلاة الصبح يحضرها الشيوخ والطلبة وعامة الناس [47].

وكان القراء يحتفلون بختمة قراءة كتب الصحاح، احتفالا كبيرا لم يشهد له مثيل «اجلالا وجمالا» حسب تعبير ابن مرزوق [48]، وكان هذا الأخير يتناوب قراءة كتب الحديث عامة وكتاب الموطأ بصفة خاصة على المشائخ في هذه المجالس، مع بعض الطلاب [49]، ولما يفرغ من قراءة نبوته، يشرع في قراءة دولة من كتاب الحوادث والبدع والمدخل الذي صنفه، الشيخ الفقيه، أبو عبد الله بن الحاج في عدة مجلدات، وهو من أعظم الكتب المصنفة في هذا النوع [50]. وكانت تعقد المناظرات حول الحديث، في المسجد الجامع بتلمسان كل يوم الجمعة [51]، وقد كثر عدد الفقهاء، الذين كانوا يدرسون الحديث، حتى أصبح من الصعب إحصاؤهم، كما أصبحت مؤلفاتهم تقدر بكميات كبيرة، وعلى الرغم من أن بعض شيوخ ذلك العصر، كانوا موسوعيين في مجالات مختلفة في الفقه والحديث والتفسير وغيرها من العلوم النقلية والعقلية، وأن التخصص الدقيق بمعناه الحديث، لم يكن معروفا في ذلك الوقت، بل كان الشيخ والعالم الواحد، يأخذ من كل شيء بطرف، بحيث كان الطبيب فقيها والفقيه طبيبًا، والفيلسوف أديبا، والشاعر فيلسوفا والصوفي عالما في ميدان الحساب والفرائض، وفقيها ومهندسا في نفس الوقت.

فقد كان علماء ذلك العصر، يلمون بعلوم شتى، ويتقنون فنونا مختلفة، مما يثير الدهشة والاعجاب في عصرنا هذا، ولذا نجد العديد من أسماء الفقهاء والعلماء يتكرر ذكرها في الميادين العلمية المتباينة.

فبرز في علم الحديث من أهل تلمسان شيوخ كثيرون، ضربوا فيه بسهم وافر، مثل الفقيه العالم أبي اسحاق ابراهيم التنسي (ت 680 هـ)، الذي تربع على عرش الحديث، وكانت بضاعته فيه وافرة، فجلس على كرسيه في مدينة تلمسان، وكانت له فيه طرق عالية بفاس ومكة المكرمة، ووصفت طريقته في تدريس هذا العلم بأنها أحسن طريقة فصار يضرب بها المثل [52]، وكان أبو اسحاق كثير الدرس قليل التأليف، فقد شرح كتاب تلقين المبتدأ وتذكرة المنتهى للقاضي عبد الوهاب المالكي في الفروع في عشرة أجزاء، فكان من أحسن ماصنفه، وقد ظفر به أحد علماء تلمسان عندما خرج من المدينة اثناء الحصار الطويل [53].

وشرح الحاصل في عدة كراريس وهو مُبيض عند حفيده ابن مرزوق الخطيب، قبل أن تتفرق أوراقه وتتبدد كما يشير حفيده [54]. وبرز في مدينة تلمسان من الفقهاء المحدثين، أبو زيد عبد الرحمن بن عتيق البلولي، الذي كان منافسا في هذا الميدان، وكان قد حصل علوما استفاد منها ودرس علم الحديث وتضلع فيه ورواه، وشد رحاله إلى بغداد من أجل أسانيده وروايته، فتعمق فيه، حتى بلغ درجة الاجتهاد، فكان له كرسي للتدريس بمدينة تلمسان [55].

وكذلك اشتغل الفقيه ابن هدية، بتدريس مادة الحديث [56]. واشتهر العلامة الولي المحدث أبو عبد الله محمد بن علي بن قطرال، وهو من كبار الأئمة المحدثين البارزين في تدريس الحديث وروايته [57].

وأقرأ الفقيه المحدث أبو زكريا يحي بن عصفور علم الحديث، إلى جانب أبي اسحاق التنسي لطلاب تلمسان ومشائخها [58]، وكذلك اعتنى الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي جد الخطيب، بعلمي القرآن والحديث [59].

واهتم خطيب الخطباء، الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب، هو الآخر بالتصنيف في هذا الميدان، فألف تعليقا على «صحيح البخاري» و«الأربعين في الصحاح»، أملاها بعد صلاة الجمعة وقبل صلاة العصر، وشرح كتاب عمدة الاحكام في خمسة أجزاء سماه «تيسير المرام في شرح عمدة الاحكام» في الحديث [60].

أما أبو الفضل محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الحفيد، فقد صنف وأفاد في كل فن من الفنون، فمن مؤلفاته، في علم الحديث، شرح الجامع الصحيح للبخاري المسمى «المتجر الربيح والمسعى الرجيح والمرحب الفسيح والوجه الصحيح والخلق السميح» لم يكمله في أربع مجلدات، قيل عنه لم ير الراؤون مثله [61]، وله « أنوار الدراري في مكررات البخاري» وأرجوزة «الروضة في علم الحديث»، جمع فيها بين ألفيتي العراقي وابن ليون في الف وسبعمائة بيت [62]، وأرجوزة مختصرة سماها «الحديقة» اختصر فيها ألفية العراقي، فكانت لابن مرزوق الحفيد، احاطة بعلم الحديث وفنونه، حفظ رواياته وعرف متونه، ونظم أنواعه [63].

وممن تفوق في علم الحديث، محمد بن عبد الله التنسي، ولهذا دُعي بالحافظ اعتمد على مجموعة من الرواة أغلبهم من المغرب الأوسط، عاش جلهم في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، ، وقد قال المقري في هذا الصدد: (الكامل).

وقد أجدت جامع البخاري ... ومسلم عن حائز الفخار
عمى سعيد وهو عمن يدعي ... بالتنسي قد أفاد الجمعا
عن حافظ الغرب الرضى أبيه ... عن أبن مرزوق عن النبيه [64]

وصنف أبو عبد الله محمد المغيلي، في علم الحديث كتابا سماه «مفتاح النظر». وشرح محمد السنوسي كبير علماء تلمسان، في أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، كتب الحديث شرحا وافيا، نذكر منها «صحيح البخاري» وصل فيه إلى باب « من اسبرأ لدينه» لكنه لم يكمله، كما قام بشرح مشكلات وقعت في آخر البخاري، في كراسين ومختصر الزركشي على صحيح البخاري [65]، ومختصر أبي عبد الله الأبي على صحيح مسلم سماه مكمل إكمال الإكمال في سفرين كبيرين وهو مختصر اكمال الاكمال، زاد فيه السنوسي نكتا غريبة ودررا عجيبة حسب تعبير الملالي [66]، مغنيا عن جميع الشروح، وقد مدحه الشيخ محمد يحي التازي في قصيدة طويلة بمناسبة تأليفه مكمل إكمال الإكمال فقال فيها: (الطويل).

أيا من يريد الفوز من كل نقمة ... ويطمح في أعلى مقام ورفعة

...

وبادر إلى علم الحديث فإنه ... هو الأصل في مشروع كل قضية

...

محمد نجل الشيخ ذي المجد يوسف ... سليل الكرام الصالحين الأئمة [67]

وشرح التسبيح المبارك، وهو شرح مهم لحديث النبي ﷺ «من دبر كل صلاة ثلاثا ثلاثين. . . غفرت له خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» رواه البخاري ومسلم وهو التسبيح الذي حث عليه الشرع [68]. وقام بتفسير حديث «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء»، وله أرجوزتان في علم الحديث [69]، وشرح «الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث» [70].

علم الفقه:

عرّف ابن خلدون الفقه بقوله: «هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والاباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه» [71]، وهو يتناول جميع المسائل التي تواجه الانسان، في حياته الشخصية والدينية والإجتماعية والإقتصادية، ويضع القواعد التي تنظم حياته. فالفقه اذن يبحث في الفرائض الدينية والأحوال الشخصية والمعاملات الاقتصادية والإجتماعية، وفي الجرائم والكبائر والصغائر وعقوبتها، وقد ظل التشريع ينمو مع نمو الدولة الاسلامية، واتساع نطاق العلاقات بين الأفراد والجماعات وظهور مشاكل جديدة، في تلك العلاقات، والمعاملات لم يعهدها المسلمون من قبل [72].

يعد القرآن الكريم المصدر النقلي الأول والأساسي، الذي لايعدل عنه إلى سواه، وتعد السنة النبوية المصدر الثاني للتشريع، وقد أجمع الفقهاء على وجوب العمل بالحديث الصحيح استنادا الى قول الله تعالى: ﴿ وما أتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا ﴾ [73].

ولما واجهت المسلمين مشاكل ومسائل، لم يجدوا فيها نصوصا من القرآن والسنة لجأوا إلى الإجتهاد بالرأي واجماع الصحابة والقياس، وكان الاجتهاد والإجماع، يستندان إلى القرآن والحديث، وإلى العرف والعادة السائدة في المجتمع، التي لا تتعارض مع الكتاب والسنة ومع القيم والأخلاق الاسلامية [74].

وبنشاط التشريع في القرنين الأول والثاني الهجريين، تعددت الإتجاهات الفقهية، وظهر النزاع بين أصحاب الاجتهاد والرأي وأصحاب الحديث، فكان أصحاب يقفون عند ظاهر النصوص من القرآن والسنة، ولا يبحثون في عللها وقلما يجتهدون، والمركز الرئيسي لهذه المدرسة هو الحجاز،

وقد بلغ إهتمامهم بالحديث حتى أخذوا بالضعيف منه وتساهلوا في شروطه، وكرهوا أعمال الرأي والجري وراء الفروض، وعلى رأس هؤلاء الإمام مالك بن أنس (ت 179 هـ/ 796)[75].

وينتمي أصحاب مدرسة الإجتهاد والرأي إلى العراق، وعلى رأسهم أبو حنيفة (ت 150 هـ / 768)، واشترطوا في المجتهد أن يكون واسع العلم والمعرفة واتصف أصحاب هذه المدرسة بصفتين أساسيتين :

1ـ كثرة الفرضيات والتفريعات والجري وراءها[76].

2ـ التقليل من الاعتماد على الحديث، واشترطوا للاعتماد عليه شروطا صعبة قلما توفرت في كثير من الأحاديث، وشككوا في معظم الأسانيد، وجرحوا في نسبة كبيرة من الرواة[77].

ولعل الأسباب التي جعلت أهل الحجاز يتمسكون بالحديث، هي أن بلادهم كانت مهدا للسنة، والعادات والأعراف التي أقرها الإسلام، ولم يتعرض لها بالتغيير والتحوير إلا قليلا، فبقي أهل هذه الديار يذكرون سيرة الرسول ﷺ وأصحابه وماتوارثوه عنهم، من أعراف وتقاليد[78].

أما الأمصار الجديدة المفتوحة فقد وجد فيها المسلمون، حضارات وعادات وتقاليد، وتشريعات ونظما وحياة اجتماعية جديدة عليهم وغير معروفة لديهم، فكانت سببا من الاسباب التي دفعتهم إلى استعمال الفكر والإجتهاد فيما يعرض عليهم من قضايا تحتاج إلى حلول تشريعية[79]، وعندما اشتدت الخصومة والجدال بين مدرسة الحديث ومدرسة الرأي والاجتهاد برزت مدرسة ثالثة، احتلت مكانا وسطا بينهما لا ترفض مبدأ الإجتهاد وأعمال الفكر والقياس، ولا تهمل الحديث أو تقلل من أهميته، وكان على رأس هذه المدرسة الإمام الشافعي (ت 204 هـ/ 819)، فحاول أن يقرب بين المدرستين الحجازية، والعراقية ورفض مبدأ التشدد في الأخذ بالحديث، ورفض أيضا تقديم الرأي والقياس على الحديث، ووقف بذلك موقفا وسطا، وفي ذلك يقول: «إن جهة العلم الكتاب والسنة والإجماع، والآثار ثم القياس عليها»[80].

أما أحمد بن محمد بن حنبل (ت 241 هـ/ 855)، فقد بنى مذهبه في الفقه على الحديث فكان إذا وجد حديثا صحيحا ترك غيره، وإذا وجد فتوى من الصحابة عمل بها، وإذا وجد حديثا مرسلا أو ضعيفا رجحه على الفتاوي[81].

ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الأئمة الأربعة، وهم أشهر أصحاب المذاهب التي وصل عددها في دار الإسلام إلى أكثر من تسعة مذاهب، إلا أن مذاهب أهل السنة الأربعة كانت أشهرها وأوسعها انتشارا، ولما سد الناس باب الخلاف وجمدت القريحة عن الاجتهاد ،اكتفى الفقهاء بتقليد الأئمة الأربعة كما أشار ابن خلدون (82).

فقد قلد أهل الشام وبغداد، أحمد بن حنبل، بينما قلد بقية أهل العراق ومسلمي الهند والصين وما وراء النهر، وبلاد العجم أبا حنيفة وتبع أهل مصر، مذهب الامام الشافعي، وكان مذهبه قد انتشر في العراق وخراسان وماوراء النهر، إلى جانب المذهب الحنفي (83).

أما أهل المغرب والأندلس، فقد اقتصروا على اتباع مذهب مالك بن أنس، لأن رحلتهم كانت تتجه نحو الحجاز أكثر من غيره، وهو منتهى سفرهم في الغالب لأداء فريضة الحج، وزيارة البقاع المقدسة فكانوا أميل إلى مذهب الحجاز مهد السنة، ولما يتصفون به من فطرة وبداوة مثل الحجازيين (84).

وقد ارتحل إلى المدينة المنورة، كثير من الأندلسيين والمغاربة، وتتلمذوا، مباشرة على الإمام مالك بن أنس أو تلاميذه، ورووا عنه كتاب «الموطأ» واشتهر من بينهم يحي بن يحي الليثي (ت 233 / 847) (85)، وعبد الملك بن حبيب (238 / 852) (86) من الأندلس، وقد دون هذا الأخير عدة كتب في الفقه ولاسيما منها «الواضحة» ، ثم العتبي بن بشر بن عبد الرحمن (ت298 / 910)، وهو أحد تلامذته ألف كتاب «العُتبية» (87) ، وروى عنه من افريقية أسد بن الفرات (ت213 هـ / 828)، الذي ألف كتابا سماه «الأسدية» والإمام سحنون (ت 240 / 854) صاحب «المدونة»، التي أخذ عنها أهل افريقية، ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة في كتاب سماه «المختصر» ولخّصه أبو سعيد البراذعي من فقهاء القيروان في كتابه « التهذيب» (88).

ولم يزل علماء المذهب المالكي في المغرب، يتعاهدون هذه الكتب بالشرح والإيضاح والجمع والاختصار، فكتب أهل المغرب على المدونة، ماشاء الله أن يكتبوا، وجعلوها محور لأبحاثهم، حيث تفننوا في شرحها حتى قيل عنها «المدونة من العلم أم القرآن من القرآن» وتمسكوا بهذه المؤلفات إلى أن وصل كتاب أبي عمرو بن الحاجب، الذي لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب، وعدد أقوالهم في كل مسألة، مزج فيه بين طريقتي أهل مصر و أهل المغرب (89) ، فعكف عليه طلاب المغرب عامة وطلاب بجاية على وجه الخصوص، لأن شيخهم أبا علي ناصر الدين

المشذالي الزواوي هو الذي جلبه إلى بجاية، ومنها الى تلمسان وفاس بالمغربين الأوسط والأقصى، وكان الشيخ على ناصر الدين يحث طلابه على قراءة هذا الكتاب ومداولته (90).

وقام كثير من فقهاء تلمسان باختصاره وشرحه والتعليق عليه، إلى جانب المدونة وكتاب التهذيب والموطأ، وكتاب ابن يونس ونوادر أبي زيد ومختصر خليل، وغيرهم من كتب الفقه والعلوم الدينية، التي امتلأت بها الخزائن العامة والخاصة، بمدينة تلمسان في العهد الزياني (91).

وسنتعرف من خلال كتب التراجم والطبقات، على المدرسة الفقهية التلمسانية، التي كانت لها أسلوب خاص في تحليل المدونة، على طريقة المناقشات اللفظية وضبط الروايات وتصحيحها.

أهم آثار الفقهاء التلمسانيين:

أكثر فقهاء تلمسان وعلماؤها، كغيرهم من فقهاء المغرب والأندلس والمشرق من التأليف في المجال الديني عموما، والفقهي على وجه الخصوص، وصنفوا عددا هائلا من الكتب كانت مصادر ومراجع يعتمد عليها الطلاب والدارسون في أبحاثهم، ويستند إليها الفقهاء في فتاويهم، والقضاة في أحكامهم.

فقد صنف أبو زيد عبد الرحمن بن الإمام (ت 743 هـ / 1343) كتابا ضمنه شرحا وافيا لمختصر أبي الحاجب في الفروع (92).

وألف أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمرو التميمي (ت 745 / 1345)، الذي شغل منصب القضاء في تلمسان، مصنفا ترتيب كتاب اللخمي على المدونة في الفروع، وشرح أبو البركات بن أبي يحي الملالي التلمساني «مختصر خليل»، واعتنى بـ «الشرح الكبير» لبهرام وتصحيحه (93).

وحرر أحمد بن أبي حجلة التلمساني (ت 776/ 1374)، ما يزيد عن ثمانين كتابا في الحديث والفقه والأدب (94)، وكتب الإمام الشيخ القاضي سعيد بن محمد العقباني (811 هـ / 1408)، عدة مؤلفات في العلوم النقلية، أهمها «شرح البردة» و«شرح مختصر ابن الحاجب الأصلي» (95).

وصنف علي بن ثابت بن سعيد بن علي التلمساني (ت 829 هـ / 1425) أكثر من ثمانية وعشرين كتابا، أكثرها في الفقه والحديث والتاريخ والطب منها ثلاثة شروح على البردة الكبير والوسيط والصغير، وشرح عقيدة الضرير (96).

وألف أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب، ما يزيد عن ستة وعشرين مصنفا، في علوم الدين عامة والفقه على وجه الخصوص منها: « شرح كتاب المختصر لابن الحاجب» في الفروع سماه «إزالة الحاجب لفروع ابن الحاجب».

وشرح الشفا المسمى ببرج الخفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض (544/ 1149) و«شرح لكتاب عمدة الأحكام» المسمى «تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام»، تأليف تقي الدين الجمائلي (ت 600/ 1202) جعله في خمسة أجزاء، جمع فيه بين ابن دقيق العيد والفكهاني مع زوائد، و«البدر في ليلة القدر» (97).

«وجنى الجنتين في فضل الليلتين» أي ليلة القدر وليلة المولد النبوي الشريف، و«خطب دينية» مرتبة على حروف العجم، وخطب أخرى كثيرة من غير التزام العجم و «قصائد في مدح الرسول ﷺ»، و «قصائد في التوسل» و«فهارس مطولة ومختصرة» و «العجالة»، ونظم ابن مرزوق الخطيب، العديد من القصائد الشعرية، تتضمن الواحدة منها ما بين ثمانين ومائة وثلاثين بيتا ولاسيما منها القصائد التي تتعلق بالمولديات والحجازيات (98).

وصنف ابن مرزوق الحفيد، أكثر من ثلاثين مؤلفا في شتى العلوم والفنون أكثرها في الفقه أهمها: « روضة الأريب في شرح التهذيب» و« المنزع النبيل في شرح مختصر خليل» قام بشرحه من أوله إلى الصلاة ومن الأقضية إلى الختم في سفرين، و«اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة» وهو كتاب يتضمن أجوبة على مسائل، في الفقه والحديث وغيرهما، أجاب فيها ابن مرزوق الحفيد، عيل أسئلة أبي يحي عقيبة، و « الروض البهيج في مسائل الخليج»، و«مسائل فقهية» وله «شرح في الأصلين» و«إظهار صدق المودة في شرح البردة» ، و«شرح الطهارة في مجلدين»، و«شرح فرعي ابن الحاجب»، وفتاوي كثيرة في فنون متنوعة، انتشرت شرقا وغربا ذكر بعضها المازوني، وصاحب المعيار، وله أيضا «عقيدة التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد»، وعلى أسلوبه بنى الإمام السنوسي صغراه (99).

وألف الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909 / 1503) عدة مصنفات في الفقه منها: «مصباح الأرواح في أصول الفلاح» في كراسين، أخذ منه السنوسي وابن غازي ، و«مغني النبيل في شرح مختصر خليل» اختصره اختصارا شديدا، وصل فيه إلى القسم الخاص بالزوجات، والمواضيع المتعلقة بالبيوع وغيرها، بل قيل ان المغيلي استطاع شرح ثلاثة أرباعه، «وحاشية

لإكليل مغني النبيل» لم يكمله، و«شرح بيوع الآجال من ابن الحاجب»، و«تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين»، و«شرح المختصر» وعدة قصائد على وزن البردة في مدح الرسول ﷺ (100). وكان الفقيه محمد الفتوح التلمساني المتوفي سنة (818 هـ / 1415)، قد أدخل مختصر خليل بن اسحاق المالكي إلى مدينة فاس (101).

وكتب محمد بن يوسف السنوسي (ت 895 / 1489) عدة مؤلفات في العلوم الدينية، واستطاع أن يقدم انتاجا هائلا في معارف شتى، نال إعجاب العلماء واكتسب شهرة علمية كبيرة، لما تميز من ابداع وعلم غزير، لم يبلغها إلا البعض في عصر، بدأ فيه الإنحطاط السياسي والثقافي يخيم على مدينة تلمسان، وعلى غيرها من حواضر المغرب الإسلامي، سيطرت فيه ظاهرة الشرح على الابداع، وقد زاده منهجه في التأليف قيمة علمية، بحيث كان يركز الأفكار الرئيسية في المختصرات، ثم يتبعها بشروح مستفيضة (102)، ومن مؤلفاته «العقيدة الكبرى» في عشرة أوراق، وسماها «عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات الجهل وربقة التقليد المرغمة أنف كل مبتديء عنيد»، تعرض السنوسي فيها لأهم عقائد الأشعرية ثم قام بشرحها في كتاب سماه «عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد» (103)، و«العقيدة الوسطى»، وهي دون الكبرى وشرحا في مختصر لها صنفها سنة 875 هـ / 1470 م في ثلاثة عشر كراسا، و«العقيدة الصغرى وسماها أيضا «أم البراهين» وقام السنوسي بشرحها أيضا بشيء من التوضيح، والتفصيل في ستة كراريس و «كتاب المقدمات» وقد بيّن في شرحه لعلم التوحيد عقيدته الصغرى، في خمسة كراريس، ووضع رسالة صغيرة سماها «صغرى الصغرى»، وهي عبارة عن اختصار الصغرى، قدّم فيه فوائد عديدة، ونكت غريبة، لا توجد في غيرها من مؤلفاته في أربعة كراريس (104)، وشرح لأسماء الله الحسنى في عشرين ورقة، وقصيدة شعرية عنوانها «الدهرية» نقد فيها مذاهب الدهرية، و«شرح المرشدة» لابن تومرت (524 / 1129)، وهي رسالة وجيزة لا تتعدى الصفحتين، والهدف من إيجازها هو تمكين العامة من فهمها وحفظها عن ظهر قلب (105)، وشرح «عقيدة الحوض» وهي عبارة عن أرجوزة شعرية اسمها «واسطة السلوك» في خمسة كراريس (106)، وشرح «الوغليسية» في الفقه، شرح منها جزءا صغيرا دون أن يكملها، و « شرح المدونة» و«تعليق على فرعي ابن الحاجب»، فضلا عن الفتاوي والوصايا، والرسائل والمواعظ (107).

ومن تآليف أحمد بن يحي الونشريسي (ت 914 هـ / 1508) في الفقه كتابه الضخم، الذي سماه «المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والاندلس والمغرب» في عدة مجلدات، وله «تعليق على ابن الحاجب الفرعي» في ثلاثة اسفار، و «غنية المعاصر» و«التالي في شرح وثائق الفشتالي»، و«الوثائق المسمى بالفائق في أحكام الوثائق»، وصنف كتاب «القواعد» في الفقه و«الفروق في مسائل فقهية»، وكان مشاركا في فنون العلم إلا أنه لما لازم تدريس الفقه قيل عنه لا يعرف غيره، وكان فصيح اللسان والقلم.

وكتب أحمد بن زاغو في الفقه «أقضية مختصر خليل» [108]، و«ابن الحاجب الفرعي» وبعض الأصلي [109]، ونظم أحمد بن الحاج البيدري (ت 930 / 1523) عقائد السنوسي في قصائد شعرية رائعة وشرح البردة وغيرها [110]، وألف محمد ابن ابراهيم الملالي التلمساني، تلميذ محمد السنوسي «الموهبة القدسية في المناقب السنوسية»، سجل فيها حياة وأعمال أستاذه العلمية بتفاصيلها وجزئياتها في نحو ستة عشر كراسا، ثم اختصره في نحو ثلاثة كراريس [111]، وقام بشرح العقيدة الصغرى [112].

ووضع بركات الباروني الجزائري المكنى بأبي الخير، شرحا لفرعي ابن الحاجب، في سبعة أسفار، وكان يأخذ الأجرة على الفتاوي التي كان يقدمها للناس، أثناء إقامته بمدينة تلمسان في عهد ابي حمو موسى الثاني [113].

هذه أهم الآثار العلمية، التي تركها علماء تلمسان وفقهاؤها وأن كثرتها تدل دلالة واضحة، على محاولتهم الجادة، في نشر مختلف العلوم الدينية وتطويرها في تلمسان وبلاد المغرب الاسلامي، وانهم يتميزون بعمق التفكير وسعة التحصيل وغزارة العلم، في عصر ساده الاضطراب السياسي والاجتماعي، ويبدو أن أغلب هذه الآثار توجد بعضها في حكم مفقود والبعض الآخر في رفوف خزائن المخطوطات، في بلاد المشرق والمغرب وبأوروبا، تحتاج إلى من يبحث عنها ويظهرها للقراء.

العلوم اللسانية :

أ ـ اللغة العربية: تعتبر اللغة العربية من أغنى اللغات السامية وأرقاها، لأنها تتميز بكثرة المفردات، وتتصف بالمرونة، والقدرة على صياغة المشتقات من ألفاظها، مع سهولة التعبير الدقيق في إطار من الجزالة، وسمو البلاغة وسحر البيان، وبفضل غنى اللغة العربية وقوتها وقدرتها على الإشتقاق والبحث واللفظ المعبر، استطاعت أن تكون أداة للتعبير عن حضارة سادت خلال العصور الوسطى [114].

فقد نحا علماء اللغة علماء الحديث، فكانوا يذكرون السند ويرتبون الأفصح بالفصيح، فاهتموا بها منذ وقت مبكر، وأخذوا يجمعون المفردات، التي كان العرب يستعملونها واعتبروا القرآن الكريم، المصدر الأول لجمع المفردات بحكم أنه يمثل قمة البلاغة والبيان [115].

وقد حظيت الدراسات اللغوية من قبل علماء تلمسان وأدبائه،ا واهتموا بالبلاغة لارتباطها الوثيق بعلوم القرآن والحديث، خاصة وبالعلوم الدينية على وجه العموم، لأن الدارس لا يستطيع أن يصل إلى أسرار القرآن ومعانيه وتفسيره دون الإلمام بزمام اللغة والبيان، ولذا عرفت الحركة اللغوية نشاطا لا يقل عن النشاط الذي عرفته العلوم الدينية، وقد ازدادت فعاليتها في العهد الزياني، الذي تميز بنمو الحركة وازدهارها والابتعاد عن الإزدواج اللغوي، الذي شجعه الموحدون لنشر دعوتهم باستعمال اللسان البربري إلى جانب اللغة العربية [116].

فكانت المجالس اللغوية تعقد لدراسة النحو والعروض والبيان وتقام من أجل ذلك، المناظرات بين الأدباء وعلماء اللغة والنحاة، للتأكد من سلامة اللسان وصفائه وخلوه من التلحين والتصحيف [117].

ومن أهم العوامل، التي كان لها فضل على تقدم اللغة العربية، هي تلك الحركة الدؤوبة التي عرفتها العلوم اللسانية وفروعها، وقد مر بنا عند حديثنا عن العلوم الدينية، أن هذه الحركة كانت هامة، وعرفت نشاطا ملحوظا، وأن الأبحاث والمصنفات، العديدة التي ظهرت خلال هذا العهد، تدور جلها حول علوم الدين، ولاسيما منها الفقه والحديث والتفسير، والمذهب وأصوله وفروعه، فقد كان الفقهاء يختصرون ويفسرون ويعلقون وينظمون الأراجيز ويجمعون ويبسطون المؤلفات، ويشرحون الكتب الصعبة ويحللونها وينتقدونها ويكملونها بالتذييل عليها،

فكانت هذه الحركة العلمية والثقافية عاملا أساسيا في تطوير اللغة العربية بمدينة تلمسان، وأن الجهود المبذولة ـ فيما يبدو ـ كانت أغلبها منصبة على الناحية الشكلية وهي اللغة العربية، فالشروح والتحقيقات والتقليدات والمختصرات والحواشي كانت تقتضي، من المؤلف أن ينظر في الكلمة وتحديد مفهومها ومعرفة التغييرات التي تطرأ عليها، وتحديد الصحيح من الفاسد والوقوف على أوجه الاختلاف، التي كانت تفرق بين المدارس النحوية واللغوية، وكان جل الفقهاء، والأدباء يدرسون مواد النحو والصرف والبيان لتمكنهم منها ولاعتنائهم باللغة اعتناءا كبيرا [118].
وجريا على الطريقة التي اتبعناها في هذا البحث، سنتعرض إلى أهم المصنفات التي ألفها بعض الفقهاء والعلماء واللغويين والأدباء التلمسانيين، الذين عاشوا خلال العهد الزياني.

أهم المصنفات اللغوية والأدبية :

فقد كان ابن مرزوق الحفيد، يدرس لطلابه جملة من الكتب تتعلق بالنحو والصرف، مثل كتاب سبويه، وألفية ابن مالك، والمغني لابن هشام، وألف شروحه الثلاثة على البردة، الأكبر المسمى « إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة» واستوفاها حقها من الشرح، ضمنه سبعة فنون في كل بيت، والأوسط والأصغر المسمى «بالإستيعاب» حسب صاحب البستان[119]، تطرق إلى مافيها من البيان والاعراب، وكذلك من مؤلفاته «المفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطيسية» والمفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخزرجية، في العروض والقوافي، وله «المعراج في استمطار فوائد الأستاذ ابن السراج» في كراسين ونصف الكراس، أجاب فيه الامام ابن السراج الغرناطي على مسائل نحوية ومنطقية، وأرجوزة نظم «تلخيص المفتاح» وارجوزة في اختصار ألفية ابن مالك، و «إيضاح المسالك على ألفية ابن مالك»، انتهى فيه إلى إسم الإشارة أو الموصول في مجلد وصنف مجلدا آخر، شرح فيه شواهد شراحها وصل فيه إلى باب «كان وأخواتها» [120].

واهتم الشيخ ابو عبد الله محمد الشريف (ت 847 / 1443) إمام جامع الخراطين بتلمسان، بتدريس تلخيص المفتاح لطلابه وبعض «ألفيته» و«التسهيل» لابن مالك في النحو، وجمل الزجاجي وتنقيح القرافي، وصنف مختصرا في شرح التسهيل [121]، تقييدا سماه «الثاقب في لغة ابن الحاجب» [122]. وكتب محمد بن العباس التلمساني (ت 821 هـ / 1461)، كتابا في الصرف سماه «شرح لامية الأفعال» [123]، وظهر على رأس أعلام هذه العلوم التي كانت شائعة في العهد

الزياني، الشيخ الفقيه محمد ابن قاسم بن تومرت التلمساني، الذي كان متضلعا في علم الحساب والفرائض والهندسة، والأوقاف والخط والنحو [124].

كما ظهر لغويون، وحفاظ بمدينة تلمسان في هذا العهد، اشتهروا بالحفظ في مجال النحو، وقد ازداد هذا العلم حتى في مدن ثانوية من المغرب الأوسط، فبرز محمد بن عبد الكريم المغيلي، في تدريس العربية، وصنف عدة مؤلفات في مختلف العلوم النقلية والعقلية، منها «مختصر تلخيص المفتاح» ومقدمة في العربية، وعدة قصائد شعرية [125]، وظهر من النحاة محمد بن محمد ابن العباس التلمساني (ت 920 هـ / 1514) الفقيه النحوي العالم، صنف مجموعا فيه فوائد ومرويات وأبحاث في النحو [126]. ومنهم محمد بن شقرون (ت 983 هـ / 1575)، الذي كانت له مشاركة جادة في البيان والمنطق والتفسير والعروض [127] وتميز الشيخ بن عياد الكبير الراشدي (ت 964 هـ / 1518)، بالتعمق في دراسة ألفية ابن مالك والعروض والبيان، وكان شاعرا ماهرا في الشعر وعلم الحديث والحساب والفرائض، وكان عالما نحويا أصوليا منطقيا متصوفا [128]، ومنهم الشيخ أحمد بن محمد بن محمد المعروف بابن الحاج، الذي تميز بمهاترته في المنطق والمعاني والبيان والعربية والحساب، وكان شاعرا ماهرا في عروض الشعر [129]، وكان أحمد الونشريسي فصيح اللسان والقلم، حتى قال عنه أحد طلابه «لو حضر سبويه لأخذ النحو من فيه» [130]، وكان ابراهيم بن أبي بكر التلمساني (ت 690 هـ / 1291)، أديبا شاعرا محسنا ماهرا، في كل ما يحاول وله مقالات في العروض [131]. وكان طلاب العلم ينتقلون بين المجالس العلمية التي يترأسها كبار العلماء، فهذا الشيخ نصر الزواوي الذي كان يسميه ابن مرزوق الحفيد بابراهيم المصمودي، كان يحضر مجلس الشيخ قاسم العقباني، ثم ينتقل الى مجلس محمد بن مرزوق الحفيد، ثم ينزل إلى باب زيري، حيث يوجد مجلس الشيخ الحسن بن مخلوف الشهير بابركان، فيدرس عليه جملة من العلوم، كان يتقن تدريسها كعلم الفرائض والحساب وعلم الفقه، ويقرأ عليه ألفية ابن مالك قراءة حسنة، يقتصر في النظر على شرح المكودي [132].

وبرز في مجال قراءة العربية الشيخ الفقيه عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني (ت 792 هـ / 1389)، الذي تتلمذ في دراسته للقرآن واللغة، على الأستاذ النحوي أبي عبد الله زيد الفاسي، الذي اختص بتدريس ابناء الشرفاء لما يتوفر عليه من علم غزير في مجال النحو والقراءة.

درس عليه كتاب «جمل الزجاجي» وألفية ابن مالك، ثم درس على الفقيه النحوي الشيخ أبي عبد الله بن حياتي الغرناطي، الجمل للزجاجي، ومعرب ابن عصفور، وكتاب سبويه، والتسهيل لابن مالك، كما درس علم البيان والإيضاح والتلخيص، ودرس اللغة العربية مدة طويلة حتى صار قطبا من اقطابها وعلما من أعلامها بمدينة تلمسان [133].

وألف محمد السنوسي «الدر المنظوم في شرح قواعد ابن آجروم» وهو شرح للاجرومية، رآه الملالي مكملا بخط استاذه السنوسي [134]، ويتضح مما سبق أن الطلاب، كانوا لايكتفون بالدراسة على استاذ واحد، بل كانوا يتنقلون بين الاساتذة لدراسة علم واحد أو كتاب واحد.

ب ـ الأدب:

1 ـ النثر: عرف ابن البناء العددي (ت 721 هـ / 1321)، الأدب بنوعيه الشعري والنثري بقوله: « وينقسم القول، إلى موزون مقفى وهو المنظوم، وإلى القول غير الموزون، وهو المنثور، ويستعمل كل واحد منهما في المخاطبات» [135]، ويتفق معه ابن خلدون، في تعريفه للأدب بقوله: « أعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنّين، في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى، ومعناه، الذي تكون أوزانه كلها على رويّ واحد وهو القافية، وفي النثر وهو الكلام غير الموزون، وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام» [136].

فقد أكد كل من ابن البناء، وابن خلدون، وحدة مفهوم الأدب ونوعيه عندهما، إذ أن الشعر في نظرهما هو القول الموزون، وما تبقى فهو النثر، ويبدو أن هذا الأخير لم ينل قدرا كبيرا من الاهتمام [137]، وأن تعريفهم له، لم يكن وافيا وكافيا، بل كان سطحيا بسيطا، لم يتخذ في تعريفه الأسس العلمية والنفسية [138]، كتعريف أدباء الغرب للأدب. بحيث لم يخرج تعريف القدماء للنثر عن التقسيم والتصنيف، فقسموا النثر إلى أشكال أدبية، وفي هذا الصدد يقول ابن جعفر ابو الفرج قدامة البغدادي: « وليس يخلوا المنثور من أن يكون، خطابة أو ترسلا أو احتجاجا أو حديثا، ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه» [139]، ويقسم ابن خلدون النثر وصورة التعبير، إلى نثر مرسل مسجع بقوله: « وأما النثر فمنه السجع، الذي يؤتى به قطعا، ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعا، ومنه المرسل، وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقا

ولا يقطع اجزاء، بل يرسل ارسالا، من غير تعبير بقافية ولا غيرها، ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم» [140]، ويقصد ابن خلدون بذلك فن الخطابة والرسائل. ويكاد النثر في مدينة تلمسان في العهد الزياني، ينحصر في الرسائل، وعدد الكتب التاريخية والأدبية، لاندثار معظم الأغراض النثرية الأخرى، وضياعها ولاسيما منها المقامات والخطب وغيرها، والتي ضاعت - فيما يبدو - بضياع المصادر [141].

ويتضح من خلال الرسائل المتداولة، أن أدباء تلمسان كانوا يمتازون بالنثر الأدبي النشيط، نتيجة تشجيع السلاطين والأمراء لرجال هذا الفن. فشاع اسلوب السجع والمحسنات البديعية، إلى حد المبالغة في المراسلات والمكاتبات والخطب، وتألق الأدباء في فن التعبير، واتسم اسلوبهم بالقوة والجزالة واللغة السليمة. وقد استعمل الأدباء والكتاب لفظ «رسالة» [142]، كما استعملوا مصطلح «كتاب» مطابقا للرسالة في مكتباتهم الرسمية والخاصة [143]، منذ عهد مبكر وهي تلك التي يحررها الكاتب في نسق فني جميل، في غرض من الأغراض، ويوجهها إلى شخص آخر، وقد بلغ هذا الفن بمدينة تلمسان، في العهد الزياني درجة كبيرة، ومنزلة هامة، بحيث برزت فيه مجموعة من الكتاب من أهل تلمسان، داع صيتهم في أقطار المغرب والمشرق، نذكر منهم: أبا بكر بن خطاب الأندلسي (ت 688 هـ / 1289)، الذي ترك أثرا كبيرا في فن الكتابة بمدينة تلمسان في عهد يغمراسن [144]، نبغ أبو بكر في الترسل والكتابة الفنية وبها اشتهر أكثر من اشتهاره بالشعر، فاق بها معاصريه في المغرب والأندلس، وقد شغل ديوان الرسائل بغرناطة، ثم انتقل إلى مدينة تلمسان، فجعله يغمراسن صاحب القلم الأعلى في بلاطه، أنشأ رسائل عديدة، كانت نموذجا يحتذى بها، وقد وصف ابن خلدون رسائله وأثرها في بلاد المغرب قائلا: «إنه كان مترسلا، بليغا كاتبا مجيدا فاستكتبه، وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين، بمراكش وتونس في عهد بيعاتهم ما تنوقل وحفظ» [145]. ويعني ذلك أن رسائله صارت تراثا أدبيا يدرس ويحفظ.

إلا أن أغلب رسائله ضاعت، ولم يبق منها إلا تلك التي جمعها أديب مجهول الإسم، في مصنف سماه «فصل الخطاب في نثر أبي بكر بن خطاب» [146]، ومنهم أيضا محمد بن خميس الكاتب والشاعر المميز، تتلمذ على ابن خطاب وكان رواية له، ولايستبعد أن يكون قد تأثر بأسلوبه في فن الكتابة.

فقد تقلد نفس وظيفة أستاذه في عهد أبي سعيد عثمان بن يغمراسن، وممن اشتهر منهم في هذا الجانب ابنا الإمام، وابن مرزوق الخطيب، والمقري الجد والشريف التلمساني والآبلي، ومحمد بن هدية القرشي، وابو عبد الله بن الرقام الهسكوري منشيء الرسائل في عهد أبي حمو الأول، وابنه أبي تاشفين الأول [147]، ويحي بن خلدون ومحمد بن يوسف الثغري، في عهد ابي حمو موسى الثاني [148]. وعلي بن مسعود الخزاعي الملقب بذي الوزارتين [149]، وابو عبد الله بن مدورة [150]، ومحمد بن علي العصامي [151]، ومحمد بن صالح بن شقرون [152] وابو القاسم بن ميمون السنوسي [153]، وابو الحسن علي بن العطار [154]، وغيرهم من الذين تقلدوا وظائف حكومية مختلفة في البلاطين الزياني والمريني [155].

وتنقسم الرسائل الفنية الى عدة أنواع هي: الرسائل الديوانية أو الرسمية، والرسائل الأدبية أو الإخوانية والرسائل أو القصائد النبوية.

أ ـ الرسائل الديوانية: يتضمن ديوان سلطان بني زيان بتلمسان، عددا من الخطط والكتاب منها كاتب الأشغال، وكاتب سر السلطان وصاحب العلامة [156]، والرسائل الديوانية في حد ذاتها، تختص بمصالح الأمة وقوام الرعية حسب تعبير القلقشندي [157]، أي أنها تختص بشؤون الدولة، وتمتاز بالوضوح والجمال الفني، وتتقيد بشروط حدد عددها بعض الوثائق بخمسة وعشرين شرطا، منها على سبيل المثال: حفظ القرآن والإطلاع الواسع على السنة والأخبار والتواريخ والسير، وحفظ الكثير من الرسائل والمهارة في نظم الشعر والقدرة على الخطابة [158]، والإلمام بالعلوم اللسانية والبلاغة [159]، وهي الصفات التي ذكرها ابو حمو موسى الثاني في كتابه «واسطة السلوك»، التي يجب أن تتوفر في كاتب السر وفي هذا الصدد يقول: «فصيح اللسان جريء الجنان بليغ البيان عارفا بالآداب، بارع الخط عالما بالحل والربط» [160]، لأن الكاتب في رأيه هو عنوان المملكة «ومن كتابك يستدل على عقلك» [161].

ومن الغريب أن تضيع معظم الرسائل الديوانية الزيانية، ولم يصل إلينا إلا القليل منها إذا قيست بالفترة الزمنية التي عاشتها الدولة الزيانية، وربما يعود سبب ضياعها في إهمال المؤرخين والأدباء لها وعدم الاهتمام بها وتسجيلها، أو أنها ضاعت في خضم المعارك والحصارات المتكررة لعاصمة بني زيان من قبل بني مرين وبني حفص [162]، والاسبان ثم الاتراك فضلا عن الحروب الأهلية من أجل السلطة، وأن ما تبقى منها في عمومها، تتضمن مواضيع سياسية ومعاهدات

تجارية تبادلها أصحاب تلمسان، مع بعض الممالك المسيحية أهمها مملكة أراغون، وكذلك كانت لهم مراسلات مع مملكة بني نصر بغرناطة، والتي كانت تربطها ببني زيان روابط أخوة ومودة قويتين[163]، ثم أن تلك الرسائل الموجهة الى غرناطة - فيما يبدو - أخذت طريقها هي الأخرى الى الضياع والاتلاف، وقد تتضح مضامينها ومواضيعها من خلال أجوبة ملوك غرناطة وكتابها عليها [164]، وبنفس الاندهاش والتعجب يمكن القول عن مراسلات بني زيان مع ملوك بلاد المشرق والمغرب [165]على الرغم من البعثات الديبلوماسية الكثيرة التي كانت تتوجه من تلمسان الى هذه الأقطار، فالرسائل الحفصية والمرينية ظلت محفوظة في المصادر والارشيفات، بينما لم يحفظ من الرسائل الديوانية الزيانية إلا القليل النادر وهو لغز محير للغاية.

نماذج من الرسائل الديوانية:

إن أغلب الرسائل الرسمية أو الديوانية، التي تتوفر لدينا أغلبها تبين نوعية العلاقة السياسية والتجارية القائمة، بين دولة بني زيان وغيرها من الامارات الأروبية وبني نصر في غرناطة، وبلاد المشرق، وتطرح قضايا كانت قائمة تتعلق بحرية التجارة وتأمين سبيلها، وأحوال الأسرى وتوضح مراحل السلم والهدنة، خاصة التي ابرمت بين أصحاب تلمسان ومملكة أراغون الإسبانية، وتلك المتبادلة مع مملكة غرناطة تتعلق بالقضايا الثنائية وبالمصير المشترك، ومن بين هذه الرسائل تلك التي أرسلها السلطان، أبو تاشفين الاول الى سلطان أراغون «جاكمة الثاني» تحتوي على مشروع اتفاق هدنة بين البلدين جاء فيها:

«سلام على من اتبع الهدى ورحمة الله وبركاته، وبعد: حمد الله العظيم والصلاة على سيدنا ومولانا رسوله المصطفى الكريم والرضا عن أصحابه الخلفاء التابعين له، عليه السلام على المنهج القويم والصراط المستقيم، والدعاء لهذا المقام العلي التاشفيني السني بالنصر العزيز، والفتح العميم فالكتاب إليكم، كتب الله لكم أصحاب الأعمال وأزكاها وبلغكم من التوفيق انهى الأماني واقضاها، من حضرتنا بمدينة تلمسان حرسها الله تعالى على الخير التام، والسير العام والحمد لله كما هو أهله وعن الوعي بجانبكم والاغتباط بمصاحبتكم، والعمل على ما يؤكد أسباب مواصلتكم، وبمقتضى وجهنا إليكم ولدكم الزعيم الأنجد الانهض الأجد المكرم لدينا الأثير عندنا جاكمة، مع ثقتنا الشيخ المكرم الأمين الحاج ابي يعقوب يوسف بن الحواء، يرسم عقد الصلح

بيننا وبينكم على حسب ما في العقود الواصلة صحبتنا إليكم، والقينا اليها ما يلقيانه من معاني ذلك كله إليكم، ويقررانه على الكمال واتمام لديكم ان شاء الله تعالى والسلام على من اتبع الهدى، وكتب في سابع عشر رجب الفرد المبارك عام سبعة وعشرين وسبعمائة» [166].

وهناك رسائل أخرى عديدة، تتضمن مسائل وقضايا سياسية وتجارية، كالتي وجهها مثلا الوزير هلال القطلاني الى جاكمة الثاني باسم السلطان ابي تاشفين الأول، تتعلق بتحرير الأسرى المسيحيين الموجودين في سجون تلمسان، والذين يعدون بالآلاف حيث أصبحوا في عداد العبيد[167]، وهي قضية كانت تطرح بإلحاح خاصة من الجانب المسيحي، فرد عليهم ابو تاشفين رافضا طلبهم في رسالته الجوابية الى صاحب أراغون، جاء فيها: «وأما ما أشرتم إليه من تسريح من عندنا من الأسرى، فذلك لايمكن أن يكون. . . لأن ماعمر بلادنا إلا الأسرى وأكثرهم صناع متفننون في أنواع جميع الصناعة، ولو طلبتم ما يستغني عنه الحال في تسريح خمسة أو ستة لايسعنا مطلبكم وقضينا أربكم، وأما تسريح الجميع فصعب لأن ذلك يخلي المواضع، ويعطل ما يحتاج إليه من أنواع الصنائع، فإن أردتم أن تكون الصداقة بيننا وبينكم، فيما عدا الأسرى ويكون حالنا وحالكم. . » [168].

أما الرسائل الرسمية التي تحمل في طياتها مراسيم وظهائر وأوامر وتوجيهات ووصايا إدارية مختلفة، التي كان السلطان الزياني يوجهها من تلمسان إلى الولاة والعمال وحكام الأقاليم فلم يبق منها إلا القليل النادر، كالرسالة التي وجهها أبو حمو موسى الثاني الى عبد الرحمن بن خلدون وهو بمدينة بسكرة، عند حكامها من بني مزني يطلب منه جمع القبائل العربية، لاسيما منها قبائل رياح ليستعين بها في هجومه على مدينة بجاية.

وكذلك الظهير الذي كتبه الكاتب أبو بكر بن خطاب، على لسان مخدومه يغمراسن والمتعلق بمنح الاندلسيين المهاجرين الحق في السكن والتملك للأراضي الزراعية [169].

وهناك رسائل أخرى سياسية ذات طابع ديني، تتعلق بالولاء والمبايعة لأن البيعة موضوع سياسي معتمد على الدين، وقد ترك لنا الكاتب ابن خطاب رسالتين أنشأهما باسم يغمراسن لنظيره السلطان علي بن اسحاق الحفصي بتونس، يدور موضوعها حول ولاء بني زيان لبني حفص وهذه بعض الفقرات منها:

«المستند الى ظل حرمتها (الخلافة) الموالي شكر جزيل احسانها وعظيم منتها. . . سالك من العبودية لها سننا واضحا موال في خدمتها، ونصيحتها عملا يعتقد، صالحا رابحا شاكرا لاحسانها، الذي لم يزل غاديا عليه رابح، لا يزال يدب على ذلكم ليله ونهاره، وينظر إلى ما يوافق رضاها فيتتبع آثاره. . والرضا عن الامام المهدي المعلوم الباسق في الدرجة النبوية. . وببركة الاستناد الى الحضرة الكريمة، أيدها الله تدرك المنى وتنقاد لطالبها الدنا وترتقي المراتب العلى» [170].

ويتضح مما سبق القيمة السياسية والدينية والتاريخية لما جاء في الرسالتين، حيث تبين فيهما طبيعة العلاقة ونوعها بين صاحب تلمسان ونظيره صاحب تونس، وكيف كان الولاء يتكىء على عقيدة المهدوية.

ظلت الرسائل تتجدد بين بني زيان وملوك أرغون، فكتب إليهم السلطان أبو حمو موسى الثاني عدة رسائل تتعلق بقضايا سياسية وتجارية.

الرسائل الإخوانية:

نبغ العديد من كتاب تلمسان وأدبائها في انشاء الرسائل الاخوانية أو الأدبية، وخاصة منهم ابن خطاب ومحمد بن خميس وابن هدية وابن مرزوق الخطيب، ويحي بن خلدون ومحمد بن يوسف الثغري وغيرهم كثيرون، إلا أن رسائلهم لم يدونها المؤرخون والأدباء، وإنما يمكن الاطلاع على فحواها ومضامينها، من خلال رد كتاب الاندلس عليها، ولاسيما تلك التي انشأها الأديب اللامع والمؤرخ البارع لسان الدين بن الخطيب (ت 776/ 1374)، التي تربطه بأبي عبد الله ابن مرزوق الخطيب ويحي بن خلدون، روابط الأخوة والصداقة والمودة القوية، فقد كان يكاتبهما باستمرار ويرد على رسائلهما، وسنشير الى بعض رسائل ابن الخطيب لأنها تكشف مضامين ومواضيع بعض الرسائل الإخوانية، لبعض أدباء تلمسان ولاسيما التي لها علاقة بتاريخ وأدب أهل تلمسان.

أما مواضيع الرسائل الاخوانية التي كتبها أدباء تلمسان، فتشمل عموما على أغراض الوصف والعتاب والشكر والمدح والتهنئة والتعزية والشفاعة والتهادي والتشوق والتحية وغيرها، من المواضيع المعتادة عند الأدباء [171].

وقد سميت هذه الرسائل باسماء مختلفة منها الاخوانية والاخوية والاجتماعية والخاصة والأدبية، والظاهر أن هذه المصطلحات جميعا صحيحة لأن عبارة الإخوانية أو الأخوية، تدل على الرسائل التي كانت بين الاخوة الأصدقاء، وأن لفظ الإجتماعية تدل على أن الخطابات كانت تتعلق بالمواضيع الاجتماعية، مثل التهاني والتعزية والعتاب وغيرها، وتدل الرسائل الخاصة على أمور شخصية غير تامة، بينما الرسائل الأدبية تدور في مجال النفس البشرية، من شكر وتهنئة ومدح ووصف وشفاعة وتهاني وترحيب بقدوم الصديق وإظهار الود له (172).

ومن الكتاب التلمسانيين الذين كانت تربطهم بالأديب لسان الدين ابن الخطيب، روابط المودة ابن مرزوق الخطيب، الذي كتب له رسالة يهنئه فيها ويرحب به أثناء قدومه الى بلاد المغرب (173).

وكذلك كانت له علاقة ودية مع الكاتب يحي بن خلدون، الذي استفاد مما لاشك فيه من احتكاكه بصديقه لسان الدين، خلال إقامته في مدينتي فاس وتلمسان ويكون قد تأثر به هو الآخر في فن الكتابة والترسل، وقد أشارت بعض المصادر الى المراسلة التي كانت بينهما، إلا أن رسائل يحي بن خلدون غير متوفرة، ويمكن التعرف على مضمونها من خلال رد لسان الدين عليها (174).

كما احتفظت بعض المصادر بمراسلة بين لسان الدين بن الخطيب، والكاتب الشاعر الثغري، الذي وجه رسالة باسم ابي حمو موسى الثاني الى ابن الخطيب، تتعلق بقضايا التصوف (175)، وهذا يدل على أن الرسائل المتبادلة، كانت تبحث أيضا في القضايا الفكرية والأدبية والدينية، الى جانب القضايا السياسية والعلاقة الشخصية.

رسائل التشوق والتحية:

ومن رسائل التشوق والحنين، نرد تلك الرسالة السينية الخاصة بالتحية، والتي أظهر فيها أبو بكر بن خطاب، الصنعة والتكلف بالمحسنات البديعية، حيث التزم في كل كلمة منها بحرف السين، وهي ظاهرة التصنع التي تميز بها ذلك العصر، اعتنى فيها الكاتب بحرف السين أكثر من اعتنائه بالمعنى وقد جاء فيها: «سلامي يتسم مسكا ويتنسق سلكا بعرس بساحتك،

ويستقبل أسرة سماحتك وتستمع بنسيمه أحسن استمتاعا ويستدني، مسامحتك لباسوا سقام استحاشي بتناسيك وينسي نفسي أساها بتنعيسك، واستجاب مسرتي باسعادك، فعاساها وعساك سقيت مسائحك وحرست مسامحك وتعس منافسك، ونكس مشاكسك واستد ساعدك واستبد بالبوس حاسدك» [176].

رسائل التعزية :

ومن بين الرسائل الأدبية رسائل التعزية، التي تصف حالة النفس وتأثرها عند سماعها بفقدان أحد الأقرباء أو الأصدقاء، وأحيانا تمتزج التعزية بالتهنئة خاصة إذا كان المتوفي سلطانا، فيعزي ولي العهد ويهنئه في نفس الوقت باعتلاء العرش، كالرسالة التي وجهها ابن خطاب الى الأمير أبي سعيد عثمان بن يغمراسن، بمناسبة وفاة والده واعتلائه سدة الحكم جاء فيها: « وقد كان من وفاة مولانا السلطان ابي يحي والدكم، ما جرى به القدر وشاب لأهله صفو الحياة الكدر، وملأ القلوب حزنا وصير سبيل العزاء وعرا حزنا، فياله رزءا فادحا وثكلا جرى بنا في ميدان الأسى جامحا، ونفض العيش وعلم الحليم الوقور الطيش، وصار شجا في الصدر معترضا، فلو قاومته نفوسنا لفديناه بها عن طوع منا ورضا. . . » [177] ويضيف الكاتب، «هنأ الله مولانا هذا الصنع الذي نسخ كل كرب وأدخل النور في كل قلب، وأجل الصنائع موقعا وأنورها مطلعا ، ما أهدى الجذل الى الصدور ومحا أثر الحزن منها بيد السرور، وأعقب التعزية التهنئة كما عقب الظلام بالنور» [178].

القصائد النبوية :

وهي رسائل يوجهها أصحابها مع ركب الحج الى قبر الرسول ﷺ، على شكل رسائل نثرية أو قصائد شعرية، إلا أن المصادر لم تحتفظ بمثل هذه الرسائل التلمسانية الاخوانية، ولم تصل إلينا منها إلا تلك القصيدة النونية الجميلة، التي انشدها السلطان ابو حمو موسى الثاني، وأرسلها الى البقاع المقدسة رفقة رسالة يطلب فيها الثواب والغفران وتيسير الأسباب [179]. وصفوة القول: ان الرسائل الديوانية والاخوانية كانت تخضع في مجملها الى منهجية واحدة تقريبا تبدأ بالافتتاحية ثم المضمون والخاتمة، وأنها تهتم بتاريخ تلمسان وأدبها ، ويؤكد ذلك النماذج المتنوعة في فن الترسل

الذي عرفه أدباء تلمسان في العهد الزياني، وتساعدنا في وضع مقارنات بينهما وبين الرسائل الموحدية، نلمس اختلافا في اتجاه رسائل العهدين وطبيعتهما، فإذا كانت الرسائل الزيانية التلمسانية تهتم بالحدث التاريخي، في بحر عميق من التعابير البلاغية الجزلة، وأحيانا تقوم بالتلميح والاختزال، وأخرى بالتفصيل والشرح في الخبر التاريخي، فإن الرسائل الموحدية، كانت تستغل الحدث التاريخي للإستهلاك الجماهيري، عن طريق سلاح الكلمة، والمبالغة في تمرير أفكار الدولة الموحدية السياسية والعقدية الى عامة الناس وخاصتهم (180).

2 ـ الشعر:

ازدهر الشعر بتلمسان في العهد الزياني هو الآخر، ازدهارا ملحوظا كغيره من العلوم والفنون المختلفة، بفضل نمو الحركة الفكرية والأدبية التي شهدتها حاضرة المغرب الأوسط، لم يكن قول الشعر مقتصرا على الشعراء والأمراء فحسب، بل تعدى ذلك الى الوزراء والكتاب والأطباء والفقهاء وعلية القوم فكانوا يعالجونه، فيستقيم لهم، ويطول نفس قصائدهم حتى يزيد عن المائة بيت (181).

فهذا أبو حمو موسى الثاني ينظم أحسن القصائد في الأغراض المتباينة، فكانت له قريحة شعرية وقادة، ومواهب متعددة في فنون الأدب والسياسة، وذاك السلطان أبو زيان محمد الثاني، يقرض الشعر عن سجية وعفوية ملؤها الفصاحة والعذوبة الساحرة (182).

وكان لموقع مدينة تلمسان بين البساتين الناظرة، وطبيعتها الجميلة الساحرة أثر عميق في احساس الشعراء وتفجير مواهبهم، وشحذ قرائحهم للإنتاج الأدبي عامة والشعري على وجه الخصوص، فبرزت منهم طائفة ملأت المدينة شعرا ونظما في مختلف الأغراض، تميزت بغزارتها وطول نفسها وجودة نسجها (183).

فمن قصائد السلطان أبي حمو موسى الثاني، المولدية الحائية، التي افتتحها بأبيات غزلية، بلغت درجة كبيرة من الجمال الفني والتصور الشعري الصادق قوله: (الطويل).

مشوق تزيا بالغرام وشاحا   متى ما جرى ذكر الأحبة صاحا

تعذبه أشجانه وهو صابر   ويبدي اشتياقا زفرة ونواحا (184)

وكان الملك الشاعر يمزج شعره في المولديات، بين الغزل الخالص والحب النبوي في معارض صوفية واشارات رمزية وصور شعرية إحائية كقوله: (البحر الطويل)

قفا بين أرجاء القباب وبالحي　　وحــي ديـارا للـحـبيـب بـهــاء حـــي

وعرج على نجـد وسلـع ورامـه　　رسائل فدتك النفس في الحي عن مي [185]

فقد كان الشعراء التلمسانيون في العهد الزياني، كلفين أشد الكلف بالقصائد المولدية يقرضونها في مدح الرسول ﷺ، كلما تجدد الاحتفال بهذا اليوم مع مر السنين، وممن أنشد في هذه المناسبة الأديب البارع ابو عبد الله محمد بن يوسف الثغري، قصائد طويلة عديدة مدح فيها الرسول ﷺ، والسلطان ابو حمو موسى الثاني وولي عهده ابو تاشفين الثاني قوله: (البحر الكامل).

سر المحبة بالدمــوع يـتـرجـم　　فالدمـع أن تـسـأل فـصـيـح أعـجـم

والحال تنطق عن لسان صامت　　والصـب يـصـمـت والهـوى يـتـكـلـم

ويقول:

وبحرمة الحرم الشريف ورفعة　　البيـت الـمـنـيـف ومـن ينـجـد خيموا

ومقام ابراهيـم والركـن الـذي　　تحمى به الآثــام ساعــة بـلــثـم [186]

أما الشاعر الطبيب ابو عبد الله التلاليسي، الذي مدح أبا حمو موسى الثاني في كثير من المناسبات، فقد نظم هو الآخر قصائد في مختلف الأغراض نذكر منها تلك، التي تتحدث عن الصلح الذي وقع بين بني مرين وبني زيان في عهد ابي حمو موسى الثاني قائلا: (البحر الطويل)

من الزاب وافانا عزيزا مظفرا　　يـجـر مـن الـنـصـر الـمـنـوط به ذيلا

بدت لمليك الغرب شدة بأسه　　وانـعـامـه لـلـمُـعـتـفـيـن ومــا أولـى

فبادره بالصلح خـوف فـواتـه　　وسـالـمـه اذ كان ذاك بـه أولـى [187]

ويقول التلاليسي: في مدح السلطان ابي حمو موسى الثاني في لاميته من (البحر الطويل).

فـيا جنـة الدنـيـا التـي راق حسنـها　　فـحـازت عـــلى كــل البــلاد بـه الفضـلا

ولا عجب ان كنت في الحسن هكذا　　وموسى الامام المرتضى فيك قد حلا [188]

ويعدد الشاعر محمد بن صالح شقرون، فضائل هذا السلطان على شعبه وأمته بقوله : (البحر البسيط).

وفضل موسى على كل بسؤدده فـقـد أتى من بنـي زيـان مـنـعوتـا
به استقام أساس الملك دون مرا ومن به الملك يسمو راح كبريتا [189]

ومن الشعراء الذين وقفوا الى جانب ابي حمو موسى الثاني كاتب سره الخاص يحي بن خلدون، الذي مدحه في قصائد كثيرة منها : (البحر الرجز).

لله دولـتـك الـكريـمـة أنـهـا زيـن الـحـيـاة ومـظـهـر الألطـاف
مولاي خذها من نتائج فكرتـي بـكـرا تـزف الـيـك أي زفاف [190]

ولم يغفل الشعراء الدهر والزمان الزائل والتأسف عنه، وعن غذره وخداعه للناس وهم في غفلة عما يجري حولهم، فمن ذلك ما قاله محمد بن مرزوق الخطيب : (البحر الرجز).

ياويـح نـفـسي كـم أرمـي فـي غـفـلـة مـن عـمـري
واحـسـرتي مـن قـلـة الـزاد وبـعـد الـسـفـر
يـانـفـسي جـدي قـد بـدا الصـبـح ألا فـاعـتـبـرى [191]

وفي وصف تلمسان قال شاعرها الأديب الفقيه ابي عبد الله محمد بن خميس : (الطويل).

تلمسان جادتك السحاب الدوالخ وأرسـت بـواديـك الريـاح اللواقـح
وسح على ساحـات باب جيادهـا مـلـث بـصافـي تربهـا ويـصافـح
لساقـيـة الرومـي عـنـدي مـزيـة وان رغمت تلك الرواسي الرواشح
فكـم لي علـيهـا مـن غـدو وروحـة تساعدني فيها المنى والمنائـح [192]

وفي هذا الغرض يقول الثغري : (البسيط)

سلطانها المولى ابـو حمو الرضى ذوي المنصب السامي الرفيع المعتـلـى
تاهـت تلمسـان بدولـتـه عـلـى كل البلاد بحسن منظرها الجلي [193]

فن الموشحات :

انتشر أيضا فن الموشحات بمدينة تلمسان، شارك فيه بعض الشعراء ويأتي في مقدمتهم الشاعر الطبيب الوشاح التلاليسي، الذي أورد له يحي بن خلدون موشحتين في مدح ولي نعمته السلطان ابي حمو موسى الثاني، نظم الموشحة الأولى سنة 762 / 1361 م في المجلس المولدي، الذي انعقد تحت رئاسة السلطان في قصر المشور قال فيها :

ياويح صب بان عنه الشباب وأودع　　　لـهـيـب وجـد عـنـدمـا ودعـوا

أودى بـه الوجـد وفـرط الجـوى

وهـد منـه السبـب كـل القـوى

ولابـه مـمـا اعـتـراه دوا [194]

ومن موشحات الفقيه الأديب ابي عبد الله محمد بن البناء (608) :

من أطلـع فـوق مايـس الريـحـان　　　بـــدر الافـــق

يهـتـز مـنـعـمـا على كـثـبـان　　　تـحـت الـفـسـق

مـن نـمـق خـده بـروض أنـف　　　بـادي الـقـطـف [195]

ومن شعره (البسيط) :

عيـد وغيـد وغـود وإبنـة الـعـود　　　يا ليلة جمعت شملي بها عودي

وشاذت خنت الأعطاف مـن ترف　　　علقته بدر ثم فوق أملود [196]

التاريخ :

اتبع المؤرخون المسلمون الأوائل في رواية التاريخ وأخباره اسلوب المحدثين، ثم أخذ التاريخ يستقل تدريجيا باسلوبه ومنهجه وفلسفته مع مرور الزمن حتى صار علما قائما بذاته، فظهرت في هذا المجال كتب السيرة والمغازي، وكتب الأنساب والأمم والأديان والتراجم والطبقات والحوليات والتواريخ المحلية والخطط، وغيرها من المصنفات ذات الصلة بعلم التاريخ [197]. وقد برز في هذا العلم كتاب وأدباء وفقهاء، من أبناء مدينة تلمسان في العهد الزياني سخروا أقلامهم في هذا

الاتجاه واتخذوا لهم اسلوبا فنيا، يعتني بالتأليف في العبارة، وإظهار الحادثة في ثوب من الصياغة، رجاله يعدون من صفوة الكتاب، الذين تولوا مناصب سامية في دواوين الدولة الزيانية والمرينية، وهي المناصب التي ساعدتهم على أن يكونوا قريبين من مصدر الخبر والأحداث وفي متناولهم، أرشيف بني زيان ووثائقهم [198].

فبفضل مكانة هؤلاء العلمية ومناصبهم الإدارية، إزدهرت كتابة التاريخ بمدينة تلمسان إزدهارا يتناسب مع مقام بني زيان العلمي، وطموحاتهم في المجال السياسي والحضاري والعسكري، فنبغت في عهدهم جماعة من المؤرخين التلمسانيين دونوا مصنفات في تاريخ الدولة وحضارتها، وتناولوا فنون التاريخ وفروعه كالسير والتراجم وتاريخ الملوك، ضاع بعضها وهو في حكم المفقود، وبقي القليل منها وهو في متناول الباحث اليوم نذكر منها.

بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: من تأليف أبي زكريا يحي بن خلدون جعل موضوعه عن الدولة العبد الوادية، منذ نشأتها الى عصر المؤلف والظاهر، أنه قام بتصنيفه بطلب من السلطان ابي حمو موسى الثاني، بغرض تخليد أمجاد هذه الدولة فقسم كتابه الى ثلاثة أقسام، اشتمل كل قسم على ثلاثة أبواب، انتهت حوادثه في أواخر سنة 776 هـ/ 1374 م، أي قبل مقتله بأربع سنوات (780 / 1378)، نظم الأحداث ورتبها حسب السنوات وهو المنهج الذي استعمله من سبقوه [199]. امتاز اسلوب يحي بن خلدون، بدقة الوصف وبراعة التصوير وسعة الخيال، في اختيار الألفاظ ومزجها بالمحسنات البديعية، مما يدل على نبوغه في فنون الأدب [200].

المستند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن: لأبي عبد الله محمد بن مرزوق الشهير بالخطيب جعله للسيرة الذاتية للسلطان أبي الحسن المريني وتخللته بعض الأحداث التاريخية العامة لبني زيان وبني مرين، أظهر فيه بعض المواقف والمنجزات العسكرية والحضارية، التي تمت في عهده في المغربين الأوسط والأقصى، قسم كتابه الى مقدمة وجعلها في عدة فصول، أما المتن فبوبه في خمسة وخمسين بابا، كلها تقريبا تتحدث عن خصال هذا السلطان، أما الخاتمة فضمنها هي الأخرى عدة فصول تعرض في بدايتها الى لقائه بأبي الحسن في قرية العباد، وتقليده خطة الخطابة والشهادة في عقوده وإمامة الصلاة والتدريس [201]، ومعلومات أخرى قيمة لا نجدها في غيره، تتعلق بالأنظمة والحياة الفكرية والقيم الدينية والأخلاقية التي كانت سائدة في المجتمعين التلمساني والفاسي [202]

المجموع أو الديوان: لابن مرزوق الخطيب أيضا ضمنه السيرة الذاتية لأسرته: الجد الأكبر، الوالد، ووالد الأم، ولسيرته هو نفسه وما حدث في عهدهم من قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، ومنجزات عمرانية بتلمسان وفي غيرها من حواضر المغرب والمشرق، خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، قد لا نجدها في كتب التاريخ والطبقات، ويقول صاحب الكتاب في المقدمة: « ورأيت بحول الله أن أصل بذكر الجد رحمه الله ومن عاصره وعاشره من صلحاء وقته وعلماء زمانه على سبيل الاختصار، وكذلك لمولاي الوالد رحمه الله ذكرا جليا. . . » (203)، وقسمه الى عدة فصول، ويتميز الكتاب باسلوب بسيط سهل خالي من تعقيدات المحسنات البديعية التي اشتهر بها عصر ابن مرزوق.

زهر البستان في دولة بني زيان: لمؤلف مجهول، عاش في كنف الدولة الزيانية، وعاصر السلطان أبا حمو موسى الثاني، لم يبق من هذا الكتاب الا السفر الثاني، الذي خصصه للحديث عن تاريخ ابي حمو موسى الثاني خلال الخمس سنوات الأولى من حكمه، ويتميز باخبار مفصلة ودقيقة. أما الجزء الأول فيبدو أنه في حكم المفقود، لعله كان يتضمن تاريخ الدولة الزيانية قبل عهد أبي حمو موسى الثاني.

نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان: من تأليف الحافظ محمد بن عبد الله التنسي، والكتاب يقع في خمسة أقسام يحتوي كل قسم على عدة أبواب، يتضمن التعريف بنسب بني عبد الواد، وبيان شرفهم وحسن سيرتهم وتاريخهم وحضارتهم وتخلل الكتاب نوادر مستضرفة ومحاسن الكلام المستعملة في النثر والشعر، وقد اهدى هذا الكتاب الى السلطان محمد المتوكل (866ـ873/ 1461) الذي غمره بنعمته.

النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن صعد الأنصاري التلمساني (ت 901 هـ/ 1495). يتضمن الكتاب ثلاثة اقسام تحدث فيها عن تراجم الأولياء والصلحاء من مختلف العجم، وتضمن الكتاب بعض الرسائل تبادلها ابن صعد مع بعض العلماء والسلاطين، دونه صاحبه رغبة من السلطان الزياني المتوكل على الله. وبرز من المؤرخين التلمسانيين، في القرنين السابع والثامن الهجريين القاضي محمد بن منصور بن علي بن هدية، الذي يعد من أئمة اللسان والأدب والفقه، له دراية واسعة بالوثائق وإنشاء الرسائل الديوانية والأدبية، صنف كتبا عديدة في الأدب والتاريخ منها مصنف خاص بتاريخ تلمسان، إلا

أن كتبه مفقـودة، وربما يكـون المـؤرخ يحي بن خلدون، قد استفاد منها في تأليفه كتاب بغية الرواد [204].

وتذكر الوثائق الزيانية أسماء أخرى لمؤلفين تلمسانيين نذكر منهم: أبا محمد عبد الله الشريسي، الذي وصفه ابن مرزوق بالمؤرخ الثقة عاش في القرن الثامن الهجري، وكان مقربا من أسرة المرازقة، ولهذا روى عنه ابن مرزوق الخطيب في مدوناته الكثيرة من الأحداث والأخبار [205].

ومنهم أيضا الشيخ الصالح المؤرخ أبا العباس أحمد بن ابراهيم المعروف بابن القطان، ـ وهو غير ابن القطان مؤرخ الموحدين ـ يعد من خواص أبي اسحاق التنسي وأبي عبد الله بن مرزوق الجد، اعتمد عليه الخطيب بن مرزوق اعتمادا كبيرا في تدوين مجموعه [206]، وصنف العالم الفقيه محمد بن أبي بكر الأنصاري (ت 676 هـ)، كتابـا جعلـه لوصـف مكـة والمديـنـة وبيـت المقدس [207]، وألف أحمد بن يحي الونشريسي، كتابا في التراجم سماه «الوفيات» وألف ابن الأصفر، كتابا عن تاريخ تلمسان وهو مفقود [208].

السياسة:

تنوعت الكتابة والتأليف بمدينة تلمسان في العهد الزياني في فروع شتى، حتى في مجال التنظيم والسياسة، كالكتاب الذي ألفه السلطان أبو حمو موسى الثاني، تحت عنوان «واسطة السلوك في سياسة الملوك» [209].

ضمنه وصايا حكمية وسياسية علمية وعملية تتعلق بالملك ونظامه، حتى يستفيد منه ابنه وولي عهده ووارث مجده، رتبه ترتيبا جيدا وجعله في أربعة أبواب وقسم كل باب الى عدة فصول، اعتمد في تأليفه على عدة مصادر، إلا أن ما يميز كتاب «واسطة السلوك» عن غيره من كتب التنظيم والسياسة، أن النصائح الواردة فيه صادرة عن تجربة سياسية ميدانية، مارسها السلطان فجاءت معالجته لهذا الكتاب تخالف من سبقه في هذا الميدان [210]. ولهذا كانت نظريته في السياسة أصيلة وجديدة [211].

ومهما يكن من أمر فإن الجانب التاريخي أخذ حيزا في كتابه، بحيث وظف الأحداث التاريخية القديمة، واستمد من تجربته السياسية كثيرا من احكامه و مواقفه وإبراز آرائه وبلورتها، وقد

شجعه الجو الأدبي بتلمسان على الكتابة وقرض الشعر، تأثر باسلوب عصره وهو فن البديع والصنعة اللفظية وجارى معاصريه في أغلب كتاباته، وأورد في كتابه الكثير من شعره في غرضين أساسين هما: الشعر السياسي والديني [212].

العلوم العقلية:

اعتنى علماء تلمسان كغيرهم من العلماء المسلمين بالعلوم العقلية والطبيعية، واهتموا بها كاهتمامهم بالعلوم التجريدية، ولا سيما منها تلك التي تكملها وتخدمها، لأن الناس لا يستغنون عنها في قوام أمور دنياهم [213] ، كالعلوم العددية (فرائض، حساب، جبر، هندسة) والمنطق والطب والكيمياء والفلك وغيرها، فقد عرفت بعض هذه العلوم نهضة ملحوظة بتلمسان، نشطها العلماء بتشجيع السلاطين والأمراء، وعلية القوم ودعمها بعض علماء المشيخة الأندلسية، الذين اختاروا عاصمة بني زيان موطنا لهم، فأقدموا جميعا على تدريسها والبحث عنها، حتى نبغ جماعة من التلمسانيين كانت لهم شهرة واسعة، وباع طويل في هذه العلوم تخطت حدود الدولة الزيانية.

العلوم العددية: (الرياضيات)

تلعب العلوم العددية دورا بالغ الأهمية في العلوم العقلية (التجريبية)، وغيرها من العلوم التي لا غنى لها عن الرياضيات، ويعرفها ابن خلدون بأنها: « معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف اما على التوالي أو بالتضعيف» [214] ، ومن فروعها علم الحساب وعلم الجبر والمعاملات والفرائض والهندسة [215] ، وهي علوم يحتاج إليها الناس في المعاملات، ولهذا ألفوا فيها كثيرا وتناولوها في مختلف الأمصار بالتعليم والدراسة [216]، ومن بين المصنفات التي كانت تستخدم في العلوم العددية بتلمسان خلال العهد الزياني، «أرجوزة ابن الياسمين» في الجبر [217] ، «ومختصر الجبر» الابن بدر الاشبيلي [218] ، و«تخليص أعمال الحساب» لابن البناء (ت 721 هـ/134)، ومن المبسوطات «كتاب الحصار الصغير» [219] ، و«رفع الحجاب عن تلخيص أعمال الحساب» لابن البناء، وفي حساب الفرائض اشتهر «مختصر الحوفي» [220] ، لأحمد بن محمد بن خلف الكلاعي الاشبيلي (ت 588 هـ/ 1192)، له مؤلفات عديدة في الفرائض الكبير والمتوسط والمختصر [221]، والقصيدة التلمسانية المعروفة باسم «تبصرة البادي الشادي» نظمها أبو اسحاق ابراهيم بن أبي بكر

(ت 697 هـ/ 1297) [222] ، لم يصنف في فنها أحسن منها، وعلى «تلخيص أعمال الحساب» و«مختصر الحوفي» تركزت أكثر الدراسات في الحساب والجبر والفرائض في حواضر بلاد المغرب، وصارت هذه المؤلفات معتمد الدارسين والباحثين في هذا المجال ببلاد المغرب وخارجه، وأصبحت محور الحلقات الدراسية والمؤلفات الشارحة والملخصة لمسائله [223].

وقد برز في العلوم العددية من حساب وجبر وفرائض وهندسة، الشيخ القاضي سعيد بن محمد العقباني التلمساني (811هـ/ 1418)، الذي قام بشرح كتاب الحوفي في الفرائض واستخدم فيه الكسور الاعتيادية [224]، لم يؤلف عليه مثله، وشرح تلخيص ابن البناء وقصيدة ابن الياسمين في الجبر والمقابلة.

وشرح العالم بن أحمد التلمساني الشهير بالحباك (ت 867 هـ/ 1463)، «تلخيص أعمال الحساب» [225]، وشرح أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو التلمساني كتاب التلمسانية في الفرائض، ويذكر تلميذه القلصادي أن له كتابا آخر في هذا المجال اسمه «منتهى التوضيح في عمل الفرائض من الواحد الصحيح» [226]. وكان لأبي الحسن على بن محمد القلصادي (ت 891 هـ/ 1486)، عدة مؤلفات أكثرها في الحساب والفرائض، كشرحه العجيب على الحوفي، اعتمد عليه ابو عبد الله محمد السنوسي في دراسة الفرائض والحساب، وقد وصفوه بأنه خاتمة الحساب والفرضيين [227]، وله أيضا «كليات الفرائض وشرحها» و«الضروري في علم المواريث»، و«المستوفي لمسائل الحوفي»، وشرحان على «التلمسانية» الأكبر والأصغر، وشرح «فرائض صالح بن شريف»، وابن الشاط وشرح فرائض «مختصر خليل» و«فرائض التلقين» وفرائض «ابن الحاجب» ، و«العتبية» في الفرائض و «تقريب المورث ومنتهى العقول والبواحث»، وكشف «الجلبات» في علم الحساب، و« كشف الأنوار وكشف الأسرار عن علم الغبار» ، و«التبصرة وقانون الحساب في مقدار التخليص»، و« كتاب الغنية في الفرائض» [228] ، وهناك أسلوب آخر إتخذه بعض العلماء المختصين في الحساب والفرائض وهو أسلوب نظم الأرجوزات لتسهيل حفظه وتحصيله بواسطة ترجيزه.

فقد نظم عبد الواحد بن أحمد الونشريسي (ت955 هـ/ 1549)، أرجوز في «تلخيص أعمال الحساب»، وقد اقتبس منه ابن القاضي عدة ابيات أثناء جمع العدد الصحيح من شرحه «لمنية الحساب» [229] ، وكان أول ما ظهر من هذا النظم هي الأرجوزة التي قام بتأليفها الشيخ العالم

محمد بن أحمد بن مرزوق الحفيد (ت 842/ 1438)، بعنوان «نظم تلخيص أعمال الحساب» (230).

والظاهر أن المؤلفات في العلوم العددية، عبارة عن مذكرات أعدها أصحابها لتدريسها على الطلاب، وكانت الطريقة التي يسير عليها الأساتذة تعتمد الكتابة في اللوح أو الورق، لإثبات التمارين الحسابية وهناك طريقة أخرى، لا تعتمد على أدوات الكتابة بل تستخدم الحساب الذهني وهو الحساب الهوائي، يهيء الدارس لكيفية حساب الأموال في الخيال بدون كتابة، وهو مفيد للتجار في الأسفار ولأهل الأسواق، الذين لا يحسنون الكتابة وللخواص إذا عجزوا عن إحضار أدوات الكتابة (231).

أما أصناف الأرقام التي عرفها أهل المغرب عامة في هذا العصر فهي الأرقام الغبارية المغربية، وهي الأرقام المتداولة حاليا في الأقطار المغربية، كما عرفوا الأرقام الغبارية الهندية المستعملة في ترقيم الشرطي، وهي الغالبة في تعمير جداول الأوقاف ببلاد المغرب الأقصى، وهناك حساب الجمل تكتب بالحروف الأبجدية، وبه ترسم الحسابات الفلكية وأحيانا تستعمل في الرياضيات. والظاهر أن الأرقام الرومية هي الأخرى كانت تستعمل في حسابات الوثائق العدلية، بالتركات وتقدير النفقات وأحيانا في تاريخ المنتسخات وترقيم صفحاتها (232).

وممن تميزوا بالتعمق في دراسة الهندسة ابو عبد الله الآبلي، الذي تتملذ على ابن البناء، فحينما جاءه للقراءة عليه اخبره بأنه درس المنطق وعلم الهندسة، حتى يستطيع فهم ما عند أستاذه من العلوم في هذا المجال، فقرأ عليه علم المخروطات، وهي أعلى المراتب من علم الهندسة، ولهذا كان القدماء يسمون أشكال هذا العلم بالأشكال العجيبة (233). كما أخذ الآبلي فنون الهندسة والمخروطات عن خلوف المغيلي اليهودي شيخ التعاليم بفاس، حتى استوفاها حقها من الدراسة (234).

ودرس أبو عبد الله الشريف التلمساني، على محمد بن علي بن سليمان السطي الفاسي (ت 750 هـ/ 1349)، علم الهندسة وكان الاستاذ يكثر من الأسئلة على البراهين، فكان الشريف سريع الإجابة عنها، وقرأ ابو عثمان سعيد القباني هذا العلم عليه أيضا بمدينة المنصورة التلمسانية، أيام حصار تلمسان من قبل أبي الحسن المريني واستقراره فيها (235). والجدير بالملاحظة هنا هو أنه في هذه الفترة ظهرت طريقة جديدة في حساب الفرائض، وهي تسير على

تجزئة فريضة الميراث الى أقل عدد لا كسر فيه ومبتكرها هو: ابو القاسم عبد الرحمن بن يحي القرشي نزيل بجاية [236]، الذي ألف في هذا الغرض مقالة نوه بها سعيد بن محمد العقباني التلمساني في شرحه «لمختصر الحوفي»، وبالطريقة الفرضية الجديدة وتفنن في تكميلها حيث يقـول: « واستنبط الأستاذ ابو القاسم القرشي، طريقة تحذر فيها أن تخرج الفريضة على هذا الوجه، بل لا تخرج في تلك الطريقة إلا من أقل عدد تصح منه بلا كسر، وهي طريقة بديعة وما أراها إلا من اختراعه لم يسبقه بها غيره، إلا أنه لم يضع منها سوى ما يتعلق بوضع أصل الفريضة أو بعمل المناسخات، فلما وقع بيدي كلامه فيها، وهو مما حملني على وضع هذا الكتاب لأخلص تلك الطريقة والخصها، تصفحت ما وضع وتأملته فتخيل لي منه كيفية عمل جميع أبواب الفرائض بتلك الطريقة... فتممت الطريـقة وأوضحـت كيفيـة جريانهـا في كـل باب من أبـواب الفرائـض.. » [237].

ونظم في هذا المجال العالم الرياضي، ابن داود أحمد بن علي البلوي الأندلسي نزيل تلمسان (ت 938 هـ / 1532 م)، ارجوزته المشهورة وهي التي علق عليها الشيخ أحمد بن محمد بن القاضي العافية المكناسي (ت 1025هـ / 1616 م)، في شرحه الذي يحمل اسم «الرائض لطالبي فهم الناهض باعباء علم الفرائض».

ولأهمية طريقة القرشي البجائي ونجاعتها، صارت تستخدم في تدريس مختصر الحوفي مع الطريقة القديمة، وقد وضح ذلك العالم القلصادي وهو يعرض لمقروءاته بمدينة تلمسان، على ثلاثة أساتـذة تلمسانيين هم: عيسى الرتيمي [238]، ويوسـف الزيـدوري [239]. وقاسـم العقبانـي [240]، فقد درس القلصادي على هؤلاء الثلاثة مختصر الحوفي بطريقتي التصحيح والكسور.

وممن برز في علم الحساب وكان ماهرا فيه وفي الشعر والعروض، الشيخ أحمد بن محمد المانوي المعروف بابن الحاج [241]، وكذلك اشتهر أبو اسحاق ابراهيم الأنصاري التلمساني نزيل سبتة (ت بعد سنة 690 هـ / 1291) بعلم العدد والفرائض فضلا عن أنه كان أديبا وشاعرا، نظم أرجوزة محكمة بعلمها ضابطة عجيبة الوضع، وهو لايتجاوز العشرين من عمره [242]، ومنهم أبو أحمد بن أبي يحي الأندلسي، الذي درس للعالم القلصادي علم الفرائض والحساب، ولاسيما منها تلخيص ابن البناء ومقالاته والتلمسـانية وتلخيص الحوفي وغيرها من كتب الفرائض

والحساب [243]، واشتهر سعيد بن أحمد بن بلعيش المقري (1011هـ/ 1602 م)، بالعلوم العقلية كلها حتى صار إماما مجتهدا في تدريس الحساب والمنطق والفرائض والهندسة والطب والتشريح والتنجيم والفلاحة [244].

ومن الذين تخصصوا في العلوم العددية محمد بن قاسم بن تومرت التلمساني، اشتهر هذا العالم بتدريس الحساب والفرائض والأوقاف والخط والهندسة، وكان إذا استعصت عليه مسألة هندسية وصعب حلها، يجمع لها المصادر ويديرها بعقله [245].

ومنهم العلامة محمد السنوسي، الذي كان موسوعيا ألف في مختلف العلوم التجريدية والتجريبية، منها شرحه الكبير على الحوفية سماه «المقرب المستوفى»، وهو كبير الحجم غزير العلم قام بتأليفه وهو لايتجاوز التاسعة عشرة سنة من عمره، وهذا يدل على نبوغه المبكر ويعد أول كتاب له صنفه ليستعين به على فهم كتاب الحوفي في الفرائض، ضمنه ما سمعه من شروح أساتذته، ولاسيما منهم سعيد العقباني [246]، وله شرحا على مقدمات الجبر والمقابلة لابن الياسمين، وشرح مختصر ابن عرفة، ودلل صعوبته للدارسين بهذا الشرح الوافي ووضع نظما في الفرائض مطلعه: (الرجز).

الحمد للميت ثم الباعث الوارث الأرض وغير وارث .

رآه الملالي بخطه، ويكون قد نظمه في مرحلة شبابه [247]، وشرح اختصار رعاية المحاسبي وغيرها من المصنفات ذات الطابع العددي [248]، ومنهم محمد بن هبة الله شقرون التلمساني (ت 983 هـ/ 1575)، الذي كان إماما ومفتيا ومدرسا بمدينة تلمسان، تأتيه الفتاوي من الشرق والغرب والقبلة، فيرد عليها كتابيا وكان ماهرا في الحساب والفرائض والمنطق والبيان والتفسير، قام بشرح التلمسانية في الفرائض [249].

ويعد يوسف بن اسماعيل الشهير بالزيدوري (ت 845 / 1441)، مشاركا ممتازا في علم الرياضيات وله قدم راسخة فيه، كان يدرس تلخيص ابن البناء والحوفي بطريق الصحيح والكسور، وبعض الأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة لابن البناء والتلمسانية والمقالات [250].

وقد نبغ علماء تلمسانيون آخرون في علوم الرياضيات بجميع صنوفها، كالحساب والجبر والفرائض والهندسة وغيرها، فألفوا فيها كتبا هامة وشروحا ضافية، ونتج عن تقدمهم

في الرياضيات والفيزياء مخترعات، كالمنجامة التي قام ابن الفحام بصنعها واختراعها، فكانت مفخرا صناعيا هاما إزدان بها قصر المشور بتلمسان، وأشاد بذكرها الشعراء ووصفها الكتاب والمؤرخون [251].

علم الفلك :

اهتم القدماء بالنجوم والكواكب وحركاتها، وربطوا بينها وبين معرفة الغيب، واطلقوا على ذلك علم التنجيم، وعني المسلمون بالكواكب والنجوم ليهتدوا بها وسط الفيافي والصحاري في الليل، واعتمدوا في تقويمهم على القمر استنادا لقوله تعالى: «وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر» [252]، وفرق المسلمون بين التنجيم وعلم الفلك ونادي أغلبهم بعدم تأثير الكواكب على الإنسان، ولهذا اشتغل بعض علماء المسلمين بعلم الفلك كعلم، وبحركات الكواكب وتحديد المواقع والأمكنة على ظهر الأرض بواسطتها، ومعرفة القبلة وحساب الأشهر والسنين ومواقيت الصلاة والحج وتحديد شهر رمضان، وقد استفادوا في ذلك من معارف اليونان والفرس والهنود والكلدان والسريان والصائبة، ونقلوا من مصنفاتهم في هذا المجال وصححوا بعض الأخطاء التي وقع فيها قدماء اليونان مثل بطليموس القلوذي السكندري، وحددوا طول السنة تحديدا مضبوطا وأطوال الليل والنهار، وحركات الكواكب والنجوم، واستخدموا من أجل ذلك المراصد وزودوها بآلات وأجهزة ومعدات غاية في الدقة [253].

أما الأسطرلاب الذي احتفظ المسلمون بمصطلحه اليوناني، فإنهم قاموا بتطويره وأضافوا إليه أنواعا جديدة لتحديد ارتفاع الكواكب عن الأفق، وتعيين الزمن وقد اشتهر من علماء تلمسان في علم الفلك وتخصصوا فيه، الى جانب العلوم العددية الشيخ الفقيه الفرضي الرياضي محمد بن أحمد التلمساني المعروف بالحباك (ت 867 هـ/ 1462)، الذي تميز بتدريس علم الاسطرلاب ووضع فيه أرجوزة سماها «بغية الطلاب في علم الاسطرلاب»، وقام بشرحها وشرح أيضا تلخيص الحساب لابن البناء ،ونظم رسالة الصفاري في الاسطرلاب وله شرح على التلمسانية في الفرائض [245].

ومن الذين عنوا بهذا العلم أيضا، تلميذه محمد بن يوسف السنوسي الذي قام بشرح قصيدة استاذه الحباك «بغية الطلاب في علوم الاسطرلاب»، وسماه «عمدة ذوي الالباب ونزهة

الحلطاب في شرح بغية الطلاب في علم الاسطرلاب»، ربط فيه السنوسي بين علم الاسطرلاب والقيام بالواجبات الدينيةكمعرفة أوقات الصلاة، واعتبره من أشرف العلوم الشرعية التي تقوم على دقة الحساب، وقام بمدحه لأن مظهره الفني يتميز بزينة ونقوش وأشكال ورسوم، ويفيد الناس في معرفة حركات الافلاك والكواكب وظهورها واختفائها، فكان السنوسي يعتني عناية خاصة بهذا العلم وتدريسه لطلابه (255).

وألف العالم القلصادي (ت 891 هـ / 1583)، نحو ثلاثة عشر كتابا في الحساب (256)، وصنف في التنجيم شرحا على رجز أبي اسحاق بن فتوح (257).

علم المنطق :

عرف ابن خلدون علم المنطق قائلا: «هو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعروفة للماهيات ، والحجج المفيدة للتصديقات» (258)، ابتكره علماء اليونان ثم ترجمت كتبهم الى الملة الاسلامية، وتناوله فلاسفة الإسلام بالدراسة والشرح والتلخيص، كالفرابي وابن سينا وابن رشد، وجاء المتأخرون منهم فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا به الكلام والجدل، الذي يعد من توابع الكلام ونظر إليه المسلمون، الى أنه آلة للعلوم وأول من فعل ذلك الامام فخر الدين بن الخطيب، ومن بعده أفضل الدين الخونجي (646 / 1248)، الذي ألف عدة كتب في هذا العلم منها «مختصر الجمل»، وهو الكتاب الذي اعتمد عليه علماء المشرق والمغرب، وصاروا يتداولونه بالشرح والتلخيص (259).

وقد أنكر بعض الفقهاء دراسة المنطق وطعنوا فيه، وحذروا منه وحظروا تعلمه وتعليمه، الى أن جاء الغزالي والإمام الخطيب، فتسامحوا في تدريسه وأظهروا مرونة في ذلك، وبينوا فضائله وفوائده، فانكب الناس على دراسته، لان فائدته كما يشير تتمثل في التخلص من حاكم الحس والهوى والتمسك بحاكم العقل والتوصل إلى درجات السعادة، وكانت دعوته لدراسة علم المنطق، لها صدى عند المفكرين المسلمين، وجعلتهم يهتمون به اهتماما بالغا وأصبحوا يؤلفون فيه الكتب، ويستخدمونه في مباحثهم الكلامية والفقهية (260)، وكان تأثير الغزالي في بلاد المغرب عن طريق الامام ابن تومرت (524 / 1129)، الذي طبق منهج الغزالي في المنطق، وكان المنطق قبل الموحدين في بلاد المغرب، يعد من العلوم المذمومة التي يجب تركها، فحبب ابن تومرت كتب الغزالي للناس

وأزال ما كان في النفوس من اشمئزاز وكراهية ضده، فأخذو يعتنون به منذ القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، إلا أن انتشاره عبر بلاد المغرب تحقق في القرن 7 هـ/ الثالث عشر الميلادي [261]، وقد جعله هذا الانتشار يختلط بالعلوم الأخرى كالكلام والفقه والأصول وغيرها، بحيث صارت تعتمد عليه كمنهج في تبويبها والاستدلال على مسائلها، وأصبح كل متعلم يدرس المنطق كما يدرس اللغة العربية والفقه وغيرهما، وبالتالي اندمج في سائر العلوم واندمجت هي الأخرى فيه، والسبب في ذلك يعود الى المنهجية العقلية التي دعا إليها الامام ابن تومرت [262]، وكذلك شجع الموحدون على علم الكلام وسيطرت فيه الاشعرية على عقول الناس ببلاد المغرب، وألغوا بها ما كان عند المرابطين من تصورات حشوية أو تجسيمية، فدعوا الى تأويل القرآن الكريم حسب روح الأشعرية في معانيها العامة [263].

وقد اهتم الدارسون بالقرآن والحديث، ومن ثمة بعلم الكلام فتداولوا كتب الجويني (478 هـ/ 1085) والغزالي (505/ 1111)، وأصبحت كتبهم مقررة على الطلاب في بلاد المغرب وهكذا ظهرت جمل الخونجي ومختصر ابن عرفة في المنطق، وصار لهذا العلم مكانة بين الدارسين والمؤلفين فوضعوا له المختصرات والشروح.

فقد ألف محمد بن العباس التلمساني (871 هـ/ 1466)، شرحا لجمل الخونجي [264]، التي كانت عبارة عن طلاسم يصعب فهمها وحفظها، وهذا ما جعل علماء تلمسان كغيرهم يقومون بشرحها وكذلك شرحوا مختصر ابن عرفة.

وصنف سعيد العقباني شرحا لجمل الخونجي [265]، وشرح القلصادي كتاب إيساغوجي في المنطق [266]، وشرح الامام محمد المقري الجد جمل الخونجي لم يكمله [267]، وقام محمد بن أحمد ابن مرزوق الحفيد بشرح جمل الخونجي [268]، وألف أرجوزة نظم في جمل الخونجي أيضا [269]، وكتب محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، مؤلفات في شرح جمل الخونجي ومقدمة في علم المنطق، ومنظومة فيه سماها «منح الوهاب» ثم كتب ثلاثة روح عليها [270]، وكانت له مناظرة مع السيوطي بين فيها فوائد دراسة المنطق ومميزاته. ومن العلماء التلمسانيين، الذين اهتموا بهذا العلم، ونشروه بتعليمه في المدارس وباستخدامه في مجال الكلام والفقه وأصول الدين، محمد بن يوسف السنوسي، الذي اعتنى به وبالتأليف فيه فصنف عدة كتب أهمها:

شرح مختصر ابن عرفة: شرحا مستفيضا بالرغم من صعوبته، وقد قال السنوسي عن ذلك: «كلام ابن عرفة صعب جدا وخصوصا في هذا المختصر، وقد اتعبت نفسي كثيرا في كلام ابن عرفة في مختصره هذا لصعوبته»، واستعان السنوسي، وشرحه بالخلوة وطول البحث والنفس، حتى تمكن من شرح جله، لكنه لم يتممه لكثرة انشغاله وضيق حاله، فأزال بذلك صعوبة ذلك المختصر، وفقد الكثير مما ورد فيه من أفكار (271).

شرح ايساغوجي البقاعي: الذي يشتمل على كل أبواب المنطق (صورة ومادة)، قام السنوسي بشرحه شرحا وافيا ونقده في كثير من المواطن (272).

شرح الموجهات: وهو فيما يبدو جزء من شرحه لكتابه المنطقي (273).

مختصر في علم المنطق: وهو حسب الملالي مختصر عجيب زاد فيه زيادات على ما في جمل الخونجي (273).

شرح السنوسي لمختصره في المنطق: ويعتبر أهم ما ألف السنوسي في المنطق، قال عنه تلميذه الملالي: «وهو شرح عجيب جدا لم ير مثله» (274).

ولأهمية هذا الكتاب قام بشرحه العديد من العلماء التلمسانيين على وجه الخصوص، والمغاربة على وجه العموم (275).

شرح جمل الخونجي في المنطق: رآه تلميذه الملالي في كراسين (276).

ومهما يكن من أمر، فإن السنوسي قد اهتم بدراسة علم المنطق ودعا الى استخدامه في مجال العلم والفكر كمنهج، «لأنه يسهل للعقل وعر الأنظار ويتسع به مجال الفكر، مع الراحة والأمن من الخطأ، في سلوك مفاوز الاعتبار» (277).

وعلى الرغم من الدراسات المنطقية، التي قام بها كل من العقباني والسنوسي والمغيلي وغيرهم، إلا أنها تعد ضئيلة إذا ما قورنت بالمؤلفات الأخرى كالفقه والنحو والأدب والحساب، كما لم تنج هي الأخرى من الشرح والمختصرات.

ويلحق بالمنطق علم الجدل، الذي توافرت عوامل انتشاره بمدينة تلمسان منذ عهد الموحدين، الذين حملوا الناس على اعتناق المهدوية والعصمة والمذهب الظاهري، فضلا عن قيام الحروب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس والمشرق، وظهور التصوف كمذهب وتيار

بكري في بلاد المغرب، ولاشك أن هذه المسائل والقضايا كلها، استدعت المجادلات والمحاورات والأخذ والرد والقبول والرفض، بالقلم تارة وباللسان تارة أخرى بين أنصار المهدوية والعصمة ومعارضيها، وبين أنصار المذهب المالكي ومؤيدي المذهب الظاهري، والسلفية وأصحاب مذهب التصوف وبين المسلمين والنصارى واليهو، د وهي أمور جعلت العلماء بتلمسان يتزودون بالمنطق والكلام وعلم الجدل حتى يتمكنوا من توضيح معتقداتهم ووجهات نظرهم أمام خصومهم، وهي عوامل ساعدت كثيرا على تقدم هذه العلوم وازدهارها بتلمسان في العهد الزياني [278].

الهوامش :

(1) أبو حامد الغزالي: احياء علوم الدين، دار الثقافة الجزائر 1991 م جـ 1 ص 26 ـ 27.

(2) القاضي عياض: الغنية تحقيق ماهر حرار، دار الغرب الإسلامي بيروت 1982 ص 56.

(3) الغبريني: عنوان الدراية، ص 145 ـ 146.

(4) نفسه، ص 147.

(5) محمد المنوني: حضارة الموحدين ـ 34.

(6) محمد المنوني: حضارة الموحدين ص 33.

(7) نفسه، ص 35.

(8) ابن مرزوق، المجموع، ورقة 41.

(9) المقدمة، ص 782، اهتم العرب المسلمون بعلوم القرآن وهي: علم أسباب النزول، وعلم المحكم والمتشابه، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم إعجاز القرآن، واعراب القرآن والقراءات وفضائل القرآن وإعجاز القرآن، وتفسير القرآن، وقد اختصر العلماء هذه العلوم في علم واحد هو: «علوم القرآن».

(10) المقدمة، ص 783، وهي قراءات تتفق وبعض اللهجات القرشية للتيسير على أهل الأمصار المفتوحة، الذين أدى دخولهم في الإسلام، إلى تباين في نطق بعض الألفاظ، مع عدم الإخلال بوحدة المعنى، وحتى لا تتسع القراءات، وتتعدد، وتمتد يد البدعة إليها، أختير سبعة أئمة من القراء المشهورين بالفقه والثقة من مختلف الأمصار، وهؤلاء القراء هم: ابن عامر (118/ 736)، ابن كثير (120/ 737)، وعاصم بن أبي النجود (127/ 744)، ونافع بن عبد الرحمن (169/ 785)، وأبو عمرو والمازني البصري (154/ 750)، وحمزة بن حبيب الكوفي (154/ 770)، وأبو الحسن على الكسائي (189/ 867). وللقرآن الكريم أكثر من خمسين إسما منها: : الكتاب، الفرقان، الذكر، التنزيل، وأن نزول القرآن كان مجزءا على عدة سنوات، قام بجمع القرآن أبي بكر الصديق لأول مرة تحت إلحاح عمر بن الخطاب، وكلف بجمعه زيد بن ثابت، فكان يجمع مادوّن منه في حياة الرسول ﷺ ويقوم بتدوين ما يحفظه الصحابة فكان عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، يقفان على باب المسجد، يبحثان على من يحفظ شيئا من القرآن، وأن هذه الخطوة لا تعني جمع القرآن في مصحف واحد، بل في صحف عديدة، احتفظ بها أبو بكر ثم عمر وانتقلت بعده إلى إبنته حفصة.

وهناك محاولات أخرى لجمع القرآن، قام بها علي بن أبي طالب وبعض الصحابة مثل: مصحف أُبَيّ بن كعب، ومصحف ابن مسعود، ثم جاءت مرحلة جمع الصحف في مصحف واحد في عهد عثمان بن عفان (ض) بعد أن تبين اختلاف المسلمين في قراءة القرآن، فنسخها كل من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن الحارث، معتمدين على الصحف الموجودة عند حفصة، وأوصاهم عثمان بقوله: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، وإنما نزل بلسانهم».

انظر ابن خلدون: المقدمة، ص 786 ـ 788.

ـ سعد عبد الفتاح عاشور: الحياة العلمية، والفكرية في الاسلام ضمن كتاب تاريخ الحضارة الاسلامية العربية منشورات ذات السلاسل الكويت 1986 ص 26 ـ 32.

(11) المقدمة: ص 786.

(12) نفسه ص 788.

(13) المقدمة، ص 788.

(14) ابن مريم، ص 219.

(15) نفسه، ص 219.

(16) المقدمة، ص 787.

(17) المجموع، ورقة 5.

(18) عبد الرحمن الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 جـ 1 ص (أ)، وقد اقتدى العلامة عبد الحميد بن باديس بطريقة الشريف التلمساني في التفسير واعتمدعلى أثره في ذلك وقرر على تلاميذه كتابه المسمى «مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول» في الفقه.

(19) ابن مريم: البستان، ص 41ـ42ـ الحفناوي: تعريف الخلف، ص 47.

(20) البستان، ص 106ـ أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج، جـ 1 ص 187.

(21) البستان، ص 255.

(22) أسعيد عليوان: محمد بن يوسف السنوسي، شرحه لمختصره في المنطق، رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة، معهد الفلسفة جامعة الجزائر 1987 ص 63.

(23) التفتازاني: هو سعد بن عمر من أئمة العربية والبيان والمنطق، توفي سنة 793 هـ/ 1390 م) انظر: الزركلي: الإعلام جـ 8 ص 113ـ114.

(24) ابن مريم: البستان ص 246.

(25) الملالي: المواهب القدسية ورقة 143 ب.

(26) سورة الحجرات آية 11.

(27) الملالي: المصدر السابق، ورقة 144أ.

(28) إبن مريم: البستان، ص 246.

(29) كفاية المحتاج جـ 2، ص 372.

(30) المجموع، ورقة 49ـ البستان، ص 211.

(31) كفاية المحتاج، جـ 2 ص 374ـ المجموع، ورقة 17.

(32) نفسه، جـ 2 ص 233.

(33) انظر: المخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، تحت رقم 391 ورقة 140 ظ.

(34) الزركلي: الاعلام، جـ 7 ص 262، الخراز هو محمد بن محمد الأموي، توفي سنة 718 / 1318، عالم بالقراءات، وله كتاب «مورد الضمآن» وله كتاب آخر في هذا المجال عنوانه «الدور اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع» راجع الزركلي جـ 7 ص 262ـ انظر أيضا أبو عياد: المرجع السابق، ص 70.

(35) ابن خلدون: المقدمة، ص 792.

(36) الحفناوي: المرجع السابق، جـ 1 ص 12.

(37) أبو حامد الغزالي: المصدر السابق، جـ 1 ص 27.

(38) نفسه، جـ 1 ص 28 ـ سعيد عبد الفتاح عاشور المرجع السابق، ص 51 ـ 52.

(39) المقدمة، ص 790.

(40) نفسه ص 792 ـ 793، اعتمد البخاري على ما أجمع عليه الحفاظ ودونوه وكرر الأحاديث، وساقها في كل باب، فتكررت بذلك أحاديثه، حتى اشتمل على تسعة آلاف ومائتي حديث منها ثلاثة آلاف مكررة نفسه، ص 792.

وقد تفرق نقلة الحديث من الصحابة والتابعين، فمنهم من بقى في الحجاز، ومنهم من انتقل إلى البصرة والكوفة ومنهم من كان بالشام، ومصر، وكانت طريقة أهل الحجاز في الأسانيد متشددة في شروط النقل، والضبط، وصاحب الطريقة الحجازية بعد الصحابة الإمام مالك بن أنس، ثم أصحابه مثل الإمام أبي عبد الله محمد ادريس الشافعي وابن وهب وغيرهم، أنظر: المقدمة، ص 791 ـ 792.

(41) نفسه، ص 792 ـ 795.

(42) نفسه، ص 793.

(43) المقدمة، ص 793، وهو عثمان بن عبد الرحمان بن عثمان بن موسى الكردي الشافعي المعروف بابن صلاح، فقيه أصولي محدث ومفسر، انظر: كحالة عمر رضا معجم المؤلفين مكتبة المثنى ـ دار احياء التراث العربي ببيروت بدون تاريخ جـ 6 ص 257.

(44) المقدمة، ص 793 وهو يحي بن حسن النووي الشافعي محدث وفقيه وحافظ، انظر ابن عماد الحنبلي شذرات الذهب في اخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت بدون تاريخ جـ 5 ص 354.

(45) المقدمة، ص 793ـ794.

(46) نفسه، ص 794.

(47) المجموع، ورقة 4

(48) نفسه، ورقة 28.

(49) نفسه، ورقة 40ـ 41.

(50) نفسه، ورقة 41.

(51) نفسه، ورقة 40.

(52) المجموع، وزرقة 40ـ 41.

(53) نفسه، ورقة 39ـ43.

(54) المجموع، ورقة 43.

(55) نفسه، ورقة 44.

(56) نفسه، ورقة 45.

(57) نفسه، ورقة 10.

(58) نفسه، ورقة 15

(59) ابن مرزوق، المسند، ص 17 ـ 18.

(60) المجموع، ورقة 50ـ الحفناوي: المرجع السابق، ص 141ـ 143.

(61) المجموع، ورقة 50.

(62) كفاية المحتاج، جـ2 ص 374.

(63) نفسه، ج 2 ص 372.

(64) نفح الطيب، جـ2 ص 438، بوعياد، المرجع السابق، ص 65، ويعني بالحافظ الغرب محمد بن عبد الله التنسي، أما التنسي المذكور في الشطر الثاني من البيت الثاني فيعني به ابنه، وأما ابن مرزوق، فهو الشهير الذي تتلمذ عليه محمد التنسي، انظر نفح الطيب جـ3 ص 438.

(65) هو بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي المصري توفي سنة 794 هـ/ 1391 م.

(66) المواهب القدسية ورقة 144 ب ـ البستان، ص 246.

(67) نفسه، ورقة 141 ب.

(68) نفسه، ورقة 175 ب.

(69) البستان، ص 246.

(70) اسعيد عليوان: المرجع السابق، ص 66.

(71) المقدمة، ص 798.

(72) صالح أحمد يعلي وآخرون: تاريخ الحضارة العربية الاسلامية مطبعة وزارة التربية بغداد 1977 ص 203.

(73) سورة الحشر، آية 7.

(74) حول الاجتهاد بالرأي والقياس والاجتماع، انظر: المقدمة 801ـ 802.

صالح أحمد يعلى: المرجع السابق، ص 203ـ 205.

سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص 43ـ 50.

(75) المقدمة ص 801.

(76) نفسه، ص 799.

(77) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، 44.

(78) المقدمة، ص 805.

(79) صالح أحمد يعلي وآخرون: المرجع السابق، ص 204.

(80) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص 48.

(81) المقدمة، ص 802ـ 803.

(82) المقدمة، ص 803.

(83) المقدمة، ص 804

(84) نفسه، ص 805.

(85) حول يحي الليثي: انظر، ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، تحقيق وتقديم ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني بيروت 1984 جـ2 ص 898 ـ 900.

(86) انظر: نفسه جـ1 ص 462.

(87) نفسه، جـ2 ص 510.

(88) المقدمة، ص 807.

(89) نفسه، ص 808.

(90) المقدمة، ص 808.

(91) نفسه ص 809.

(92) البستان، ص 126.

(93) الحفناوي: تعريف الخلف، جـ2 ص 28.

(94) نفسه. جـ2 ص 46.

(95) أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج، جـ1 ص 187 ـ 188.

(96) الحفناوي: المرجع السابق، جـ2 ص 268 ـ 269.

(97) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 49.

(98) نفسه، ورقة 49 ـ كفاية المحتاج، جـ2 ص 375.

(99) المجموع، ورقة 49 ـ كفاية المحتاج، جـ2 ص 375.

(100) كفاية المحتاج، جـ2 ص 419، الحفناوي: المرجع السابق، جـ1 ص 172.

(101) الحسن السائح: الحضارة الاسلامية في المغرب، ص 259.

(102) اسعيد عليوان: المرجع السابق، ص 48.

(103) الملالي: المواهب القدسية ورقة 138 / أ ـ البستان ص 245.

(104) الملالي: المصدر السابق، ورقة 140 / أ ـ ابن مريم: البستان، ص 246.

(105) عبد المجيد النجار: ابن تومرت، حياته، آثاره وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، دار الغرب الإسلامي بيروت 1983 ص 443.

(106) صاحب واسطة السلوك، هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الحوطي (ت 910) أحد تلامذة محمد السنوسي، وهو الذي طلب من استاذه أن يقوم بشرح عقيدته انظر: اسعيد عليوان: المرجع السابق ص 60 ـ 61.

(107) الحفناوي: المرجع السابق، ج1 ص 181 ـ 189.

(108) انظر: خليل بن اسحاق : مختصر العلامة خليل تحقيق أحمد نصر دار الفكر بيروت 1972 ص 3 ـ 8.

(109) الحفناوي: المرجع السابق جـ1 ص 47.

(110) جمال الدين بوقلي: الامام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 ص 88.

(111) ابن مريم: البستان، ص 239.

(112) اسعيد عليوان: المرجع السابق ص 135.

(113) أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج جـ 1 ص 83.

(114) برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية (سلسلة محاضرات ألقاها في الجامعة المصرية) مطبعة السماح القاهرة 1929 ص 75.

(115) عن علم البيان انظر: ابن خلدون: المقدمة، ص 1064ـ 1065.

(116) محمد المنوني. ورقات ص 258ـ 259.

(117) المقدمة: ص 1063.

118) حول تطور التعبير انظر: عبد الله بوخلخال: التعبير الزمني عند النحاة العرب ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، جـ 1 ص 22 ومابعدها.

(119) ابن مريم، ص 210ـ 211.

(120) البستان، ص 211.

(121) نفسه، ص 222.

(122) نفسه، ص 220.

(123) البستان: ص 223.

(124) نفسه: ص 237.

(125) نفسه، ص 256.

(126) نفسه، ص 259.

(127) نفسه، ص 261ـ 265.

(128) البستان، ص 276.

(129) نفسه، ص 8.

(130) نفسه، ص 53.

(131) نفسه، ص 56.

(132) البستان، ص 87، وهو أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي الفاسي، تميز بعلمه الغزير في مجال اللغة والنحو والأدب، صنف شرحا للأجرومية ورجزا في التصريف، وشرحا للمقصور والممدود لابن مالك، واشتهر بشرحه لكتاب ألفية ابن مالك، توفي سنة 807 هـ / 1404 انظر ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ جـ 2 ص 144.

(133) البستان، ص 117ـ118.

(134) المواهب القدسية، ورقة 144 / ب. أجروم هو أبو عبد الله محمد بن محمد الصنهاجي المعروف بأجروم، وضع كتابا صغيرا في

النحو، ظل يدرس في مدارس المغرب الاسلامي، قرونا عديدة، بدأه بأسقام الكلام، ثم تحدث فيه عن أنواع الإعراب، ثم الحركات والحروف، ثم الأفعال والأسماء بأسلوب سهل بسيط توفي سنة 723 / 1323، انظر: ابراهيم حركات: المرجع السابق جـ 2 ص 148.

(135) الروض المريع في صناعة البديع، تحقيق رضوان بن شقرون طبع دار النشر المغربية الدار البيضاء 1985 ص 81.

(136) المقدمة، صث 1093.

(137)البشير المجدوب: حول مفهوم النثر الفني عند القدامى، الدار العربية للكتاب لبنان 1982 ص 12ـ15.

(138) الطاهر محمد توات: أدب الرسائل، ص 26.

(139)نقد النثر (البيان في وجوه البيان) دار الكتب العلمية بيروت 1982 ص 93.

(140) المقدمة، ص 1093.

(141) احمد عبد القادر: الحياة الأدبية بتلمسان، ص 142.

(142) ابن الأبار: أعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشتر دمشق 1961 ص 69ـ72.

(143) ابن خلدون: التعريف، ص 124ـ يحي بن خلدون: بغية الرواد جـ 2 ص 171.

(144) التنسي: نظم الدر، ص 127.

(145) العبر، جـ 1 ص 163.

(146) يتضمن هذا المصنف تسعة أبواب، توجد نسخة منه مخطوطة غير كاملة ضمن مجموع، بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 773 د، ونسخة أخرى بعنوان «فصل الخطاب في ترسيل الفقيه أبي بكر بن عبد الله بن داود بن الخطاب الغافقي المرسي الأندلسي، بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 4605.

(147) بغية الرواد، ج 1 ص 210ـ213.

(148) التنسي: المصدر السابق، ص 168.

(149) شجرة النور: ص 238.

(150) بغية الرواد، ج 1 ص 215.

(151) نفسه، ج 2 ص 315.

(152) نفسه، ج 2 ص 143.

(153) زهر البستان ورقة 23ـ24 ظ

(154) نفسه، ورقة 35 ظ

(155) ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية ص 37ـ38.

(156) ابن الأحمر: مستودع العلامة ص 24 و72ـ74.

(157) صبح الأعشى، ج 1 ص 60.

(158)الطاهر محمد توات: أدب الرسائل، ص 89.

(159) محمد وهبة وآخر: معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب مكتبة لبنان 1984 ص 178.

(160) أبو حمو موسى العبد الوادي: واسطة السلوك، ص 60ـ61.

(161) نفسه، ص 61.

(162) فقد ضاعت الرسائل التي حررها كل من يحي بن خلدون، وابن هدية وغيرهما من كتاب سر السلاطين في البلاط الزياني.

(163) أحمد عبد القادر: المرجع السابق، ص 146.

(164) نفسه، 146.

(165) انظر بغية الرواد ج 2 صفحات 62ـ 64ـ 92ـ 99ـ 102.

(166) حول هذه الرسالة انظر: Dhina (A): le Royaumme p. 122

(167) يحي بن خلدون: بغية الرواد ج 1 ص 216ـ 227ـ 226. Ibid pp.226_227_216

(168) أحمد عبد القادر: المرجع السابق، ص 148ـ 165 / : Dhina (A): opcit p 227.

(169) ابو بكر بن خطاب ورقة 39ـ40.

(170) ابن خطاب: فصل الخطاب ورقة 49.

انظر في هذا الصدد: Dhina (A): les Etats. pp . 518

ـ أحمد عبد القادر قرشي: المرجع السابق، ص 149 ـ 150.

(171) ابن خطاب: المصدر السابق. ورقات 6ـ 14ـ15ـ 16ـ94ـ 95.

ـ انظر في هذا الصدد: أحمد عبد القادر: المرجع السابق، ص 166 ـ 180.

ـ الطاهر محمد توات: أدب الرسائل، ص 271 وما بعدها.

(172) الطاهر محمد توات: المرجع السابق، ص 279 ـ أحمد عبد القادر:

المرجع السابق ص 166.

(173) انظر: المقري: نفح الطيب، ج 6 ص 64 ـ ابو القاسم الكلاعي: أحكام صنعة الكلام. تحقيق محمد رضوان الداية بيروت 1966 ص 60 ـ 62.

(174) نفح الطيب، ج 6 ص 64 ـ يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 2 ص 200 ـ 202.

(175) المقري: نفح الطيب، ج 2 ص 121.

(176) فصل الخطاب، ورقة 94ـ95.

(177) فصل الخطاب، ورقة 14.

(178) نفسه، ورقة 15.

(179) ابو حمو موسى العبد الوادي: واسطة السلوك، ص 15.

(180) حول هذا الموضوع، انظر: رشد السلامي: وثائق مرينية (مراسلات، معاهدات، ظهائر) دراسة وتحقيق د. د. ع كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط 1989 ج 1 ص 21 ـ 22.

(181) ابن مرزوق: المجموع، ورقة 49.

(182) التنسي: نظم الدر، ص 220 ـ 227. أهدى ابو زيان محمد الثاني هدية لملك مصر أبي سعيد الملقب ببرقوق ووجه معها قصيدة من نظمه، وكذلك كانت له قصائد دونها على أغلفة أجزاء البخاري الذي نسخه بخطه المحبس بخزانته ومما جاء في قصيدته الموجهة الى برقوق:

لمن الركائب سيرهن ذميل فالصبر إلا بعدهن جميل

رفقا بمن حملته فوق ظهورها فالحسن يميل القلب حيث تميل

أنظر التنسي ص 221.

(183) عبد المالك مرتاض: حركة الشعر المولدي في تلمسان في عهد أبي حمو موسى الثاني، مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية أوت 1975 ص 314.

(184) يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج 2 ص 97.

(185) التنسي: نظم الدر، ص 164 ـ 168.

(186) نفسه، ص 169 ـ 178.

(187) محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص 241.

(188) نفسه، ص 241.

(189) نفسه، ص 224.

(190) ابن عمار الجزائري: المرجع السابق، ص 163.

(191) محمد الطمار: المرجع السابق، ص 260.

(192) يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج 1 ص 86 ـ 87. انظر، نفح الطيب ج 5 ص 360 ـ 378.

(319) نفسه، ج 1 ص 88.

(194) نفسه، ج 2 ص 87 ـ 88، 100 ـ 101.

(195) نفسه، ج 1 ص 124.

(196) نفسه، ج 1 ص 124.

(197) انظر: عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر الاسكندرية 1967 ص 66 ـ 71.

(198) نفسه، ص 75 وما بعدها.

(199) انظر في هذا الصدد: بغية الرواد، ج 1 ص 62ـ63.

(200) نفسه، ج 1 ص 20 ـ 43.

(201) المسند، ص 485 ـ 487.

(202) نفسه، ص 95 ـ 107.

(203) ابن مرزوق: المجموع، مخطوط بالخزانة العامة (مكروفيلم) الرباط تحت رقم 20 ورقة (1).

(204) البستان ص 225.

(205) المجموع، ورقة 4و8.

(206) نفسه، ورقة (1).

(207) ولد محمد بن أبي بكر الأنصاري، ونشأ بتلمسان، ثم رحل الى المشرق طلبا للعلم فزار مصر والحجاز والشام والقدس.

(208) ابن الخطيب، الإحاطة ج 1 ص 91.

(209) قامت بتحقيق كتاب واسطة السلوك وقدمت له جميلة شتيوي، نالت به شهادة الكفاءة والبحث كلية الآداب بمنوبة جامعة تونس سنة 1989.

(210) واسطة السلوك، ص 3-4.

(211) وداد القاضي: المرجع السابق ص 44.

(212) واسطة السلوك، ص 21-23.

(213) الغزالي: احياء علوم الدين ج 1 ص 26.

(214) المقدمة، ص 894.

(215) حول هذه العلوم انظر: المقدمة، ص 894-903.

(216) المقدمة، ص 897.

(217) توجد مخطوطة ضمن شروحها في بعض الخزائن المغربية.

(218) منشور بمدريد سنة 1916.

(219) توجد مخطوطة منه في الظاهرية رقم 9760 ولنفس المؤلف أبو بكر محمد بن عبد الله الحصار كتاب آخر عنوانه «البيان والتذكار في علم مسائل الغبار» مخطوط بالخزانة العامة رقم 917 ق.

(220) لايزال مخطوطا بالخزانة العامة رقم 3203 . د.

(221) محمد المنوني: نشاط الدراسات الرياضية في مغرب العصر الوسيط الرابع مجلة المناهل تصدرها وزارة الشؤون الثقافية العدد 33 السنة 12 ديسمبر 1985 ص 78.

(222) وهي منشورة ضمن شروطها المطبوعة نفسه ص 78.

(223) نفسه ص 83.

(224) ابن فرحون: الديباج المذهب، ص 124 - توجد نسخة منه بالاسكوريال تحت رقم 935 انظر البستان، ص 106.

(225) توجد منه نسخة في خزانة خاصة بتلمسان انظر: محمد المنوني: المرجع السابق ص 87.

(226) أحمد بابا التنبكتي: نيل الإبتهاج، ص 78. انظر أيضا: رحلة القلصادي، نشر الشركة التونسية للتوزيع تونس 1978 ص 102-103، إبن مريم: البستان، ص 42.

(227) نيل الإبتهاج، ص 210.

(228) محمد السوسي: الرياضيات التطبيقية (تطبيق الحساب على مسائل الفرائض في الفقه الإسلامي) مجلة بحوث منشورات كلية الآداب بمنوبة تونس 1993 مجلد 2 ص 59 وتوجد عنده مخطوطة لمنتهى العقول والبواحث.

(229) محمد المنوني: المرجع السابق، ص 88.

(230) البستان، ص 215.

(231) المنوني: المرجع السابق، ص 78 ـ 79.

(232) نفسه، ص 80 أنظر أيضا: الونشريسي: المعيار، ج 10 ص 142.

(233) انظر مقدمة حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب لابن قنفد القسنطيني وهو شرح تشخيص ابن البناء.

(234) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون: ص 21 ـ 22 و34 ـ 35.

(235) محمد المنوني: المرجع السابق ص 98 ـ 99 انظر: «تقييد» كتبه أحمد بن الحسين بن أطاع الله على الصفحة الأولى من شرح مختصر الحوفي للعقباني مخطوط بخزانة خاصة بفاس.

(236) انظر شرح مختصر الحوفي مخطوط بالخزانة الملكية رقم 3112 ورقة 22 / ب وكان العقباني قد ألف هذا الكتاب حينما كان قاضيا بمدينة سلا انظر وفيات الونشريسي (ألف سنة من الوفيات) ص 137.

(237) توجد نسخة منه بالخزانة الملكية تحت رقم 8840.

(238) رحلة القلصادي ص 98 ـ 99.

(239) نفسه، ص 100 ـ 101.

(240) البستان، ص 8.

(241) نفسه، ص 56.

(242) نفسه، ص 73.

(243) نفسه، ص 105.

(244) البستان، ص 237.

(245) المواهب القدسية، ورقة 138 / ب.

(246) نفسه ورقة 144 / ب.

(247) البستان، ص 245 ـ 246.

(248) البستان، ص 261.

(249) نفسه، ص 305.

(250) الاخضر عبدلي: مملكة تلمسان، ص 271 وحول علم التنجيم انظر، ابن خلدون: المقدمة ص 1002 ـ 1010.

(251) سورة الأنعام الآية 97.

(252) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص 110 ـ 111.

(253) ابن مريم: البستان، ص 219 ـ 220 احمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 333 ـ 334.

(254) ابو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج 1 ص 110 ـ 111، انظر ايضا: اسعيد عليوان: المرجع السابق، ص 75 وتوجد نسخة من شروح السنوسي في هذا المجال بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم 613 التي قام اسعيد عليوان بتحقيقها.

(255) السوسي محمد: عالم رياضي اندلسي، مقال بمجلة حوليات الجامعة التونسية عدد (9) سنة 1972 ص 43 ومابعدها.

(256) المقدمة، ص 908.

(257) نفسه، ص 913

(258) نفسه، ص 913.

(259) اسعيد عليوان: المرجع السابق ص 129.

(260) عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت ص 470ـ 471.

(261) اسعيد عليوان: المرجع السابق، ص 129.

262) نفسه، ص 13.

(263) البستان، ص 223.

(264) نفسه، ص 106.

(265) نفسه، ص 142.

(266) نفسه، ص 163.

(267) نفسه، ص 210.

(268) نفسه، ص 211.

(269) نفسه، ص 255.

(270) الملالي: المواهب القدسية ورقة 144 / أ توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بتونس تحت رقم 15811.

(271) وإيساغوجي هذا هو أبو الحسن ابراهيم بن عمر البقاعي (ت 885 هـ1480) يختلف عن ايساغوجي الصوري، (ت بعد سنة 298م) انظر اسعيد عليوان المرجع السابق ص 71 ـ 72 توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم 1382.

(272) توجد نسخة منه بتركيا بمكتبة راغب باشا تحت رقم 905 نسخت سنة 1164 هـ.

(273) المواهب القدسية ورقة 144 / أ.

(274) نفسه ورقة 144 / أ

(275) عن شروح مختصر السنوسي في المنطق انظر: اسعيد عليوان: المرجع السابق ص 72 ـ 75.

(276) الملالي: المصدر اسلابق، ورقة 144 / أ.

(277) السنوسي: شرحه لمختصره المنطق ورقة 227 / ب.

(278) انظر في هذا المجال: محمد المنوني: حضارة الموحدين، ص 82 ـ 83.

الخاتمة

مما سبق يتضح أن البحث يرتكز على أربعة محاور أساسية هي القضايا السياسية الكبرى، والمظاهر العمرانية والاجتماعية والحركة الفكرية بتلمسان في العهد الزياني، نستخلص منها مايلي: اعتمد أبو يحي يغمراسن، في تأسيس دولته على قبيلة بني عبد الواد، وعلى بعض القبائل البربرية والعربية.

ولم يوظف في قيامها حركة دينية مذهبية إصلاحية، كما فعل كل من عبد الله بن ياسين المرابطي، والمهدي بن تومرت الموحدي. ولعل فترات الهدنة مع بني مرين، التي تطلع إليها يغمراسن وأوصى بها أولاده، كانت نتيجة تجارب حربية ومعطيات استخبارية دقيقة عن قوة العدو، وأن علاقاتهم بالجارة الشرقية والجارة الغربية، غلب عليها طابع التوتر والعداء في جميع مراحلها، مما حتم على بني زيان والمجتمع التلمساني حياة الصمود والتصدي والمقاومة المستمرة، وحالات الإستنفار في كثير من الأوقات، واستخدام ما يمكن استخدامه للمقاومة بما في ذلك تجنيد الجواري، واهدائهن لأمراء بني مرين، وإدماجهن في شبكة الاستخبارات والتجسس لحسابهم الخاص، وهي ظاهرة انفرد بها بنو زيان للحفاظ على كيانهم واستقلالهم.

وتمكن بنو زيان خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي من المحافظة على حدودهم، بفضل هذه الوسائل، وانتقلوا من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، وأصبحوا يهددون بني حفص في عقر دارهم، وخاصة في عهد كل من أبي حمو الأول وأبي تاشفين الأول وأبي حمو موسى الثاني، الذين أخرجوا أهل تلمسان من طور البداوة الى طور الحضارة.

كما شهدت مدينة تلمسان، محنا كثيرة وصعابا جمة، بحيث تكرر سقوطها مرات عديدة في يد بني مرين وبني حفص، فقد كانوا لايخرجون من حرب إلا ويدخلون في أخرى، وهو العامل الذي اكسب سكان المدينة تحمل الشدائد ومقاومتها لفترة طويلة. ومنذ مطلع القرن التاسع الهجري، دخلت تلمسان في دوامة العنف المسلح والدسائس السياسية المتنوعة، بسبب الطامعين في العرش من بني زيان، فكانوا يتسابقون إلى بلاط الجارتين، ويتنافسون على رضا سلاطينهما، فانجر أهل تلمسان إلى حرب أهلية، بين مؤيد لهذا السلطان ومعارض لذاك، حتى ضعف بنو زيان وسرى الوهن عن دولتهم فهيمن عليهم الأقوياء.

ولما سقطت غرناطة في يد الأسبان، صارت شواطىء المغرب الأوسط عرضة لتهديداتهم وهجوماتهم المتكررة، فتحكموا هم أيضا في رقاب بني زيان. إلى أن ظهرت قوة رابعة في المنطقة، استنجد بها أهل تلمسان كغيرهم من أهل المغرب الأوسط، وهي القوة العثمانية التركية الفتية، فاستولت على مدينة تلمسان، وأطاحت بالعرش الزياني ووضعت حدًّا لأطماع السعديين والإسبان والمغامرين من بني زيان، وأنهت بذلك رسم الدولة الزيانية، التي دامت أكثر من ثلاثمائة سنة.

ويتعلق المحور الثاني بالمظاهر العمرانية، فقد تميزت أهمية مدينة تلمسان بملامحها الطبوغرافية، التي ضمنت لها حصانة طبيعية قوية، ولهذا نزح إليها السكان من كل مكان، وعمروها عبر حقب متتالية، حتى صارت مركزا حضاريا كبيرا في منطقة ريفية، فهذه الخاصية جعلتها عرضة لاطماع بني مرين وبني حفص وبعض أقطار ما وراء البحر.

حملت تلمسان ثلاثة أسماء هي: «أكادير» و«بوماريا» و«تلمسان»، وأن النطق الصحيح «لأغادير» أو «أقادير» أو «أجادير» اليفرنية هو بالكاف، لأن حرف الكاف كان سائرا على لسان أهل تلمسان وشيوخها من بوادي زناتة.

مرت مدينة تلمسان الإسلامية، بمراحل عديدة، منذ أن فتحها أبو المهاجر دينار ثم عقبة بن نافع، واستقر بها طارق بن زياد في نهاية القرن الأول الهجري.

ثم صارت مقرا أساسيا للخوارج والادارسة ومغراوة، والمرابطين الذين أضافوا لها مدينة
ﺗﺮارت»، واتخذها الموحدون مقر إقليميا هاما لهم في المغرب الأوسط.

اهتم بنو زيان بتطوير عمران المدينة والتوسع فيه، لأنه يعد رمزا من رموز الدولة وازدهارها، ﻮر تجتمعها ورقيه حضاريا، فبنوا القصور المختلفة والمنازل العديدة، حتى بلغ عدد دورها ﺮ من ستة عشر ألف دار، وشيدت بها الحصون والابراج، والأسوار العالية، لأن بناء سور ينة يعد ضرورة حيوية ووسيلة لحفظ المال والعرض والنفس، حتى الفقهاء حثوا على إنشاء ﺳﻮار وجعلوها في عداد «البناء الواجب»، تميزت بمتانتها وكثرتها، كما إحتوت المدينة على وارع والسكك المنظمة والاحياء الكبيرة والدروب الملتوية، والأبواب الواسعة الكبيرة خارجية ﺧﺮى داخلية، وعلى القصبة المخصصه للرهائن، والمرافق الإجتماعية العامة كالأسواق ﻴﺼﺎﺭﻳﺎت والمستشفيات والفنادق، وشبكة الطرق والمياه ووسائل الصرف، والحمامات التي ت تحمل أسماء أصحابها، مما يدل على عدم قدرة العامة من الناس، تضمين منازلهم ﻤﺎت خاصة.

وتعرفنا على أنواع المنازل وطوابقها ودهاليزها ومواد بنائها، ووقفنا على طرق بنائها وهندستها ﻬﺎ واليد العاملة والمهندسين من أهل تلمسان ومن الأسرى النصارى ومن الأندلس، الذين ﺧﺮوا لبناء سرح هذه النهضة العمرانية، وهي مظاهر تفند ما ذهب إليه بعض المستشرقين أن البناء في المدن الاسلامية، يتميز بعدم تماسك بنيانه.

إن المدينة الاسلامية في العصر الوسيط، تخضع تكويناتها المعمارية وتخطيطاتها للفكر المعماري ﺳﻼمي، والتقنيات المستمدة من تعاليمه، وهو الشيء الذي يدحص ما روجته بعض ﺭاسات الإستشراقية من عشوائية العمران الاسلامي.

وقد شيدت بالمدينة نحو ست مدارس وستين مسجدا، والعديد من الزوايا والكتاتيب ﻤﻬﺮيج الكبير والملاعب والمتنزهات والمقابر، والقناطر والخنادق والاستراحات في ارباض ينة وأحوازها. ويعالج الباب الثالث معالم الحياة الإجتماعية ومظاهرها، فقد وصل عدد سكان ﻳﻨﺔ تلمسان ما بين القرنين السابع والثامن الهجريين، نحو خمسة وعشرين ألف عائلة من

مختلف الأصول العرقية، والقبائل والطوائف التي سكنت مدينة تلمسان في العهد الزياني، إلا أن غالبية السكان كانوا من البربر والعرب ، وتوافد على تلمسان العديد من الجاليات وخاصة منها الجالية الأندلسية، التي استثمرت مواهبها العلمية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والفنية، في تطوير المدينة وفي تسيير دواليب الدولة ومؤسساتها، وقد استطاعت البيئة التلمسانية، أن تقلل من الفوارق الأصلية والثقافية والإجتماعية بين السكان، وأن تصهرهم جميعا في عاداتها وتقاليدها المميزة. ووضحنا أشهر الأسر النبيهة مما يتيح رسم خريطة تقريبية لتوزيع السكان داخل المدينة.

خضع المجتمع التلمساني للتقسيم الفئوي في العهد الزياني، أفرزته ظروف المعيشة والبيئة، وسلوك الفرد وطموحاته واجتهاده في الحياة، وفرضتها الأوضاع الإجتماعية والثقافية والإقتصادية في المجتمع الحضري، فإذا كانت الفئة الفقيرة تتسم بالبساطة، فإن الفئة الخاصة تتميز بالتأنق في المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وتتفنن في ضروبه وأصنافه، وأعطى بذلك للمجتمع التلمساني تقاليده وعادته وأعراضه وأخلاقه، ولم يبخل على نفسه بالتسلية في أوقات الفراغ والراحة بالخروج إلى الحدائق والغابات والشلالات، والتمتع بمجالس الطرب والغناء الزناتي والموشحات، في الحفلات العامة والخاصة والإقبال على الملاهي ومجالس الخمر، الشيء الذي نتج عنه بعض العادات الشادة والآفات الإجتماعية المقلقة في بعض الأوساط.

وبالغ التلمسانيون في الاحتفال بالأعياد الدينية والمواسم، وختم القرآن وإحياء ليلة المولد الشريف، وحضور المواكب الرسمية والزواج الذي كان يتم بين العروسين في سن مبكرة في غالب الأحيان، وظاهرة تعدد الزوجات كان شائعا في تلمسان، ومنهم من عزف عن الزواج، لكثرة نفقاته، وبسبب طلب العلم والدراسة، والتفرغ لها، أو زهدا وخشية من عدم معاشرة الزوجة بالمعروف.

وكان التنافس شديدا على المرأة العالمة النبيهة الذكية، وذات المنبت الطيب، في حين فضل العوام المرأة الجميلة البدينة الشقراء. وكان عدد النساء أكثر من عدد الرجال، بسبب الحروب المستمرة التي خاضها السكان، مخلفة عددا كبيرا من الأرامل، كما أن تجارة الجواري أسفرت عن اكتظاظ الأسواق بهن، فعز الأزواج، وكثرت الأرامل والعوانس.

وكانت للأقليات النصرانية واليهودية هي الأخرى، عاداتها وتقاليدها ونمط حياتها الذي يزها عن المسلمين، فقد اكتسب المجتمع التلمساني عاداتٍ وتقاليد إجتماعية ترسخت في ينه، وصارت جزءا من كيانه وسلوكاته تتسم بالطابع الاسلامي وتعاليمه، متقيدة بمبادىء ذهب وآرائه.

وفيما يخص الناحية الفكرية والعلمية بمدينة تلمسان، فقد شهدت حركة دؤوبة ونموا مطردا، ن الحياة السياسية القلقة، التي عاشتها حاضرة بني زيان، في بعض الفترات من تاريخها، لم ثر بشكل مباشر على الحياة العقلية السائدة في المدينة، أو تعرقل نموها، ويعود ذلك إلى بعض موامل المستمدة من البيئة التلمسانية ومن واقعها المادي والبشري.

فقد تميز الزيانيون بعنايتهم بالثقافة والعلم ورعايتهم للآداب والفنون وتقديرهم لأصحابها، شجيعهم على الدرس والتأليف، واحتضانهم لصفوة العلماء والأدباء والفقهاء والوافدين، من واضر المغرب الإسلامي، وتوفير المناخ المناسب للبحث، والتحصيل والابداع، وأغدق سلاطين والأمراء عليهم المنح والعطايا السخية وقربوهم الى البلاط وأدمجوهم في مجالسهم، وكان رحلة العلمية دورُها البارزُ في تكوين العلماء وتوسيع معارفهم، وتوطيد الروابط الثقافية وتواصلها ن الأوطان والأجيال.

ويعد التعليم حجر الزاوية في دفع الحركة العلمية والفكرية وتوسيع رقعتها وتعميقها وترقية جتمع حضاريا، وقد لعبت المدارس دورا هاما في هذه الحركة وحافظت على حيوية التعليم سني المالكي، ولم يقتصر التحبيس على الدولة فقط بل ساهم فيه الأفراد، وأهميته تكمن في نفاق على الطلاب والأساتذة والمدارس والمساجد والزوايا والكتاتيب، وبفضله استمرت لائف هذه المؤسسات في الاطلاع برسالتها.

تغذت الحركة الفكرية في تلمسان برافدين هامين رافد الأندلس ورافد المشرق، فتعمق تحصيل وتنوع الإقتباس، ودخلت حلقات الدرس ومجالس العلم بالحضرة التلمسانية مختلف ؤلفات المشرقية والأندلسية والمغربية، فتوسعت التيارات الفكرية المتعددة كتيار الاجتهاد في إطار ذهب والسلف وتيار التصوف، وبرز المذهب الأشعري في المعتقدات والمذهب الملكي في

الفقهيات، وازدهرت حركة الجدل والمناظرات الشفوية والمكتوبة بين فقهاء تلمسان، وغيرهم من فقهاء الأندلس والمغرب ومصر، تناولت الفقه المالكي والتفسير والتصوف والكلام واللغة والمنطق وبعض المسائل الفكرية الأخرى.

وقد وجدت هذه التيارات صدى لها في عقول الفئات المثقفة وفي وجدانهم، فاهتموا بالتصوف لتحقيق كمال الانسان الأخلاقي، ومعرفة الحقيقة وسعادة الروح واعتنوا بدراسة القرآن وتفسيره، وبالحديث عناية كبيرة، وتوسعوا في دراسة اللغة العربية وعلم البيان، ولم يهملوا العلوم العقلية والطبيعية، فكانت هي الأخرى لها مكانتها بين علماء تلمسان، ولاسيما تلك التي تكمل العلوم النقلية، وتخدمها كالعلوم العددية من فرائض وحساب وجبر وهندسة ومنطق. وطب وفلك، فكان لعلماء الحضرة نصيبٌ معتبرٌ في دراستها والتأليف فيها. فأثروا بذلك الساحة الفكرية والثقافية، ودفعوا بهذه العلوم نحو الازدهار ونبغ فيها العديد من التلمسانيين، تميزوا بعمق التفكير وغزارة التحصيل، ساهموا في الحركة الفكرية والنهضة العلمية في حواضر المغرب والاندلس والمشرق.

الملاحق

ملحق

سلاطين بني زيان

(633ـ962 هـ/ 1235ـ1554)

1 ـ أبو يحي يغمراسن بن زيان: 633ـ681 هـ/ 1235ـ1282 م

2ـ أبو سعيد عثمان الأول بن يغمراسن: 681ـ703 هـ/ 1282ـ1303 م

3ـ أبو زيان محمد بن عثمان الأول: 703ـ707 هـ/ 1303ـ1307 م

4ـ أبو حمو موسى بن عثمان الأول: 707ـ718 هـ/ 1307ـ1318 م

5ـ أبوتاشفين الأول عبد الرحمن بن أبي حمو الأول: 718ـ737 هـ/ 1318ـ1337 م

6ـ أبو سعيد عثمان الثاني: 749ـ753 هـ/ 1348ـ1352 م

7ـ أبو حمو موسى الثاني بن أبي يعقوب يوسف: 760ـ791 هـ/ 1359ـ1389 م

8ـ أبو تاشفين الثاني عبد الرحمن بن أبي حمو الثاني: 791ـ795 هـ/ 1389ـ1392 م

9ـ أبو ثابت يوسف بن أبي تاشفين الثاني: 795ـ796 هـ/ 1392ـ1393 م

10ـ أبو الحجاج يوسف بن أبي حمو الثاني: 796ـ797 هـ / 1393ـ1394 م

11ـ أبو زيان الثاني عبد الرحمن بن أبي حمو الثاني: 797ـ801 هـ/ 1394ـ1399 م

12ـ أبو محمد عبد الله الأول بن أبي حمو الثاني: 801ـ804 هـ/ 1399ـ1402 م

13ـ أبو عبد الله محمد الأول المعروف بابن خولة: 804ـ 813 هـ/ 1402ـ1412 م

14ـ عبد الرحمن الثالث: 813ـ814 هـ/ 1411ـ1411 م

15ـ السعيد بن أبي حمو الثاني: 814ـ814 هـ/ 1412ـ1412 م

16ـ أبو مالك عبد الواحد بن حمو الثاني (المرة الأولى): 814ـ 827 هـ/ 1412ـ1424 م

17- أبو عبد الله محمد الثاني المعروف بابن الحمراء (المرة الأولى): 827- 831 هـ/ 1424- 1428م

18- أبو مالك عبد الواحد (المرة الثانية): 831- 833 هـ/ 1428- 1430 م

19- أبو عبد الله محمد الثاني (المرة الثانية) 833- 834 هـ/ 1430- 1431م

20- أبو العباس أحمد العاقل بن أبي حمو الثاني: 834- 866 هـ/ 1431- 1462 م

21- أبو عبد الله محمد الثالث المتوكل على الله: 866- 873 هـ/ 1462- 1468 م

22- أبو عبد الله محمد الرابع الثابتي: 873- 910 هـ/ 1468- 1505 م

23- أبو عبد الله محمد الخامس بن محمد الثابتي: 910- 922 هـ/ 1505- 1516 م

24- أبو حمو الثالث بن محمد الثابتي (المرة الأولى): 922- 923 هـ/ 1516- 1517 م

25- أبو زيان أحمد الثالث: 923- 924 هـ/ 1520- 1521 م

26- أبو حمو الثالث محمد الثابتي (المرة الثانية) 924- 934 هـ/ 1521- 1528 م

27- عبد الله بن أبي حمو الثالث بن محمد الثابتي: 934- 947 هـ/ 1528- 1540 م

28- أبو زيان أحمد الثاني بن عبد الله الثاني: 947- 949 هـ/ 1540- 1542 م

29- أبو عبد الله محمد بن أبي حمو: 949- 949 هـ/ 1542- 1542 م

30- أبو زيان أحمد الثاني بن عبد الله الثاني (المرة الثانية): 949- 957 هـ/ 1542- 1550 م

31- الحسن بن عبد الله الثاني الزياني: 957- 962 هـ/ 1550- 1554 م

قائمة المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة :

■ ابن أبي البركات : يحي عبد الله (كان حيا سنة 883 / 1478) .

- بشائر الفتوحات والسعود في أحكام التقديرات والحدود الخزانة الحسنية (الملكية) الرباط رقم 103 .

■ ابن الأعرج : محمد الحسني السلماني :

- زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ الخزانة الحسنية الرباط رقم 170 .

■ ابن الاعرج محمد بن محمد الحسني السلماني الفاسي .

- اللسان المعرب عن تهافت المعمرين حول المغرب ، الخزانة الحسنية الرباط رقم 297 .

■ ابن ادريس محمد رضا :

- المقالة المرومة في الرحلة الى تلمسان وندرومة ، الخزانة العامة الرباط صورة طبق الأصل ملكية خاصة .

■ ابن باق الأموي : أبو الحسن علي محمد بن محمد (ت في النصف الثاني من القرن 8 هـ / 14 م) .

- زهرة الروض في تلخيص تقدير الفرض ، الخزانة العامة الرباط صورة طبق الأصل ملكية خاصة .

■ ابن حيان : أبو مروان يخلف القرطبي (ت 469 / 1076)

- المقتبس في أخبار رجال الأندلس ميكروفيلم معهد المخطوطات جامعة الدول العربية القاهرة رقم 208 .

■ **ابن خطاب أبو بكر الاندلسي (ت 686 / 1287)**

ـ فصل الخطاب في نثر أبي بكر بن خطاب، الخزانة العامة الرباط رقم د. 773.

■ **ابن الخطيب: لسان الدين (ت 776 هـ / 1374)**

ـ السحر والشعر الخزانة العامة الرباط رقم د. 1295.

■ **ابن سهل: عيسى بن أصبع عبد الله الأسدي (ت 486. 1093)**

ـ نوازل الأحكام في مذاهب الحكام، الخزانة العامة رقم د. 1728.

■ **ابن صعد: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري(ت 901. 1495)**

ـ النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب الخزانة الحسنية الرباط رقم 2491.

■ **ابن عرضون:**

ـ مفتاح المحتاج في أدب الأزواج مخطوطة بالخزانة العامة الرباط تحت رقم د. 766.

■ **ابن عميرة: رسائل ابن عميرة مخطوطة بالخزانة العامة الرباط رقم ك 233.**

■ **ابن قنفذ القسنطيني: أبو العباس أحمد الخطيب (ت 810. 1407)**

ـ تحفة الوارد في الاختصاص الشرف من الوالد، صورة طبق الأصل، ميكرو فيلم الخزانة العامة رقم 20.

■ **ابن مرزوق: أبو عبد الله محمد الخطيب (781/ 1379).**

ـ المجموع، ميكرو فيلم الخزانة العامة رقم 20.

■ ابن يحي أبو القاسم عبد الرحمن :

ـ شرح مختصر الحوفي، الخزانة الحسنية الرباط رقم 3112.

■ أبو أسحاق أبراهيم التلمساني :

ـ رسالة في الأدوية الخزانة الحسنية الرباط رقم 8545.

■ **أبو راس المعسكري : محمد بن أحمد بن ناصر الراشدي : (1238 / 1822)**

ـ عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، دار الكتب التونسية تونس رقم 262.

■ **التنسي : محمد بن عبد الله بن عبد الجليل الحافظ (ت 899 / 1493)**

ـ الطراز في شرح الخراز المكتبة الوطنية الجزائر رقم 391.

■ **الثعالبي : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 875 / 1470)**

ـ كتاب الجامع الخزانة الحسنية الرباط رقم 8155.

■ **السنوسي : محمد بن يوسف (ت 895 هـ / 1489)**

ـ تفسير ما تضمنته كلمات خير البرية من غامض اسرار الصنعة الطبية مكتبة الأسد الوطنية دمشق رقم 7136.

■ **السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن (ت 911/ 1505)**

ـ المحاضرات والمحاورات، الخزانة الحسنية الرباط رقم 3755.

■ العزفي : أبو العباس بن محمد بن أحمد اللخمي (ت 633 / 1236)

- الدر المنظوم في مولد النبي المعظم، الخزانة العامة الرباط تحت رقم د. 14695 .

■ المازوني محمد بن أبي عمران المغيلي (ت 833 هـ / 1478م) .

- الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة، الخزانة العامة الرباط تحت رقم ق 521 .

■ المقري : أبو عبد الله محمد بن أحمد القرشي (ت 750 / 1349)

- القواعد الفقهية، دار الكتب الوطنية بتونس رقم 1468 .

■ الملالي : محمد بن محمد بن ابراهيم (توفي في القرن 10 / 16)

- المذاهب القدسية في المناقب السنوسية، دار الكتب الوطنية تونس رقم 6253 .

■ المنجور:

- فهرسة المنجور مخطوط بالخزانة الملكية الرباط ميكروفيلم رقم 20 .

■ المتورى أبو عبد الله محمد بن عبد الملك :

- فهرس المنتوري الخزانة الحسنية الرباط رقم 1578 .

■ مؤلف مجهول :

- زهر البستان في دولة بني زيان مكتبة جون رايلندس مانشيستر رقم 283 (بريطانيا) .

مؤلف مجهول :

ـ شذرات في الحسبة قسم المخطوطات المكتبة الوطنية الجزائر رقم 1376 .

الونشريسي : أبو العباس أحمد التلمساني (ت914 / 1508) .

ـ اختصار من المنهل الفائق والمنهل الرائق، الخزانة العامة الرباط رقم د. 68 .

المصادر المطبوعة :

■ ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (ت 658 / 1260)

ـ التكملة لكتاب الصلة الجزء الثاني طبع بمكتبة نشر الثقافة الاسلامية القاهرة 1965.

ـ أعتاب ا لكتاب ، تحقيق صالح الأشتر مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق 1961 .

■ ابن تومرت : محمد المهدي :

ـ أعز ما يطلب تقديم وتحقيق عمار طالبي المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 .

■ ابن الأثير: علي بن محمد بن عبد الكريم الجزيري (ت 630 / 1232)

ـ الكامل في التاريخ الجزء السابع ، عُني بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي بيروت 1984 .

■ ابن الأثير: ضياء الدين :

ـ رسائل ابن الأثير، تحقيق أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين بيروت 1959 .

■ ابن الأحمر: أبو الوليد اسماعيل (ت 810 / 1408).

ـ روضة النسرين في دولة بني مرين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور مطبوعات القصر الملكي ، المطبعة الملكية الرباط 1382 / 1962 .

ـ مستودع العلامة ومستبدع العلامة ، تحقيق محمد التركي التونسي ومحمد ابن تاويت، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط بدون تاريخ .

ـ النثير الجمان في شعر من نظمني وأياه الزمان ، مؤسسة الرسالة بيروت بدون تاريخ .

■ ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن أحمد:
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم، نشر الدار المصرية.

■ ابن بطوطة: محمد بن عبد الله اللواتي (ت 756 / 1355)
- رحلته المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار جزءان، حققه وقدم له وعلق عليه، علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت 1985.

■ ابن أبي جمعة: أحمد بن محمد المغراوي:
- جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان، تحقيق أحمد جلولي البدوي ورابح بونار الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر.

■ ابن أبي حجلة التلمساني (ت 776 / 1374):
- ديوان الصبابة، منشأة المعارف الاسكندرية بدون تاريخ.

■ ابن أبي دينار: أبو عبد الله الرعيني (ت 1110 / 1699):
- المؤنس في أخبار افريقية وتونس، تونس 1967.

■ ابن أبي زرع: علي بن عبد الله الفاسي (ت 726 / 1326):
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار وملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق وطبع دار المنصور للطباعة والرواقة الرباط 1973.

■ ابن أبي الضياف أحمد (ت 1291 / 1884)

ـ اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان، نشرته كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار تونس 1963 .

■ ابن البناء المراكشي العددي (ت 721 / 1321)

ـ الروض المريع في صناعة البديع، تحقيق رضوان بن شقرون دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985 .

■ ابن تيمية : تقي الدين أحمد (ت 728 / 1328)

ـ الحسبة في الاسلام، دار الفكر للطباعة، والنشر بيروت .

■ ابن ثغري بردي : أبو المحاسن جمال الدين (871 هـ / 1469)

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية القاهرة 1966 .

■ ابن جعفر: أبو الفرج قدامة البغدادي (320 / 932م)

ـ البيان في وجوه البيان (نقد النثر) دار الكتب المصرية القاهرة 1933 ودار الكتب العلمية بيروت 1982 .

■ ابن الحاج النميري : ابراهيم بن عبد الله بن محمد (ت مابعد 774 / 1332)

ـ فيض العباب وافاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة الى قسنطينة والزاب، قام بإعداده ودراسته محمد بن شقرون الرباط بدون تاريخ .

■ ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي (ت 852 / 1448)

ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (4) اجزاء مطبعة حيدر آباد 1945 ـ 1950.

■ ابن الحوقل: أبو القاسم محمد (ق. 4/ 10)

ـ صورة الأرض ليدن 1939.

■ ابن الخطيب: لسان الدين (ت 776 / 1374)

ـ الاحاطة في أخبار غرناطة حققه وقدم له محمد عبد الله عنان، دار المعارف بمصر بدون تاريخ.

ـ أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد الكتاني، دار الكتاب الدار البيضاء 1964.

ـ اللمحة البدرية في الدولة النصرية، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت 1978.

ـ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب تحقيق وتقديم السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1989.

■ ابن خلدون: أبو زكريا يحي بن محمد (ت 780/ 1378)

ـ بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد (جزءان) نشره وترجمه الى الفرنسية الفريد بل مطبعة غرناطة الجزائر 1903 ـ 1910.

ـ بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائر 1980.

■ ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن عُمر (ت 808 / 1405)

ـ المقدمة، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 1968 .

■ ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ / 1405)

ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، الجزءان السادس والسابع، طبعة بيروت 1968 وطبعة بولاق 1870 .

ـ التعريف بابن خلدون رحلته غربا وشرقا، عارضه بأصوله وعلق حواشيه محمد بن تاويت الطنجي لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1951 .

■ ابن خلكان أبو عباس أحمد بن محمد (ت 681 هـ / 1283)

ـ وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان (8) أجزاء تحقيق احسان عباس مطبعة الغرب بيروت 1968 .

■ عبد الوهاب بن منصور

ـ المنتخب النفيس في شعر أبي عبد الله بن خميس، مطبعة ابن خلدون تلمسان 1365 هـ.

■ ابن رزين التجيبي

ـ فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان صورة من فن الطبخ في الأندلس والمغرب في بداية عصر بني مرين. حققه وقدم له محمد بن شقرون، دار الغرب الاسلامي بيروت 1984 .

■ ابن رشد: أبو الوليد بن أحمد (ت 520 / 1126م):

ـ فتاوي ابن رشد تقديم وتحقيق المختار التليلي الجزء الأول دار الغرب الاسلامي بيروت 1987.

■ ابن الزيات التادلي، أبو يعقوب يوسف (ت 617 هـ / 1220):

ـ التشوف الى رجال التصوف واخبار أبي العباس السبتي تحقيق أحمد التوفيق منشورات كلية الآداب الرباط 1984.

■ ابن سحنون أحمد الراشدي:

ـ الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي مطبعة البعث قسنطينة 1973.

■ ابن سعيد المغربي أبو الحسن علي بن موسى (ت 685 هـ / 1268):

ـ كتاب الجغرافيا حققه وقدم له وعلق عليه اسماعيل العربي ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982.

■ ابن سعد عريب القرطبي (ق 4هـ / 10م):

ـ كتاب خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولدين، اعتنى بتصحيحه وترجمته والتعليق عليه نور الدين عبد القادر والحكيم جاهيه، منشورات كلية الطب والصيدلة مكتبة فراريس جـ 3 الجزائر 1956.

■ ابن سينا: أبو علي الحسين بن عبد الله (ت 428 / 1037م):

ـ القانون في الطب القاهرة 1294 هـ / 1877.

■ ابن طباطبا: محمد بن علي المعروف بالطقطقي (ولد سنة 660 / 1261):

ـ المفخري في الآداب السلطانية بيروت 1960 .

■ ابن عبد الحكم: عبد الرحمن بن عبد الله (ت 276 هـ / 889م):

ـ فتوح افريقية والأندلس حققه وقدم له عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 1964 .

■ ابن عبد الملك: أبو عبد الله محمد الانصاري (ت 703 هـ / 1303):

ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة (جزءان) تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة مطبعة أكاديمية المملكة المغربية الرباط 1984 .

■ ابن عبدون: محمد بن أحمد التجيبي (ت ق 5هـ / 11م):

ـ رسالة في القضاء والحسبة، نشرها ليفي بروفنسال وترجمها إلى الفرنسية، المجلة الأسيوية جوان 1934 .

■ ابن عذارى: أبو العباس أحمد المراكشي (كان حيا سنة 712 هـ / 1312):

ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ثلاثة أجزاء نشره ليفي بروفنسال وكولان، دار الثقافة بيروت 1967 .

ـ والجزء الرابع الخاص بالموحدين، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد ابن تاويت، محمد زنيبر وعبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي بيروت 1985 .

■ابن العديم الحلبي: عمر بن أحمد (ت 660 هـ/ 1261م):

ـ زبدة الحلب في تاريخ حلب المطبعة الكاثوليكية بيروت 1968.

■ابن عماد الحنبلي (ت 1085 هـ/ 1674):

ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت بدون تاريخ.

■ابن غالب: محمد بن أيوب الأندلسي:

ـ فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق لطفي عبد البديع، قطعة منشورة في مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة 1955.

■ابن فرحون: برهان الدين (ت 799 هـ/ 1397):

ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلمية لبنان بيروت بدون تاريخ، والنسخة المحققة من طرف محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطباعة والنشر القاهرة 1976.

ـ قيصرة الحكام جـ2 القاهرة 1937.

■ابن فرضي: عبد الله محمد الأزدي (ت 403 هـ/ 1013م):

ـ تاريخ علماء الأندلس جزءان تحقيق ابراهيم الأبياري دار الكتاب اللبناني بيروت 1984.

■ ابن القاضي أحمد بن محمد بن أحمد: (1025 / 1316):

ـ لـقـط الفرائد مـن لفاظـة حقق الفوائد، مطبوعات دا ر الغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1976 .

ـ ذرة الحجال في غرة اسماء الرجال القاهرة 1970 .

ـ جدوة الإقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس طبعة حجرية فاس 1309 / 1891 .

■ ابن القطان: أبو الحسن علي بن محمد (ت 628 / 1230):

ـ نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق وتقديم محمود علي مكي، دار الغرب الاسلامي بيروت 1987، و طبعة جامعة محمد الخامس الرباط .

■ ابن قنفذ: أبو العباس أحمد القسنطيني (ت 810 هـ / 1407):

ـ الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية، تقديم، وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر تونس 1968 .

ـ شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1976 .

ـ أنس الفقير وعز الحقير، نشره وصححه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب الرباط 1965 .

ـ كتاب الوفيات، تحقيق عادل نويهض منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت 1971 .

■ ابن مرزوق: أبو عبد الله محمد الخطيب (ت 781 هـ / 1379):

ـ المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن تحقيق ماريا خيسوس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981 .

■ابن مريم أبو عبد الله محمد بن أحمد (كان حيا سنة 1014 هـ / 1605) :
ـ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشره محمد بن أبي شنب وقدم له عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1986 .

■ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي (ت 711 هـ / 1211م) :
ـ لسان العرب المحيط (معجم لغوي) دار لسان العرب بيروت بدون تاريخ

■ ابن الموقت محمد بن محمد:
ـ تقصير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس، طبعة حجرية بفاس (1336 هـ / 1917) .

■ابن ناجي : أبو الفضل القاسم بن عيسى (ت 839 هـ / 1435م) :
ـ ذيل معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان تونس 1320 / 1902 .

■ابن هشام :
ـ السيرة النبويةطبعة القاهرة 1955 .

■ أبو حمو العبد الوادي : (ت 791 هـ / 1389) :
ـ كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك، مطبعة الدولة التونسية تونس 1379 هـ / 1862 .

■أبو شامة : عبد الرحمن اسماعيل الدمشقي (ت 665 هـ / 1268) :
ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية القاهرة 1962 .

■ أبو الفداء اسماعيل علي :

ـ تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية باريس 1840 .

■ **أبو عصيدة أحمد البجائي (ت 865 هـ / 1463 م) :**

ـ رسالة الغريب إلى الحبيب ، تعريف وتعليق وتلخيص أبو القاسم سعد الله ، دار الغرب الإسلامي بيروت .

■ **اخوان الصفا (ت ق 4 هـ / 10م) :**

ـ الرسائل الجزء الأول ، نشره خير الدين الزركلي طبع بمصر 1928 .

■ **الادريسي أبو عبد الله محمد الشريف (ت 548 / 1154) :**

ـ القارة الافريقية وجزيرة الاندلس من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق وتقديم وتعليق اسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1983 .

ـ المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق ، حققه ونقله الى الفرنسية محمد حاج صادق ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1983 .

■ **الاصطخري ابو اسحاق ابراهيم (ت 339 هـ / 950م) :**

ـ كتاب المسالك والممالك تحقيق الاستاذ محمد جابر عبد الله ومحمد شفيق غربال دار القلم القاهرة 1961 وكذلك طبعة ذي خويه ليدن 1927 .

■ **الباروني :**

ـ الازهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، مطبعة الازهار البارونية بمصر بدون تاريخ .

■ البخاري : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي :

ـ صحيح البخاري الجزء السادس ، شركة الشهاب ـ الجزائر بدون تاريخ .

■ البكري عبيد الله بن عبد العزيز (ت 487 هـ / 1094) :

ـ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشره البارون دي سلان الجزائر 1911 .

■ البيدق أبو بكر بن علي الصنهاجي (ت أواخر القرن 6 هـ / 12م) :

ـ كتاب أخبار المهدي بن تومرت ، تقديم وتحقيق ، وتعليق عبد الحميد حاجيات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1974 والنسخة التي نشرها ليفي بروفنسال 1928 .

■ التنبكتي أحمد بابا (ت 1032 / 1624) :

ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، دار الكتب العلمية بيروت .

■ التجاني أبو محمد عبد الله (ت حوال 717 / 1317) :

ـ رحلة التيجاني ، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس ، 1981 .

■ الترمذي :

سنن الترمذي الجزء الثالث القاهرة 1356 / 1937 .

■ **التنسي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل الحافظ (ت 899 / 1493) :**

ـ نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه وعلق عليه محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985.

ـ نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان (الجانب الأدبي) تقديم وتحقيق وتعليق بوطالب محي الدين، منشورات دحلب الجزائر 1993.

■ **الثعالبي أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (875 / 1470) :**

ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن تحقيق عمار طالبي المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985.

■ **الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ / 868م) :**

ـ الرسائل طبع بمصر 1324.

ـ البيان والتبيين الجزء الأول القاهرة 1313 هـ / 1895 م

■ **الجزنائي أبو الحسن علي :**

ـ زهرة الآس في مدينة فاس ألفريد بيل الجزائر 1922.

■ **حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله (ت 1067 هـ / 1656) :**

ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طبع وكالة المعارف الحلبية 1362 ـ 1934.

■ **الحريري :**

ـ المقامات الأدبية، القاهرة 1950.

■ الحفناوي أبو القاسم محمد:

ـ تعريف الخلف برجال السلف (قسمان) في مجلد، مؤسسة الرسالة المكتبة العتيقة تونس 1985.

■ الحميري، محمد بن عبد المنعم السبتي (ت في أواخر القرن 9هـ/ 15م):

ـ كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار (معجم جغرافي) تحقيق احسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة بيروت 1980.

■ الخشني أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد (ت 361 هـ/ 971م):

ـ طبقات علماء افريقية نشره ابن أبي شنب الجزائر 1333 / 1914.

■ خليل ابن اسحاق بن موسى (ت 769/ 1365م):

ـ مختصر العلامة خليل، تحقيق أحمد نصر، دار الفكر بيروت 1979.

■ الدرعي محمد بن ناصر:

ـ أجوبة محمد بن ناصر الدرعي طبعة حجرية بفاس بدون تاريخ.

■ الذهبي الحافظ: شمس الدين محمد (ت 748 هـ/ 1347م):

ـ دول الاسلام جزءان طبع حيدر أباد 1364 هـ.

■ الرصاع: أبو عبد الله محمد الأنصاري:

ـ فهرسة الرصاع، تحقيق محمد العنابي مكتبة العتيقة تونس 1967.

■ **الرقيق القيرواني أبو اسحاق ابراهيم (ت. ق 5 هـ / 11م):**

ـ تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي تونس 1968 .

■ **الزجالي: عبد الله أحمد بن محمد (ت 694 هـ / 1294)**

ـ أمثال العوام بالأندلس القسم الثاني، تحقيق بن شريفة فاس 1971 ـ 1975 .

■ **الزركشي: ابو عبد الله محمد بن ابراهيم (كان حيا سنة 894 هـ 1488م):**

ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماظور المكتبة العتيقة تونس بدون تاريخ.

■ **الزركلي: خير الدين:**

ـ الاعلام قاموس تراجم المكتبة المصرية القاهرة 1927 .

■ **الزياني: محمد بن يوسف:**

ـ دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1978 .

■ **السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (902 هـ / 1497):**

ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع القاهرة 1355 / 1936 .

■ السقطي : أبو عبد الله محمد بن أبي محمد عاش في القرن 6 هـ 12 م) :
- في آداب الحسبة، تحقيق ومراجعة حسن الدين ، مؤسسة دار الفكر الحديث بيروت 1987.

■ السلاوي: أبو العباس أحمد الناصري (ت 1315 / 1897) :
- الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى المطبعة البهية مصر 1321-1894 :

■ الشريف التلمساني : أبو عبد الله محمد (ت 771 هـ / 1369 م) :
- مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف مكتبة الخانجي مصر 1962 .

■ الشعراني : عبد الوهاب :
- الطبقات الكبرى طبعة القاهرة 1343 هـ

■ الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم (ت 548 هـ / 1153 م)
- الملل والنحل : طبعة القاهرة 1923 .

■ الطبري : أبو جعفر محمد (ت 310 هـ / 923 م)
- تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم دار المعارف القاهرة 1964 :

■ الطرطوشي : أبو بكر محمد بن الوليد :
- سراج الملوك المطبعة الأزهرية القاهرة 1319 / 1901 .

■ العبدري : أبو عبد الله محمد بن محمد توفي في أواخر (ق 7 هـ / 13 م)

ـ رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسي جامعة محمد الخامس الرباط 1968 .

■ عفيف الدين : أبو الربيع التلمساني (توفي 690 هـ / 1291 م) :

ـ ديوان أبي الربيع عفيف الدين التلمساني الصوفي حققه وقدم له وعلق عليه العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1994 .

■ العمري : شهاب الدين ابن فضل الله (ت 749 هـ / 1348 م) :

ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار القطعة المنشورة في كتاب ورقات عن الحضارة المغربية لمحمد المنوني، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط بدون تاريخ .

ـ وصف إفريقية والأندلس تحقيق حسن حسني عبد الوهاب مطبعة النهضة بتونس بدون تاريخ .

ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصر مطبعة دار الكتب العربية القاهرة 1924 م .

■ العقباني : محمد بن أحمد بن قاسم (ت 871 هـ / 1466) :

ـ تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر تحقيق علي الشنوفي نشره في Bultin d'etudes orientales institut de France a damas tome 19 année 1965 - 1966.

■ عياض : أبو الفضل العصبي السبتي (ت 544 هـ / 1149) :

ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك، تحقيق أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحية بيروت .

ـ الغنية (فهرسة شيوخ عياض) تحقيق ماهر زهير حرار، دار الغرب الاسلامي بيروت 1982 .

■ الغبريني : أبو العباس احمد بن أحمد (ت 704 / 1304) :

ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981 .

■ الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد (ت 505 هـ / 1111م) :

ـ احياء علوم الدين . دار الثقافة الجزائر 1991 .

■ الفكون عبد الكريم شيخ الاسلام (ت 1073 / 1662) :

ـ منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية . تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله ، دار الغرب الإسلامي بيروت 1987 .

■ القشيري : عبد الكريم ، ابن هوازن (ت 465 / 1072) :

ـ الرسالة القشيرية ط القاهرة 1330 هـ / 1911 م

ونشرة محمد حسين اكستان 1384 / 1964 .

■ **القلصادي : علي بن محمد بن محمد القرشي الاندلسي (ت 891 / 1486) :**

ـ رحلة القلصادي دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان الشركة التونسية للتوزيع تونس 1978 .

■ **القلقشندي : أبو العباس احمد بن علي (ت 821 هـ / 1418) .**

ـ صبح الأعشى في صناعة الانشاء، المطبعة الاميرية القاهرة 1333 / 1915 .

ـ نهاية الأرب في معرفة انساب العرب القاهرة 1959 .

■ **الكتاني : أبو العباس أحمد بن عبد الحي .**

ـ الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب الامام ادريس ط حجرية فاس 1314 / 1891 .

■ **الكلاعي أبو القاسم :**

أحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية بيروت 1966 .

■ **مارمول كربخال :**

ـ افريقيا ثلاثة اجزاء ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع الرباط 1988 ـ 1989 .

■ **المالكي : أبو بكر عبد الله (ت ق 5/ 11) :**

ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكم، وسيرهم واخبارهم وفضائلهم، تحقيق حسين مؤنس القاهرة 1951 .

■ **الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد (ت 450 / 1058) :**

ـ الاحكام السلطانية مطبعة الوطن القاهرة 1298 هـ / 1880) .

■ المجيلدي : أحمد سعيد (ت 1094 / 1683) :
- التيسير في أحكام التسعير، تقديم وتحقيق موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981 .

■ المراكشي : محي الدين عبد الواحد (ت في النصف الثاني من القرن 7هـ / 13 :
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد السعيد العريان القاهرة 1963 .

■ مخلوف محمد بن محمد :
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية المطبعة السلفية القاهرة 1349 هـ وطبعة بيروت .

■ المرورزي : شرف الزمان الطاهر
- أبواب منتخبة من كتاب طبائع الحيوان ، تحقيق ف . ميتورسكي طبعة ليدن 1942 .

■ مسلم النيسابوري : أبو الحسن
- صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار احياء الكتب المصرية 1955 .

■ المشرفي : عبد القادر بن عبد الله محمد (ت 1192 / 1778) :
- نهضة الناظرين في اخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الاعراب بني عامر تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم منشورات دار مكتبة الحياة بيروت بدون تاريخ .

■ المغيلي : محمد بن عبد الكريم (ت 909 / 1503م) :
- مصباح الأرواح في أصول الفلاح ، تقديم وتحقيق رابح بونار الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1968 .

■ المقري : أبو عبد الله محمد

- الحقائق والرقائق ، تحقيق عبد القادر زمامة ، مجلة دعوة الحق عدد(8) جوان 1966 .

■ المقري : أحمد بن محمد التلمساني (ت 1401 / 1631) :

- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، حققه احسان عباس دار صادر بيروت 1968 .

- ازهار رياض في اخبار عياض ثلاثة اجزاء نشره مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي القاهرة 1942 .

■ المقريزي : أبو العباس تقي الدين (ت 845 / 1441) :

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ، مطبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة 1387 / 1967 .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مطبعة الساحل الجنوبي لبنان ومطبعة المثنى بغداد .

■ مؤلف مجهول : (عاش في ق 6 هـ / 12) :

- العيون والحدائق في اخبار الحقائق ج/ 4 ق / 1 وق 2 تحقيق نبيلة عبد المنعم داود بغداد 1972 .

■ مؤلف مجهول : (كان حيا سنة 712 / 1312) :

- نبذة تاريخية في اخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب «مفاخر البربر» نشره ليفي بروفنسال الرباط 1352 / 1934 .

■ مؤلف مجهول :

ـ الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، اعتني بنشره محمد بن أبي شنب الجزائر 1920 .

■ مؤلف مجهول :

ـ كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد المجلدان التاسع والعاشر مدريد 1961 ـ 1962 .

■ مؤلف مجهول :

ـ كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء 1979 .

■ النباهي : أبو الحسن علي بن محمد المالقي (ت ق 08 هـ / 14) :

ـ تاريخ قضاة الأندلس ، المعروف باسم كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا نشره ليفي بروفنسال القاهرة 1948، وطبعة بيروت 1983 .

■ النويري : أحمد عبد الوهاب (ت 732 / 1332) :

ـ من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية الدار البيضاء 1984 .

■ الوزان : حسن بن محمد الفاسي (ت 957 هـ / 1552) :

ـ وصف افريقيا جزءان ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1980 .

■ **الونشريسي : أبو العباس أحمد بن يحي (ت 914 / 1511) :**

ـ المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقيا والاندلس والمغرب خرجه جماعة من الفقهاء باشراف محمد حجي، دار الغرب الاسلامي بيروت 1981 .

ـ وفيات الونشريسي تحقيق محمد حجي مطبوعات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1976 .

■ **ياقوت الحموي : شهاب الدين (ت 626 / 1228) :**

ـ معجم البلدان دار المأمون بيروت 1357 / 1938 .

المراجع العربية الحديثة :

■ ابن شقرون محمد أحمد :

ـ مظاهر الثقافة المغربية من القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر دراسة في الأدب المغربي مطبعة الرسالة الرباط 1982 .

■ ابن عاشور محمد الفاضل :

أعلام الفكر الاسلامي، في تاريخ المغرب العربي، مكتبة النجاح بتونس .

■ ابن عمار أبو العباس أحمد :

نحلة اللبيب باختيار الرحلة الى الحبيب مطبعة فونتانة الجزائر 1902 .

■ ابن عميرة محمد :

دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الاسلامي الهيئة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 .

■ ابن قربة صالح :

ـ المئذنة المغربية والأندلسية في العصور الوسطى المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986 .

■ ابن منصور عبد الوهاب :

ـ أعلام المغرب العربي، الجزء الأول والثاني المطبعة الملكية الرباط 1979

ـ قبائل المغرب ، الرباط 1968 .

■ ابو الأجفان محمد الهادي :

الامام ابو عبد الله محمد المقري التلمساني، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1988 .

■ أبو حويج مروان سليم :

أصالة التثقيف التربوي الاسلامي في الفكر الأندلسي دار الجامعة الكويت 1987 .

■ أبو طالب المكي :

قوت القلوب ، المطبعة العربية القاهرة 1351 هـ .

■ اسكندر محمد المختار :

المفسرون الجزائريون منذ القرن الثاني الى القرن الرابع عشر الهجريين مطبعة دحلب الجزائر 1991 .

■ الأهواني أحمد فؤاد :

- التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي القاهرة 1955 .

■ أومليلي علي :

- الخطاب التاريخي لمنهجية ابن خلدون الرباط 1984 .

■ نجاة باشا :

- التجارة في المغرب الاسلامي خلال القرن 8 هـ / 14 م منشورات الجامعة التونسية 1976 .

■ ابن عبد الله عبد العزيز:

ـ مظاهر الحضارة المغربية نشر دار السلمى للتأليف والنشر والطباعة والتوزيع الدار البيضاء 1957 .

ـ معلمة الفقه المالكي ، دار الغرب الاسلامي بيروت 1983 .

■ بوتشيش ابراهيم القادري :

تاريخ الغرب الاسلامي (قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة) دار الطباعة بيروت 1994 .

■ بوخلخال عبد الله :

ـ التعبير الزمني عند النحاة العرب جزءان ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1987 .

■ بوروبية رشيد :

الحياة الفنية في عهد الزيانيين والمرينيين ، الجزائر في التاريخ تعريب محمد بلغراد المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 .

■ بوعياد محمود :

جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري 15 م الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982 .

■ بوقلي جمال الدين :

ـ الإمام بن يوسف السنوسي وعلم التوحيد ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 .

■بونار رابح :

المغرب العربي تاريخه وثقافته الشركة الوطنية للتوزيع والنشر الجزائر 1981 .

■ التركي عبد المجيد :

وثائق عن الهجرة الأندلسية الأخيرة الى تونس المطبعة الرسمية التونسية تونس 1967 .

■ التفتازاني أبو الوفا الغنيمي :

مدخل الى التصوف الاسلامي ، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة 1988 .

■توات محمد الطاهر:

- أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1993 .

■ الجزيري محمد عيسى :

- تاريخ المغرب الاسلامي والأندلس في العصر المريني ، دار العلم للنشر والتوزيع الكويت 1985 .

■ جلاب حسن :

- الدولة الموحدية أثر العقيدة في الأدب منشورات الجامعة مؤسسة الطباعة والنشر الدار البيضاء 1983 .

■ الجيدي عمر:
- محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في المغرب الاسلامي: منشورات عكاظ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1987.

■ الجيلالي عبد الرحمان محمد:
- تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة بيروت 1965.

■ حاجيات عبد الحميد:
- ابو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982.
- إحياء الدولة الزيانية، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.
- استمرار النفوذ المريني، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.
- امتداد نفوذ الحفصيين، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.
- الحياة الفكرية بالجزائر في عهد بني زيان، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.
- خطر النصارى وانهيار الدولة الزيانية. الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

■ حجي محمد:
- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ط الرباط 1986.

■ حركات ابراهيم:
- المغرب عبر التاريخ من بداية المرينيين الى نهاية السعديين نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء 1984.

■ الحريري محمد عيسى :

ـ تاريخ المغرب الاسلامي في العصر المريني دار القلم للنشـر والتوزيـع الكويـت 1985.

■ حمادي عبد الله :

ـ دراسات في الأدب المغربي القديم ، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة 1986 .

■ الخطابي محمد العربي :

ـ الطب والأطباء في الأندلس ، دار الغرب الاسلامي بيروت 1988 .

ـ فهارس الخزانة الحسنية الجزء الثاني الرباط 1982 .

■ دهينة عطا الله :

ـ الدولة الزيانية في عهد يغمراسن ، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 .

ـ الحصار الطويل ، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 .

ـ العصر الذهبي للزيانيين الجزائر في التاريـخ المؤسسـة الوطنيـة للكتـاب الجزائـر 1984 .

ـ الغزو المريني ، الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 .

ـ الحياة السياسية والإدارية ، الجزائر في التاريخ المؤسسـة الوطنيـة للكتـاب الجزائـر 1984 .

ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدولة بني زيان الجزائر في التاريخ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 .

■ الدولاتلي عبد العزيز:

- المدن العربية التقليدية بين الأصالة والمعاصرة ضمن كتاب الآثار الإسلامية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1985 .

■ زيدان جرجي :

- تاريخ الآداب العربية القاهرة بدون تاريخ .

■ زيتون عادل :

- العلاقات الإقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى سنة 1400 / 1980 .

■ السائح الحسن :

- الحضارة الاسلامية في المغرب، دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء 1986 م .

■ سالم عبد العزيز:

- المغرب الكبير العصر الإسلامي (دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية). الجزء الثاني الدار القومية للطباعة والنشر الإسكندرية 1966 .

- تاريخ وحضارة الاسلام في الأندلس مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع الاسكندرية 1985 .

- التاريخ والمؤرخون العرب، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر الإسكندرية 1967 .

■ سالم علي عمر:

- ابو الحسن الشاذلي الجزء الأول مطبعة دار التأليف مصر بدون تاريخ .

■ سعد لله ابو القاسم :

- تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر (16 ـ 20 م) الجزء الأول ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981 .

■ سليمان أحمد سعيد :

- تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة جزءان دار المعارف بمصر بدون تاريخ .

■ سوادي عبد محمد :

- الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية . دار الشؤون الثقافية العامة بغداد 1989 .

■ سوسي محمد :

- الرياضيات التطبيقية تطبيق الحساب على مسائل الفرائض في الفقه الاسلامي ضمن بحوث سلسلة التكريم مهداة الى محمد الطالبي المجلد الثاني منشورات كلية الآداب بمنوبة ـ تونس 1993 .

■ شاوش محمد رمضان :

باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1995 .

■ الشرقاوي حسن:

ـ معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع القاهرة 1987.

■ شريفي محمد بن سعيد:

ـ خطوط المصاحف عند المشارقة والمغاربة من القرن الرابع الى العاشر الهجري الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1975.

■ شلبي أحمد:

تاريخ التربية الإسلامية مكتبة النهضة المصرية 1973.

■ الصغير عبد المجيد:

ـ اشكالية اصلاح الفكر الصوفي في القرنين 18 و 19 منشورات دار الافاق الجديدة المغرب 1988.

■ الطاهري أحمد:

ـ عامة قرطبة في عصر الخلافة منشورات عكاظ الرباط 1988.

■ طرخان ابراهيم:

دولة المماليك الجراكسة القاهرة 1960.

■ الطمار محمد بن عمرو:

- تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1969 و 1973.

- الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983.

- تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

■ عارف عبد الغني:

- نظم الاستخبارات عند العرب والمسلمين دار الهدى عين مليلة الجزائر 1991.

■ عاشور سعيد عبد الفتاح وآخرون:

- تاريخ الحضارة الإسلامية العربية منشورات ذات السلاسل الكويت 1986.

■ العبادي أحمد مختار:

- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس الإسكندرية 1968.

- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1969.

- الصقالبة في اسبانيا وعلاقاتهم بحركة الشعوبية مدريد 1953.

■ عبد الحسين مهدي الرحيم:

- الخدمات العامة في بغداد (600 ـ 656 ـ 1009 ـ 1258) دار الشؤون الثقافية العامة بغداد 1987.

■ **عبد الحميد سعد زغلول :**

ـ تاريخ المغرب العربي من الفتح الى بداية عصور الاستقلال ، منشأة المعارف بالاسكندرية الإسكندرية 1979 .

■ **علام عبد الله علي :**

ـ الدعوة الموحدية ، دار المعارف القاهرة 1964 .

ـ الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي دار المعارف بمصر 1971 .

■ **عمر مصطفى أبو ضيف أحمد :**

ـ القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين وبني مرين ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982 .

■ **عنان محمد عبد الله :**

ـ نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين القاهرة 1949 .

ـ عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس الجزء الثاني القاهرة 1964 .

■ **عوض الله الشيخ الأمين :**

ـ تجارة القوافل بين الغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن (16م) المنظمة العربية للثقافة والعلوم بغداد 1984 .

■ **عيسى أحمد :**

ـ تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، دار الرائد العربي بيروت 1981 .

■ فروخ عمر:

- تاريخ الفكر العربي منشورات المكتب التجاري بيروت 1962 .

■ فهمي نعيم زكي :

- طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب في العصور الوسطى الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1973 .

■ فيلالي عبد العزيز:

- العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982 .

- المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس. دار المعارف للطباعة والنشر سوسة تونس 1991 .

■ القبلي محمد :

- مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط. دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 1987 .

■ قسوم عبد الرزاق :

- عبد الرحمان الثعالبي والتصوف الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1978 .

■ كحالة عمر رضا :

- معجم لقبائل العرب القديمة والحديثة ثلاثة أجزاء بيروت 1968 .

- دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية، المطبعة التعاونية دمشق 1973 .

- معجم المؤلفين الجزء السادس دار إحياء التراث العربي بيروت .

■ كنون عبد الله :

النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 1961 .

■ لقبال موسى :

ـ الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي (نشأتها وتطورها). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1971 .

■ ماجد عبد المنعم وآخرون :

ـ بحوث في تاريخ الحضارة الاسلامية ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى أحمد فكري مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية 1983 .

■ المجدوب البشير:

حول مفهوم النثر الفني عند القدامي الدار العربية للكتاب تونس ليبيا 1982 .

■ محفوظ علي :

الإبداع في مطار الابتداع دار الاعتصام 1956 .

■ محمد ماء العينين الإدريسي الشنجيطي :

الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنجيط وعربية المغاربة من مركب وبيسط القاهرة 1957 .

■محمود اسماعيل :

- فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية مكتبة مدبولي القاهرة 1988 .

■ المدني أحمد توفيق :

- حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر.

- كتاب الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989 .

■ المطوي محمد العروسي :

- السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الاسلامي دار الغرب الإسلامي بيروت 1986 .

■ المنوني محمد :

- حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر الدار البيضاء 1989 .

- تاريخ الوراقة المغربية منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط 1991 .

- ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط .

■ المؤذن عبد الرحمن :

- الرحلة الحجية مصدر من مصادر التاريخ الإجتماعي المغربي ضمن كتاب النهضة والتراكم الدار البيضاء 1986 .

■ النجار عبد المجيد :

ـ المهدي بن تومرت ، حياته وأراؤه وثورته الفكرية والإجتماعية وأثره في المغرب دار الغرب الإسلامي بيروت 1983 .

■ نويهض عادل :

ـ معجم اعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر.

مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر بيروت 1983 .

■ الوراكلي حسن :

ـ المشيخة العلمية في المغرب والأندلس خلال القرن الثامن الهجري طنجة 1990 .

ـ اشارات اجتماعية واقتصادية عن مدينة المرية من خلال مصدر فقهي طنجة 1990 .

■ وهبة محمد وصاحبه :

ـ معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب مكتبة لبنان 1984 .

■ يعلي صالح أحمد واخرون :

ـ تاريخ الحضارة العربية الإسلامية مطبعة وزارة التربية بغداد 1977 .

المراجع المعربة :

■ **برونشفيك روبير:**

تاريخ افريقية في العهد الحفصي إلى القرن 15 م جزءان نقله الى العربية حمادي الساحلي دار الغرب الاسلامي بيروت 1988 .

■ **بروفنسال ليفي :**

- مجموعة رسائل موحدية الرباط 1941 .
- المدن والنظم المدينة في المغرب الاسلامي ترجمة عبد الهادي شعيرة ومراجعة عبد الحميد العبادي المطبعة الأميرية القاهرة 1951 .
- الاسلام في المغرب والأندلس ترجمة عبد العزيز سالم ومحمد صالح الدين حلمي القاهرة بدون تاريخ .

■ **برجستراسر:**

- التطور النحوي للغة العربية (سلسلة محاضرات ألقاها في الجامعة العربية) مطبعة السماح القاهرة 1929 .

■ **بريان أندري وآخرون :**

- الجزائر بين الماضي والحاضر ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984 .

■ **بورويبة رشيد :**

- ابن تومرت ، ترجمة عبد الحميد حاجيات ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982 .

■ بيل ألفريد :

- الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1987 .

■ جواتياين . س . د :

- دراسات في التاريخ والنظم الاسلامية تعريب وتحقيق عطية القوصي الكويت 1980 .

■ جوليان شارل أندري :

- تاريخ افريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي وبشير سلامة الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1969 .

■ الدولاتلي عبد العزيز:

- مدينة تونس في العهد الحفصي، تعريب محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتلي دار شراس للنشر تونس 1981 .

■ الدومنيك سرديل :

- الحضارة العربية في عصرها الذهبي ترجمة حسن رينة دار الحقيقة بيروت 1980 .

■ كاهين كلود:

- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ترجمة بدر الدين قاسم

دار الحقيقة بيروت 1977 .

■لوتورنو روجي :

ـ فاس في عصر بني مرين، ترجمة نقولا زيادة مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بيروت نيويورك 1967 .

ـ حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ترجمة أمين الطيبي الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1982 .

■لومبار موريس :

ـ الاسلام في مجده الأول ترجمة وتعليق اسماعيل العربي الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1979.

■ماير (ل . أ)

ـ الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي مراجعة وتقديم عبد الرحمان فهمي محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1972 .

■متز آدم :

ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جزءان ترجمة محمد الهادي أبو ريدة الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 .

■هوبكنز (ح . ف . ب) :

ـ النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى نقله عن الإنجليزية أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1980 .

الرسائل الجامعية:

■ **ابن حمدة عبد المجيد :**

- ثقافة المجتمع القيرواني في القرن الثالث الهجري مع عناية خاصة بسعيد الحداد وآثاره دكتوراه الدور الثالث كلية الآداب قسم الفلسفة الجزائر 1972 .

■ **ابن حميد أحمد :**

- القواعد للمقري دكتوراه الدولة جامعة أم القرى مكة 1404 هـ.

■ **ابن عميرة بشارى :**

- التجارة الخارجية في عهد الدولة الزيانية ماجستير معهد التاريخ جامعة الجزائر 1987 .

■ **اخوان زهراء :**

- مظاهر التطور الاقتصادي والعمراني في مغرب القرن(16) د. د. ع. كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط 1984 .

■ **اسكان الحسن :**

- جوانب من تاريخ التعليم في المغرب الوسيط من القرن(7) الى القرن (9) د. د. ع كلية العلوم الانسانية 1988 .

■ **بلغيث محمد الامين :**

- الربط بالمغرب الاسلامي، ودورها في عصري المرابطين والموحدين ماجستير معهد التاريخ جامعة الجزائر 1987 .

■ بن ميرة عمر:

- النوازل والمجتمع، مساهمة في دراسة البادية بالمغرب الوسيط القرنين (8-9) هـ د. د. ع كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط 1989.

■ بوحلاسة نوار:

- الشعر الزياني (633 - 962 هـ) ماجستير معهد الآداب واللغة العربية جامعة قسنطينة 1989.

■ بوزيان الدراجي:

- تطور نظم الحكم والرسوم في دولة بني عبد الواد (633- 791 هـ) معهد التاريخ جامعة الجزائر 1981.

- العصبية القبلية واثارها على النظام والعلاقات في المغرب الإسلامي ماجستير - معهد التاريخ جامعة الجزائر 1987.

■ توات طاهر:

- ابن خميس شعره ونثره ماجستير معهد اللغة والأدب العربي جامعة تيزي وزو 1983.

■ الحساني مختار:

- الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية في الدولة الزيانية ماجستير معهد التاريخ جامعة الجزائر 1987.

■ الحسني شاهدي:

- الرحلة في العصر المريني د.د.ع كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس الرباط 1985.

■ زايد عبد المرضي محمد عطورة:

- دولة بني زيان بالمغرب ماجستير كلية الآداب جامعة القاهرة 1982.

■ زلاقي محمد:

- شعر المولديات في المغرب العربي الإسلامي ماجستير كلية الآداب جامعة عين شمس القاهرة 1990.

■ سلامي رشيد:

- وثائق مرينية مراسلات معاهدات ظهائر (د.د.ع) كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط 1989.

■ الشتيوي أحمد:

- مظاهر الحضارة من خلال رحلات المغاربة والأندلسيين وثقافتهم بين القرنين السادس والثاني عشر الهجري (12 ـ 18) جزءان دكتوراه دولة كلية الآداب جامعة تونس 1988.

■ شتيوي جميلة:

- واسطة السلوك في سياسة الملوك لأبي حمو موسى الزياني (دراسة وتحقيق) شهادة الكفاءة والبحث كلية الآداب جامعة تونس 1989.

■ عامر فخر الدين محمد يوسف:

- مدرسة الثعالبي في التراجم والدارسات الأدبية دكتوراه دولة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1988.

■ عبدلي الأخضر:

- مملكة تلمسان في عهد بني زيان، شهادة التعمق في البحث المرحلة الثالثة، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية تونس 1987.

■ عزاوي محمد:

- مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية جزءان د.د.ع كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط 1985.

■ عليوان اسعيد:

- محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق (دراسة وتحقيق) دكتوراه الحلقة الثالثة، معهد الفلسفة جامعة الجزائر 1987.

■ قربيز محمد:

- الشعر الصوفي في الأندلس، في عصر المرابطين والموحدين، ماجستير قسم اللغة العربية جامعة حلب 1986.

■ قريشي أحمد عبد القادر:

- الحياة الأدبية في تلمسان في القرن الثامن الهجري (14 م) ماجستير كلية الآداب جامعة الأردن 1988.

■ قدور أحمد:

ـ المدن الموحدية وعلاقاتها بالإقليم، دراسة اجتماعية اقتصادية د. د. ع جزءان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1988.

■ قدور عبد المجيد:

ـ هجرة الأندلسيين الى المغرب الأوسط ونتائجها الحضارية خلال القرنين 16 و17 م (10 ـ 11) هـ ماجستير معهد الحضارة الاسلامية جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية بدون تاريخ.

■ مبارك رضوان:

ـ المذهب المالكي بالمغرب في عهد المرابطين والموحدين د. د. ع كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1987.

■ مطيع محمد:

ـ كفاية المحتاج من ليس في الديباج لأحمد بابا التنبكتي (جزءان) دراسة وتحقيق د. د. ع كلية الآداب والعلوم الاإنسانية الرباط 1987.

■ ناصح محمد:

ـ جوانب من الحياة الاقتصادية والإجتماعية للمغرب في العصر الوسيط القرن 6 هـ / 12 م د. د. ع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1988.

■ يخلف رمضان:

ـ عبد الرحمن الثعالبي منهجه في التفسير ماجستير معهد أصول الدين شعبة الكتاب والسنة جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية قسنطينة 1992.

الدوريات :

■ **أمين حسين :**

- المسجد وأثره في تطوير التعليم، مجلة دراسات تاريخية العدد 5 دمشق تموز 1981 .

■ **بلغراد محمد :**

تلمسان مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975 .

■ **ابن هشنهو عبد المجيد :**

- أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة، دفين تلمسان أم فاس مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975 .

■ **بن عبد الله عبد العزيز:**

- المولد النبوي واحتفال شعراء المغرب وعلماء المغرب بذكراه مجلة دعوة الحق العدد (277) الرباط ديسمبر 1989 .

■ **بنين أحمد شوقي :**

- وظيفة القيم في تاريخ الخزانة المغربية، مجلة دعوة الحق عدد (249) رمضان 1405 يوليو 1985 .

■ **بورويبة رشيد :**

- جولة عبر مساجد تلمسان، مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975 .

■ البوعبدلي المهدي :

ـ أبو عبد الله بن خميس التلمساني (650ـ 708ـ 1253ـ1309) . مجلة الأصالة السنة(6) العدد 49ـ50 سبتمبر / أكتوبر 1977 .

ـ أهم الأحداث الفكرية بتلمسان والمغرب عبر التاريخ . مجلة الأصالة العدد (26) السنة (4) جويلية / أوت 1975 .

■ بوعياد محمود :

ـ رحالة مصري يزور الجزائر في القرن (9) هـ 15 م مجلة الأصالة العدد (26)1975 .

■ التازي عبد الهادي :

ـ لماذا عيد المولد النبوي في المغرب الاسلامي ، والأسباب التي كانت وراءه ، مجلة دعوة الحق العدد (277)الرباط ديسمبر 1989 .

■ التركي عبد المجيد :

ـ وثائق عن الهجرة الأندلسية الأخيرة الى تونس ، فصلة من حوليات الجامعة التونسية العدد الرابع المطبعة الرسمية التونسية سنة 1967 .

■ التواتي عبد الكريم :

ـ مظاهر الثقافة والفكر لعهد بني مرين ، مجلة دعوة الحق العدد(249)الرباط يوليو 1985 .

■ جلول البدوي أحمد :

ـ الشريف بن عبد الله التلمساني ، مجلة الأصالة ، العدد(4)أكتوبر 1971 .

■الجيلالي الحسين بولقطيب :

ـ حول مسألة الجنس بمغرب العصر الأوسط، مقدمات من أجل بحث دراسات عربية العدد10ـ11ـ12 السنة 29 أغسطس / أكتوبر 1993 .

■ حاجيات عبد المجيد :

ـ السلطان أبو حمو موسى الثاني، مجلة التاريخ وحضارة المغرب، العدد(5) يوليو 1968 .

ـ الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975 .

ـ مساهمة المغرب العربي في ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، مجلة دراسات تاريخية العدد(7) دمشق يناير 1982 .

■ حركات ابراهيم :

ـ الصلاة الفكرية بين تلمسان والمغرب، مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975 .

■ حنا عبد الله :

ـ تحركات العامة الدمشقية، مقال بمجلة الطريق العدد(3) و(4) سنة 1984 .

■ الخلادي عبد القادر:

ـ أبو مدين الغوث دفين تلمسان، الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975 .

■ دهينة عطا الله :

ـ مساعدات الزيانيين لمسلمي الأندلس، مجلة التاريخ العدد(13) الجزائر 1976 .

■ زيادية عبد القادر:

ـ التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي، مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975.

■ زكريا مفدي:

ـ النشاط العقلي والتقدم الحضاري للجزائر في عهد الزيانيين، مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975.

■ زمامة عبد القادر:

ـ المقري الجد، الأصالة العدد (2) السنة 1965

ـ الحقائق والرقائق مجلة دعوة الحق (08) السنة 09 صفر 1386.

■ زيغود علي:

ـ من صياغات التربية ونفسانية المتعلم في الفكر العربي الإسلامي مجلة الفكر العربي العدد 19 السنة 1981.

■ سلطان سامي:

ـ الجاليات الايطالية، مجلة سيرتا (6) العدد (10) أفريل 1988.

■ السوسي محمد:

ـ عالم رياضي اندلسي مجلة حوليات الجامعة التونسية عدد (9) 1972.

■ الشريف ماهر محمد:

ـ لسان الدين بن الخطيب تراثه الفكري في تلمسان، مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975.

■ صاري الجيلالي:

ـ أضواء على أحد موانىء دولة بني زيان، «هنين» مجلة التاريخ رقم 21 النصف الأول من سنة 1986.

■ الطالبي محمد:

ـ الهجرة الأندلسية الى إفريقية أيام الحفصيين مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975.

■ الطيبي أمين توفيق:

ـ رسالة الجنيزة، مركز الدراسات والبحوث جامعة وهران نوفمبر 1983.

ـ الاغزاز وقدومهم إلى بلاد المغرب والأندلس، مجلة البحوث التاريخية منشورات جامعة الفاتح السنة (5) العدد (2) طرابلس يونيو 1983.

■ عبد الحميد سعد زغلول:

ـ العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور ـ مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية مجلد 6/ 7 الاسكندرية 1953.

■ الفاسي علال:

ـ التصوف الاسلامي في المغرب، مجلة الثقافة المغربية عدد (1) ينابر فبراير 1970.

■ القاضي وداد :

- النظرية السياسية للسلطان أبي حمو الزياني الثاني، ومكانتها بين النظريات السياسية المعاصرة، الأصالة العدد (27) سبتمبر / أكتوبر 1975 .

■ مرتاض عبد المالك :

- حركة الشعر المولدي في تلمسان في عهد أبي حمو موسى الثاني الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975 .

■ مرزوق محمد :

- الجالية الاندلسية بالمغرب العربي (تونس والجزائر) المجلة التاريخية المغاربية العدد (13) نوفمبر 1986 .

■ مزين محمد :

- التاريخ المغربي ومشاكل المصادر (نموذج النوازل) مجلة كلية الآداب العدد (2) الرباط 1985 .

■ مكي الطاهر أحمد :

- المقري التلمساني مجلة الأصالة السنة (4) العدد (26) جويلية / أوت 1975 .

■ مكي محمود علي :

- كتاب احكام السوق ليحي عمر الاندلسي، مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية مجلد (4) العدد (1ـ2) مدريد 1957 .

■ المنوني محمد:

- منهجية التعليم في الإسلام مجلة دعوة الحق العدد(1) يناير 1979.

- خطة الحسبة المغرب مجلة المناهل عدد 14 مارس 1979.

- دور الأوقاف المغربية في التكامل الاجتماعي عبر عصر بني مرين 557 ـ 869 دعوة الحق 230 يوليوز غشت 1983.

- نشاط الدراسات الرياضية في مغرب العصر الوسيط الرابع (عصر بني مرين) مجلة المناهل العدد 33 السنة 12 ديسمبر 1985.

- ترجمة مغربية لفهرس الاسكوريال مجلة البحث العلمي العدد (6) سبتمبر ديسمبر 1985.

التيارات الفكرية في المغرب المريني مجلة الثقافة المغربية عدد(5).

- الحياة الأدبية في العصر المريني الأول، دعوة الحق العدد 254 افريل ماي الرباط 1986.

■ هوداس (و):

- محاولة في الخط المغربي تعريب عبد المجيد التركي الحوليات التونسية العدد (3) سنة 1966.

المراجع الأجنبية :

Abdalwahab (H.H) et Dachraoui:

- Le régime foncier en sicilc au moyen- age (IX et X. S) ed. et trd. d'une chapitre de " Kitab" Al- Amwal" d'Aldawdi" dans études d'orientalisme dédiées à la mémoire de levi provençal Paris 1962.

Abdalwahab (H.H) :

- Coup d'œil général sur les apports ethniques en Tunisie, cahier de Tunisie Tunis 1970.

Abou - NNasr (Gamal) :

- A. History of the Maghrib, Combridge Bt the university press 1971.

Al - - Abbadi (A . M) :

- El reine de granada en la epoca du Mohamed 5 Madrid 1973.

Alemany :

- Milicios Cristina al servicia de los sultanes musulmanes del al- Maghreb homenoje a cordera saragosse 1904.

Arie (Rachel) :

- L' Espagne Musulmane au temps de Nasrides (1232 - 1492) edition E. de Boccard Paris 1973

- un opcule grenadin sur la peste noire de 1348 la " Nasiha" de mohamed saquiri Boltin de la sociacion Espagnola de orientalistas 1967.

Barges (L. J. J. L) :

- Histoire des Beni Zeiyan rois de Tlemcen; Paris 1852.

-Tlemcen ancienne capitale de royaume de ce nom, sa topographie son histoire Paris 1859.

- Complement de l'histoire des beni - Zeiyan rois de Tlemcen. Enest laroux librairie Paris 1887.

Basset (R) :

- Nedromah et les Traras Paris E. leroux 1901.

Bel (Alfred) :

- Le sufisme en occident musulman au 12 e au 13 ème siecle de J . C annales de l'institut d' études orientales T . 1 année Alger 1934 - 1935 .

- Une Epitaphe Tlemcenienne de 15 éme siècle de J. C premier congrés de la fédération des sociétés savantes de l' Afrique du Nord N° (10 - 11) Alger juin 1935.

- Les fêtes de robb à tlemcen Paris 1935 .

- Tlemcen et ses environs.

- Les inscriptions arabes de fés . J . A . 1918.

Belhamissi (M) :

- Histore de Mazouna (des origines à nos jours) S. N. E . D Alger 1981.

Bencheneb (S) :

- Un contrat de Mariage Algérois. annales de l'institut d'études orientales TXIII Alger 1955.

Benhadji (Serradji) :

- Quelques Usages féminins et populaire à Tlemcen . I.B.L.A. N ° 55 3 ème semestre 1951.

Berque (J) :

- les Nawwazils Al Muzaraà d'aprés le Miyar Al Jadid 1938.

Boissonnade (P) :

- Les relations commerciales de la france meridionale avec l' Afrique du Nord ou Maghreb du XII au XV ème siècle, études historiques et économiques, imp. nationale, Paris 1930 .

Bourouiba (R) :

- L' Art religieux musulman Algérie du XI au XIV siecle . Thése de doctorat d'état faculté des lettres et des sciences humaines d'Aix en provence 1969.
- L' Architécture militaire de l' Algérie medièvale Alger 1983.
- Les inscriptions commemoratives des Mosquées d' Algérie . O. P U Alger 1984 .

Brandel (F) :

- Les Espagnoles et l' Afrique du Nord de 1492 / 1577 R . A . 1928.

Broslard (charles) :

- Les inscriptions arabes de Tlemcen, Revue Africaine N° 14 - 3 éme année 1859 Alger.
- Coudée royale, in Revue Africaine n° 19 T 4 année 1859 Alger 1960.

Brunshvig (R) :

- Deux récits de voyages inedits en Afrique du Nord au XV siècle Abdelbassit B. Hillal et Adore Paris 1936.
- Un calife hafside meconnu . Rev .Tunisienne 1930 .
- La Berberie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XV siecle. 2 Tomes librairie d'Amirique et d'orient, Adrien Maisonneuve Paris 1947.

Coudray (A) :

- Relations commerciales de Tlemcen avec la Sahara et le soudan, Bultin de la societé de géographie 2 éme année Alger 1887.

Devisse (Jean) :

Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale. En relation avec la méditerrannée, un essai sur le commerce Africain médieval du XI au XVI siècle revue d'histoire economique et sociale . N° 1 . et 2 , Paris 1972 / 1973.

Dhima (A) :

- Le Royaume Abdelouadide à l' époque d' Abou Hamou Moussa 1 er et d'Abou Tachfin 1 er O.P.U / E.N.A.L Alger.

Les Etats de l'occident musulman aux XIII et XIV et XV ème siècle, institutions gouvernementales et Administratives O.P.U / E.NA.L Alger 1984.

Dhina (Amar) :

- Cités musulmanes d'orient et d'occident E. N.A.L Alger 1986.

Dozy (R) :

- Supplement au dictionnaire arabe . 2 tomes libraire du Liban Beiyrouth 1981.

- Histoire des Musulmans d' Espagne 2 vls . ed . levi proverçal . leyden 1932.

Dufoursq (ch. E) :

- Traité Aragono Tlemcenien de 1286 trd . Dufourcq in bultin de la société de géographie et d'archeologique d'Oran 1967 .

_ Route de l'or in bultin d'information historique de la faculté des lettres n ° 3 Alger 1966.

- Prix et niveaux de vie dans les pays catalans et Meghrebins à la fin du XIII et au debut du XIV siecle . Extrait de la revue la moyen age N ° 3 - 4 / 1965.

- L ' espagne catalane et le magreb au XIII et XIV siècle de la bataille de los

Navas de tolosa 1212 à l' évenement du sultan merinide Abou- L . Hassan 1331 presse universitaire de france paris 1966 .

El Bekri (Abou obeide) :

- Description de l' Afrique septentrionale trd par Deslane . Libraire d' Amirique et d' Orient, Adrien Maisonneuve paris 1965.

Fournel (H) :

- Les berberes études sur la conquête de l' Afrique du Nord par les arabes, Paris 1927 .

Gautier (E . F) :

- Le passé de l' Afrique du Nord , les siècles obscur , paris 1952 .

Gat (E) :

- Petite Histoire de l' Algérie . Tunisie . Maroc avant 1830 , T 1 Adolph Jourdan librairie Alger 1888 .

Golvin (L) :

- Note sur le mot "ribat" (terme d'architecture) et son interprétation en occident musulman Revue de l' occident musulman . et d e la mediterannée N ° 6 . 1 er et 2 éme semestre AIX en provence 1969 .

Heers (Jacqus) :

- Laa mode et les marchés de laine Genes et la montagnes à la fin du moyen - age annales . E . S. C . 26 éme année N° 5 septembre - octobre 1971.

(1) Huici Miranda (A) :

- Grandes Batallas de la reconquista durante las invationnes africainas madrid 1956 .

(2) **Ibn Khaldan (Y) :**

- Histoire des beni Abdelwaded - et trad par Alfred Bel / 2 Tomes Alger 1903 - 1913.

(3) **Ibn Maryam :**

- El Bostan ou jardin des biographies des Saints et savant, de Tlemcen, trad, et ann par. 1. Provenzali, Alger 1910.

(4) **Idris (H. R) :**

- Contribution à l 'étude de la vie éconmique en occident musulman medieval, glanes de données chiffrés, revue occident musulman et de la mediterranée N ° 15 é 16 AIX en provence 2 éme semestre 1973.

- Le Mariage en occident musulman ; analyse de " Fatwas " medievale, extrait du " Miyar " d' alwancharichi, Revue de l' occident musulman et de la méditerranée N ° 12, 2 éme semestre 1974.

- Contribution à l 'histoire de la vie religieuse en Ifriquiya - Zirid X . XI siécle - dans mélange Massignon (L) I . II:

- La bèrberie orientale sans les Zirides X -- XII e s, 2 vls . Paris 1962.

(5) **Julien (ch . A) :**

- Histoire de L ' Afrique du Nord Paris 1931 ed . T . II Paris, 1952.

(6) **Kably (M) :**

- Societé pouvoir et religion au Maroc des Merinides aux wattasides XIV et XV ème siècle, thèse de doctorat d' état et lettre université de Paris I Pantheon sorbonne 1984.

(8) **lacoste (y) :**

- Ibn Khaldoun, Maspero Paris 1966.

(8) lambercs (R) :

- Tlemcen: Continuity and change in an Algerian islamic town London New york 1976.

- Laboratoire d'histoire (U.O).

- Actes du 3 éme congrés d'histoire de la civilisation du maghreb (Oran) 26 . 27 .28 Novembre 1993 , 2 tome O. P . U Alger .

(9) Laroui (A) :

- L 'histoire du Maghreb un essai de synthèse Français Masperi Paris 1982.

(10) latham (J. d) :

- Towards a study of Andalusian immigration and its place Tunisian history dans cahier de Tunisie N ° 19 - 20 /1957.

(11) Leon Africain :

- Discription de l'Afrique, 2 tomes, nouvelle . ed . traduite de l 'Italien par A . Epaulard. Paris 1950 .

(12) Leon fey (H) :

- Histoire d'Oran avant pendant et aprés la domination Espagnole Oran 1858.

(13) Le Tourneau (R) :

- L'évolution des villes musulmanes d' Afrique du Nord au contact de l' occident, annales de l'institut des études orientales tome XII année 1954.

- L' Islam No -Africain, in Annales de l'institut d'études orientales facultés des lettres tome XV Alger Année 1957.

- Les villes musulmanes de l' Afrique du Nord Alger 1957.

- " Agadirn E. I . nell ed . T . I .

(14) **Loukil (y) :**

- Monographie de Mazouna Alger 1912.

(15) **Marcais (W . et G) :**

- Les monuments arabes de Tlemcen librairie Thorin Paris 1903.

(16) **Marcais (W) :**

- Le dialecte arabe parlé à Tlemcen Paris 1903 .

(17) **Marcais (G) :**

- Les arabes en berbèrie du XI à XIV siècle Constantine Paris 1913.
- Note sur l 'Epitaphe d'un savant Tlemcenien, " Abou Moussa " fils de " l 'Imam " , Revue Africaine Alger Jourdan 1818.

(18) **Marcais (G) :**

- Tlemcen E . I nelle ed . T . 3 .
- Les Medersas funeraires en Berberie; in Melanges Gandefroy Demanbegne.
- L' Architecture musulmane d'occident . Paris 1955.
- Tlemcen ville d'art et d' histoire, publié par les soins de la société historique Algérienne tome 1 Alger 1936.
- L'urbanisme musulmane. (5 ème congrès des sociétés savantes d'Afrique Tunis 1939) Alger societés historique Algérienne 1940 .
- Cinquième congrés de la fèderation des sociétés savantes de l' Afrique du Nord . Tunisie 6 - 8 Avril 1939 Alger 1940.
- La berberie musulmane et l'orient au moyen - age paris 1946 .
- Sur la grande Mosquée de Tlemcen . A . I . E . O 1949.
- Tlemcen (coll . les villes d'art cèlebres) Paris 1950.
- Tlemcen et le commerce Eurafricain au moyen age dans eurafrique juillet Alger 1953.

- Les villes de la cote Algérienne et la piratrice au moyen age ; annales de l'institut d' études orientales . TXIII. année Alger 1955.

- Algérie médievale paris 1957.

(19) Mautran (R) et autres :

- Les grandes dates de l' Islam ; Entreprise Nationale du Livre ; librairie Larousse paris 1990.

(20) Mariano (G) :

- Colection de Estudias Arabe IV Saragosa 1899.

(21) Marie (gean M) :

- Structure des activités et rôle de deux villes moyennes Algériennes.

- Tlemcen et Saida, thèse de 3 éme cycle ; université de Paris I 1977.

(22) Marmol (K) :

- L'Afrique de Marmole ; de traduction de Nicolas Perrot fien d'Ablancourt divisé en trois volumes chez thomas paris 1617.

Mas - Latrie :

- Traités de prix et de commerce et document divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l ' Afrique septrionale au moyen age . Paris 1872.

Une introduction paginé part ; et un autre Vol . de supplement et tables . Paris 1872.

Mayer (A) :

- Etudes des mœurs des israelites de Tlemcen, Alger 1902.

Pechot (1) :

- Histoire de l' Afrique du Nord avant 1830 . Alger 1919

Pellegrin:

- Le peuplement historique de Tunisie en men . O. M . Y . 1959 .

Pernoud (R) :

- Histoire du commerce de Marseille - le moyen age jusqu' a 1291, tome I librairie plan Paris .

Piesse (L) et Canal (y) :

- Tlemcen ; extrait de la Revue Algérienne Française paris 1889.

Primaudaie ' (F . elie de) :

- La navigation de l' Algérie avant la conquête française, Revue Algérienne et coloniale tome 3 juillet - decembre 1960 .

Provençal (E . L) :

- Le traité d' Ibn Abdoun, extrait du journal du Asiatique Avril - juin; 1934 inprimerie nationale Paris 1934.
- L' Espagne musulmane au 10 siécle institution et vie sociales, Paris 1932 .
- L 'histoire de l' Espagne musulmane 3 vls Paris 1950 .
- Les villes et les institution urbains en occident musulman au moyen - age imprimerie nationale le caire 1951.

Taylor (E. B) :

- Primitive culture, John Murroy London 1861 .

Ricard (P) :

- Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du Nord et en Espagne . Hachette Paris.

Richard . I . Lawlless :

- Tlemcen Capital du Magreb central analyse des fonctions d' une ville islamique médievale ; revue de l' occident musulman et de la mediterrannée N ° 20 2 éme semestre Aix en provencal 1975 .

Sid Ahmed Bouali :

- Les deux grands sièges de Tlemcen E. N. A . L Alger 1984.

Sourdel (D) :

- Reflexions sur la diffusion de la Madersa en orient du XI à XII siecle in l'enseignement en islam et en orient au moyen - age , colloques internationnaux de la Napoule Paris 1977 .

Streck (M) :

- Kayssarya E. I Nelle ed . T . 4 .

Thery (O . P) :

- Tlemcen evolution sur son passé Oran 1945 .

Valensi (L) :

- Le Magreb avant la prise d' Alger 1790 - 1830 ; Paris 1969 .

Verlinden :

- L'Espagne dans le monde Iberique médievale, in anuario histoire derecho Espagnol XI 1934.

Vernet (R) :

- Recherches sur la production et la circulation des céréales dans le Magreb médieval revue d'histoire et de civilisation du Maghreb N° 13 Janvier 1976.

Vryonis (S) :

- Byzantin and Europe London 1967.

Xavier de Planthol :

- The World of Islam New york 1959 .

فهرس الأماكن

«أ»

«ب»

« ت »

« ج »

«ح»

«خ»

« د »

« ر »

« ز »

« س »

« ش »

« ص »

« ط »

« ع »

« غ »

« ف »

« ق »

« ك »

« ل »

« م »

« ن »

« هـ »

« و »

« ي »

فهرس الأعلام

«أ»

«ب»

«ت»

«خ»

«د»

«ذ»

«ر»

«ز»

«س»

«ش»

«ص»

«ط»

«ع»

«ف»

«ق»

«ك»

«ل»

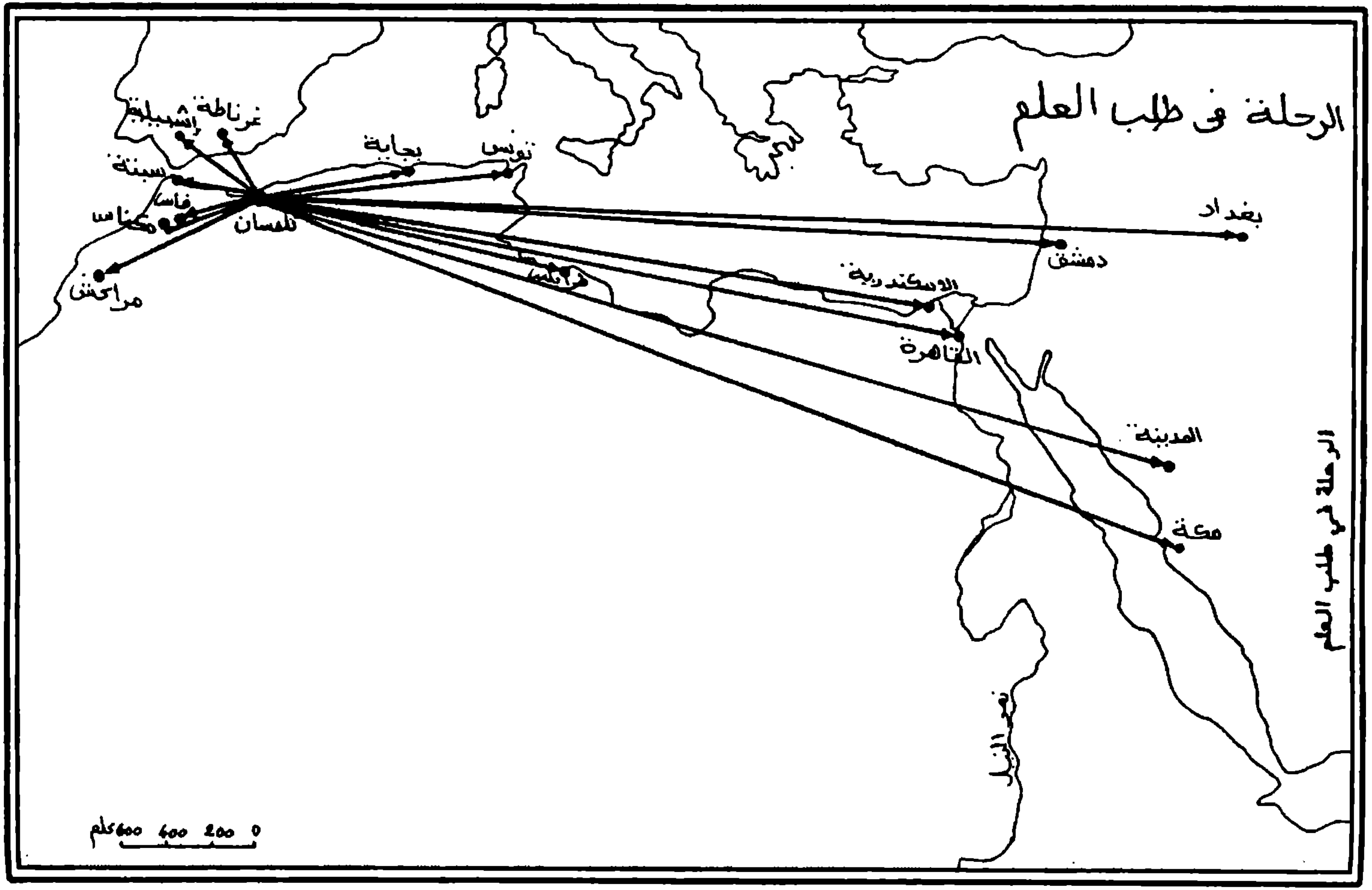
«م»

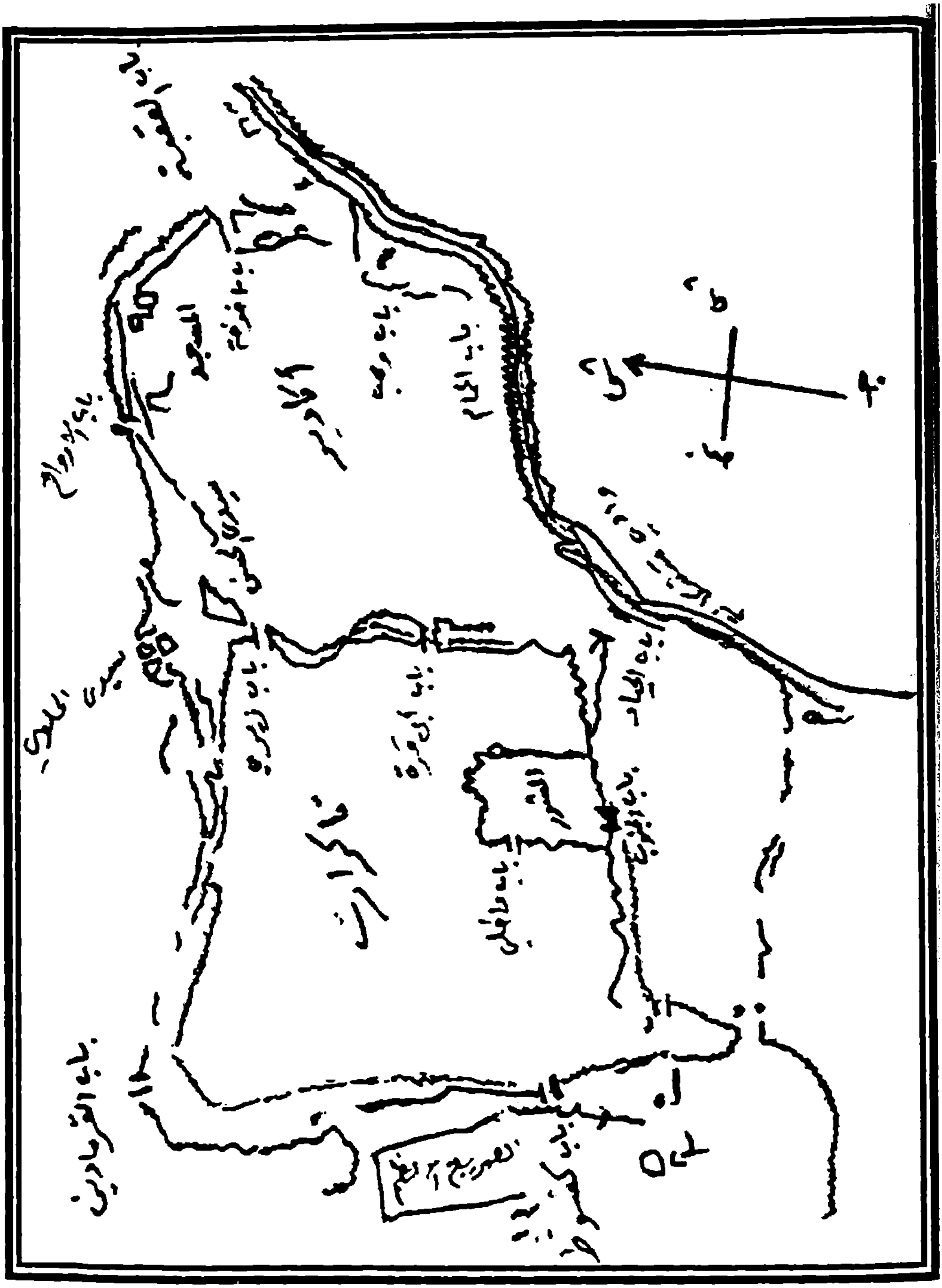
«ن»

«هـ»

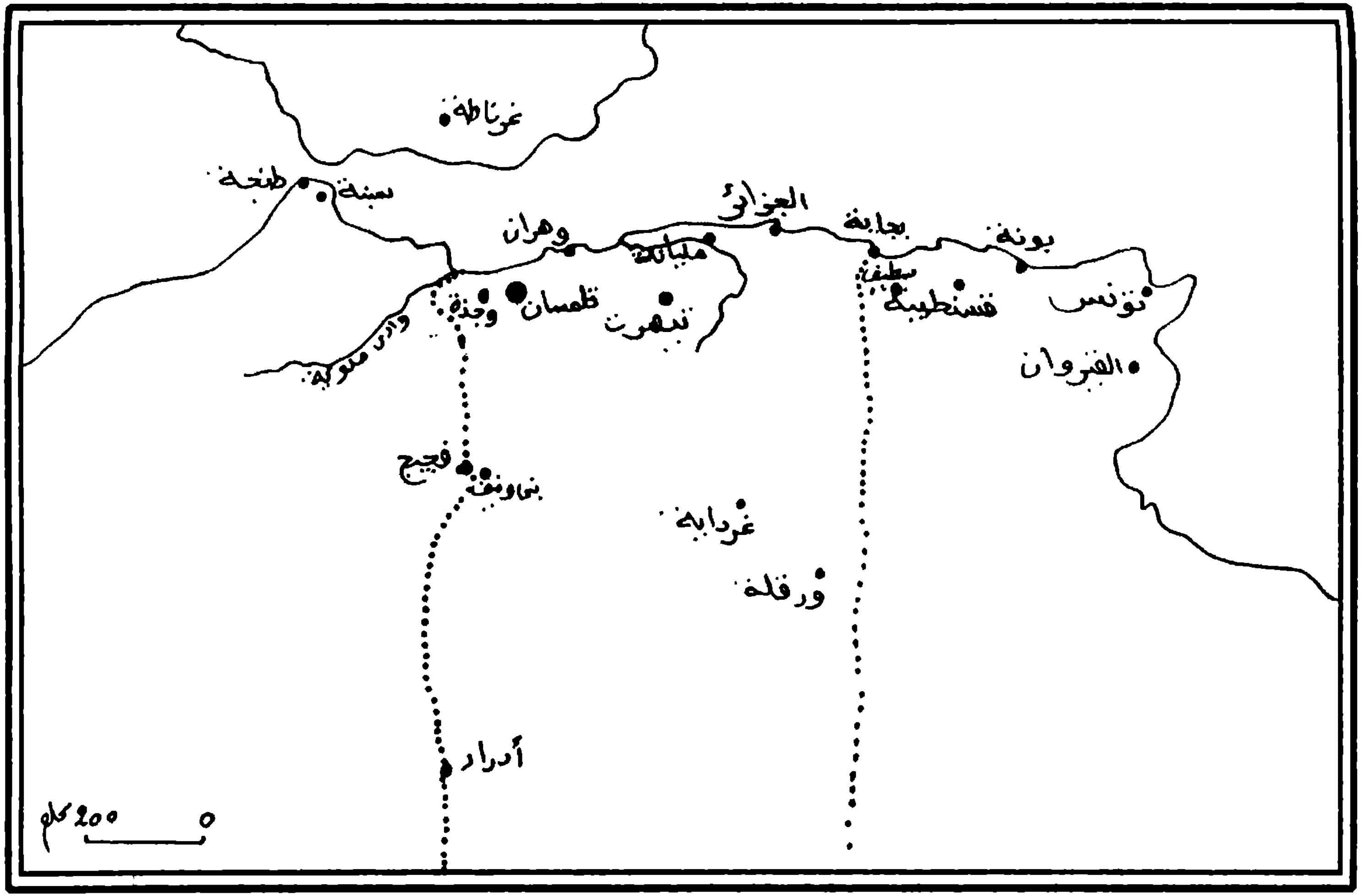
«و»

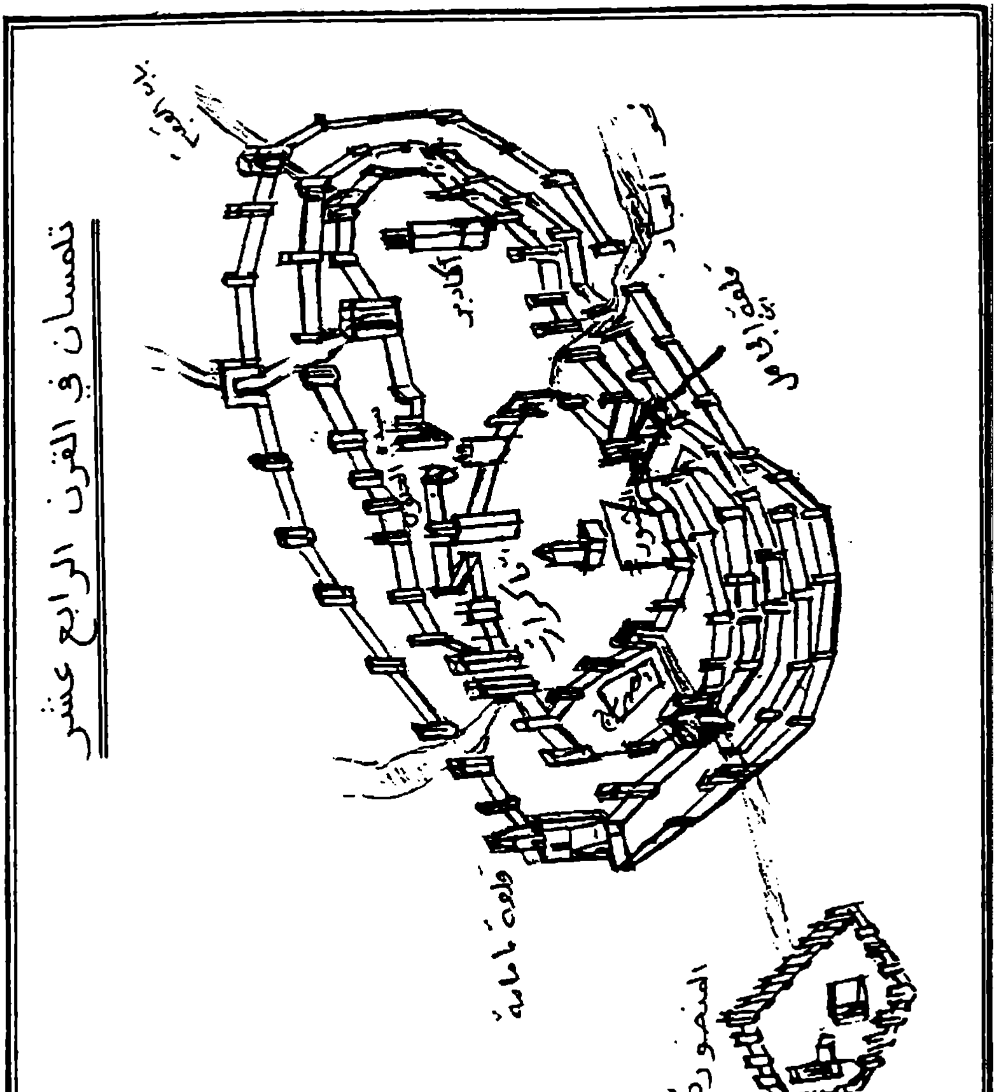
«ي»


الرحلة في طلب العلم
غرناطة
إشبيلية
سبتة
فاس
مكناس
مراكش
تلمسان
بجاية
تونس
بغداد
دمشق
الإسكندرية
القاهرة
المدينة
مكة
نهر النيل
0 200 400 600كلم
الرحلة في طلب العلم

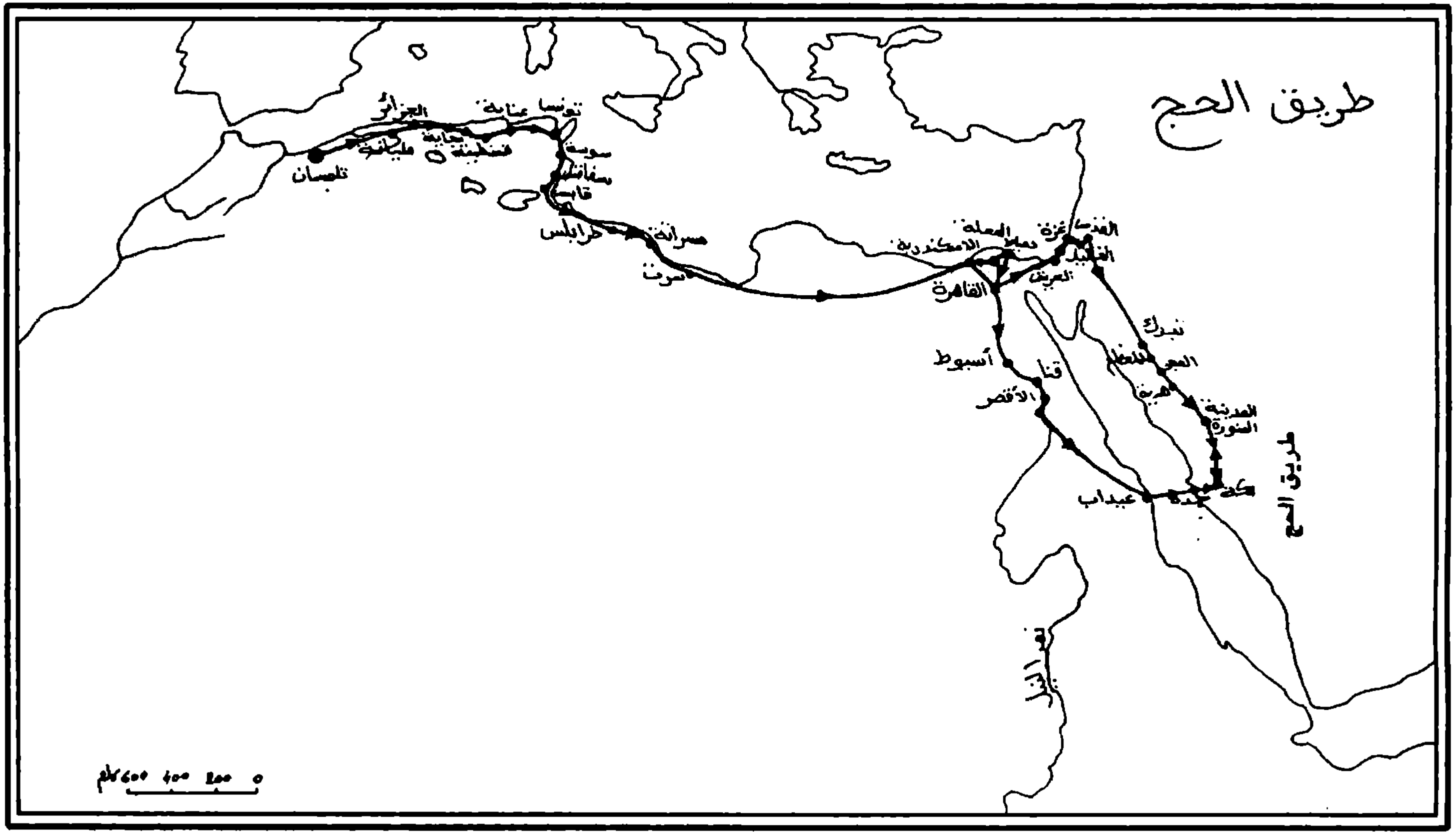


خريطة لمدينة تلمسان في العهد الزياني


غرناطة
طنجة
سبتة
وهران
الجزائر
بجاية
بونة
تونس
القيروان
مليانة
تلمسان
وجدة
تيهرت
سطيف
قسنطينة
وادي ملوية
فجيج
بني ونيف
غرداية
ورقلة
أدرار
0
200 كلم



هذه الأسوار العديدة المحيطة بمدينة تلمسان، جعلت من سكانها يصمدون للحصار نحو تسع سنوات، فقد كان التلمسانيون لا ينامون في الليل ولا في النهار لحراساتها والدفاع عنها.



طريق الحج
تلمسان
مليانة
الجزائر
بجاية
قسنطينة
عنابة
تونس
سوسة
صفاقس
قابس
طرابلس
مسراتة
سرت
الاسكندرية
دمياط
المحلة
غزة
القدس
الخليل
العريش
القاهرة
أسيوط
قنا
الأقصر
عيذاب
جدة
مكة
المدينة المنورة
تبوك
العلا
الحجر
نهر النيل
طريق الحج
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ كلم

الفهرس العام

الباب الأول

الأوضاع الداخلية للدولة الزيانية

الفصل الأول

قيام الدولة ودور القبائل في تدعيمها

الفصل الثاني

عصر التوسع ثم الاضطراب و إحياء الدولة من جديد

الفصل الثالث
الهيمنة الأجنبية ومرحلة الضعف

الباب الثاني
المظاهر العمرانية بتلمسان
الفصل الأول
خطط المدينة وتطورها

الفصل الثاني
البنية العمرانية للمدينة

الفصل الثالث

المرافق العامة

الباب الثالث

الأوضاع الاجتماعية

الفصل الأول

عناصر المجتمع التلمساني

الفصل الثاني

الفئات الإجتماعية وأحوالهم الصحية

الفصل الثالث

الحياة العامة (العادات والتقاليد)

الباب الرابع

مظاهر الحركة الفكرية والتعليمية بتلمسان

الفصل الأول

عوامل نمو الحركة الفكرية والتعليمية بتلمسان

الفصل الثاني
التيارات الفكرية بتلمسان

الفصل الثالث
العلوم النقلية والعلوم العقلية

الأدب

RESUME:

Cette étude est basée essentiellement sur quatre axes fondamentaux: les problèmes politiques, les aspects urbanistique et sociaux et le mouvement intellectuel à Tlemcen pendant l'ère Zianite.

Dans l'édification de son état, Yaghmourassène s' est " s'appuya " sur la tribu Beni Ouadid et d'autres tribus berbères et arabes. Dans cette edification Yaghmourassène n' a pas crée un mouvement religieux doctrinal et reformiste, comme l' ont déjà adopté Abdellah Ben Yacine le Mouravide et El Mehdi Ben Toumert El Mouwahadi.

L' expérience de Yaghmourassène dans le domaine militaire lui permit d'établir la paix malgré les relations de tensions et perturbées avec ses deux pays voisins (à l' est et à l' ouest).

Cette politique exigea de Beni Ziane et de la société Tlemcenienne une vie d'opposition et de résidence sans relache. Pour la sauvegarde de leur indépendance.

Durant l'année 1400 les Beni Ziane purent sauvegarder leurs frontières grâce à leur opposition et leur résistance par la méthode d'insertion des esclaves comme espionnes dans le camp de Beni merrine. De ce fait, ils sont passés du stade défensif à celui de l'offensif arrivant même à menacer les Beni Hafs chez eux, surtout dans l' ère de AbouHamou le premier, Abou Hamou Moussa le second qui ont contribué à l' évolution de Tlemcen au stade de la civilisation.

Au debut du 9 ème siècle de l'hégire Tlemcen connut une crise aux multiples facteurs dûe aux convoitises des sultans pour l'accession au trône, ce qui entraina une guerre civil qui facilita sa colonisation.

Quand Grenade fût tombée aux mains des espagnols, les côtés Maghrebines devenues exposées aux menaces et offensives des espagnols qui à leur tour colonisèrent Tlemcen. Les Habitants de cette ville firent appelà la puissance Othomane Turque qui renversa la dynastie Zianite et qui y s'intalla pendant 3 siècles.

- **Aspects Urbanistiques:**

Tlemcen fût caractérisée par ses facettes topographiques qui lui valurent une défense forte, qui motiva les gens a s'y emigré et la peuplérent. Elle devient un grand centre civilisationnel dans une région rurale. Elle porta trois noms: Akadir , Boumaria et Tlemcen.

Tlemcen de l'ère musulmane traversa plusieurs periodes depuis Abou Mouhadjer, sa ville fût consitituée sous l'influence architecturale musulmane et ses techniques. plus de six écoles, soixante mosquées et un grand nombre de Zaouias, de stades, de cimetières, de ponts et de tunnels furent construits à cette époque.

Tlemcen devint par la suite un grand centre important et vital dans le Magreb central pour les Khaouaridj, Adarissa, Maghraoua et les moravides qui lui associèrent la ville de Takrart.

Les Beni Ziane développèrent l'habitat dans la ville car cela représentait un symbole de force et d'épanouissemt social et civilisationnel. ils costruisirent plus de 16000 maison entourés d'une grande muraille représentant une necessité vitale et un moyen de preservation des habitants et de leurs biens.

- **L' Aspect social:**

Entre les 7 et le 8 siècle d' habitants a atteint plus de 25000 familles de differents origines ethniques dont les arabes et les berbères representaient la majorité; l' exil des minorites andalouses et leur investissement dans la vie scientifique, politique, militaire économique et artistique fût bénéfique au

développement et à la gestion des intitutions de Tlemcen. La nature du milieu Tlemcenien facilita l'integration des differentes races et ce, en minimisant les divergences culturelles et sociales entre la population.

- L' aspect intellectuel et scientifique:

Grace aux facteurs génères par la realité materielle et humaine de la ville de Tlemcen et de son influence negative de la ville politique trouble des Zianite, la vie intellectuelle et scientifique connut une dynamique et un developpement discontinus.

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية، الجزائر
2002
Printed in Algeria



هذا الكتاب :

ترتكز هذه الدراسة على عدة محاور أساسية هي : الأحوال السياسية والعسكرية والخصائص العمرانية والمظاهر الاجتماعية والحركة العلمية والفكرية بمدينة تلمسان الزيانية.

لقد اعتمد بنوزيان في بناء دولتهم على قبيلهم بالدرجة الأولى وعلى بعض القبائل العربية والبربرية، دون أن يوظفوا حركة دينية أو مذهبية أو إصلاحية، كما فعل سابقو هم المرابطون والموحدون، واكتسبوا من كثرة الحروب خبرة كبيرة في مجال البناء والتشييد والتصدي للحصارات دفاعا عن دولتهم وكيانهم.

كما اهتم التلمسانيون بتطوير العمران والتفنن في خصائصه والتوسع فيه لأنه يعد رمزا من رموز قوة الدولة وازدهارها ورقيها حضاريا.

خضع أهل تلمسان مثل غيرهم إلى التقسيم الطبقي الفئوي، أفرزته ظروف المعيشة وسلوك الفرد وطموحاته واجتهاده في الحياة، فإذا كانت الطبقة الفقيرة تعيش حياة العفاف والكفاف، فإن الطبقة الميسورة والمتوسطة تتميزان بالتأنق في الملبس والمأكل والمشرب والمسكن، وتبالغ في الاحتفلالات بالأعياد والمناسبات والأفراح.

شهدت مدينة تلمسان حركة علمية وفكرية دؤوبة، حيث تغذت برادفين ثقافيين هامين، رافد الأندلس ورافد المشرق، فضلا من المشيخة التلمسانية المحلية والمغاربية، فتوسعت بذلك التيارات الفكرية وازدهرت حركة الجدل والمناظرات الشفوية والمكتوبة بين علماء تلمسان وغيرهم. فنبغ فيها أجيال من العلماء تميزوا بعمق التفكير وغزارة التحصيل، ساهموا في النهضة العلمية والفكرية في حواضر المغرب والمشرق والأندلس.

ويعد هذا الكتاب دراسة أكاديمية تحليلية مونوغرافيا واسطوغرافيا عن الحياة في مدينة تلمسان، بتجربة تاريخية دامت نحو ثلاثة قرون.

والكتاب يميط اللثام عن أحداث ووقائع حقيقية نادرة، ويسلط أضواء جديدة إضافية لا يجدها القارىء في الدراسات السابقة، مدعمة بنصوص جديدة تنشر لأول مرة مأخوذة من مضانها الأصلية الدفينة.

والدراسة محاولة لإعادة كتابة تاريخ مدينة تلمسان باستقراء المصادر وفق منهجية علمية حديثة، وإبراز جوانب من التاريخ المسكوت عنه، وتصحيح العديد من القضايا التاريخية والفكرية التي وردت في بعض المصادر القديمة والمراجع الحديثة.

والكتاب في حد ذاته يسد فراغا ونقصا ملحوظين في المكتبة الجزائرية والعربية.